

كتاب في أصول الفقه

في أصول الفقه

في أصول الفقه

كتاب في أصول الفقه



رفیق العظم

أشکھ منشاہ فی الاکمل

فی الحروب والسیاسة

الطبعة الثانية ١٩٧٢ - ١٩٧٣

ملتزم الطبع والمشر
دار الفکر العیسوی

وَلِلْقَوْمِ الْآخِرِ الْغَلَابَةُ

لصاحبها، محمد عبد الرزاق
١٩ كعبته الأمن من ش. الجيش
تليفون ٩٣٤-٩٨٠



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تعريف بالمؤلف

المرحوم رفیق «بك» العظم

هو المرحوم رفیق بن محمود بن خليل العظم وينتهي نسبه عند فارس بك ابن الوزير إبراهيم «باشا» العظم جد الأسرة العظمية الأكبر :

ولد المؤلف بدمشق الشام سنة ١٨٨٢ ميلادية ، ونشأ في مهد المجد والفضائل ، وكان والده رحمه الله شاعراً وأديباً ومؤلفاً من أهل العلم والأدب فنشأ المرحوم رفیق بك على سنة والده وكان شاعراً وأديباً وله مؤلفات عديدة كثير منها لم يطبع بالأسف فعاجله المرض ولم يتمكن من طبعها .

كان المؤلف حاد الذكاء فأخذ مبادئ اللغة العربية عن المرحوم الشيخ توفیق الأيوبي العالم الشهير بدمشق .

وبقوة ذكائه ووفرة مطالعته أصبح في مصاف العلماء المضيفين والشعراء المجيدين فامتلك ناصية القوافي في ميادين الشعر قبل سن العشرين كما جاء في كتاب (أعلام الأدب والفن) للأستاذ أدهم الجندی - وقد رفعته مواهبه إلى مقام الزعماء السياسيين ورجال الأدب والعلم بين المؤرخين .

وكان نسيبه شريف «باشا» الكبير والى سورية وقتئذ ، ولما رآه من أهل العلم والأدب وتوسم فيه الخير والنجابة - أخذه معه إلى مصر عندما أحيل على المعاش ، وكان ذلك في عام ١٨٩٣ ميلادية - ثم مرض مرضاً عصبياً بسبب وفرة الدراسة والمطالعة والسهر - فاضطر إلى ترك المطالعة وسافر إلى الآستانة

ثم عاد إلى دمشق للراحة وتغيير الهواء ، ولما عوفي هجر الشعر ونظمه ، ومال إلى الإنشاء والتأليف ومعاشرة العلماء من أئمة العلم والأدب ، وكانت الأحوال الاجتماعية في البلاد السورية التي تروّح تحت وطأة الحكم التركي في عهد السلطان عبد الحميد ، وهي تختلف عما عليه الحالة الروحية ، والحرية الفكرية في مصر .

ثم سافر إلى مصر للمرة الثانية في عام ١٨٩٥ م . واكتسب من يثمتها الثقافية ما أوقد نباهته ومواهبه فاستوطن مصر وتأهل فيها .

وأخذ يكتب في جريدة الأهرام ثم تابع محاضراته التاريخية والعلمية وخطبه السياسية الشهيرة في الجرائد المصرية كالمؤيد واللواء والأهرام والمقطم ، والمجلات العلمية الكبرى (كالمقتطف والمهلال والمنار والموسوعات) ثم ألف رسالة في كيفية انتشار الأديان ، ثم ألف كتاب الدروس الحكومية فقرر ظله له الإمام الشيخ محمد عبده (مفتي الديار المصرية) وقرر تدريسه في مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية ، ثم ألف كتاب (تنبيه الأفيام) إلى مطالب الحياة الاجتماعية طبع سنة ١٣١٨ هـ . ثم رسالة (العالم الإسلامي وأوروبا) مطبوعة سنة ١٣٢٥ هـ ثم طبعت أخيراً ، ثم استفزه الولع بتاريخ الإسلام إلى وضع تاريخ جديد لمشاهير الإسلام من أهل الحرب والسياسة على غير النمط المعمود عند المسلمين — أي على أسلوب جديد يمثل رجال الإسلام في أجلى مثال — وقد تناول ذلك التاريخ كثيراً من أخبار دول الإسلام الاجتماعية والسياسية ، وأفاض البحث في فلسفة التاريخ الإسلامي على وجه يتضح فيه رجال التاريخ الإسلامي في أجلى مثال ، وقد تناول كثيراً من أخبار دول الإسلام الاجتماعية والسياسية وأفاض البحث في فلسفة التاريخ الإسلامي على وجه يتضح به حال تاريخ الإسلام ، فباشر ذلك التأليف على صعوبته ، فأصدر الجزء الأول في سيرة أبي بكر ومن اشتهر في دولته بتلك السنة تأليفاً وطبعاً ، ثم في أواخرها

أتم الجزء الثاني في سيرة عمر بن الخطاب ، ولشدة البحث والتنقيب في الكتب عاوده في أثناء تأليفه المرض القديم (الربو) فآتمه بكل مشقة ، واستراح نحو ثلاث سنوات ثم كتب الجزء الثالث في سيرة المشهورين في دولة ابن الخطاب وطبعه مع الجزء الرابع . ثم ألف كتاب (السوانح الفكرية) في المباحث العلمية والجامعة الإسلامية .

وقد أوصى رحمه الله بمجموعة آثاره العلمية فأهداها إلى المجمع العلمي العربي بدمشق ، أما الكتب الخطية التي شرع في تأليفها ولم يتمها لمرضه فأولها د أشهر مشاهير الإسلام ، ولم يتمه ولو آتمه على المنهج الذي وضعه لكان من أجل الكتب التي يحتاج إليها المسلمون على الإطلاق . والثاني رسالة في الخلاف بين الترك والعرب ، فيرجى من المجمع العلمي العربي أن يعتنى بإخراج وطبع مؤلفاته الخطية ونشرها ليطلع الناس على آثاره النفيسة وماثره الحميدة .

ثم إن المؤلف من أعظم الرجال الذين قل أن يجود بأمثالهم الزمان . ولم يكن المؤلف عظاميا فحسب بل كان من خيار العظاميين وقادة جيوش العصاميين جمع بين نبل الأرسقراطية الشريفة وحرية الديمقراطية النزينة إذ انتقت فطرته السليمة خيرة الخصال فهو مع شمه وإبائه وعلو جانبه وطهارة يده خال من الغطرسة والنفخخة الفارغة ، ويعتبر من أقطاب الأخلاقيين وأرباب المبادئ السامية الشريفة . وهذه مؤلفاته شاهدة بعلمه وأدبه ، وهي كثيرة وما اطلمت عليه منها كتاب (الدروس الحكيمة) ورسائله في كيفية انتشار الأديان طبعت عام ١٣١٤ هـ . وغيرها من الكتب التي طالعها له رحمه الله وأهمها أشهر مشاهير الإسلام ، وقد ناقش الآثار الشيخ سعيد الباني من العلماء المجتهدين السوريين ناقش هذه الكتب مناقشة طويلة

وحللها تحليلًا وافيا، وهي حرة بالمطالعة كما وردت في مجلة (التمدن الإسلامي في الأجزاء ٢٥ إلى ٢٨ من المجلد ٢٦ صفحة ٥٨٢ الذي ننقل عنه هذا البيان .

ولقد تزوج رحمه الله ولم يرزق ولدا — وهبه الله الشئائل المثالية وتحلى بالآداب الاجتماعية التي عز نظيرها بين البشر في هذا العصر .

أما عزة نفسه وتواضعه ووفائه لأصدقائه وبره بأهله وطهارة قلبه ونزاهة لسانه وحب الخير للناس، وحسن ضيافته، وكثرة تصدقه ومساعداته للجمعيات الخيرية — فتلك سجايا ومناقب لا يستعظم صدورها عن ورث المجد والسؤدد كبرا عن كابر .

ولقد أجهد المؤاف نفسه في المطالعة والتأليف فسمات صحته، واعتزل السياسة وغيرها من الأعمال، واشتد عليه مرض (الربو) وضاعف تصلب الشرايين ضعف القلب، فاختطفه المنون فجأة وهو كوالده المرحوم محمود دبك، في سن السكولة المبكرة - ففقدت الأمة العربية زعيما كبيرا وناطقة حكما ودفن بمصر .

ولو امتد أجله وكان في صحته لأنتج من الآثار والتأليف ما يشق على غيره إخراجها وقد توفي رحمه الله يوم عرفة، فسلام عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حيا .

القاهرة في ١٦/١٢/١٩٧٠

سامي المعظم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أفاض على الإنسان من نور العقل ما شرف به على سائر
المخلوقات . وجعل التفاضل بالعلم مراقبة للبشر آيتها العظمى (ورفع بعضكم
فوق بعض درجات) فانتشروا فى أكناف الأرض يبتغون إلى ذلك الوسيلة .
ويتذرعون إلى السبق فى مضمار الحياة بالأعمال الجليلة . فشيدوا صروح
المدنية فشادوا الممالك ، فنها الموجود ومنها الهالك ، وصلى الله على سيدنا
محمد أعظم البشر بلا مرأ ، ومؤسس الشريعة الإسلامية على دعائم الحرية
والعدالة والإخاء ، الذى دانت لدينه الأمم ، وتضاءلت دون جليل عمله
شواخ القمم ، وعلى آله وأصحابه الذين انتصروا للحق فنصروا شريعته
الغراء ، وخلفائه الذين اهتموا بسفته خفضت لهم الشعوب لارهوة ولا رياء
(أما بعد) فإن الله سبحانه وتعالى منذ دحا الأرض جعلها مضماراً تنسابق
فيه الأحياء ، ويتبارى فيه الأكفاء ، والإنسان ابن بجهتها ، والسابق فى
حومتها ، كل فريق منه يبارى فريقاً ، وكل امرئ يفتج إلى المجد طريقاً ،
فن استمسك بعروة الجد استعلى ، ومن استسهل عزيمة النفس ونى
واسترخى ، فكانت يده فى هذا الوجود هى الدنيا ، ويد السابق هى العليا ،
وبعيد الهمة يأبى الأدنى ، والغضاضة لا يرضاها إلا ضعيف الحجبى ، ومن
ثم كانت مراتب الناس فى هذا الوجود بنسبة الأعمال ، وخلاتهم سبب
تفاوت الرجال ، فرب شخص بعيد السمعة عظيم كبير ، وآخر لا فى العير
ولا فى النفير .

ولم أر أمثال الرجال تفاوتاً إلى الفضل حتى عد ألف بواحد

بل رب شخص تقوم به الدولة وتسعد به الأمة ، وآخر تهلك به الدولة
ويشتق الناس ، وإنما قامت الدول وانصلت بالشعوب أسباب السعادة بأفذاذ

من كل أمة معدودين ، وأفراد من الرجال مشهورين ، كبرت نفوسهم عن أن تتخذ إلى الدنيا وترضى بالحقير من الشهوات فطمحت بهم إلى معالي الأمور وانصرفت بهم منهم إلى غايات الكمال، فنالوا بهذا حياة لا تفتى، وغادروا في الوجود آثاراً لن تزول .

لم يخل من هؤلاء الرجال عصر من العصور ولا دولة من الدول ، لأنهم أقطاب العالم الذين تقوم بهم أركانه ، ودعامة الوجود الاجتماعي التي يشاد عليها بنيانه ، وبخاصة منهم رجال السياسة والحرب الذين رفعوا منار الدول ودوخوا بمالك الأرض فإنهم على قلة عددهم من كل قبيل ، وندرتهم في كل جيل ، لم يخل تاريخ كل أمة من ذكرهم ، ولم تمح عن صفحات الوجود آيات نقرهم ، وللأمم في تخليد ذكر أبطالها هؤلاء مذاهب من العناية تختلف باختلاف الأزمنة والأقوام ، وقد بلغ بالآدميين منهم كاليونان مثلاً أن أنزلهم منزلة الآلهة ورفعوا لهم في هياكل العبادة الأنصاب ، وأما أهل العصور المتمدينة فقد أفردوا لأفرادهم التواريخ تشهد لهم بحمائل الذكر ، وشيدوا باسمهم الآثار ليبقى مذكوراً بالتعظيم أبد الدهر .

ولو نقمنا عن هؤلاء الرجال في تاريخ كل أمة لوجدنا أعظمهم عملاً ، وأعلامهم كعباً ، وأبعدهم همة رجال الإسلام الذين نبئت أصولهم في منابت الشيع والقيصوم ، وأظلمت فروعهم فارس والترك والصين والمغرب وأوربا والروم ، فدانت لهم أعظم دول الأرض لذلك العهد واستخضعوا لسلطان حكمهم أشد الأمم صولة وأرقاهم قوة ومدنية كالفرس والرومان والقوط وغيرهم .

إن من اشتهر في التاريخ ذكره وعظم في عهده أثره هنبال بطل قرطاجنة الشهير ، الذي ناصب الرومان العداوة على ضخامة سلطانهم ومناعة بنيانهم ، فاجتاز إليهم جبال البرنيه بجيوش جرارة ، وجند كثيف لينازلهم في صميم

بلادهم ويستنزل أقباطهم عن مناصب مجدهم ، ومع هذا فأين هو من موسى ابن نصير ومولاه طارق اللذين جاءا من أقصى العربية إلى أقصى المغرب ، فدوخا بمالك هنبال القديمة في أفريقيا الشمالية . وقطعا بجندهما القليل البالغ اثني عشر ألف مقاتل مضيق سبته إلى القارة الأوربية ، ففتحا مملكة الأندلس وقضيا على دولة الغوط بالدمار . بل أين هو من عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي الذي اقتحم ماوراء البرنيه على عهد الخليفة هشام الأموي وانساح بجيشه القليل في أحشاء المملكة الفرنساوية حتى بلغ بواتو وبورغونيا على مسافة ألف ميل من جبل طارق ، فدعرت منه سكان الممالك الأوربية واستجاشت لقتاله وصدته الجنود الفرنساوية والكوكسون والغوط والجرمان حتى تمسكوا من إرجاع جيشه على أدراجه وأوقفوا تياره الذي كاد يكتسح الممالك الأوربية بقوة عجيبة .

أين نابليون الذي طبقت شهرته التاريخية الآفاق ، وعده الأوروبيون من أشهر القواد في العالم لحروب طويلة أصلاهم نارها ، وأذاقهم شدة أوارها ، لم تأت لدولته بفتح جديد ، أو خير عتيد ، من قتيبة بن مسلم فاتح السند وتركستان أو عبد الملك بن مروان الذي تولى منصب الخلافة ، وقد تنازعتها أطباع الطامعين ، واشربأت إلى التحزب والانقسام أعناق المسلمين ، فبادر إلى تلافى الخطب بمبادرة الحكيم واستظهر على الشدائد يبعد النظر والرأى فذل صعب الأمور وأرغم من مخالفه من الناس على الطاعة ، ثم بعد أن استصفي لنفسه الخلافة وأجرى أمور الملك مجرى السداد والطمأنينة أطلق للجيوش الإسلامية عنان الفتح والغارة فجاست خلال الممالك وجابت شطوط المحيطين رافعة أعلام الظفر واثقة من نصر الله لها وحفوف عنايته بها .

ومع أن هؤلاء الرجال وأضرابهم كثير عددهم في الإسلام فإن العناية باستقصاء أخبارهم وتببع تواريخ حياتهم وإفرادها بكتب خاصة تخليداً لذكركم

وتقدير آ لقدركل فرد منهم غير متوافرة عند المسلمين . ولا ملتفت إليها عند المؤرخين . اللهم إلا ما أوردوه من أخبارهم مبعثراً في بطون التواريخ متفرقاً في كتب التراجم التي تكاد الاستفاضة فيها بذكر الرجال تقصر على أرباب القلم دون أرباب السيف .

نعم قد عني بعض المؤرخين بإفراد كتب خاصة بتاريخ أفراد من رجال الإسلام ، كسيرة السلطان محمود الغزنوى ، وسيرة صلاح الدين ، وسيرة تيمورلنك ، إلا أن الأخرى ببعض هذه السير أن تسمى كتب أدب لا كتب سير وتاريخ ، كسيرة السلطان محمود الغزنوى المشهورة بتاريخ العتي ، وسيرة تيمور المسماة عجائب المقدور ، لالتزام مؤلفيهما طريق التقفية وتكلفهما للسجع الممل للنفوس المخل بأصول التاريخ ، وفضلاً عن هذا فإن في المسلمين من رجال السياسة والحرب عدداً غير قليل لو أفردت لكل واحد منهم سيرة خاصة أو أفردوا بتاريخ خاص لكان ذلك أبقي لذكرهم . وأظهر لشهرتهم . وأقرب لتناول أخبارهم التي تكون داعية الاقتداء بهم . والاعتبار بجميل أعمالهم . فإن لبعض النفوس ميلاً غريباً إلى حب الشهرة وسلوك مسالك الظهور ، فإذا عرف أربابها كيف ساد أسلافهم ، واشتهر عظماء قومهم ، ورأوا التنويه بشأنهم خاصة والإشارة إلى انفرادهم بالشهرة واتصافهم بالفضائل ربما يدعوهم ذلك متى كانوا من زعماء الأمة وقادة الأفكار والسياسة إلى التشبه بأولئك في جلائل أعمالهم ، وتدقيق النظر في سيرهم للوقوف على مواضع الإصابة ومظان الخطأ من أعمالهم ، والأخذ بما يصلح منها لزمانهم ومكانهم .

عرف هذا الغريون فلم يكتفوا بإفرادهم التواريخ لرجالهم ، والعناية بالتنويه بشأنهم ، بل صنعوا لهم التماثيل تقام على قوارع الطرق وساحات المدن ، وشيدوا بأسمائهم الآثار العظيمة كالمدارس والملاجئ ، ليكون ذلك أدعى لتوجيه الأنظار إليهم . وأبقى بين الخاصة والعامة لجميل ذكرهم . كما أنهم

اجتنبوا في تراجم رجالهم استعمال التخيلات الشعرية وإيراد الاستعارات. والمجاز في الوصف ورص الألقاب الكثيرة رصاً تضيق معه صفات المترجم. الفطرية. وتغمض على الناقد أوصافه الحقيقية ، ليكون في بساطة الترجمة وقصرها على إيراد الحقائق في منشأ المترجم وما أثره في حال ظهوره وإبان نشأته تصوير لسيرة المترجم يمثل للبطل في قالب الوجود حتى كأنما هو يراه .

ولعمري إن رجال الأمم العظام الخلقون يمثل هذه العناية جديرون. بإعظام الشأن . وتخليد ذكركم على صفحات الزمان . ولما كان الإسلام قد أنجب كثيراً من أمثال هؤلاء الرجال الذين ورد ذكركم مشتملاً في بطون التواريخ ، متفرقاً في ثنايا الكتب والسير ، فقد نهضت في عزيمة النفس ، واستغزني الوله رجال الإسلام إلى أن أستقصى أخبارهم وأتبع آثارهم . وأفرد لمشاهيرهم في الحرب والسياسة تاريخاً خاصاً آتى به على أخبارهم وفتوحاتهم وسياساتهم وأخلاقيهم ، وكل ما يتعلق بتاريخ حياة كل فرد منهم ، على أسلوب مبتكر بديع الترتيب سهل على المتناول جامع الأوصاف التي تمثل حقيقة المترجم تمثيلاً لا يدع حاجة في النفس إلى المزيد ، ولا يحوج المطالع إلى الإمعان في جمع مزيج الأخبار إلى مقر الذاكرة من دماغه والعقل من فؤاده للوقوف على أغراضها . والتفريق بين جواهرها وأعراضها .

هذا وقد أخذت على نفسي أن أطلق لها في كل مجال عنان القول ، وأرعى بسهام الفكر إلى كل غرض يبدو للنظر ، عسافى أن ألم بشيء من الأدواء الاجتماعية التي طرأت على المسلمين . وأستطيع من إسداء النصيح ما أخدم به في هذا العصر قومي الذين ما لإخاطهم يردون نصيحة الناصحين . سيما إذا كانت مؤيدة بسيرة الصحابة معصدة بالتاريخ مستندة إلى الدين .

ولما وطنت النفس على مباشرة هذا العمل رأيت أن أقصر الاستقصاء والبسط في الكلام على أشهر مشاهير الإسلام خاصة ، وأورد في ختامه ملخصاً

تاريخياً لمشاهير رجال الإسلام عامة ، يكون كفهرس تعلم منه ذواتهم ويرجع فيه إلى ملخص تاريخهم .

ولمى وإن كنت عزمت على اجتناب الخوض فى الفتن التى ثار ثأثرها بين المسلمين فى عهد الخلفاء عثمان وعلى ومعاوية رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، ولم أر بدأ من إيراد ذكرهم مع الخليفتين السابقين أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما ، لأنهم جميعاً من دعائم الإسلام التى قامت عليها صروحه . وأعضاء الدين الذين بان بهم صريحه . فقد اكتفيت من سيرة هؤلاء الثلاثة بما لا يعلق بذكره من هذه الفتن أثر فى النفس ، إلا ما كان فيه حجة بالغة يجرى بها القلم ، أو حكمة زاجرة يحتاج إليها العاقل . ويتعظ بها الجاهل . لهذا لا يؤخذ على ما يرى من الاختصار فى تراجمهم ، والاقتصار على ذكر بعض سيرتهم .

وقد جعلت الكتاب أقساماً على ترتيب الدول الكبيرة ومن عاصرها ، مقدماً فى الذكر الأقدم من الخلفاء والسلاطين ، ومن يليه . وهكذا إلى آخر الكتاب ، وأتبع كل خليفة أو سلطان بذكر من قام فى دولته . واشتهر من بين زمرة ، من أمراء الحرب والسياسة الذين اشتهر ذكرهم . وعظم فى الإسلام أثرهم . والله المسئول أن يعصمنا من الخطأ ويفيض علينا روح النطق بالحق والصواب إنه مجيب السؤال .

دولة الخلفاء الراشدين

هذه الدولة التي أسست مجد الإسلام ، ورفعت منار الدين الحنيف ، وبلغت خيلها شطوط المحيطين ، ونشأت على الخشونة في العيش والإعراض عن أعراض الدنيا والتعفف عما بأيدي الناس ، هي الدولة الأولى التي كان بها نشر الإسلام وإلى خلفائها الأربعة تنتهي الشهرة في المجد الذي ليس فوقه مجد ، وإنما قامت الدولة الإسلامية على أساس هم واضعوه . وأنجبت دول الإسلام من الرجال العظام من أنجبت بفضل هم السابقون به وفتح هم فاتحوه . وقد قام في عصرهم الذي هو أفضل العصور كثير من رجال الحرب والسياسة الذين أدهشت أعمالهم الباحثين في تاريخ الأمم . وقضوا بعزائمهم الماضية على دولتي الروم والعجم . ومن أشهر مشاهيرهم الذين يشار إليهم بالبنان . ويعدون من أفراد ذلك الزمان . في الحرب والسياسة خالد بن الوليد فاتح العراق العربي وقسم من الشام . وأبو عبيدة بن الجراح فاتح الشام . وعمر بن العاص فاتح مصر . وسعد بن أبي وقاص فاتح العراق العجمي وهادم عرش الأكاسرة . والاحنف بن قيس فاتح خراسان . والمغيرة بن شعبة داهية السياسة ، وقد عز منا على أن نأتى على سيرتهم في دولة الخلفاء فنذكر كل رجل منهم مع خليفته إلا الاحنف والمغيرة فلأنهما خدما هذه الدولة إلى نهايتها سنأتى على ذكرهما بعد آخر الخلفاء الراشدين رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

أبو بكر الصديق

- ١ -

حاله في الجاهلية

تسمية وأصله :

اسم أبي بكر رضى الله عنه عبد الله ، واسم أبي قحافة أبيه عثمان ، وكان اسم أبي بكر في الجاهلية عبد الكعبة ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالله ، ولقبه عتيقاً لجمال وجهه ، ويقال لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له أنت عتيق من النار ، كما ورد في حديث رواه الترمذى ، وسعى صديقاً لأنه بادر إلى تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم . فهو عبد الله بن عثمان ابن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ابن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة . وينسب أبو بكر إلى تيم قريش ، فيقال التيمى وهو فى التعدد مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه يلتقى هو ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند مرة بن كعب ، وبين كل واحد منهما وبين مرة ستة آباء . وأم أبي بكر سلمى بنته صخر بن عمرو بن كعب بن سعد ابن تيم ، وهى بنت عم أبي قحافة ، وتكنى أم الخير ، وكان مولد أبي بكر لسنتين وأشهر من مولد الرسول صلى الله عليه وسلم .

شرفه :

انتهى الشرف من قريش إلى عشرة رهط من عشرة أبطن ، منهم أبو بكر الصديق ، وكانت إليه فى الجاهلية الأشناق . وهى الديات والمغرم ، ولما كان (٢ م - أشهر مشاهير الإسلام)

هؤلاء الرهط الذين إليهم انتهت مكارم قريش في الجاهلية ، واتصلت بالإسلام منهم من صار من مشاهير الإسلام ، وستأتى ترجمتهم بعد ، فقد رأيت أن آتى هنا على بيان هذه المكارم ، وعامة من انتهت إليهم اكتفاء بها عن التكرار عند ذكر من يترجم له منهم في هذا الكتاب ، فأقول :

قال في العقد قال ابن المنذر هشام بن محمد السائب الكلبي ، تسمية من انتهى إليه الشرف من قريش في الجاهلية فوصله بالإسلام ، عشرة رهط من عشرة أبطن .

وهم هاشم . وأمّية . ونوفل . وعبد الدار . وأسد . وتيم . ونخزوم . وعدى . وجمح . وسهم . فكان من هاشم العباس بن عبد المطلب يسقى الحبيج في الجاهلية وبقى له ذلك في الإسلام . ومن بنى أمّية أبو سفيان بن حرب ، كانت عنده العقاب راية قريش ، وإذا كانت عند رجل أخرجها إذا حميت الحرب ، فإذا اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب ، وإن لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه . ومن بنى نوفل الحرث بن عامر ، وكانت إليه الرفادة ، وهى ما كانت تخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج . ومن بنى عبد الدار عثمان بن طلحة ، كان إليه اللواء والسدانة مع الحجابة ويقال والندوة أيضاً فى بنى عبد الدار . ومن بنى أسد يزيد بن زمعة بن الأسود ، وكانت إليه المشورة ، وذلك أن رؤساء قريش لم يكونوا مجتمعين على أمر حتى يعرضوه عليه فإن وافقه ولاهم عليه وإلا تخير ، وكانوا له أعواناً واستشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطائف . ومن بنى تيم أبو بكر الصديق ، وكانت إليه الأشناق وهى الديات والمغرم ، فكان إذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا جمالة من نهض معه وإن احتملها غيره خذلوه . ومن بنى نخزوم خالد بن الوليد كانت إليه القبة والأعنة ، فأما القبة فإنهم كانوا يضرّبونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش ، وأما الأعنة فإنه كان على

خيل قريش في الحرب . ومن بنى عدى عمر بن الخطاب وكانت إليه السفارة في الجاهلية ، وذلك أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيراً ، وإن نافرهم حتى لمفاخرة جعلوه منافراً ورضوا به . ومن بنى جميع صفوان بن أمية وكانت إليه الأيسار وهى الأزلام ، فكان لا يسبق بأمر عام حتى يكون هو الذى تسييره على يديه . ومن بنى سهم الحرث بن قيس ، وكانت إليه الحكومة والأموال المحجرة التى سموها لأهلهم . فهذه مكارم قريش التى كانت في الجاهلية يتوارثونها كابراً عن كابر ، وكان كل شرف من شرف الجاهلية أدركه الإسلام وصله لهم ، وقد رأيت مكانة أبى بكر من الشرف في قريش ، هذا فضلاً عن مكانته الخاصة عندهم واحترامهم له لسكرمه وتفضله .

مناخنة :

كانت قريش مع ما تمت به من النسب وتحوزه من شرف المكانة عند العرب لما أنها حامية البيت ، وصريح ولد لإسماعيل لا يستنكف أشرافها من الاحتراف أو المتاجرة ، والاعتماد في الاستزاق على عمل اليد ، ترفعاً عن الاتكال على فضلات العجز ، والاعتماد على تراث الآباء ، فكانت لكل رجل منهم صنعة يحترف بها . ونحن ذاكرون لك هنا حرف الصحابة الذين ستأتى ترجمتهم في هذا الكتاب فقط . فمنهم عمر بن الخطاب كان تاجراً ، ومنهم سعد بن أبى وقاص وكان يبرى النبل ، ومنهم عثمان بن عفان وكان بزازاً . ومنهم عمرو بن العاص وكان جزاراً ، وأما أبو بكر فكان بزازاً وله رأس مال كبير للتجارة ، قالوا إنه يبلغ أربعين ألف درهم ، أنفق منها خمسة وثلاثين ألفاً معونة للنبي صلى الله عليه وسلم ، على مصالح المسلمين ، والذي بقى عنده مازال يتجر به حتى مات رضى الله تعالى عنه وأرضاه .

مناخنة عن قومهم وسيرهم فيهم :

كان ذا مكانة محترمة من قومه ومروءة وإحسان وتفضل فيهم ، ولهذا

قال له ابن الدغنة يوماً، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث، وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الدهر، وتقرى الضيف، وكان عالماً بالأنساب، واختيار العرب، رغاباً عن الدنيا، عفيف النفس حرم على نفسه شرب الخمر في الجاهلية. قال السيوطي أخرج أبو نعيم بسند جيد عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت، لقد حرم أبو بكر الخمر على نفسه في الجاهلية.

اللهم إن امرأ ينشأ بين الأوثان حيث لا دين زاجر. ولا شرع للنفوس قاهر. وهذا مكانه من الفضيلة، واستمساكه بعري العفة والمروءة، لجدير بأن يتلقى الإسلام بملء الفؤاد. ويكون أول مؤمن بهادى العباد. مبادر بإسلامه لإرغام أنوف أهل المكابرة والعناد. ممد لهم سبيل الاهتداء بدين الله القويم الذى يجتث أصول الرذائل من نفوس المهتدين بهديه، المستمسكين بمتين سبيله الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، وأولهم أبو بكر.

إسلامه وصحبته

إسلامه :

اختلف الرواة فيمن كان أول الناس إسلاماً، فقال بعضهم إنه على، وقال بعضهم إنه أبو بكر، وقال بعضهم خديجة، وقد أخرج ابن عساكر من طريق الجارث عن علي رضي الله عنه قال (أول من أسلم أبو بكر الصديق) ، وبما يؤيد أنه أول الناس إسلاماً قول حسان بن ثابت رضي الله عنه .

إذا تذكرت شجواً من أخى ثقة فاذا ذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية أبقاها وأعد لها إلا النبي وأوفاهما بما حملا
والثاني التالى المحمود مشهده وأول الناس منهم صدق الرسلا

وقال السيوطي وجمع بين الأقوال بأن أبا بكر أول من أسلم من الرجال ، وعلى أول من أسلم من الصبيان ، وخديجة أول من أسلمت من النساء ، وأول من ذكر هذا الجمع الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه (وهو الصواب) .
تجسم أبو بكر رضى الله عنه من الفضيلة ، وخلص جوهره من الدغل ، وانفطر على سلامة النفس من شوائب العناد ، وطهارتها من عمى البصيرة عن درك الصواب ، والممارسة في الحق ، فقامت لديه الحجة على الشرك ، وظهرت له حجة الرشد لأول وهلة من دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، الذي تفرس فيه الاستعداد الكامل للإيمان ، فبادره بالدعوة فلم يتردد . وعاهده على المظاهرة فقام بما تعهد . لهذا قال عليه الصلاة والسلام (ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر) .

سبق أبو بكر بالإيمان ، فكان له الفضل على السابقين بما بعثهم له وسبقهم ببركة إسلامه إلى نيل السعادة بالإسلام ، لهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام (ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل من أبي بكر إلا أن يكون نبي)
أخرجه عبد الرحمن بن حميد في مسنده وأبو نعيم وغيرهما من طرق عن أبي الدرداء . ولما كان أبو بكر محبباً سهلاً ، وكانت رجالات قريش تألفه ، فقد أسلم منهم على يديه من بنى أمية عثمان بن عفان . ومن بنى عمرو بن كعب طلحة بن عبيد الله ، ومن بنى زهرة سعد بن أبي وقاص . وغيرهم كثير .

صحيحة :

صحب أبو بكر النبي صلى الله عليه وسلم من حين أسلم إلى حين توفي خير صحبة ، وكان أحب رفيق إليه ، وأعز صاحب لديه ، حمل من أجل الرسول من قريش ما تنوء به العصبة أولو القوة ، ووقف أمامه موقف المدافع عن الحق الداعي إلى الخير . صحبه يوم الهجرة وهو يبكي فرحاً بصحبته ،

واستبشاراً بتخفيف أذى قريش عنه . ورافقه في الغار ثلاثاً . وعينه من أجله لا تنام ، ولم يذق خوفاً عليه لذة الراحة ، حتى قال له النبی صلی الله عليه وسلم لا تحزن ، إن الله معنا ، ليسكن اضطرابه ، ويأمن على نبيه ، وأنزل فيه قرآن (ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه) .

علم أبو بكر أن الله عليه حقاً ، وأن للإيمان بكتابه شرطاً ، وهو الامتثال لما جاء به ، والعمل بما فيه ، وأن الله سبحانه وتعالى يقول بهذا الكتاب (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) فسمح بماله في سبيل الإسلام ، وأنفق على النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان يشتري من ماله الماعدين على الإسلام ، لإنقاذهم من الآلام ، كما كان يشتري على الإسلام أيضاً (١) حتى أثني عليه الرحمن ، ونوه به القرآن ، ومنه قوله تعالى (فأما من أعطى واتقى) الآية ، وقوله تعالى (وسيجنها الأتقى) وقوله تعالى (وما لأحد عنده من نعمة تجزى) إلى آخر السورة ، كل هذه الآيات وغيرها نزلت في أبي بكر .

سمح بنفسه فلم يترك مشهداً من مشاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا حضره ، ولازم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بحميه بنفسه ، ويقف في وجه الأعداء دونه ،

أخرج البزار في مسنده عن علي أنه قال : أخبروني من أشجع الناس ؟ فقالوا أنت . قال أما إنني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه ، ولكن أخبروني

(١) أخرج ابن جرير عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال كان أبو بكر يعتقد على الإسلام بمكة فكان يعتق عجائز ونساء لمذا أسلمن ، فقصال له أبوه أي بني أراك تعتق أنا ساء ضعافاً فلو أنك تعتق رجالاً جلدأ يقومون معك ويمنمونك ويدفعون عنك ، قال أي أبت أنا أريد ما عند الله وأخرج الطبراني عن عروة أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه أعتق سبعة كلهم يعتب في الله اهـ .

بأشجع الناس . قالوا لا نعلم فن . قال (أبو بكر) إنه لما كان يوم بدر فجعلنا لرسول الله عريشاً فقلنا من يكون مع رسول الله لئلا يهوى إليه أحد من المشركين ؟ فوالله ما دنا منا أحد إلا أبا بكر شاهراً السيف على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يهوى إليه أحد إلا هوى إليه فهو أشجع الناس قال على رضى الله عنه ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذته قریش فهذا يحبوه وهذا يتلته وهم يقولون أنت الذى جعلت الآلهة إلهاً واحداً فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ويحبأ هذا ويتلته هذا وهو يقول ويدكم أنقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ، ثم رفع على بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته ثم قال أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر ؟ فسكت القوم فقال ألا تجيبونى ، فوالله لساعة من أبى بكر خير من ألف ساعة من مؤمن آل فرعون ذلك رجل يكتم إيمانه ، وهذا رجل أعلن إيمانه .

خلافة أبى بكر

مقدم على المصطفى

قبل الكلام على خلافة أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه تأتي بتمهيد مختصر فى الخلافة الإسلامية ، فيه بيان يحتاج إلى النظر فيه كل باحث فى تاريخ الإسلام فنقول :

إن مؤازرة القوة للشرائع قاعدة كلية لا تتخلف ، سواء عن الشرائع الإلهية أو الأوضاع البشرية . وقد ترتب عليها قيام الدول فى كل ملة من الملل ، لضرورة وجود الوازع الذى يزع الناس بالكتاب والميزان ويردهم

ولو بالقوة إلى حدود الشرع ، وذلك بدليل قوله تعالى فيمن سبق من الرسل
أولى الشرائع (ولقد أرسلنا رسلاً بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان
ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) وفيه
الإشارة إلى ملازمة القوة للدين لإرهاق الناس وكبحاً لجماع النفوس التي
لا يقومها مجرد الإرشاد واللين ، وهذه القوة إنما تقوم بالوازع وأعوانه
ومنهم تتألف الدولة .

ومن المقرر أن وظيفة الرسل هي تبليغ الشرائع وتقريرها بين الناس
على وجه يجمع إليها شملهم ويتكفل بسعادتهم وبعد هذا لا يبقى من وظيفة
الرسول لمن يخلفه في قومه إلا حماية هذه الشرائع والحكم بينهم بما أنزل الله
وسنة الرسول، وهذه وظيفة يشترط فيها عندنا معاشر المسلمين الحرية والعقل
والعدالة والعلم، ولا يشترط فيها شيء من النبوة، بل النبوة رسالة إلهية تتعلق بها
تبليغ الدين، ووضع أصول الدعوة ، وتقرير الشرائع، وتلك رئاسة دنيوية
تتعلق بها حماية الشرائع وإقامة أركان الدين، ولا تناسب بين الوظيفتين البتة .
لهذا تضافرت الأحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم على وجوب
السمع والطاعة لكل من يتولى شيئاً من أمور المسلمين من أى قبيل كان بلا
تخصيص بآل بيته الكرام عليهم السلام، وأيد هذا سنته العملية، فقد فارق هذه
الدنيا إلى المألا الأعلى، وليس لأحد من آل بيته أمر من أمور الناس. أو ولاية
من ولايات الأطراف، ولما طلب منه عمه العباس أن يوليه عملاً من الأعمال
أبى عليه ذلك، لتلايظن بعده أنه أراد بقاء الإمارة في بني هاشم متصلة بالنبوة
مع أن النبوة شيء والإمارة شيء آخر .

وقد علم هذا الحسن بن علي رضي الله تعالى عنه ، لما تنازل عن الخلافة
لمعاوية بن أبي سفيان فقال (أبى الله أن يجمع النبوة والخلافة فينا) وحسب
آل البيت شرفاً أن تكون النبوة فيهم .

قلنا إن الخلافة رئاسة دنيوية باعتبار أنها شيء والنبوة شيء آخر، وإنما قالوا إنها رئاسة دينية وخلافة نبوية، لما يتعلق بهما من إقامة أركان الدين كما تقدم، وهى بهذه المثابة لم تتجاوز عهد الخلفاء الراشدين، وصارت بعد ذلك ملكاً دنيوياً بحتاً، إذ ترك الخلفاء أهم أصل من أصول الإمارة وهى الصلاة بالناس، التى استخلف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر فكان خليفته على الأمة فى الدين، كما صار أميراً عليها فى أمور سياستها فى الدنيا، ومن هنا اشتق اسم إمارة المؤمنين، إذ لا بد لكل أمة اجتمعت على دين أو أمر آخر من رئيس يضم شملها ويقيم أحكام شرائعها ويدير سياستها ملكها ولا سيما أن الإسلام جاء بقسمى السياسة والدين، ولم يقتصر على أصول التوحيد والعبادات، لهذا كان وافياً بحاجات الدين والدنيا.

ومن ثم كان أول مقصد من مقاصد المسلمين وأهل السابقة من المهاجرين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، واجتماع المسلمين على كلمة التوحيد متجهاً إلى وجوب نصب خليفة يجمع الأمة الإسلامية على كتاب الله وسنة رسوله، ويأخذ بالقوة على أيدي ذوى العبت بالنظام. إلا أنهم اختلفوا فيمن يولونه هذا الأمر اختلافاً ليس فيه ما ينافى المصلحة الإسلامية، بل غاية تمحيص الفسك ومحض النصيحة فيمن تجميع على تأميره كلمة الجمهور الأعظم من المسلمين، ليكون أثبت قدماً فى الخلافة وأشد حجة على المخالفين، فاختروا لهذا المنصب الرفيع أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه.

علم هذا كله جمهور الصحابة والمسلمين فاختروا للخلافة رجلاً من غير بيت النبوة، ولو علموا خلافه لما عدلوا عن بيت النبوة البتة، ولكن أولى الناس بهذا الأمر العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم، أو على بن أبى طالب لسابقته فى الإسلام، وكونه أقرب الناس من النبي عليه الصلاة والسلام نسباً وصهرراً بعد العباس.

هكذا كان أيضاً بعض بني هاشم وبعض بني أمية يتوقعون أنه لا يعدل بعلي كرم الله وجهه أحد بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن لخصوصيات ومزايا له ترشحه للخلافة وتحملهم على الاعتقاد بترجيح انتخاب المسلمين له لذلك المنصب الرفيع ، لا لاعتقادهم بوجوب الخلافة لبني هاشم ، وإنما لوصح عندهم شيء من وجوب الخلافة لبني هاشم لكان العباس رضى الله عنه أولى بها من علي ، لأنه عم النبي صلى الله عليه وسلم ولما لم يكن الأمر كذلك لم يتخلف على عن مبايعة أبي بكر سوى ستة أشهر كما يقولون ، ثم بايعه بعد وهو أعظم الناس اعتقاداً بأهليته وطاعة له وعونا على أمره .

هذا إذا صح أنه تخلف عن بيعته ولم يصح ، وإنما وجد عليه وعلى عمر ابن الخطاب لما حكما بحرمان فاطمة رضى الله تعالى عنها من ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك وهى قرية بخيبر لما ثبت عند أبي بكر يومئذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا نورث ما تركناه صدقة إنما يأكل آل محمد من هذا المال) حتى كان مما قاله يومئذ أبو بكر وإني والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله عن حالها التى كانت فى عهده صلى الله عليه وسلم . فوجدت عليه فاطمة وهجرة وهجره على أيضاً إلى أن توفيت فاطمة رضى الله عنها بعد ستة أشهر من بيعه أبي بكر ، وكان لعلى من الناس وجهة حياة فاطمة ، فلما توفيت استنكر على وجوه الناس فالتمس مصالحة أبي بكر فصالحه ، وربما هم الرواة من هذا الأمر أنه لما صالحه بعد ستة أشهر بايعه أيضاً ، وسترى من الروايات الآتية ما يدل على أن علياً لم يتخلف عن البيعة إلا قليلاً والله أعلم .

ولكن ما الحيلة وقد رزى هذا الدين بشر آدم من المنافقين إنما دخلوا فى هذا الدين للتشويش على أهله ، لكن وقوف الرسول صلى الله عليه وسلم على أحوالهم وهيبة الإسلام التى ملأت قلوبهم لم يـمـكـنـهم من بث الفتنة

فى الدين فبشوها وبعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم من طريق السياسة حتى
نشأ عنها من الخلاف على الخلافة أمور ، ورأى بعد منافقوا الأعاجم
ومجوسهم الذين ابتز الإسلام ملكهم وثل عروش ملوكهم فهاهم أمره
وسامتهم غلبة شأنه أن يتخذوها وسيلة لإدخال الوهن على الإسلام ،
وتعطيل حدوده وشعائره فغلطوا السياسة بالدين وضربوا بسلاحهما فى
وجوه المسلمين ، فزعموا أن منصب الخلافة فرع من النبوة لا يتخلف عن
أصله . ولا يصح وضعه فى غير محله . واشترطوا فيه ما يشترط فى النبوة
من العصمة وهى لا تكون على زعمهم إلا فى على وأهل بيته وإلا فلا إمام
يؤتم به ولا جمعة تصح ولا حكم ينفذ . وهو عين التعطيل الذى رموا إليه
يومئذ بسهم نفذ فى كبد المسلمين . وفرق وحدة المؤمنين ، ولا يزال يتابعهم
عليه إلى الآن فريق الشيعة الذين أعماهم التقليد على غير علم بمن يقلدون .
ولا فهم الحقيقة ما هم فيه من تعطيل أركان الدين مسترسلون . انتظارا لإمام
موهوم ويوم معلوم .

وامصيتهاته من هذه العقول التى لم تدرك إلى الآن مرامى غرض السالفين .
ومهاوى ضلال الزنادقة الكاذبين ، الذين جعلوا مسألة الإمام المعصوم عقبة
دون إقامة شعائر الدين . لن تزول من وجه الإسلام إلى يوم الدين .
مادامت مدعمة بأحاديث المهدى الموضوعية . وأخبار الإمامة المصنوعة . التى
يدل على أنها مكذوبة على الرسول مفتراة على أهل بيته الظاهرين ما أصاب
المسلمين من جرائها من التفريق وما أصيب به الإسلام من الوهن وهذا شيء
لا يرضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما لا يرضاه الله سبحانه وتعالى
لدينه ، ولو صح شيء منه لما ترك الله عباده إلى الآن يتخبطون فى ظلمات
الفوضى بلا إمام معصوم ، والعصمة إنما هى لله وللأنبياء والمرسلين الذين
أرسلهم الله رحمة للعالمين ، ولن يرسل للبشر الأئمة والسلاطين المعصومين ، كما

يريد فريق المتخربين من الشيعة . وهذا العالم البشرى على اختلاف الأمم والشعوب ما زال ولن يزال قائماً بمن يتولى شؤون الناس من الرؤساء والسلاطين وفيهم وثنيون وهم أعدل من ساس الممالك كملك اليابان حديثاً أو كسرى في قديم الزمان . فاللهم نسألك هداية هذه العقول الزائغة ، وتأليف تلك القلوب المتفرقة إنك مجيب السؤال .

ولنرجع إلى الكلام على خلافة أبي بكر رضى الله تعالى عنه وتبدأ من ذلك بذكر بيعته فنقول :

بيعة أبي بكر

لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أبو بكر غائباً في أهله بالسنع ، فلما أتاه منعاه أقبل على الناس فوجدهم في اختباط عظيم لوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمنهم المصدق ومنهم المكذب ، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكشف عن وجهه وقبلة وقال : بأبي أنت وأمي قد ذقت الموتة التي كتب الله عليك ولن بصييك بعدها مودة أبداً . ثم خرج إلى الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال . أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . ثم تلا (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) الآية ، فكان الناس لم يعلموا أن هذه الآية في المنزل لما أصابهم من الدهشة بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال عمر فما هو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها فوقعت إلى الأرض ما تحملى رجلاي . فاللهم ارزقنا قلوباً كذه القلوب ملئت بالإيمان وأشربت بحب الرسول حتى ما تصدق أنه قد مات ، الدهشة أخذتها ، وحزن أصلها وأسى أراعها ، وبلاء فاجأها ، ولما لم تطق حمل هذا كله ذهلت لحظة كما يشرب الطير ثم ثابت إلى نفسها . وعاد إليها وعيها . بآية تلاها أبو بكر كأنما المسلمون كانوا في ذهول عنها وما هو إلا ذهول الحزن ووقع أليم المصاب .

وبينما كان الناس مشغولين بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم وتجهيزه ودفنه جاء مخبر فأخبرهم بأجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ، بقصد المفاوضة في شأن الخلافة ، فأسرع إليهم أبو بكر وعمر وجماعة من المهاجرين ، ليتدركوا هذا الأمر قبل افتراق الكلمة ، فأتوا الأنصار وقد اجتمعوا بالسقيفة يبأيعون سعد بن عباد ، فأعجلهم المهاجرون عن أمرهم وغلبوهم عليه ، وتكلم يومئذ أبو بكر فأدلى بالحجة وكان مما قاله :

يامعشر الأنصار إنكم لاندكرون فضلا إلا وأتم له أهل . وإن العرب لاتعرف هذا الأمر إلا لقريش . هم أوسط العرب داراً ونسباً قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين وأخذ بيدي عمر بن الخطاب وابن عبيدة بن الجراح فكثير حينئذ اللغط بين الأنصار وقال قائلهم منا أمير ومنكم أمير . ثم إن عمر لما رأى أن بعض الأنصار ، ومنهم بشير بن سعد يرون رأى المهاجرين يجعل الخلافة في قريش ، وأن الأمر إذا أجل النظر فيه ربما صعب حله ، قام إلى أبي بكر وقال : أبسط يدك أبايعك فبسط يده فسبقه بشير فبايعه وبايعه عمر وسائر الناس .

وتخلف عن بيعته علي وطلحة والزبير وبنو هاشم لما كانوا يتوقعونه من مصير الخلافة إليهم وعدم صرفها عنهم ، حتى كان مما قال يومئذ عقبة بن أبي لهب .

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف عن هاشم ثم منهم عن أبي الحسن ولما رأى بنو هاشم انحياز الناس إلى البيعة لأبي بكر ، واتفاقهم على الرضا بخلافته لما ثبت عندهم من أن الخلافة غير النبوة وأن أبا بكر أحق الناس بها بعد أن أنابه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة بالمسلمين في حال مرضه ، أقبلوا على بيعته وبايعه على رضى الله تعالى عنه بعد أيام على الأرجح لا بعد ستة أشهر ، وقد سبق الكلام على هذا في أول الفصل ويؤيده ما رواه

الرواة عن أبي سعيد الخدري أنه قال في حديث طويل إن أبا بكر صعد المنبر عقب البيعة فنظر في وجوه القوم فلم ير الزبير فدعا بالزبير فجاء فقال قلت ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه أردت أن تشق عصا المسلمين فقال لا تثريب يا خليفة رسول الله فقام فبايعه .

ثم نظر في وجوه القوم فلم ير علياً فدعا به فجاء فقال . قلت ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه على ابنته أردت أن تشق عصا المسلمين فقال لا تثريب يا خليفة رسول الله فقام فبايعه .

وأخرج ابن عساكر عن علي أنه قال . لقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يصلي بالناس^(١) ولأني شاهد وما أنا بغائب وما بي مرض فرضينا لدنيا ما رضى به النبي صلى الله عليه وسلم لديننا . وأخرج الدارقطني في الأفراد والخطيب وابن عساكر عن علي رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سألت الله أن يقدمك ثلاثاً فأبى علي إلا تقديم أبي بكر .

هذا كله يدل على أن علياً رضى الله عنه لم يتردد عن بيعة أبي بكر إلا قليلاً ، ويعضده أيضاً أن جماعة من بني أمية منهم أبو سفيان بن حرب وخالد ابن سعيد أرادوه على الخلافة يومئذ فزجرهم زجرأ وقرعهم تقرعياً .

هذا ولما استقرت الخلافة لأبي بكر وذلك سنة إحدى عشرة صعد على المنبر ثم تكلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

(١) أخرج الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال : مرض النبي صلى الله عليه وسلم فاشتد مرضه ، فقال مروا أبا بكر فليصل بالناس ، قالت عائشة لأنه رجل رقيق القلب لذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس ، فقال مرى أبا بكر فليصل بالناس ، فمادت ، فقال مرى أبا بكر فليصل بالناس فإلكن صواحب يوسف .

أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني . الصدق أمانة والكذب خيانة ، والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق . والضعيف فيكم قوى عندي حتى آخذ له الحق . إن شاء الله تعالى ، لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله .

كلام يمثل معنى الرئاسة النامة في الإسلام تمثيلاً تستكن أمامه القلوب التي أشربت حب العدل ، وتقصر عن التطاول إلى نتائج أعناق زعماء الحرية في كل أمة وجيل .

كلام صدر عن أول خليفة في الإسلام ، يبشر الأمم بنزع أغلال الذل والاستعباد من أعناقهم وانتزاع قيود السيطرة الجائرة من أيديهم وأرجلهم . بل كلام يقرر صاحبه أول قاعدة للحكومة في الإسلام ، ويسجل الشقاء على من تسامح بها من المسلمين ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ، على ما كان بعد ذلك في المسلمين وما سيكون .

إنفاذه بميسى أسامة بن زيد :

لم يكن أمر البيع أول عقبة قطعها المسلمون بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فإنه لم يكده ينتشر نعيه في الآفاق ، حتى ظهر النفاق وأشرأت من الأمم المجاورة الأعناق . ومنع العرب الزكاة والمسلمون يومئذ في ارتباك عظيم لفقد نبيهم وقلتهم وكثرة عدوهم .

كان النبي عليه الصلاة والسلام أعد قبل وفاته جيشاً وعليه مولاه أسامة بن زيد لبعثه إلى الشام ، فتأخر ذلك الجيش عن السفر بسبب مرضه ووفاته عليه الصلاة والسلام . ولما استقرت الخلافة لأبي بكر قال له الناس إن هؤلاء

(يعنون جيش أسامة) جند المسلمين ، والعرب على ما ترى فقد انتقضت بك فلا ينبغي أن تفرق جماعة المسلمين عنك ، فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه والذي نفسى بيده لو ظننت أن السباع تتخطفنى لأنفذت جيش أسامة كما أمر رسول الله ﷺ .

وهو ثبات أمام الأخطار واستهغار للخطب ومضاء عزيمة نافذ في مثل ذلك الموقف الحرج الذى وقف به المسلمون ، لا تصدر إلا عن مثل أبى بكر رضى الله تعالى عنه . ثم أمر بالتجهز وأن يخرج كل من هو من جيش أسامة إلى معسكره بالجرف . فخرجوا كما أمرهم وحبس أبو بكر من بقى من تلك القبائل التى كانت لهم الهجرة في ديارهم فصاروا مسلحاً حول قبايلهم وهم قليل .

لما خرج الجيش إلى معسكرهم وتكاملوا أرسل أسامة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان معه في جيشه إلى أبى بكر يستأذنه أن يرجع بالناس وقال: إن معى وجوه الناس وجلتهم ولا آمن على خليفة رسول الله والمسلمين أن يتخطفهم المشركون .

وقال من مع أسامة من الأنصار لعمر بن الخطاب إن أبى بكر خليفة رسول الله ألا فامض فأبلغه عنا أن يولى أمرنا رجلاً أقدم سنّاً من أسامة ، فخرج عمر بأمر أسامة إلى أبى بكر ، فأخبره بما قال أسامة فأصر على ثبات رأيه واستمر في مضاء عزمته على إنفاذ جيش أسامة ، وقال لعمر لو خطفتنى الكلاب والذئاب لأنفذته كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يبق في القرى غيرى لأنفذته .

قال عمر فإن الأنصار تطلب رجلاً أقدم سنّاً من أسامة . فأدرئك أبو بكر من هذا ما يخالض ضمائر القوم من تأمير أسامة عليهم لما لم يزل في نفوسهم

من آثار الفخر الجاهلية ، والاستمسك بعرى التفاضل بالأنساب ، فرأى أن يحو من نفوسهم كل أثر من آثار الكبرياء والتفاضل إلا بالتقوى والأعمال ، وأن يبدأهم من ذلك بنفسه فإذا صنع ؟

خرج أبو بكر حتى أتاهم وأشخصهم وأشيعهم وهو ماش وأسامة راكب ، فقال له أسامة يا خليفة رسول الله لتركن أو لأنزلن ، فقال والله لا نزلت ولا أركب ، وما على أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله . فلم يسع الأنصار لما رأوا خليفة رسول الله ماشياً في ركاب أسامة إلا السكوت ، ولم يبد من أحد منهم بادرة قط بل صاروا صحبة أسامة وأبدوا ما عرفوا به من الإخلاص في الجهاد ، والذب عن حياض الإسلام ، والاستماتة في قتال الأعداء فرضى الله تعالى عنهم أجمعين .

ولما أراد أبو بكر أن يرجع قال لأسامة إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل فأذن له .

إمام أمره نافذ في جيوشه ، وسلطته مبسوطة على قواده ، أحب استبقاء عمر بن الخطاب عنده ، ليستعين برأيه فلم يشأ أخذه من الجيش إلا بإذن قائده أسامة بن زيد ، تنبيهاً لمن فيه إلى وجوب الطاعة لأمره ، وعدم الخيد عن إشارته مادام فيهم أميراً ولهم قائداً ، وقد كان في استطاعته أن يشافه الجيش بمثل هذا التنبيه ، لو لم ير أن يبدأهم بنفسه ويؤدب نفوسهم بأدبه ، وهيئات هيئات أن تلد الولادات مثل أبي بكر وعمر .

هذا وقد أوصاهم أبو بكر قبل رجوعه عنهم بوصية قصارى ما يقال فيها ، إن الدول المتمدينة الآن مع حرصها على تخفيف بلاء الحروب ودعواها العريضة في خدمة الإنسانية والإنسان ، ومراعاة حقوق العمران ، لم تستطع واحدة منهن أن تقيد جيوشها بمثل مضمونها أو يرتبطن جميعاً بقاعدة من قواعدها .
وها هي ذى بنصها .

لا تخونوا ، ولا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً وتحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . وسوف تقدمون على قوم فخصوا بوساط رؤوسهم وتركوا حواشيها مثل العصائب فأخفقوهم بالسيف خنقاً .

ثم قال اندفعوا باسم الله ، وأوصى أسامة أن يفعل ما أمر به رسول الله ﷺ ، فسار وأوقع بقبائل من قصاعة ، وأغار على أبني موضع بتاحية البلقاء (١) وغنم وعاد بعد أربعين يوماً وقيل بعد سبعين يوماً .

الكلام على الردة

بحث في الردة :

ربما يتوهم متوهم من إيراد الكلام على أهل الردة على علاته أن الردة إنما هي ارتداد العرب عن الإسلام إلى الشرك ، كما توهم بعضهم في مناظرة جرت بيني وبينه من بضع سنين في مجلة الهلال التي تطبع في مصر ، والحال أن ردة العرب يومئذ لم تكن بهذه المثابة ، وإنما اعتبرهم أبو بكر مرتدين لتركهم ركناً من أركان الدين وهو الزكاة . وللعلماء والمؤرخين مباحث بهذا الشأن أحببت أن أخصها في هذا الكتاب ليظهر بها معنى الردة يومئذ على وجه الصحيح فأقول :

رأى العرب ضعف المسلمين واضطرابهم بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، لا سيما لما بلغهم استئصال أمر مسلمة الكذاب وطليحة الأسدي

(١) في الجنوب الغربي من الشام .

فأخذوا يتناجون في الامتناع عن دفع الزكاة التي ثقلت عليهم وعدوها كالإتاوة التي لا تطيب نفس العرب بدفعها ، ولم تلبث أن فشلت هذه الفألة بينهم حتى أظهروا الامتناع وطردوا عمال الزكاة ، ولما انتهى الخبر إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه جمع الصحابة للشورى ، فاختلفوا في هل يقاتل العرب على تركهم شيئاً من الدين كما لو قوتلوا عليه كله .

(قال الشهرستاني في الملل والنحل) فقال قوم لا نقاتلهم فقال الكفرة ، وقال قوم بل نقاتلهم ، حتى قال أبو بكر : لو منعوني عقالا (١) ، ما أعطوا رسول الله ﷺ ، لقاتلهم عليه ، ومضى بنفسه إلى قتلهم ووافقه الصحابة بأسرهم ، وقد أدى اجتهاد عمر في أيام خلافته إلى رد السبا والاموال إليهم وإطلاق المحبوسين منهم .

وفي سياق حكاية لإقرار الصحابة على قتال أهل الردة بيان كاف في حقيقة تلك الردة التي قوتلوا عليها ، فقد نقل ابن شاذان في عيون التواريخ أن أبا بكر لما جمع الصحابة للشورى في قتال العرب يومئذ أشار عمر بعدم قتالهم ، فقال أبو بكر والله لو منعوني عقالا كانوا يؤذونه إلى رسول الله ﷺ ، لقاتلهم على منعها ، فقال عمر كيف نقاتل الناس ، وقد قال رسول الله ﷺ ، (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله (٢) ، وأن محمداً رسول الله فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله) .

(١) في مشكاة المصابيح نقلاً عن النهاية — أراد بالعقال الحبيل الذي يعقل به البعير الذي كان يؤخذ في الصدقة لأن على صاحبها التسليم ولما يقع القبض بالرباط وقيل أراد ما يساوى عقالا من حقوق الصدقة إذا أخذ المصدق أعيان الإبل قيل أخذ عقالا وإذا أخذ أثمانها قيل أخذ نقداً هـ . وقال المبرد في السكامل لأن المصدق إذا أخذ من الصدقة ما فيها ولم يأخذ ثمنها قيل أخذ عقالا وإذا أخذ الثمن قيل أخذ نقداً .

(٢) هكذا في الأصل ولم ترد في هذه الرواية وإنما وردت في رواية حتى يشهدوا أن لا إله إلا

فقال أبو بكر . والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال وقد قال إلا بحقها . قال عمر رضى الله عنه فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق اه .

وذكر العلامة أبو الحسين عروة الخنبلى فى رسالة البدع فى الجزم العشرين من كتاب السكوا كب (١) أن قتال الصديق رضى الله تعالى عنه لأهل الردة إنما كان لمنعهم الزكاة فقط ، وأفاض فى هذا البحث مبيناً أن من ترك شيئاً من الدين يقاتل عليه كما لو قتل عليه كله ، والزكاة من الدين ، فاجتهاد أبى بكر أداه لقتال العرب عليها اه .

وفى حديث ابن مسعود الذى يقول فيه (وسيا فى بتمامه) فوالله ما رضى منهم إلا بالخطئة الخزية أو الحرب المجلية . فأما الخطئة الخزية فأن يقرروا بأن من قتل منهم فى النار . دليل على أن الردة لم تكن ردة عن الإسلام إلى الشرك وإلا فما معنى إقرارهم على أن من قتل منهم فى النار ولو كانوا على الشرك فهم فى النار بالطبع أنكروا أو أقروا .

وإنما حمل العرب على منع الزكاة استئقاهم لها وعدها كالإتاوة بدليل ما رواه المؤرخون من أن عمرو بن العاص مر عند منصرفه من جيفر على بلاد بنى عامر ، فنزل بقرة بن هبيرة وقرة يقدم قدماً ويؤخر أخرى ، ومعه عسكر من بنى عامر فذبح له وأكرم مشواه ، فلما أراد الرحلة خلا به قرة وقال يا هذا إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة فإن أعفتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا يجتمع عليكم . وكان عمرو من

(١) هذا الكتاب موجود فى مكتبة دمشق الشام فى جامع الملك الظاهر وهناك اطلعت عليه وهى المكتبة التى عفى مجملها من بقايا السكتب الموجودة فى المدارس القديمة المرحوم مدحت « باشا » لما أسندت إليه ولاية سورية سنة ١٢٩٥ وأحسن ما فيها هذا الكتاب والتاريخ الكبير للحافظ ابن عساكر فى نيف وأربعين مجلداً .

صناديد قريش ودهاتها ، فلم يعبأ بقوله بل أظهر لديه من الشهامة والشهم
فوق ما ينتظر منه حيث قال له . أ كفرت يا قرة وتخوفنا بالعرب ، فو الله
لاوطئن عليك الخيل في حفش أمك والحفش بيت صغير يتفرد فيه النفساء
ثم قام وذهب .

هذه حقيقة الردة فيمن لم يرتد حقيقة كمن شايع مسيئة الكذاب
وطليحة الأسدي ، قد بسطناها ليسكون القارئ منها على علم ، وهى وإن
تكن بتلك المثابة إلا أنها كانت تدل على شر عظيم يلحق بالمسلمين
لو استفحل أمرها واستهين بشأنها ولكن نهض لها أبو بكر رضى الله تعالى
عنه بعزيمة الماضية . وحكمته السامية . فجاء الله عن الإسلام
خير الجزاء .

فقال أهل الردة

اعلم أنه كما كان للمهاجرين والأنصار فضل وسابقة فى نصرة الإسلام
ومظاهرة النبي عليه الصلاة والسلام حتى طامن بهم من إشراف من فإواه .
واستخذى من عاداه فلعمامة قريش أيضاً مثل هذا الفضل بعد وفاة النبي عليه
الصلاة والسلام ، فإن قريشاً استقبلت بصدورها حوادث الردة المريعة
ونيرانها المتأججة ، وأخذت على عاتقها استنضاع العرب وقد ارتدت
قبائلها عامة أو خاصة إلا ثقيفاً وقريشاً فافتحمت رجالات قريش
بالمهاجرين والأنصار وثقيف وبعض الأحلاف ذلك الفجاج الذى يرتج
بأهل الردة ارتجاجاً ، وخاضت بخيلها من حروب القوم بحراً عجاجاً . ومن
عقد له يومئذ من رجالات قريش خالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبي جهل ،
وعمر بن العاص ، وخالد بن سعيد ، والمهاجر بن أبي أمية ، ولم يلبث أن
أطفأ أبو بكر نيران الردة بأمثال هؤلاء الرجال حتى رمى برجال قريش

أيضاً جيوش القياصرة وجنود الأكاسرة ، وتابعه على ذلك عمر بن الخطاب فكان من قوادهما في استخضاع تلك الجيوش الجرارة وتدويخ تلك الممالك العظيمة الشاسعة التي شيدت فيها صروح الإسلام ، وذكر على منابرها اسم محمد عليه الصلاة والسلام . خالد بن الوليد وخالد بن سعيد وعمر بن العاص ، وأبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعياض بن غنم ، وحبيب بن مسلمة الفهري ، وسعد بن أبي وقاص ، وأضرابهم من صناديد قریش ورؤسائهم ، الذين ذلوا من الصعاب وقطعوا من العقاب ولاقوا من الأهوال ما لا يحلم بذكره الإنسان ، ولا يدانيهم فيه من مشاهير العالم مدان ، كما سترى بعد إلا أنه يؤخذ على بعضهم تساهلهم في أمور الفتن العظمى حتى استشرى شرها ، وعظم على الأمة ضررها ، وهى شئون وإن كانت تحدث في كل قوم ، وتصاب بها الدول في كل عصر ، إلا أن قریشاً كانت أولى في مثل عصرها الذى نزل فيه القرآن باطراح أسباب التخاذل والمزاحمة . والأخذ بأسباب الحزم والتضافر . بعد إذ انتهت إليهم السيادة في الإسلام كما انتهت في الجاهلية ، ومع هذا فلا يسعنا إنكار فضلهم على المسلمين بخدمتهم للإسلام في أيام الفتوح العظيمة ، وأما ما عدا هذا فلمهم فيه شئون ، ربما فاتهم فيها الحزم أو قام لهم في مقامهم ذلك عذر ، وليست العصمة لإلا لله وللرسول ، والله في خلقه شئون .

نعود إلى ذكر قتال أهل الردة وذلك الموقف الحرج الذى وقف فيه المسلمون بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فنقول :

قال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه ، لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً كدنا نهلك فيه ، لولا أن الله من علينا بأبى بكر . أجمعنا على ألا نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون ، وأن نأكل قرى عربية ونعبد الله حتى يأتينا اليقين ، فعزم الله لأبى بكر على قتالهم فوالله ما رضى منهم إلا بالخطبة

الخزية أو الحرب المجلية ، فأما الخطة المخزية فأن يقرروا بأن من قتل منهم في النار ومن قتل منا في الجنة ، وأن يدوا قتلاتنا ونغنم ما أخذنا منهم وأن ما أخذوا منا مردود علينا ، وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم .

بلغ بعزيمة أبي بكر وعظيم رأيه بعد إذ رأى ما أصاب المسلمين من الغم أن آلى على نفسه ألا يدع العرب يقر لهم قرار إلا والسييف آخذ برقابهم ، والإسلام ضارب بينهم بجرانه ، وبينما هو يطاول في الأمر انتظاراً لرجوع أسامة بجيش المسلمين ، أعجلته عبس وغطفان وأسد وطىء ، وكان بعضهم نازلاً بذى القصة وبعضهم بالأبرق ، فأرسلوا إليه وفدآ يذلون الصلاة ويمنعون الزكاة فردهم خائبين ، فرجعوا وأخبروا القوم بقله المسلمين وضعفهم ، وقد غرتم كثيرتهم وأعماهم الجهل عن أن مع المسلمين قوة الإيمان واليقين ، وفيهم من الصيد الصناديد وليوث الحرب الشجعان ، مثل عمر وعلى وطلحة والزبير الذين لا يفل لهم حد ولا يدرك لهم جد .

خشى أبو بكر بعد مسير الوفد من البيات فجعل على أنصار المدينة علياً وطلحة والزبير وابن مسعود ، وأمرهم بملازمة المسجد خوف الغارة من العدو فما لبثوا ثلاثاً حتى طرق العدو المدينة غارة مع الليل ، وخلفوا بعضهم بذى حسى ليكونوا لهم ردة آ فوافوا ليلاً الأنقاب وعليها المقاتلة فمنعوهم ، وأرسلوا إلى أبي بكر نخرج بالمسلمين على النواضح ، فردوا العدو وأتبعوهم حتى بلغوا ذا حسى^(١) فخرج عليهم الردء بأنحاء قد نفخوها وفيها الجبال ثم ددهوها^(٢) على الأرض ، فنفرت إبل المسلمين وهم عليها ورجعت بهم إلى المدينة ولم يصرع أحد منهم .

(١) ذو القصة وذو حسى « أو ذو خشب على رواية البعض » أما كن قرب المدينة لجهة نهد وهى منازل القوم .

(٢) أى نفخوها والأنحاء هى القرب .

ثم خرج أبو بكر ليلاً على تعبئة فاطم الفجر إلا وهم والعدو على صعيد واحد ، فما شعروا بالمسلمين حتى وضعوا فيهم السيوف فولوا الأدبار وأتبعهم أبو بكر حتى نزل بذى القصة . وكان أول الفتح ووضع بها النعمان بن مقرن في عدد ، ورجع إلى المدينة فطرق المدينة صدقات نفر كانوا على صدقة الناس وقدم في أثناء ذلك أسامة بن زيد بجيش المسلمين ، فاستخلفه أبو بكر على المدينة وجنده معه ليستريحوا ويريحوا ظهرهم ثم خرج فيمن كان معه فقام إليه على والمسلمون وناشدوه الله ليقم فأبى ، وقال والله لأواسينكم بنفسى وسار إلى ذى حسى وذى القصة حتى نزل بالأبرق فقاتل من به فجزمهم وغلب على بنى ذبيان وبلادهم وحماها لدواب المسلمين ، ثم رجع إلى المدينة فلما استراح أسامة وجنده وكان قد جاءهم صدقات كثيرة تفضل عليهم بادر أبو بكر إلى تسيير الجيوش إلى أهل الردة .

تسيير الجيوش إلى أهل الردة :

عقد أبو بكر لقتال أهل الردة أحد عشر لواء .

الأول : عقده لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد فإذا فرغ سار مالك بن نويرة بالبطاح إن أقام له .

الثانى : لعكرمة بن أبى جهل القرشى ، وسيره إلى مسيلمة .

الثالث : للمهاجر بن أبى أمية المخزومى القرشى ، وأمره بجنود الغنمى فى اليمن ومعونة الأبناء على قيس بن مكشوح ، ثم مضى إلى كندة بحضر موت الرابع : لخالد بن سعيد بن العاص القرشى وبعثه إلى مشارف الشام .

الخامس : لعمر بن العاص القرشى ، وأرسله إلى قضاة .

السادس : لحذيفة بن محصن الغلفانى من حمير ، وأمره بأهل دبا .

السابع : لعرجة بن هرثة البارقي من الأزد ، وأمره بمهرة .

الثامن : لشرح حبيب بن حسنة حليف بنى زهرة ، وأرسله فى إثر عكرمة ابن أبى جهل وإذا فرغ يلحق بقضاة .

التاسع : لمعن بن حاجر السلى ، وأمره ببنى سليم ومن معهم من هوازن .

العاشر : لسويد بن مقرن من أوس ، وأمره بهامة باليمن .

الحادى عشر : للعلام بن الحضرمى حليف بنى أمية ، ووجهه إلى البحرين .

لما سیر ابو بكر هؤلاء الأمراء كتب لهم عهداً ستأتى صورته فى باب كتبه وخطبه ، وكتب لجميع المرتدين أيضاً كتاباً وسيره مع الرسل وستأتى صورته أيضاً .

حروب الأمراء مع أهل الردة وأخبارهم

طليحة الأسدى :

هو طليحة بن خويلد الأسدى من بنى أسد بن خزيمة وكان قد تنبأ فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكثر جمعه ومات النبی صلى الله عليه وسلم وهو على ذلك ، فتبعه كثير من العرب عصبية لهذا كان أكثر أتباعه من أسد وغطفان وطىء ، ولما قصد مهاجمة المدينة أمد هذه القبائل بأخيه حبال ، فافترقوا فرقتين فرقة أقامت بالربذة وفرقة سارت إلى ذى القصة ، ثم أوفدوا وفداً إلى أبى بكر يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة فأبى عليهم أبو بكر ذلك ، وجرى من أمرهم وأمر المسلمين ما تقدم قبل ، ولما سار أمراء المسلمين بالجيوش قصد خالد بن الوليد رضى الله عنه طليحة فزمه وفرق جمعه ، وأسر منهم عيشة بن حصن الفزارى كما سيأتى تفصيل ذلك فى سيرة هذا البطل المغوار إن شاء الله .

ولما تفرق هذا الجمع أقبل فلاحهم إلى امرأة اسمها أم زمل سلمى بنت مالك بن حذيفة بن بدر ، كانت سبيت في مدة الرسول صلى الله عليه وسلم ووقعت لعائشة فأعتقتها فرجعت إلى قومها ، ولما اجتمع هذا القل أمرتهم بالقتال فجاءها خالد فقتل جمعها وقتلها .

تميم وسجاح :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر على بطون بني تميم ستة أمراء ، وهم الزبرقان بن بدر ، وقيس بن عاصم ، وصفوان بن صفوان ، وسبرة بن عمرو ، ووكيع بن مالك ، ومالك بن نويرة ، فلما وقع إليهم الخبر بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم سار صفوان بن صفوان إلى أبي بكر بصدقات بني عمرو ، ووافى الزبرقان فأتبع صفوان بصدقات الرباب وهي ضبة بنت أد بن طابخة ، وعدى وتيم وعكل وثور بنو عبد مناة بن أد بصدقات عوف والأبناء وكلها من بطون تميم ، ومنها قيس ابن عاصم ومالك بن نويرة ، فأما قيس فندم ولما أظله العلاء بن الحضرمي أخرج الصدقات فتلقيها بها ثم خرج معه ، وأما مالك فتنخير وتشاغلتم تميم ببعضها ببعض فقام من بقي على الإسلام في وجه من ارتد ، وبينما هم على اختلافهم إذ جاءتهم من الجزيرة سجاح بنت الحرث بن سويد بن علفان التميمية وكانت ورطها في أخوالها من بني تغلب في الجزيرة ، فادعت الثبوة وجاءت تريد غزو أبي بكر فطلبت من مالك بن نويرة المودة فوادعها وردّها عن غزو المدينة وحملها على غزو المسلمين من بني تميم ، فجاءهم أمر أعظم مما هم فيه لاختلافهم ففروا أمامها ، أما هي فسارت تريد المدينة حتى بلغت النجاج قرية بالبادية ، فأغار عليها أوس بن خزيمه الهجيمي في بني عمرو من تميم وأسر بعض رجالها ، ثم تجاوزا على أن يطلقوا أسراها وتطلق أسراهم وترجع فلا يجتاز عليهم ، فيئست بذلك من الذهاب إلى المدينة وانقلبت تريد اليمامة ، وجرى لها مع مسيلة أمور لا محل لذكرها هنا ، ثم رجعت إلى

الجزيرة ولم تزل في تغلب حتى نقلهم معاوية عام المجاعة وجاءت معهم وحسن إسلامها وإسلامهم .

مالك بن نويرة

ندم بنو تميم كلهم على ما صنعوا ، وتراجعوا إلى الإسلام وأدوا الصدقة إلا مالك بن نويرة فإنه بقي متردداً بين الأمرين ، واجتمع إليه قومه بالبطاح فسار إليه خالد بعد أن انتهى من أمر طليحة ، فلما علم مالك بمسيره إليه أمر قومه فتفرقوا في المياه ، فبث خالد السرايا في إثرهم فأتى بجماعة منهم أسرى وفيهم مالك فأمر بقتلهم فقتلوا وسيأتى تفصيل هذا الخبر في سيرة خالد بن الوليد .

مسيلة وأهل الجماعة

كان مسيلة من وفد مع قومه بني حنيفة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما رجع ومن معه إلى منازلهم باليامة ادعى مسيلة النبوة وأنه أشرك مع محمد بالأمر ، واجتمع عليه بنو حنيفة وكانوا أربعين ألف مقاتل ، ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث أبو بكر البعوث عقد لعكرمة بن أبي جهل إلى اليامة كما تقدم ، وأمدّه بشرحبيل بن حسنة فلم يتربص ريثما يصله المدد ، بل تعجل ليكون له الفضل خاصة وتقدم فواقع القوم فنكس ، فكتب إلى أبي بكر بالخبر فغضب عليه أبو بكر ، وكتب إليه لا أرينك ولا ترائي فتوهن الناس ، امض إلى حذيفة وعرجة فقاتل أهل عمان ومهرة ، ثم تسير أنت وجندك تستبرئون الناس حتى تلقى مهاجرين أبي أمية باليمن وحضر موت .

وكتب إلى شرحبيل بالمقام إلى أن يأتيه المدد مع خالد بن الوليد ، فإذا فرغوا من مسيلة تلحق بعمر بن العاص تعينه على قضاة . فلما رجع خالد من البطاح إلى أبي بكر واعتذر إليه عما صنع بمالك وقومه فقبل عذره . ورضى عنه ، وجهه إلى مسيلة وأوعب معه المهاجرين والأنصار وعلى الأنصار .

ثابت بن قيس بن شماس . وعلى المهاجرين أبو حنيفة وزيد بن الخطاب .
وسار خالد للقاء مسيلمة فأمدّه أبو بكر بسليط ليكون رداء له لئلا يؤتى من
خلفه ، فلما علم مسيلمة ومن معه بدنو جنود خالد خرجوا فمسكروا في منتهى
ريف اليمامة ، واستنفروا الناس فنفر إليهم عدد كثير .

تقدم خالد وعلى مقدمته شرحبيل ، ولما كان على ليلة من معسكر بني حنيفة
التقى بسرية منهم راجعة من بلاد بني تميم وعامر لإدراك ثأر لهم ، وعليهم
مجااعة بن مرارة من سادات بني حنيفة ، فأمر بهم خالد فقتلوا إلا مجاعة فإنه
استبقاه لشرفه ، ثم سار خالد حتى التقى بجيش المرتدين في مكان يدعى بعقرباء
وجرى بينهم قتال شديد بيعت فيه الأرواح ببيع السماح وأصيب المسلمون
بناس من ذوى البصائر والشرف ، وانتهى الأمر بقتل مسيلمة وانهازم بني
حنيفة ، وسيأتى هذا الخبر مفصلاً في سيرة خالد بن الوليد إن شاء الله تعالى ،
فإن هذا الموطن من مواطنه العظيمة في حروب الردة .

ردة أهل البحرين

كان أهل البحرين وهم قبائل من ربيعة قد وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم
في حياته وأسلموا ، فأمر عليهم المنذر بن ساوى فلما توفي عليه الصلاة والسلام
كان المنذر مريضاً فتوفي عقبه فارتد أهل البحرين ، فأما بكر فتمت على ردتها ،
وأما عبد القيس فراجعت الإسلام بهمة الشهم الجليل الجارود بن المعلى
العبدى ، وكان جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام وتفقه في الدين وامتلاءً
قلبه بنور اليقين ، وعاد إلى قومه عبد القيس فكان فيهم إلى حين الردة فجمعهم
لما قالوا لو كان محمد نبياً لم يمت ، وقال لهم : أتعلمون أنه كان لله أنبياء فيما
مضى . قالوا نعم . قال فما فعلوا قالوا ماتوا . قال فإن محمداً قد مات كما ماتوا ،
وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فأسلموا وثبتوا على إسلامهم .
هكذا تسعد الأمم بواحد وتشقى بآخر ، وليس بين الشقاء والسعادة

إلا عقبة لا يقطعها إلا المخفون من الشهوات ، الغالبون على هوى النفس ،
المالكون للإرادة التي لاسلطان عليها من الشهوات ، ولا قائد لها من التقليد ،
ولنما هي مطلقة في عالم الحس تتناول منه ما طاب وتنبت ما خبيث .

فكما منى الإسلام بناس من المعطلين الذين ران الهوى على قلوبهم ،
واستحكمت عادة الضلال والإضلال في نفوسهم ، فأثاروا نائرة الفتنة ،
وأبوا إلا الاسترسال فيما وجدوا عليه آباءهم من الضلال ، فقد رزق ناساً
على العكس من هؤلاء قد غلبت إرادتهم على الهوى ، واستفارت بصائرهم
بنور الهدى . فكانوا للحق أنصاراً ، والإسلام أعواناً ، وفيمن كان من
هؤلاء في أهل الردة فاهتدى به قومه وسعدت بالتمسك بعري الإسلام
عشيرته ، فكانت عوناً للمسلمين على المرتدين ، هذا الشهم أى الجارود بن المعلى
العبدى ، وصفوان بن صفوان التميمي ، وعدى بن حاتم الطائي وأمثالهم من
أهل البصيرة والرأى ، الذين أراد الله أن يضرب بهم وجوه المرتدين ،
ويكونوا عوناً للمسلمين ، لتعلو كلمة هذا الدين ، ولو كره المشركون .

لما اجتمع إلى الجارود قومه من المسلمين ، واستمروا على الإسلام
خرج إليه الخطم بن ضبيعة من بكر بن وائل ، ومعه جمع عظيم من المشركين
والمرتدين ، ليستبيحوا حماه وينتقموا على زعمهم ممن جاره ، فنزلوا على
القطيف وهجر وحصروا أصحاب الجارود ، فأرسل أبو بكر كما تقدم العلاء
ابن الحضرمي لأهل البحرين ، فلما كان بجبال اليمامة لحق به ثمامة بن أثال
الحنفي ، في مسلة بنى حنيفة وقيس بن عاصم المنقري في قومه ، وأناه كثير
من أهل اليمن فسلك بهم الدهناء حتى إذا كان في محبوبتها نزل وأمر الناس
بالنزل في الليل ، فنفرت إبلهم بأحمالها فما بقي عندهم بعير ولا زاد ولا ماء ،
فلحقهم من الغم ما لا يعلمه إلا الله ، ووصى بعضهم بعضاً فدعاهم العلاء فاجتمعوا
إليه فقال ، ما هذا الذي غلب عليكم من الغم ؟ فقالوا كيف نلام ونحن إن بلغنا
غداً لم تحم الشمس حتى نهلك .

حقاً لأنه لموقف يروع القلوب ، ويستدعى اليأس من الحياة . لإبل نافرة بالزاد والماء ، وصحراء رملية تتلظى تلظى الرمضاء ، منقطعة عن العمران لا يعهد فيها الماء ولا يقطعها إلا المزود بالكفاية توسطها المسلمون وهم لازاد لديهم ، ولأماء يبل صدام ، فإذا يصنعون ؟

رحمك اللهم فإن العلاء آلى ألا تهلك هذه العصاة المسلمة في مثل هذه الدهناء ، مادام في سبيل الله سعيها ، وإلى نصرة الحق قصدها ، فقال لهم : لن تراعوا أتم المسلمون وفي سبيل الله وأنصار الله ، فأبشروا فوالله لن تحذلوا ؛ فلما صالوا الصبح دعا العلاء ودعوا معه ، فلبع لهم الماء فشوا إليه وشربوا واغتسلوا ، فما تعالى النهار حتى أقبلت الإبل تجمع من كل وجه ، فأناخت إليهم فسقوها .

فكان الله سبحانه وتعالى امتحن بهذه النازلة قلوباً لم يتسكن منها اليقين ، وأسعفهم بعد الشدة برحمته ، ليوقنوا أنه لا يتخلى عن عباده المخلصين .

ثم أرسل العلاء إلى الجارود يأمره أن ينزل بالخطم مما يليه ، وسار هو فيمن معه حتى نزل عليه مما يلي هجر ، فاجتمع المشركون إلى الخطم إلا أهل دارين ، واجتمع المسلمون إلى العلاء وخذق كل نفسه ، وكانوا يتراوحوون القتال ، فإذا أمسوا رجع كل إلى خندقه ، حتى إذا كان ليلة سمع المسلمون ضوضاء من ناحية المشركين ، فأرسل العلاء من يستعلم الخبر ، فجاء بأنهم سكارى فيبتهم المسلمون شربيات ووضعوا فيهم السيف كيف شاءوا حتى هربوا وهم بين مقتول ومأسور وقتل زعيمهم الخطم ، ثم قصد فلشهم جزيرة دارين في الخليج الفارسي ، وعبروا إليها في السفن فعبّر خلفهم المسلمون وقتلواهم هناك فظفروا بهم ، وتم النصر للمؤمنين فسكتب العلاء إلى أبي بكر بالفتح .

عمانه ومهرة :

لما أسلم أهل عمان في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ولى عليهم الأخوين جيفرآ وعيادآ ابني الجلندى ، وكان قد نبغ في عمان ذو التاج لقيط بن مالك الأزدي ، وكان يسمى في الجاهلية الجلندى ، وادعى بمثل ما ادعى من تنبأ . وغلب على عمان مرتدآ ، فتبعه كثير من أهلها فخافه ابنا الجلندى فعاد بالجبال . وبعث جيفر إلى أبي بكر فبعث إليه حذيفة بن محصن وعرجة بن هرثمة كما تقدم الخبر عن هذا ، وأرسل في أثرهما عكرمة بن أبي جهل بعد هزيمته في اليمامة ، فلحقهما قبل أن يوصلا عمان ، فلما قاربوها كاتبوا جيفرآ فأتاهم وعسكروا بصحار عاصمة عمان ، أما لقيط فإنه جمع جموعه وعسكر بدبا ، فالتقى الفريقان واقتتلا قتالا شديدا كاد المسلمون ينهزمون فيه ، لولا أن الله من عليهم بمدد عظيم من بنى ناجية ، وعليهم الخريت بن راشد ، ومن عبد القيس وعليهم سيحان بن صوحان وغيرهم ، فاستظهروا بهم وهزموا المشركين ، ثم سبوا الذرية وقسموا الغنيمة وبعثوا إلى أبي بكر بالخنس مع عرجة وأقام حذيفة بعمان يسكن الناس ..

وأما مهرة فإن عكرمة بن أبي جهل سار إليهم ، لما فرغ من عمان ومعه جمع من ناجية وعبد القيس وراسب وسعد ، فاقتحم بلادهم فوافق بها جمعين من مهرة مختلفين ، أحدهما مع سخرية رجل منهم ، والثاني مع المصباح أحد بني محارب ، ومعظم الناس معه فالتقى عكرمة الحيلة بأن كاتب سخرية فاجابه وأسلم وكاتب المصباح يدعوه فلم يجب ، فرأى أن يمحوا ملحقه من غضب أبي بكر لانهزام جيشه في حرب مسيلمة ، فقاتل المارتدين قتالا شديدا فانهزموا ، وقتل رئيسهم وأصاب المسلمون ماشاؤا من الغنائم ، فبعث عكرمة بالآخناس إلى أبي بكر مع سخرية ، وأقام هناك يدبر الأمور ويدعو الناس إلى الإسلام ، حتى اجتمع الناس على ما يجب وضرب الإسلام بحجرانه .

رودة اليمين :

لما فتحت اليمن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولى عليها باذان الفارسي ، الذي كان عاملاً للأكاسرة على اليمن ، ثم دان بالإسلام وكان مقره صنعاء ، فلما مات قسم النبي صلى الله عليه وسلم عمله على ولده شهر ونفر من الصحابة . منهم أبو موسى الأشعري وخالد بن سعيد بن العاص وغيرهم ، فثار عليهم رجل من عنس اسمه عبهلة ولقبه ذو الخنار وشهرته الأسود ، فادعى النبوة فأحابه بعض العرب ، ثم جرت معه أمور يطول ذكرها انتهت بقتله ، وأقام أصحاب الأسود يترددون بين صنعاء وعدن لا يأوون إلى أحد وتراجع عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أعمالهم وبعثوا إلى المدينة بالخبر ، وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما شاع خبر الوفاة ارتد قيس بن عبد يغوث وكاتب المنهزمين من جنود الأسود فاجتمعوا إليه ، وأراد أن يحتال في قتل كبار الأبناء (وهم جماعة أصلهم من فارس واستوطنوا اليمن وهم الذين قتلوا الأسود العنسي) فهبأ لهم طعاماً ودعاهم إليه فظفر بواحد منهم وهو داذويه ، ونجا الباقيون وهما اثنان فيروز وخشاش (١) فطلبهما فامتنعاً بقبيلة خولان ، فرجع قيس إلى صنعاء فاستأثر بها وعمد إلى عيالات الأبناء فغربهم وأخرجهم ، فلما علم بذلك فيروز استمد بني عقيل ابن ربيعة وعك فساروا واستخلصوا عيالات الأبناء التي سيرها قيس ، وقتلوا من معها من الرجال ، ثم انصرفوا إلى فيروز فقاتل بهم قيساً ورجاله حتى هزمهم ، وفي غضون ذلك أتاهم المهاجر بن أبي أمية الذي عقد له أبو بكر لواء وسيره لقتال جنود العنسي ومعاونة الأبناء ، وجاء على أثره عكرمة ابن أبي جهل بعد أن انتهى من عمان ومهرة فساعدوا الأبناء على قتال جنود

(١) وفي تاريخ الطبري جشوش .

قيس بن عبد يغوث حتى انهزموا وأسر قيس وعمرو بن معد يكرب الزبيدي الذي كان ارتد واتبع الأسود فسيراعما إلى أبي بكر .

كان أبو بكر رضى الله تعالى عنه يتألف القلوب بالإنابة ولا يتعجل بالعقوبة، فلما وصل إليه قيس أنه على ما فعل ، فأناكر أن يكون قارف من أمر داذويه شيئاً ، ولم يكن هناك دليل ظاهر على قتله له ، لأن القتل كان خلصة فتجافى له عن دمه وتجاوز له عن سوء عمله . وقال لعمر بن معد يكرب أما تستحي أنك كل يوم مهزوم أو مأسور^(١) لو نصرت هذا الدين لرفعك الله . فقال لا جرم لأقبلن ولا أعود . ورجعا إلى عشائرها مؤمنين ، وكان لعمر بن معد يكرب البلاء الحسن في فتوح نهاوند بعد ، وفيها استشهد على ما سترى .

كندة وحضر موت :

كان زياد بن لبيد الأنصارى عاملاً على كندة وحضر موت، بالنيابة عن المهاجر بن أبي أمية الذي تولى هذا العمل من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما تأخر بالمدينة بسبب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم استخلف على عمله زياداً ، وكان قد ولى صدقات بني عمرو بن معاوية من كندة بنفسه ، فقدم عليهم فوقع بينهم وبينه خلاف على بكرة وقع عليها مبسم الصدقة غلطاً ، فطلبوا إليه استبدالها بغيرها فأبى ، وأغلظ على شيطان بن حجر وأخيه العداء ، فاستغاثا بحارث بن سراقبة بن معد يكرب ، فأقبل إلى زياد وحل عقال الناقة ، وبعثها وقام دونها فأمر زياد شباباً من حضر موت والسكون فنعوه وكنفوه وكتفوا أصحابه ، وأخذوا البكرة وتصايحت كندة وغضبت بنو معاوية لخارثة

(٢) كان عمرو قد انهزم من خالد بن سعيد بن العاص في أول رده وأخذ منه خالد سيقه الصمصامة ولم يزل عنده حتى استشهد بالشام فصار إلى بني العاص ثم إلى بني أمية ثم إلى بني العاص إلى عهد الواثق حيث أمر بدفعه إلى صيقلي ليسقيه فتغير ،

وأظهروا أمرهم، وغضبت حزموت والسكون لزياد وتوافى عسكران عظيمان من هؤلاء، ولم تحدث معاوية شيئاً خوفاً على أسراهم ولم يجد أصحاب زياد شيئاً يتعلمون به عليهم، وأمرهم زياد بوضع السلاح فلم يفعلوا، ونهد إليهم ليلاً فقتل منهم وتفرقوا .

لما تفرق القوم اطمأن زياد من جهتهم ، فأطلق حارثة ومن معه ولم يتربص ريثما يصل إليه المهاجر بجيشه ليأمن غدرهم ، فلما رجع الأسرى إلى أصحابهم حرصوا على زياد ومن معه ، واجتمع منهم عسكر ونادوا بمنع الصدقة . ومن هذا يعلم أن كبندة آخر من منح الصدقة بعد ردتهم الأولى مع الأسود العنسى ، وإنما ألجأهم إلى ما فعلوا الآن ما وقع بينهم وبين زياد من الخلاف .

اجتمع الملوك الأربعة منهم ونزلوا المحاجر ، وهى أحياء حموها ونزلت بنو الحرث بن معاوية محاجرهما ، فنزل الأشعث بن قيس محجرأ ، والسمط ابن الأسود محجرأ ، وأطبقت بنو معاوية على منع الصدقة إلا الشهم اطمأن شرحبيل بن السمط وابنه ، فإنهما قالاً لبني معاوية . إنه لقبيح بالاحرار التنقل ، لأن الكرام ليلزمون الشبه فيتكرمون أن ينتقلوا إلى أوضح منها مخافة العار ، فكيف الانتقال من الأمر الحسن الجميل إلى القبيح ، ومن الحق إلى الباطل اللهم إنا لا نألى قومنا على ذلك .

فله ما أسى هذه النفوس وأشرف هذه الشيم وأعلى هذه المدارك ! وإنما ساد المسلمون لا بكثرة ، وغلبوا على من غلبوا من الأمم لا بقوة عدد وعديد ، وإنما هو رجال مثل هذين لم تضعف في مواطن الشدة قلوبهم ، ولم تلفتهم عن الحق رغبة بأهل أو وطن أو رهبة من عدو ذى شوكة ، فاللهم ارزق المسلمين الآن أمثال أولئك الرجال وغير حالهم الذى انتهوا إليه يا حسن حال ، إنك مجيب السؤال .

قال شرحبيل وابنه لقومهما ما قالوا ، ثم انتقلا إلى المسلمين ومعهما امرؤ

القديس بن حابس ، وكان من حسن رأيهما وعظيم فضلهما وبعد نظرهما أن أشارا على زياد ببيات القوم ، وقالوا له إن أقواماً من السكاسك والسكون قد انضموا إليهم ، وكذلك شداد من حضر موت ، فإن لم تفعل خشينا أن تتفرق الناس عنا إليهم ، فاستحسن رأيهما وأجابهما إلى تببيت القوم فطرقوهم في محاجرهم وجاءوهم من خمسة أوجه وهم جلوس مكبون على نيرانهم ، فقتلوا الملوك الأربعة ، وقد كان لعنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأدركتهم لعنته ، وفر من قومهم من نجا من القتل ، وعاد زياد بن لبيد بالسبي واجتاز بالأشعث بن قيس فثار في قومه واستنقذهم ، وجمع الجوع فكتب زياد إلى المهاجر بن أبي أمية يستحثه ، فلقية الكتاب في الطريق فاستخلف على الجند عكرمة بن أبي جهل وتعجل في سرعان الناس ، وقدم على زياد وسار إلى كندة فالتقوا بمحجر الزبرقان ، فاقتتلوا فانهمزمت كندة وخرجوا هرباً إلى ملجأ لهم يسمى النجير وقد رموه وأصلحوه وسار المهاجر فتزل عليهم وتحصنت كندة بالنجير فحصرهم المسلمون ، وقدم عكرمة فاشتد الحصار على كندة وتفرقت السرايا في طلبهم فذلوا وخشعوا وخاف من بالنجير من الأمراء على نفوسهم ، فخرج الأشعث مع تسعة نفر فطلبوا من زياد أن يؤمنهم وأهلهم على أن يفتحوا لهم الباب فأجابهم إلى ذلك وقال اكتبوا ما شئتم ثم هلبوا بالكتاب حتى أخته ففعلوا ، ونسى الأشعث نفسه فأخذوا وأرسل مع السبي إلى ابن بكر .

لما قدم الأشعث المدينة أنبه أبو بكر وشدد عليه النكير ، فلما خشى القتل قال أو تحتسب في فتطلق إمارتي وتقبلني عثرتي وتفعل بي مثل ما فعلت بأمثالي وترد على زوجتي ، (وقد كان خطب أمه فروة أخت أبي بكر فلما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم آخرها أن يقدم الثانية) فإن فعلت ذلك تجدني خير أهل بلادى لدين الله ، فحقن أبو بكر دمه ورد عليه أهله ، وأقام بالمدينة حتى فتح العراق وكان له شأن ربما يمر معنا ذكره .

كلمة في حروب الردة :

انتهت حروب الردة على ما رأيت . وثاب العرب إلى السكون بعد أن هلموا أن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه ، وأن المسلمين قوم نصروا الله والحق ، فنصرهم الله على أعدائهم ومكن لهم السلطان في الأرض .

لو علم العرب ما أعد لهم بوساطة الإسلام من سعادة الدنيا والآخرة ، وكشف لهم الغطاء عن ذلك الملك العظيم ، الذي سيؤول إليهم ، والسلطان العظيم الذي سيصبح بأيديهم لما اعبت الأهواء برءوسهم ، وأخذت الجاهلية الأولى بهجامع نفوسهم ، ولكن هو الدين دأبه أن يلقي من الناس عناداً ، ومن العقول الفاصرة إعراضاً . حتى يتبين لها أنه الحق فترضاه ، وأنه سبيل الهدى والسعادة فتقصد إليه وتتوخاه .

تبين معنا من أخبار الردة أمور جدية بالاعتبار حرية بإمعان النظر لالجب أن يفوتنا النظر إليها وبيان ما يستنتج منها وهي :

- ١ — أن المرتدين منهم من توقف عن أداء الزكاة فقط وهم عامة العرب ، ومنهم من ارتد فعلاً وهم بعض القبائل التي قام فيها المتنكبون الأربعة .
- ٢ — ظهور دعوى النبوة بين العرب ، حتى ادعاهها أربعة رجال وامرأة من عهد الرسالة إلى نهاية أيام الردة وهم الأسود العنسي في اليمن ، وطليحة في أسد ، وخطفان ومسيلبة في بني حنيفة ، وسجاح في أخوالها من بني بكر ورهطها من بني تميم ، ولقيط بن زرارة في عمان .
- ٣ — انقسام معظم العرب في حروب الردة ، فبعضهم للإسلام وبعضهم عليه .

٤ — سرعة التوفيق في إنهاء حروب الردة .

٥ — مصاحبة النصر للمسلمين في كل وقائعهم .

فأما الأمر الأول فهو يؤيد ما تقدم معنا في مقدمة الكلام على الردة .

من أنها ليست على إطلاقها وإنما هو اجتهد من أبي بكر رضى الله تعالى عنه مخالفه فيه كثير من الصحابة ، ثم لما رأوا أن المصلحة تؤيد وقتئذ ما ذهب إليه أبو بكر وافقوه على ما ارتآه ، ومع هذا فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب ورأى أن هذه المصلحة زالت بزوال أسبابها ، وأن بقاء من أسر من المرتدين في حالة الرق ، مع أنهم لم يكونوا ممن يجوز عليهم الرق عار على العرب محظور في الإسلام قال : إنه لقبيح بالعرب أن يملك بعضهم بعضاً ، وقد وسع الله وفتح الأعاجم ، فاستشار الصحابة في فداء سبائيا العرب ، ثم وضع الفداء .
ورد السبائيا .

وأما الأمر الثاني وهو فشو دعوى النبوة بين العرب ، فهو عندى معجزة من معجزات النبوة ، وقد حملها بعضهم على ترقى أفكار العرب قبيل ظهور الإسلام ولا دليل لهم على ذلك ، وإنما هو الغرض يثير بالنفوس ثائرة البغضاء ، ويستل من بين الجوانح روح الحق ، فيعمى البصائر ويكشف ما تكنه من ذلك السرائر ، وإلا فأى باحث في التاريخ طلاب للحقيقة يقول إن فشو دعوى النبوة يومئذ منشؤه ترقى أفكار العرب ، مع أن هذه الدعوى إنما فشيت بعد ظهور الإسلام وبعثة محمد عليه الصلاة والسلام لا قبل ظهوره ، وإذا ادعاها واحد واثنان قبل البعثة فلأن بعض الحكماء منهم كانوا يعلمون ببعثة نبي في العرب بشرت به المكتب السابقة فكانوا يترقبونها لأنفسهم ، وأما عامة العرب فقد كانوا كالصم البكم مستغرقين في عبادة الأوثان ، لا يعرفون معنى الرسالة ولا يسمعون باسم النبوة إلا أهل الكتاب منهم كطىء مثلاً ، وهم أول من خذل مسيلمة ، وكان للإسلام نصيراً ، وللموحدين ظهيراً .

والحقيقة التى يشهد بها التاريخ ويؤيدها العقل ، أن دعوى النبوة إنما ظهرت فى العرب بعد الإسلام حسداً للرسول عليه الصلاة والسلام ، وطلباً

للياسة ، وظناً من القائمين بهذه الدعوى أن مجرد الاعتصام بالقوة وجمع
الجموع يكفي لتأييد دعوى النبوة ، ثم التذرع بها للقبض على زمام السيادة
بجسارة للرسول على زعمهم ، وحسب العاقل أن يفرق بين النبوة وبين التنبؤ
بما اقترن بهاتين من الحوادث يومئذ، ومنها أن النبي محمداً عليه الصلاة والسلام
ظل عشرين سنة يدعو إلى الإسلام، ومات ولم يجمع لديه من المقاتلة ما اجتمع
في بضعة أشهر لمسيلمة ، الذي كان جيشه الذي قاتل به خالد بن الوليد أربعين
ألفاً باتفاق المؤرخين، ومع هذه فقد سحق هو ودعواه وجيشه بصدمة واحدة
من صدمات الإسلام ، كما سحق غيره من المنتبئين الذين حشدوا الجيوش ،
وأعدوا العدة لمكاخفة الإسلام ، فصدتهم بقوة رجاله القليلين وأرداهم .
ومحاهم من الوجود في أقل من سنة ودعواهم .

وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فقد ظلت العرب تناصبه العداوة ،
وتنازله ومن تبعه في ساحة القتال مدة رسالته كلها ، ومع هذا فقد كانت
كلمته هي العليا والمسلمون على قلتهم هم الظافرون . فلم هذا ؟

لأنه صلى الله عليه وسلم كان مؤيداً بمدد النبوة الصحيحة، والفيض الإلهي
العظيم ، الذي لا تغني عنه الجيوش الكشيفة ، ولا يقوم مقامه ترقى الأفكار
ولو أنصف أوثاك الناس ، وأنعموا النظر في كثرة المنتبئين في عهد الرسالة،
وكثرة ما حشدوا وجندوا لتأييد دعواهم ، ثم انطفأ نارهم وانسحق جندهم
وانمحاق دعوتهم ، في تلك المدة القليلة واستمرار قوة النبي محمد صلى الله عليه
وسلم نامية مهيبة ، ودعوته قائمة منتشرة ، وأتباعه في ازدياد ، حتى بلغوا إلى
هذا العهد سدس البشر وضرب الإسلام بجرانه في معظم أنحاء الأرض، لعدوا
هذا كله معجزة من معجزات النبوة ، أراد الله بيانها للناس ليؤيد بها رسالة
نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، ويظهر الباطل في جانب الحق ليزين بين الاثنين.
ويعلم المعاند أن محمداً نبي الله حقاً بلامين . ولكن ما الحيلة (فإنها لا تعمى
الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) .

وأما الأمر الثالث وهو انقسام العرب في حروب الردة بين منتهصر للإسلام ، وقائم عليه ، فهو من لطف الله تعالى الذي أراد به تأييد جانب المسلمين . وتعجيل الفتح المبين . وفيه دليل على أن الناس إنما يصلحون بالرؤساء ويفسدون كذلك لأنهم لرؤسائهم تبع ولزعما السيطرة عليهم مقلدون فإن كلمة من عدى بن حاتم الطائي مثلاً كفت لانهياز أنجاد طيء وفرسانها لجانب المسلمين ، وقتلهم في صفوف الموحدين ، فإن هدياً لما كان شهماً يأبى النقيصة وقد سبق منه الإيمان بدين الله القويم . وتوكيد العهد على مظاهره المسلمين . بادر إلى قومه لما انحازوا إلى طليحة الأسدي ونصحهم على الوفاء بالعهد . وعدم الخروج عن الإيمان فسمعوا له وأطاعوا . ولما أشار به انصاعوا حتى قيل يومئذ (كان عدى خير مولود في طيء وأعظمه بركة عليهم) وذلك لتخليقهم بكريم أخلاقه . وتمسكهم بالإسلام اقتداء به . واتباعاً لنهيحته .

وكذلك ما كان من صفوان بن صفوان ، والبرقان بن بدر ، في قومهما من تميم ، حتى اقتدوا بهما وأطاعوا إشارتهما فقاموا في وجه من ارتد من أحياء تميم . وانحازوا مع ذينك الشهمين إلى المسلمين .

وأما الأمر الرابع . وهو سرعة التوفيق بإنهاء حروب الردة . والأمر الخامس وهو مصاحبة النهض للمسلمين . فإنهما ولا ريب من نتائج حسن اليقين عند المجاهدين ، وتجردهم لنصرة الإسلام تجرد من لا يرى الحياة إلا بالموت ، ويرجو من ثواب الشهادة في إعلاء كلمة المسلمين ، أكثر مما يرجو من متاع الدنيا ومكافأة المكافئين ، وحق لرجال باعوا نفوسهم في سبيل الدين وإعزاز جانب إخوانهم الموحدين أن تدك أمامهم شواخ الجبال ، لاصفوف الرجال ويستخذى لهم الملوك الكبار ، لا سكان القفار .

ولا ينكر ما لأبى بكر رضى الله تعالى عنه من حسن الاختيار بمن ولاهم حروب الردة ، من القواد العظام الذين أمعنوا بجيوش المسلمين القليلة في أحشاء

بلاد العرب ، وجابوا أنحاءها الفاصية حتى بلغوا مشارف الشام والجزيرة شمالاً ، وشطوط البحر الهندي جنوباً ، والعراق العربي وخليج فارس شرقاً وشطوط البحر الأحمر ومضيق باب المندب غرباً ، ولم تكن غيبتهم إلا كما يغيب المرتاد للمناجع ، ثم انقلبوا ظافرين ، وقد عمموا في جزيرة العرب دعوة القرآن ، وجمعوا سكانها على كلمة الإيمان .

وقد نتج عن هذا كله أن وقعت هيبة الإسلام في قلوب العرب ، وأيقنوا أنه الدين الحق الذي لا يفلح مناوئته ، ولا ينجح شائته ، فأقبلوا بأجمعهم إليه وجمعوا كلمتهم المنفرقة عليه .

فتوحات أبي بكر

تمهيد الفتح الإسلامي

رأى أبو بكر رضى الله تعالى عنه ألا يدع لبعض المنافقين الذين لا يروق لهم سمو شأن الإسلام وقتاً ، لدس سموم الفتنة في جسم تلك الأمة العظيمة ، التي جمعتها كلمة الإسلام ، وأن يشغلهم مع الجيوش الإسلامية بالفتح تعميماً للدعوة الإسلامية ، وبثاً لروح العدل والحرية بين الأمم ، فما هو إلا أن ولج بالعرب هذا الباب حتى انكفأوا على الأمم التي مزقت أحشائها سيوف الأهواء والأوهام ، وقضى على مجدها القديم ظلم أرباب السيطرة على النفوس والأجسام ، فلم يلبث أن وافاها المسلمون يحملون لفريق أهل الكتاب منها (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً) ولفريق الصابئة ومن على نحلهم من المشركين (الإسلام أو الجزية أو السيف ^(١)) حتى اشترأبت لعدل سلطانهم أعناق الناس . ودانت

(١) قاعدة الجهاد وبث الدعوة في الإسلام هي ألا يقبل من مشركي العرب إلا الإسلام وأما أهل الكتاب فالإسلام ولأن أبوا فالجزية ، وهي ما يستعان به على إصلاح شأن الأمة ، =

لدينهم الشعوب . وخضعت لسلطوتهم الأمم فعمروا المسالك ، وشادوا الممالك ومهصروا الأمصار وكانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون القسطاس ويأخذون من أنفسهم للمظلوم حتى يرضى ، كما يأخذون على يد الظالم حتى يخذى .

أما والله إن تبلغ أمة بالظلم والقوة ، وكثرة العديد والعدة ، ما بلغه المسلمون في ربع قرن من استخضاع الأمم بالعدل والإيغال في أحشاء الممالك بدعوة القرآن فليمسك المتخضعون ، ولينصف الغريبون ، فإن سلطان الظلم إذا أسرع بسيفه إلى الرقاب ، فلا سلطة له على النفوس ، وإنما تملك النفوس بالعدل ، وتلتف الناس على القائم بالقسطاس ، السائس بالرحمة ، الباسط بساط الحرية والأمن ، ومن لهذا غير أولئك الفاتحين الأخيار ، وأنى يحاربهم سياسة الممالك في هذا المضمار ، فجزاهم الله خير جزاء على ما تركوا من حسن الأثر للمسلمين ، وبئس من غلبتهم الشهوات بعد فغيروا وبدلوا فكانوا من الخاسرين ، وقدفوا بالآمة من حائق مجدها إلى وهدة الذل المهين .

أجل إن أكثر ما فتح أولئك الفاتحون البواسل بالعدل لا بالسيف ، وبصفة المغلوبين لهم لا بالحيف ، ولما ثقلت على الأمم القديمة وطأة الاستعباد ، واستحكمت نفوس ساستهم شكيمة الظلم والاستبداد ، تلقوا المسلمين في الظاهر بالحرب ، وفي الباطن بالمسرة والحب ، ولا يسع المغلوب

== وإن أبوا فالسيف أى الحرب ، وهى منتهى درجات الدعوة ، وإنما كانت الحرب مصاحبة للدعوة لحمايتها كما يفعل الآن وقبل الآن دول الإفرنج في حماية المبشرين بالأساطيل والجند والعدة والمديد .

وقد اختلف في المشركين من غير العرب ، أى المجوس هل يحاربون على الإسلام أو الجزية أم على الإسلام فقط ، والمشهور أن النبی صلی الله علیه وسلم قبل من المجوس من أهل هجر الجزية ، وأما العرب فلن يقبل منهم إلا الإسلام ، وبهم نزل كثير من آيات الجهاد ، ومن ثم تعلم خطأ القائلين بقيام الإسلام بين الأمم بالإكراه وهو لم يقم إلا بالدعوة كما فصلنا ذلك في رسالتنا المسماة كيفية انتشار الأديان تفصيلاً شافياً .

على أمره من مستبد قاهر إلا أن يساق بعصاه كما سيق المحاربون لأهل الإسلام .
وهم مكروهون ، ولأدالة دولتهم من العرب متمنون ، وأى شاهد على هذا
أعدل من التاريخ الذى ينطق عليهم بالحق ولا يقول إلا الصدق .

روى البلاذرى فى فتوح البلدان ، أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع
وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا
أخذوا منهم من الخراج ، وقالوا قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأتتم على
أمركم ، فقال أهل حمص لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم
والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم . ونهض اليهود وقالوا
والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد ، فأغلقوا
الآبواب وحرسوها . وكذلك فعل أهل المدن التى صولحت من النصارى واليهود ،
وقالوا إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه ، وإلا
فإننا على أمرنا ما بقى للمسلمين عدد .

واحزنه على ذلك العدل . قوم نشأوا فى مهد دولتهم ونشأت فى أحضانهم ،
ودانوا بدينها ودانت بدينهم ، يخلقون فى وجهها الأبواب ويظهرون عليها
العدو ويقسمون على الوفاء للمسلمين ما بقى منهم عدد يقاوم دولتهم ، وينكس
أعلام سلطانهم . وهم ليسوا على دينهم ، ولا من جنسهم ، وهل مرقوا من
الدين . وخافوا الدولة ، وباعوا الوطن وماتت فيهم طواطف العزة .

كلا وإنما هو العدل العدل . العدل الذى جمع بين الأمير والمأمور
والخادم والمخدوم والكبير والصغير فصيرهم فى شرعة الحق سواء وضمهم تحت
راية الحرية والإخاء .

شئ شاهده أولئك القوم من العرب وشهدوه وذاقوا طعمه بعد أن لم
يذوقوه ، فحب إليهم دولة المسلمين بعد إذ أصبحوا من حقيقةتها على علم ،
وقالوا لهم لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم .

اللهم إنك إذا حببت بسطان الأرض قوما فقد أذنت له ولهم بالسعادة. وأنزلت عليهم من سماء رحمتك روح السكينة ، وأفرغت عليهم لباس الأمن ، وأردت له سعة السلطان ومكنت له في الأرض كما مكنت لأنصار دينك يومئذ سلطانهم ، وجعلت أعداءهم أعوانهم ، ومن استمسك بعروة كتابك الوثقى فإن رحمتك قريب منه ، وأنى يشقيه بأولئك غيرهم وأولئك قوم رضى الله عنهم ورضوا عنه .

من يصدق أن تلك القبائل البدوية التي نشأت على حب العصبية والتهالك على قتال بعضها بعضا ، والبعد عن معنى سياسة الأمم وحكم الشعوب ، والنفرة من مظاهر الحضارة ودواعي المدنية ، تفتى إليها في بضع سنين سياسة فارس والروم ورياسة آسيا وأفريقيا ولم ينزل إليها القرآن وتستشير بشريعة سيد ولد عدنان .

لله ما أعظم فضل القرآن وما أسمى مقاصد الإسلام ؛ بالأمس كانت هذه القبائل مشهورة سيوفها على المسلمين ، والسمط بن الأسود السكندى والأشعث بن قيس في محاربهما بقومهما من كندة ، يضربون بالسيوف في وجوه المسلمين ، واليوم أحدهما الأشعث في العراق يخوض بقومه غمرات الموت ويقتحم صفوف الفرس ، وينادى يا للإسلام ، والثاني في حمص يقيم منازلها على المسلمين ، وأهلها من ورائه يغلقون في وجه دولتهم الأبواب ، ويدفعون عنه جند الروم إن هذا لمن العجب العجيب .

أصبح العرب بعد تلك الهمجية المعروفة من قادة السياسة والحرب. وأفضل من ساس الأمم فبات المغلوبون لهم ، الخاضعون لسلطانهم من الروم أحرص الناس على حكمهم ، وأرغهم في شرعهم ، أفليس في هذا كله ما يكف عن الإسلام أسنة المخرصين ؟ ويشهد بأن الفتح الإسلامى كان خيرا وبركة على الناس أجمعين .

لو قدر المسلمون قدر هذه النعمة وحافظوا على سنن السلف من الصحابة ،

ولم يجد أمرؤهم عن صراط القرآن ، ويشاق بعضهم بعضاً بسيف الخذلان ،
خدمة للأهواء وانقياداً لغلبة الشهوات لما ازداد المسلمون إلا مجداً ورقياً
والإسلام إلا انتشاراً وتعميماً ولكن هي الأخلاق إذا فسد جوهرها ،
والأهواء إذا انفجرت يناعيها صارت طوفاناً إذا اندفع على البشر ، لا يبقى
ولا يذر ، والنعم لا تدوم إلا بالشكر ، ولا تزول إلا بالكفران ، وحسبنا
من هذا قوله تعالى في القرآن (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

فنج العراق :

أول من حرك في نفس أبي بكر رضى الله تعالى عنه أمر العراق ، هو
البطل الجليل المثنى بن حارثة بن ضمضم الشيباني ، من بكر بن وائل وهو ممن
لم يتابع بكرأ على ردتها ، وبقي هو وقومه على الإسلام وكان يغير على سواد
العراق على رجال مع قومه فبلغ أبا بكر الصديق خبره فسأل عنه ، فقال له
قيس بن عاصم سنان المنقرى . هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجبول
النسب ، ولا ذليل العمد ، هذا المثنى بن حارثة الشيباني .

والظاهر أن المثنى بمجاورته لبلاد فارس وتوالى غارته على أطراف ملكهم
من جهة العراق خبر حالهم ووقف على أمورهم وعلم اضطراب حبل دولتهم
فقدم على أبي بكر ورغب إليه أن يستعمله على من أسلم من قومه ليغزوهم ،
أطراف فارس ، وسهل لديه أمرهم ورغبه بغزوهم فكتب له أبو بكر في ذلك
عهداً ، وسار إلى بلاده ثم إن أبا بكر رأى أن المثنى وحده لا يقوم بالمهمة التي
خالجت فؤاد أبي بكر ، وهي نشر راية الإسلام على أرجاء العراق ثم فارس فاستدعى
إليه خالد بن الوليد المخزومي من الإمامة في الحرم من سنة اثنتى عشرة للهجرة ،
وأمره بالمسير إلى العراق وأن يبدأ من أسفله ، وكتب إلى عياض بن غنم
الفاتح الشهير الذي كان على يده فتح الجزيرة ، وقسم من أرمينيا بعد وأمره
أن يأتي العراق من أعلاه ، ويسير حتى يلقى خالداً وأوصى أبو بكر خالداً وعياضاً

ألا يضرا بفلاحى العراق وأهل السواد ، حرصاً منه رضى الله تعالى عنه على منافع الثروة ، وعلماً بأن العمران أمر لا تقوم بدونه الدولة . والفلاحة كما لا يخفى مصدر حياة الناس وتقدمها أساس عمران الممالك ، وإنما هى قائمة بالفلاح فهو أولى الناس برعاية السلطان وحراسته من أذى الجند ، فما أبعد هذه المهمة وما أسى هذا النظر . يبعث بالجند ليثلوا عرش الملوك ويستخضعوا جبابرة الأقوام ، ويدكوا صروح أولى السيطرة الظالمين ، ثم يبعث فيهم روح الرأفة بالفلاحين . والمحافظة على المستضعفين . ايزرع فى نفوسهم احترام حقوق أهل الفلاح . الذين هم مصدر قوى الدولة ويرشدهم إلى مبلغ عناية أرباب السلطان بالطبقة العاملة منهم ، ليحفظوا عليهم مصدر قوتهم وتمتبت قوتهم ، وليعلموا أن أولى الناس برعاية الأمير عامل يعمل بأرضه ، ويشتغل لقومه ولنفسه فيكونوا من العاملين .

وأوصاهما أيضاً ألا يغزون معهما أحد من ارتد ، وذلك لضعف ثقته رضى الله عنه بأهل الردة بعد ما ظهر منهم ما ظهر من حرب المسلمين ، ولعله خشى من أن يكون فى قلوب بعضهم ضغن على المسلمين ، فيبشون فيهم روح الفتنة ويفسدون عليهم أمر الفتح ، وهو احتياط وحذر لا يعجب من صدورهما من مثل أبى بكر ، لبعد نظره فى العواقب وتأنيبه فى الأمور ، ومع هذا فإن عمر رضى الله تعالى عنه لما رأى حاجة المسلمين إلى الجند أيام خلافته استنفر العرب للجهاد ، وأذن لعامةهم بالانضمام إلى جيوش الفتح ، وكان لزعماء الردة منهم كطلحة الأسدى وعمر بن معد يكرب والسمط بن الأسود الكندى والأشعث بن قيس وأمثالهم ، البلاء الحسن فى فتوح الشام والعراق والإخلاص العظيم فى إعلاء كلمة الإسلام ، ومعظمهم استشهد فى أيام الفتوح وإنما قويت ثقة عمر رضى الله عنه بالعرب ، لاتساع الفتوح وامتداد سلطان الإسلام ولأن فى تولى الجهاد شاعلاً لأهل الفتنة عن الفتنة . ولعل ما أصاب المسلمين

من بلاء التشيع والتحزب والانقسام في خلافة عثمان رضى الله عنه وما بعده لما استقر أمر المسلمين في فارس والروم وأخذوا إلى الراحة من عناء الفتح ، كان لا يخلو من أصابع كثير من أولئك الذين حذرهم أبو بكر . والله بالحققة عليم .

لما سار خالد إلى العراق كان معه من الجند عشرة آلاف ، واستقبله المثنى ابن حارثة بثمانية آلاف ، وبعد مسيره أمدّه أبو بكر بالقعقاع بن عمرو بطل المسلمين المغوار . ففعل له أتمده برجل واحد . فقال لا يهزم جيش فيهم مثل هذا . وكذلك أمد عياض بن غنم بعبد يغوث الحميري ، وكتب إلى المثنى بن حارثة يأمره بالسمع والطاعة لخالد ، وكان مذعور بن عدى العجلي قد كتب إلى أبي بكر يعلمه حاله وحال قومه من الإسلام والطاعة وحب الجهاد . ويستأذنه بقتال الفرس ، فأمره أن ينضم إلى خالد . وكذلك كان سويد بن قطبة الذهلي من بكر بن وائل يتربص في البصرة بجي خالد ليكون هو وقومه معه على قتال الفرس . فحيا الله هؤلاء الرجال الكرام . ورضى عن تلك النفوس الطاهرة . التي بيعت في سبيل الإسلام وأخلصت النية لهذا الدين الذي هيأ الله لأهله أسباب النصر لما نصره . وأعزهم لما أعزوه .

وقد اختلف المؤرخون في أول بلد قصدته خالد ، فقال بعضهم إنه سار إلى الأبله^(١) وقال الدينوري في الأخبار الطوال إنه سار إلى الحيرة وإن فتح الأبله كان في عهد عمر بن الخطاب على يد عتبة بن غزوان . ولعلها انتقصت فأرسل عمر عتبة لإخضاع أهلها ، إذ المشهور أن خالد آبلغ الحفير والكواعظم عند مصب الفرات ودجلة في خليج العجم ، ثم عاد إلى الأبله ففتحها عنوة

(١) قال الدينوري في الأخبار الطوال « الموجود منه نسخة في المكتبة الخديوية طبع ليندن » لم يكن موضع البصرة يومئذ إلا الخريبة وكانت الأبله مرقى سفن البحر من عمان والبحرين وفارس والهند والصين اهـ .

وخلف عليها سويد بن قطبة وقال له . قد عركنا هذه الاعاجم بناحيثك
عركة اذلتهم لك . ثم أتى الخريبة وكانت مكان البصرة الآن وهى منازل
خربة بها مسالح لكسرى تمنع العرب من العيث فطردهم منها ، واستخلف
فيها عامر بن فين من بنى سعد بن بكر من بنى هوازن ، ثم تتبع شط الفرات
جاء بأنقيا وباروسماو آليس فصالحه أهلها على مال معلوم وعلى أن يكون أهل
آليس عيوناً له ، ثم سار إلى الخيرة فناوش أهلها الحرب فخرج إليه إياس
ابن قبيصة الطائي من أشراف الخيرة ، وكانوا من أهل الكتاب فدعاهم (إلى
الإسلام أو الجزية أو الحرب) فقال له إياس مالنا بحربك من حاجة بل
نقيم على ديننا ونعطى الجزية فصالحهم على الجزية ، واختلفوا في مقدارها
فقال بعضهم إنها كانت تسعين ألفاً وقال بعضهم مائة ألف ، وروى البلاذرى
أن أهل الخيرة كانوا ستة آلاف رجل فالزم كل رجل منهم أربعة عشر درهما
وزن خمسة فبلغ ذلك أربعة وثمانين ألفاً تكون ستين وزن سبعة . وروى
الطبرى أنها كانت مائة وتسعين ألفاً ويؤيده ما جاء فى كتاب عهد خالد لأهل
الخيرة على ما سترى .

وأهدى أهل الخيرة هدايا إلى خالد على عاذتهم مع الفرس ، فبعث بها
مع خبر الفتح وما اجتمع لديه من الفء إلى أبى بكر ، فقبل الهدايا وعدّها
لأهل الخيرة من الجزية تعففاً عما لم يأذن به الشرع ، وقطعاً لدابر العادات
الاجرامية التى كان يحتال بها على سلب أموال الناس .

هذا أول فتح بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فتحه أبو بكر خارج
جزيرة العرب ، وقد رأيت أنه لم ترق فيه نقطة من الدم فى غير الأبله ، وفيه
دليل على ارتياح أهل البلاد إلى حكم المسلمين وملهم من ظلم الفرس وتوقعهم
لاضطراب حبل دولتهم وزوال ملكهم ، وإنما قبل خالد بعد هذا بالحرب
لدماء أصابها من النمر وتغلب وإياد وغيرهم من نصارى العرب الذين امتنعوا
عليه ثم استجاشوا جيوش الفرس طلباً للنار .

ثم إن خالداً بعد أن استخضع أهل الخيرة وقضى على دولة المناذرة التي كانت تحكم العراق من قبل الأكاسرة وقاعدتها الخيرة ، أخذ يتمم فتح العراق العربي فسار مصعداً جنوباً فافتتح الأنبار الواقعة شرقي الفرات وبادقلى وعين النمر وقطربل الواقعة شرقي دجلة ، ولما وصل إلى دومة الجندل التقى بعباض ابن غنم فجاءها عباض من أعلاها وخالد من أسفلها فافتتحها عنوة . وكانت آخر حروب خالد في الفرات التي هي آخر تخوم العراق بمابلي الشام والجزيرة . وكان كلما فتح فتحاً وتوفرت لديه الغنائم يبعث بالخمسة إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه مع خبر الفتح ، حتى قال فيه أبو بكر (عجزت النساء أن يلدن مثل خالد) .

وسياًق معنا بعض الكلام على حروب خالد في العراق في سيرته ، ونورد كتبه التي كتبها إلى الفرس بعد فتح العراق وجغرافية البلاد التي افتتحها . إن شاء الله .

انصرف خالد بعد وقعة الفرات إلى الشام ، واستخلف المثنى بن حارثة الشيباني على جند العراق ، فأقام في الخيرة يرتب المقاتلة ويذكر العيون وكان ملك فارس يومئذ شهريران بن أزدشير ، فظن أن غياب خالد ربما يوهن جانب المسلمين ، فجهر جيشاً عظيماً بقيادة قائد يسمى هر بن فلاقاه المثنى في بابل شرقي الفرات والتحمت هناك الحرب بين المسلمين والفرس ، وكانت حرباً شديدة . انجلمت عن هزيمة جنود الفرس ومات عقبها شهريران ملك فارس ، فعاد الاضطراب في المملكة إلى ما كان عليه ، واختلف الفرس فيمن يولونه أمر الملك اختلافاً يؤذن بإزالة دولتهم من المسلمين وينذر بالانحلال العاجل الذي يصيب الممالك عند بلوغها منتهى درجات الترف والنعيم واشتغالها بالسفاسف والأوهام دون الجد والحزم . (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) .

فتوح الشام

تمهيد :

لما انتهى فتح العراق العربى وجاس المسلمون خلال ديار الفرس واستقر لهم فى تخوم فارس الملك والسلطان واتخذوا بها الثغور يدخرون بها معدات القوة للإجهاز على ممالك الفرس ، ورأى أبو بكر أن الله سبحانه وتعالى منجز وعده الذى وعد المؤمنين ، (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض) انصرفت همته إلى الشام التى هى مركز التجارة بين الشرق والغرب ، ومدخر الخيرات التى أعدها الله للمسلمين .

كانت الشام يومئذ تابعة لمملكة الروم تبعية أشبه بالاسمية، وكان سلطان الروم هناك فى تقلص ، ونفوذهم فى اضمحلال، ومعظم ولاية الشام فى أيدي العرب ولهم ترجع الإمارة ، وعلى الملوك من بنى غسان حراسة البلاد ، ولم يكن القيصر فى باطن الأمر على أهل الشام سوى الإتاوة والنفوذ والسلطان إنما كان العرب الذين كانوا لا يميلون إلى الروم ويودون إجلالهم إلى حيث نبت بهم بقاع الغرب لما كانوا عليه من الظلم الذى يصاحب غالباً أو آخر الدول الفاتحة الغربية من البلاد المخالفة لها فى الجنس والعادة ، فلم هذا ولأن الشام فى الحقيقة أشبه بجزء طبيعى من جزيرة العرب كانت الأسباب متوفرة. لهم هذه البلاد إلى سلطان المسلمين ، وطرد ذلك الفاتح الغريب العايش بنظام العدل المتعدى على حقوق الملك الطبيعى والاستقرار الثابت للعرب ، يضاف إلى هذا أن انضواء الأمة العربية إلى لواء الإسلام واجتماعها على كلمة الأيمان أمر لا مندوحة عنه يومئذ بحكم الوحدة فى الجنس واللغة التى تقضى بوحدة الدين والسلطان .

وأنت ترى أن الشام بهذه المثابة كحق طبيعى للمسلمين ، وهى لما حكمت

بالإسلام إنما حكمت بالعرب أرباب هذا الحق وأصحاب البلاد لحكمين
حكم الجوار واللغة وإن لم تكن عامة ، وحكم الجنسية الشرقية والشرقي أولى
بالشرق .

إذن فما أسخف عقول طائفة من الغربيين يدعون حقاً قديماً في البلاد
يسمونه المسألة الشرقية ، ولم يكن لأسلافهم في الشرق إلا ما يكون لكل فاتح
غريب من السيادة إلى حين ، ثم يتقلص ظله ، وينكمش إلى وطنه . كما
انكمش الرومان إلى حيث نبت بقاعهم وتقلص عن المشرق ظلمهم (سنة
الله في الذين خلوا من قبل وإن تجد لسنة الله تبديلاً) .

وحبذا لو كان حاكمنا الغربيون بهذه الدعوى إلى مجلس العدل والمناقشة ،
وولجوا بنا باب الإنصاف في المناضلة ، إذن والله لأدلينا بالحجة ، وكنا في
جانب الحق ، وكانوا في جانب الباطل ، ولكنا القوة تغلب كل حق وإن
كانت في نفسها حجة للمغلوب لا يستظهر بها إلا إذا عادل خصمه واستغنى
على عدوه وأنى لنا هذا معاصر المسلمين الآن وليس فينا كأبى بكر وإخوانه
ومعاوية والخلفاء من بنى عمه ، والمنصور وأحفاده ، وعبد الرحمن الداخل
وأشباه أشباله ، وصلاح الدين وعزيمته ، والسلطان سليمان وأضرابه من آل
عثمان الذين قضوا بعزائهم على بقايا دولة الرومان في الشرق .

ذكرى تمزق الأفتدة والقلوب ، وحال من ضعف البصائر وغلبة
شهوات النفوس قد اتهمنا إليه ، أفقدانا كل صبر ، وسلكنا بعقول النابغين
في الأمة من مذاهب الخيرة كل مذهب ، ودون اهتمامهم إلى التخلص من
شرك الخيرة وخروجهم بالأمة من وهدة هذا الضعف أسوار من شهوات
الأمراء واتتلاف الأمة لحكم الاستبداد الذي أوهن عقولها ، وذهب بآثار
الشمس من نفوسها ، لا يزول إلا بخلق جديد في الإسلام فقد استقلاله ، وقضى
حب الذات على دوله ، فلم يبق له أمل بغير نفسه ، واعتماد إلا على جده ، يهب

هبة الغافل أيقظته الصبيحة من كل مكان وأخذت بناصيته يد العدو، وفي قول
على بن أبي طالب ما يشير إلى هذا (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا) .
هذا الحق الذي يعظم وقعه في نفوس العقلاء ويثقل ساعده على البسطاء ،
نقوله بحكم المشاهدة لما يحيط بنا من الوسيط والتحقق من حالة المسلمين
وحكوماتهم ، والنظر إلى سنن الله في خلقه التي ألبانها لنا القرآن وأيدها تاريخ
الإنسان - وما كان ربك ليهلك للقرى بظلم أوليها مصلحون - ومن لم يحكم
بما أنزل الله فأتوا ثلثتهم الفاسقون - يا داود لما جعلناك خليفة في الأرض
فاحكم بين الناس بالحق - وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفين فيها ففسقوا
فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا - إن تنصروا الله ينصركم ويثبت
أقدامكم - وتلك الأيام نداولها بين الناس إلى غير ذلك من آيات البيان
التي تثبت أن الله في خلقه سنانا لا تتخلف وللمعرضين عنها من عباده جزاء
لا مهرب منهم ، ومنع هذا فإنا نرجو أن تتخلف ظننا الأبدان ويخلق الله لهذه
الامة ما لم يكن في الحسبان فتعود على بدنها وتسترد بقوة العلم والعمل
ذاهبا مجدها وليس على المجد إذا عزم أن يتوقف . وكل سالك في طريق
إلى نهايتها يصير . وإذا نصر الله المسلمين في عهد أبي بكر ومن بعدهم مجدهم
وسودهم على الأمم بالغبية على شهوراتهم والاستظهار بقوة يمينهم والله ولي
المصالحين .

استدراك

ربما يظن ظان بما قدمناه في هذا التمهيد أنا بالغما في القول بسيادة العرب
في سورية إبان الفتح ، وأنهم كانوا حماة البلاد وأصحاب السلطة العظمى على
قسم عظيم منها ، والحال أن ما ذكرناه من ذلك في هذه المقدمة إنما هي

حقائق تاريخية أوردناها على وجه الإجمال ، لهذا ودفعاً لخطأ الظن أو تهمة التشيع للعرب أحببنا أن نستدرك ما فات ببيان تاريخي لما تقدم فنقول .

إن قسماً عظيماً من سورية كان مأهولاً يومئذ بالعرب فكان سكان القسم الجنوبي منها ومن حوران وما يليها من البلاد الواقعة في الجنوب الغربي وهي السرك ومعان إلى العقبة قرب البحر الأحمر كانت مأهولة بالعرب من غسان ولخم وجذام وكنب وقضاة وغيرهم ، وكانت عاصمة هذا القسم بصرى المدينة الشهيرة في حوران التي لم تزل آثار العظمة بادية على بقاياها إلى الآن وكانت حاضرة الملوك من بني غسان .

وكان قسم عظيم من الجزء الشرقي والشمالي الشرقي الممتد من غوطة دمشق إلى مدينة تدمر وما بعدها إلى شط الفرات مأهولاً بالعرب أيضاً من بني غسان والنمر وبراء وتغلب وغيرهم وعاصمة هذا القسم مدينة دمشق .

فأما القسم الجنوبي وكونه كان مأهولاً بالعرب وفيه نشأت دولة بني غسان الشهيرة فمشهور لا حاجة فيه إلى البيان .

وأما القسم الآخر وكونه كان مأهولاً بالعرب فالدليل عليه ما رواه الطبري وغيره من المؤرخين عن الفتح الذي فتحه خالد ، والبلاد التي مر عليها أثناء مجيئه من العراق إلى الشام ، لنجدة المسلمين ومنه يستنتج أن كل البلاد التي مر عليها يومئذ منذ أشرف على وادي الفرات حتى انتهى إلى دمشق بلاد مأهولة بالعرب . وإليك البيان .

لما قصد خالد بن الوليد الشام وقطع إليها المفازة أشرف منها على حدود سورية الشرقية في وادي الفرات وهو المعروف الآن ببلاد الزور وعاصمته الدير المعروف الآن بدير الشعار ، وكانت كلها مساكن للعرب في براء والنمر وتغلب وغيرهم لم تزل إلى الآن ، كذلك فأتى أرك وهي واقعة بين

تدمر والدير ، ومنها سار إلى تدمر وهي على حدود البادية الشرقية ، وسار
منها إلى القريتين (ولم تزل معروفة إلى الآن بهذا الاسم) ومنها سار إلى
دمشق (عن طريق القلمون الأسفل وهو الجزء الشرقي من العمالة المعروفة
الآن بجبل قلمون ويسمون هذا القسم القلمون التحتي وهو طريق القوافل
لهذا العهد من الشام إلى العراق) فأتى خالد في طريقه على حوارين وقسم
وكانت آخر ما فتحة من البلاد الواقعة في طريقه من شمال دمشق ، فقاتله أهلها
وكانوا من بني مشجعة من قضاة فظفر بهم ، ثم سار عنهم إلى ثنية العقاب
(التي تشرف على المرج المعروف الآن بمرج عذراء الواقع في الجهة الشمالية
الشرقية من دمشق) ومنها انحدر إلى مرج راهط (وهو المرج المتصل بمرج
عذراء ممتداً إلى جهة الجنوب) فأغار على بني غسان في يوم خصمهم فقتل
وغنم وبعث بالأنحاس إلى أبي بكر .

هذا ما أثبتته الطبري بشأن البلاد التي مر عليها خالد وفتحها أثناء مجيئه من
العراق إلى الشام ، ومنه علمت أن آخر ما افتتحه خالد من جهة الشمال الشرقي
عن دمشق (قسم) وأهلها من العرب من بني مشجعة ، وهو يدل على أن
القلمون الأسفل وما يليه شرقاً إلى شطوط الفرات كان مأهولاً بالعرب من
الذر وتغلب وإياد وبهراء وغيرهم^(١) .

وكذلك القسم الواقع شرقي دمشق وهو مرج راهط قد كان مأهولاً
ببني غسان ، والظاهر أن دمشق نفسها كانت عربية يومئذ بدليل أنها كانت

(١) هذا الاستنتاج يصح فيما لو صح ما ذكره الطبري في تاريخه من أن خالد بن الوليد
أتى القريتين ثم حوارين وبعدها قسم ومنها أتى ثنية العقاب لجعل قسم آخر الفتح إلى جهة
دمشق ، وبعده كانت غارته على غسان في مرج راهط لكن ذكر ياقوت في معجمه
أن قسم موضع بالبادية قرب الشام فإذا صح هذا ضعف استدلالنا على أن قلمون الأسفل
سكان مأهولاً بالعرب .

تحت الخزنت الغساني أخذ ملوك بني غسان في عهد الفتح الإسلامي ، فهي إذن كانت عاصمة ذلك القسم العظيم الممتد منها إلى الشمال والشرق حتى البادية والقرات ، ومن الجنوب والجنوب الغربي حتى الحجاز والعقبة ، وكله كان مأهولا بالعرب .

إذا تقرر هذا علمت أن لامبالغة فيما قلناه من أن سورية كانت أشبه بولاية عربية كان النفوذ والسيطان فيها للعرب ، وإليهم ترجع حماية البلاد وحرابيتها ، ولم يكن للروم فيها إلا الاسم اللهم إلا ما كان منها واقعا في الجهة العربية والشامية كفلسطين والأردن وحلب وأنطاكية وما يليها فربما كانت سلطتهم عليها أظهر وكلمتهم أنفذ والله أعلم .

بعث البعوث إلى الشام :

كان بعث أبي بكر البعوث إلى الشام في أوائل سنة ثلاث عشرة بعد عودته من الحج ، وكان أول لواء عقده إلى الشام لواء خالد بن سعيد بن العاص ، وقال ابن الأثير وما بعده غلبه كثير من المؤرخين لأنه عزله قبل أن يسير بإيعاز عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وذلك لما في نفسه جليته من تربصه ببيعة أبي بكر كما تقدم الكلام عليه وأمره أن يكون بقاء وهذا للمسلمين ، والأياف فيها وأن يدعو من حوله من العرب ولا يقاتل إلا من قاتله ، فاجتمع إليه جموع كثيرة ، واتصل خبره بالروم فضربوا البعث على العرب الضاحية بالشام ، ثم جاءه ماهان بالجيوش ففرقهم ثم جمع له فقاتله فهزمه ، فكتب إلى أبي بكر بذلك فاهتم لأمر الشام واستنفر العرب وجهن البعوث إلى آخر ما ذكره من خبره .

هذا ما ذكره ابن الأثير وغيره وروى البلاذري في فتوح البلدان عن أبي مخنف قال :

لما عقد أبو بكر لخالد بن سعيد كره عمر ذلك ، ، فكلّم أبا بكر في عزله وقال إنه رجل ثفور يحمل أمره على المغالبة والتعصب ، فعزله أبو بكر ووجه أبا أروى الدوسى لأخذ لوائه فلقية بذي المروة فأخذ اللواء منه وورد به على أبي بكر رضى الله عنه ، فدفعه أبو بكر إلى يزيد بن أبي سفيان فسار به معاوية أخوه يحمله بين يديه ويقال بل سلم إليه اللواء بذي المروة ، ففضى على جيش خالد وسار خالد بن سعيد محتسباً في جيش شرحبيل الهـ .

والذى يستنتج من هذه الرواية أن أبا بكر عقد لخالد بن سعيد ليكون ردها للمسلمين ، لا ليغزو مع الأمراء ، ثم بعد مسيره كله بشأنه عمر فعزله واستعاد لواءه ، فدفعه إلى يزيد وسيره على أثر مسير الأمراء . وروى الطبرى في تاريخه عن سيف نحو هذه الرواية ، وروى أيضاً عن طريق آخر أن أبا بكر لما عقد الألوية للأمراء ، عقد لخالد بن سعيد فيمن عقد ولما كله بشأن عزله عمر أطاعه أبو بكر في بعض أمره وعصاه في بعض ، وأمر خالد أن ينزل بتياء وألا يبرحها وأن يدعو من حوله إلى الإسلام ففعل ، واجتمع إليه جموع كثيرة ، فلما بلغ الروم ذلك جمعوا له فكتب إلى أبي بكر بذلك ، فكتب له أن أقدم ولا تحجم ، فسار إليهم خالد فتفرقوا فكتب إلى أبي بكر بذلك ، فكتب إليه أبو بكر أقدم ولا تقتحم حتى لا تؤذي من خلفك . فسار فيمن كان معه ، فلقية باهان بجيوش الروم فقاتله خالد فظفر به وهزم جنده ، وكتب إلى أبي بكر يستمده فاهتم أبو بكر لأمر الشام ، وجهز البعوث فتعجل خالد بالحرب قبل وصول الأمراء فنكبته الروم فعاد إلى المدينة مهزوماً فغضب أبو بكر عليه ثم استأذن أبا بكر وذهب متطوعاً في جيوش الأمراء . وهذه الرواية توافق ما رواه ابن الأثير ، وتخالف رواية البلاذرى ، وفي كلا الحالين فإن يزيد بن أبي سفيان صار أميراً على جيش خالد بن سعيد ، كما يتضح ذلك من وصية أبي بكر له .

لما استنفر أبو بكر المسلمين من أطراف البلاد العربية للجهاد أخذوا يفتدون عليه من كل فج ويعسكرون بالجرف قرب المدينة ، ولما تكامل جمعهم وذلك في مستهل صفر سنة ثلاث عشرة عقد الألوية فعقد لواء لعمر بن العاص ، وكان قد استدعاه من ولايته على صدقات سعد هزيم من قضاة ووجهه إلى فلسطين . وعقد لواء لشرحبيل بن حسنة وكان قد وفد إليه من العراق ووجهه إلى الأردن . وعقد ليزيد بن أبي سفيان على جمهور من انتدب إليه فيهم سهيل بن عمرو وأشباهه من وجوه مكة وأشراف قريش ووجهه إلى البلقاء ، وقال بعضهم إلى دمشق . وعقد لآبي عبيدة عامر بن عبد الله ابن الجراح الفهري ووجهه إلى حمص . وكان العقد في بدء الأمر لسكل أمير على ثلاثة آلاف رجل فلم يزل أبو بكر يتبعهم الأمداد حتى صار بمجموعهم أربعة وعشرين ألفا ؟

هذا هو الجيش القليل العدة فتأى الديار الذى سار على بركة الله ليغزو الروم فى عقر دارهم ، ويحوس خلال ديارهم ، ويزعزع أركان ملكهم ، وينذر بتقلص سلطانهم وينشر راية الإسلام على ربوع الشام وآسيا الصغرى والجزيرة وأرمينيا وقد فعل فكيف وبماذا ؟

بقوة العزيمة والصبر ، والاعتماد على الله فى السر والجهر ، وعدم المبالاة بالحياة فى سبيل إعلاء كلمة الدين ، ونصرة الإسلام ، والتعفف عما بأيدى الناس ، وإنصاف المغلوب وحماية ماله ونفسه ، وإطلاق الحرية له فى عوائده ودينه ، مادام يدفع للمسلمين جزءا من ماله ، يستعينون به على إصلاح حاله ، وتأمين بلده ، وتمهيد طرق الراحة والنظام لقومه ، ويكون له من الحقوق حينئذ ما للمسلمين ، وعليه من واجب المعونة وطاعة الأمير والأمانة فى الجوار ما عليهم ، لا يضار فى عرض ولا نفس ولا مال ، هذا إذا اختار البقاء على

دينه ، ورضى بأداء جزئته ، وأما إذا أسلم فالمسلمون كما في الحديث (شكافاً
دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ويرد عليهم أقصاهم وهم يد على من سواهم) .

أضف إلى هذا ما يصاحب أولئك المجاهدين من حسن الرأي بمن
يصاحبهم من رجال الإسلام وأقطاب السياسة والحرب يومئذ ، كعمرو بن
العاص وأبي عبيدة بن الجراح ، ويزيد بن أبي سفيان ، ومعاوية بن أبي
سفيان رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، ومن وراءهم مثل أبي بكر يمدحهم بالرأى
ويتابع إليهم النصائح . وحسبهم من وصاياه وصيته ليزيد ابن أبي سفيان التي
تعجز أقطاب السياسة وتنفع قادة الجيوش وساسة الأمم في كل عصر . وقد
أوصاه بها لما شيعه ماشياً كما أوصى سائر الأمراء .

وصية أبي بكر ليزيد :

إني قد وليتك لأبلوك وأجربك ، فإن أحسنت رددتك إلى عملك ،
وزدتك ، وإن أسأت عزلتك ، فعليك بتقوى الله فإنه يرى من باطنك . مثل
الذى يرى من ظاهرك ، وإن أولى الناس بالله أشدهم تولياً له وأقرب الناس
من الله أشدهم تقرباً إليه بعمله ، وقد وليتك عمل خالد^(١) فأياك وعيبة الجاهلية
فإن الله يبغضها ويبغض أهلها ، وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم
وأبدأهم بالخير وعدهم إياه . وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام ينسى بعضه
بعضاً ، وأصلح نفسك يصلح لك الناس وصل الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها
وسجودها والتخشع فيها ، وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل إيتهم
حتى يخرجوا من عسكري وهم جاهلون به . ولا ترينهم فيروا خلك ويعلموا
عليك ، وأنزلهم في ثروة عسكري . وامنع من قبلك من محادثتهم ، وكن أنت
المتولى لكلامهم ، ولا تجعل سرك لعلانيتك فيخاطب أمرك ، وإذا استشرت

(١) يزيد خالد بن سميد .

فاصدق الحديث تصدق المشورة . ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤنى من .
قبل نفسك . واسمر بالليل في أصحابك تأتاك الأخبار وتنكشف عندك
الاستار وأكثر حرسك وبددهم في عسكري . وأكثر مفاجأتهم في محاربتهم
بغير علم منهم بك ، فمن وجدته غفل عن حرسه فأحسن أدبه وعاقبه في غير
إفراط ، وأعقب بينهم بالليل واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فإنها
أيسرهما لقربها من النهار . ولا تخف من عقوبة المستحق ولا تلجن فيها ولا
تسرع إليها ولا تأخذها مدفعا . ولا تغفل عن أهل عسكري فتفسده . ولا
تجسس عليهم فتفضحهم . ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلايتهم
ولا تجالس العباثين وجالس أهل الصدق والوفاء . واصدق اللقاء ولا تجبن
فيجبن الناس . واجتنب الغلول فإنه يقرب الفقر ويدفع النصر . وستجدون
أقواما حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهما وما حبسوا أنفسهم له اه .

ابتداء الفتوح بالشام :

علمنا مما سبق أن الجهاد مبنى على الدعوة وأن المسلمين لا يبدؤون
أهل الكتاب بحرب ما لم يدعوهم إلى خصلة من ثلاث (الإسلام أو الجزية
أو السيف) أى الحرب ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى هرقل
في جملة من كتب إليهم من الملوك يدعوه إلى الإسلام ، ففي رواية أنه أجابه
وأسلم سرا ، وفي رواية أنه لم يجبه ، ولما سار الأمراء وكتبوا إليه يدعونه إلى
خصلة من الثلاث وقد كان وقتئذ بالقدس جمع إليه البطارقة وكبار القواد
وشاورهم في أمر المسلمين وأشار عليهم بصلحهم ، فأبوا عليه إلا الحرب وكان
مما قال لهم (والله لأن تصالحوهم على نصف ما يحصل من الشام ويبقى لكم
نصفه مع بلاد الروم أحب إليكم من أن يغلبوكم على الشام ونصف بلاد
الروم) ولما لم يوافقوه على رأيه أخذ بإعداد الجنود والعدة ، وأرسل

لكل أمير جيشاً يشغل كل طائفة من المسلمين بطائفة من قومه .

وأما أمراء المسلمين فقد أوغلوا بجيوشهم في أحشاء البلاد فنزل أبو عبيدة الجابية . ونزل شرحبيل الأردن . ونزل عمرو بن العاص العربية من فلسطين ، ونزل يزيد البلقاء . ومن ثم اختلف المؤرخون في كيفية ترتيب الوقائع فمن قائل إن أول وقعة كانت بين المسلمين والروم وقعة اليرموك ، ومن قائل غير ذلك والذي قال بالأول بنى قوله على أن المسلمين لما تفرقوا في البلاد وراعهم ما جمعه لهم هرقل من الجموع استشاروا عمرأ فأشار عليهم بالاجتماع فاجتمعوا باليرموك وكتبوا إلى أبي بكر فأمدّه بنجالة بن الوليد ، ولما وصل إليهم وجد الأمراء متساندين فتأمر عليهم ثم هاجم جنود الروم وجرى بين الفريقين قتال شديد ، انتهى بانكسار الروم وبنحسهم في اليرموك جاء الخبر بوفاة أبي بكر وتولية عمر رضي الله عنهما ومع الخبر أمر بعزل خالد وتأمر أبي عبيدة بن الجراح .

مع أن إمعان الأمراء بجيوش المسلمين في الجزء الجنوبي والجنوب الغربي من البلاد ووصول بعضهم إلى الأردن قرب طبرية ، والبعض الآخر إلى فلسطين ثم اختلاف المؤرخين في عزل خالد بن الوليد هل كان وهم على دمشق أم في اليرموك كل هذا يؤيد أن واقعة اليرموك إنما كانت بعد وقائع كثيرة كواقعة مرج الصفر (على وزن سكر) وواقعة أجنادين التي بشر أبو بكر بظفر المسلمين فيها بآخر زمق ووقعة العربية من فلسطين وغيرها ، وإن المسلمين افتتحوا كثيراً من البلاد قبل اليرموك صلحاً أو حرباً ويؤيد هذا ما ذكرناه سابقاً نقلاً عن البلاذري من أن أهل حمص عاهدوا المسلمين على الوفاء لما انجلت حاميتهم عن حمص بقصد الاجتماع مع بقية الجيوش على اليرموك .

وقد اتفق ابن الأثير والبلاذرى على حصول وقائع للمسلمين مع الروم قبل وقعة اليرموك ، وهى وقعة بصرى فى حوران ودائن فى فلسطين ومرج الصفر وغيرها .

والظاهر من هذه الروايات أن الروم فى ابتداء الأمر لم يحفلوا بأمر المسلمين ، ولم يظنوا فيهم القوة والجرأة على اقتحام عواصم البلاد والتغلغل فى أحشاء الممالك بجيشهم القليل وعدتهم الضعيفة ، وهو من سوء الرأى المبني على الكبرياء الباطلة والغرور المضر ، فإن الاستهانة بالعدو مهما قل وهن فى السياسة منشؤه ما يصيب عقول السياسة فى الدول الهرمة من فقد قوة التجارب ، أو الإعراض عن مصالح الملك حباً بمصالح النفوس وشهواتها .

قد مهدت سياسة الروم هذه للمسلمين أن يقتحموا بجيوشهم البلاد اقتحام المجرىين فى الحروب ، العارفين بمواضع الخطر الواقفين على عورات العدو الخبيرين بطرق البلاد ، فإنهم أوغلوا فى جنوب الشام على شكل مثلث متقارب الخطوط رأسه فى البلقاء مع يزيد بن أبى سفيان بما يلى الحجاز ، وطرفاه الواحد فى الجنوب الغربى فى فلسطين وهو مع عمرو بن العاص ، والآخر فى الجنوب والجنوب الشرقى فى حوران ، وهو مع أبى عبيدة بن الجراح وفى الوسط بميلة إلى الغرب أيضاً شرحبيل بن حسنة وهو فى الأردن . بحيث يمد بعضهم بعضاً من قرب ، ومن وراءهم يزيد يحفظ عليهم خط الرجوع ويدبم النظر فى طرق المواصلات .

على هذه الصفة دخلت الجيوش الإسلامية إلى الشام ، وافتتح كل أمير مامر عليه من البلاد صلحاً أو حرباً ، حتى إذا أخذت الصيحة الروم من كل مكان هبوا من غفلتهم هبوب المذعورين ، وانتبهوا انتباه الفارين ، فغضب هرقل البعت على العرب الضاحية بالشام من بهراء وسليح وغسان وكلب ولخم وجذام ، وهم يومئذ حماة البلاد وإلى الملوك من بنى غسان ينتهى

القول والعمل ، فاجتمع لديه منهم ومن الروم زهاء مائة وخمسين ألفاً ، فقسّمهم وبعث لحرب كل جيش من جيوش المسلمين قسماً منهم بقيادة أحد مشاهير القواد .

اجتماع الأمراء في اليرموك ووفود خالد بن الوليد عليهم .

لما رأى أمراء الجيوش الإسلامية كثرة ما أعد لهم هرقل من الجنود ، كتبوا بذلك إلى عمرو بن العاص وهو صاحب الرأي فيهم ، فأشار عليهم بالجللاء عن البلاد والتقهقر إلى اليرموك وهو نهر في واد واقع في الجهة الشمالية من جبل عجلون إلى الجنوب الغربي من الشام ، وكتبوا إلى أبي بكر فأشار عليهم بالاجتماع أيضاً ريثما يصلهم المدد ، وكتب إلى خالد بن الوليد يأمره بالمسير إلى الشام وأن يأخذ نصف الناس ويستخلف على النصف الآخر المشي بن حارثة بطل العراق الشهير ، ولا يأخذن من فيه نجدة إلا ويترك عند المشي مثله ، فامتثل خالد الأمر وسار بمن معه حتى أتى تدمر ، وهي على حافة البرية مما يلي وادي الفرات وموقعها إلى الشمال الشرقي من دمشق على بعد ١٥٠ ميلاً منها ، بعد أن عانى هو وجيشه مشقة عظيمة في الطريق ، وغزا من صادفه من القبائل كما سترى في سيرته بعد ، ثم قام من هناك إلى ثنية العقاب ، ومنها إلى مرج راهط الواقع شرقي الغوطة ، فأغار على أرباض دمشق ، ثم اتجه جنوباً إلى بصرى وقاتل أهلها فظفر بهم ، وأرسل بالأخماس إلى أبي بكر ، ثم سار فطلع على المسلمين في ربيع الآخر ، وقيل في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة .

كان المسلمون إلى ذلك الحين يراوون العدو ويحاولونه في النزال ، متساندين كل أمير على جيشه والعدو أمامهم بجنده الكثيف ، الذي يبلغ المائة والخمسين ألفاً لا يتزعزع بل هو أشبه بالمحصور من ورائه الوادي ومن أمامه جند الإسلام ، فلما رأى ذلك خالد بن الوليد وكان عظيم الرأي .

في الحرب بعيد النظر في ترتيب الجيوش لم يرق لديه تساند الأمراء وليس لهم أمير يجمعهم جميعهم إليه ، وخطب فيهم خطبة أنهم فيها على ما هم فيه من الافتراق في الإمارة ، على ما استرى ذلك في سيرته ، وطلب إليهم أن يجمعوا على أمير واحد ويتناوبوا الإمارة العامة كل يوم واحد ، وأن يؤمروه ذلك اليوم فأطاعوا إشارته ، وأمروه فرب الجيش ترتيباً حسناً ، ثم نشب القتال وكانت معركة عظيمة ظهر فيها من حمية قريش وشجاعتهم ما يؤيد قولنا فيما سبق أن الله سبحانه وتعالى كما أيد الدين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأنصار أيده بعده بقريش . وانجلى المعركة عن انهزام الروم شرهزيمة ، بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة جداً ، وأصيب من المسلمين بين قتل وجريح زهاء ثلاثة آلاف ، فيهم من وجوه المهاجرين وجلة قريش عدد كبير ، منهم عكرمة بن أبي جهل من أبطال حروب الردة ، وعمرو ابنه وسعيد ابن الحرث بن قيس بن عدى ، وهو قديم الإسلام ومن مهاجرة الحبشة وأما لهم من أهل البلاد ووجوه قريش من المهاجرين الأولين ومهاجرة الفتح .

لا جرم أن واقعة اليرموك سواء كانت أول وقائع المسلمين مع الروم بالشام أو غير ذلك ، فإنها كانت آخر وقعة قضى فيها على سلطان الروم في سورية ، حتى لم يبق لهم بعدها قائمة ولم يستتب لهم فيها أمر ، وإذا رأينا كثرة من أصيب يومئذ من المهاجرين علمنا أنهم كانوا محور الحرب التي دارت عليه رحاها ، وجنتها التي تلقت سهام أذاها . ولهم ينتهي الفضل في كسر شر الروم وتمهيد السبيل لتدوين بلاد الشام . واستنارة أهلها بنور الإسلام .

ليس بعجيب أن يظهر من قريش ما ظهر منهم في اليرموك وهم سادة العرب وحماة الذمار ، وإنما العجب لهذا الرهط أن ينهض بعد الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر نهوضاً يدهش ساسة الممالك من الفرس والروم ،

ويقضي على كثير من ممالك الأرض بذلك الانقلاب العظيم في السياسة والدين .
والعرب يومئذ على ما نعلم من الاستغراق في البداوة والبعد عن نعيم الحضارة .
ولما كان يقودها هذا الرهط من المهاجرين الذين سبقوا إلى العلم بالدين
وامتلات قلوبهم بنور الإيمان .

لا ريب أن هدى الإسلام قد نفذ منهم إلى أعماق القلوب ، وكشف عن
بصائرهم غشاء الغرّة ، فأخرجهم من الظلمات إلى النور ، فرأوا طريق السيادة
على الأمر واختاروا فلسفهم . وسبيل سعادة الآخرة بدلاً فانصرفوا بكليتهم
إليه . فتأزوا بالنعمتين . وسلكوا بالعرب طريق السعادتين . فجاهدوا في الله
حق جهاده . وعلموا هدى دينه بين عباده .

ومن أبلى بهذه الحرب يومئذ أبو سفيان بن حرب ، وذهبت فيها عينه ،
وخالد بن الوليد ، والسمط بن الأسود الكندي ، وعكرمة بن أبي جهل ،
وهو الذي قال لما اشتد الأمر على المسلمين وبلغت جنود الروم فسطاط ،
خالد قاتلت النبي صلى الله عليه وسلم في كل موطن ثم أفر اليوم^(١) ، ثم نادى
من يبايعني على الموت ، فبايعه الحرث بن هشام ، وضرار بن الأزور ، في
أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا قدام فسطاط خالد قتال من
باع نفسه في سبيل الله ، وأصبح الموت أحب إليه من الحياة ، حتى أصيبوا
جميعهم بالجراحات والقتل ، وأصيب عكرمة وابنه عمرو بجراح ، فأتى بهما
ثاني يوم إلى خالد فوضع رأسيهما على نخله ، وجعل يقطر في خلعيهما الماء
ويقول ، زعم ابن حنينة يعني عمر أنا لا نستشهد .

رحم الله تلك النفوس التي استهانت بالدنيا ومتاعها ، فتخلى الأمير عن
إمارته ، والغنى عن ماله وملذته ، والشريف عن عزته ، والعائل عن أهله ،
 وولده ، التماساً للشهادة . ورغبة بنصرة الإسلام ، وطلباً لقهو العدو
وخذلانه ، ونصر الدين وأعوانه .

(١) بنى من مواطن قرش لأن لإسلام عكرمة كان بعد فتح مكة .

أبلى النساء المسلمات في ذلك اليوم ، كما أبلى الرجال ، وحمّلن العمد
يضررن بها وجوه الخيل إذا لوت ، وينادين إلى أين يا حمّة الإسلام ، وطلاب
الشهادة ، يشددن بذلك عزائم الرجال ، ويواسينهم بأنفسهن في ساحات
القتال ، حتى بلغن من كيد العدو ما لا تبلغه منه السيوف ، وفنن بخدمة
الإسلام ، كما قام رجالهن الذين أوردوا الروم موارد الختوف .

فكان النساء يومئذ مجاهدات محرضات ممرضات ، يجاهدن العدو ،
ويمرضن المسلمين ، ويمرضن الجرحى ، وربما قتل للمرأة ولد فبعثت إلى
ساحات الحرب أباه ، أو تسلمت عنه بأخيه .

بينما المسلمون في ذلك اليوم في أشد حالات الحرب والهدام ، قدم
البريد من المدينة ، واسمه محمد بن زعيم ، فسأله الخبر فأخبرهم بسلامة
وإمداد ، وإنما جاء بموت أبي بكر ، وتأمير أبي عبيدة ، فسكتهم هذا الخبر
عن المسلمين ريثما تضع الحرب أوزارها وتولى الروم أدبارها .

وقد اختلف المؤرخون في هل جاء الخبر بوفاة أبي بكر والمسلمون
في اليرموك أو على دمشق ، كما اختلفوا في هل فتح شيء من الشام قبل
اليرموك في خلافة أبي بكر ، وما لا ريب فيه أن جيوش المسلمين لما أوغلت
في القسم الجنوبي من الشام افتتحت كل مامرت عليه من البلاد ، وربما بلغت
حمص شمالا ، كما رواه البلاذري ، إلا أن انجلاءهم بعد عن البلاد ، وتقهقرهم
إلى اليرموك ، جعل ذلك الفتح الأول كأن لم يكن لا تمقاض البلاد بعد
خروج المسلمين عنها ، وعدم استطاعتهم ترك الحامية فيها ، لقلة عددهم
وكثرة جنود عدوهم ، لهذا عول المؤرخون في سياق أخبار الفتح على
ما كان منه بعد اليرموك في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ،
وحار بعضهم فأوردوها مشوشة ، وفي كلا الحالين فإن الفتح الحقيقي للديار
الشامية إنما تم في زمن عمر بن الخطاب ، ولأبي بكر الفضل العظيم فيه ،

لسبقه إليه وإعداده مثل جيش اليرموك له ، وأما عزل خالد بن الوليد
فالأصح أنه جاء وهم على دمشق كما سترى بعد .

مناقب أبي بكر وأخلاقه وما ثره

إن أحسن وصف يمثل أبا بكر بفضائله وأخلاقه تمثيلاً لا يدع في النفس
حاجة إلى المزيد ، ما وصفته به أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنه وعنهما ،
بخطبة وجيزة العبارة ، عظيمة المعنى ، جامعة لشمائل أبي بكر وأخلاقه ،
وإذا أتيت بشيء من ذكر فضائله ومناقبه فإنما يكون تفصيلاً لما أجملت ،
وشرحاً لما أوجزت ، فقد روى أنه بلغها أن أناساً يتناولون من أيها ،
فأرسلت إليهم فلما حضروا قالت .

أبي ما أيه لا تعطوه الأيدي ، ذاك والله حصن منيف ، وظل مديد ،
أنجح إذا أكديتم ، وسبق إذ ونيتم ، سبق الجواد إذا استولى على الأمد ،
فتى قریش ناشئاً وكهفها كهلاً ، يریش علقها ، ويفك عانها ، ويرأب صدعها ،
ويلم شعنها ، حتى حليته قلوبها ، واستشري في دينه ، فما برحت شكيمته
في ذات الله عز وجل حتى اتخذ بفنائها مسجداً يحيي فيه ما أمات المبطلون ،
وكان رحمة الله عليه غزير الدمعة ، وقيد الجوانح ، شجي الشسيج ، فانهضفت
عليه نسوان مكة وولدانها يستخرون منه ويستهنون به « والله يستهنى بهم »
ويعدهم في طغيانهم يعمهون ، وأكبرت ذلك رجالات قریش فحنت له
قسيمها ، وفوقت إليه سهامها ، فامتثلوه غرضاً فما فلوا له صفاة ، ولا قصفوا
له قناة ، ومر على سيدائنه ، حتى إذا ضرب الدين بجرانه ، وأرست أوتاده .
ودخل الناس فيه أفواجاً من كل فرقة أرسالا وأشتاتا ، اختار الله لرسوله
(م ٦ — أشهر مشاهير الإسلام)

صلى الله عليه وسلم ما عنده ، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب الشيطان رواقه ، وشد طنبيه ونصب حباله ، وأجلب بخيله ورجله وألقى بركبه واضطرب جبل الدين والإسلام ، ومرج عهده ، وماج أهله ، وعاد مبرمه أنكاثاً ، وبغى الغوائل وظن رجال أن قد أكثبت أطعمهم نهزها ، ولا حين الذى يرجون ، وأنا والصديق بين أظهرهم فقام حاسراً مشمراً ، قد رفع حاشيته ، وجمع قطريه فرد نشر الدين على غرة ، ولم شعته بطيه وأقام أوده بثقافه . فابذع النفاق بوطأته . وانتاش الدين فتمعشه . فلما أراح الحق على أهله ، وأقر الرموس على كواهلها ، وحقن الدماء فى أهلها ، وحضرته منيته ، فسد ثلمته بشقيقه فى الرحمة ، ونظيره فى السيرة والمعدلة ذلك ابن الخطاب ، لله أم حملت به ودرت عليه ، لقد أوحدت ففتنخ الكفرة وديخها ، وشرد الشرك شذر مذر وبعج الأرض وبخمها فقوات أكلاها ، ولفظت خبثها ترأمة ويصد عنها ، وتصدى له ويأبأها ، ثم وزع فيها فيها وتركها كما صحبها فأرونى ماذا ترتقون ، وأى يومى أبى تنقمون ، أيوم لإقامته إذ عدل فيكم ، أم يوم ظعننه إذ نظر لكم ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم (١) .

سياحة فى الخرطوم :

لم يكن بعد وفاه النبي صلى الله عليه وسلم موقف أشد وأخرج على المسلمين من موقف وقفه أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مذ كان حياً يتحدى العرب بالقرآن - ويتألفهم بالمعجزات ويملك عليهم طرق الزبيغ بتوالى نزول الوحى بالدلالة على المنافقين منهم ،

(١) نقلنا هذه الخطبة عن كتاب النشر المختار بهذا الضبط فلتحرر وقد أوردها ابن هيد ربه فى العقد إلا أن أيدى النساخ مسختها مسحاً فجاءت ناقصة عن هذه فى بعض الجمل ومختلفة عنها فى البعض فتقابل .

وكشف خبايا ضمائرهم ، ومع هذا فقد عانى منهم ما عانى ، ولقى أشد ما يلقى
نبي من قومه ، ولما تولى الخلافة أبو بكر وجاء المسلمين من أخبار الردة ،
وانتفاض العرب ما أوهن عزائمهم ، وفَت في عضدهم ، نظر أبو بكر فرأى
أن العرب كان يتألفها النبي بالوحي والمعجزات وقد انقطع الوحي ، وهم مع
حدائثهم عهدهم بالإسلام عريقون بالبداءة ، ساذجو الفطرة قل أن يتأثر
وجدانهم إلا بما يتأثر به حسهم ، فلا سبيل إلى اجتذاب قلوبهم ، وامتلاك
ضمائرهم واستخذاء نفوسهم بلين الكلام ، أو قواصر التقرير للاحتيال على
ضمائرهم ، والتوصل إلى كبش جهاحهم وأن القوة هي أحسن ما ترناض به
نفوسهم ، وتتأثر به حواسهم . وتلين من عريكتهم ، وتخضع عاصيتهم فانفرد
بهذا الرأي دون كثير من الصحابة كما علمت مما مر في أخبار الردة فكان رأيه
الصائب ، وقوله الحق ، وعمله الموفق وسياسته الناجعة ، حتى اعترف له
بالأصالة وحزم الرأي بعد جميع الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، وكان من
وراء عمله في الردة سلامة الإسلام والمسلمين ، من هجمات الشرك وغوائل
الهمجية وسطوات الأعداء ، بدليل ما أخرجه البيهقي وابن عساكر عن أبي
هريرة قال (والذي لا إله إلا هو لولا أن أبا بكر استخلف ما عبد الله ،
ثم قال الثانية ثم قال الثالثة) فقليل مه يا أبا هريرة فذكر لهم موقف أبي بكر
في إنفاذ جيش أسامة وجيوش الردة ، في حديث طويل قد مضى معنا ما هو
بمعناه من أخبار أبي بكر فلا حاجة لإيراده هنا .

وكذلك رأيه في إنفاذ جيش أسامة يدل على علو كعبه في السياسة ، وبعد
نظره في مهمات الأمور ، فإنه ظهر به للعرب بمظهر القوة ، واستهان بإنفاده
بخطب الردة . فنفت في روع العرب روح الرهبة فكانوا بين مقبل على الردة
ومدبر عنها ومتردد بين الأمرين حتى وافتهم جيوش المسلمين وهم على فرقهم
وتشتت رأيهم فأخذتهم بما صنعوا ، وردتهم عما ابتدعوا ، وضرب الإسلام
بينهم بجرانه ، وقضى على شيطان الجهل وأعوانه .

ومن حسن سياسته أنه لما استخضع العرب وأراهم سهوة المسلمين وبأس الموحدين ، فاستكانوا للإسلام وأخلدوا إلى الطاعة ، ولم ير بعد ذلك من حاجة لاستعمال الشدة معهم ، رفع العقوبة عن زعمائهم ، وألان القول لأمرائهم ، تأليفاً لقلوبهم واستفادة من نفوذ رأيهم في أقوامهم ، فلما جرى له بالسمط بن الأسود الكندي أحد ملوك كندة ، وعمر بن معد يكرب والأشعث بن قيس أسراء مكبلين غفر لهم زلتهم وعفا عما صدر عنهم فأسر قلوبهم ، وامتلك ضمائرهم ، فكانوا في المستقبل من أنصار الإسلام الكبار ، وأعوانه الشداد .

ومن حسن سياسته رفقته بخالد بن الوليد وإغضاؤه عن هفوته ، في قتل مالك بن نويرة مع إلحاح عمر عليه باستدعاء خالد إلى المدينة ليحكم وتجرى العقوبة عليه ، ولما قال له عمر إن سيف خالد فيه رهق وأكثر في اللائمة على خالد ، قال يا عمر تأول خالد فأخطأ ، فارفع لسانك عنه ، فإنني لأشيم سيفاً سله الله ، وودى مالكا وكتب إلى خالد أن يقدم عليه ففعل ، وأخبره الخبر واعتذر إليه ، فعتقه أبو بكر ثم تجاوز عنه وقبل عذره .

كان خالد ذا عصبية في قومه محبوباً من الجند عظيم الرأي في الجهاد وموفقاً في الحروب . فرأى أبو بكر أن رجلاً هذا شأنه لما يهضم به وبحرص عليه ، ولا سيما أنه كان يضمّر أن يرمى به الفرس والروم ، ويجمع تحت رايته العرب لبث الدعوة ونشر الإسلام في الممالك القاصية ، لما يعده فيه من سداد الرأي والشجاعة والتوفيق ، فاكتفى بتعنيفه علماً منه بأنه إن أخطأ هذه المرة فالتعنيف كاف في تنبيهه مثله إلى ألا يعود إلى مثله .

ولا يخفى ما كان بعد ذلك لخالد من البلاء العظيم في جهاد الأعداء ، وما افتتحه من البلاد الواسعة في العراق والشام ، بحسن اختيار أبي بكر له وعفوه عنه فرضى الله تعالى عنهم أجمعين .

ومن حسن سياسته استجلابه لمن توقف عن بيعته من بني هاشم وغيرهم
وهم نفر قليل فيهم طلحة والزبير بلين القول ، والإدلال بالحجة دون العنف
واستعمال سلطة الخلافة وسلطان القوة ، وذلك لخرج الموقف الذي وقف
فيه المسلمون وقتئذ - وأشرئباب الأعناق إلى الخلاف ، وتلظى نار الردة ،
وترقب المنافقين لفرصة الاختلاف ، وتربصهم الشر بالخلافة ، وناهيك به
موقفاً يحتاج إلى الأناة والبصيرة ، والصبر والعزيمة ، وما زال به أبو بكر
حتى بدد غيومه ، ومهد للسكون والسكينة طريقه ، فوافقه الأمور كما شاء .
وانقضت خلافته على أحسن حال كما أحب ، وبما قاله يومئذ وهو يدل على
إخلاصه في القول والعمل وتوجه نيته إلى درء الأخطار المحيطة بالخلافة
والفتنة المهددة للمسلمين بتوليهِ الخلافة وقبوله لها وأخرجه الحاكم وصححه
عن عبد الرحمن بن عوف قال خطب أبو بكر فقال :

(والله ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة قط ، ولا كنت
راغباً فيها ولا سألتها الله في سر ولا علانية ، ولكنني أشفق من الفتنة
ومالي في الإمارة من راحة لقد قلت أمراً عظيماً مالى به من طاقة ، ولا يد
إلا بتقوية الله) فقال على والزبير ما غضبنا إلا لأننا أخرنا عن المشورة وإنا
نرى أبا بكر أحق الناس بها ، إنه لصاحب الغار ، وإنا لنعرف شرفه وخيره
ولقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة بالناس وهو حي اهـ

وناهيك بعظيم سياسته وثاقب رأيه ، ووصاياهِ للقواد والأمراء بالرفق
بالأمم المغلوبة ، وتجنب كل ما يثير بالمحارب نائرة الاشمجان ، أو يدعو إلى
مس جانب الإنسانية أو يخدش وجه العمران ، حتى كان من ذلك أن قام
ميزان الشريعة بين الأمم المغلوبة بالقسط ، وانتشر نور الإسلام على
الأرض ، فأخذ عدله بمجامع قلوب الشعوب فانضوا تحت لوائه ، وكانوا
من أنصاره وأوليائه .

كان جند الأعاجم من الفرس والروم إذا وطئوا أرضاً أفسدوها .
وإذا ظفروا بمدو مثلوا به واستباحوا حماءه ، فجاء جند الإسلام يحمل الدعوة
قبل الحرب في يد ، وأمان البلاد من أمثال تلك المنكرات الخسيسة في يد
أخرى ، وكانوا إذا انتصروا على عدو واستباحوا حمى ملك أو أمير يحملون
رهوس البشر إلى سدة ملوكهم كبشائر للنصر ، وإعلان للفخر ، فرأى أمراء
المسلمين في حرب الروم أن يعاملوهم بنفس عملهم ، فبعث عمرو بن العاص
وشرحبيل بن حسنة برأس بنان أحد بطارقة الشام إلى أبي بكر مع عقبة ،
ابن عامر ، فلما قدم به عليه أنكر ذلك عليه . فقال له عقبة ، يا خليفة رسول
الله فإنهم يصنعون ذلك بنا قال ، أفستنتان بفارس والروم لا يحمل إلى
رأس إنما يكفي الكتاب والخبر اه أخرجه البيهقي .

اللهم ليست المدنية بالزخارف التي يتجلى بها الغريون الآن ومن ورائها
الشهوات تهدم ما يبنون ، وتضع مما يرفعون ، تنزع بالقوى إذا استعلى على
الضعيف منازع الظلم والجبروت فلا يبالى أخيراً صنع أو شراً ، وعدلاً
أتى أو ظالماً ، يحشرون إلى الغرمات من البشر ويسدون عليهم فوهته
بالخطب يوقدون فيه النار ليميتوهم خنقاً بدخانه . ويروهم التمدن الجديد
بسائر ألوانه (١) ، أو يصفون الناس صفاً ، وينسفونهم بقذائف البارود
نسفاً (٢) أو يجعلون المعابد مرابط للخيل والسكلاب ، ويحشرون الطائفة
المسالمة للموت كما يحشر للمادة اللزجة الذباب (٣) ، وإنما المدنية ماسفتت
لمبادك في كتابك ، وما فطرت عليه من الرحمة نفوس أوليائك ، الذين
آمنوا بنبيك ، وعدلوا بين خلقك ، وتجاهفوا عن مضاجع الراحة في سبيل

(١) هكذا صنع الفرنسيون بمسلى الجزائر لما دوخوا بلادهم

(٢) هكذا صنع الإنكليز لما استنصروا قوار الهند في ثورتهم الكبيرة

(٣) هكذا صنع جنود الدول الأوروبية هذه السنة في الصين ، وهكذا تصنع الدول
الأوروبية في كل حرب إلا بعضها مع بعض فرما يرفق قليلا .

مرضاتك ، وأقاموا الميزان بالقسط لا يظلمون ولا يظالمون

أجل رفع الإسلام نفوس المسلمين عن أمثال تلك الخسائس التي كانت فاشية بين الأمم ، وهذبها على الرأفة والعدل صدرأ من خلافة الخلفاء الراشدين كان من ورائهم فيه حكمة أبي بكر ويقظة عمر تسدان على دناء العادات الوثنية ، وخسيس السنن الرومية منافذ التسرب إلى نفوس المسلمين ، وقيمان في وجهها حواجز الدين الإسلامي المبين ، وما نشب أن امتد الفتح وكثر الاختلاط وامتزج الأمم بحكم الوحدة الإسلامية روميا وعربيا وعجميا وتركيا حتى أعجز الخلفاء الأمر ، وأرهق غاشيتهم من العلماء والمقربين الاقتتان بحب الدنيا ، فتساحوا طوعاً بحكم المخالطة ، أو كرهاً بحكم الغلبة ، ففسدت الفطرة ، وامتزجت الأخلاق بالأخلاق ومن ثم كان معظم المهائب التي حلت بالمسلمين متأياً عن غلبة العادات الأعجمية ، وفقد التربية الإسلامية ، وليس هذا محل الإسهاب وربما نأق بالمناسبة على شيء من ذلك في هذا الكتاب

أخرج البخارى عن قيس بن حازم قال ، دخل أبو بكر على امرأة من أحسن يقال لها زينب ، فرآها لا تتكلم ، فقال ما لها لا تتكلم ، فقالوا حجت مصمتة قال لها : تكلمى فإن هذا لا يحل هذا من عمل الجاهلية ، فتكلمت فقالت من أنت : قال امرؤ من المهاجرين ، قالت أى المهاجرين ، قال من قريش قالت ، من أى قريش ، قال لئنك لسئول أنا أبو بكر ، قالت ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذى جاء الله به بعد الجاهلية ، قال بقاؤكم عليه ما استقامت أمتكم ، قالت وما الأئمة ، قال أو ما كان لقومك رموس وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم ، قالت بلى ، قال فهم أولئك الناس .

هذا هو الحق الذى أنطق الله به أبا بكر ، لحسبنا الله ونعم الوكيل ، وهو بحسن عافيتنا كفيفل (ربنا إنا أطعنا ساداتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) .

سياسة في الرعية :

كانت سياسته مع الرعية بشدة من غير عنف ، ولين من غير ضعف بطيء العقوبة غير متعجل فيها إلا بقصاص واجب ، لهذا كان يأخذ على الحال ليغاثم في العقوبة ، ويأمرهم بالرفق والآناة .

ذكر السيوطي أن المهاجر بن أبي أمية كان أميراً على اليمامة ، فرفع إليه امرأتان مغنيتان غنت لإحدهما بشتم النبي صلى الله عليه وسلم فقطع يدها ونزع ثلبتها ، وغنت الأخرى بهجاء المسلمين ففعل بها مثل ذلك ، فكتب إليه أبو بكر رضى الله تعالى عنه .

بلغنى الذى فعلت بالمرأة التى تغنت بشتم النبي صلى الله عليه وسلم ، فلولا ما سبقتنى فيه لأمرت بك بقتلها ، لأن حد الأنبياء ليس يشبه الحدود فمن تعاطى ذلك من مسلم فهو مرتد ، أو معاهد فهو محارب غادر ، وأما التى تغنت بهجاء المسلمين فإن كانت ممن يابغى الإسلام فأدب وتعزير دون المثلة ، وإن كانت ذمية فلعمرى لما صفحت عنه من الشرك أعظم ، ولو كنت تقدمت إليك فى مثل هذا لبلغت مكروهاً ، فاقبل الدعة وإياك والمثلة فى الناس فإنها مأثم ومنفرة إلا فى قصاص اهـ .

ومن سياسته فى الرعية أن كان يحذرهم من الدخول فى غمار الفتن التى تسفك فيها دماء المسلمين ، ويحملهم على التحفف عن المغام ، والقناعة بالكفاف فى إبان الفتوح الذى تحولت فيه كنوز الروم وفارس إلى المسلمين ، خشية أن تحيا فيهم ملكة الطمع ، فتتزع بهم منازع الظلم ، وتحرك بواعث الطلب من المزيد فيميلون إلى الترف والنعيم اللذين يقعدان بهم عن متابعة الجهاد ، ويشغلانهم عن بث الدعوة بين العباد .

أخرج أحمد في الزهد عن سليمان قال : أتيت أبا بكر فقلت اعهد إليّ فقال .

يا سليمان اتق الله واعلم أنه سيكون فتوح ، فلا أعرفن ما كان حفظك منها ما جعلته في بطنك أو ألقته على ظهرك ، واعلم أنه من صلى الصلوات الخمس فإنه يصبح في ذمة الله ، ويمسى في ذمة الله تعالى فلا تقتلن أحداً من أهل ذمة الله ، فتخفر الله في ذمته ، فيكبك الله في النار على وجهك .

أدبهم وتأديبهم :

إذا أطلق لفظ الأدب فأحر به والله أن يطلق على الصحابة الكرام ، الذين تأدبوا بأداب النبي عليه الصلاة والسلام ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس ، وأشرف قدوة في مكارم الأخلاق ، يقتدى بها المسلمون ، وناهيك بأبي بكر وصحبته أرسول الله من بدء عهد النبوة إلى آخره .

أدبهم مع رسول الله :

أخرج ابن عساكر والإمام أحمد عن يزيد بن الأصم ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر أنا أكبر أو أنت ، قال أنت أكبر وأكرم وأنا أسن منك (١) .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عامر بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ، قال لما نزلت (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم) الآية ، قال أبو بكر يا رسول الله لو أمرتني أن أقتل نفسي لفعلت ، فقال صدقت .

وأخرج الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها ، أنها تمثلت بهذا البيت وأبو بكر يقضى .

(١) نقلت هذا الحديث في الطبعة الأولى دون أن أئين أنه جاء في رواية أخرى عن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الأصح لأن النبي أسن من أبي بكر وعمه العباس أسن منه .

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
فقال أبو بكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أبو بكر مع نفسه :

أخرج ابن عساكر عن الأصمعي قال ، كان أبو بكر إذا مدح قال اللهم
أنت أعلم منى بنفسى منهم ، اللهم اجعلنى خيراً مما يظنون ، واغفرلى ما لا يعلمون
ولا تؤاخذنى بما يقولون .

تأديبهم أنفسهم :

أخرج أحمد بسند حسن عن ربيعة الأسلمى رضى الله عنه قال : جرى
بينى وبين أبى بكر كلام فقال لى كلمة كرهتها وندم فقال ياربيعة رد على مثلها
حتى يكون قصاصاً قلت لا أفعل ، قال لتقولن أو لأستعدين عليك رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت ما أنا بفاعل ، فانطلق أبو بكر وجاء أناس من
أسلم فقالوا لى ، رحم الله أباً بكر فى أى شىء يستعدى عليك ، وهو الذى قال
لك ما قال ، فقلت أتدرون من هذا أبو بكر الصديق ؟ هذا ثانى اثنين ، وهذا
ذوشية المسلمين ، إياكم لا يلتفت فإراكم تنهروننى عليه فيغضب ، فيما ترى رسول
الله صلى الله عليه وسلم فيغضب لغضبه فيغضب الله لغضبهما فيهلك ربيعة
وانطلق أبو بكر وتبعته وحدى حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثه
الحديث كما كان ، فرفع لى رأسه فقال . ياربيعة مالك والصديق ، فقلت
يارسول الله كان كذا وكذا ، فقال لى كلمة كرهتها فقال لى قل كما قلت حتى
يكون قصاصاً فأبيت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل لا ترد عليه
ولكن قل قد غفر الله لك يا أباً بكر اه .

لله أى وجدان هذا الوجدان ، وأى نفس تلك النفس ، بادرة بدرت .
منها لمسلم فلم ترض إلا اقتصاصه منها ، وصفحه عنها ، تناهيا بالفضيلة ،
واستمساكا بالأدب ، وشعوراً تمسكن من الجوانح وأخذ بمجامع القلب فكانت
عنده زلة اللسان ولو صغيرة ألماً ، يتململ منه الضمير فلا يستريح إلا بالاقتصاص
منه ، ورضا ذلك المسلم عنه ، فاللهم هبنا من عظيم رحمتك أخلاقاً تغلب
على شهواتنا ، وتطهر من أدران الكبرياء الباطلة قلوبنا ، لنرى مواطن الخطأ
فتجنبها ، وطرق الزلل فنتنكبها ، فتبعد عن ظلمات الرذائل خطانا ، وتمكن
فضائل السلف الصالح من نفوسنا ، فتمكن لنا فى الأرض سلطان عزنا ،
ونجعل إلى ملئك الأعلى مصيرنا ، إنك سميع الدعاء .

تأديب المسلمين :

كان رضى الله تعالى عنه يتلطف بأن يحمل الناس على طريقته ، ويؤدبهم
بأدب نفسه ، مع ما كان عليه المسلمون يومئذ من سلامة الفطرة ، وظهره
الأخلاق ، والتمسك بأداب الشرع ، مبالغة فى النصيحة لهم ، وحناناً عليهم ،
وقياماً مقام الوالد الرءوف بينهم .

أخرج أبو عبيد فى الغريب عن أبى بكر أنه مر بعبد الرحمن بن عوف
وهو يماظ (أى ينازع) جارا له ، فقال له لا تماظ جارك ، فإنه يبق
ويذهب عنك الناس .

وخطب الناس يوماً خطبة قال فيها : ومن يطع الله ورسوله فقد رشد
ومن يعصمها فقد ضل ضلالاً مبيناً ، أوصيكم بتقوى الله والاعتصام بأمر الله
الذى شرع لكم وهذا كم به ، فإن جوامع هدى الإسلام بعد كلمة الإخلاص ،
السمع والطاعة لمن ولاه الله أمركم ، فإن من يطع الله وأولى الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر فقد أفلح ، وأدى الذى عليه من الحق ، وإياكم واتباع
الهُوى فقد أفلح من حفظ من الهوى والطمع والغضب ، وإياكم والفخر وما
نخر من خلق من تراب ، ثم إلى التراب يعود ثم يأكله الدود ، ثم هو اليوم
حتى وغدا ميت .

وستأتى هذه الخطبة برمتها فى فصل الخطب ، وكثير أمثالها مما تلين له
قلوب الجناد ، وتسترشد به إلى الفضيلة عقول ذوى العناد ، وتوضح للؤمنين
سبل الهدى والرشاد .

أدبر مع المسلمين وتوافقهم لهم :

أخرج الإمام أحمد فى الزهد عن ميمون بن مهران قال : جاء رجل إلى
أبى بكر فقال السلام عليك يا خليفة رسول الله : قال من بين هؤلاء أجمعين
(. يشير إلى من كان معه من الصحابة أدباً معهم وتأديباً للقاتل) .

وأخرج ابن عساكر عن أنيسة قالت نزل فىنا أبو بكر ثلاث سنين
قبل أن يستخلف وسنة بعد ما استخلف فكان جوارى الحى يأتينه بغنمهن
فيحلبهن لهن .

وأخرج ابن عساكر أيضاً عن أبى صالح الغفارى ، أن عمر بن الخطاب
كان يتعهد عجوزاً فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها فأصلح ما أرادت
فجاءها غير مرة كي لا يسبق إليها ، فرصده عمر فإذا هو بأبى بكر الذى يأتينا ،
وهو يومئذ خليفة فقال عمر أنت هو لعمرى .

هكذا التسابق إلى الفضيلة ، والتسارع إلى الخيرات ، وهذا منتهى الرأفة
وغاية الغايات من التواضع ، وحق لامة هكذا يكون رؤساؤها ، وهذه
الأخلاق يتخلق ساداتها أن تمتلك رقاب البشر ، وتسود على البدو والحضر .

وإن ديناً هذا تأثيره في الأخلاق ، وتهذيبه للفطرة لدين الحق الذي لو تمسك أهله بهديه ، واهتدوا في ظلمات الحياة بنوره لكانوا إلى هذا العهد أسعد الأمم حالا ، وأعلى الناس كعباً ، ولكنهم فرطوا والمفرط بالخسارة أولى « وبالندامة أحرى ، (ولا يظلم ربك أحداً) .

وحسب أبي بكر من الأدب والتواضع قوله في خطبته يوم السقيفة ، يخاطب المسلمين كبيرهم والصغير وعظيمهم والحقير وغنيهم والفقير (قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني) :

يقول أبو بكر لهذا الجمع لست بخيركم ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن من أمن الناس على في صحبته وماله أبو بكر^(١) ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام) أو اه كيف لا يكون أبو بكر بعد هذا الحديث خير المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أبرهم بالشئ وأقربهم إليه وأقدمهم صحبة له ، وإنما هو الأدب النبوي الذي تأدبت به نفسه ، والتواضع الذي أشرب به قلبه لا ينفكان عن مثله ولا يحيطان من جلالة قدره ، بل يعليان مكانته في النفوس ، ويحييان به القلوب ويمهدان لرعيته طرق الطاعة لأمره ، والخضوع له والالتفاف حوله ، والعمل بإشارته ، والذب عن حوزته .

قال في مشكاة المصابيح قوله أبو بكر هكذا بالرفع في صحيح مسلم ، وعند البخاري بالنصب وهو الظاهر ووجه الرفع بأن تكون (من) زائدة على مذهب الأخفش وقيل (إن) بمعنى نعم فيكون أبو بكر مبتدأ ومن أمن الناس خبره وقيل اسم لأن صميم الشأن وهو نادر مع أن المكسورة كما عرف في النحو والأوجه ما ذكره بعضهم أنه يحكى على ما هو عليه وقد ثبت من قول أمير المؤمنين على فيما أظلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم نعيماً الهادي (شهد به أبو بكر بن أبو حفصة) الخ .

أين هذا ممن اتخذوا بعد اسم الخلافة سلاحاً يضربون به وجوه المسلمين ، ويمزقون أحشاء الإسلام ، ولم يرضوا لأنفسهم من سمات الخلافة التي ابتدعوها الترفع عن مخاطبة الناس ، والتحجب وراء الستور ، والاعتلاء على منصات العظمة والكبرياء ، حتى افتزعوا لأنفسهم من صفات الألوهية ألقاباً ، واتخذوا من لباس الأعجمية جلباباً ، وركبوا من متن الغرور مراكب صعباً ، فحكموا الناس بالظلم والاستبداد ، وساقوهم بعصا الاستعباد ، ففرقوا عنهم القلوب وشقتوا كلمة المسلمين فاندفعوا من قرون طويلة في غمار الفتن وشغلوا عن أمر دنياهم بأمر أولئك الجبابرة العتاة بين خارج عليهم ، ومقاتل معهم ، ومنابد لهم ، يأخذ بأسباب الحيلة لنفسه ، ومظاهر لهم شغلوه في خدمة شهواتهم عن النظر إلى يومه وأمهه ، تخمدت من جراء ذلك جذوة العقول ، وفترت القوى ، وانحطت الأخلاق وفقد العلم ، وبارت الصنائع .

ومن وراء هذا كله الكذابون والوضاعون ، يستدرجون أولئك الجبابرة بالطنيان ، ويتزلفون إليهم بوضع الحديث ، ليدوسوا بأقدامهم على رقاب الأمة ، ويبددوا نظام الإسلام ، حتى لقد اجتراً أحدهم على أبي جعفر المنصور على قرب عهده بالتابعين ، وعلمه بالحديث وبعد غوره في الدين ، فذكر له حديثاً وضعه يطريه فيه فأنكره عليه وطرده من حضرته .

لهذا لم يزل فريق من الناس ينسب أسباب تهقر المسلمين إلى الدين والدين يبرأ إلى الله من كل ما يخالف سيرة الصحابة ، ويصادم قوانين الترقى ، كالعلم والحرية والعدل ، وإنما هي نزعات قامت في النفوس تذرع بها أربابها إلى إلصاق كل شيء بالدين ليحاربوا باسمه كل شيء خالف أهواءهم ، ونابد أغراضهم ، ومن لنا بمؤرخ صادق اللهجة شديد العارضة عظيم الاطلاع غير هيب من أعداء الحق ، ولا رغب في غير الثواب من الله والشكر من الناس ، يضع لنا تاريخاً يستقصى به أخبار الماضي ، ويتتبع مظان العلل فيكشف عن

بصائر هذه الأمة الغطاء ، ويزيل عن أبصارهم الغشاء ، فقد والله سئمت نفوسنا من سرد تاريخ الأمة الإسلامية كما يسرد المنشد قصيداً اختلط غته بيمينه ، وضعيفه بيمينه ، ونحن مع ذلك لاهون بالسفاسف ، ولعون بما ابتدعه لنا المبتدعون ، من وسائل الرضا بالحرمان من العلم ، والسكوت على أذى هذا الظلم ، والله في خلقه شؤون .

زهد وورع

اعتادت أسماعنا وألفت أذهاننا من معنى الزهد بما ابتدعه لنا المبتدعة ، ووضعوا الوضاعون ، أنه عبارة عن ترك الدنيا والآنزواء في زوايا البطالة والكسل ، ليكون الزاهد عالة على سواه ، مترقباً للرزق من عده ، وهو بهتان على الزهد وعكس لمعناه إذ الزهد في الحقيقة هو التصفى عما بأيدي الناس ، والقناعة بالكفاف عن الفضول ، والتمسّس للحلال من طريق العمل دون الاعتماد على كفاية الأعيار ، كما سترى ذلك مبسوطاً في غير هذا المحل .

ومذهب الصحابة في الزهد هو العفة عن الفضول ، والقناعة بالكفاف ، وليس منهم إلا من كانت له وسيلة للارتزاق من الحلال ، هذا مع الرضا بالقناعة ، وعدم الطموح إلى الفضول ، تهدياً لنفوسهم واقتداءً بهم صلى الله عليه وسلم ، وذلك هو زهد أبي بكر رضي الله تعالى عنه .

كما يروى عن زهده وعفته ورضاه بالكفاف من العيش ، أن زوجته اشتكت حلواً ، فقال ليس لنا ما نشتري به ، فقالت أنا أستفضل من نفقتنا في عدة أيام ما نشتري به ، قال افعلی ففعلت ذلك فاجتمع لها في أيام كثيرة شيء يسير ، فلما عرفته ذلك ليشتري به حلواً أخذه فردّه إلى بيت المال ، وقال هذا يفضل عن قوتنا وأسقط من نفقته بمقدار ما نقصت كل يوم ، وغرمه لبيت المال من ملك كان له .

وروى أنه لما ولي الخلافة رأى أن يستمر على استغلال ملكه ، والارتزاق من وراء عمل يده ، ولا ينفق على نفسه من بيت مال المسلمين شيئاً . فأصبح يوماً وعلى ساعده أبراد ، وهو ذاهب إلى السوق فلقية عمر ، فقال أين تريد؟ قال إلى السوق ، قال أتصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين ، قال فمن أين أطعم عيالي؟ فقال انطلق يفرض لك أبو عبيدة . فانطلقا إلى أبي عبيدة فقال ، أفرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أوكسهم ، وكسوة الشتاء والهييف ، إذا أخلفت شيئاً رددته وأخذت غيره ، ففرض له كل يوم نصف شاة ، وما كساه في الرأس والبطن : أخرجه ابن سعد عن عطاء ابن السائب .

وأخرج ابن سعد عن ميمون قال لما استخلف أبو بكر جعلوا له ألفين فقال زيدوني فإن لي عيالا وقد شغلتموني عن التجارة فزادوه خمسمائة . وما يدل على شدة ورعه ، وأنه إنما قبل فرض العطاء اضطراراً لاشتغاله بأمر المسلمين عن التجارة ، ما أخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت لما استخلف أبو بكر ، قال لقد علم قومي أن حرقى لم تكن تعجز عن مؤونة أهلي ، وشغلت بأمر المسلمين ، فسيأكل آل أبي بكر من هذا المال ويحترف للمسلمين .

وروى عن عائشة أم المؤمنين أنها دخلت على أبيها في مرضه الذي توفي فيه ، وطلبت إليه أن يعهد بالأمر وهي حزينة كئيبة فرفع رأسه وقال : يا أمه هذا يوم يحلى لي عن غطائي ، وأشهد جزائي إن فرحاً فدائم ، وإن ترحاً (١) فقيم ، إنني أطعت أمانة هؤلاء القوم (٢) حين كان النكوص إضاعة والخذل تفريطاً . فشهدى الله ما كان يقيلني إياه ، فتعلقت (٣) بصحفهم

(١) وفي نسخة إن فرح فدائم لأن ترح فقيم

(٢) وفي النثر المختار إنني اطلعت بإمامة هؤلاء القوم

(٣) في النثر تبلغت

وتعللت بكرة لقحتهم ، فأقت صلاتي^(١) معهم لا مختالاً أشراً ، ولا متكاثراً بطراً ، لم أعد سد الجوعة ، وورى العورة ، وقواة القوام ، حاضري الله من طوى بمعض تهفو منه الأحشاء ، وتجب له المني^(٢) ، فاضطرت إلى ذلك اضطرار المريض إلى المعيف ، الآجن^(٣) ، فإذا أنامت فردى إليهم صفتهم وعبدتهم ولقحتهم ، ورحاهم ودثارة مافوق انقيت بها أذى البرد ، ودثارة ماتحتى انقيت بها نز الأرض ، كان حشوها قطع السعف المشع .

يترك هذا الخليفة العظيم تجارته ، ويتخلى عن ذرائع كسبه ، اشتغالا عنها بأمور المسلمين ، وقياماً بوظائف الخلافة ، فيضطر إلى أخذ نفقته من بيت المال ، بما لا يزيد عن الحاجة ، إلى سد الجوع وستر العورة ، ثم هو يؤدي للمسلمين خدمة هيئات أن تؤدي حقها الخزانن ، ويقابلها الشكر ، ولما يقضى واجبه ويشرف على يومه ، ويرى عنده فضلة من مال المسلمين ، وهى ذلك المتاع الحقير ، يأمر بردها إلى المسلمين ، ليلقى ربه آمناً مطمئناً ، نزيه القلب ، طاهر النفس ، خفيف الحمل ، إلا من التقوى ، فارغ اليدين إلا من الإيمان إن فى هذا لبلاغاً وإنها لموعظة لقوم يعقلون .

فاللهم إن هذه التقوى وهذا الزهد وإن كان أليق بمثل أبى بكر ، وألصق بمن أدرك عهد النبوة ، وأجدر بالخلفاء المهديين الراشدين ، إلا أن فيهما عظة لو تذكرها بعد خلفاء المسلمين ، وادرعوا منها جلباباً ليس بالنصفيق فيثقل عليهم حملة ، ولا بالريق فيمتكشف عن ضمائرهم مادونه ، لما زجت بهم نزعات النفوس فى ظلمات المراسم الأعجمية (المنتزعة من محض الوثنية التى هدمها وكل توابعها الإسلام ، ونمى على أهلها عوائد الخسيسية القرآن) فتركهم مثلاً فى

(١) وفى النثر فأقت صلاتي معهم فى لدايتهم .

(٢) وفى المقعد ويحب له الأمعاء .

(٣) وفى النثر اضطرار البرص إلى المعتب الآجن .

الجبّارين ، حاشا أفراداً منهم اختاروا لأنفسهم الاعتدال دثاراً ، والتقوى شعاراً فألحقوا بالراشدين وتركوا أحسن الذكر في تاريخ المسلمين .

وهيهات لتلك النفوس الهائمة في قضاء الحياة الفانية ، أن ترضى لنفسها من المتاع الدنيوى ما رضى لنفسه أبو بكر . وأنى للورخ الناقد أن يتتبع منافذ القضاء التى أرسلت علينا من شواظ الوثنية الغابرة شرراً - مازال يعظم ويشدد حتى أعاد لنا سيرتها الأولى ، وأتى على الخضرء واليابسة ، ومعظم النار من مستصغر الشرر .

جمعهم القرآني :

من مناقب أبي بكر العظيمة ومآثره الكبيرة جمعه القرآن ، ولا يعلم قدر فضله بهذا العمل الجليل لإلّا من عانى أمر الحديث وعرف مقدار ما اجتراه فيه على الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة القصاص والوضّاعين ، الذين شوشوا على الأمة في الدين والسياسة والأخلاق تشويشاً الله أعلم بما جر على الأمة من البلاء ، ولو لم ينهض أئمة الحديث وحفاظه من أواخر القرن الثانى وما بعده إلى تلافي هذا الخطب ، وتتبع الأسانيد الصحيحة وترتيب درجات الحديث وتفريق الموضوع عن الصحيح لكان الخطب أعظم والمصيبة أشد .

أما القرآن فله الحمد والمنّة على أنه سبحانه تكفل بحفظه ، قال تعالى فيه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) لهذا ألهم الله أبا بكر وعمراً ما ألهم من النهوض إلى جمعه من صدور القراء وبعض الصحف ، فجمع وكتب بين الدفتين دون أن يلحق حرفاً واحداً منه تغيير أو تبديل . وأما سبب جمعه فيظهر بما يلي : أخرج البخارى عن زيد بن ثابت قال (أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل

اليامة وعنده عمر فقال أبو بكر إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استبحر يوم اليامة بالتاس وإني لأخشى أن يستبحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن يجمعه ، وإني لأرى أن يجمع القرآن ، قال أبو بكر . فقلت لعمر كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر هو والله خير ، قلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري ، فرأيت الذي رأى عمر . قال زيد وعمر عنده جالس لا يتكلم ، فقال أبو بكر إنك شاب عاقل ولا تهملك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فأجمعه ، فو الله لو كلفني نقل جبل ما كان أثقل على مما كلفني به من جمع القرآن ، فقلت كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر هو والله خير ، فلم أزل أراجع حتى شرح الله صدري الذي شرح الله صدر أبي بكر وعمر ، فتتبع القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعصب وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت لم أجدهما مع غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخرها فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنهما) .

قضاؤه

أخرج البغوى عن ميمون بن مهران ، قال كان أبو بكر إذا ورد عليه الخصوم نظر في كتاب الله فإن وجد فيه ما يقضى بينهم قضى به ، وإن لم يكن في الكتاب وعلم من رسول الله ﷺ ، في ذلك الأمر سنة قضى به فإن أعياه خرج فسأل المسلمين ، وقال أتاني كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله ﷺ ، قضى في ذلك بقضاء ؟ فربما اجتمع عليه نفر كلهم يذكر عن رسول الله ﷺ ، فيه قضاء . فيقول أبو بكر الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ عن نبينا .

فإن أعياء أن يجد فيه سنة من رسول الله ﷺ ، جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم فإن أجمع رأيهم على أمر قضى به ، وكان عمر رضى الله عنه يفعل ذلك فإن أعياء أن يجد في القرآن والسنة ، نظر هل كان فيه لأبي بكر قضاء ؟ فإن وجد أبا بكر قضى فيه بقضاء قضى به وإلا دعا رؤوس المسلمين فإذا اجتمعوا على أمر قضى به .

— ٩ —

كلام على القضاء في الإسلام

لا يخفى على من له إلمام بأصول الشريعة أن الأحكام القرآنية التي كانت تنزل بإزاء الحوادث والسنة النبوية التي ورد فيها حكم قضى به الرسول ﷺ ، إنما هي أصول عامة أو کلیات ليس من شأنها الإحاطة بجزئیات الحوادث ، التي تتجدد في كل وقت ومكان ، لهذا لما أرسل رسول الله ﷺ ، معاذاً إلى الين قال له بماذا تحكم ، قال بكتاب الله ، قال فإن لم تجد ، قال بسنة رسول الله ، قال فإن لم تجد ، قال أجتهد برأيي ، وفي رواية أجتهد رأيي . فقال عليه الصلاة والسلام الحمد لله الذي وفق رسول رسوله لما يرضى به رسوله .

وأنت ترى من هذا أن لأبي بكر رضى الله عنه أن يجتهد برأيه في الحوادث التي لا يكون بإزائها نص صريح في الكتاب ، ولا سنة ثابتة عن النبي ﷺ ، ومع هذا فهو على بصيرته في الدين وعلمه وتقواه وعدله ، كان يرى أن لا ينفرد بحكم في نازلة ، ولا يقضى قضاء ليس بإزائه نص صريح ، إلا برأي جماعة من الصحابة ، مبالغة في الاحتياط ودفعاً لشبه الضمائر ، وقد تابعه على هذا عمر رضى الله عنه وحذا حذوه فيه ، وإذا علمت أن

رسول الله ﷺ ، قال . (اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر)^(١) ، انضح لك من جميع ما قدمناه ، أن هناك أموراً لا ينبغي في هذا الكتاب السكوت عليها وعدم الإلمام بأطرافها .

إن الاجتهاد بمعناه اللغوي هو بذل الجهد ، وقول معاذ لرسول الله ﷺ ، أجتهد برأى ، ظاهر معناه أنه يحكم بما يراه ، بعد بذل الجهد في تمحيص الرأى ، وتحري الحق ، واستشارة أهل الرأى ، وليس هناك قرينة أو شيء آخر ، يدل على أن معاذاً أراد بقوله أجتهد برأى معنى غير ما ذكرناه^(٢) ، وقد رضي رسول الله ﷺ ، ورخص به لمعاذ لأن الله سبحانه وتعالى جعل الإسلام دين اليسر لا دين العسر ، فقال تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ورسول الله صلى الله عليه وسلم إنما رخص لمعاذ بالاجتهاد كي لا تتعطل مصالح المسلمين ، ولا يكون عليهم حرج في الدين .

ومن البديهي أن هذا الترخيص تشريع للاجتهاد ، الذى هو إدارة الأحكام على المصلحة على تمداد الزمان ، وأول من تحرى مصلحة المسلمين وحكم بالحق أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، ومع هذا ومع ما رخص له به من الاجتهاد ، فإنه رأى ورأيه الحق أن لا ينفرد برأيه فى الأحكام ، ولا يقضى بقضاء مبنى على الرأى ، إلا باستشارة جمع من الصحابة وإجماعهم على ذلك الرأى تمحيصاً للحق وتحرياً للصواب وأخذاً بالأصلح والأحوط .

إذن ينتج معنا من هذه المقدمات أمور هي من الأهمية بمكان (منها) مشروعية الترخيص بالاجتهاد عند الحاجة ، أى عند عدم وجود النص ، (ومنها) أن الاجتهاد بمعناه اللغوي دأب مع المصلحة والحق ، مرخص لوضع

(١) أخرجه الترمذى وحسنه الحاكم وصححه .

(٢) أى ما اصطاح عليه الأصوليون .

الأحكام بإزاء الحوادث التي لا يقابلها نص من الكتاب والسنة (ومنها) أن أبا بكر سن سنة الشورى ، وعدم الانفراد سواء بالرأى بوضع الحكم أو بالقضاء فيه ، وتابعه على ذلك عمر رضى الله عنهما ، وهما أولى من يستن بسنتهما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقتدى بهما للحديث السابق .

إذا تقرر هذا علمنا أن المسلمين بما دخل على نظامهم الاجتماعى من الوهن ، وما تخلل حكوماتهم من فساد النظام ، إنما أتوا من قبل أنفسهم لا من قبل الدين كما يفتريه أعداؤه ، أو يقول به فريق من سوائهم البشر ، الذين هاموا بمظاهر التمدن ، كما تهيم السائمة فى منابت السكلا ، فيجتز من هنا تارة ومن هناك أخرى بلا نظام ولا ترتيب ، إذ الدين لم يحص كل ما تحتاج إليه المجتمعات الإسلامية من الأحكام الجزئية فى المعاملات ، ولم يقيد الأمة بقيود الحصر بما جاء فيه من كليات الأحكام ، دون التوسع فيما يقتضى لها من الجزئيات .

أجل قد أصيب القضاء فى الإسلام بأفات عظيمة ، أثرت كثيراً فى الحالة الاجتماعية عند المسلمين ، ولكن ما ذنب الإسلام وهو دين اليسر الذى دفع عن الأمة الحرج ، ونهبها إلى وجوب التوسع فى القضاء بتوسع الحاجات ، وبما لا ينافى قاعدة الحق والعدل ، التى تدور عليها مصلحة المسلمين وقد عمل بهذا الخلفاء الراشدون مدة خلافتهم ، التى كانت الأمة فيها على حال من سداجة الفطرة وجدة الدين وصفاء القلوب ، تسكد تجعل الخصام بين الناس فى حكم المفقود لقيام الز واجر النفسية مقام الوازع بالشرع الرادع بالتأديب من جهة ، ولا نهصار المعاملات فى دائرة لم تتعد طور السداجة المذكورة من جهة أخرى ، ثم أعقب ذلك فترة اشتغل بها الناس بالجهاد ، وتوسعوا بالفتح وغالطوا الأمم ، فطراً بعد ذلك انقلاب فى السياسة

والملك وتغيير عظيم في أصول المعيشة ، تشعبت فيه طرق الأعمال ، وتوسعت أحوال المعاملات والقضاء في غضون ذلك لم يتعد طوره الأول إلا بانتقاله من أيدي الخلفاء إلى أيدي أشخاص آخرين هيئات لأخير خيرهم أن يبلغوا عشر معشار الخلفاء من العلم بالشريعة والأخذ بأسباب الحزم والمصلحة وانتهاج منهج العفة والعدل فكان ينتهي إليهم فصل الخصومات فيفصلون بها على قدر مبلغهم من العلم ، ومكانتهم من عفة النفس ونزاهة الضمير ، بلا سيطرة عليهم عن هو أرفع منهم أو قيد بنظام خاص يلزمهم جادة الإنصاف ، ويضطرهم إلى تنكب طرق الخطأ أو الجور إلا ما جاء من ذلك في كتاب الله ، من أمر بالعدل ونهى عن الظلم وتحذير من اتباع الهوى ، وإنما يستصلح بالتحذير والزواج نفس تطهرت بأصل الفطرة من شوائب الهوى ، ونشأت على سداجة الفطرة ، وأولئك هم المسلمون الأولون ، وأما من انغمسوا بعد ذلك بحما الحضارة واقتنوا بزخارف العالم الفاني فإنهم إلى سيطرة السلطان أحوج منهم إلى التذكير بالقرآن ، لهذا جاء في بعض الآثار (لأن الله لا يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) ولا بد دائماً من قوة تصاحب الشرائع « فتقيم شعائرها وتنفذ أوامرها ، وإلى هذا وردت الإشارة في كتابه الكريم (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) والإسلام بما جاء به من وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جعل الناس رقباء على أولى السلطة كما جعل هؤلاء مسيطرين على إقامة أحكام الشرع فقط ، ، ولكن غفلة الناس وأهواء الحكام أضاعا مزايا الإسلام ، وترك الأمة منقاداً لجور الرؤساء محكومة بالأهواء ، لا تعرف لها حقاً قبل رؤسائها ، ولا تفتأ تعتمد في تدبير كل شؤونها على قادتها .

قام في غضون ذلك من التابعين جماعة نشطوا لجمع السنة في السطور بعد لاذ كانت في الصدور ، ضبطاً لقواعد الشريعة وتقييداً للأهواء ثم تلاهم

ومعاذ الله أن نريد بهذا القول رمى الأئمة بالتقصير في جانب الحاجة الاجتماعية إلى التوسع في الأحكام بتوسع طرق المعاملات فإن هذا فوق طرق الأحاد ، أو نبخسهم حقهم من الاحترام ، وهم لعمر الله أول من يحترم عملهم ويشكر صنيعهم ، بما خدموا به الشريعة وما عانوا من استنباط الأحكام وتدوينها تسهيلاً لتناول الأحكام ودفعاً لفوضى الرأي ، حتى إنا لنفاخر غيرنا بما بلغوه من بعيد الشأ وقصى الغاية في تتبع أحكام المعاملات المدنية أو في الحقوق . وإنما هناك أمور ربما فاتهم النظر إليها اعتماداً منهم على قرب عهد الناس بالإسلام ، وتمكن التقوى والعدل من النفوس ، ولم يصلوا إلى مكان النظر في الغيب ليروا ماذا يحدث من الأقضية بعد للمسلمين ، وإلى أية درجة تنتهى إليه الأخلاق وتبدل العوائد ، وقد فسحت تلك الأمور لقادة الأمة مجال العبث بالشريعة ومهدت للحكام سبيل الهوى ، فكانوا في كثير من العصور الإسلامية آفة الأمن وسم الاجتماع ، إلا من عصم ربك وهؤلاء لا يبنى عليهم حكم .

وأما تلك الأمور فهي ، أولاً كثرة الاختلاف بين المخرجين والمرجحين حتى على المسألة الواحدة ، مما جعل علم الحقوق أشبه برموز لا يتيسر لأحد من الناس أن يتناول منه حكماً جازماً إلا بواسطة الفقهاء والمفتين ، وقليل من الناس المعصوم عن الخطأ أو الغرض ، فيحلل أحدهم من طريق أحد المرجحين ما يحرمه الآخر من طريق غيره^(١) هذا بين علماء المذهب الواحد ، فما بالك بتعدد المذهب أيضاً .

ثانياً : أحكام العقوبات التي لم يرد منها نص صريح في الكتاب أو السنة كالضرب والتعذيب والحبس ، ووضع لها الأئمة والعلماء أحكاماً من طريق

(١) راجع حاشية الدر المختار لابن عايدن ، وأنت ترى فيها ما كتبه بشأن المفتين في عصره وكيف توسعوا بالإفتاء إلى أن أضاعوا الحقوق وبخاصة حقوق الأوقاف .

الأئمة والفقهاء الذين وجدوا القرآن مجموعاً يسراً والأحاديث قد أحرزت فضبطت فتنفقهوا في القرآن والحديث ، ثم اشتغلوا بالاستنباط والتفريع فوضعوا علم الفروع الذى يشتمل على قسمى العبادات والمعاملات ، وتعمقاً لخدمة خدموا بها الإسلام ووضبطوا بها أمور القضاء ، بما وصل إليه اجتهادهم لو لم يزعم من جاء بعدهم من فقهاء كل مذهب أنهم تركوا الأمور على أكمل الحالات ، ولم يبق للناس إلا أن يحفظوا ما استنبطوه ويعلموا ما بينوه .

أجل إن الأمر كذلك في قسم العبادات والاعتقادات ، لأنه ليس مبنياً على شئ من الرأى ، وإنما هو أصول ثابتة في الكتاب والسنة توسعوا في بيانها وتوضيحها ، وأما في قسم المعاملات فليس الأمر كذلك إلا من بعض الوجوه بدليل ما كان بينهم من الاختلاف الكثير في المسألة الواحدة ومنشؤه اجتهاد كل فرد منهم برأيه في طريقة الوضع والقياس والاستنباط ، ولو ألهم الله القوم ما ألهم أبا بكر وعمر من عدم الانفراد بالرأى فيما لا يكون بإذائه نص صريح من الكتاب أو السنة وأجمع أهل الرأى والعلم منهم على جعل علم الفروع قائماً بالتكافل خالياً من شوائب الظنون والاختلاف ، دائراً مع المصلحة التى تناسب كل عصر ، ولم يأت بعدهم من ينزل أقوالهم منزلة الكتاب العزيز ، من حيث لزوم الاكتفاء بها وعدم الحيد عنها أو النظر فيما يصلح أو ما لا يصلح لكل زمان منها لما عرا نظام القضاء في الإسلام ما عراه من الخلل والنقص وتلاعب الأهواء .

إن لنظام القضاء أثراً عظيماً في ترفى الأمم وتدينها إذ متى انحرفت حكومة من الحكومات عن طريق العدل ، وسأولت حكم الأمة بالجور والاستبداد فإنها أول ما تتكىء فعلى القضاء ، فإن كان نظام القضاء قوياً ثابتاً منعتها من الجور وصدها عن سبيل الهوى فحفظ على الناس أرواحهم وأموالهم وحقوقهم والعكس بالعكس .

الرأى أو الاستنباط لم تعين فيها درجات الجرائم عن وجه يمنع من تحكم هوى النفوس ، وتوزيع الاختصاص بالحكم فيها وتنفيذها بين الولاة والقضاء والمحتمسين ، فكان من ذلك أن تدرع بها الحكام الظالمون للتطاول على أموال الناس وحقوقهم وسلب الراحة والأمان من بين ظهرانيهم ، لا سيما بعد مبالغة الخلفاء بالتعجب وترفعهم عن النظر في المظالم وانزوائهم في زوايا القصور عن أنظار الناس .

والظلم على ذلك الوجه إذا طال في أمة دمرها وأفسد أخلاقها وأوهن قوتها ، فتألف المداهنة والنفاق ، وتذل نفوسها لأولى السيطرة ، وتمنع ثروتها من الظهور خوف المصادرة ، فتبور عندها التجارة والصناعة ، وتقف حركة الأعمال وناهيك بها من آفات تنخر جسم العمران وتهدم من التمدن شواخ البنیان ، وقد كاد الظلم على ذلك الوجه يتأصل لقدمه في الأمة ، حتى قال ابن خلدون عن مداهنة الحكام في عصره إنها لازم من لوازم الأمن على الأنفس والأموال لا حرج فيها على المداهنين ، وما أقبحها من حال آلت بالأمة الإسلامية إلى هذا المآل .

ثالثاً - تبادل المسؤولية ^(١) بين طبقات العمال وتعيين اختصاص كل فرد منهم بوظيفة خاصة لا يتعداها ، وقد وضع لها الأئمة والعلماء كتباً خاصة كالأحكام السلطانية ، وآداب القضاة والمفتين وأشباهها ، إلا أنها لشوبها بآفة الخلاف وخلوها من تعيين العقوبات التي تقع على المخالفين تعييناً باتاً صريحاً كادت تكون بحكم المعدوم ، وإن وجد شيء منها فليس وراه من قوة التنفيذ ما يقف بكل عامل عند حده وعلة ذلك عدم تحديد المسؤولية في تلك الكتب ، وارتباط العمال بها ارتباطاً يشبه السلسلة المتصلة الحلقات بحيث تكون السيطرة عامة من الكبير إلى الصغير ومن هذا على الأدنى ، وأنى

(١) المراد بالمسؤولية هنا على اصطلاح كتاب العصر النبوة .

يتيسر ورود هذه المسؤولية لو فرض بيانها في كتب الفروع ما دام لا رأى للأمة في التشريع ، ولا لأولياء الأمر ارتباط بقانون بل هم قادة الأمة الذين ترك المسلمون اعتمادهم عليهم وركنوا بكل شؤونهم إليهم ، فسا راق لديهم من أقوال الفقهاء عملوا به وما لم يرقهم نبذوه ، وعاملوا الأمة معاملة السائمة كما تشاء الأهواء ، ولم تجرت هذه الفوضى بنظام القضاء من البلاء على الناس ، وصبت عليهم من المصائب ما لا يتحملة الجماد ، وليس العهد بها في المملكة العثمانية ببعيد ، فإننا إن لم ندرك شيئاً منها فقد أدرك آباؤنا وأخبرونا بمبلغ ما وصل إليه لذلك العهد ، انحلال نظام الاختصاص وفقد المسؤولية ، حتى كان ليأمر بحبس المدين (مأمور الطابو (١)) قبل وضع القانون المعمول به لرجاء من الدائن ، ومثل هذا وأشد في بعض الممالك الإسلامية ، كمملكة مراکش التي يموت بسجنها السجين دون أن يعلم بسبب سجنه أو موته السجنان أو يأخذ خبره أحد من الحكام إلا من أسر بحبسه لمال يريد ابتزازه منه أو لمجرد التشنفي والانتقام ، وهذا من التناهي في الظلم الناشئ عن تشويش نظام القضاء والعياذ بالله .

وناقه إن الإسلام ليبراً إلى الله من التصاق أمثال هذه المخازي بالمسلمين وهو إنما شرع الاجتهاد في المسائل التي لا يكون يازاتها نص صريح ، درءاً لأمثال هذه المفاسد وتلافياً لكل ما عساه يحدث للأمة من الأفضية التي لم تحدث

(١) هذه وظيفة قديمة في الدولة وهي خاصة بكتابة صكوك الفراغ والانتقال في الأراضي الاميرية عملاً بقانون الأراضي الذي وضعه السلطان سليمان وقسم به أراضي المملكة إلى قسمين خراجية وعشورية وجعل حق التوريث في الأراضي الخراجية عائداً لنصوص القانون وحق بيعها للحكومة وقد توسع الدولة فيه بعد ذلك حتى جعلت كل الأراضي والمسقفات داخلة تحت معاملات قانون الطابو حتى عدت حرية الملك والتملك في المملكة العثمانية وأصبحت الأعيان جميعها مملوكاً للدولة كما هي مملوكة للرقاب أيضاً وهو شأن غريب من الحكومات المطلقة كما سترى تفصيله بعد .

في عصر الرسول عليه الصلاة والسلام ، لهذا لما كان يعرض على أبي بكر أو من بعده من الخلفاء الراشدين قضية من هذا القبيل يحكمون فيها برأيهم ، ورأى المسلمين بعد تتبع الكتاب والسنة كما رأيت ، وهكذا أئمة المذاهب إنما ألجأهم إلى الاجتهاد في مسائل الفروع والتوسع في وضع الأحكام توسع الأمة بالفتح وتبسطها في مناحي الحضارة ، وتوفر أسباب التعامل وتنوع طرق التحميل بين الناس .

ولا جرم أن سنة الترقى والتدرج تقضى بتوفر تلك الأسباب ، وتعدد تلك الطرق ، ومن المصلحة الصالحة أن يدور الاجتهاد مع هذه السنة تلافياً لكل ما يحدث للناس من الأفضية ، وتقييداً للحكام بالقانون ولو استمر ذلك إلى الآن لما طرأ على المسلمين ما طرأ من التقهقر الناشئ عن التضيق في نظام القضاء ، وبلغت قوانينهم الشرعية إلى هذا العهد مبلغاً من الترقى يدرأ عنهم كل آفات الظلم التي نخرت عظامهم ، وزعزت أركان مجتمعاتهم ، ولكن ما الحيلة وقد حتم الفقهاء منذ أجيال طويلة بسد باب الاجتهاد لعللة سوى أن هذا القول وافق هوى من نفوس الأمراء الذين تعاكس قاعدة الاجتهاد مقاصدهم . فأعانوا الفقهاء على قولهم ، ودعموا بالقوة والجبروت دعواهم ، إذ الاجتهاد مبني على المصلحة ، والمصلحة كانت تقضى بسد كل ثلمة يتسرب منها جور الرؤساء إلى الأمة ، وفي هذا غل لأبيهم عن الاستبداد ، وصدد لأهوائهم عن التصرف بنفوس العباد ، وهكذا انطوى الثوب على غرة ، ومضى الأمر لهذا العهد على وجهه ، حتى بلغت بنا الحال الآن إلى العمل بالقوانين الوضعية التي تتمتع الأمم بها بالسعادة الدنيوية ، وأمامنا الشرع رحب الجنبات وسيع الباب يصدنا عنه الفقهاء ويقتلنا دونه الرؤساء ، فاللهم ارزقنا من فضلك فرجاً ، واجعل لنا من هذا الضيق مخرجاً ، إنك مجيب الدعاء .

ربما يتبادر إلى الذهن أننا نريد بهذه المقدمة فتح باب الاجتهاد لأهل الرأي ، يلجحه منهم من شاء في أى وقت شاء ، ليتلافوا حاجة القضاء في كل عصر ، ويطلقوا عنان النظر والبحث في هذا الأمر ، ومعاذ الله أن يخطر لنا مثل هذا في بال ومن قبله جاء الأمة مصاب الاختلاف ، وتشوش نظام القضاء فأصبحت الأحكام عرضة لآفات الخلاف ، وإنما الذى نراه حاسماً لليلة وأنياباً بالحاجة واقعياً من التماهى فى فوضى التفريع ، هو الاستئنان بسنة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فى الاجتهاد بالمسائل التى لا يكون بإزائها نص صريح فى الكتاب أو السنة ، ذلك بأن لا يتحكم فيها رأى فرد واحد ربما يخالفه فيه الآخر ، وهكذا إلى ما شاء الله فتحكم الأمة الواحدة بعدد غير متناه من القوانين ، كما هو شأن المسلمين بمخرجهم ومرجعهم الآن بل يكون الأمر فى ذلك شورى بين طائفة من العلماء المتضلعين فى علوم الشريعة ، الواقفين على حالة الأمة والعصر ينتدبهم عند الحاجة ولى الأمر فى كل قوم من المسلمين (كما كان أبو بكر ينتدب لمعوتته بالرأى أهل العلم من المسلمين) ليجتهدوا فى وضع الأحكام بإزاء الحوادث التى تحدث للأمة^(١) وتوافق حالة العصر وتفي بحاجة الترقى والاجتماع ، وإذ كان اجتهاد الصحابة كما علمنا هو عند الحاجة وتعذر وجود النص ، كذلك ينبغى لأولئك العلماء أن يكون اجتهادهم قاصراً على ما تمس إليه حاجة الدولة والأمة من الأحكام التى تقتضيها سياسة الشعوب ، بلزوم العدل وتدرأ بها مفسدة تعطيل الأحكام ، أو الحكم بالهوى فيما لا يكون بإزائه نص صريح فى المسائل التى تعرض للحكم .

ومن ثم يتسكون من أحكام الشريعة قانون شامل لأحكام العقوبة والحقوق ليس فيه شىء من مشاركات الخلاف يتناول منه الأحكام سائر الناس

(١) يؤثر عن عمر بن عبد العزيز أنه قال يحدث للناس من الأفضية بقدر ما يحدث لهم من الفجور وبهذه القاعدة عمل المالكية فى التفريع .

ويقصر عليه العمل في الدولة على نحو ما عننته الدولة الشافعية في ترتيب مجلة الأحكام الشرعية ، التي أغنت الأمة عن تكبد عناء الاستفتاء ودرأت عنهم كثيراً من أذى التلاعب بالنصوص .

هذا ما نراه حاسماً لداء الفوضى القانونية عند المسلمين قريباً من الصواب وسنة الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين ، وبعد ففوق كل ذى علم عليهم والله ولى الإرشاد وإليه يرجع الأمر .

أوليائه

منها أنه أول ما سمي خليفة وأول من ولى خلافة وأبوه حى ، وأول من فرض له رعيته العطاء ، وأول من أسلم ، وقد تقدم الكلام على إسلامه وأول من جمع القرآن ، وأول من وضع بيت المال .

كتبه وخطبه

كتبهم :

(كتاب عهده للأمراء في حروب الردة) بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه لقتال من رجع عن الإسلام ، وعهد إليه أن يتقى الله ما استطاع في أمره كله سره وجهره ، وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان ، بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بدعاية الإسلام فإن أجابوه أمسك عنهم ، وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم ، حتى يقرؤا له ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم ، فياً خذ ما عليهم ويعطيهم الذى لهم ، لا ينظرهم ولا يرد

المسلمين عن قتال عدوهم ، فمن أجاب إلى أمر الله وأقر له قبل ذلك منه وأعان عليه بالمعروف ، وإنما يقاوم من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله . فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل ، وكان الله حسبيبه بعد فيما استسربه ، ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لا يقبل الله من أحد شيئاً مما أعطى إلا الإسلام ، فمن أجابه وأقر قبل منه وأعان ، ومن أبى قاتله فإن أظهره الله عز وجل قتلهم فيه كل قتلة بالسلاح والنيران . ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس ، فإنه يبلغناه ويمنع أصحابه العجلة والفساد وألا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ، ويعلم ما هم لشئاً يكونوا عيوناً ، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم ، وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ، ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ، ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول اهـ .

كتابه إلى المرتدين وسيره إليهم قبل مسير الأمراء لحربهم :

(بسم الله الرحمن الرحيم) من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى من بلغه كتابى هذا ، من عامة أو خاصة أقام على الإسلام أو رجع عنه ، سلام على من اتبع الهدى ، ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والطوى ، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله وأومن بما جاء به (أما بعد) فإن الله أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق من عنده بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله يأذنه وسراجاً منيراً ، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، يهدى الله للحق من أجاب إليه ، وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذنه من أدبر عنه ، حتى صار إلى الإسلام طوعاً أو كرهاً ، ثم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نفذ لأمر الله ونصح لأمته وقضى الذى عليه . وكان الله قد بين ذلك لأهل الإسلام فقال (إنك ميت وإنهم ميتون) وقال (وما جعلنا لبشر من قبلك

الخلد أفان مات فهم الخالدون) وقال للمؤمنين (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين) فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله وحده لا شريك له فإن الله بالمرصاد ، حتى قيوم لا يموت ولا تأخذه سنة ولا نوم ، حافظ لأمره ، منتقم من عدوه بحزبه . وإن أوصيكم بتقوى الله وحفظكم ونصييكم من الله وما جاء به نبيكم ، وأن تهتدوا بهديه وأن تعصموا بدين الله عز وجل فإنه من لم يهد الله ضل ، وكل من لم يعافه مبتلى ، وكل من لم ينصره مخذول . فمن هداه الله كان مهدياً ، ومن أضله كان ضالاً (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً) ولم يقبل منه في الدنيا عمل حتى يقربه . ولم يقبل له في الآخرة صرف ولا عدل ، وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام . وعمل به اغتراراً بالله عز وجل . وجهالة لأمره . وإجابة للشيطان ، وقال جل ثناؤه (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفستخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) وقال جل ذكره (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) وإن قد أنفذت لكم فلاناً في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، وأمرته ألا يقاتل أحداً ولا يقتله ، حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه . ومن أبى أن يقاتله على ذلك ولا يبقى على أحد منهم قدر عليه . وأن يحرقهم بالنيران ويقتلهم كل قنلة ويسبى النساء والذراري ، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام ^(١) فمن آمن فهو خير له ، ومن تركه فلن يعجز الله ، وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي

(١) كل هذا مبالغة لأهل الردة بالإرهاب فقط

في كل مجمع لكم ، والداعية الأذان فإن أذن المسلمون فأذنوا كنفوا عنهم ، وإن لم يؤذنوا فاسألوهم بما هم عليه ، فإن أبوا عاجلوهم وإن أقرؤا قبل منهم ، وحملهم على ما ينبغي لهم اهـ .

كتاب عمره لهزم :

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقى الفاجر ، إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب فإن بر وعدل فذلك علمي به ورأي فيه ، وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب ، والخير أردت . ولكل امرئ ما اكتسب ، (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) .

كتاب إلى عمرو بن العاص :

بسم الله الرحمن الرحيم (أما بعد) إني كنت كنت قد رددتك إلى العمل الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كمة مرة وسماء لك أخرى ، مبعثك إلى عمان لإنجاز المواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد وليته ثم وليته ، وقد أحببت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك .

كتاب إلى فبال :

وكتب إلى خالد بن الوليد متصرفه من الحج يعاتبه ويأمره بقصد الشام :

(أما بعد) سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شجوا فأشجوا وإياك أن تعود لمثل ما فعلت ، فإنه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجاك ، ولم ينزع الشجى من الناس نزعك ، فليهنئك أباسليمان النية والحظوة ، فأتهم

يتمم الله لك ولايدخلنك يحجب فتخسر وتخذل ، وإياك أن تدل بعمل فإن
الله عز وجل له المن وهو ولي الجزاء .

كتاب إلى هجرة في شأنه الدارين :

(بسم الله الرحمن الرحيم) من أبي بكر الصديق إلى أبي عبيدة بن الجراح
سلام عليك فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو (أما بعد) فامنع من كان يؤمن
بالله واليوم الآخر من الفساد في قرى الدارين ، وإن كانوا أهلها قد جلوا
عنها وأراد الداريون يزرعونها فليزرعوها ، وإذا رجع إليها أهلها فهي لهم
وأحق بهم والسلام عليك .

كلام على الخطابة عند العرب في الجاهلية والإسلام :

بجمل تاريخ الخطابة عند العرب أنها قديمة مع الشعر وكان لهم بها تبرز .
وفيهما ولع ، ولها في تاريخهم عظيم الأثر ، وطويل الخبر ونحن نجتزئ من
ذلك بذكر ما يهم إيرادهم ويناسب ذكره توطئة لما سيرد معنا من ذكر خطب
أبي بكر وغيره من فصحاء الإسلام فنقول :

كانت العادة عند العرب في الخطابة أن يكون الخطيب واقفاً على قدميه ،
مشرفاً على الناس ، لهذا كان إذا خطب خطيبهم في العراء علان شراً من الأرض
وإن لم يجد خطب على الراحلة ، وفي غير العراء يقف على المنبر ، وكان لا بد
للخطيب من أن يأخذ بيده العصا أو المخصرة أو القوس ، وتارة يخطب وفي
يده القنطرة ، وللعرب في هذا أشعار كثيرة ، فمنها قول معن بن أوس المزني
في العصا .

فلا تعطى العصا الخطباء يوماً وقد تكفى المقادة والمقالا
ومنها قول أيبس بن ربيعة في القسي :
ما إن أهاب إذا السراقد عنه قرع القسي وأرعى الرعيد

وقال جرير بن الخطفي في حملهم القناة

من للقناة إذا ألقى قائلها وللأعنة يا عمرو بن عمار

ولما جاء الإسلام أقر كثيراً من هذه العوائد ، وإلى استعمال المسلمين
المختصرة والعصا يشير بقوله كثير من شعراء الإسلام .

إذا قرعوا المنابر ثم خطوا بأطراف المخاصر كالغضاب

وربما كان هذا سبب حمل خطباء المنابر السيف الخشبي إلى الآن ، وكان
النبي صلى الله عليه وسلم يخطب واقفاً على منبر (١) .

وكذلك كان بعده الخلفاء الراشدون يخطبون وهم وقوف إلا في خطبة
النكاح فإنهم كانوا يخطبون وهم جلوس ، لهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله
عنه ما يتصعدني كلام كما يتصعدني خطبة النكاح ، وذلك لأنه كان يخطبها جالساً
وكان للخطابة عند العرب بمن المكانة السامية ما كان للشعر يفاخرون بها في
مشاهدتهم ، ويتخير لها الخطباء من اللفظ أحسن ما عندهم ، إلا أنها كانت
لا تخلو من السذاجة تبعاً لحالة القوم الاجتماعية ، ومعيشتهم الفطرية . ولما
جاء الإسلام ببنيانه ، وضرب بينهم بجرانه ، تفتقت القرائح واتسع مجال الفكر
وبعدت مرأى العقول ، فارتقى فن الخطابة على عهد الصحابة والتابعين ارتقاء
يدل على ما كمن وراء تلك السذاجة من الاستعداد الباهر ، الذي كان أشبه
بكمون النار في الزناد أظهرها الاحتكاك وطير شررها القدح .

والفضل في ارتقاء فن الخطابة في عهد الصحابة والتابعين إنما هو عائد
للكتاب المبين ، وذلك من وجوه (منها) أن القرآن وإن كان زل بلغة القوم

(١) عند الإمام أحمد وغيره من حديث سعد بن عائد وسعد القرظ مؤذن رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، أن رسول الله كان إذا خطب في الحرب خطب على قوس ، وإذا خطب
خطب على عصا .

التي بها يتخاطبون . وبفصاحتها ينفخون ، إلا أن أساليبه العالية التي أعجزت
فصحاهم ، وأخذت بمجامع قلوبهم ، أكسبتهم ملكة من البلاغة في تخير
الأساليب السامية غير ملكاتهم ، وأطلقت أسلحتهم من عقال الحوشية والمقعر
الذي كان ديدن كثير من خطبائهم وفصحائهم .

حق إنهم لمكانوا يعيرون الخطيب المصقع إذا لم يكن في كلامه شيء من
آى القرآن ، فقد روى الجاحظ عن الهيثم بن عدى عن عمران بن حطان
أنه قال : خطبت عند زياد أو قال ابن زياد فأعجب بها زياد وشهدها عبي
وأبي ثم إنى مررت ببعض المجالس فسمعت رجلاً يقول لبعضهم ، هذا الفتى
أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن .

وروى الجاحظ عن الهيثم أيضاً أنهم (يعنى العرب) كانوا يستحسنون
أن يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع آى من آى القرآن ،
فإنه مما يورث الكلام البهاء والوقار وحسن الموقع .

(ومنها) أن الإسلام بما هذب من أخلاقهم وألان من جفاء طبائعهم
أدخل من الرفة على عواضقهم مارق به كلامهم ، وكثر المعانى المؤثرة في
النفوس اختياريهم في خطبهم ومخاطباتهم .

(ومنها) أن مجاء في القرآن من الترغيب والترهيب على الأسلوب البالغ
حد الإعجاز في التأثير على الضمائر والأخذ بشكائم النفوس ، أعانهم على
التفنن في أساليب الوعظ الخطابى عند حلول الأزمات ، أو الحاجة إلى
تأليف قلوب الجماعات ، حتى لقد كان الخطيب البليغ منهم ليدفع بالخطبة
الواحدة من الملمات ، ما لا يدفع بالبيض المراهفات ، ويملك من قلوب الرجال
ما لا تملكه البدر والأموال ، كما صنع أبو بكر في خطبته يوم السقيفة التي
امتلك بها قلوب المهاجرين والأنصار ، وصرف عن الأمة تلك الأمور

الكبار ، وكما صنع الحجاج في أول خطبة له في أهل العراق يوم إذ فلبوا للدولة المروانية ظهر المجن ، وسطرت على جباههم آيات الاستكبار والفتن ، فإنهم ما طرق مسامعهم داعي الأمير إلى المسجد حتى أخذوا يقدون إليه أفواجا ويلتقطون من أرضه الحصص يريدون رجعه بها وهو على المنبر استصغارا لشأنه واحتقارا لمولاه ولم يلبثوا أن طرقت أسماعهم زواجره ، واخترقت جدار قلوبهم صوادع كلمه ، حتى تناثرت من أيديهم الحصص ، وخشعت منهم النفوس ، وطأطأت الرقاب ، رهبة منه وإجلالا له ، كما سيمر عليك في هذا الكتاب إن شاء الله .

(ومنها) أن الإسلام بما مهد لهم من سبل الفتح ومخالطة الأمم ، وبما منحهم من سعة السلطان والسيادة على الشعوب ، وفر لهم الأسباب الداعية إلى التوسع في الخطابة ، بما تتطلبه حاجة التوسع في الملك وتمتضيته عوائد الأمم المحكومة وأخلاقها .

هكذا كان شأن الخطابة في صدر الإسلام ، ومبلغ تبرز القوم فيها وتسليطهم على النفوس الجافية بقوة سلطانها ، وقوى برهانها ، ولكن وأسفاه فقد بدأ يعرفوها الوهن ويحتفها الفساد من أواسط الدولة المروانية حيث كان استحكم الفساد باللغة العربية ، ودب في نفوس الخلفاء داء العظمة والكبرياء ، فأقلوا من الظهور لعامة الأمة ، ويرفعوا بزعمهم عن الوقوف موقف المخاطب للناس ، لاسيما وقد كان الخلفاء في صدر الإسلام يخاطبون الناس عند طرود كل حادث جلال بلا تقييد بوقت ، ولا تكلف لقول ، فكانوا يجمعون المسلمين إلى المسجد تارة لإعلان خبر عليهم ، وتارة لاستشارتهم ، ووقتاً لتحذيرهم ، وآخر لوعظهم وتذكيرهم ، وأنى لمن اتخذوها بعد كسروية أن يقفوا للناس هذا الموقف ، وهم يرون أن الرأى سلطان لا يتعداهم ، وأن الناس بالنسبة إليهم هم لا ينبغي لعصا القوة والجبروت أن تتخطاهم .

ما أعظم مكانة الخطيب في النفوس ، وأنفذ كلامه في القلوب ، وأشدّه
إثارة للعواطف ، إذا كان ذلك الخطيب أمير القوم الذى تتجه نحوه أنظارهم
وتحدق به أبصارهم ، وتلتف حوله قلوبهم ، وتترامى إليه آمالهم ، يستسلمونهم
بالقول إذا قسوا ، ويستخضعونهم به إذا عصوا ، يمتلك نفوسهم بالرغبة تارة ،
وبالرغبة أخرى ، وينفخ فيهم وقت الحاجة روح الحماس فيقذف بهم الجبال
فيدكروها بين يديه ، ويلين لهم بالقول ، فإذا استوهبهم الأموال والأرواح
وهبوا له .

تالله إنها لمكانة سامية انحط عنها الأمراء على غير علم ، وسلطان نافذ
القوة فى الأرواح لا يدانيه نفوذ قوتهم الجبروتية فى الأجسام ، وأنى يضارع
الروح الجسم ، ولقد كان أول وهن دخل على سلطان الخطابة فى الإسلام
فى عهد الوليد بن عبد الملك ، حيث بدأ بأن يخطب على المنبر جالساً ، وقد
كان الخلفاء قبله يخطبون وهم وقوف ، ومن ثم دب ديب الاستهانة بهذا
الموقف العظيم شأنه ، الجليل شرفه ، حتى مجه الخلفاء والأمراء ، وانحط
عنه القادة إما عجزاً عن الوفاء بحقه ، ولما استهانة به وترفعاً زعموا عنه ،
وكان آخر الخطباء المجيدين من خلفاء المسلمين الخليفة المأمون العباسى رضى
الله عنه ، وإنما انحلت عرى الخطابة بعد لما انحلت عرى الإمامة ، وأخذ
الخلفاء يستنكبون بالصلاة بالناس كما استنابوا غيرهم بكل وظائف الإمامة ،
فأصبحت الخطب تتلى على المنابر فى أيام الجمع ، لا لما وجدت له بالذات بل
لأنها أصبحت من قبل الرسوم التى ينبغى أداؤها على أى حال كان ، حتى
كان من ذلك أن تنوسى مع الزمان القصد الذى سنت من أجله الخطابة
فى الإسلام ، فانقلب نفعها ضرراً وخيرها شراً ، بمن انتهت إليهم هذه
الوظيفة السامية من جهلاء المسلمين ، الذين أصبحوا واحزنه انفسون من
أعلى المنابر سؤم الجهل والأذى فى العقول ، بعد إذ كانت تشرق منه

شموس الحكمة فتنبعث أشعتها في الأقطار ، وتمزق عن البصائر حجب الجهالة ، وغشاء الضلالة ، فكم فرج ذلك الموقف من الكرب ، وكم أزال من الخطوب ، وكم فرق ما اجتمع على الضلال ، وجمع ما تفرق من القلوب ، وكم أشرف من أعلاه رجال كانت صدورهم ينابيع للحكم يفيضونها على الناس فيضاً ، ورأسهم بما تحملته من العقول أشبه بأوعية البخار ، ترسل قوته على الناس من أنابيب الأفواه إرسالا ، فتحرّكهم حركة من دبت فيه الحياة ، وامتلا بروح النشاط . ولكن كان ذلك وأنا لنأ أن يكون . والحديث شجون ، وقد اختص بهذه الفضيلة الآن خطباء السياسة الغربيون .

فهطيم :

كان أبو بكر رضى الله عنه فصيح اللسان قوى الحجّة إذا خطب ، كثير التذكير بالله والتخويف منه والترغيب فيه ، وروى عن الزبير بن بكار أنه قال ، سمعت بعض أهل العلم يقول ؛ أفصح خطباء رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب .

وها نحن ننقل إليك فى هذا الكتاب ما وقفنا عليه من خطب أبى بكر رضى الله عنه .

٩ — لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم واختبئ الناس فأصبحوا بين مصدق ومكذب ، جاء أبو بكر من السنح ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكلم بكلام سبق ذكره ، ثم خرج وخطب الناس فقال :

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، وأشهد أن الكتاب كما نزل ، وأن الدين كما شرع ، وأن الحديث كما حدث ، وأن القول كما قال ، وأن الله هو الحق المبين ، فى كلام طويل

ثم قال أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، وإن الله قد تقدم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعاً وإن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه ، وستة نبيه ، فنأخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكركم ، أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يقتننكم عن دينكم فعاجلوه بالذي تعجزونه ولا تستنظروه فيلحق بكم .

٣ - (خطب يوم السقيفة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه) أيها الناس نحن المهاجرون أول الناس لإسلاما ، وأكرمهم أحساباً وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأكثر الناس ولادة في العرب وأمسهم رحماً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلمنا قبلكم ، وقدمنا في القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان) فتحن المهاجرون وأتم الأنصار إخواننا في الدين ، وشركاؤنا في الفداء ، وأنصارنا على العدو ، وآويناهم وواسيتهم فجزاكم الله خيراً ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله .

٤ - (وخطب يوم السقيفة أيضاً فقال) نحن أهل الله وأقرب الناس بيتاً من بيت الله ، وأمس الناس رحماً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن هذا الأمر وإن تناولت له الخزرج ، لم تقصر عنه الأوس ، وإن تناولت له الأوس لم تقصر عنه الخزرج وقد كان بين الحيين قتلى لا تنسي ، وجراح لا تداوى ، فإن نعتكم ناعق فقد جلس بين الحى الأمد يعضغه المهاجرون ويحرجه الأنصارى اهـ .

ولقد أثرت هذه الخطبة في الأنصار تأثيراً بالغاً ، إذ تنبه لها الأوس بخافوا أن يصير الأمر دونهم إلى الخزرج وتنبيه الخزرج بخافوا أن يصير

الأمم إلى الأوس ، فتركوا جميعاً الأمر لقريش فانطفأت بهذا جذوة الفتنة
وأمن الناس شر الخلاف .

ع - وخطب بعد أن ولي الخلافة وهى غير خطبته التى أوردناها عند
ذكر بيعته ولعل هذه الخطبة التى خطبها بعد البيعة العامة ، فقال بعد أن حمد
الله وأثنى عليه :

(أما بعد) فإنى قد وليت أمركم ولست بخيركم ، ولكنه نزل القرآن
وسن النبي صلى الله عليه وسلم السنن ، وعلمنا فعملنا ، فاعلموا أيها الناس
أن أ كس الكيس التقى ، وأعجز العجز الفجور وأن أقواكم عندى الضعيف
حتى آخذله بحقه ، وأن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه الحق ، أيها
الناس إنما أنا متبع ولست بمبتدع فإذا أحسنت فأعينونى وإن أنا زغت
فقومونى ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

كلام على الحكومة فى الإسلام - مرم :

أورد السيوطى فى تاريخه هذه الخطبة وروى فى ختامها عن مالك رضى
الله عنه أنه قال (لا يكون أحد إماماً أبداً إلا على هذا الشرط) .
ومن تدبر قول الإمام مالك وأمعن النظر فيما جاء بتلك الخطبة ، علم أن
الخلافة صارت ملكاً عضوياً وسلطة قاهرة ، لم يتأت للمسلمين أن يقوموا
زيغ أوليائها منذ عهد بعيد ، وأن تلك الحكومة الإسلامية الأولى التى تمتع
بها المسلمون زمناً ليس بكثير ، وعين أبو بكر حد السلطة العليا فيها بتلك
الخطبة الأنيقة حكومة ديمقراطية قل أن يجد طلاب الحرية والعدل فى كل
عصر أحسن لسياسة الأمم منها ، وإنما تمتع بها المسلمون ذلك الزمن القليل
مذ كانوا يشعرون شعوراً واحداً بحاجة الحياة الاجتماعية ، ويعلمون أن
السعاد والشقاء منوطان بالاعتماد على النفس والعمل بسنة التعاون لا بمن يتولى
أمرهم ، ويعطى مقاليد الرئاسة عليهم ، وهو واحد منهم يشعر كشعورهم ،

ويعمل للمصلحة العامة عملهم ، فإذا أحسن أعانوه ، وإذا زاغ قوموه ولكن لما فقد منهم ذلك الشعور واستحال إلى الاعتقاد بالعجز عن القيام بشؤون الحياة الاجتماعية إلا إذا تركوا مقاليد الأمور إلى رئيس تتجه آمالهم إليه ، ويعولون في أسباب السعادة عليه فيفنى وجودهم في وجوده ، وتضمحل إرادتهم في إرادته ، فلا يكون إلا ما يشاء لا ما يشاءون ، ولا يعمل ، إلا ما يريد لا ما يريدون واستحالت حكومتهم من الديمقراطية إلى المطلقة ، وأصبحت الخلافة ملكاً عضواً ، وسلطة جائرة نزعت منازع الجبروت ، واستأثرت بالمصالح واجتثت أصول الشورى ، ومن ثم تشوش نظام الدولة الإسلامية ، وانحطت مدارك الأمة عن مقام العرفان بواجب الراعى والرعية ، فسلبت منهم نعمة التمتع بالعدل ، كما حرمت حكوماتها نعمة الراحة والانتظام .

وما زال يتفاقم هذا الداء حتى ألف المسلمون حكم الاستبداد ، ورضوا بالجور والعبودية بدلاً عن العدل والحرية ، وباتوا أضعف الأمم إحساساً بالظلم ، وأبعد الشعوب عن التطلع إلى الحرية ، ولم يساووا بالشعور بأذى الحكم المطلق ، والحاجة إلى الحكم المعتدل أقل الشعوب عدداً من الغربيين وأضعفهم قوة ، فضلاً عن بقية الأمم العظيمة الأوروبية ، وأوضح شاهد على هذا أن المسلمين ما زالوا إلى هذا العهد محكومين بأنواع الظلم والاستبداد في كل بقعة من بقع الأرض ، وليس لهم حكومة تضارع أدنى حكومة من حكومات المغرب في الرقي وحسن النظام ، ومع هذا فليس فيهم ولا شعب واحد يحس بهذا المرض الذى برح وجرح فينهض لتلافي الأمر وينظر في سوء المنقلب أو يخطر له محاولة الخلاص من هذه الحال في بال .

ولقد أصبح كل فلاسفة العالم في حيرة من هذا التدنى البالغ منتهى درجات الرضا بالشقاء ، والصبر على البلاء ، وبات بعض المتنبيين من رجال الإسلام في حيرة من تعليل الأسباب الداعية لوجود هذه الأمة ويأس من سلامة مستقبل المسلمين ، وأما فلاسفة أوروبا فإنهم ألصقوا أسباب التدنى .

في الأمة الإسلامية بالدين بدعوى أن المسلمين والغريين من طينة واحدة، لا فرق بين الفريقين في الخلق والتركيب يدعو إلى مثل هذا التفاوت الكبير في الشعور، وهو قول في الحقيقة خال من التحقيق، بعيد عن الصحة، إذ الأسباب الداعية لتدنى المسلمين واختلال نظام دولهم كثيرة، وهي غير الدين الذي يبرأ إلى الله من جمود المسلمين، وأهم تلك الأسباب استحالة حب الاستقلال إلى الاعتقاد بالعجز والاعتماد في سائر شؤونهم على أولياء الأمر كما قدمنا، والدين يبغيض إليهم العجز وينهاهم عن الرضا بالذل.

أفرط بعض الخلفاء بحب الأثرة وفرط المسلمون معهم بحرية الهيمنة عليهم والمشاركة لهم والإشراف على أعمالهم، كما كان الأمر على عهد الخلفاء الراشدين فكان من ذلك الإفراط وهذا التفريط أن فسد كثير من شؤون المسلمين الدنيوية، وانحلت عرى حكومتهم الديمقراطية، فدخل الوهن على الحاكم والمحكوم، وشقى الظالم والمظلوم، وكان الضرر بالخلفاء أعظم، والندامة بهم ألزم، إذ ساءت سياستهم للملك وانصرفت همهم إلى السفساف فتوثب أمراء الأطراف على ملكهم، وتشاطروا سلطانهم فلم يدعوا لهم من الإمامة إلا الرسم، ولا من السلطان إلا الاسم، فظلموا من حيث ظلموا، وأخذوا من حيث أخذوا وهم لا يشعرون، ولو علموا أن ستة الخلفاء الراشدين أبقى على ملكهم وأعز لسلطانهم لما حادوا عنها قيد شبر، ولما خالفوها أبد الدهر، وهل كانت غزوات التتار وهجمات أهل الصليب إلا نتيجة الوهن الذي دخل على الخلافة، وأصاب بمجموع الأمة، وسببه ذلك الإفراط والتفريط.

أى وهن لعمرى أليك أشد على الأمة وأظهر في جانب الخلافة من أن تصير كل قرية كبيرة من قرى الممالك الإسلامية كتكريت في الجزيرة، وسيجر في الشام مثلاً عاصمة ملك من ملوك الطوائف يتفرد بسلطانه، ويحكم بشهوته،

وينابذ جاره في الملك ويقا تل أخاه في الدين ، والإمام في عاصمة الإسلام كغداد ومصر مغلوب على أمره ، محصور السلطة في قصره .

إن بقاء المسلمين إلى الآن يتمتعون بشيء من الاستقلال بعد تلك الحال التي كانوا فيها فوضى الملك والسياسة وجيوش الصليب والتتار عدة أجيال ، لمعجزة من معجزات الدهر ، التي تحير الألباب وتدعو ملوك المسلمين إلى النظر والاعتبار وقياس الماضي على الحال فإن مدينة المسلمين التي كانت في تلك العصور أرقى من مدينة سواهم وقتهم على تفرق كلمتهم ووهن عصبيتهم من الانحلال وحفظت سيادتهم من الزوال ، فإن انعكست هذه القاعدة الآن وأصبح التمدن الغربي على ما نرى باسطاً رواق القوة على ما عداه ، راقياً فوق كل تمدن سبقه ، فماذا يكون الحكم .

إنه حكم يستدر عبرات العيون ، ويثير كوامن الشجون ، ويطلق ألسنة أهل الحق الذين لم يخمد أنفاسهم خلق الرياء ، ولم تغم أبصارهم عن حالة المسلمين أو تحجب عن بصائرهم سمن الكون ، فتنادى على ملا السامعين إن تبعة هذا المصير عائدة على أولياء أمر المسلمين ، الذين لم تنفذ في جدار قلوبهم صواعد الجبال على الجبال ، أو أذن الاستقلال الأمة والملك بالزوال ، ولكل أمة رقدة ولقد طال رقدة المسلمين ، ولكل نبأ مستقر ولتعلمن نبأه بعد حين .

هـ - (وخطب مرة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه) أما بعد فإنى وليت هذا الأمر وأنا له كاره ووالله لو ددت أن بعضكم كفانيه . ألا وإنكم إن كلفتموني أن أعمل فيكم بمثل عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أقم به ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عبداً أكرمه الله بالوحى وعصمه به ، ألا وإنما أنا بشر ولست بخير من أحدكم ، فراعوني فإذا رأيتموني استقمتم فاتبعوني وإذا رأيتموني زغت فقوموني ، واعلموا أن لى شيطاناً يعتريني ، فإذا رأيتموني غضبت فاجتنبوني لا أؤثر في أعشاركم وأبشاركم اهـ .

تأنه لو كان لبشر أن يعصم بعد الرسل لقلنا ذلك أبو بكر ، وحق لمن أنزل نفسه تلك المنزلة من التواضع ، وأدبها بذلك الأدب ، وأخذ عليها سبيل الترفع على المسلمين بمنصب الخلافة والأثرة دونهم بالرأى ، أن يرفعه الله إلى ذلك المقام الجليل الذى ألف فيه على حبه قلوب المعلمين ، وجعل أيامه كلها خيراً وبركة على الموحدين ، فرضى الله عنه وعن الصحابة أجمعين .

٦ — ولما أشار عليه الصحابة بعدم قتال أهل الردة وأن لا طاقة له بالعرب ، خطب فيهم فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه .

أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، أيها الناس إن كثرة أعدائكم وقل عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركب ، والله ليظهرن هذا الدين على الأديان كلها ولو كره المشركون قوله الحق ووعدته الصدق ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ، أيها الناس لو أفردت من جمعكم لجاهدتهم في الله حق جهاده حتى أبلغ من نفسى عذراً ، وأقتل مقتلاً ، والله أيها الناس لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه واستعنت بالله خير معين .

٧ — جاء مال من البحرين ساوى في قسمته بين الناس فغضب الأنصار ، فخطب فيهم فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه .

يامعشر الأنصار إن شئتم أن تقولوا إما آويناكم في ظلالنا ، وشاطرناكم في أموالنا ، ونصرتناكم بأنفسنا ، لقلتم ، وإن لكم من الفضل ما لا يحصيه العد ، وإن طال به الأمد فنحن وأنتم كما قال طفيل الغنوى .

جوزى الله عنا جعفرأ حين أزلقت بنا نعلنا فى الواطئين فزلت
أبوا أن يملونا ولو أن أمننا تلاقى الذى يلقون منا مللت
هم أسكنونا فى ظلال بيوتهم ظلال بيوت أدفات وأظلت

٨ — خطب مرة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه .

أوصيكم بتقوى الله وأن تثنوا عليه بما هو أهله ، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الإلخاف بالمسئلة ، فإن الله أثنى على زكريا وعلى أهل بيته فقال (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين) ثم أعلموا عباد الله أن الله قد ارتهن بحقه أنفسكم ، وأخذ على ذلك موثيقكم ، وعوضكم بالقليل الفاني ، الكثير الباقي ، وهذا كتاب الله فيكم لا تنفي عجائبه ولا يطفأ نوره فتقوا بقوله وانتصحووا كتابه ، واستبصروا فيه ليوم الظلمة^(١) فإنه خلقكم لعبادته ، ووكل بكم الكرام الكاتين يعلمون ما تفعلون ثم أعلموا عباد الله أنكم تغدون وتروحون في أجل قد غيب عنكم علمه ، فإذا استطعتم أن تنقضي الآجال وأنتم في عمل الله ، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله^(٢) فسبقوا في مهل بأعمالكم ، قبل أن تنقضي آجالكم فتردكم إلى سوء أعمالكم ، فإن أقواماً جعلوا آجالهم لغيرهم فأنهاكم أن تكونوا أمثالهم ، فالوحا الوحاً ثم النجاء النجاء فإن وراءكم طالباً حثيثاً أمره سريعاً سيره .

٩ — ومن خطبه الغراء في الوعظ والتذكير قوله .

الحمد لله رب العالمين أحمدوه وأستعينه ، ونسأله الكرامة فيما بعد الموت فإنه قد دنا أجلى وأجلكم ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالحق بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً ليستنر من كان حياً ويحقق القول على الكافرين ، ومن يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد ضل ضلالاً مبيناً ، أوصيكم بتقوى الله والاعتصام بأمر الله ،

(١) وفي رواية الحاكم والبيهقي هكذا (وهذا كتاب الله فيكم لا يطفأ نوره ولا تنقضي عجائبه فاستضيئوا بنوره وانتصحووا كتابه واستضيئوا منه ليوم الظلمة) إلخ .
(٢) وفي رواية الحاكم أيضاً (لا ياذن الله) .

الذى شرع لكم وهذا كم به ، فإن جوامع هدى الإسلام بعد كلمة الإخلاص السمع والطاعة لمن ولاه الله أمركم ، فإنه من يطع الله وأولى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد أفلح وأدى الذى عليه من الحق ، وإياكم واتباع الهوى فقد أفلح من حفظ من اتباع الهوى والطمع والغضب ، وإياكم والفخر وما نخر من خلق من تراب ثم إلى التراب يعود ، ثم يأكله الدود ، ثم هو اليوم حى وغداً ميت ، فاعملوا يوماً بيوم ، وساعة بساعة وتوقوا دعاء المظلوم ، وعدوا أنفسكم فى الموتى ، واصبروا فإن العمل كله بالصبر ، واحذروا والحذر ينفع ، واعملوا والعمل يقبل واحذروا ما حذركم الله من عذابه ، وسارعوا فيما وعدكم الله من رحمته ، وافهموا وتفهموا واتقوا وتوقوا فإن الله قد بين لكم ما أهلك به من كان قبلكم . وما نجى به من نجى قبلكم ، قد بين لكم فى كتابه حلاله وحرامه وما يجب من الأعمال وما يكره ، فإنى لا آلوكم ونفسي والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله ، واعلموا أنكم ما أخلفتم الله من أعمالكم فربكم أطعم وحظكم حفظتم واغبطتم وما تطوعتم به لدينكم فاجعلوه نوافل بين أيديكم تستوفوا لسلفكم وتعطوا جرايتكم حين فقركم وحاجتكم إليها . ثم تفكروا عباد الله فى إخوانكم وصحابتكم الذين مضوا ، وقد وردوا على ما قدموا فأقاموا عليه وحلوا فى الشقاء والسعادة فيما بعد الموت . إن الله ليس له شريك ، وليس بينه وبين أحد من خلقه نسب يعطيه به خيراً ولا يصرف عنه سوءاً إلا بطاعته واتباع أمره ، فإنه لا خير فى خير بعده النار ، ولا شر فى شر بعده الجنة أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم وصلوا على نبيكم صلى الله عليه وسلم ، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته .

١٠ — وخطب أيضاً فقال الحمد لله أحمدته وأستعينه وأستغفره وأومن به وأتوكل عليه وأستهدى الله بالهدى ، وأعوذ به من الضلالة والردى ، ومن الشك والعمى ، من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فان تجد له ولياً مرشداً

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت
وهو حي لا يموت يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء
قدير وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره
على الدين كله ولو كره المشركون ، إلى الناس كافة رحمة لهم وحبوة عليهم ،
والناس حينئذ على شر حال في ظلمات الجاهلية ، دينهم بدعة ودعوتهم فرية
فأعز الله الدين بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وألف بين قلوبكم أيها المؤمنون
فأصبحتم بنعمته إخوانا . وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ،
كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، فأطيعوا الله ورسوله فإنه قال
عز وجل (من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فسا أرسلكم عليهم
حفيظاً) أما بعد أيها الناس إني أوصيكم بتقوى الله العظيم في كل أمر ، وعلى
كل حال ، ولزوم الحق فيما أحببتم وكرهتم ، فإنه ليس فيما دون الصدق من
الحديث خير ، من يكذب يفجر ومن يفجر يهلك ، وإياكم والفخر . وما خفر
من خلق من التراب وإلى التراب يعود ، وهو اليوم حي وغداً ميت ، فاعملوا
وعدوا أنفسكم في الموتي وما أشكل عليكم فردوا علمه إلى الله وقدموا
لأنفسكم خيراً ، فإنه قال عز وجل (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير
محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله
نفسه والله رءوف بالعباد) فائقوا الله عباد الله وراقبوه واعتبروا بما مضى
قبلكم ، واعلموا أنه لا بد من لقاء ربكم ، والجزاء بأعمالكم صغيرها
وكبيرها إلا ما عفر الله إنه غفور رحيم ، فأنفسكم أنفسكم والمستعان الله
ولا حول ولا قوة إلا بالله إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين
آمَنُوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ، اللهم صل على محمد عبدك ورسولك
أفضل ما صليت على أحد من خلقك ، وزكنا بالصلاة عليه وألحقنا به ،
واحشرنا في زمرة ، وأوردنا حوضه اللهم أعنا على طاعتك وانصرنا على
عادوك اه .

١١ — وخطب مرة فقال بعد أن (حمد الله وأثنى عليه) إن أشق الناس في الدنيا والآخرة الملوكة، فرفع الناس رؤوسهم فقال :

مالكم أيها الناس لأنكم لطعانون عجولون ، إن من الملوك من إذا ملك زهده الله فيما بيده ، ورغبه فيما بيد غيره ، وانتقصه شطر أجله ، وأشرب قلبه الإشفاق فهو يحسد على القليل ، ويسخط على الكثير ، ويسأم الرخاء وتنقطع عنده لذة البقاء ، لا يستعمل العبرة ولا يسكن إلى الثقة فهو كالدرهم القيسى والسراب الخادع ، جذل الظاهر حزين الباطن ، فإذا وجبت نفسه ونصب عمره وضحي ظله حاسبه الله فاشتد حسابه أقل عفوه (١) ألا وإن الفقراء هم المرحومون ألا إن من آمن بالله حكم بكتابيه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإنكم اليوم على خلافة نبوة ومفرق محجة ، وسترون بعدى ملكاً عضوضاً وملكاً عنوداً ، وأمة شحاحاً ودمماً مباحاً ، فإن كان للباطل نزوة ، ولأهل الحق جولة يعفوها لها الأثر ويموت لها الخبر ، فالزموا المساجد ، واستشيروا القرآن واعتصموا بالطاعة ، وليسكن الإبرام بعد التشاور ، والصفقة بعد طول التناظر ، أي بلاد خرسنة (٢) إن الله سيفتح لكم أقصاها كما فتح عليكم أدناها .

١٢ — وخطب مرة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه ، فأريدوا الله بأعمالكم ، واعلموا أن ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة آتيتموها وخطأ (٣) ظفرتكم به ، أو ضرائب أديتموها ، وسلف قدمتموه من أيام فانية لآخرى باقية ، لحين فقركم وحاجتكم ، اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا

(١) كذا في العقد الفريد وفي البيان والتبيين وجاء في التثر الختار نقلاً عن زهر الآداب (وأقل الأنصار عنه عقوبة) .

(٢) وفي العقد خرسنة وفي البيان والتبيين خرشة .

(٣) ٩٢ — أشهر مشاهير الإسلام

فيمن كان لهم ذكر القتال والغلبة في مواطن الحرب ، قد تضعضع بهم الدهر وصاروا رميما قد نركت عليهم القالات ، الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات وأين الملوك الذين أناروا الأرض وعمروها ، قد بعدوا ونسى ذكرهم وصاروا كالأشياء ، ألا إن الله قد ألقى عليهم التبعات ، وقطع عنهم الشهوات ومضوا والأعمال أعمالهم والدنيا دنيا غيرهم ، وبقينا خلقاً بعدهم ، فإن نحن اعتبرنا بهم نجونا وإن اغتررنا كئنا مثلهم ، أين الوضاء الحسنة وجوهم ، المعجبون بشبابهم صاروا تراباً وصار ما فرطوا فيه حسرة عليهم ، أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ، وجعلوا فيها الأعاجيب ، قد تركوها لمن خلفهم ، قتلك مساكنهم خاوية ، وهم في ظلمات القبور ، هل تنس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً . أين من تعرفون من أبنائكم وإخوانكم ، قد انتهت بهم آجالهم فوردوا على ما قدموا ، فخلوا عليه وأقاموا للشقوة والسعادة فيما بعد الموت . ألا إن الله لا شريك له ، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيراً ، ولا يصرف عنه سوءاً إلا بطاعته ، واتباع أمره واعلموا أنكم عبيد مدينون ، وأن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته ، أما إنه لا خير بخير بعده النار ، ولا شر بشر بعده الجنة اه .

رضى الله عن أبي بكر كأنه يريد بهذه الخطبة التي تذكر بالملوك الماضين أن يعظ نفسه ، ويستريد من الورع والتقوى ، هذا على ما عرف به من التقى والعدل ، وما اشتهر عنه من الحرص على مصالح المسلمين ، والتبريز في إقامة حدود الشرع على كل أمراء المؤمنين ، فما أجدر من عبدوا الشهوات وتناهوا في حب الذات ، من أولياء أمر الأمة الإسلامية بعد بمثل هذه العظة ، وما أخلقهم بالاعتبار بذكر الماضين ، وتأديب نفوسهم بأدب الخلفاء الراشدين ، وتالله لو فعلوا لجعلوا سلطانهم فوق كل سلطان ولسودوا هذه الأمة لهذا العهد على كل الأمم ، ولم يجعلوها عرضة للبوار ، وغرضاً ترمى إليه بسهام الأذى الأغيار ، فإننا لله وإنا إليه راجعون .

١٣ — وخطب عندما انتدب الناس إلى غزو الشام فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه .

ألا إن لكل أمر جوامع ، فمن بلغها فهي حسبه ، ومن عمل لله كفاه الله ، عليكم بالجد والقصد فإن القصد أبلغ ، ألا إنه لا دين لأحد لا إيمان له ، ولا أجر لمن لا حسبة له ، ولا عمل لمن لا نية له ، ألا وإن في كتاب الله من الثواب على الجهاد ، لما ينبغي للمسلم أن يحب أن يخص به . هي التجارة التي دل الله عليها ، ونجى بها من الخزي ، وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة اهـ .

وله كلام عظيم الأهمية كان خاطب به أبا عبيدة بن الجراح لكي يقوله لعلي بن أبي طالب حين توقف عن بيعته ، نرجى إirاده إلى سيرة علي رضي الله عنه ، لما ترتب عليه من كثرة الأخذ والرد بين علي وأبي بكر وعمر بشأن الخلافة يومئذ .

مرض أبي بكر وعهده بالخلافة ووفاته

مرض :

روى في سبب مرض أبي بكر رضي الله عنه ، أنه اغتسل في يوم بارد فخم ، وأخرج الحاكم عن ابن عمر قال (كان سبب موت أبي بكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا ، فأزال جسمه يجرى (أى ينقص) حتى مات .

روى أن عائشة قعدت عند رأسه يوماً وهو في مرضه ، فقالت شعراً :

وكل ذى لابل يوماً موردها وكل ذى سلب لا بد مسلوب

وفي رواية الطبري :

وكل ذى لابل موروث وكل ذى سلب مسلوب

وكل ذى غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب

ففهمهما أبو بكر ، فقال ليس كذلك يا ابتاه ، ولكننه كما قال الله
(وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) وأنشدت مرة فوق
رأسه أيضاً :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر ، ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما ثقل على أبي بكر المرض دخلت عليه عائشة فقالت :

يا أبت اعهد إلى حامتك ، وأنفذ رأيك في سامتك (١) وانقل من دار
جهازك إلى دار مقامك إنك محصور متصل بقلبي لوعتك ، وأرى تحاذل
أطرافك وامتقاع لونك ، وإلى الله تعزيتي عنك ، ولديه ثواب حزني عليك ،
أرقاً فلا أرقاً وابل فلا أبقى (٢) ، فرفع رأسه إليها وقال :

هذا يوم يحلى لي عن غطائي ، وأعين جزائي إلى آخر ما قال ، وقد سبق
لنا إيراده فيما مر من الكتاب .

استنصرهم همرو وصيته له :

اشتد على أبي بكر المرض فلم يشغله عن أمر المسلمين ، ولم يثن همته عن
النظر في مصلحة الأمة ، وخشى إن هو مات ولم يعهد لأحد بالخلافة أن تكون
فتنة تضرب لها الدهماء ، وتعظم الآواء ، وفي القوم نفر ينتهي إليهم شرف
السيادة في الجاهلية والإسلام ، وهم في الفضل والتقدم سواء ، ولكن لكل
منهم مكانة في القلوب غير مكانة من عداه ، وعصبية تريده على الأمر وإن هو
أباه ، فإن ترك منصب الخلافة شاغراً وجعله شورى بين القوم ، خيف من
تفرق الرأي ، وتعذر تأليف القلوب على واحد من أولئك نفر ، إذ الشورى
في الأمور وإن كان يراد بها تخصيص الآراء لاختيار الأصالح منها والأصوب

(١) وفي العقد اعهد إلى خاصتك وأنفذ رأيك في عامتك .

(٢) وفي نسخة أرقو فلا أرقى وأشكو فلا أشكى .

فيها إلا أن صاحب الرأي مجتهد قد يخطئ . وقد يصيب ، وفي الصحابة كما قلنا نفر هم في الفضل والشرف والأهلية كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها ، ولكل واحد منهم عصبية وحزب يريدونه على الخلافة ، اجتهداً منهم بوجود الكفاية فيه كما هي في سواه .

إذن فالاختلاف متوقع حتماً بين المسلمين ، فيما لو ترك أبو بكر منصب الخلافة شاغراً والمعدرة قائمة للصحابة في هذا الاختلاف ، ما دام فيهم عدة من ذوى الكفاءة ، وأخصهم أهل بيعة الرضوان من السابقين ، كما أنها قائمة لأبي بكر أيضاً في عدم تركه الأمر شورى والحال ما ذكر درءاً لخطر ذلك الخلاف المتوقع من بين قوم هو أبصر بهم وأدري بأخلاقهم وإنما نظر أبو بكر فيمن يختاره لذلك المنصب الرفيع شأنه لخرج موقفه ، فرأى أنه يحتاج إلى رجل فيه شدة من غير عنف ، ولين من غير ضعف ، ومن توفرت فيهم هذه الصفة من الصحابة الكرام عمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب ، إلا أن الأول كان ربما يريد الأمر فيرى في طريقه عقبة فيدور إليه ، والثاني يرى الاستقامة فلا يبالى بالعقبة تقوم بين يديه ، فهو بهذا إلى الشدة أميل منه إلى اللين ، لهذا استشار أبو بكر الصحابة فيمن يستخلفه أشاروا عليه بعمر .

لما عزم أبو بكر أن يعهد بالأمر ونظر فيمن يعهد إليه ، فوقع اختياره على عمر ، جعل يستشير كل من دخل عليه من الصحابة في عمر ، فسأل عبد الرحمن بن عوف فقال أخبرني عن عمر بن الخطاب فقال ما تسألني عن أمر إلا وأنت أعلم به مني ، فقال أبو بكر وإن فقال عبد الرحمن هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ، ولكن فيه غلظة ، قال أبو بكر ذلك لأنه يراني رقيقاً ، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو فيه ، ثم دعا عثمان فقال أخبرني عن عمر ، فقال أنت أخبرنا به ، فقال علي ذلك يا أبا عبد الله أخبرني

عن عمر ، فقال اللهم علمي به أن سريره خير من علانيته ، وأنه ليس فينا مثله ، وسأل أسيد بن حضير ، فقال أسيد اللهم أعلمه الخير بعدك ، يرضى للرضا ويسخط للسخط الذي يسر خير من الذي يعلن ، ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عليه منه ، واستشار غير هؤلاء سعيد بن زيد ، وجماعة من المهاجرين والأنصار ، فكلهم قال خيراً .

ودخل عليه بعض الصحابة فقال قائل منهم (١) ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد نرى غلظته ، فقال أبو بكر بالله تخوفني ! أقول اللهم إني استخلفت عليهم خير أهلك ، أبلغ عني ما قلت من ورائك .

ثم دعا عثمان فقال اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد أبو بكر ابن أبي قحافة إلى الخ كتاب العهد وقد سبق إirاده في فصل كتب أبي بكر ، ثم أمر بالكتاب ختمه ، ثم أمر عثمان بخرجه بالكتاب محتوماً ، فبايع الناس ورضوا به ، ثم دعا أبو بكر بعمر خالياً فأوصاه ما أوصاه .

وبما يؤثر عن أبي بكر هذه الوصية الغراء التي أوصى بها عمر رضى الله عنهما .

وصية للممر:

إني مستخلفك من بعدى ، وموصيك بتقوى الله ، إن الله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة ، فإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة ، باتباعهم الحق في الدنيا ، وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته

(١) روى الطبري أن الذي قال ذلك هو طلحة بن عبيد الله .

عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً ، إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا ذكرتهم قلت إنى أخاف ألا أكون من هؤلاء ، وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ولم يذكر حسناتهم ، فإذا ذكرتهم قلت لأرجو ألا أكون من هؤلاء ، وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً ، ولا يتمنى على الله غير الحق ، ولا يلقى يده إلى التهلكة ، فإذا حفظت وصيتي فلا يكن غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك « وأن ضيعت وصيتي فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت واست بمعجز الله اه .

لما خرج عمر من عند أبي بكر رفع يديه وقال :

اللهم إنى لم أرد بذلك إلا صلاحهم ، وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت أعلم به ، واجتهدت لهم رأياً فوليت عليهم خيراً وأقواهم عليهم وأحرصهم على ما أرشدهم ، وقد حضرني من أمرك ما حضر فاخلق فيهم فهم عبادك وبواصيهم بيدك ، أصلح اللهم ولاتهم ، واجعله من خلفائك الراشدين وأصلح له رعيته .

وفى كلامه هذا ما يؤيد قولنا السابق ، أن أبا بكر إنما اختار للخلافة بعده عمر رضى الله عنهما ، ولم يتركها شورى خوفاً من الفتنة ، وثقة بكفاءته وسداً للزرائع النزاع من جهة ، ومن جهة ثانية علماً منه بمكانة عمر من السياسة ، وأنه لا يحيد بالأمة عن سبيل الحشونة في العيش ، والقناعة بالكفاف ، ولا يترك لها عنان الخوض في غمرات النعم الرومى والترف الفارسى ، فتفسد أخلاقها وتسترخى قواها ، وتفتر عن بث الدعوة همتها ، ومع أنه اختار لها خير كفاء بشهادة كبار الصحابة كما رأيت ، فقد تفرس في بعض

المهاجرين عدم الرضا كما ترى مما يأتى ، ولا يحمل ذلك منهم إلا على الخوف من شدة عمر عليهم والله أعلم .

روى أن عبد الرحمن بن عوف دخل على أبى بكر بعد ذلك فوجده مهتماً (١) فقال أصبحت بحمد الله بارئاً يا خليفة رسول الله . فقال :

أما إني على ذلك لشديد الوجع ، ولما لقيت منكم يامعشر المهاجرين أشد على من وجعنى ، إني وليت أموركم خيركم فى نفسى ، فكذلك ورم من ذلك أنفه يريد أن يكون له الأمر من دونه ، ورأيتكم الدنيا قد أقبلت ولما تقبل ، وهى مقبلة حتى تتخذوا مستور الحرير ، ونضائد الديباج وتألون الاضطجاع على شوك السعدان ، والله لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه فى غير حد خير له من أن يخوض فى غمرة الدنيا ، ألا وإنكم ضال بالناس غداً فتصدوهم عن الطريق يميناً وشمالاً ، ياهادى الطريق إنما هو الفجر أو البجر (٢) .

قال فقلت خفض عليك يرحمك الله ، فإن هذا يهيبك على ما بك ، إنما الناس فى أسرك بين رجلين ، إما رجل رأى ما رأيت فهو معك ، وإما رجل يخالفك فهو يشير عليك برأيه ، وصاحبك كما تحب ، ولا نعلمك أردت إلا الخير ، ولم تزل صالحاً مصلحاً مع أنك لاتأسى على شيء من الدنيا .

وفاء :

لما ثقل على أبى بكر المرض أوصى عائشة أن يدفن إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأشار إلى ثوبيه فقال اغسلوهما وكفنوني فيهما فإن

(١) وفى رواية فوجده مغتماً

(٢) وفى نسخة البحر .

الحى أحوج إلى الجديد من الميت ، وأوصى أن تغسله امرأته أسماء بنت عميس ويعينها ابنه عبد الرحمن ، وكتب وصيته بخمس ماله وقال : آخذ من مالى ما آخذ الله من فى المسلمين : وروى الطبرى أن أبا بكر لما حضرته الوفاة : قال انظروا كم أنفقت منذ وليت من بيت المال فاقضوه عني : فوجدوا مبلغه ثمانية آلاف درهم في ولايته ، وأخرج الإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنها أن أبا بكر لما حضرته الوفاة قال أى يوم هذا : قالوا يوم الاثنين . قال فإن مت من ليلتي فلا تنظروا بى الغد ، فإن أحب الأيام والليالي إلى أقربها من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتوفي أبو بكر من ليلته تلك وهى ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة فى السنة الثالثة عشرة من الهجرة ، وله من العمر ثلاث وستون سنة ، وغسلته امرأته أسماء كما أوصى ، وصلى عليه عمر بين القبر والمنبر ، وكبر أربعاً ودفن إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأخرج ابن هشام عن ابن عروة عن أبيه أن أبا بكر صلى عليه ليلاً ودفن ليلاً^(١) وكانت مدة ولايته سنتين وثلاثة أشهر وبضعة أيام ، وكان نقش خاتمه (نعم القادر الله) .

خطبة على فى تأبين أبى بكر :

أجمع الرواة أن أبا بكر لما قبض ارتجت المدينة ، ودهش القوم كيوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء على بن أبى طالب رضى الله عنه باكياً مسرعاً مسترجعاً حتى وقف بالباب ، وهو يقول .

(١) هكذا كان دفن أبى بكر فليت شعري متى ابتدع المسلمون فى الجنائز ما ابتدعوه من الاحتفال الذى يشبه احتفال قدياء المصريين بموتاهم وجنائزهم كما يرى ذلك مرسوماً الى الآن على آثارهم ، اللهم إن ما يقفله المسلمون الآن فى مصر وبعض الممالك الإسلامية بالاحتفال بجنائز موتاهم بقية من يقايا الرثبة الأولى لا يرضاهم شرعاً ولم يسبق الى مثناها أحد من أصحاب نبيك .

رحمك الله يا أبا بكر ، كنت والله أول القوم إسلاماً ، وأخلقهم إيماناً ،
وأشدهم يقيناً ، وأعظمهم غنى ، وأحفظهم على رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وأحدهم على الإسلام ، وأحماهم عن أهله ، وأنسبهم برسول الله
خلقاً وفضلاً وهدياً وصمتاً ، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله وعن
المسلمين خيراً ، صدقت رسول الله حين كذبه الناس ، وواسيته حين بخلوا ،
وقمت معه حين قعدوا ، وسماك الله في كتابه صديقاً ، فقال (والذي جاء
بالصدق وصدق به) يريد محمداً ويريدك ، كنت والله للإسلام حصناً ،
وللكافرين ناكباً ، لم تضلل حجتك ولم تضعف بصيرتك ، ولم تجبن نفسك
كالجبل لا تحركه العواصف ، ولا تزيئه القواصف ، كنت كما قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ضعيفاً في بدنك قوياً في دينك ، متواضعاً في نفسك
عظيماً عند الله ، جليلاً في الأرض كبيراً عند المؤمنين ، لم يكن لأحد عندك
مطمع ولا هوى ، فالضعيف عندك قوى ، والقوى عندك ضعيف ، حتى
تأخذ الحق من القوى وتأخذه للضعيف ، فلا حرمنا الله أجرك ولا أضلنا
بعدك .

خطبة أئمة هاشمية في تأييدهم :

نضر الله يا أبت وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ، فلقد كنت للدنيا
مذلاً بإدبارك عنها ، وللآخرة معزاً بإقبالك عليها ، ولئن كان أعظم المصائب
بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزؤك ، وأكبر الأحداث بعده فقدك ،
إن كتاب الله عز وجل ليعدنا بالصبر عنك حسن العوض ، وأنا منتجزة
من الله موعده فيك بالصبر عنك ، ومستعينة كثرة الاستغفار لك ، فسلم
الله عليك توديع غير قالية لحياتك ، ولا زارية على القضاء فيك .

ودخل عليه عمه فقال :

يا خليفة رسول الله ، لقد كلفت القوم بعدك تبعاً ، ووليتهم نصيباً ،
فهبها من شق غبارك ، فكيف اللحاق بك .

ولده وعماله وقضاته وكتابه

ولده :

قال ابن قتيبة أولاد أبي بكر عبد الله وأسماء أمهما قتيلة من بني عامر.
ابن لؤى ، وعبد الرحمن وعائشة أمهما أم رومان بنت الحرث بن الحويرث.
من بني فراس بن غنم بن كنانة ، ومحمد أمه أسماء بنت عميس ، وأم كلثوم
أمها بنت زيد بن خارجة من الأنصار (فأما عبد الله بن أبي بكر) فإنه شهد
يوم الطائف مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وبقى إلى خلافة أبيه وهلك في
خلافته ، وترك سبعة دنائير فاستكثرها أبو بكر . وولد لعبد الله إسماعيل
فهلك ولا عقب له ، (وأما أسماء) فهي ذات النطاقين ^(١) وتزوجها الزبير
بمكة فولدت له عدة فطلقها ، فكانت مع ابنها عبد الله حتى قتل بمكة ، وبقيت
مائة سنة حتى عميت وماتت (وأما عائشة) فتزوجها النبي صلى الله عليه
وسلم ، وبقيت إلى خلافة معاوية ، وتوفيت سنة ثمان وخمسين وقد قاربت
السبعين ، ودفنت بالبقيع

وقد كانت رضى الله عنها على جانب عظيم من الزكاء وفصاحة اللسان ،
وقد رأيت من كلامها فيما مر ما يدل على قوة عارضتها وفصاحة لسانها ،

(١) لأن أسماء هذه رضى الله عنها هي أشجع نساء الإسلام وأثبتهن جأشاً وأعظمهن
قرية للولد على الشهامة وعزة النفس كما سيمر عليك في سيرة الحجاج .

وطها خطب كثيرة في أعلى مكان من البلاغة، وقد أوردنا منها فيما مررنا دعوت
إليه المناسبة، وفضلاً عن هذا فقد كان يتلقى عنها الحديث ويؤخذ عنها العلم
فرحمها الله ورضى عنها .

(وأما عبد الرحمن) فشهد يوم بدر مع المشركين، ثم أسلم وحسن
إسلامه، ومات بجأة سنه ثلاث وخمسين بجبل يقرب من مكة، فأدخلته عائشة
الحرم ودفنته وأعتقت عنه، وكان شهد الجمل معها ويكنى أبا عبد الله ولد له
محمد وعبد الله وحفصة، وروى المسعودي أن لعبد الرحمن عقباً كثيراً بدوا
وحضرا كانوا بين الحجاز والعراق بالموضع المعروف بالضيفسان .

(وأما محمد بن أبي بكر) فكان يكنى أبا القاسم، وكان من نساك
قريش، وولاه علي بن أبي طالب رضى الله عنه مصر فقاتله صاحب معاوية
هناك وظفر به فقتله، وولد له القاسم لأم ولد وكان فقيهاً فاضلاً .

(وأما أم كلثوم بنت أبي بكر) فتزوجها طلحة بن عبيد الله، فولدت
زكريا وعائشة، ثم قتل عنها فتزوجها عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي ربيعة
المخزومي .

عماله وقضائه وكتابه :

ولما ولي أبو بكر: قال أبو عبيدة أنا أ كفيك بيت المال، وقال له عمر
أنا أ كفيك القضاء، وكان يكتب له علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وعثمان
ابن عفان، وإن غابوا فكان يكتب له من حضر .

وكان عامله على مكة عتاب بن أسيد ومات في اليوم الذي مات فيه
أبو بكر وقيل مات بعده، وكان على الطائف عثمان بن العاص وعلى صنعاء
المهاجر بن أبي أمية، وعلى حضرموت زياد بن لبيد الأنصاري، وعلى
خولان يعلى بن منية: وهى أمه واسم أبيه أمية وعلى زيد ورمع أبي موسى،

وعلى الجند معاذ بن حبل ، وعلى البحرين العلاء بن الحصرمى . وبعث جرير ابن عبد الله إلى نجران . وعبد الله بن ثور إلى جرش وعياض بن غنم . إلى دومة الجندل . وكان بالشام أبو عبيدة وشرحيل ويزيد بن أبي سفيان وعمرو ابن العاص وخالد بن الوليد ، وكل رجل منهم أمير على جيشه ، وقيل كانت الإمارة العامة لخالد ، وخالد كان من أشهر مشاهير رجال الحرب في عصره ، لهذا اخترنا أن نورد سيرته إن شاء الله عقب سيرة أبي بكر لأنه من رجاله . وكان على العراق المثنى بن حارثة الشيباني ، استخلفه فيها خالد لما قصد الشام بأمر أبي بكر رضى الله عنهم أجمعين .

صفة أبي بكر

روى ابن قتيبة عن عائشة أنها وصفت أبا بكر فقالت . كان أبيض نحيفاً خفيف العارضين ، أجناً لا يستمسك إزاره ، يسترخى عن حقويه ، معروق الوجه غائر العينين ، نأتى الجبهة عارى الأشجع ، كان يصبغ بالحناء والكتم .

هذا ما أحببنا إirاده من سيرة أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، وقد بذلنا فيما أوردناه من أخباره جهد المستطاع فى التحقيق والتنقيح ، وجمع شتيت الأخبار المتفرقة ، وضم الأشباه والنظائر منها بعضها إلى بعض تسهيلاً على المطالعين وتقريباً على المتناولين ، إلا أنا أغفلنا من سيرته أبواباً لم نر حاجة لإيرادها فى هذا الكتاب ، لتكفل كتب السنة بها وتفرقها فيها ، ولأنها ليست من خصائص التاريخ ، بل هى من خصائص كتب الشريعة كالأحاديث والآثار المروية عنه ، والأحكام الصادرة منه ، والأحاديث الواردة بفضله ، ونحو ذلك مما هو مبسوط فى كتب السنة وارد فى الصحاح ، وقد بقى علينا

فصل واحد نبسط فيه الحالة الاجتماعية على عهد أبي بكر ، وبعد ذلك نأتى على سيرة خالد بن الوليد إن شاء الله .

الحالة الاجتماعية على عهده :

جاء الإسلام قاضياً بتوحيد الله وتوحيد الاجتماع وتوحيد الأفكار . وتوحيد اللغة وتوحيد المقاصد ، فى عصر غلبت فيه نزغات الأهواء البشرية على النفوس ، ونزع الأمم كافة منازع الوثنية فشوه مؤمنهم وجه الدين وانحرف عن وجهة الكتاب ، وأوغل كافرهم فى مناحى الخيال تخلق من ضعيف التسور أشكالا من العبادة تختلف باختلاف المنازع والأقطار ، فتشكلات بأشكالها الأخلاق وتنوعت المقاصد وتخالفت الوجهة وتناكرت النفوس . وتجزأت الوحدة عند كل أمة فى الاجتماع والسياسة والدين ، فأصبح أهل الكتاب اليهود منهم ، وبين قرآنيين وسامريين وربانيين وغيرهم ، والنصارى بين يعاقبة وآريوسيين ونسطوريين ومالايعد من الفرق ، وغير أهل الكتاب من الأمم الأخرى بين صابئة ومجوس وزرادشت وبراهمة وما لا يعد من الفرق أيضاً . فكان الانقسام والتجزؤ فى الاجتماع والسياسة تبعاً للنحل قائماً مع الأهواء ، فباتت الدول المجاورة للعربية وهى فارس والروم (وما أدراك ما فارس والروم أعرق الأمم فى المدنية وأقصاها غاية فى التاريخ وأرهبها قوة فى الأرض وأمدّها ظلاً عليها) أشبه بشجرة تأصلت جذورها فى الأرض وتسامقت فروعها فى الفضاء ، فجاءتها ريح عاصفة تعتمعت أصلها وتلاعبت بأغصانها فقصفتها قصفاً ، وعصفت فيها عصفاً ، فزوت أفنانها ، وتفرقت مع الريح أغصانها ، فكانت دولة الروم غرضاً ترمى إليه الأهواء بسهامها وفريسة تقتنازعها العناصر المنفردة منها والأقوام المنشقة عنها والشاغبة عليها كالعرب والآرمن واليونان والرومانين والصقالبة وغيرهم .

ودولة الفرس كذلك تفككت أعضاؤها وتجزأت وحدتها ، فاستبد
عماها بالأطراف وتنازعوا سلطان الأكاسرة وتوثبوا على الملك وتعسفوا
بالحكم وظلموا الرعية ^(١) ، وفن ثم انحلت من تلك الأمم عرى وحدتها
وتفرقت أهواء أهلها وتباينت مقاصد قادتها وزعمائها ، فانزوت شمس مدينتها
وكادت تندثر من الوجود آثار الحضارة والعلم التي انتهت إلى دولتي الفرس
والروم ، وتعود حالة البشر إلى أقبح ما كانت عليه قبل تاريخ الحضارة وبعثة
الأنبياء هداة الأمم ، من فوضى الاجتماع وتفرق الأهواء وانحطاط المدارك
والعقول ، ويأبى الله إلا أن يتم كلمته في خلقه ويجعل الإنسان مظهر قدرته
ويديم عليه سوابغ رحمته ، لهذا أرسل الله سبحانه وتعالى محمداً صلى الله عليه
وسلم إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً وهادياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ،
وأنزل عليه القرآن فيه هدى ونور ورحمة للعالمين ، لينذر به من كان حياً
ويحق القول على الكافرين .

قامتثل محمد صلى الله عليه وسلم أمر ربه ودعا الناس إلى دينه ، دعاهم إلى
توحيد الله فلا يشركون به شيئاً ، وإلى توحيد الاجتماع فلا يتفرقون شيئاً
ينابذ بعضها بعضاً . وإلى توحيد الأفكار فلا يجادلون في الحق ، وإلى توحيد
اللغة فلا يتناكرون وبلسان واحد يتفاهمون .

دعا أولاً أهله وعشيرته ثم قومه ثم سائر العرب ثم عامة الناس ، بما كتب
إلى ملوكهم الذين إليهم ينتهى أمر الأمم وبهم تقوم الدعوة . حتى قامت لله
على الناس الحججة والله الحججة البالغة على الناس أجمعين . وأجاب دعوة نبيه من
أجاب ، وأقبل عليها من أقبل ، وكان جلهم من العرب الذين لم يلبثوا أن
تلقوا هذا الدين حتى ظهر أثره فيهم ظهوراً يبشر بمصير السيادة على الأمم
لإيهم ، لما أصبحوا عليه من الإخاء بعد التنافر ، والاجتماع بعد التفرق ،

(١) لهذه الأسباب تولى ملك فارس قبيل الفتح الإسلامى نحو ستة ملوك فى بضع سنين
وكلهم قتلوا بيد الأمراء والرعية قتلاً (راجع تاريخ السكامل) .

والتوحيد بعد الشرك والتفقيه بعد الغفلة والإيمان بعد الكفر ، والتجارب بعد التناكر يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويجاهدون في الله وينصرون . دينه و يقيمون حدوده ، ويواسون الفقير ويؤدون الحق ، ويرغبون بالقناعة . بالكفاف عما بأيدي الناس ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . على هذا الأساس قامت حياة المسلمين الاجتماعية ، وبذلك الأخلاق وصف . الله أتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم في كتابه العزيز ، فقال تعالى فيه (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) وقال تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً) وقال تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) وقال تعالى (إنما المؤمنون إخوة) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تمثل حالة المسلمين يومئذ تمثيلاً ، وتدل على مبلغ تأثير الإسلام في نفوس تلك الأمة البدوية ، التي أخرجها القرآن من ظلمات الفوضى والجهل إلى نور العلم والاجتماع .

تلك الحالة الاجتماعية التي كانت في عهد الرسالة كانت كذلك في عهد أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، وقد نهض أبو بكر بعد الرسول صلى الله عليه وسلم بإتمام نشر الدعوة وتوحيد كلمة الشعوب نهوضاً بسطناه فيما تقدم من سيرته ، فرمى بالجيوش الإسلامية فارس والروم ليكنوا حماة الدعوة بعد إذ لم تنجح فيهم الدعوة مجردة عن القوة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فخاطب المسلمون تلك الأمم البالغة منتهى درجات الرفاء والتنعم ، المنغمسة في حما الشهوات النفسية ودوخوا بلادهم واستفتحوا كنفوزهم ، ومع هذا فلم يؤثر ذلك في أخلاقهم ولم تدعهم تلك الزخارف إلى تنسكب المحجة التي تركهم عليها نبيهم ، لاسيما وأن القرآن بين أيديهم يهتدون بهديه ، وأبو بكر من ورأيهم يحملهم على طريقته ويؤدبهم بأدب نفسه ، وكان جل همه منصرفاً إلى إقامة شعائر الدين والتأديب بأداب النبي صلى الله عليه وسلم ، خصوصاً في

خشونة العيش وكبح جماح النفوس والقناعة بالكفاف ، هذا مع علمه بأن الله سبحانه وتعالى أحل الطيبات للمؤمنين ، وإنما هو كان حريصاً على تأدب المسلمين بأداب النبوة وآدابها كي لا يشغلهم عن بث الدعوة والجهاد في الله وتوحيد كلمة الشعوب شاغل الإخلاد إلى الراحة والرغبة بنعيم الحياة الفانية ، وأنى يشغلهم شيء عن أمر الله وهم خير أمة أخرجت للناس وعصرهم خير العصور .

وكيف لا يكون خير العصور وقد كان فيه المؤمنون على جانب من سلامة الفطرة وطهارة الأخلاق وتآلف القلوب ونصرة العدل والحق ، ومواصلة الضعيف والقيام بواجب الإخاء وتبادل الثقة والحب لم تبلغ مبلغهم فيه أمة حديثة عهد في الدين من قبل ، ولن يتأتى لأمة سواهم من بعد .

* * *

روى الغزالي في الإحياء ، أن تبادل الثقة والحب بين المسلمين يومئذ بلغ بهم أن كانوا خلطاء بالمال يأخذ فقيرهم من مال الآخر مصداقاً لقوله تعالى « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » .

وبلغت بهم معرفة الحقوق والوقوف عند الحدود ألا يتخاصم منهم اثنان . أمام القضاء في حق صدرأ من خلافة أبي بكر ، فقد روى أن عمر بن الخطاب لما استقضاه أبو بكر رضى الله عنهما بقي سنة لا يحضر عنده خصمان في دعوى . ولا يتخاصم لديه اثنان في حق .

ولما كان أبو بكر رضى الله عنه خير قدوة للمسلمين وقد كان على جانب من التواضع وشظف العيش وخشونة الملبس مع غناه ووفر دخله من أملاكه فقد اقتدى به المسلمون وتخوشوا في ما كلهم وملبسهم وتعفف كبارهم حتى عن التمتع بدخلهم ، فقد قال المسعودي في تاريخه إنه لما قدم على أبي بكر زعماء العرب وأشrafهم وملوك اليمن ، وعليهم الحلل وبرد الوشى المشقل بالذهب والتيجان والخبرة ، وشاهدوا ما عليه من اللباس والزهد والتواضع والنسك (١٠ — أشهر مشاهير الإسلام)

وما هو عليه من الوقار والهيبة ، ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان عليهم ، وكان ممن وفد عليه من ملوك اليمن ذو الكلاع ملك حمير ومعه ألف عبد دون ما كان معه من عشيرته وعليه التاج وما وصفنا من البرود والحلى ، ولما شاهد من أبي بكر ما وصفنا ألقى ما كان عليه وتزيا بزيه ، حتى إنه رأى يوماً في سوق من أسواق المدينة وعلى كتفيه جلد شاة ففرغت عشيرته وقالوا له فضحتنا بين المهاجرين والأنصار. قال ، فأردتم أن أكون ملكاً جباراً في الإسلام لا والله لا تكون طاعة الرب إلا بالتواضع والزهد ، قال المسعودى وتواضعت الملوك ومن ورد عليه من الوفود بعد التكبر وذلوا بعد التجبر .

ولا جرم إن قدوة الأمم رؤساؤها وقادتها إلى الخير والشر ماو كها ، ولم يرنا التاريخ مصارع قوم هلكى بشقاء الحياة إلا بملوكهم ، كما لم يرنا تسود قوم وتمتعهم بسعادة الحياة إلا إذا استقام ملوكهم .

هذه كانت الحالة الاجتماعية على عهد أبي بكر رضى الله عنه ، وقد بسطناها إليك على وجه الإجمال لتتذكر وتعتبر ، وتنتقى الله في نفسك وتزدجر . والله ولى الصالحين .

* * *

وهذا آخر كلام على خلافة أبي بكر رضى الله عنه وأرضاه ، ووفق ولاية أمورنا للنظر فيما كان عليه الخلفاء من قبل ، والله يعصمنا وإياهم من الجهل .

خالد بن الوليد

- ١ -

حاله في الجاهلية

تسمية وأصله :

خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم أبو سليمان ، وقيل أبو الوليد القرشي المخزومي ، أمه لبابة الصغرى وقيل الكبرى والأول أصح . وهي بنت الحارث بن حزن الهلالية ، وهي أخت ميمونة بنت الحارث زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، أخت لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب ، وهو ابن خالد أولاد العباس بن عبد المطلب الذين من لبابة .

سُرفه في قومه ومطاميرهم :

تقدم معنا في صدر الكتاب أن خالد بن الوليد من انتهى إليهم الشرف في الجاهلية من قريش وأنه كان على الأعنة والقبعة ، وأبنا ثمة المراد من القبعة والأعنة ، فلا حاجة للإعادة هنا لهذا ، كان في وقائع بدر وأحد والخندق على خيل المشركين ، ولم يشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا ما بعد الفتح من الوقائع ، وقد كان خالد في قومه موصوفا بالشجاعة محبباً فيهم مقدماً عندهم بالحروب ، موفقاً للنصر عارفاً بأصول الحرب حائزاً على صفات الجنديّة التي يلازمها في الغالب خشونة الطبع وعنفوان الشجاعة والّاخذ بالشدة والتسرع إلى المعاقبة ، لهذا لما بدر منه بعد إسلامه ما بدر من التسرع في حادث مالك بن نويرة قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه إن سيف خالد

فيه رهق ، وألح على أبي بكر بعزله عن قيادة الجند خوف استرساله في الشدة على المحاربين ، والإسلام يأبى الشدة ويأمر بالأنفة والحلم وعدم الإمعان في إبذاء المقاتلين ، ومع هذا فإن الإسلام غير كثير آ من طباع خالد وألان من شدته فلم تبدر منه في حروب فارس والروم أدنى بادرة تؤخذ عليه .

— ٢ —

إسلامه وصحبته

اسم:

اختلف في وقت إسلام خالد ، فقال بعضهم إنه أسلم ، سنة ثمان للهجرة . وقال بعضهم سنة خمس وقال بعضهم سنة سبع وهو الأصح ، فقد كان إسلامه بعد الحديبية وكانت عمرة الحديبية في ذى القعدة سنة ست ، وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وعمرو بن العاص وطلحة بن أبي طلحة العبدري في صفر ، فلما رأهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لأصحابه: رمتكم مكة بأفلاذ كبدها .

صحبته:

لما أسلم خالد أنفذه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جيش من المسلمين أميره زيد بن حارثة إلى مشارف الشام من أرض البلقاء لغزو الروم ، وكانت لهم هناك وقعة مؤتة العظيمة التي استشهد فيها زيد ، ثم أخذ الراية بعده جعفر بن أبي طالب فاستشهد أيضاً ، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقتل أيضاً ، ثم اتفق المسلمون على دفع الراية إلى خالد بن الوليد فأخذها وقاتل بها قتالاً شديداً ، حتى اندق يومئذ في يده سبعة أسياف ، ثم ما زال يدافع القوم حتى انحازوا عنه ، ثم عاد بجيش المسلمين .

وفي هذه الغزوة سمى رسول الله عليه وسلم ، سيفاً من سيوف الله ، وذلك أنه أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن قتل من الأمراء ، فصعد يومئذ المنبر وأعلم بقتل زيد وجعفر وابن رواحة وقال ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد وفتح الله عليه ، ومن ثم سمي خالد سيف الله .

وكان خالد من حين أسلم يوليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أعنة الخيل فيكون في مقدمتها في محاربة العرب ، وشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم فتح مكة وأمره يومئذ أن يدخل من أسفل مكة من الليط ومعه أسلم وغفار ومزينة وجبينة وقبائل من العرب ، وهو أول يوم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خالد بن الوليد .

وكان عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو قد جمعوا ناساً بالخدمة ليقاتلوا ومعهم الأحابش وبنو بكر وبنو الحارث بن عبدمناة فلقبهم خالد فقاتلهم فهزمهم بعد أن قتل منهم ثلاثة عشر رجلاً .

ولما فتحت مكة وأذل الله قريشاً لرسوله وقد كانوا أشد العرب عداوة له وإيذاء لأصحابه ووقوفاً دون دعوته ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو من حول مكة من العرب إلى الإسلام ، وكان فيمن بعث خالد بن الوليد بعثه إلى بني جذيمة داعياً لالمقاتلة فذهب فقاتلهم وقتل منهم ، فلما انتهى الخبر إلى النبي صلى الله عليه وسلم رفع يديه إلى السماء ثم قال (اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد) ثم أرسل علياً ومعه مال فودى لهم الدماء والأموال ، ثم جاء خالد إلى النبي صلى الله عليه وسلم واعتذر وقال ، إن عبد الله بن حذافة السهمي أمرني بذلك عن رسول الله .

وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى العزى بيطن نخلة ، وكان بيتاً

عظيماً لمضر تعظمه قریش وكنانة ومضر كلها . وكان سدتها بنو شيبان من حلفاء
بنی هاشم فقدمها خالد وقال .

يا عذر كفرانك لا سبجانك إني رأيت الله قد أهانك

وكان خالد على مقدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين في بني
سليم بفرج خالد ، فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم ونفت في جرحه
فبرئ . ، وأرسله أيضاً إلى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل فأمره
وأحضره عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فصالحه على الجزية وورده إلى بلده ،
وأرسله أيضاً ستة عشر إلى بني الحارث بن كعب بن مذحج بن جمران ، وأمره
أن يدهوهم إلى الإسلام فإن أجابوا يقيم فيهم ويعلمهم شرائع الإسلام ، وإن
أبوا يقاتلهم ، نفرج خالد حتى قدم عليهم وبعث الركبان يضربون في كل
وجه ، ويودعون الناس إلى الإسلام ، فأسلم الناس ودخلوا فيما دعاهم إليه ،
وأقام بينهم يعلمهم كتاب الله وسنة نبيه وكتب بذلك إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم كتاباً ستأتي صورته ، فسكتب إليه رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، يستدعيه ومن يريد الوفود معه من القوم ، فأقبل وأقبل
معه الوفد وفيهم قيس بن الحصين بن قنان ذى النعصة وي زيد بن عبد المدان
وي زيد بن المحجل وغيرهم .

ولم يزل خالد مدةً صحبته يجاهد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم
ويكافح أعداء الإسلام ، ويحرص على رضا النبي صلى الله عليه وسلم حتى توفي
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان له بعد من جميل الأثر في قتال أهل الردة
وفتوح البلدان العظيمة ، ما رأيت في سيرة أبي بكر وتتلوه عليك الآن
ملخصاً من تاريخ حروبه في الإسلام ،

حروب خالد وفتوحاته في عهد أبي بكر

هروبه في الردة :

حربه مع طليحة :

تقدم معنا في سيرة أبي بكر رضى الله عنه أنه عقد لخالد وأمره بطليحة ابن خويلد ، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح ، وكان أبو بكر بعث عدى ابن حاتم^(١) الطائى قبل خالد إلى طيء ، وأتبعه خالد وأمره أن يبدأ بطيء ومنهم يسير إلى طليحة ببزاحة ويثلك بالبطاح حيث يقيم مالك ابن نويرة بقومه وألا يبرح إذا فرغ من قوم حتى يستأذنه .

سبق عدى خالد إلى قومه ودعاهم فأجابوه وقالوا له استقبل جيش خالد وأخبره عنا نستخرج من عند طليحة منا لئلا نقتلهم ، فاستقبل عدى خالد وأخبره بالخبر فتأخر خالد ، وأرسلت طيء إلى إخوانهم عند طليحة فلاحقوا بهم ، ولما عزم خالد على قصد جديلة^(٢) استمهل عدى عنهم أيضاً ولحق بهم يدعوهم إلى الإسلام فأجابوه ، فعاد إلى خالد بإسلامهم ولحق بالمسلمين ألف راكب منهم ، كل هذا بهمة ذلك الشهم الكبير عدى بن حاتم رضى الله تعالى عنه ، حتى قيل يومئذ عنه إنه خير مولود في أرض طيء وأعظمه بركة عليهم .

(١) هو عدى بن حاتم الجواد وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فآلئ له وسادة وأجلسه عليها وجلس هو على الأرض فأسلم وسر يكرام رسول الله له سروراً عظيماً وكان له في أيام الردة أحسن الأثر رضى الله تعالى عنه .

(٢) جديلة بطن من طيء .

ولما عزم خالد بن الوليد على قصد طليحة أرسل عكاشة بن محصن وثابت
ابن أقرم الأنصاري طليعة فلقبهما حبال أخو طليحة فقتلاه فبلغ خبره
طليحة فخرج هو وأخوه سلمة فقتلا عكاشة وثابتاً ، وأقبل خالد بالجيش
فرأى عكاشة وثابتاً قتيلين ، فجزع لذلك المسلمون وانصرف بهم خالد نحو
طلى . فقالت له طلى . نحن نكفيك قيساً فإن بنى أسد حلفاؤنا ، فقال قاتلوا
أى الطائفتين شئتم ، فقال عدى بن حاتم لو نزل هذا على الذين هم أسرتى
الأدنى فالأدنى لجاهدتهم عليه ، والله لا أمتنع عن جهاد بنى أسد لحلفهم ،
فقال خالد إن جهاد الفريقين جهاد لا تخالف رأى أصحابك وامض بهم إلى
القوم الذين هم لقتالهم أنشط ، وقد أصاب خالد بهذا الرأى ورضى به عدى
ثم سار جيش المسلمين على تعبئة إلى براخة حيث التقى بطليحة ومن معه
ونشب القتال بين الفريقين ، وكان مع طليحة عيينة بن حصن فى سبعمائة
من بنى فزارة فقاتلوا قتلاً شديداً ، حتى إذا اشتدت عليهم وطأة الحرب
وزعزعتهم صدمات المسلمين كرعينة على طليحة وسأل هل أوحى إليه
بشئ ؟ قال لا فتركه وذهب وقاتل ثم غاد فقال له لا أبأ لك فقد جاءك
جبريل ؟ قال لا فقال عيينة حتى متى قد والله بلغ منا ثم رجع فقاتل ثم كر
على طليحة فقال هل جاءك جبريل ؟ قال نعم قال فإذا قال لك قال
قال لى إن لك رحى كرساه وحديثاً لا تنساه فقال عيينة قد علم الله أنه سيكون
حديث لا تنساه انصرفوا يا بنى فزارة فإنه كذاب فانصرفوا وانهمز الناس .
وكان طليحة قد أعد فرسه وراحلته لامرأته النوار فلما غشوه ركب فرسه
وحمل امرأته ثم نجابها ، وقال يا معشر فزارة من استطاع أن يفعل هكذا
وينجو بامرأته فليفعل ثم انهمز ولحق بالشام ونزل على كلب ، فلما بلغه أن
أسداً وغطفان قد أسلموا أسلم وبقي فى كلب حتى توفى أبو بكر رضى الله
عنه ، واستتخلف عمر فأتى إليه وبايعه ، ثم حضر بعد ذلك فتوح نهاوند
وكان من الشجعان المشهورين ، وأبلى فى حروب فارس بلاد حسناً وفيها استشهد .

هكذا انقضى أمر طليحة كما انقضى أمر غيره من المتنبيين الكذابين ،
وهيئات للباطل أن يقوم في جانب الحق والكذب أن يغلب على الصدق
« بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » .

لما انهم جند طليحة اجتمع الفل من غطفان وسليم وهوازن وغيرهم
على امرأة اسمها أم زمل من بني فزارة ، فأمرتهم بقتال المسلمين فلما بلغ
خالد الخبر سار إليها بجيشه وقاتلها ومن اجتمع معها قتالا شديداً فقتلت
وتفرق جمعها .

حادثة مالك بن نويرة :

ثم قصد خالد مالك بن نويرة وكان كما تقدم معنا في سيرة أبي بكر
رضي الله عنه متحيراً يقدم للردة قدماً ويؤخر أخرى ، وكان رؤساء تميم
كلهم قدموا بالصدقات على أبي بكر كالزبرقان وصفوان بن صفوان ووكيع
ابن مالك وغيرهم ، إلا مالك بن نويرة بقي متردداً ، حتى إذا بلغه بحج خالد
ندم على ما فعل وفرق قومه في البطاح ونهاهم عن الاجتماع وقال لهم يا بني
يربوع إنا دعينا إلى هذا الأمر فأبطأنا فلم نفلح ، وقد نظرت فيه فرأيت
الأمر يتأني لهم بغير سياسة ، وإذا الأمر لا يسوسه الناس ، فإياكم ومناوأة
قوم قد صنع لهم فتفرقوا وأدخلوا في هذا الأمر .

ولما أراد خالد قصد البطاح تخلفت عنه الأنصار وقالوا قد عهد إلينا
الخليفة إن نحن فرغنا من براحة أن نقيم حتى يأتينا أمره ، فقال خالد قد عهد
إلي أن أمضي وأنا الأمير ولو لم يأت إلى كتاب بما رأيته فرصة وكنت إن
أعلمته فاتني لم أعلمه وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد لم ندع أن نرى
أفضل ما يحضرنا ثم نعمل ، فأنا قاصد إلى مالك ومن معي ولست أكرههم .
ولقد صدق خالد فيما قال لو لم يكن في تعجيله بأمر مالك ما لا تحمد عقباه

لهذا امتنع الأنصار عن المسير معه ثم لما سار ندموا وقالوا إن أصاب القوم،
خيراً حرمتموه وإن أصيبوا ليجتنبكم الناس فلهقه ، ولما قدم خالد البطاح
بث السرايا وأمرهم بداعية الإسلام وأن يأتوه بكل من لم يجب وكان قد
أوصاهم أبو بكر (أن يؤذنوا إذا نزلوا منزلاً فإن أذن القوم فكفوا عنهم
وإن لم يؤذنوا فاقتلوا وانهبوا وإن أجابوكم إلى داعية الإسلام فسائلوهم عن
الزكاة فإن أقروا فاقبلوا منهم وإن أبوا فقاتلوهم) .

لما بث خالد السرايا جاءته الخيل بمالك بن نويرة في نفر من ثعلبة بن
يربوع فاختلفت السرية فيهم ، وكان فيهم أبو قتادة فكان فيمن شهد أنهم
أذنوا ، فلما اختلفوا أمر بهم خالد فخبسوا في ليلة باردة ، فأمر خالد منادياً فنادى
دافئوا أسراكم وهي في لغة كنانة القتل ، فظن القوم أنه أراد القتل ولم يرد إلا
الدفء فقتلوهم فقتل ضرار بن الأزور مالكا وسمع خالد الواعية نخرج وقد
فرغوا منهم ، فقال إذا أراد الله أمراً أصابه وتزوج خالد أم تميم
امرأة مالك .

ولما انتهى الخبر إلى أبي بكر وعمر رغب عمر إلى أبي بكر أن يستدعى
خالداً ويقتص منه ، وكان عمر رضى الله عنه شديداً يحب تعجيل العقوبة
وأبو بكر يحب الأناة وعدم التعجيل في العقوبة ، ولما أُلح عمر على أبي بكر
بشأن خالد قال يا عمر تأول خالد فأخطأ فارفع لسانك عن خالد فإنى لا أشيم
سيفاً سله الله على الكافرين ، وكتب إلى خالد أن يقدم عليه ففعل ودخل
المسجد وعليه قباء وقد غرز في عنامته أسهماً ، فقام إليه عمر فمزعها وحطمها
وأسمعه كلاماً أليماً فلم يكلمه ، ودخل على أبي بكر وأخبره بحيلة الخبر واعتذر
إليه فقبل عذره ، وودى مالكا من بيت مال المسلمين .

ولا يخفى أن قتل مالك بن نويرة إذا صح أن سببه سوء فهم كما تقدم ،
فخالد غير مسئول عن دمه ، هذا إذا صح أنه أظهر الإسلام حين رأى جيش.

المسلمين ، إلا أن تردده في الأمر من بدء الردة يدل على أن الرجل لم يخلص للإسلام ، وإلا لكان تابع بقية سادات تميم بإرسال الصدقة إلى أبي بكر ولم يبطئ إلى حين وصول جند المسلمين إليه ، وهذا أعظم عذريته أن يعتذره عن خالد بن الوليد رضى الله عنه فيما لو كان قتل مالك مقصوداً أو معجلاً به من قبل خالد بن الوليد ، ولولا ذلك لكان قتله لمالك ثلثة في تاريخه لا يسدها إلا جهاده العظيم في فتوح العراق والشام .

صبره مع مسيلمة :

تقدم الكلام عما أصاب عكرمة بن أبي جهل في تعجيله بحرب مسيلمة قبل أن يهمل إليه شرحبيل بن حسنة ، ولما انتهى الخبر بذلك إلى أبي بكر كتب لشرحبيل بالترقب ، وأتبعه خالد بن الوليد بعد مجيئه إلى المدينة واعتذاره عن قتل مالك بن نويرة وأوعب معه المهاجرين والأنصار فتقدمهم إلى البطاح ، ولما تكاملت عدتهم سار بهم إلى قصد مسيلمة فبادر شرحبيل خالداً بقتال مسيلمة فنكب ، فلامه خالد على تعجيله ، ولما بلغ مسيلمة دنو خالد عسكر بهقرباء بأربعين ألف مقاتل ، وقيل بستين ألفاً وخرج مجاعة بن مرارة في سرية يطلب ثأراً لهم في بني عامر ، فأخذه المسلمون وأصحابه فقتلهم خالد واستبقاه لشرفه في بني حنيفة .

ثم إن مسيلمة ترك الأموال ورام إظهاره وتقدم لقتال المسلمين ، وقام ابنه شرحبيل يحرض بني حنيفة على القتال وينفض يديه من نبوة أبيه قائلاً لهم ، يا بني حنيفة اليوم يوم الغيرة قاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم ، فنشبت الحرب ودارت بينهم وبين المسلمين رحي الطعن والضرب ، واشتد القتال ولم يلق المسلمون حرباً مثلها قط ، حتى نزعوا إلى الهزيمة وانكشفوا عن فسطاط خالد ثم تداعوا واقتحم أهل النجدة منهم كزيد بن الخطاب وثابت بن قيس

وغيرهما صفوف العدو ، وحمل خالد بالناس حتى ردوا الأعداء إلى أبعد مما كانوا ، واشتد القتال وتذامرت بنو حنيفة وتراموا على الموت وقاتلوا قتالا شديداً ، والمسلمون صامدون حتى قتل من أولى البصائر منهم ناس منهم زيد بن الخطاب القرشي وأبو حذيفة وسالم مولاه وأضرابهم .

لما رأى خالد ما الناس فيه خشى من أن ينهزم أخلاط العرب فتختل صفوف المسلمين ، ويساق معهم أهل النجدة من الأنصار والمهاجرين ، فنادى في الناس أن امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حى ولنعلم من أين نوتى . فامتازوا ولما امتازوا قال بعضهم لبعض اليوم يستحي من الفرار وحينئذ ظهر أن القتل في المهاجرين والأنصار وأهل القرى أكثر من البوادي ، وعلم خالد أن الحرب لا تترك إلا بقتل مسيلة فطلبه للبراز فبرز إليه فعرض عليه أشياء فبينما هو يتظاهر بمشاورة شيطانه ركه خالد فانهزم أمامه فصاح خالد بالناس فركبوا القوم فانهزموا وقالوا مسيلة أين ما كنت تعدنا فقال قاتلوا عن أحسابكم ونادى مناديتهم يا بني حنيفة الحديد فدخلوها وأغلقوا عليهم بابها .

جاء أحد أبطال المسلمين الأنجاد وهو البراء بن مالك وقال ، يا معشر المسلمين ألقوني عليهم في الحديد ، فاحتمل حتى أشرف على الجدار واقتحمها عليهم وقاتل على الباب حتى فتحه فدخلوها عليهم واقتتلوا أشد قتال ولم يزالوا كذلك حتى قتل مسيلة واشترك في قتله وحشى مولى جبير بن مطعم ورجل من الأنصار ولما علم بقتله بنو حنيفة ولوا الأدبار فأخذهم السيف من كل جانب .

كان جماعة بن مرارة أسيرا مع خالد كما قدمنا ، فقال لخالد بعد انكسار بني حنيفة هلم إلى الصلح على ما ورائي فصالحه على كل شيء دون النفوس . فانطلق ليشاور القوم فلم يجد في الحصون إلا النساء والصبيان ومشيمة فانية . وبعض رجال ضعاف ، فآلبسهم الحديد وأمرهم أن يشرفوا من الحصون ، ثم

عاد إلى خالد وقال له قد أبوا أن يجيزوا ما صنعت . وكان قصده بهذا إيهام خالد لأجل أن يأخذ الأمان للرجال ويصالح خالداً على السبي ، وقد نجح بهذه الخدمة إذ رأى المسلمون أن يعودوا على ظفر بعد أن نهكهم طول اللقاء ، فصالحه خالد على الفضة والذهب وبيع السبي وقيل نصفه وانتهى الأمر .

وقد ظهر من المسلمين في هذه الحرب من الثبات والنجدة والصبر على المكره ما لم يظهر من جيش قط ، واستمر القتل في المهاجرين والأنصار يومئذ ، وقتل من القراء جمع وهذا ما دعا أبا بكر وعمر للمبادرة إلى جمع القرآن ، كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب .

ومن مكائد خالد وحسن بصيرته في هذه الحرب أمره للمسلمين بأن يمتاز الأحياء والقبائل بعضهم عن بعض ، لما اشتدت عليهم وطأة الحرب ، ليظهر أهل البلاء منهم ويستحي الناس من الفرار فيقاتلوا حتى الموت ، وقد فعلوا وشقتوا شمل ذلك الجيش العظيم بقوة اليقين ، وحسن تدبير خالد ابن الوليد فرضى الله عنه وعنهم أجمعين ،

— ٤ —

فتحه العراق وحروبه

في المحرم من السنة الثانية عشرة للهجرة بعد فراغ خالد من اليمامة ، أمره أبو بكر بالتوجه إلى العراق وقد تقدم معنا ذكر مسير خالد وفتوحه في العراق في سيرة أبي بكر ، ونحن ذاكرون هنا طرفاً من أهم أخباره في حرب أهل العراق مما يذكر بالتفصيل من قبل فنقول .

وقعة الحفير :

أول وقائع خالد بن الوليد في العراق ووقعة الحفير قرب خليج البصرة ، وكان اسم صاحبها هرمز فبرز إلى خالد بجيشه مقتربين بالسلاسل كي لا يفروا

فطلبه خالد للبراز فبرز إليه ولم يتجاولا إلا قليلا حتى احتضنه خالد فحمل عليه أصحابه فما شغله ذلك عن قتله، وحمل القعقاع بن عمرو بالمسلمين فزاحوا الفرس وركبهم المسلمون فمزموهم ، وأخذ خالد سلب هرمن وكان على رأسه قلنسوة الإمارة أو الشرف وكان قد تم شرفه ، ومن عادة الفرس إذا تم شرف الإنسان أن تكون قلنسوته بمائة ألف .

كلمة على الألقاب والرتب :

هكذا قال المؤرخون بشأن هذه القلنسوة، والظاهر أن القلنسوة كانت عند الفرس من شعار الشرف يعلو ثمنها وينخفض بنسبة شرف صاحبها في الدولة وهي من قبيل الرتب والألقاب التي أحدثت بعد في دول الإسلام ، وأول من أحدثها العباسيون أخذاً عن الأعاجم ، وذلك كالمَنصور والمهدي مثلاً في ألقاب الخلفاء ونظام الملك في الوزراء ، وشرف الدولة وعز الدولة في الأمراء وما لا يحصى من الألقاب والنعوت التي وصلت في القرون الوسطى الهجرية قرون الجهل والعتو والجبروت قرون الضعف والانحلال ، إلى درجة تشمئز منها النفس ويأبأها عقل الحكيم ، ومن أراد أن يرى شيئاً منها فليراجع تواريخ ملوك الطوائف من الدولة التركية والأيوبية والچركسية خصوصاً في المنشورات التي كانت تصدر إليهم من ديوان الخلافة ، ليري كيف كانت ترص الألقاب والنعوت للأمراء وملوك ما أجدرهم بقول الشاعر الأندلسي الحكيم .

ألقاب مملوكة في غير موضعها كألهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

ولا جرم أن توفر تلك الألقاب والنعوت في الدول من نتائج التطلع إلى المجد الباطل والإعراض عن المجد الحقيقي والشرف الذاتي ، ومنشأ هذا الأمران (فقد التربية وانحلال الدول) .

أما فقد التربية فلأنه يضعف قوة الإرادة ويذهب بآثار العلم ويقضي

على حب الفضيلة ، فيميل بالناس إلى الخمول ، ويتنكب بهم طرق الفضائل ، فيصابون بفتور الهمم وانحلال العزائم فيقعدهم ذلك عن تناول الشرف الذاتي من طرق الجد والعمل ، ويدعوهم إلى طلب المجد الباطل من طرق الرياء والمداهنة والتحيل والكسل ، وغير ذلك من الأمور التي تدل على فقد الشمم وموت العواطف وانحطاط ملكات العمل والعلم ، وقصاراتها ضعف الآمم وتدرجها في مدارج التدنى والانحطاط حتى آخر درجة من الهبوط إلى هوة الدمار والفناء ، حيث يبدأ غيرها بالصعود من كان ينازعها البقاء ، وهكذا كان الشأن مع الفرس والعرب لما نازعهم هؤلاء البقاء وغلبوهم عليه مع حداثة ظهورهم في الدولة والملك (وتلك الأيام نداولها بين الناس) .

وأما انحلال الدول فلأنه يحل عرى الألفة وتنكر به القلوب وينفض الناس من حول الأمير ، لضعف أمره فيهم أو تعسفه بالحكم عليهم ، فيحتمل لاجتذاب قلوب أفرادهم ، ويتألفهم تارة بالرشا وتارة بمنح الألقاب ووضامة التشريف بشارات الدولة ، فتفسد بذلك أخلاقهم وتعتري بمظاهر الفخفخة الكاذبة نفوسهم ، فيتطلعون إلى رتب الدولة وألقاب التشريف الباطلة ، وهكذا كان الشأن لما انحل أمر الخلافة العباسية في بغداد والفاطمية في مصر ، وابتدع الخلفاء من ألقاب التشريف الكثيرة ما يتألفون به قلوب الناس ويحتذبون إليهم أفئدة الأمراء المتوثبين على الملك الغالبين على أمر الخلافة ، ولكن لم يغن ذلك عن سقوط خلافتهم وانحلال دولتهم (وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

ومن هذا تعلم مقدار الفساد الذي دخل على الدول الإسلامية من طريق التقليد للأعاجم ، في أمور كثيرة أفسدت أخلاق الأمة وأدخلت الوهن على أصول التربية الإسلامية التي تأسست عليها دولة الخلفاء الراشدين ، ومن بعدهم من الأمويين ، وأخصها ترفع تلك الدول عن السفساف وتطلع الناس

في عهدھا إلى أعلى مراقى المجد التى لا يبلغھا إلا ذوو الشمم وأجدد الآخذون.
بنواصى الحكمة السالكون مسالك الرجولية المعرضون عن الاعتذار بزخارف.
المجد الباطل ، حتى لقد كان الخلفاء لا يخاطبون بغير أمرة المؤمنين ولا
يخاطبون أمراءهم وولاتهم بالكنى والألقاب ، بل هم كانوا لا يعرفون لها
اسما ولا يقيمون لها رسما ، وقد اقتدى بهم في هذا العصر أعظم الدول جداً
وقوة وغنى وثروة وهى جمهورية أمريكا الشمالية ، التى حرم فى دولتها
إيجاد الشارات والرتب وأعرضت عن أمثال تلك الألقاب الكاذبة والسفاسف
المضرة بالأخلاق والتربية ، فنشط سكان تلك المملكة العظيمة إلى السعى وراء
المجد الحقيقى المتأتى عن العمل والعلم ، حتى بلغوا مكاناً من المجد والقوة تحسدهم
عليه كل دول الأرض ، ولله فى خلقه شؤون ، وللسعادة والشقاء سبيلان.
يسلك الأول منهم العاقلون والثانى الجاهلون .

وقعة التى وما بعدها

لما اجتمع خالد بهرمز فى الحفير أرسل الثانى كتاباً إلى كسرى يستمده
فأمدّه بجيش عظيم بقيادة قائد اسمه قارن ، فلما انتهى الجيش إلى المذار لقي
المنهزمين من جيش هرمز فاجتمعوا ورجعوا إلى الثنى وهو النهر ، وسار إليه
خالد وقاتلهم فهزمهم وقتل وسبى ، وكان فى السبى يومئذ أبو الحسن البصرى .
الشهير ، وكان نصرانيا ، وأمر خالد على الجنود سعيد بن النعمان وعلى الحرز
سويد بن مقرن وأمره بنزول الحفير ، وأقام يتجسس أخبار العدو فعلم أن
كسرى أزدشير بعث إليه بجيش بقيادة الأندرز عز جله من العرب الضاحية
والدهاقين ، فسار إليهم خالد ووضع لهم كميناً فالتقوا عند الوجبة ، ولم تلبث
أن نشبت بينهم الحرب حتى خرج السككين على العدو وأحاطوا به إحاطة
السوار بالمعصم ، فقتل منهم من قتل وانهمزم من انهمزم ، ومات قائدهم الأندرز
عز عطشاً فى القلاة .

أصيب في هذه الواقعة كثير من نصارى بكر بن وائل ، فاستنفروا
إخوانهم واستمدوا أزدشير فأمدهم بهم من جازويه وكان بقشيناذاً وأمره
بالقدوم على نصارى العرب بالليس ، فقدم أمامه قائداً اسمه باجان وأمره
بالتوقف ليذهب ويشاور أزدشير فيما يفعل فوجده مريضاً فتربص عنده .

وأما باجان فاجتمع عليه نصارى عجل وتيم اللات وضبيعة وجابر بن بجير
وعرب الضاحية فسار إليهم خالد ، وكانوا على طعامهم فعاجلهم عنه فقاموا
للحرب فهزمهم شر هزيمة وأكثرت فيهم القتل والأسر .

ثم بعد هذه الواقعة قصد خالد الحيرة وحمل الأثقال بالنهر ، ولما بلغها
صالحه أهلها بعد مناوشات خفيفة ، وقد تقدم من خبرها في سيرة أبي بكر
مأ فيه الكفاية ، وكان فتح الحيرة في شهر ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة ،
وكتب لهم خالد كتاباً بذلك .

وما انتهى خالد من أمر الحيرة أتته الدهاقين من النواحي فصالحوه على
ما بين الفلاليج إلى هرمن جرد على ألفي ألف وقيل ألف ألف سوى ما كان
لآل كسرى ، وبعث خالد عماله ومسالحه وبث عيونه وأرصاده وأرسل
السرايا فيخروا دجلة إلى أرض فارس ، وأرسل خالد كتبه إلى ملك فارس .
ومرازبتها يدعهم إلى الإسلام ، وفي غضون ذلك هلك كسرى وعاد أمر
الفرس إلى الاضطراب ، يولون ملوكاً ويعزلون آخر ، شأن الأمم إذا
انحلت رابطتها والدول ، إذا انتكست فتلتها وأذن الله بانصرام أجلها .

وبينا الفرس في شغل الاضطراب أخذ خالد يتمم فتح العراق فسار
إلى الأنبار وكان بها شیرزاد نخرج لقتاله فلم يفلح وطلب المصالحة فصولح
وخرج إلى بهم من جازويه ناجياً بنفسه ثم صالح خالد من حول الأنبار
واستخلف عليها الزبرقان بن بدر ، وسار إلى عين التمر فاستقبله عاملها للفرس
مهران بن بهرام جوين بجند عظيم من العجم ، وعقة بن أبي عقة بجميع كنيف
(١١ - أشهر مشاهير الإسلام)

من العرب من النمر وتغلب وإياد ، فتقدم العرب لمصادمة خالد فهجم خالد ذلك
البطل الصنديد على عقة وهو يقيم صفوفه فاحتضنه كما يحتضن الباشق العصفور ،
وأخذه أسيراً ، فانهزم العرب بدون قتال وتبعهم بالهزيمة مهران بجنود الفرس
وتحصن من في الحصن ، أما خالد فنازلهم وافتتحه وسبي من فيه ، فكان من
جملة السبي سيرين بن محمد بن سيرين ونصير أبو موسى بن نصير فاتح الأندلس
بعد ، وروى بعضهم أن نصيراً عربياً من أراشة من بلي سبي في أيام أبي بكر
فأعتقه بعض بني أمية ، فصار إلى الشام وولد له موسى بقرية هناك تسمى
كفر مري .

ومنها سار خالد إلى دومة الجندل حيث كان يقيم على حصارها عياض
ابن غنم الذي أمره أبو بكر أن يأتي العراق من أعلاه ، وخالد من أسفله ، نخرج
الجودي صاحب دومة الجندل إلى خالد بطائفة من قومه وأرسل إلى قتال
هياض طائفة أخرى ، فدحر الطائفتان في آن واحد وأخذ المسلمون الحصن
ومن فيه .

ثم كانت بعد ذلك وقعة الحصيد والخنافس ومضيح البرشاء والتي
والزميل وكانت آخر وقائعه بالفراض وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة ،
فاجتمعت عليه هناك جنود الروم والعرب وفارس وقاتلوه فقاتلهم ومزق
جموعهم ، ثم أمر بالرجوع إلى الحيرة لخمس بقين من ذى القعدة ، وسار هو
إلى مكة ، ففج وعاد ولحق بساقة الجيش قبل وصوله إلى الحيرة على مارواه
المؤرخون .

كانت هذه الحرب آخر حروب خالد التي أصلى الفرس والعرب في
العراق ناراها ، وقضى على ملك الفرس إذ مهد السيليل إلى تدويخ فارس وإزالة
دولة الأكاسرة ، وقد كانت أعظم الدول حينئذ شأناً وأرقاها مكاناً إلا أنها
بلغت من الكبر عتياً ، ومن فشل السياسة مكاناً قصياً ، فجاءها جند الإسلام
بأدى الشباب ناعم الإهاب فأسس مملكة الجديد في تخوم بلادها لينساح في

أحشائها ، وينشر دعوة الإسلام في أرجائها ، ويقضى قضاءه على الوثنية وأهلها والشرك وبنيه فتتوحد كلمة الأمم في السياسة واللغة والدين وينهر الله حن به (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) .

قد كانت حروب العراق أيام خالد أشد ما لقي المسلمون من حرب الفرس ، لاجتماع قبائل العرب في العراق وجند فارس على حرب المسلمين ، حتى لقد كان أهل العراق أيام علي إذا بلغهم عن معاوية شيء يقولون نحن أصحاب ذات السلاسل ، ويسمون ما بينها وبين الفراض ولا يذكرون ما بعد الفراض احتقاراً للذي كان بعدها .

أمراء خالرو وقواد : :

من كان له البلاء الحسن في فتوح العراق مع خالد بن الوليد من أمراء الجند الذين كان يبعث معهم بالسرايا يدعون إلى الإسلام أو الجزية ، ويقاثلون من امتنع عن قبول إحدى الخصلتين ، المثنى بن حارثة الشيباني ، وبشير بن سعد الأنصاري ، وحنظلة بن الربيع التيمي المعروف بحنظلة الكاتب ، والنسير بن دسيم بن ثور ، وجريز بن عبد الله البجلي ، وضرار بن الأزور ، وضرار ابن الخطاب والقعقاع بن عمرو ، وعتيبة بن النحاس ، وغيرهم ، من أهل النجدة والبأس ، والأربعة الآخرون كانوا من أمراء الثغور .

جغرافية العراق :

قالوا سمي العراق عراقاً تشبيهاً له بعراق القربة ، وهو الخرز الذي من أسفلها ، وهو على ضفتي دجلة ويحد العراق شمالاً الجزيرة وكرديستان ، وشرقاً بلاد العجم ، وجنوباً خليج العجم المسمى (أيضاً بحر فارس) والبادية ، ويفصل العراق عن الجزيرة بخط مفروض من فلوجة على الفرات بقرب الأنبار إلى بغداد ، ومن ثم على شرق دجلة إلى مصب نهر الزاب الأصغر فيها ، ويفصل

بينه وبين بلاد فارس سلسلة جبال خوزستان الممتدة جنوباً من جبال
کردستان .

وكان العراق من قديم الزمان من مواطن العرب من بكر ، بل كل الجزء
الواقع بين دجلة والفرات ، وهو العراق والجزيرة كان قبل الإسلام من
مواطن العرب من ربيعة وبكر وبطونها ، وكانت للعرب دولة في العراق
وهي دولة المناذرة تدفع الإتاوة إلى الفرس ، كما كان لهم دولة في الشام
وهي الدولة الغسانية تدفع الإتاوة إلى الروم ، فلما جاء الإسلام قضى على
دولة المناذرة وغسان ، كما قضى على دولتي الروم والفرس .

سفره إلى الشام ومرويه فيها :

تقدم معنا في سيرة أبي بكر رضى الله عنه أن جنود المسلمين في الشام
اجتمعوا في اليرموك ، وأخذوا يطاولون العدو ويطاولهم ، وكتبوا إلى
أبي بكر يستمدونه ، فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن يسير بنصف
الناس إلى الشام ويستخلف على النصف الآخر المثنى بن حارثة الشيباني ،
فصدع خالد بالامر وسار في ربيع الأول ويقال في ربيع الآخر سنة ١٣ ، وكان
مسيره من الحيرة على قول بعضهم ، وبعضهم قال إنه سار من عين التمر ، ولما
سار استخلف على العراق المثنى بن حارثة الشيباني وقال له (ارجع رحمك الله
إلى سلطانك غير مقصر ولا وان) .

وقد كان المثنى استأذن أبا بكر بحرب من حوله من الفرس كما قدمنا ،
فأذن له وولاه جند العراق ، ثم أرسل خالد إلى العراق وأمر المثنى بالسمع
والطاعة له ، ولما سار خالد إلى الشام عادت إمارة الجند إلى المثنى ، وكان
خير كفء لها بعد خالد بن الوليد .

سار خالد بمن معه من جند الإسلام وكانوا ستة آلاف على رواية بعضهم

وتسعة على رواية البعض الآخر ، وقال بعضهم إن أبا بكر أمره أن يأخذ معه أهل النجدة فسار بخمسمائة ، ولعل الرواية الأولى أصح ، وأغار في طريقه على جمع من تغلب وكتب على ماء يسمى قراقر ، ومن ثم أخذ بجيشه طريق المفازة مع خطر المسير فيها لفقد الماء منها ، وقال له الدليل واسمه رافع بن عميرة الطائي ، إنك لن تطيق قطع المفازة بالخييل والأثقال ، فقال لا بد لي من ذلك لأخرج من وراء جموع الروم ، واحتاط لقطع المفازة ، بأن أمر صاحب كل جماعة من معه بأخذ الماء للشعبة الخمس ، وأن يعطش من الإبل الشرف ما يكتفي به ثم يسقوها عللاً بعد نهل ، والعلل الشربة الثانية والنهل الأولى ، ثم يصروا آذان الإبل ويشدوا مشافرهما لئلا تجتر ، ثم ركبوا من قراقر فلما ساروا يوماً وليلة شقوا لعدة من الخيل بطون عشرة من الإبل ، فزجوا ما في كروشها بما كان من الألبان وسقوا الخيل ، ففعلوا ذلك أربعة أيام ، وفي اليوم الخامس انتهوا إلى سوى ، فأغار خالد على جمع من بهراء ثم أتى أرك ثم أتى تدمر فتحصن أهلها ثم صالحوه ، ثم أتى القريتين^(١) فقاتل أهلها فظفر بهم ، ثم فعل مثل ذلك بجوارين .

وروى الطبري أنه سار منها إلى قصم وقاتل بني مشجعة ، ثم سار إلى ثنية العقاب^(٢) قرب دمشق ناشرأ رايته ، وهي راية سوداء وكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبها سميت الثنية ، ثم سار فأتى مرج راهط^(٣) فأغار

(١) تدمر قد أصبحت الآن بعد مجدها القديم قرية يحيط بها جماعة العرب الرحل ولكن لم يزل هيكلها المشهور قائماً ينطق بما بلغته من العظيمة في قديم الزمان وبينها وبين دمشق الشام سبعة مراحل ويليها القريتين وهي على مرحلتين منها ، وقال ياقوت إنها هي حواريين التي مر عليها خالد وفيه نظر .

(٢) قال ياقوت وهي ثنية مشرفة على غوطة دمشق يطؤها القاصد من دمشق إلى حمص
اه . ولعلها التي تسمى الآن الثنايا .

(٣) هو المرج الواقع شرق دمشق مما يلي الغوطة .

على غسان يوم فصحهم وأرسل بسر بن أبي أرطاة وحبيب بن مسلمة الفهرى من قریش فأغاروا على قرى الغوطة ، ثم سار خالد ونزل بالجابية وقيل بالباب الشرقي من دمشق ، فأخرج لهم بطريقة نزلا وخدمة ، وقال أحفظ لي هذا العهد فوعده بذلك وكتب له به كتابا .

ثم سار خالد من دمشق إلى بصرى (من عمل حوران وهى الآن مركز حكومة قضاء)^(١) فقبل إنه وجد عليها أبا عبيدة بن الجراح ، وقيل وجد يزيد بن أبي سفيان فافتتحها ، وبعث بأخماسها إلى أبي بكر ثم سار فطلع على المسلمين فى ربيع الآخر ، وقد اختلف المؤرخون فى هل كان المسلمون فى اليرموك (شمالى جبل عجلون) أم فى أجنادين من عمل فلسطين ، فقال أبو جعفر الطبرى إن وقعة أجنادين كانت بعد اليرموك .

وأورد البلاذرى فى فتوح البلدان خبر أجنادين قبل اليرموك ، وقال إن وقعة أجنادين كانت فى جمادى الأولى أو جمادى الآخرة سنة ١٣ ، وإن وقعة اليرموك كانت سنة ١٥ ، مع أن أكبر المؤرخين ومنهم ابن الأثير قالوا إن وقعة اليرموك كانت فى سنة ١٣ ، وقد تقدم معنا تعليل ذلك الاختلاف فى سيرة أبي بكر رضى الله عنه فلا حاجة للإعادة ، وإنما نذكر هنا ما اعتمده معظم المؤرخين من أن واقعة اليرموك كانت قبل أجنادين ، وفيها التقى خالد ابن الوليد بالمسلمين .

قال بعض المؤرخين ، [إن خالد لما كتب إليه أبو بكر بقصد الشام أمره على جميع الجنود ، وقال بعضهم بل أمره على جنده فقط ، والظاهر أن

(١) القضاء فى عرف الحكومة العثمانية هو مادون اللواء أو المتصرفية التى تجمع لرئاستها بضعة أفضية والمتصرفية مادون الولاية التى تجمع إلى رئاستها بضعة متصرفيات أو ألوية .

الرواية الثانية أصح ، لما ذكره ابن الأثير والطبري من أن خالداً لما انتهى إلى المسلمين في اليرموك ، وجد الأمراء متساندين كل أمير على جنده فرغب إليهم أن يؤمروه عليهم جميعاً فأمروه وإليك البيان .

لما اجتمع المسلمون في اليرموك كان عددهم سبعة وعشرين ألفاً فيهم ألف صحابي ، وكان الروم في مائة ألف ، وفي رواية أنهم كانوا في مائتي ألف مقاتل ، وكان قتال المسلمين لهم على تساند كل أمير على جنده لا يجمعهم أمير ، ولا يخفى ما في هذا من الوهن واختلاف الرأي وتجزؤ القوة بتجزؤ الإمارة وتعددتها ، ولما جاء خالد بن الوليد وحضر المعارك مع المسلمين رأى أن القتال على هذا الوجه غير مجد نفعاً مع كثرة العدو عديداً وعدة ، وأن لا بد في نيل الظفر من حزم الرأي واجتماع الكلمة ، وكان الروم يوماً قد تهيئوا للقتال الذي لم يكن بعده قتال ، وذلك لليلتين بقيتا من جمادى الأولى وقيل في جمادى الآخرة ، فأراد المسلمون الخروج إليهم متساندين ، فقام فيهم خالد فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه .

هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي ، أخلصوا جهادكم وأرضوا الله بعملكم فإن هذا يوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية وأنتم متساندون ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي ، وإن من ورائكم لو يعلم عليكم حال بينكم وبين هذا ، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه رأى من واليكم ومحبتهم : قالوا هات فما الرأي ؟

فأشار عليهم بأن يتناوبوا الإمارة العامة ، وأن يؤمروه عليهم في ذلك اليوم فأمروه وهم يظنون أنها كخرجاتهم وأن الأمر يطول .

من هذه الرواية نعلم أن خالداً لم يكن أميراً هاماً على الجيش ، وإنما كان

أميراً على جنده فقط ، ولو كان أميراً عاماً لما ترك الروم يطاولون في القتال بل لدبر الأمر لدهرهم منذ وصوله إلى اليرموك .

لما تسلم خالد زمام القيادة العامة أخذ في تعبئة الجيش تعبئة لم تعب العرب مثلها قبل ذلك ، فجعل القلب كراديس وأقام فيها أبا عبيدة ، وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ، والميسرة كذلك وعليها القعقاع بن عمرو ويزيد بن أبي سفيان ، وجعل على كل كردوس رجلاً من الشجعان ، وجعل على الطلائع قباث بن أشيم ، ولما تم له ترتيب الجيش على ذلك النبط خرج للعدو بأربعين كردوساً ، وأمر عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو فأنشبا القتال ، وأظهر الروم من البسالة وقوة الجأش والصبر على الحرب ما كاد ينزل المسلمين عن مواقفهم ، وقاتل خالد بن الوليد وشجعان المسلمين قتالاً عظيماً أمام فسطاس خالد حتى دحروا الروم فتضعضعوا ، ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم ، فانهزم فرسان الروم فأفرج لهم المسلمون ، وأما الرجال فالذى نجا نجا والذى قتل قتل ، وتم النصر للمسلمين بعد أن أصيب منهم عدد غير قليل من سادات قریش وأقيال الصحابة ، كما أصيب بمثل هذا أشراف الروم الذين فضلوا الموت دفاعاً عن الحوزة على الفرار فقتلوا جميعاً .

ولو أنصف الروم أنفسهم والمسلمين لقبوا إحدى الخصلتين (الإسلام أو الجزية) وكفوا جنودهم عناء الحرب مع قوم قد مهد الله لهم سبيل النصر على الأمم ، بما يحملون من معجزات القرآن وآيات البيان المؤذنة بهدم أركان الظلم ومحو آثار السيطرة الجائرة ، التي امتد يومئذ على الناس رواقها وأخذت من الأمم الخاضعة لسلطان الفرس والروم بخناقها ، ولكن أنى ينصف قادة الشعوب وزعماء السيطرة إذا أحسوا بيد تمس جانب كبريائهم ، وتقلل من غلوائهم ، وتعين حدود سيطرتهم ، وتأخذ عن الاسترسال في

الشهوات بأعنتهم ، وما قتل الأمم ، وساق النفوس إلى مصارع الهلكة ، وززع دعائم العمران في كل زمان ، إلا هذه الفئة الجائرة التي انتحلت لأنفسها حق السيادة المطلقة على الأشخاص والنفوس وأذاقت الإنسان أنواع الشقاء والبؤس .

عزله عن الإمارة :

بينما كان المسلمون في ذلك اليوم المشهود ، أى يوم اليرموك في أشد حالات الحرب واشتداد الطعن والضرب ، جاء البريد من المدينة ينمى وفاة أبي بكر ويخبر باستخلاف عمر بن الخطاب ، ومعه أمر بعزل خالد بن الوليد وتوسيد إمارة الجيش العامة إلى أبي عبيدة بن الجراح ، فحكم ذلك أبو عبيدة ريثما تم النصر للمسلمين ، هذا على رواية بعض المؤرخين ، وعلى رواية بعضهم أن البريد جاءهم وهم على حصار دمشق ، ومن جعل واقعة أجنادين قبل اليرموك روى مجيء البريد وهم في أجنادين ، والصحيح أن عزل خالد وتأخير أبي عبيدة إنما جاءهم وهم على دمشق ، كما يظهر ذلك من كتاب عمر بن الخطاب لأبي عبيدة كما ستراه مبسوطا في خلافة عمر رضى الله عنه ، وروى الطبرى أن أبا عبيدة كتم عن خالد خبر عزله ريثما فتح دمشق وكتب لأهلها عهداً فأماضاه له ، وعلى أى حال كان فإن خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه حضر بعد إمارته هذه معظم فتوح الشام متطوعاً ؛ وقال بعضهم إنه حضر بعض فتوح أرمينيا أيضاً ، وكان المسلمون يستمدون رأيه في الحروب ويقدمونه على أمرائهم ساعة الحاجة ، وكان أبو عبيدة يوليه الجيوش للفتح ، ولما فتح في إمارة أبي عبيدة قنسرين التابعة لولاية حلب ، وانتهى الخبر بذلك إلى عمر ، قال (أمير خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني) .

وأما سبب عزله فأمران ، الأمر الأول ما كان في نفس عمر بن الخطاب عليه منذ قتل مالك بن نويرة ، والأمر الثاني وهو الأهم إقبال جند المسلمين على خالد بن الوليد وحبهم له واستماتتهم بين يديه في كل مشاهدته في العراق والشام ، وذلك لئيم نقيبته في الحروب ، وشجاعته التي أرهبت القلوب ، وقد علم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ذلك فخالف فؤاده شيء منه ، وخشى من إقبال الناس عليه ، لا سيما وأن في نفس خالد من جهة ما في نفسه ، من جهة خالد منذ قرعه ذلك التقريع الشديد عقب حادث مالك بن نويرة ، لهذا بادر عمر رضى الله عنه إلى عزله قبل أن يصل خبر توليه منصب الخلافة إلى المسلمين وخالد أمير على جيش عظيم منهم ، وهذا الذى خالج نفسه عمر بن الخطاب رضى الله عنه من جهة خالد بن الوليد لم يكتمه عنه بل أظهره إليه ، فقد روى أنه استدعاه بعد عزله إلى المدينة ، فعاتبه خالد فقال له عمر (ما عزلتك لريبة فيك ، ولكن افقتن بك الناس تخفت أن تفتن بالناس) وهذا صريح في أن عمر رضى الله عنه خشى من أن تحدث خالد آ نفسه بشيء ، فيشق عصا المسلمين وهو نظر شديد ومرمى بعيد من عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، إلا أن خالد بن الوليد وغيره من سادات قریش وأمراء المسلمين كانوا في زمن أبي بكر وزمن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما أبعد الناس عن الفتنة والزمهم للطاعة ، لقرب العهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وشدة حزم هذين الخليفتين في السياسة ورهبتهما التي حلت في القلوب ، وعدا هذا فإن خالد ابن الوليد لما مات أبو بكر زال من نفسه ما كان يجده على عمر ، فقد روى الطبرى أن خالداً لما بلغه موت أبي بكر قال (الحمد لله الذى قضى على أبي بكر الموت وكان أحبَّ إلىَّ من عمر ، والحمد لله الذى ولى عمر وكان أبغض إلىَّ من أبي بكر ، ثم ألزمنى حبه) والظاهر أن ما خالج فؤاد خالد من حب عمر لما ولى الخلافة عليه فيما بعد عمر بن الخطاب ، لهذا لما عزله وقال له ما عزلتك لريبة فيك ، كتب بذلك إلى الأمصار دفعاً للتهمة عنه .

وهي أحسن شهادة تحفظ كرامة خالد بن الوليد ، وتقدر قدر خدمته للإسلام والمسلمين ، وهو والله أجدر برفع الذكر وتشريف القدر ، فرضى الله عنه وعن الصحابة أجمعين .

وروى الطبري أن عمر بن الخطاب لما عزل خالدًا صادره على نصف ماله ، وذلك شأنه مع أكثر العمال كما سترى في سيرته ، لأنه كان يرى أن ما يجمعونه من المال إنما هو حق المسلمين ، فينبغي أن يؤخذ منهم ويرد لبيت مال المسلمين .

حزم خالد وتوفيقه في الحرب

قلَّ أن يوجد قائد في العالم يوفق إلى النصر في كل وقائعه كما وفق خالد ابن الوليد رضي الله عنه ، فإن التاريخ لم ينبئنا عن انخزاله ولا في وقعة واحدة من وقائعه مع أهل الردة أو في العراق والشام ، وهذا إنما هو من نتائج الحزم والشجاعة والبصيرة بأمور الحرب ، فقد كان دائم اليقظة مراقباً لحركات العدو يترقب الفرص ويسدد سهمه الفسك إلى الغرض البعيد ، فلا يخطئ مرماه ، وقد رأيت كيف قلَّ جموع الروم في اليرموك ، وكشف عن المسلمين سحب الضيق والخيرة منذ سلموا قيادهم إليه ، وجعلوا اعتمادهم في تدبير الحرب عليه ، مع أن فيهم من الصيد الصناديد وأهل البصيرة ، والرأي ، يومئذ نفر أولو شهرة في الحرب في الجاهلية والإسلام ، كعمرو بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح ويزيد بن سفيان وأضراهم من كفاة الإسلام وقادة الجيوش العظام .

وروى الطبري أن خالدًا لما كان مع أبي عبيدة على حصار دمشق ترك الأعداء ليلة موافقهم على الأسوار ، لولية أعدها لهم الطريق ، فلم يعلم بذلك أحد من المسلمين إلا خالد بن الوليد فإنه كان لا ينام ولا ينيم ، ولما وقف

على جليلة الأمر تقدم بنفسه مع نفر من ثقات أصحابه واقتحموا الباب ففتحه لهم وكان النصر .

ومن هذا التيقظ تعلم سر توفيقه في الحروب وانهصاره على الأعداء ونفاذ الرهبة من سطوته في القلوب ، وحق والله لقائد مثله أن يخلد ذكره على صفحات الزمان ويشاد له من جميل الأثر أعظم بنيان .

كتبه

١ — كتب إلى ملوك الفرس بعد تدوين ملكهم في العراق ، يدعوهم إلى الإسلام كتاباً هذه صورته .

(أما بعد) فالحمد لله الذي حل نظامكم ، ووهن كيدكم ، وفرق كلمتكم ، ولو لم تفعل ذلك كان شراً لكم ، فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ونجيزكم إلى غيركم ، وإلا كان ذلك وأقمتم كارهون على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة اهـ .

٢ — كتب إلى المرازبة والقواد كتاباً هذه صورته :

(أما بعد) فالحمد لله الذي فض حدنكم ، وفرق كلمتكم ، وكسر شوكتكم ، فاسلموا تسلموا ، وإلا فاعتقدوا في الذمة وأدوا الجزية ، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر اهـ .

٣ — ولما كان مع أبي عبيدة على حصار دمشق كان الأسقف الذي أقام له النزول يوم مروره على دمشق في أثناء ذهابه لمعونة المسلمين في اليرموك ربما وقف على السور فدعى له خالداً فإذا أتى سلم عليه وحادثه ، فقال له ذات يوم يا أبا سليمان إن أمركم مقبل ولى عليك عدة فصالحني عن هذه المدينة فدعا خالد بدواة وقرطاس فكتب :

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق ، إذا دخلها أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ، ولا يسكن شيء من دورهم ، لهم عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية ٥ .

هذا ما رواه البلاذري بشأن هذا الكتاب ، وهو يؤيد أنه كان يومئذ أميراً على جنده ، وأن خبر عزله إنما أتاهم وهم على دمشق ، وإنما كتبه عنه أبو عبيدة بن الجراح ريثما تم الفتح ، وقد روى بعض المؤرخين أن أبا عبيدة أجاز كتاب خالد هذا بعد أن فتحت دمشق وأخبر خالد بالعزل .

٤ — وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى بني الحارث ابن كعب .

(بسم الله الرحمن الرحيم) لمحمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم من خالد بن الوليد السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو (أما بعد) يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنك بعثتني إلى بني الحارث بن كعب وأمرتني إذا أتيتهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام ، وأن أدعوهم إلى الإسلام ، فإن أسلموا قبلت منهم وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ، وإن لم يسلموا قاتلتهم ، وإن قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعثت فيهم ركباً نأى ببنى الحارث أسلموا تسلموا ، فأسلموا ولم يقاتلوا ، وأنا مقيم بين أظهرهم وأمرهم بما أمرهم الله به وأنهم عما نهاهم عنه ، وأعلمهم معالم الإسلام وسنة النبي صلى الله عليه وسلم حتى يكتب إلى رسول الله ، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته .

٥ — وكتب في صلح الحيرة كتاباً هذه صورته .

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عدياً وعمرأ

أبني عدى ، وعمرو بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة وحيرى بن أكال (١) نقباء أهل الخيرة ورضى بذلك أهل الخيرة وأمروهم به ، عاهدتهم على تسعين ومائة ألف درهم كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا رهبانهم وقسيسهم إلا من كان منهم على غير ذى يد حبيساً عن الدنيا تاركاً لها (٢) وعلى المنعة فإن لم يمنعمهم فلا شئ عليهم حتى يمنعمهم ، وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة ، وكتب في شهر ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة وشهد فلان وفلان.

٦ — وكتب إلى دهاقين السواد كتاباً هذه صورته :

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من خالد بن الوليد لزاد بن بهيش واصلوبا بن نسطونا ، إنَّ لكم الذمة وعليكم الجزية وأنتم ضامنون لمن نقبتم عليه من أهل البهقباذ الأسفل والأوسط على ألفي ألف تقبل في كل سنة ، ثم كل ذى يد سوى ما على بانقيا وباروسا (وفي رواية بسما) وإنكم قد أرضيتهمونى والمسلمين ، وإننا قد أرضيناكم وأهل البهقباذ الأسفل ومن دخل معكم من أهل البهقباذ الأوسط على أموال ليس فيها ما كان لآل كسرى ومن مال ميلهم ، شهد فلان وفلان وكتب سنة اثنتي عشرة في صفر ا هـ .

(٣) كلمة على الزمة أو أصل الامتيازات :

اعلم أن هذه الكتب وكل ما أعطى من الصحابة من كتب العهد لأهل

(١) وفي رواية جبرى .

(٢) وفي رواية وسائحا تاركاً للدنيا .

(٣) نريد بهذه الامتيازات ما يسمونه امتيازات الكنائس أو امتيازات المسيحيين الحاضنين للحكومة الإسلامية (وهى الذمة) لا امتيازات الأجانب ، فإن هذه تسمى (عهداً) وأهلها يعبر عنهم بالمعاهدين وهذه أيضاً قد استفحل مع الزمان أمرها واستقرى شرها سيما فى المملكة العثمانية التى عاث فيها الأجنبي بثللك الامتيازات وتوسعت الدول المعاهدة بها حتى جعلتها حقاً ثابتاً لها قبل الدول العلية ، بعد أن كانت منحاً وعهوداً حبيبة ، وسيأتى الكلام عليها فى هذا الكتاب إن شاء الله .

الذمة سواء ، كانوا في العراق أو في الشام أو غيرها ، كانت أصولاً ثابتة في معاملة أهل الذمة والعهد من الرعية غير المسلمين ، وعهوداً مكينة في جباية الخراج استمر العمل بها مدة الخلفاء من بني أمية وصدرأ من خلافة بني العباس ، حيث صار الناس غير الناس واختلط السكان واتسعت أصول الجباية باتساع العمران في الخلافة العباسية ، وعلى تلك السكتب بنى الفقهاء كثيراً من القواعد في معاملة أهل الذمة ، وعلى ذلك كله الحديث الشريف الذي مر معنا ذكره في هذا الكتاب وقد جاء فيه (إن المسلمين يسعى بذمتهم أدناهم) بمعنى أن كل ما أعطاه أحدهم من عهد لاسبيل لنقضه ، بل يؤكد الأخر ، وهذه قاعدة من أسس القواعد التي جاء بها الإسلام لحماية الأمم التي تخضع لسيادة المسلمين من أذى أرباب السيطرة ، ومنعهم من كل من يريدهم بسوء ، ماداموا في عهد المسلمين وذمتهم ، لا يماثلون عليهم عدواً ولا يخونون لهم جواراً ، ويعطونهم ما فرضوه على أنفسهم ، ورضوا به من الجزية أو أى نوع تراضوا عليه من المال في نظير هذه الحماية ، وهو تناه في العدل في حكم الأمم المغلوبة لم يسمع بمثله في تاريخ الدول الفاتحة ، لا في ذلك الزمن وما قبله ولا الآن ، بل جرت سنة كثير من الدول الفاتحة وأخصها الدول المتمدينة الغربية في هذا العصر ، أن تحكم الأمم المغلوبة لها الخاضعة لسلطانها بغير ماتحكم به في بلادها وأبناء جنسها وملتها ، وتعاملهم معاملة الرفيع للوضيع ، والغالب القاهر المغلوب الضعيف ، لأن تشتت على نفسها حمايتهم وتسكتب لهم العهود والمواثيق .

ولقد كان المسلمون يومئذ في إبان عزم وجدة دولتهم وبسطة جاههم وقوتهم ، ولم يعملوا بتلك القاعدة لو هن في نفوسهم أو هيبة من عدوهم ، بل عملاً بشرعهم واتباعاً لأمر نبيهم ، وأى عصر من عصور الفتح كان أنفذ هيبة وأبسط قوة وأعظم سلطاناً وأكثر فتوحاً من عصر أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، ومع هذا فقد كانت كل البلاد التي خضعت

لسلطان المسلمين بالرضا والاختيار يومئذ ، يأخذ أهلها من قواد الجيوش .
العهود التي تتكفل بحماية نفوسهم وأملاكهم وأعراضهم وحرية دينهم ،
ولا يستطيع أحد من القواد أو العمال أن ينقض عهداً من تلك العهود ، إلا إن
خان أصحابه المسلمين .

روى البلاذرى فى تاريخه فتوح البلدان أن عمير بن سعد (الأنصارى
أحد كبار الفاتحين) قدم على عمر بن الخطاب وقال له ، إن بيننا وبين الروم
مدينة يقال لها عربسوس ، وإن أهلها يخبرون عدونا بعوراتنا ولا يظهرونا
على عورات عدونا ولهم علينا عهد ، واستشارة فى أمرهم ، فقال عمر ، فإذا
قدمت نفيهم أن تعطيم مكان كل شاة شاتين ومكان كل بقرة بقرتين ومكان
كل شىء شيئين ، فإذا رضوا بذلك فأعطهم إياه وأجلهم وأخبرها فإن أبوا
فانبدل إليهم وأجلهم سنة ثم أخربها .

فانظر كيف أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أبى أن ينقض عهد
هؤلاء القوم الذى أعطاهم ، مع أنهم نقضوا عهدهم ، وخانوا دولة المسلمين
الحاكمة عليهم ، وقد كان فى وسع هذا الخليفة العظيم أن يبدد نظامهم ،
ويربهم جزاء عملهم ، بإجلالهم عن بلدهم سواء كان معهم منه عهد أو لم يكن ،
لأنهم خانوا المسلمين والخائن لا عهد له ، ومع هذا فقد أبى عدله ودينه
أن يجلبهم عن بلدهم إلا بعد تعويض ما يفقدونه من المال والمتاع ضعفين .

وما زال الخلفاء فى كل عصر قائمين بالوفاء بعهود أهل الذمة فيما يتعلق
بنوع الجزية ومقدارها ، كما جاء فى كتب العهود التى بأيديهم من الصحابة ،
حتى تغير السكان ودان معظمهم بالإسلام ، وتنوسيت تلك الكتب وفقدت ،
وأما ما يتعلق بحماية أهل الذمة حيث كانوا وحماية أموالهم وأملاكهم وحرية
معتقدهم ، فهذه لما كانت لا تفتقر إلى المحافظة على أمثال تلك الكتب إذ هى
قاعدة أساسية فى الإسلام ، فقد استمر العمل بها إلى الآن ، إلا ما كان أيام

ملوك الطوائف ربما أصاب أهل الذمة من جورهم ما أصاب أهل الإسلام ، ولما آلت الدولة إلى آل عثمان توسع بعضهم بتلك المنح الإسلامية ، وأخضعهم المرحوم السلطان محمد الفاتح ، بما أعطاه لبطريك القسطنطينية من المنح التي تشبه ترتيب حكومة مسيحية داخل الحكومة الإسلامية ، ولا يحمل ذلك منه على غير التلطف والمجاملة وحسن الصنيع ، ولكن عمله ذلك أشبه بحلقة صارت بعد ذلك سلسلة كثيرة الحلقات ، إذ جعلت الدول الأوربية من ذلك الحين تستزيد لمسيحي الشرق من أمثال تلك المنح ، حتى توسع الدول بعد باسمها فسموها امتيازات ، وما زالت تتشعب هذه الامتيازات وتعظم حتى تناولت الذمى والمعاهد ، وحتى زال من نفوس الحائزين لها اعتبار كونها منحة نالوها من دول الإسلام عملاً بالشرع الإسلامى ، لا تميزاً لأهل الذمة عن المسلمين ، ولا رهبة من دولة من الدول ، وكان من ذلك أن وقع الجفاء بين المسلمين وبين الطوائف المسيحية المحكومة بالدولة العثمانية ، وزالت من النفوس الثقة المتبادلة بين الفريقين من قديم الزمان ، بسبب تحرش الدول الأوربية بالدولة العثمانية ، بحجة المحافظة على حقوق المسيحيين التي تكفل بالمحافظة عليها الشرع الإسلامى نفسه وجعل لغير المسلم من الحقوق مثل ما للمسلم ، فما أخلق تلك الدول المتمدينة أن تعطى للمحكومين منها من المسلمين ولو جزءاً مما يعطى للإسلام للمحكومين من دولة من المسيحيين ، ثم تطالب بعد ذلك الدول الإسلامية بحقوق رعاياها المسيحيين ، وهيئات هيئات أن تغلب الفضيلة على الشهوات ، ويبلغ العدل عند الدول الأوربية مبلغه في الإسلام .

وفاته وولده

اختار خالد بن الوليد بعد أن أتم فتوحه في العراق والشام أن يسكن الشام فاتخذ مقرراً له حمص ، وفيها توفي سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر ، (١٢ م — أشهر مشاهير الإسلام)

وقال بعضهم إنه توفي في المدينة وليس يثبت ، ومدفنه لم يزل معروفاً يزار إلى الآن في حمص ، وهو ضمن مسجد واقع خارج السور إلى الجهة الشمالية من حمص ، وقد اتصل به العمران وصار حوله لهذا العهد حتى يسمى (حتى سيدى خالد) كما يسمى المسجد أيضاً مسجد سيدى خالد ، وقد زرته مرة فوجدت عليه من المهابة والوقار ما يأخذ بمجامع القلوب التي يعرف أصحابها أقدار الرجال ، ويتأثرون بذكرى عصر أولئك الأبطال .

* * *

لما حضرت خالداً الوفاة قال : لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وها أنا أموت على فراشي كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء ، وما من عمل أرجو من لا إله إلا الله وأنا مترس بها .

فإنه ما أعظم هذه النفس التي استهانت في سبيل المجد بالحياة ، حتى ما تطيق الموت على فراش السكون ، وتأنف أن تذوق في غير مواقف الحرب كأس المنون ، ولا جرم أن جسماً ليس فيه موضع شبر إلا وفيه طعنة برمح أو ضربة بسيف لجسم فيه نفس عالية تحار في مرادها الأجسام ، وتتمنى لقاء الموت فيحجم عنها في ساحات الصدام ، وهذا هو السر في أن حياة الأبطال العظام عزيزة طويلة ، وحياة الأندال الجبناء ذليلة قصيرة (١) .

وأوصى خالد قبل وفاته إلى عمر وحبس فرسه وسلاحه في سبيل الله ، ولما مات اجتمع نساء بنى المعيرة يبكين عليه ، فلما بلغ ذلك عمر قال (ما عليهن أن يبكين أبا سليمان ما لم يكن نفع أو لقلقة)

(١) نريد بهذه الحياة حياة الذكر .

وقيل إنه لم يبق امرأة من بنى المغيرة إلا جزت لمتها ، وحلقت رأسها حزناً على ذلك البطل العظيم ، الذى يحق أن تبكيه الرجال والنساء ويذكروه المسلمون بأشرف أعماله صباح مساء .

وله :

روى ابن قتيبة أنه كان لخالد ولد كثير فقتل الطاعون منهم أربعين رجلاً فبادوا ، وقال فى أسد الغابة أخرج الثلاثة عن الزبير بن بكار أن ولد خالد بن الوليد انقرضوا فلم يبق منهم أحد ، وورث أيوب بن سلمة دورهم بالمدينة .

ويوجد لهذا العهد قبيلة رحالة فى جهات حمص تسمى بنى خالد ، ادعى بعض مشائخها أنها تنتسب إلى خالد بن الوليد لأغراض لا محل لذكرها هنا ، وهى دعوى كاذبة ليس عليها دليل ، إذ ولد خالد انقرضوا جميعهم فى الصدر الأول كما علمت والله أعلم .

الحجز الثاني

عَمْرُو بْنُ الْخَطَّابِ

حاله فى الجاهلية

نسبه وأصله :

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله
ابن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب القرشى العدوى أبو حفص ، وأمه
حنثمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وقيل
حنثمة بنت هشام بن المغيرة ، فعلى هذا تكون أخت أبى جهل ،
وعلى الأول تكون بنت عمه ، لأن هاشماً وهشاماً ابني المغيرة أخوان ،
وهشام والد أبى جهل وأخيه الحارث ، وأما هاشم فإنه والد حنثمة
وعم أبى جهل ، والحارث هكذا صححه فى أسد الغابة .

سرقه وصناعته :

سبق لنا فى صدر الجزء الأول من هذا الكتاب ذكر الرهط من
قريش الذى انتهى إليهم الشرف فى الجاهلية ، ومنهم عمر بن الخطاب
وكانت تنتهى إليه السفارة ، كما سبق لنا ذكر حرف الصحابة الذين
سترد سيرتهم فى هذا الكتاب ، ومنهم عمر بن الخطاب فإنه كان
تاجراً ، وما زالت هذه صناعته فى الجاهلية والإسلام حتى ولى الخلافة ،
فحينئذ تركها عنها بمصالح المسلمين ، كما سيمر عليك مفصلاً إن شاء الله .

مكائنه عند قومه وسيرته فيهم

مكانة عمر عند قومه تعلم بما سيأتي في ذكر إسلامه وحسبه ، من ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا أن يعز الإسلام بعمر ، فاستجيب دعاؤه ، وقد كان في قومه مشهوراً بالشدة ، عزيز الجانب ، مع أنه لم يكن ذا مال وغنى ، بل كان قليل المال ، يتاجر بماله أحياناً إلى الشام ، فقد روى الحافظ بن عساكر في تاريخه أن عمر قدم الشام غير مرة في الجاهلية وأسر في أحدها ، وأخرج عن زيد بن أسلم عن أسلم عن أبيه في حديث طويل ، أن عمر أسره في الجاهلية بطريق من دمشق ، واستعمله في بعض عمله ، فتغفله وقتله وخرج هارباً من دمشق .

وكان في حال صغره قبل أن يتجر برعى غنم أبيه ، فقد روى ابن عساكر عن يحيى بن حاطب عن أبيه قال ، كنت مع عمر بن الخطاب بضفيان (اسم مكان) فقال : كنت أرى للخطاب بهذا المكان فكان فظاً غليظاً ، فكنت أرى أحياناً وأحتطب أحياناً ، فأصبحت أضرب الناس ليس فوق أحد إلا رب العالمين . ثم قال :

لا شيء مما ترى إلا بشأسته يبقى الإله ويودى المال والولد

هذا كان حال هذا الرجل العظيم في جاهليته ، وسترى كيف كان حاله في الإسلام ، وإلى أية درجة بلغ به علو الهمة ومضاء العزيمة والراى والإخلاص في خدمة الرسول الأكرم ، ودين الله القويم .

إسلامه وصحبته

إسلامه :

كان المسلمون قبيل إسلام عمر بن الخطاب ، يجتمعون في دار الأرقم ابن أبي الأرقم المخزومي ، في أصل الصفا مستخفين لقلتهم وشدة قريش عليهم ، ولم يكونوا كما يزعم بعض المتخرفين من فقراء الناس وأداني قريش ، بل كان في ذلك العدد القليل من المسلمين كثير من سادات قريش وأغنيائهم ، وذوى الشرف فيهم ، ومنهم أبو بكر الصديق ، وطلحة بن عبيد الله ، وعثمان بن عفان المشهورون بالغنى والثروة ، وسعيد ابن زيد ، وحمزة بن عبد المطلب ، وأضرابهم من صناديد قريش وأشرافهم ، إلا أن معظمهم هاجروا إلى الحبشة لاضطهاد قريش لهم ، وكانوا لقلتهم في حاجة إلى الاستكثار من ذوى العصية أو الجرأة والإقدام من رجالات قريش ، ليستطيعوا إعلان دينهم ، والذب عن نبيهم ، وكان ممن عرف من قريش بنفوذ الكلمة والبطش وسمو المكانة عمر ابن الخطاب وأبو جهل ، وكان النبي صلى عليه وسلم يتوقع خيراً للمسلمين بإسلام أحد هذين الرجلين لهذا قال (اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام) يعنى أبا جهل .

استجاب الله سبحانه وتعالى دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم بأحب الرجلين إليه ، وهو عمر بن الخطاب ، فأسلم في ذى الحجة لمضى ست سنين من البعثة ، وبعد إسلام تسعة وثلاثين رجلاً ، وثلاث وعشرين امرأة ، وقيل بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة ، وكان له من العمر ست وعشرون سنة .

وأما سبب إسلامه فقد جاءت فيه روايات كثيرة ، ومنها ما أخرجه
الحافظ عز الدين الجزري في أسد الغابة عن أسامة بن زيد عن أبيه
عن جده أسلم أنه قال : قال لنا عمر بن الخطاب أتحبون أن أعلمكم
كيف كان بدء إسلامي قلنا نعم . قال كنت من أشد الناس على رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، فيينا أنا يوماً في يوم حار شديد الحر بالهاجرة ،
في بعض طرق مكة إذ لقيني رجل من قريش ، فقال أين تذهب يا ابن
الخطاب ، أنت تزعم أنك هكذا ، وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك .
قال قلت وما ذاك ، قال أختك قد صأب ، قال فرجعت مغضباً وقد
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما
عند الرجل به قوة فيكونان معه ، ويصبيان من طعامه ، وقد كان
ضم إلى زوج أختي رجلين ، قال فجئت حتى قرعت الباب ، فقيل من
هذا ، قلت ابن الخطاب قال وكان القوم جلوساً يقرءون القرآن في
صحيفة معهم ، فلما سمعوا صوتي تبادروا واختفوا وتركوا أو نسوا
الصحيفة من أيديهم ، قال فقامت المرأة ففتحت لي ، فقلت يا عدوة
نفسها قد بلغني أنك صبوت ، قال فأرفع شيئاً في يدي فأضربها به
قال فسال الدم ، فلما رأت المرأة الدم بككت ثم قالت يا ابن الخطاب ما كنت فاعلاً
فافعل ، فقد أسلمت ، قال فدخلت وأنا مغضب جئلت على السرير ،
فنظرت فإذا بكتاب في ناحية البيت ، فقلت ما هذا الكتاب أعطيتني ،
فقلت لا أعطيك لست من أهله ، أنت لا تغتسل من الجنابة ولا تطهر ،
وهذا لا يمسه إلا المطهرون ، قال فلم أزل بها حتى أعطتني فإذا فيه
(بسم الله الرحمن الرحيم) فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت
بالصحيفة من يدي ، قال ثم رجعت إلى نفسي فإذا فيها (سُبْحَ الله
ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) ، قال فكلما مررت باسم
من أسماء الله عز وجل ذعرت ، ثم ترجع إلى نفسي حتى بلغت

(آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) حتى بلغت إلى قوله (إن كنتم مؤمنين) ، قال فقلت أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمد رسول الله . فخرج القوم يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوه مني ، وحمدوا الله عز وجل ثم قالوا يا ابن الخطاب أبشر ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا يوم الاثنين فقال لهم (اللهم أعز الإسلام بأحد الرجلين إما عمرو بن هشام ، وإما عمر بن الخطاب) وإنا نرجو أن تكون دعوة رسول الله لك فأبشر ، قال فلما عرفوا مني الصدق ، وقلت لهم أخبروني بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا هو في بيت في أسفل الصفا وصفوه ، قال فخرجت حتى قرعت الباب ، قيل من هذا ، قلت ابن الخطاب . قال : وقد عرفوا شدتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يعلموا بإسلامي . قال : فما اجتأ أحد منهم أن يفتح الباب . قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم افتحوا له ، فإنه إن يرد الله به خيراً يهده ، قال ففتحوالي ، وأخذ رجلاً بعضدي حتى دنوت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أرسلوه فأرسلوني فجلست بين يديه ، فأخذ بمجمع قميصي فحذبنى إليه ، ثم قال أسلم يا ابن الخطاب ، اللهم اهده قال قلت أشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله ، فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة ، قال وقد كان استخفي^(١) قال ثم خرجت فكننت لا أشاء أن أرى رجلاً أسلم يضرب إلا رأيته^(٢) قال فلما رأيت ذلك قلت لا أحب إلا أن يصيبني ما يصيب المسلمين ، قال فذهبت إلى خالي (يعني أبا جهل بن هشام) وكان شريفاً فيهم ، فقرعت الباب عليه فقال من هذا ؟ فقلت ابن الخطاب ، قال فخرج إلى فقلت له أشعرت

(١) هكنا ولعلها وقد كانوا مستخفين .

(٢) وفي رواية فلم أشأ أن أرى رجلاً يضرب ويضرب إلا رأيته ولا يصيبني من

ذلك شيء .

إني قد صبوت ؟ قال فعلت ؟ قلت نعم ، قال لا تفعل ، فقلت بلى قد فعلت ، قال لا تفعل فأجاف الباب دوني وتركني ، قال : فلما رأيت ذلك انصرفت ، فقال لي رجل تحب أن يعلم إسلامك ؟ قال قلت نعم : قال ، فإذا جلس الناس في الحجر واجتمعوا ، أتيت رجلا لم يكن يكتُم السر ، فأصغ إليه وقل له فيما بينك وبينه إني قد صبوت ، فإنه سوف يظهر عليه ويصيح ويعلنه : قال : فاجتمع الناس في الحجر ، فجئت الرجل فدنوت منه ، فأصغيت إليه فيما بيني وبينه ، فقلت أعلمت أني قد صبوت : فقال ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ ، قال : فما زال الناس يضربونني وأضربهم فقال خالي ما هذا : قال فقام على الحجر فأشار بكمه فقال : ألا إني قد أجرت ابن أختي ، فأنكشف الناس عني وكنت لا أشاء أن أرى أحداً من المسلمين يضرب إلا رأيته (١) وأنا لا أضرب ، قال : فقلت ما هذا بشيء حتى يصيبني مثل ما يصيب المسلمين . قال : فأملت حتى إذا جلس الناس في الحجر ، وصلت إلى خالي فقلت اسمع فقال ما اسمع : قال : قلت جوارك عليك رد فقال : لا تفعل يا ابن أختي . قال : قلت بل هو ذاك . فقال : ما شئت . قال : فما زلت أضرب وأضرب ، حتى أعز الله الإسلام اه ،

وروي أن عمر لما أسلم ، قال : يا رسول الله علام نخفي ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا قليل وقد رأيت ما لقينا ، فقال له عمر والذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفين من المسلمين حمزة في أحدهما ، وعمر في الآخر حتى دخلا المسجد فنظرت قريش إلى حمزة وعمر فأصابتهما كآبة شديدة ، ومن يومئذ سمى

(١) يريد ألا رأيته يضرب لغذف لفظ يضرب وهو استعمال شائع والمعنى أن الناس يوافوا رغبته أو/يحتجج هو إلى الضرب بنفسه .

رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاروق لأنه أظهر الإسلام ، و فرق بين الحق والباطل .

وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال : لما أسلم عمر قال المشركون قد انتصف القوم اليوم منا وأنزل الله (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) .

وأنت ترى من هذا مكانة عمر في قومه ، وسمو منزلته في قبيله ، وما كان لإسلامه من دخول الوهن على نفوسهم ، إذ أقروا بظهور المسلمين عليهم ورجحان كفة المؤمنين على كفتهم ، وحسبك دليلاً على هذا شهادة القرآن كما رأيت - ويؤيدها شاهد العيان أيضاً ، فإن المسلمين بعد ذلك كانوا يعبدون الله مستخفين أعلنوا بعد إسلام عمر دينهم وأخذوا يثبون بين الناس دعوتهم ، لا يبالون بما قام في نفوس قريش من الحقد عليهم ، وتعمد إيصال الضرر والأذى إليهم ، فقد روى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال (كان إسلام عمر فتحاً ، وكانت هجرته نصراً (وكانت إمارته رحمة ، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي في البيت حتى أسلم عمر فلما أسلم عمر ، قاتلهم حتى تركونا فصلينا) أخرجه في أسد الغابة ، وأخرج البخاري عن ابن مسعود أيضاً قال (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر) .

ولا جرم أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه هو الرجل الفذ الجليل ، الذى قوى الله به الإسلام في منبته ، وأعزه في هجرته ، ومهد سبيل النشر لدعوته والفتح لأهله ، فكان رضى الله عنه القدوة الصالحة للمسلمين ، والمثل المضروب في التقوى والعدل والشهامة ونصرة الدين وتأيد الحق والشدة على الأعداء ، وإقامة الميزان بالقسط وتعميم دعوة الإخاء والحرية بين الأمم ، فإسلامه كان من المنن العظيمة التى من الله بها على المسلمين وأيد بها جانب الدين :

صحيته :

صحب عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسن صحبته ، وبذل في نصرتة
مهمته ، وما زال منذ أسلم يناضل عن المسلمين ، وينافح عن سيد المرسلين ، ويظهر
من الشدة على أعدائه والمظاهر لأوليائه ما أزعج قريشاً عن أذى النبي صلى الله
عليه وسلم ، وخفف وطأة تعسفهم على اتباعه ، واضطهادهم للمسلمين قبل
الهجرة إلى المدينة ، حتى إذا أذن الله للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه
بالهجرة أخذوا يهاجرون مستخفين إلا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فإنه
لشجاعته وقهره لقريش ، وشدة بأسه عليهم هاجر على ملائق قريش . فقد
أخرج الحافظ عز الدين الجوزي والحافظ بن عساكر عن علي رضى الله عنه :
قال : ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر لإختفيا ، إلا عمر بن الخطاب ،
فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه ، وتنكب قوسه ، وانتضى في يده أسهما ،
واختصر عزته ومضى قبل الكعبة والملا من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت
سبعاً ، ثم أتى المقام فصلى متمكناً ، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة ،
وقال لهم شامت الوجوه ، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس ، من أراد أن تشككه
أمه ، وييتيم ولده ، ويرمل زوجته ، فيلقني وراء هذا الوادى : قال علي فإ
تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين ، عليهم وأرشدهم ومضى لوجهه .

وأخرجنا عن البراء بن عازب : قال : أول من قدم علينا من المهاجرين
مصعب بن عمير أخو بني عبدالدار ، ثم قدم علينا ابن أم مكتوم الأعشى أخو
بني فهر ، ثم قدم علينا عمر بن الخطاب في عشرين راكباً ، فقلنا ما فعل رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، قال هو على أثرى ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأبو بكر معه .

وما زال عمر في هجرته كما كان في مكة شديداً على المخالفين ، قوَّماً على
الحق منافياً عن رسول الله ، مراقباً لأعدائه حريصاً عليه من وصول أذاهم

إليه مبغضاً لمن أبغضه ، لا يفتأ يراقب حركات المنافقين ، ويستطلع ضمائر الوافدين ، حتى إذا تفرس في أحدهم سوء نية لازمه في دخوله وخروجه ، وألزمه حد الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والإحجام عنه والخنوع بين يديه . روى أن عمير بن وهب الجمحي عاهد صفوان بن أمية القرشي بعد وقعة بدر على أن يأتي المدينة ، ويقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدمها واستأذن على رسول الله ، فخرج إليه عمر بن الخطاب وتفرس فيه الشر ، فأخذ بحمالة سيفه وقال لرجال معه من الأنصار ادخلوا على رسول الله واحذروا هذا الحديث ، فلما رآه رسول الله ، قال لعمر اتركه يا عمر ، ثم سأله عما جاء به ، فقال جئت لهذا الأسير (يعني أباه وهباً) لأنه كان أسيراً عند المسلمين ، أسروه في وقعة بدر) : قال : اصدقني : قال . ما جئت إلا لذلك : قال : بل قدمت أنت وصفوان وجرى بينهما كذا وكذا فدهش عمير ، وأسلم لساعته .

وكان ممن يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسانه من قریش سهيل ابن عمرو فأسره في وقعة بدر مالك بن الدخشم الأنصاري ، فلما أتى به رسول الله قام إليه عمر وقال ، دعني أنزع ثيابه يا رسول الله ، فلا يقوم عليك خطيباً أبداً : فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم دعه يا عمر ، فسيقوم مقاماً تحمده عليه فتركه (١) .

ورأى مرة يهودياً ممسكاً برسول الله يطالبه بدين له ، فعظم ذلك عليه . وأخذ بخناق اليهودي : وقال : دعني أقتله يا رسول الله : فقال : دعه يا عمر إنَّ لصاحب الحق مقالا .

(١) تحقق مقام سهيل هذا الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الردة وذلك أن قریشاً لما وصلهم نعي رسول الله اضطربوا وكادوا يرتدون فقام سهيل بن عمرو على باب الكعبة وصاح بهم فاجتمعوا إليه فقال يأهل مكة لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد ، وانه ليؤمن هذا الأمر كما ذكر رسول الله إلى آخر ما قل مما هو مسطور في التواريخ فامتنع أهل مكة عن الردة .

وله من هذا القبيل أخبار كثيرة أيام صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، تدل على عظيم محبته له ، وإخلاصه في الذب عنه ، والشدة على من ناوأه .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستشير أصحابه في بعض الأمور ، فكان أبو بكر وعمر أفضلهم عنده رأياً ، لصدق لهجتهم وعظيم إخلاصهما ، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام في عمر (إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه) رواه الترمذى عن ابن عمر ، وفي رواية أبي داود عن أبي ذر : قال (إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به) ، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون (ملهون) فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر (متفق عليه كما في المشكاة) لهذا كان رضى الله عنه يرى رأى فينزل به القرآن ، حتى بلغت موافقته عشرين ونيفاً ، ومنها آية تحريم الخمر ، فإنه لما قال (اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً) نزلت آية التحريم ، ومنها آية الحجاب ، فإنه أمر نساء النبي صلى الله عليه وسلم أن يحتجبن ، فقالت له زينب : وإناك علينا يا بن الخطاب ، والوحى ينزل في بيوتنا : فأنزل الله تعالى (وإذا سألتوهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب) ومنها آية الاستئذان في الدخول ، وذلك أنه دخل عليه غلامه وكان نائماً فقال : اللهم حرّم الدخول : فنزلت آية الاستئذان .

إلى هذا المقام وصل عمر رضى الله عنه في صدق اللمجة ، وقول الحق وجميل الصحبة ، وحسبه فضيلة في نفسه وفضلا على المسلمين في صحبته كونه كان سبباً في تحريم الخمر الذى هو آفة الإنسانية وجرثومة الشر وعلة العلل الاجتماعية ، والأمراض العقلية والجسائية في كل زمان ومكان .

هكذا كان عمر رضى الله عنه نافعاً في صحبته ملازماً للنبي صلى الله عليه وسلم شديد الحرص عليه ، والحب له والمدافعة عنه ، وشهد معه من المشاهد

بدرأ وأحدأ والخندق وبيعة الرضوان وحنيناً والفتح وخيبر وغيرها ،
وكان ممن ثبت مع رسول الله في أحد .

أخرج في أسد الغابة عن الزهري وعاصم بن عمر قال : لما أراد أبو سفيان
الانصراف (عقب وقعة أحد) أشرف على الجبل ، ثم نادى بأعلى صوته
إن الحرب سجال ، يوم بيوم بدر اعل هبل (أى أظهر دينك) : فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب : قم فأجبه : فقال الله أعلى
وأجل لاسواه ، قتلانا في الجنة ، وقتلاكم في النار : فلما أجاب عمر أبو سفيان ،
قال أبو سفيان ، هلم إلي يا عمر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
إئتني فانظر ما يقول : فجاءه فقال له أبو سفيان : أنشدك بالله يا عمر أقتلنا
محمدًا ؟ قال : لا وإنه يسمع كلامك الآن ، فقال أبو سفيان أنت أصدق
عندي من ابن قنثة وأبر (لقول بن قنثة لهم قد قتلت محمدًا) .

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر غازياً إلى ذات السلاسل في
جيش أميره عمرو بن العاص وأرسله في جيش أميره أسامة بن زيد مولى
رسول الله وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسافر أسامة بالجيش بعد
وفاته وبقي عمر بالمدينة استبقاه أبو بكر كما رأيت في سيرته وبالجمل فإني
عمر رضى الله عنه خدم الإسلام في صحبته كما خدمه في خلافته ، وكان مخلصاً
في إيمانه ، مخلصاً لثيابه عظيم الحب له ، حتى بلغ من حبه له أنه لما مات
صلى الله عليه وسلم لم يصدق بموته ، أو أصابه من شدة الحزن دهشة وذهول ،
حتى قام فقال . من قال إن محمدًا قد مات علوت رأسه بسيفي هذا ، وليبعثه
الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم ، والقصة مشهورة أوردنا المهم منها في
سيرة أبي بكر رضى الله عنه فكان عمر ألهم هذا القول حتى أهرب المنافقين
فأذهلهم من الكلام ، ريثما جاء أبو بكر وسكن اضطراب النفوس ببيانه .

خلافته

تقدم معنا في الجزء الأول أن أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه عهد بالخلافة إلى عمر بن الخطاب قبل وفاته ، فولياها يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة يوم وفاة أبى بكر ، ولما تلى كتاب العهد على المسلمين بإيعوه جميعاً ، ولم ينكل عن بيعته أحد من المهاجرين والأنصار ، مع أنه كان توقف بعضهم عن بيعته أبى بكر حالة كونها شورى بين المسلمين كما رأيت في الجزء الأول ، وإنما رضى المسلمون بعهد أبى بكر لعمر بن الخطاب ، وإن خالف قاعدة الشورى وتسامحوا بحق انتخابهم الخليفة لأمرين :

(الأمر الأول) توقعهم الخلاف على الخلافة بين نفر المتطلعين إليها من المهاجرين السابقين فيما لو تركت شورى تتنازعها الأهلية وتتجاوزها العصية ، وقيام العذر لأبى بكر في عدم تركها شورى لهذا السبب الذى استشعر به قبل وفاته ، وقد بسطنا الكلام على هذا في باب خلافته فلا حاجة للمزيد .

(والأمر الثانى) تفرس المسلمين في عمر الكفاءة على القيام بهذا الأمر واقتداره على سد ذرائع الفتنة ، كما تفرس فيه ذلك أبو بكر وكبار الصحابة الذين استوثق له منهم قبل عهده إليه بالخلافة وقد صدقت في عمر رضى الله عنه فراستهم وتحقق بكفائته رجائهم ، فخأت خلافته رجمة على الأمة كما مر في حديث ابن مسعود .

أخرج الحافظ بن عساكر عن أبى عبيدة قال : قال عبد الله بن مسعود : أفرس الناس ثلاثة . الملك حين تفرس في يوسف والقوم فيه زاهدون . والمرأة التى تفرست في موسى فقال (يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين) وأبو بكر حين تفرس في عمر فاستخلفه .

نعم قد استاء بعضهم من استخلاف أبي بكر لعمر إلا أن استيائهم لم يكن لفقد الكفاءة من أسندت إليه الخلافة وإنما كان لصرفها عنهم أو خوفاً من شدة عمر عليهم ، كما بسطنا هذا في سيرة أبي بكر ، ومع هذا فإن أبا بكر رضى الله عنه لم يقض إلا بعد أن جعل الساخط راضياً ، فقد أخرج الإمام أبو الفرج بن الجوزى في السيرة العمريّة وابن عساكر في تاريخه عن عاصم قال : جمع أبو بكر الناس وهو مريض فأمر من يحمله إلى المنبر ، فكانت آخر خطبة خطب بها فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس احذروا الدنيا ولا تثقوا بها فإنها غرارة ، وآثروا الآخرة على الدنيا وأحبوها فبحب كل واحدة منهما تبغض الأخرى ، وإن هذا الأمر الذى هو أملك بنا لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله ، ولا يتحمله إلا أفضلكم مقدرة وأملككم لنفسه أشدكم فى حال الشدة وأسلمكم فى حال اللين ، وأعلمكم برأى ذوى الرأى ، لا يتشاغل بما لا يعنيه ولا يحزن لما ينزل به ولا يستحي من التعلم ، يتحير عند اليديهة ، قوى على الأمور لا يجوز لشيء منها حده بعدوان ولا تقصير يرسد لما هو آت عتاده ^(١) من الحذر والطاعة (وهو عمر بن الخطاب) ثم نزل فحمل ^(٢) الساخط إمارته الراضى بها على الدخول معهم توصلاً .

ومن هذا يعلم أن أبا بكر إنما اختار للخلافة عمر رضى الله تعالى عنهما علماً بحقيقته وسداً للزرائع الفتنة ، وطلباً لخير المسلمين ومصلحتهم لا محاباة ولا لغرض آخر كما شهد بذلك على بن أبى طالب رضى الله عنه فقد أخرج الحافظ عز الدين الجزرى فى أسد الغابة عن سويد بن غفلة الجعفى أنه دخل على على بن أبى طالب فى خلافته فقال يا أمير المؤمنين إني مررت بنهر يذكرون أبا بكر وعمر بغير الذى هما أهل له من الإسلام فقام (أى على)

(١) يفتح العين الذخيرة المدودة لوقت الحاجة .

(٢) هكذا فى السيرة العمريّة وفى تاريخ ابن عساكر وجعل الخ ولم يذكر متعلق (لتوصلاً)

نقطب الناس خطبة طويلة ، مما جاء فيها عن أبي بكر واستخلافه لعمر ، قوله (حتى حضرته الوفاة فرأى أن عمر أقوى عليها ولو كانت محاباة لأثر بها ولده) إلى آخر كلامه ، وربما جاء معنا في مكان آخر .

وهذا الذى تحقق عند المسلمين من حسن نية أبي بكر وكفاءة عمر ، دعاهم إلى الرضا ببيعته ، والاتفاق على قبول خلافته ، وإن خالفت قاعدة الشورى بين المسلمين ، وقد قام رضى الله عنه بهذه الوظيفة السامية قياماً محموداً ، لا يجاريه فيه أحد من قادة الأمم ، وساسة الحكومات ، بل كان من عظيم أثره وأثر أبي بكر في الخلافة الإسلامية أن كانا مثلاً لمن بعدهما يضرب بالعدل وحسن السياسة وحجة على من تنكب طريقهما من الخلفاء وخالف سيرتهما من الأمراء .

أخرج فى أسد الغابة عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال « إن الله جعل أبا بكر وعمر حجة على من بعدهما من الولاة إلى يوم القيامة ، فسبقا والله سبقاً بعيداً وأتعبا والله من بعدهما إتعاباً شديداً ، فذكرهما حزن للأمة وطعن على الأئمة » .

ولقد صدق رضى الله تعالى عنه فيما قال ، فإنه لم يخرج قوماً من المسلمين على الأمراء بعد ذينك الخليفين إلا مطالبين بمثل عدلها حاجين بسيرتهما ، حتى فريق الخوارج الذين يذهبون إلى عدم الحاجة إلى الإمام ، كانوا يحتجون على الخلفاء بسيرة الإمامين الأولين ، وأول ما خرجوا كان خروجهم على على رضى الله تعالى عنه . هذا على مكاتته من الدين وتقواه وعدله . حتى إن الخوارج لم يستطيعوا أن يأخذوا عليه في سيرته إلا مسألة التحكيم التى لم تنبعث فى الحقيقة إلا عنهم .

وحسب عمر رضى الله تعالى عنه من خلافته أن يكون مثلاً فى العدل

وحجة على الخلفاء والولاة من بعده ، بل حسبته من سيرته نفراً وذكر أن كل المؤرخين سواء كانوا من المسلمين أو المنصفين من غير المسلمين ، أجمعوا على أنه أعدل من ساس الأمم وأعظم رجل في الإسلام ، ولو قدر المسلمون قدر هذا الرجل العظيم الذي يفتخر به تاريخ الإسلام ، لشيدوا باسمه الآثار العظيمة في كل مكان ليبقى ذكره حياً بين الناس كما هو حي في التاريخ . وبعد فإن أحط البشر عقولاً وأضعفهم بصيرة فريق الغلاة من الشيعة ، الذين يطعنون في ذلك الرجل العظيم الذي أصبح في حسن السيرة مثلاً في العالمين وحجة على الخلفاء والسلاطين ، فأى عار على المسلمين بإزاء الأمم الأخرى أن يكون فيمن ينتسب للإسلام جماعة يقدمون بمثل عمر ابن الخطاب على تفردده بالشهرة ، وجلالة قدره ، وجلال أعماله وآثاره ، وسيفه بالإيمان ، وخدمته للإسلام في صحبته وخلافته ، حتى كان غرة جبين التاريخ الإسلامي وذكرى الفخر الغابر الخالدة ، مع أن الإسلام يبرأ إلى الله من أمثال تلك الفرق التي أسس نحلته ابن سبأ اليهودى وأضرابه من أعداء الإسلام ، ومريدى الشر بالمسلمين ، ولا يزال أولئك الناس يدعون النسبة إلى الإسلام ، وهو يبرأ إلى الله من نحلهم الفاسدة التي لا يقبلها ذو عقل ولا تنطبق على دين ، ولا حكمة ، وإنما هو التقليد الأعمى ، والجهل يفعلان في العقول والأوهام ما لا تفعله السموم في الأجسام .

أول أعماله في الخلافة

كان أول كلام تكلم به عمر رضى الله عنه يوم استخلف أن صعد المنبر فخطب الناس فقال : إنما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده فليُنظر قائده

حيث يقود ، وأما أنا فو رب الكعبة لأحملهم على الطريق .

وأول عمل عمله في خلافته ثلاثة أمور : انتداب الناس مع أبي عبيد
الثقف لحرب الفرس : وعزل خالد بن الوليد ، وتوسيد الإمارة العامة في الشام
إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح وبعث يعلى بن أمية لإجلاء أهل نجران : فأما خبر
أبي عبيد فسيأتى معنا في باب الكلام على فتوحات عمر رضى الله عنه وأما خبر
خالد بن الوليد فقد مر معنا ذكره في سيرته ، وربما نعود إلى شيء منه عند
الكلام على فتوح الشام . وأما خبر نجران فنتكلم عليه هنا لأنه لا يخلو من
فائدة تاريخية فيها موعظة وذكرى لقوم يعقلون .

إمارة أهل نجران :

سبق لنا فيما مر من هذا الكتاب كلام على الدعوة إلى الإسلام
وأن لا إكراه فيها ، وإن أساسها التبليغ فمن قبلها كان من المسلمين ، ومن أبي
فعليه أن يخضع لسلطانهم وأن يعطيهم جزءاً من ماله يستعينون به على حماية
ماله وعرضه ونفسه ، وله عليهم حق الوفاء بما غاهدوه عليه وألا يفتن عن
دينه ولا يؤخذ منه من الجزاء إلا ما رضىه في عهده ، وأن تكون له الذمة
والعهد أنى حل وحيثما وجد من ممالك الإسلام ، ما دام وافيأ بعهده مؤدياً
لجزيته ، لا يخون المسلمين ولا يمالئ عليهم عدوهم وأحسن شاهد على هذا
نسوقه إليك في هذا الفصل ، خبر أهل نجران الذين وكانوا من الكتابيين
لتعلم كيف كانت معاملة أهل الذمة ومبلغ محافظة الخلفاء على عهودهم منهم
ما لم يخونوا أو يندروا وتحرير الخبر عنهم أنه كان وفد وفدهم على رسول الله
صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى الإسلام فأبوا وسألوه الصلح وأن يقبل معهم
الجزاء فصالحهم على شيء معلوم يؤدونه كل سنة للمسلمين . وكتب لهم بذلك
كتاباً جعل لهم فيه ذمة الله وعهده وألا يفتنوا عن دينهم ومراتبهم فيه ،

ولا يحشروا ولا يعشروا وأن يؤمنوا على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم
وغائبهم وشاهدتهم وغيرهم وبغشهم وأمليتهم لا يغير ما كانوا عليه . ولا يغير
حق من حقوقهم . ولا يظلم أرضهم جليش ، ومن سأل منهم حقاً فبئسهم النصف
غير ظالمين ولا مظلومين . ولهم على ذلك جوار الله وذمة رسوله أبداً حتى
يأتى أمر الله ما نصحوا وأصلحوا واشتراط عليهم ألا يأكلوا الربا ولا
يتعاملوا به . ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر
الصديق رضى الله عنه أقرهم على مالهم ، وكتب لهم كتاباً على نحو كتاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنه كان يتخوفهم ويود لإجلهم لما روى
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يبقين في جزيرة العرب دينان .
ولما حضرت أبا بكر الوفاة أوصى عمر بن الخطاب بإجلاتهم ، لنقضهم العهد
بأصابتهم الربا .

فانظر كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرى ألا يجتمع في جزيرة
العرب دينان ، لأن العرب أمة حديثه عهد بالإسلام وقد عانى صلى الله عليه
وسلم ما عانى في جمع كلمتها وتوحيد وجهتها ، فمن الخطر أن يوجد بين ظهرانيها
قوم يدينون بغير دينها ، فيفتنون من جاورهم عن الإسلام على حداثة عهدهم
فيه ، وعدم تمسكهم بعد من أصوله الصحيحة .

هذا من وجه ومن وجه آخر ، فإن النجرانيين كانوا يتاجرون بالربا ،
ولا يخفى ما فيه من الضرر على من جاورهم من أهل اليمن الذين ينضب التعامل
بالربا معين ثروتهم ، ويؤذن بفقرهم ، على غير شعور منهم ، لا سيما وأن
الشريعة الإسلامية قد حرمتها تحريماً باتاً ، ولا يؤمن من أن النجرانيين
باستمرارهم على تعاظم الربا يحملون بعض من جاورهم من المسلمين على
ارتكاب الإثم بالتعامل معهم بالربا .

مع هذه الأسباب التي تلجئ إلى إكراه النجرانيين على الإسلام فإن

النبي صلى الله عليه وسلم لم يكرههم على ذلك ، لأن شريعته لم تأذن بإكراه أهل الكتاب على الإسلام ، لهذا تركهم على دينهم بعد أن دعاهم إلى الإسلام بالتي هي أحسن فأبوا ، وأعطاهم كتاب العهد المذكور ، إلا أنه اشترط عليهم فيه ألا يخنونوا المسلمين ولا يتعاملوا بالربا كما رأيت ، ولما استخلف أبو بكر أكد لهم عهدهم الأول ، مع أنه كان يرى في وجودهم في جزيرة العرب من الخطر ما كان يراه النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يسعه في أمرهم إلا ماوسع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا علم أنهم خافوا العهد ، وتعاملوا بالربا ، أمر في حال مرضه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بإجلائهم عن جزيرة العرب ، دون أن يفتنوا في دينهم .

ولما استخلف عمر رضي الله عنه كان أول بعث بعثه بعث أبي عبيد إلى العراق كما قدمنا ، وبعث يعلى بن أمية إلى اليمن ، وأمره بإجلاء أهل نجران ، وأن يعاملهم بالرفقة ، ويشترى أموالهم ويخبرهم عن أرضهم في أي أرض شاءوا من بلاد الإسلام ، (لا أن يعاملهم معاملة القوى الغالب للضعيف المغلوب ، كما هو شأن كل دولة من الدول قبل الإسلام وبعده حتى الآن في معاملة الأمم التي تحالف مذهبها وتخضع لقوة سلطانها) .

أخرج الطبري عن سالم في حديث مر معنا ما هو بمعناه ، قال فيه عن عمر أنه أوصى يعلى بن أمية بأهل نجران فقال :

انتم ولا تفتنهم عن دينهم ، ثم أجلبهم من أقام منهم على دينه ، وأقرر المسلم وأمسح أرض كل من تجلب منهم ، ثم خيرهم البلدان وأعلمهم أنا نجلبهم بأمر الله ورسوله ألا يترك بجزيرة العرب دينان ، فليخرجوا من أقام على دينه منهم ، ثم نعطيهم أرضاً كأرضهم لإقراراً لهم بالحق على أنفسنا ، ووفاء بدمتهم فيما أمر الله من ذلك بدلاً بينهم وبين جيرانهم من أهل اليمن وغيرهم فيما صار لجيرانهم بالريف .

وكتب لهم كتاباً هذه صورته كما أوردها البلاذري في فتوح البلدان .
« أما بعد فن وقعوا به من أهل الشام والعراق فليوسعهم من حرث
الأرض وما اعتملوا من شيء فهو لهم مكان أرضهم بالين » .
على هذا الوجه أجلى عمر (رضى الله عنه) النجرايين النصارى منهم
واليهود ، ففترقوا فنزل بعضهم الشام ، وبعضهم النجرائية ، بناحية الكوفة
وبهم سميت .

ولم تقف العناية بهم في إجلالهم والمحافظة على ما بيدهم من العهد وتعويضهم
عما تركوه من العقار والمال عند هذا الحد ، بل كانوا يجدون بعد ذلك
من الخلفاء كل رعاية ورفق ، ولم يرفعوا لأحد منهم مظالمه إلا أنهضهم ،
ورفع أذى عماله عنهم ، وشملهم بالعدل وحاطهم بالعناية .

من ذلك أنهم شكوا مرة إلى عثمان رضى الله عنه لما استخلف ضيق
أرضهم ، ومواجهة الدهاقين لهم ، وطلبوا إليهم تخفيف جزيتهم ، فكتب
إلى الوليد بن عتبة بن أبي معيط عامله على الكوفة كتاباً يوصيه فيه بهم ،
ويأمره أن يضع عنهم مائتي حلة من جزيتهم لوجه الله ، وعقبى لهم من أرضهم
وستأنى صورة الكتاب في خلافة عثمان رضى الله عنه .

وروى البلاذري عن الكلبي ، أنه لما ولي معاوية أو يزيد بن معاوية ،
شكوا إليه تفرقهم ، وموت من مات منهم ، وإسلام من أسلم منهم ، وأحضره
كتاب عثمان بن عفان بما حطهم من الحلل ، وقالوا إنما ازددنا نقصاناً وضعفاً
فوضع عنهم مائتي حلة تنمة أربعمائة حلة ، فلما ولي الحجاج العراق وخرج
ابن الأشعث عليه اتهمهم والدهاقين بموالاته ، فرد جزيتهم إلى ما كانت عليه
فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة شكوا إليه ظلم الحجاج ونقصهم ، فأمر
فأحصوا فبلغوا العشر من عدتهم فالزمهم مائتي حلة جزية عن رموسهم فقط ،
فلما ولي يوسف بن عمر العراق في خلافة الوليد بن يزيد الأموي ردهم إلى
ما كانوا عليه عسكية للحجاج ، فلما انقضت دولة الأمويين واستخلف

أبو العباس السفاح رفعوا إليه أمرهم ، وما كان من عمر بن عبدالعزيز ويوسف ابن عمر ، فردهم إلى مائتي حلة ، ولما استخلف هرون الرشيد شكوا إليه تعنت العمال إليهم ، فأمر فكتب لهم كتاب بالمائتي حلة ، وبالغ بالرفق بهم فأمر أن يعفوا من معاملة العمال ، وأن يكون مؤداهم بيت المال بالخضرة كي لا يتعنتهم أحد من العمال .

هــذا مارواه المؤرخون في شأن هؤلاء الكتائبين الذين أجلاهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن جزيرة العرب ، وقد رأيت مما مبلغ عناية عمر بهم لما لم يردأ من إجلائهم للأسباب التي مر ذكرها ، وقد كان من السهل إكراههم على الإسلام ودخولهم فيه ، كما دخل أولئك الملايين من مشركي العرب وعامة سكان الجزيرة العربية طوعاً أو كرهاً ، وإنما هو الشرع الإسلامي منع من إكراه غير مشركي العرب على الإسلام ، كما منع من نقض العهد وخفر النعمة إلا بسبب مشروع ، لهذا لما خان النجراينيون عهدهم بتعاملهم بالرأيا ، وقد عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يتعاملوا به في الجزيرة ، ساغ لأمير المؤمنين إجلائهم إلى غيرها بعد أن عوضهم عن المال والعقار بمثله ، وما زال الخلفاء بعده مبالغته بالرفق بأهل الكتاب وقياماً بواجب السيادة العادلة ، ووفاء بعهد الله والرسول يعاملون النجرانيين بأحسن ما تعامل به عامة الرعية من المسلمين ، ويدفعون عنهم أذى الظلم والإجحاف كما رأيت .

حكمهم الاسلام في المعجيين وحكمهم الدوريين في المسلمين :

ينتج معنا من هذه الحكاية ثلاثة أمور :

الأمر الأول : عدم إكراه النجرانيين على الإسلام مع تعين الخطر من وجودهم في جزيرة العرب لحدائثة عهد أهلها بالإسلام ، ذلك لأن عدم الإكراه

من أصول الشريعة الإسلامية ، والجهاد الذى يعظم أمره أعداء المسلمين إنما شرع لحماية الدعوة ، لا للإكراه إلا جهاد مشركى العرب يومئذ ، فقد شرع لإرغامهم على الإسلام لأسباب حكيمة لاتخفى على بصير ، أهمها تطهير نفوس تلك الأمة العظيمة من شرور الوثنية ، واستئصال شأفة الجهل والتوحش من جزيرة العرب التى كانت وسطاً بين ممالك الشرق والغرب من آسيا وأفريقيا وأوروبا . بل هى نقطة الصلة السياسية والتجارية بين تلك الممالك ، فانتشار أنوار المدنية والدين فيها يستلزم انتشارها بطبيعة المجاورة والإشراف على تلك الممالك أيضاً ، وقد كان ذلك كما هو معلوم .

الأمر الثانى : عدم حيد الخلفاء عن أمر الشارع فيما أمر به من الوفاء بالعهود وتأكيدهم لعهد النجرانيين الواحد تلو الآخر على ضعف هؤلاء وقتلهم وقوة الخلافة الإسلامية وسلطانها ، وإن ذلك لم يكن عن رهبة أو رغبة ، بل عن محض تمسك بالعهد ، وعدل بين الشعوب الخاضعين لسلطة الخلافة وسلطان الإسلام من كل ملة ودين .

الأمر الثالث : حرص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على قاعدة حماية الذمى فى نفسه وماله ، بتعويضه النجرانيين عن أرضهم وما لهم بالمثل من أرض المسلمين ، وما لهم لما قضت الضرورة بإجلائهم عن أرضهم إلى غيرها من بلاد المسلمين ، وقد رأيت ما ذكرناه استطراداً فى سيرة أبى بكر عن عمر رضى الله عنهما ، وما فعله من هذا القبيل مع أهل عربسوس من نفور الروم ، وكيف أنه لما أمر بإجلائهم عن أرضهم لخيانتهم جوار المسلمين ، ونكبتهم عهد الأمانة والصدق ، أمر بأن يعوضوا عن ما لهم وعقارهم ونعمهم ضعفين ، وما زال الخلفاء فى أيام الفتوح العظيمة وما بعدها ، يحافظون على حق القرار الثابت والملك القديم للأقوام المغلوبين للمسلمين الخاضعين لسلطانهم ، سواء كانوا من المسيحيين أو غيرهم ، ولم يؤثر عن أحد منهم أنه طرد قوماً من أرضهم ، أو انتزعها منهم

بغير حق ولا عوض ولا عبء بما ربما يقع من هذا القبيل على بعض الأفراد من جور بعض الهمال الذين غلبت شهواتهم على الفضيلة ، فقادوا عن طريق الشرع ، فإنه قد يصيب أفراد المسلمين من جور هؤلاء أكثر مما يصيب غيرهم ، وليس في هذا ما يقدح بأصول الحكم الإسلامى الذى يأبى الظلم ويدعو إلى الرأفة والعدل .

هذا شأن الإسلام فى المحافظة على حقوق الأمم المغلوبة ، وقد رأيت بما تقدم أنه لم يعط للمسلمين من حقوق الغلب التى ينتحلها الغالبون فى كل عصر إلا ما تدعو إليه الضرورة القصوى وتستلزمه سلامة الملك والدين ، لا ما تدعو إليه شهوات الملك ورغبات الأمة الغالبة ، وقد علم هذا المسلمون وخلفاؤهم ، وأن لأهل الذمة طم مالمهم وعليهم ما عليهم ، فبالغوا فى الرأفة بأهل جوارهم والداخلين فى ذمتهم من أرباب الملل الأخرى ، فتركوا لهم حرية التملك والدين ، ولم ينادعواهم حقاً من حقوق المواطنة والجوار ، بل كانوا يعتبرونهم جزءاً من الدولة ، وعضواً من أعضاء مجتمعهم ، لا غنى عن مشاركته فى العمل . ومشاطرته أسباب السعادة المدنية والحياة الوطنية ، يؤيد هذا اعتماد الخلفاء الأمويين والعباسيين على أهل الكتاب من اليهود والنصارى فى ترتيب دواوين الخراج ، وترجمة علوم اليونان ، وتقريب النابغين منهم فى علوم الهندسة والطب إليهم واعتمادهم فى شفاء عليلهم عليهم ، بل بلغ بالمسلمين اعتبارهم لأهل الكتاب عضواً من جسم هيتهم الاجتماعية ، لا يجوز فصله فى حال من الأحوال ؛ إن جيوش التتار لما اكتسحت بلاد الإسلام من حدود الصين إلى الشام ووقع فى أثرهم من وقع من المسلمين والنصارى ، ثم خضد المسلمون شوكة التتار فى الشام ، ودان ملوكهم بالإسلام ، خاطب شيخ الإسلام ابن تيمية رأس العلماء فى عصره أمير التتار قطلوشاه بإطلاق الأسرى ، فسمح له بالمسلمين وأبى أن يسمح له بأهل

الذمة ، فقال له شيخ الإسلام : لابد من افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى ، الذين هم أهل ذمتنا ، ولا ندع أسيراً لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة فأطلقهم له (١) .

وكيف لا يقوم علماء المسلمين وخلفاؤهم بحماية أهل ذمتهم ، وقد استوصى بهم النبي صلى الله عليه وسلم أمته خيراً ، وكذلك الخلفاء الراشدون من بعده كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب وكما سترى بعد ، ونحن ننقل إليك هنا على سبيل الاستطراد ما جاء في كتاب كتبه عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى عمرو بن العاص عامله على مصر وهو قوله :

« واعلم يا عمرو أن الله يراك ويرى عملك ، فإنه قال تبارك وتعالى في كتابه (واجعلنا للمتقين إماما) يريد أن يقتدى به وأن معك أهل ذمة وعهد ، وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم ، وأوصى بالقبط ، فقال « استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً » ورحمهم أن أم إسماعيل منهم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة » احذر يا عمرو أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم لك خصماً ، فإنه من خصمه خصمه . والله يا عمرو لقد ابتليت بولاية هذه الأمة ، وآنست من نفسى ضعفاً وانتشرت رعيتى ورق عظمى ، فأسأل الله أن يقبضنى إليه غير مفترط . والله إنى لأخشى لو مات جمل بأقصى عملك ضياعاً أن أسأل عنه يوم القيامة »

(١) رأيت هذه الحكاية التاريخية المهمة فى نسخة خطية من الرسالة القبرصية التى قدمها شيخ الإسلام ابن تيمية لسرجوان ملك قبرص لافتكاك أسرى المسلمين منه ودفعت هذه الرسالة إلى الفاضل الشيخ على أفندى يوسف صاحب جريدة المؤيد الخطيرة فطبعتها على نفقته ، ومن الأسف أن يغفل مؤرخو المسلمين أمثال هذه الحوادث المهمة التى هى سرى غرض التاريخ الصحيح ، ولو عنوا بنقل كل الحوادث الاجتماعية التى لها علاقة بأصول المدنية الإسلامية وعصورها لنفعوا الإسلام والمسلمين .

تأمل قول هذا الخليفة العظيم الذى يوصى به عامله بأهل الكتاب ، ترى
الرهبة من الله بادية على كلامه . وعلائم الخشوع والحنان المنبعثة عن وجدانه
الظاهر مرتسمة فى تضاعيف كتابه ، حتى كأنما هو واقف بين يدى الله يسأل
عن حقوق خلقه ، ويحاسب عن عمله فى رعيته . إن فى هذا لآيات من
العدل ، وغايات فى إنصاف الرعية غير المسلمة ، لا يدرك شأوها الولاية
والسلاطين فى كل أمة من أمم الأرض الآن .

وأعظم من هذا وأجل أن آخر وصايا عمر التى أوصى بها عند وفاته
كانت بالمهاجرين والأنصار وأهل الذمة ، إذ كتب لمن يخلفه كتاباً قال فيه :
وأوصيه بأهل ذمة الله وذمة محمد صلى الله عليه وسلم أن يوفى بعهدهم ،
ولا يكلفوا فوق طاقتهم ، وأن يقاتل من ورائهم الخ ماحياء فى الكتاب كما
سترأه فى محله إن شاء الله .

هذا شأن الحكم الإسلامى فى أهل الذمة ، ومبلغ عناية الخلفاء
بالخاضعين لسلطانهم من غير المسلمين ، أوردناه مؤيداً بالشواهد التاريخية ،
مع أنه يكاد يدرك ببداهة الحس ، لأن اليهود والنصارى فى الممالك الإسلامية
مازالوا يتمتعون بكل ما يتمتع به المسلمون من الحقوق مـدى
ثلاثة عشر قرناً ، فلم تنزع منهم أرض ، ولم يطردوا ويشردوا عن أوطانهم ،
ولم يفتنوا عن دينهم ، ولو أصيبوا بما يصاب به المسلمون فى ممالك النصرانية
لما بقى منهم فى هذه القرون الطويلة باقية ، مع أن الأسبانيول مالبنوا أن
دوخوا بلاد الأندلس واكتسحوا ذلك الملك الإسلامى العريض حتى فتشوا
المسلمين عن دينهم ، وطردوهم عن ملكهم ، واغتصبوا تراثهم وسفكوا
دماءهم وشردوهم عن بلاد الأندلس تشريداً ، مابقى لهم فى بضع سنين باقية
ومحا كل ماتركوه من آثار العلم والمدنية فى تلك البلاد التى كانت جنة الأرض
فى عصرهم .

وإذا انتحل للأسبانيول عذر البربرية والتوحش وأنهم إنما كانوا يومئذ في عصور الجهالة الأوربية ، فهل يقال إنهم كانوا أحط في الأخلاق والمدنية من تلك الأمة البدوية ، التي نشأت في جزيرة العرب على الغارة والسلب وسفك الدماء وعبادة الأوثان ، ثم لما اندفعت للفتح وأتيحت لها قوة الغلب على الأمم وأخصها أهل الكتاب كانت سياستها في الملك ورأفتها بالمغلوبين ما رأيت فيما تقدم .

نقول ولا نكران للحق أن الأسبانيول لم يكونوا في تلك الدرجة من الهمجية بل كانوا وكل الأمم الأوربية في دور تمدن جديد نبقت أصوله بين العرب يومئذ وأظلت فروعه بمالك المغرب وإنما هم حملة علوم الدين وتعصبتهم الدنىء هو الذى جعل هذا البون البعيد بين الفريقين وباين في السياسة بين الفاتحين ، وأين من يوصى الجيوش الفاتحة بالرفق بالمسيحيين واعتبارهم بعد الغلب كجزء لا ينفصل عن مجتمع المسلمين ، له ما لهم من رعاية وعليه ما عليهم من حق ، كما في وصايا الخلفاء التي رأيت ممن يصور للأمم المسيحية المسلمين في صورة وحش ضار يتحفظ للوثوب على الشعوب ، وهؤلاء هم قادة المسيحيين وحمله الدين المسيحي ، ومنهم مثيرو نار الحروب الصليبية من القسس ومدبر ومكائد جمعية التفتيش الديني (الأنكيزسيون) في أسبانيا ، بل ومنهم كان في هذا العصر عصر المدنية والنور المستر غلادستون وزير إنكلترا الشهير بحملاته الخطابية على الإسلام والمسلمين .

أليس بعجيب أن يقرر الإسلام مبدأ المساواة بين الشعوب الخاضعين لسلطانه ، ويحتم على أهله حماية اليهود والنصارى في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ونحلهم ويعاهدهم على هذه الحماية خلفاء المسلمين ، كلما جاء خليفة يؤكد عهد السابق مدى هذه القرون الطويلة ، ولا يوجد إلى هذا العهد من قادة الأمم

النصرانية ، وحملة الإنجيل في الممالك الغربية من يمزق غشاء التعصب الضيق وينصف المسلمين في دينهم ويعاملهم ولو بحسنة من حسناتهم ، اللهم إن هذا المنتهى الضعف في الوجدان والتجرد عن العدل والتقمص في لباس الأوهام ، وإلى الله نبرأ عنه معاشر المسلمين مهما كان حالنا وأنى بلغ ، انحطاطنا والتاريخ شاهد عدل .

رب معترض يقول إنا بالغنا في تعنت الأمم المسيحية والتبرؤ من وصمة التعصب الذميمة الذي نرى به الدول الغربية ، مع أن المسلمين بشر كأولئك الناس لا تنزه نفوسهم عن الظلم والتعصب ، ولم يخل تاريخ حكمومتهم من إعنات رعيتهما من غير المسلمين وإن دينهم يأمرهم بمحاسبة أهل جوارهم من الكتابيين فنجيب عن ذلك ، نعم إن المسلمين ليسوا بملائكة معصومين هبطت عليهم السكينة من السماء ، إلا أن دينهم الذي أمر بالعدل بين الرعية والوفاء بعهود أهل الذمة وجاء للتأليف بين القلوب ونهى عن ظلم أهل الكتاب والتعدى على حقوق الجوار ، هذب نفوسهم واجتث أصول التعصب الأعمى من أفئدتهم فكانوا أحسن الأمم معاشرة مع مجاورهم من الكتابيين ، فأطلقوا لهم حرية الدين وإقامة الشعائر والعادات وأمنوهم على المال والأرض وحرية التجارة وشاركوهم في الأعمال ، وحسبك من ذلك أن الشارع سمى الرعية غير المسلمة ذميين أى داخلين في ذمة المسلمين وعهدهم لا يضارون في عرض ولا نفس ولا مال فأصبح هذا الاسم علماً على المسيحيين واليهود عند المسلمين يذكرهم بالعهد إذانسوا ويستلينهم إذا قسوا ، ولما تناسى المسلمون هذا الاسم الآن كما تناسوا كثيراً من شعائر دينهم وتساحوا بأصول شرعهم ، إذا نفخ في المسلمين شيء من روح التعصب على المسيحيين وجفوا لإخوانهم في الوطنية ولم لم يكونوا لإخوانهم في الدين فإنما كان نافخ هذه الروح ومضرم نار الفرقة والجفاء بين الفريقين حروب الصليب التي أسعرت لهما في المشرق خطباء

الدين والسياسة في الممالك المسيحية ، وما تلا ذلك من تحول قوة الغلب في العصور المتأخرة إلى الدول الأوروبية وإيغالها بسبب ذلك في التحكم الجائر على دول الإسلام والتدخل بشؤون المسيحيين في المشرق تداخلا مزوجاً بالأغراض السياسية ، مبنياً على القسوة والجبروت في مناوأة دول الإسلام مع ما يضاف إلى هذا من دس الدسائس للتغدير بالمسيحيين في مناوأتهم لمجاورهم المسلمين والخروج على الحكومة الإسلامية يدعوى التظلم من جور الحكام الظالمين ، حتى أصبحت المملكة العثمانية منذ قرن تقريباً كيدان حرب تباع فيه أرواح المسلمين والمسيحيين بلاجريرة ولا لثم إلا الجهل الذي يزوجهم في غمار الفتن خدمة لمصلحة الدول الأوروبية على غير علم بمن يخدمون ، ومن ثم كان المستول عن بث روح الجفاء والتعصب في نفوس المسلمين هم قادة المسيحية وساستها وحملتها كتابها لا المسلمون أنفسهم .

أجل وقد وجد في بعض العصور الإسلامية ناس من علماء الدين الإسلامي متعصبون تناسوا وصايا نبيهم وخلفائه الراشدين بأهل الذمة ، لكنهم أفراد من أهل العلم الناقص لا يبنى على عملهم حكم ، وإنما تطرق إليهم ذلك التعصب من بعض مذاهب الشيعة الذين يتأولون الآيات بما يوافق مذهبهم الباطل سائحهم الله وهداهم ، ومع هذا فلن يبلغوا مبلغ علماء الدين المسيحي من التعصب ضد الإسلام والمسلمين ، كما أنه وجد حكام تعسفوا في الحكم وآذوا أهل الكتاب فسلبواهم كثيراً من مزايا التمتع بحسن المجاورة والمعاشرة مع المسلمين ، لكن أولئك قوم قد نزع الله الرحمة من قلوبهم وقصرت على مدارك العدل مداركهم فكان المسلم والذمي في جورهم سواء ، ولقي ويلقى المسلمون منهم من البلاء أكثر مما يلقي المسيحيون ؛ على أن الدول الأوروبية لو تركت المسلمين وشأنهم مع مواطنيهم من المسيحيين ، ولم تنفث فيهم سم التنافر والجفاء لوجدوا لأنفسهم سبيلاً للراحة ومندوحة عن تحمل الظلم والعناء .

ومع هذا فإن جور بعض الحكام لا يعتبر أساساً في نوع الحكم والحكم في معاملة الذمى في الإسلام هو ما رأيت مما مر في هذا الفصل ، من عناية الخلفاء بالكتبايين ووصاياهم بأهل الذمة والعهد ، وإذا قابلنا بين هذا الحكم وبين الحكم في معاملة المسلم عند الدول المتعدنية المسيحية في هذا العصر لرأينا الفرق واضحاً والتباين بينهما فاضحاً ، إذ أن الإسلام لم يأت بقانونين متباينين لحكم الأمم الغالبة والمغلوبة ، وإنما أتى بقانون واحد للناس كلهم في شرعه سواء ، وأما قوة الغلب التي أتيجت في العصور المتأخرة للدول المسيحية ، فقد نزعت من قلوب زعمائها كل حنان ورحمة في معاملة المسلمين معاملة القوى القاهر للضعيف المغلوب ، حتى بلغ بتلك الدول أن جعلن وزارة المستعمرات منفصلة عن جسم الحكومة الوطنية تدير شؤون رعيتهما فيها على أساس العنف والاستبداد ، وإن كانت تدار شؤون أمتها الغالبة على أساس الدستور والعدل وحسبك من هذا أن دولة فرانس التي توسعت في هذا العصر بدعوى الإنسانية والعلم والخيرية أصبحت أشد الدول المسيحية وطأة على رعاياها المسلمين ، ونزع الفرنسيون في الجزائر منازع القوة والجبروت فانتزعوا من المسلمين أراضيهم وأملاكهم وأوقافهم ، وحجروا على حرية التعليم عندهم واستبدوا في أموالهم وأرواحهم ، حتى باتت الجزائر في حالة من الضنك والفقر والجهالة ينفرط لها القلب ، وحتى كانت الدولة الفرنسية أبغض الدول إلى المسلمين في هذا العصر ، ويتلوها في المرتبة هولاندا في معاملتها القاسية لمسلمي الجاوى ، ويتلوها النمسا في معاملتها لمسلمي البوسنة والهرسك ، ويتلوها الروسية وحكومات البلقان ، وهكذا كل دولة أوربية لها نصيب من ظلم المسلمين وتعتهم ، ومع أن دولة انكلترا هي أخف الدول المسيحية وطأة على المسلمين وأسدهن سياسة في المستعمرات وأطلقهن لحرمة التعلم والتلك والمتاجرة والدين في مستعمراتها الشرقية ، سواء كانت إسلامية أو غير إسلامية ، إلا أنا نرى بين الحكومة

الانكليزية في حكمها في البلاد الشرقية وبين الأمة الانكليزية في معاملتها الشرقيين بونا شاسعاً وفرفراً عظيماً إذ بينا نرى أساس الحكم الانكليزي في الأمم الخاضعة له خارج الجزيرة البريطانية مبنياً على ما تقدم من حسن السياسة نرى من وجه آخر أفراد الأمة الانكليزية يمتنون الشرقي امتناناً لا يطيقه بشر بل لا يجوز صدوره عن بشر، ويغالون في حب الذات إلى حد يكاد يفض للمسلمين وغيرهم من المحكومين لتلك الأمة ذلك الحكم الانكليزي مهما بلغ من العدل ومن أغرب ما رأينا في الجرائد من هذا القبيل أن أحد أمراء الهند الكبار مر على مدينة رأس الرجاء الصالح في أفريقيا الجنوبية من عهد قريب فلم يتيسر له النزول في فندق من فنادق تلك المدينة لأنها كلها تضيف الإنكليز ، ولا سيبل لشرقي مهما كان مقامه أن يدخل مكاناً فيه رجل لإنكليزي بل الإنكليز هناك يأبون أن يروا معهم حينئذ كانوا رجلاً من الشرقيين ورأينا من أمثال هذه الحادثة في الجرائد مما يدل على التناهي في الجبروت والإغرام في حب الذات (١) .

فأين ما تعامل به المسلمون الدول الأربية في هذا العصر الذي دالت به

(١) بعد كتابة هذا الفصل أطلعنا في العدد ٣٥٨١ من جريدة المؤيد الصادرة يوم الأحد غرة ذي القعدة (١٣١٩) على رسالة من دربان تنال في أفريقيا الجنوبية يقول المراسل فيها مانصه . أرسلت لكم نسخة من حريدة (مكرى) المطبوعة في تنال في (بورتليريت) وهي أن المؤذن بينا كان واقفاً على رأس منارة عالية يؤذن فلم يشعر إلا وطاق ناراً أصابه من يد أحد المتمدنين الإنكليز لأنه أزعجه بصوته فسقط المؤذن على أم رأسه أجزاء متفرقة قضت تحبها في هويها (كذا) وقد قبض على الجاني وهيها أن يلقي عقاب الموت لأنه لم يمهّد أن إنكليزياً يقتل في وطني بهذه الديار ولا في الشرق كله ، ثم ذكر حادثة أخرى وقعت لإمام هذا الجامع يأبى القلم أن يسود بذكرها صفحت هذا الكتاب .

لهن الدولة وأتيح لهن الغلب على الأمم مما كانت تعامل به دولة المسلمين في إبان مجدها وأيام فتوحها رعيتهما من المسيحيين ، وأين ماعامل به عمر بن الخطاب ومن بعده من الخلفاء أهل الكتاب من النجراتيين مما تعامل به دولة فرانسسا مسلمي الجزائر الذين لم يبق لهم أرض ولا مال ، ونزع ذلك منهم الفرانسايون بلا عوض ولا حق ولا عدل .

لا جرم أن الحق والعدل والإنصاف يقضى على حملة الدين المسيحي الذين كانوا يصورون المسلمين في صورة وحش ضار أن يصوروا التمدن الأوربي وأهله في أقبح صور الحيوانات ، وأخس لباس التوحش والهمجية بعدما بسطناه من المقابلة بين حكم الإسلام في المسيحيين وحكم التمدن في المسلمين ، ومن العار على هذه المدنية أن تصل إلى أرقى درجات الزهو بالمظاهر والصور وهى تنحط إلى دركات التسفل في الأخلاق والتثنائي عن الرحمة والبعد عن فضيلة النفس ، فتتنقض بأهلها على المسلمين انقضاض الجوارح على فريستها الضعيفة ، ولا ذنب لأولئك المسلمين إلا كونهم كانوا أمة عزيزة بجانب قوية السلطان ، فأتاح الله لهم وسائل الغلبة على الأمم وبسط جناح السلطان على جزء عظيم من الأرض ، حكموا أهلها بالعدل وساسوا رعيتهم بقاعدة الإخاء والمساواة . وأحيوا تمدن الرومان واليونان ونشروا على الممالك نور المدنية والعلم ، حتى إذا دالت بحكم تنازع البقاء دولتهم ، وانطفأ مصباح مدنيتهم ، واختل نظام ملكهم ، بتغلب شهوات أمرائهم وجعل قادتهم أصبحوا في نظر الدول الأوربية ذات الغلب عليهم لا يستحقون الرأفة ولا يجازون بغير الظلم والاستعباد ، إن هذا لشئ عجاب .

يقول الأوربيون إن المسلمين أمة نفخ فيهم روح التعصب والجفاء والبغض لمن لا يدين بدينهم من الناس ، وهو قول مبنى على الاستقراء

الناقص عند الباحثين ، وعلى الغرض أو التعصب الذمى عند السياسيين ، وعامة القائلين بهذا القول ، وإنما تسلط هذا الوهم على عامة الأوربيين لما كان يكتبه عن الإسلام رؤساء الدين المسيحى فى أوروبا فى القرون المتوسطة من الأضاليل التى كانوا يريدون بها إيقاف تيار الإسلام ، ومن ثم أصبح الأوربيون حتى هذا العهد كأنما هم فى عالم والإسلام فى عالم آخر . لم يتحققوا من أمره وأمر أتباعه شيئاً فى الدين والأخلاق ولو بحثوا عن ذلك أقل بحث مجرد عن الغاية السياسية أو التعصب لأدركوا خطأهم ببداهة الحس ، إذ أن قوماً مضى عليهم ثلاثة عشر قرناً وهم باسطون جناح السلطان على قسم عظيم من الأرض يقطنه ملايين من المسيحيين ، يتمتعون إلى الآن بسائر ما يتمتع به الوطنى فى وطنه لقوم تشهد لهم ببداهة التاريخ بأنهم ألزم الأقوام لأدب الجوار ، وأبعدهم عن تحكم الغلب ، وجبروت السيادة الذى يظهر من كل فاتح عظيم .

آن للأوربيين أن يمزقوا عن بصائرهم حجب الغرض والوهم ، ويعلموا أن الإسلام يأمر أهله بالتآلف وحسن المعاشرة والجوار ، ومحاسنة من أحسن إليهم ، والأتخاشنوا إلا من خاشنهم وأراد امتنانهم ، وأن المسلمين بما فطروا عليه من كرم الأخلاق وجميل المعاشرة أعظم الناس اعترافاً بالجميل ، ورضاً بالقضاء وميلاً للفضيلة ، وقد قضى جهل أمر أنهم بتقلص ظل سلطانهم السياسى عن معظم ممالكهم الشاسعة فدالت دولة المشرق للغربيين ، فإذا حكمهم هؤلاء بالعدل وساسوهم بالرأفة ، وعاملوهم معاملة النظير . امتلكوا قلوبهم واستأنسوا نافرهم واستفادوا من إخلاصهم ، كما تستفيد الآن دولة انجلترا من إخلاص المسلمين الذين تحت حكمها لإطلاقها لهم حرية الفكر والدين ، ونشرها بينهم أنوار المعارف والعلم وإلا فمن الظلم الفاضح والعار المشين على الدول المتمدينة المسيحية ،

أن تعامل محكوميهام من المسلمين بعكس ما تعامل به الدول الإسلامية حتى هذا اليوم
رعايها المسيحيين من منحهم حرية التمتع بسائر ما يتمتع به رعايها المسلمون ،
من الحقوق لاسيما في المملكة العثمانية ومن العيب أن تخط الدول الأوروبية لنفسها
خطة العسف وجب الأثرة والجور في حكمها في المشرق، وترجو مع هذا تمكن
سلطانها في هذا الجزء العظيم من الأرض، وفيه أكثر من خمسمائة مليون من المسلمين
كانت لهم السيادة عليه والسلطان العظيم فيه، ومن الحكمة وحسن السياسة أن
يعوضوا عن هذا السلطان بجميل المعاملة وحقوق الوطنية ، والقرار،
ولو كانوا أمة صغيرة أو شعباً حقيراً لا يؤبه له كهنود أمريكا مثلاً ،
لساغ للدول الأوروبية أن تعاملهم بمشامات من ضروب القسوة والإذلال
حسبما يوحيه لإليها شرع التدين الحديث ، وأما أمة كالمسلمين شأنها ما ذكرنا
فن المحال أن ترضى لنفسها الإذلال وإن طال عليها المطال، والله ولي الرشد
وهو الموفق بين القلوب .

فتوح الشام

علمنا مما مر في الجزء الأول كيف أن الجيوش الإسلامية فلتت جموع
الروم على الأرموك، وذكرنا ثمة ما كان من الخلاف بين المؤرخين في ترتيب
الوقائع التي كانت قبل ذلك إلى فتح دمشق، وفي الحقيقة إن تلاحق الوقائع
التي حدثت بالشام من أوائل السنة الثالثة عشرة إلى أوائل السنة الرابعة عشرة
أوجد اضطراباً في الروايات في ترتيب تلك الوقائع ، واختلافاً بين الرواة
في تعيين الزمن لافي أصل الوقائع بل هذه اتفق عليها ثقات المتقدمين من
رواة تاريخ الفتح الإسلامي كسيف بن عمر الأسدي وابن إسحاق والواقدي،

ومن تلامهم من مدونى التاريخ كابن جرير الطبرى والدينورى وابن واضح وغيرهم من المتقدمين ، وقد استقصى ابن جرير فى تاريخه معظم الروايات الواردة عن المحدثين بأخبار الفتح على اختلافها ، وترك الحكم فيها للنقاد شأن كل المؤرخين فى الإسلام : ونحن نعتمد ما اعتمده المؤرخون بعد فى سرد الوقائع المختلفة فى تعيين زمنها ، لاذ ليس سرد الروايات من الأهمية فى شىء ما دام من الثابت حصول الوقائع ، وما أظن ذلك الاختلاف بين الرواة ناشئاً إلا عن حصول عدة من الوقائع فى آن واحد أوردتها الرواة متفرقة من طرق شتى ، فاختلفت أمرها على المؤرخين وبعض الرواة أو أن تلاحق بعض الوقائع ببعض أوجب ذلك الاختلاف كما ذكرنا قبل ، والعبرة فى كلا الحالين فى تحقيق الخبر لا فى تعيين الزمن كما لا يخفى على بصير .

فتح دمشق وانحياز هرقل إلى حمص

لما انتصر المسلمون فى وقعة اليرموك كان هرقل فى أورشليم وقد جاءها لأجل الاحتفال بعيد تخلص الصليب المقدس الذى استرده من دولة الفرس قبل ذلك ، ولم يكن هو ورجال دولته بموقنين بأن قوة المسلمين تبلغ من كيدهم ما لم تبلغه جيوش دولة الفرس العظيمة ، حتى جاءه خبر انتصار المسلمين فى اليرموك فنبخ قلبه وأسقط فى يده فنظر فرأى أن مقامه فى أورشليم (القدس) خطر عليه ، ولا سيما لاذ انساح المسلمون فى أحشاء البلاد ، فأسرع بالرحيل إلى شمال سورية ولحق بمدينة حمص ليجعلها مقراً لأعماله الحربية ، ومن ثم أخذ يبعث المقاتلة ويذكر العيون ويسرح القوادى إلى مواقف الحرب وسلم أخاه تذارق (لعله تيودور) القيادة العامة وتربص هو فى حمص ، وقد أخذ عليه بعض المؤرخين عدم حضوره الوقائع بنفسه وأنه لو حضرها لكان ذلك أدعى لتشجيع جنوده وأرجى للنصر ، على أن هرقل كان ملكاً حازماً ليس بالجاهل ولا الجبان ، بذلك على هذا ظفروه

قبل حربه مع العرب بالفرس (١) لهذا فلا بد لتخلف هرقل عن جيشه في

(١) كان الفرس غزوا بلاد الروم ودوخوا ممالك الدولة البيزنطية حتى وصلوا الى القسطنطينية وذلك حوالي سنة (٦١٤ م) فأشهر هرقل عليهم الحرب ثانية سنة (٦٢١ م) أى بعد الهجرة بسنة ، واسترد هذه البلاد ، والقصة مشهورة جاءت في القرآن الكريم في قوله تعالى « ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلون في بضع سنين) وحتى بأدنى الأرض أذرعوات وهى أدنى أرض الروم الى العرب وكانت الروم قد هزمت بها في بعض وفائنها ، وكان سبب نزول الآيات أن الذى صلى الله عليه وسلم كان قد ساءه وساء المسلمين ظفر الفرس أولا بالروم ، لأن الروم أهل كتاب وفرح مفركو العرب لأن المجوس أميون مثلهم فلما نزلت هذه الآية راهن أبو بكر الصديق أئني بن خلف على أن الظفر يكون للروم الى تسع سنين مصداقاً لما نزل به القرآن والرهن مائة مئة بدير (ولم يكن الرهن يومئذ حراماً) فظفرت الروم وغلبه أبو بكر وأتى الخبر بظفر الروم النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية وكانت سنة ست للهجرة ، ولذا كانت حملة هرقل على الفرس ابتدأت سنة (٦٢١ م) أو التي بعدها أى قبل الهجرة بسنة واحدة ، وكان الروم غلبوا مرة في هذه السنة فتسكون استمرت هذه الحرب نحو سبع سنين ، وانتهت بظفر الروم مصداقاً لما نزل به القرآن الكريم في قوله تعالى (في بضع سنين) والبضع ما بين الأربعة الى التسعة ، وقد جاء في تواريخ الغربيين ما يؤيد ذلك ، وحاصل ما ذكره عن هذا الحادث ادورد جيون الانكليزي في (تاريخ الامبراطورية الشرقية) أن كسرى أبرويز ملك الفرس غزا بجيوشه مملكة الرومان الشرقية « البيزنطية » في سنة « ٦١٤ م » لأسباب لا محل لذكرها هنا فدوخ سورية ومصر وآسيا الصغرى ، حتى وصل الى حدود القسطنطينية ، ولما رأى الإمبراطور هراكليوس « هرقل » ذلك الخطر المحدث بعاصمته خفى لأن هو حارب الفرس قريبها أن تسقط في أيديهم ، فجهز أسطولاً عظيماً شحنته بالمقاتلة والمؤن وخرج به في سنة « ٦٢٢ م » من القسطنطينية حتى بلغ هلسبون « جنات قلعه » ومن ثم نحر الأسطول في عباب البحر الأبيض حتى انتهى الى الإسكندرون بعد معاناة نصب شديد في البحر ، وهناك رأى هرقل في جون الاسكندرون مرسى أميناً لسفنه لا يصل اليه كيد البحر ولا كيد العدو ، فأمر بأن ترسو فيه السفن وأنزل الجنود الى حدود سورية وكيليكية « ادنه » ورتب معسكره قرب أسس في السهل الذي انتصر فيه الإسكندرامقدوني على ملك الفرس « وهو سهل الإسكندرون » ، وأخذ يدرج جنوده على فنون الحرب ومهيتهم للطعن والضرب ، ولما علم بذلك الفرس تكفأوا لقتاله من داخل البلاد فاتصر عليهم بحسن تدبيره الحررى ، ومزق جموعهم كل ممزق ثم جهز عليهم حملة ثانية ، وما زال بهم حتى أجلاهم عن مملكته ولما كانت سنة ٦٢٨ م استقر الصلح بين الفريقين وكانولى ملك فارس كسرى ازدشير بعد أن قتل أباه أبرويز فصالح هرقل على أن تعاد تحوم المملكتين الى أصلها اهـ . وجاء في تاريخ الكامل لابن الأثير ما يطابق معنى ما ذكره جيون وفيه زيادة تفصيل .

حرب المسلمين من عذر اضطره لهذا التخلف ، ولعله لما رأى منهم شدة اليأس والدربة على الحرب وحسن السياسة في البلاد التي افتتحوها وشعر بميل السوريين إليهم وتألفهم من جور الحكام الروميين خامر نفسه شيء من اليأس من إمكان دفع المسلمين عن البلاد ، ولا سيما أن الحرس الروماني في البلاد السورية لم يكن في عدد كاف لحماية البلاد وإنما كان حملتها من العرب المنتصرة ، ومن نفس سكان البلاد الذين كانوا خليطاً من السريان والعرب واليهود والروم ، وإذا صح هذا الظن فلا يؤخذ هرقل على انحيازه إلى حمص وتباعده عن مواقع القتال أخذاً بالحيلة لنفسه وتمسكاً بأسباب النجاة إذا ظفر المسلمون بجنود الروم وانكشفوا على شمال البلاد .

لم يكن المسلمون يومئذ على ما عهد فيهم من البداوة جاهلين بأحوال البلاد غير خبيرين بقوة أهلها وطرقها ومسالكها ، بل كانوا على بصيرة من أمرهم ووقوف على مبلغ قوة عدوهم بمن كان فيهم من سادات قريش الدين اختبروا حالة البلاد في الجاهلية باختلافهم إليها للمتاجرة ، لهذا أعدوا لهذه الحرب عدتها من التدريب والأناة وحسن البصيرة في ترتيب الجيوش وقيادتها ، يضاف إلى هذا ما يصاحب عامة المقاتلين من الشجاعة العربية وكمال الإيمان وعدم الرهبة من الموت في سبيل نصرته الإسلام وتعميم دعوة القرآن . لهذا فلا يتوهم من متوهم من بداوة أولئك الفاتحين الشجعان أن خروجهم مع الروم أو الفرس كانت همجية في غير نظام ولا ترتيب بل إنهم كانوا على أحسن ما يكون من البصيرة بأمر الحرب ، يعلم هذا من دقق النظر في كيفية هروبهم مع الروم في الشام وكيفية قيادتهم للجيوش وتبصرهم في تدوين البلاد كما سيأتي بيانه في غضون الكلام على فتح دمشق وغيرها ، وسنفرد له فصلاً خاصاً نفصل فيه الكلام على ذلك أحسن تفصيل إن شاء الله تعالى ،
وها نحن ذا كرون هنا كيفية مسير المسلمين إلى دمشق بعد اليرموك نقلاً عما

ذكره الطبري من رواية سيف ، وذلك ببعض تصرف واختصار قال .

لما هزم الله جند اليرموك وتهاقت أهل الواقصة وفرغ من المقاسم والأنفال وبعث بالأنخاس وسرحت الوفود ، استخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب بن أبي الخير كى لا يغتال بردة ولا تقطع الروم على مواده^(١) ، وخرج أبو عبيدة حتى نزل بمرج الصُفَر وهو يريد اتباع الفألة ولا يدري يجتمعون أو يفترقون ، فأتاه الخبر بأنهم اجتمعوا بفحل وأن المدد قد أتى أهل دمشق من حمص ، فهو لا يدري أبادمشق يبدأ أو بفحل من بلاد الأردن ، فكتب في ذلك إلى عمر وانتظر الجواب وأقام بالصفر ، فلما جاء عمر فتح اليرموك أقر الأمراء على ما كان استعملهم عليه أبو بكر إلا ما كان من عمرو بن العاص وخالد بن الوليد ، فإنه ضم خالداً إلى أبي عبيدة وأمر عمر أ بمعونة الناس حتى يهvir الحرب إلى فلسطين ثم يتولى حربها .

ولما انتهى كتاب أبي عبيدة إلى عمر بالذى ينبغي أن يبدأ به كتب إليه أما بعد فابدءوا بدمشق فانهبوا لها فإنها حصن الشام وبيت ملكتهم وأشغلوا عنكم أهل لخل بخيل تكون يازاتهم في نحورهم ، وأهل فلسطين وأهل حمص ، فإن فتحها الله قبل دمشق فذاك الذى نحب ، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فليززل بدمشق من يمسك بها ودعوها ، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على لخل ، فإن فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص ودع شرحبيل وعمرأ وأخلها بالأردن وفلسطين وأمير كل بلد وجند على الناس ، حتى يخرجوا من إمارته .

فسرح أبو عبيدة عشرة قواد أبا الأعور السلمي وعبد عمرو بن يزيد ابن عامر الجرشي ، وعامر بن حثمة ، وعمرو بن كليب من يحصب ، وعمارة ابن الصعق بن كعب ، وصيفى بن علبة بن شامل ، وعمرو بن الحبيب بن

(١) أى كى لا تقطع عليه خط المواصله على الإصلاح المعروف الآن فى فن الحرب .

عمرو ، وابدة (أو وليدة) عامر بن خثعمة ، وبشر بن عصفمة ، وعمارة ابن مخش (أو مخشى) قائد الناس ، ومع كل رجل خمسة قواد ، وكانت الرؤساء تكون من الصحابة حتى لا يجدوا من يحتمل ذلك منهم ، فساروا من الصفر حتى نزلوا قريباً من فحل ، فلما رأت الروم أن الجنود تريد منهم بثقوا المياه حول فحل فاردغت الأرض ثم وحلت ، واغتم المسلمون من ذلك وحبس من فيها عن المسلمين ، وكان أول محصور بالشام أهل فحل ثم أهل دمشق .

وبعث أبو عبيدة ذا الكلاع حتى كان بين دمشق وحصص رداء .
وبعث علقمة بن حكيم ومسروقاً فكانا بين دمشق وفلسطين ، والأمير يومئذ يزيد بن أبي سفيان^(١) ، فقدم خالد بن الوليد وعلى بجنبتيه عمرو وأبو عبيدة ، وعلى الخليل عياض ابن غنم ، وعلى الرجال شرحبيل بن حسنة فقدموا على دمشق ، وعلى الروم نسطاس ابن نسطوس (وفي رواية باهان) فحصروا أهل دمشق ونزلوا حولها . فكان أبو عبيدة على ناحية ، وعمرو على ناحية ، وخالد على ناحية ويزيد على ناحية ، وهرقل (هراكليوس) يومئذ بمحصص ، فحاصروا أهل دمشق نحو أربعين ليلة حصاراً شديداً بالزحف والترامى والمجانيق ، والروم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث ، وذو الكلاع بينهم وبين حصص يمنع عنهم المدد ، وجاءت خيول هرقل مغيثة لأهل دمشق ، فأشبهتها الخيول التي مع ذي الكلاع وشغلتها عن نصرة الدمشقيين ، فلما أيقن أهل دمشق أن الأمداد لا تصل إليهم فشلوا ووهنوا ، وقد كانوا يظنون أنها كالغارات قبل ذلك إذا هجم البرد قتل المسلمون فسقط النجم والقوم مقيمون ، فعند ذلك انقطع رجاؤهم ، وندموا على دخول دمشق ، وفي غضون ذلك ولد للبطريرق الذي على أهل دمشق مولود ، فأعد للقوم ولية فأكلوا وشربوا

(١) يعني أنه أمير على حرب دمشق .

وغفلوا عن موافقهم ، ولا يشعر بذلك أحد من المسلمين ، إلا ما كان من خالف فإنه كان لا ينام ولا ينيم ولا يخفى عليه من أمورهم شيء ، عيونه ذاكية ، وهو معنى ما يليه قد اتخذ حبالا كهيئة السلاليم ، وأوهاقا ، فلما أمسى من ذلك اليوم نهضوا من معه من جنده الذين قدم بهم عليهم ، وتقدمهم هو والقعقاع ابن عمرو ومذعور بن عدى وأمثاله من أصحابه ، وقالوا إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا إلينا وانهدوا للباب ، فلما انتهى إلى الباب الذي يليه هو وأصحابه المتقدمون رموا بالحبال الشرف وعلى ظهورهم القرب التي قطعوا بها الخندق ، فلما ثبت لهم وهقان تسلق القعقاع ومذعور وأثبتا الأوهاق بالشرف ، فتسلق خالد وأصحابه ، وكان المكان الذي اقتحموا منه لإحصن مكان يحيط بدمشق ، وأشدّه مدخلا ولما استووا على السور حذر خالد عامة أصحابه وانحدر معهم ، وخلف من يحمي ذلك المكان لمن يرتقى ، وأمرهم بالتكبير فكبر الذين على رأس السور ، فهذه^(١) المسلمون إلى الباب ومال إلى الحبال بشر كثير فوثبوا فيها ، وانتهى خالد إلى أول من يليه فأناهم وانحدر إلى الباب فقتل البوابين ، ونار أهل المدينة وفزع الناس ولا يدرون ما الشأن وتشاغل أهل كل ناحية بمن يليهم ، وقطع خالد بن الوليد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف وفتحوا للمسلمين فأقبلوا عليهم من داخل ، حتى ما بقي مما يلي باب خالد مقاتل إلا أنهم ، ولما شد خالد على من يليه وبلغ منهم الذي أراد عنوة اجتمع من أفلت إلى أهل الأبواب التي تلي غيره ، وقد كان المسلمون دعوهم إلى المشاطرة فأبوا وأبعدوا وجاموا الآن يبذلون لهم الصلح فأجابوهم وقبلوا منهم وفتحوا لهم الأبواب ، وقالوا ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب ، فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ، ودخل خالد مما يليه عنوة ، فالتقى خالد والقواد في وسطها ، هذا استعراضا وانتهايا وهذا صلحا وتسكينا ،

(١) في القاموس نهض الرجل نهض ولعدوه صمد لهم .

فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح فصار صلحاً ، وكان صلح دمشق على المقاسمة الدينار والعقار ودينار عن كل رأس ، فاقسموا الأسلاب فكان أصحاب خالد فيها كأصحاب سائر القواد ، وجرى على الديار ومن بقى في الصلح جريب حنطة من كل جريب أرض . ووقف ما كان للهلك ، ومن صوب معهم فينا^(١) ، وقسموا لذى الكلاع ومن معه ، ولأبي الأعور ومن معه ، ولبشير ومن معه (وهم القواد الذين أرسلهم أبو عبيدة ليحولوا بين دمشق والأمداد) وبعثوا بالبشارة إلى عمر ، وقدم على أبي عبيدة كتاب عمر أن اصرف جند العراق إلى العراق ، فسرهم وهم عشرة آلاف وعليهم هاشم بن عتبة ومعه القعقاع بن عمرو .

وذكر البلاذري في سبب فتح دمشق غير ما تقدم من رواية الطبري ، وقال إن فتحها كان بمائة الأسقف الذي كان أعطاه خالد عهداً وأماناً على دمشق حين مروره عليها في أول مجيئه الشام ، وذلك بأن أرسل إليه الأسقف بعض أصحابه ، وأعلمه بأن القوم في عيد لهم وأن الباب الشرقي ردم وليس عليه أحد من الحرس ، (وقد مرت حكاية هذا الأسقف وصورة الكتاب في سيرة خالد بن الوليد) وأن خالداً لما دخل المدينة كان أبو عبيدة دخلها من باب آخر عنوة ، فالتقيا في دخولها بالمقسط وهو موضع النحاسين بدمشق وهو البريص الذي ذكره حسان بن ثابت في شعره حين يقول :

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

(١) الفاء هو ما نيل من المحارب بعد وضع الحرب أوزارها وصيرورة داره دار لمسلم وهو الجزية وعشر التجارة وما يصلح عليه من المال، وحكمه أن يكون لسائر المسلمين فيه نصيب، وقد فصلنا الكلام على هذا تفصيلاً في صكتنا (تنبيه الأفهام إلى مطالب الحياة الاجتماعية والإسلام) وبيننا ثمة أن ما ترى له من مقاصد الاشتراكين في هذا العصر متفقهم له الإسلام، لكن على وجه معقول لا يصادم أحكام العقل والحس .

ولا يخفى ما فى هذه الرواية من الوهن لأن الصحيح الثابت فى الأخبار أن أبا عبيدة لم يدخل دمشق عنوة بل دخلها صلحاً .

وقد اتفق كثير من الرواة والمؤرخين على أن الذى تولى عقد الصلح مع الدمشقيين هو خالد بن الوليد ، وأمضاه له أبو عبيدة بعد أن أطلعه على كتاب عمر ، بعزله عن إمارته ، ومن ذكر هذا الطبرى فى روايته عن ابن إسحق والبلاذرى فى تاريخه فتوح البلدان ، وفى هذا ما يدل على أن خبر عزل خالد لم يأت وهم على اليرموك بل إنما أتى وهم على دمشق أو مرج الصفر ، وكتبه عنه أبو عبيدة ريثما تم الفتح ، وفى حكاية قيام المسلمين من اليرموك وتربصهم فى الصفر فى انتظار كتاب عمر بالذى ينبغى أن يبدؤوا به ما يستنتج منه ترجيح ورود الكتاب بعزل خالد وهم على الصفر ، والله أعلم .

وأما صلح أهل دمشق فقد كان كما مر فى رواية الطبرى على دينار على كل رأس ، وجرب من الخنطة على كل جرب من الأرض ، وعلى المقاسمة على العقار والدينار على أن هناك ما يوهن رواية من روى أمر المقاسمة ، فقد جاء فى كتاب كتبه عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح ما نصه (وأما الخنطة والشعير التى وجدتوها فى دمشق وكثرت مشاجرتكم عليها فهى للمسلمين ، وأما الذهب والفضة ففيهما الخمس) وهذا يدل على أن المسلمين اختلفوا فى هل يشاطرون الدمشقيين على نهف ما وجدوه عندهم من الدينار والدرهم ، فكتب أبو عبيدة يستشيرهم فى الأمر ، فأمره بأخذ خمس الفضة والذهب فقط ، وسيرد معنا هذا الكتاب بمجملته فى باب كتبه إن شاء الله .

وقال البلاذرى فى فتوح البلدان ما نصه « زعم الهيثم بن عدى أن أهل دمشق صولحوا على أنصاف منازلهم وكنائسهم ، وقال محمد بن سعد قال

أبو عبد الله الواقدي قرأت كتاب خالد بن الوليد لأهل دمشق فلم أر فيه أنصاف المنازل والكنائس ، وقد روى ذلك ولا أدري من أين جاء به من رواه ، ولكن دمشق لما فتحت لحق بشر كثير من أهلها بهرقل وهو بأنطاكية فكثرت فضول منازلها فنزلها المسلمون : انتهى ما نقله البلاذري من قول الواقدي ويؤيده كتاب خالد بن الوليد الذي أعطاه لأهل دمشق وفيه الأمان على كنائسهم ودورهم لا يسكن منها شيء ، وقد مررت صورة الكتاب في سيرة خالد على أنه سواء صحت هذه الرواية أو الرواية الأولى ، فإن المسلمين أجروا نصف كنيسة ماريوحنا مجرى الصلح ، والنصف الآخر مجرى السيف ، وهو النصف الشرقي الذي يلي الباب الذي دخل منه خالد ابن الوليد وجعلوه مسجداً لهم ، وما زال كذلك حتى أيام الوليد بن عبد الملك ، فاشترى النصف الآخر منهم وجعله كله جامعاً لم يزل يعرف لهذا العهد بجامع بني أمية ، وسيأتي الكلام عليه في سيرة الوليد إن شاء الله .

وأما باقى كنائس دمشق فالمعروف أنه كان منها بيدهم بعهد من المسلمين إلى خلافة عمر بن عبد العزيز خمس عشرة كنيسة ، وروى البلاذري أن بعضهم أقطع كنيسة منها لبنى نصر ، فردها عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى النصارى ، هذا وأما الجزية فإنها كانت في بادئ الأمر ديناراً على كل رأس كما علمت مما تقدم ، ثم عدلها عمر بن الخطاب رضى الله عنه فجعلها على ثلاث طبقات على الغنى بنسبة غناه ، والمتوسط بنسبة توسطه ، والفقير بنسبة فقره .

إلى هنا انتهى ما أحببنا إيراده من الخبر عن فتح دمشق التي كانت أم المدن السورية ، ومهد الصناعة الشرقية ، وزهرة البلاد ، وازدادت بعد الفتح الإسلامى ، لا سيما في عهد الأمويين مجدداً على مجددها ، وعمرانا على عمرانها وأما ولايتها بعد الفتح فقد صارت إلى يزيد بن أبي سفيان ، ثم إلى أخيه

معاوية ، ثم قدر لها أن تكون بعد ذلك عاصمة ذلك الملك الإسلامى العظيم الممتد من حدود الهند فى الشرق ، إلى شطوط الإطالاتيك فى الغرب ، على عهد الأمويين لاعاصمة سورية وحدها ، وسيأتى الكلام على هذا فى محله إن شاء الله .

وقد اختلف المؤرخون فى الزمن الذى افتتحت به دمشق ، فروى بعضهم أنها فتحت فى أواخر سنة ١٣ للهجرة ، وبعضهم قال فى أوائل المحرم افتتاح سنة ١٤ ، وبعضهم قال لأنها فتحت فى رجب من هذه السنة ولعله الأصح .

بطلونه خبر :

سألتى بعضهم عن حكاية وآها فى تاريخ إنكليزى ، وهى أن خالد بن الوليد لما افتتح دمشق صالح أهلها على أن من يريد منهم الجلاء يمل بعد سفره ثلاثة أيام إذا مضت وأدركه المسلمون فدمه مهدور ، وأن أهل دمشق جلوا وتبعهم المسلمون بعد ثلاثة أيام فقتلوه ، ولا يخفى مافى هذه الحكاية من العار على المسلمين يومئذ فيما لو صح عنهم مثل هذا الخبر أنهم كانوا أوفى الأمم الفاتحة بالعهد وأبعدهم عن مثل هذا الظلم الذى ياباه دينهم وتمنزه عنه شيمهم العربية ، وأخلاقهم الفطرية ، فبحثت عن هذا الخبر فيما دونه رواة الأخبار من المتقدمين كالطبرى والبلاذرى وابن واضح المعروف باليعقوبى ، وفى تواريخ المتأخرين كتاريخ ابن الأثير الذى هو أوثق التواريخ ، فلم أجدها لهذا الخبر من أثر ، وإنما رأيته فى بعض تواريخ معاصرنا من المسيحيين ، كتاريخ سورية للجرجى افندى بنى وتاريخ الوافى لأمين افندى شميل ، وكلا التاريخين وإن كان مؤلفاهما عربيين إلا أن عبارتهما تدل على أن مافى التاريخين مترجم عن لغة أعجمية لم تذق طعم العربية البتة ، وأن المؤرخين كانا أبعد الناس عن تحقيق أمثال تلك الحوادث من كتب

التاريخ العربية الوثيقة التي لم تغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أنت على ذكرها تفصيلا في البعض وإجمالا في البعض الآخر ولم تغفل حادثة من أدنى حوادث الفتح ، فكيف تغفل مثل هذه الحادثة ، ولعل بعض مؤرخي الأوربيين الولهين بالبحث عن مساوى المسلمين وستر محاسنهم التقطوا ذلك الخبر من كتب المغازى والقصاصين ، كفتوح الشام وأمثاله من الكتب التي هي أبعد عن الثقة وأقرب للخلط والخبط منها إلى التاريخ ، أو عن كتب مؤرخي الروم وهي لا تخلو عن لغو القول والمبالغة في ذم الفاتح بالطبع .

على أنه مما يوهن أساس هذه الفرية ويدل على بطلان هذا الخبر ما قاله بعض مؤرخيهم من أن المسلمين أدركوا أولئك الناس وراء اللاذقية وفتكوا بهم بعد انقضاء الأجل (وكان بزعمهم ثلاثة أيام) ، ومن البديهي أن البلاد يومئذ كانت كلها دار حرب . وكانت الجنود الرومانية والسورية كلها مرابطة في البلاد واقفة على قدم الأهبة لصد المسلمين الذين لم تكن سلطتهم بعد تجاوزت دمشق وحوران ، والناس واقفون لهم على قدم الأهبة في كل مكان لما يتوقعونه من انكفائهم على البلاد بعد فراغهم من دمشق ، فكيف يتيسر لسرية منهم أن تقتحم البلاد إلى ما وراء اللاذقية ، وهذا حال أهلها من اليقظة والاستعداد ، وما الحامل لجند المسلمين على تتبع أثر قوم لهم عليهم عهد وميثاق ، فإذا قيل الطمع فيقال إن أمامهم البلاد لم تزل فسيحة الأرجاء ، كثيرة الغنائم والخيرات ، وليس فيهم من يشك بمصير البلاد وأهلها وكنوزها إليهم في أقرب آن ، وإن قيل غير ذلك من نحو التعصب أو الظلم أو غيره ، فيقال إن التاريخ يبرىء تلك العصاة المؤمنة بكتاب الله . الأمر بالعدل الناهي عن الظلم عن أمثال تلك المساوىء الشائنة ، وقد مر معنا في هذا التاريخ ما يدل على ترفع أولئك القوم الفاتحين عن الخسائس ، التي قضى عليها نظام دينهم الجديد وشرعهم المستقيم ، وعدا هذا كله فإن الفاتحين مهما بلغ بهم فساد (١٥ — أشهر مشاعر الإسلام)

الأخلاق والظلم فالسياسة تقضى عليهم بالجمالة والرفق مع القوم المغلوبين ،
ريثما يتم لهم الفتح ، والعرب يومئذ قد كان فيهم من القواد المحنكين مثل أبي عبيدة
وعمر بن العاص و خالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان ، فكيف يمكنون
جندهم من امتيان مثل ذلك المنسكر والبلاد على وشك الفتح ، وينبغي للمسلمين
أن يتألفوا قلوب أهلها بحسن المعاملة وجميل المعاشرة ، مع أن العرب لم يكونوا
في جاهليتهم مع شهرتهم بسفك الدماء ومثابرتهم على الغزو يعرضون للنساء
والأطفال بالقتل ، فكيف بهم في الإسلام وقد حرم عليهم سفك الدماء
ظلماً أن يعرضوا لأولئك المساكين بالقتل ، وربما كان معظمهم من النساء
والأطفال ، إن هذا لما تأباه نفوسهم العربية وتمنعهم منه المروءة والدين ،
إذن فذلك الخبر باطل من كل الوجوه ، وإذا ورد في كتب مؤرخي الروم
فصدره الغرض ، وإذا ورد في كتب القصاصين فصدره الجهل ، ولا يشك
في هذا عاقل البتة .

هل كانت دمشق قاعدة للغسانيين :

سبق لنا في التمهيد الذي قدمناه في الجزء الأول عند الكلام على فتوح
الشام أن قلنا على سبيل الاستنتاج إن معظم ولاية الشام كانت على عهد الفتح
في أيدي العرب وأنه كانت عليهم حماية البلاد وإليهم ينتهي نفوذ الكلمة
والسلطان إلى أن قلنا (والظاهر أن دمشق نفسها كانت عربية يومئذ بدليل
أنها كانت تحت الحرث الغساني أحد ملوك بني غسان على عهد الفتح
الإسلامي فهي إذن عاصمة ذلك الملك العظيم الممتد منها إلى الشمال والشرق
حتى البادية ، ومن الجنوب والجنوب الغربي حتى الحجاز والعقبة وكله كان
مأهولاً بالعرب)

وقد التمسنا في ذلك الجزء من أهل الفضل والعلم أن يتكرموا علينا ببيان
مواضع الخطأ فيما ننقله أو نرتتيه في كل جزء لنبادر إلى إصلاحه في الجزء

الذى يليه ، فكان ممن أجاب ملتبسنا الفاضل المدقق جورجى افندى زيدان فى مجلته (الهلال) الغراء فأخذ علينا ذلك القول بعبارة تدل على كمال أدب وفضل ، وتنبىء عن سعة فى الاطلاع ، وميل عرفناه به للتحقيق ، ومؤدى انتقاده على بهذا الصدد أن العرب لم يكونوا يومئذ إلا فى البادية وحوران ، وأن دمشق لم تكن تحت بنى غسان ، بل كانت حاضرة ولاية يحكمها ولاية من قبل القياصرة ، وأن حاضرة بنى غسان كانت بصرى فى حوران ، وأنه لم يقرأ أن أحداً من ملوك غسان أقام فى دمشق أو تولى حكومتها ، إلا إذا كنا اطلعنا على نص لم يطلع هو عليه وأن عرب الشام لم يكونوا إلا آلة بيد الروم يسوقونهم لقتال عرب العراق والفرس عند الحاجة ، وليسوا فى المسكنة التى وصفناهم بها ثمة : ونحن مع شكرنا لإحلال صديقنا الفاضل كتابنا محل النظر والانتقاد ، وإقرارنا بالعجز عن بلوغ شأو المحققين فى التاريخ نجيبه بما يلى .

بنينا ذلك الاستنتاج ثمة على مارواه الطبرى من أن خالد بن الوليد لما جاء من العراق لنجدة المسلمين بالشام ، فتح كل ما مر عليه فى البلاد فى مروره على القلمون الأسفل وكان آخر فتحه مما يلى دمشق (قسم) ، وقاتل فيها بنى مشجعة ثم انحدر إلى المرج من ثنية العقاب ، فقاتل فيه بنى غسان ، والذى أوهمنا أن الطريق الذى مر عليه خالد منذ دخل البادية الشامية إلى أن بلغ دمشق كان مأهولا بالعرب جعل الطبرى آخر الفتح مما يلى دمشق ، وقبل وصوله إلى ثنية العقاب (قسم) وأنه قاتل فيها بنى مشجعة من قضاة ، على أننا بعد أن كتبنا ذلك الفصل راجعنا ما كتبه ياقوت فى معجمه عن (قسم) فإذا هو يقول إنها موضع بالبادية قرب الشام فذيلنا ذلك الاستنتاج بما يفيد ضعفه ، إذا صح قول ياقوت تفادياً من ارتكاب الخطأ فى وضع الظن موضع اليقين كما رأيت فى الجزء الماضى ،

إلا أن هذا إذا نفى قولنا أن القلمون الأسفل كان مأهولا بالعرب ، لا ينفي قولنا أن ما يليه شرقا إلى شطوط الفرات كان من أما كن العرب ، بدليل أن ذلك القسم لم يزل من منازل العرب الرحل إلى الآن ، والبلاد التي فيه كضمير والقريتين وتدمر والسخنة كل سكانها من العرب ، بل وهناك بعض القرائن التاريخية التي تدل على أن ذلك القسم الذي كان مملكة مستقلة عاصمتها تدمر الشهيرة كان محكوماً بالعرب ، ومن تلك القرائن انفراد مدينة تدمر في طرف البرية في وسط منازل العرب .

ومنها أن أحد أشراف هذه المدينة المسمى أوديناثوس الذي قاموهاجم سابور ملك الفرس وأفتك منه بلاد ما بين النهرين (الجزيرة التي كان أخذها من الرومان ثم أسس لنفسه مملكة وبسط سلطته على الجزيرة وسورية في أواسط القرن الثالث قبل المسيح . قد اختلف المؤرخون في أصله هل هو عربي أم سرياني ، فإذا رجحنا كونه عربياً بقرينة موضع وطنه الجغرافي وهو تدمر ثبت معنا أن هذه المدينة وما حولها من البلاد كانت عربية ، ولم تزل كذلك .

وكذلك لا ينفي قولنا أن القسم الواقع شرق دمشق وهو مرج راهط كان مأهولا ببني غسان ، لأن النص صريح على أن خالداً واقعه في يوم عيدهم ، وكذلك لا ينفي قولنا أن القسم الذي يلي دمشق من جهة الجنوب إلى حوران حتى العقبة والحجاز كان مأهولا بالعرب ، فإنه معلوم بالبداية ، وكان أشهر مدنه بصرى واشمسين ، واطلعنا في تاريخ الطبري وفي فتوح البلدان على نص يفيد أن شمالي سورية أيضاً كانت بعض مدنها مأهولة بالعرب ، فقد جاء فيهما أن أبا عبيدة لما افتتح قنسرين صالحه أهل حاضر قنسرين ، وكانوا من تنوخ ومصروا هذا الحاضر لما تنخوا ، فدعاهم إلى الإسلام فأسلم بعضهم وأقام على نصرانيته بنو سليح من قضاة ، ثم أسلموا في خلافة المهدي

العباسي، وكذلك حاضر حلب وهو غير حاضر قنشرين كان من مدن العرب، ولا يبعد أيضاً أن يكون العرب هم الذين مصرّوا غزوة في الجنوب الغربي من سورية، فسميت غزوة هاشم نسبة إلى هاشم الثريد كما يقولون.

وحق لقوم يشغلون بالسكنى قسماً عظيماً من سورية، ويتوطنون في أحشاء البلاد مع ما اشتهر عن العرب من حب الاستقلال والحرية، أن يكون لهم من النفوذ والسلطان في البلاد أكثر مما لغيرهم من العناصر الأخرى التي كانت تقطن هذه الولاية العظيمة كالسريان والآرمن والروم واليهود وبقية الأختلاط الذين هم ليسوا إلا من الجالية، حاشا العرب والسريان والبلاد وإن كانت يومئذ تابعة لدولة الروم إلا أنه لا يعقل أن يكون الجنس الروماني أكثر الأجناس القاطنين في سورية ولا أقواها أيضاً وإن كانت بيده حكومة البلاد.

إذا تقرر هذا فلا بدع أن يكون على الملوك من بني غسان حراسة البلاد، وأن يكون لهم فيها نفوذ أمر وسلطان لا سيما وأنهم رجال حرب كما أنهم أهل ثروة وغنى لأن البلاد التي هم فيها كحوران والسكر ومعان وتدمر كلها بلاد زرع وضرع وهي من أخصب البلاد السورية، ولم تزل كذلك إلى هذا العهد وإذا أضفنا إلى هذا وهن السلطة الرومانية يومئذ، وضعف سلطانها في البلاد لا نكون مبالغين فيما قلنا عن استغلاظ شأن العرب في سورية، وإن ذلك من قبيل الاستنتاج.

وأما قولنا إن دمشق كانت قبيل الفتح الإسلامي تحت الحارس^(١) الغساني، فأنا وإن لم نقف في شأنه على نص صريح سوى قول للدكتور

(١) اسم الحارث يطلق على كل ملك من ملوك غسان كما يطلق اسم قيصر على ملوك الروم

وكسرى على ملوك الفرس وملك غسان الذي كان على عهد الفتح هو جيلة بن الأيهم.

فانديك سياقى بيانہ ، إلا أن هناك من الأخبار التاريخية ما يستنتج منه أن عاصمة بنى غسان قبيل الفتح كانت دمشق الشام ومن تلك الأخبار ما ذكره الطبرى فى تاريخه عن مجيء خالد بن الوليد من العراق إلى الشام حيث قال ما نصه .

ثم نزل (يعنى خالداً) الكشيب حتى صار إلى دمشق ثم مرج راھط فلقى عليه غسان وعليهم الحارث بن الأيهم (يريد به جبلة) الخ الخبر .

وجاء فى السير أن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل شجاع بن وهب بكتاب إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ، يدعوہ إلى الإسلام فأثاء وهو بغوطة دمشق يهيم النزل لقيصر وقد كان قاصداً إيلياء ، فشغل عنه الحارث ثم دعاه يوماً وقرأ الكتاب الذى معه وغضب وقال من ينتزع منى ملكى الخ .

ولما وفد حسان بن ثابت الأنصارى قبل إسلامه على آل جفنة وهم ملوك غسان امتدحهم بأبيات قال فيها .

لله در عصابة نادمتهم يوماً بمجلى فى الزمان الأول
ومنها :

أولاد جفنة حول قبر أيهم قبرا بن مارية المهم المخول
يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

والبريص الذى جاء فى الأبيات هو قصر لال جفنة على نهر بردى الذى هو نهر دمشق ، وجلى من أسماء دمشق وقد تقدم معنا فى خبر فتح دمشق ما قاله البلاذرى فى تاريخه ، من أن خالداً وأبا عبيدة الثقيا فى دخولهما إلى دمشق بالمقسط وأنه هو البريص .

ولا يخفى على الناقد أن التصاق ملوك غسان بدمشق كما يرى من هذه الروايات ، يحمل المؤرخ المحقق على الحكم بأنهم كانوا قبيل الفتح أصحاب

السيادة على دمشق ، والذي يترجح عندنا أن الفرس لما دوحوا الولايات الرومانية سنة (٦١٤ م) أقروا ملوك غسان على ما كان لهم ، وأقاموهم ملوكا على الشام ، ولما استعاد هرقل من الفرس البلاد لم يشأ أن ينزع من ملوك غسان الولاية لضعفه في حرب الفرس وخوفه من شغب القوم فاستمرت بيدهم ولاية دمشق لحين الفتح الإسلامي ، بل هناك دليل آخر على أن سلطة بني غسان يومئذ تجاوزت ولاية دمشق ، وربما شملت سورية كلها ، فقد ذكر المؤرخون أن جبلة بن الأيهم بن جبلة وهو آخر ملوك غسان ابنتى بين اللاذقية وطرابلس مدينة سماها باسمه ، وهى جبلة ، فإذا كان ملوك جفنة من بني غسان قبيل الفتح إنما كانوا أمراء على عرب البادية وحوران ، وآلة بيدي قيصر الروم يصد بهم غارات عرب العراق (كما قال صديقنا جورجى أفندى زيدان) ، فما علاقة جبلة بسواحل الشام ، وما الداعى له لتصير الأمصار فى أرض ليس له ولا لقومه سلطة فيها ولا سلطان .

لا جرم أن سلطة العرب كانت يومئذ مبسوطة على الشام ، وكانت عاصمة ملوكهم دمشق . ولولا ذلك لما تسنى لجبلة أن يبتنى تلك المدينة ويسميتها باسمه ، ويؤيد ذلك مقاله الدكتور فاندريك فى المرأة الوحشية عند كلامه على دمشق وهو بنصه .

وكانت (يعنى دمشق) قبل الإسلام تحت آل جفنة ملوك غسان الذين يقول فيهم حسان بن ثابت وذكر البيهقي الثانى والثالث من الأبيات التى سبق لإيرادها .

وليت شعري لماذا استعظم صديقنا على العرب أن يكونوا ملوك الشام قبل الفتح الإسلامى ، وهو يعلم أنهم أبناء بمجدها والسابقون إلى حومتها . وأنهم تسلطوا على هذه البلاد مراراً قبل الميلاد وبعده ، كما ذكر ذلك صديقنا

بجملته نقلا عن بوسيفوس المؤرخ القديم ، ولا مراء في أن الحارث أحد ملوك العرب على عهد طييار يوس قيصر المتوفى سنة ٣٧ للميلاد استولى على دمشق بعد حرب شديدة وقعت بينه وبين صهره هيرودس على أثر طلاق هيرودس لبنت الحارث ، وما يؤيد سلطة الحارث على دمشق يومئذ قول بولس في رسالته الثانية إلى الكورنثيين وهو بنصه .

(وفي دمشق والى الحارث الملك كان يحرس مدينة الدمشقيين ، يريد أن يمسكني) وقد سبق أن قلنا إن اسم الحارث كان يطلق على ملوك العرب بالشام ، وعدا هذا فإننا إذا رجحنا قول القائلين بأن أصل أوديناثوس التدمري الذي سبق ذكره عربي لا سرياني (والجنسان من أصل واحد) ، فلا يستبعد أن يكون للعرب من السلطة في الشام قبيل الفتح الإسلامي ما كان لهم على عهد طييار يوس قيصر وعلى عهد أوديناثوس الذي تملك الجزيرة والشام ثم امتد ملك زوجته الملكة زنوبيا الشهيرة إلى مصر ، وأزعجت سطوتها ملوك ذلك العصر .

هذا ما انتهى إليه علمنا في تحقيق هل كانت دمشق عربية أم لا ، هذا على غموض تاريخ هذه الأمة العربية وما دام العلماء مجدين في البحث عن آثار الأمم القديمة فستكشف الأيام من تاريخ عرب الشام ما كشفته من عهد قريب من تاريخ عرب الين (حمير) ، مما يدل على بلوغ هذه الأمة منتهى درجات المدنية في العصور الغابرة والله أعلم .

وقفة فوهل :

رأى المسلمون بعد فتح دمشق أن يناجزوا هرقل ، إلا أنهم خافوا من وراءهم من جيوش الروم في بيسان ، وكانوا ثمانين ألفاً على قول بعض الرواة كما ذكر ذلك الطبري ، فاختاروا مناجزة هؤلاء أولا فاستخلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبي سفيان وسار بجيش المسلمين قاصداً بيسان

وعلى الناس شرحبيل بن حسنة ، إذ كانت إليه ولاية الحرب في الأردن فبعث خالد بن الوليد على المقدمة وأبا عبيدة وعمراً على مجنبتيه ، وعلى الخيل ضرار بن الأزور ، وعلى الرجل عياضاً ولما انتهوا إلى أبي الأعور (وقد كان بين الأردن وبين دمشق يمنع المدد عن أهل دمشق) قدموه إلى طابرية فأصرها ، وهم نزلوا بفحل . وكان الروم بثقوا المياه بينهم وبين فحل منعاً للمسلمين عن الوصول إليهم ، فكان عملهم هذا وبالاً عليهم لأنهم أصبحوا بعد خروجهم للحرب كالمحصورين ، وكان به هلاكهم كما كان ذلك يوم اليرموك ، إذ تركوا النهر وراءهم وعسكروا على الضفة التي تلي جند المسلمين ، فأصبحوا بين خطرين ، حتى إذا تمت عليهم الهزيمة لم يروا طريقاً للفرار فأخذتهم سيوف المسلمين وهذا يدل على ضعف معارف قوادهم يومئذ يفتنون الحرب وتمكن الهلع والاضطراب من نفوسهم تمكناً أضاع منهم الحيلة وأفقدتهم حسن التدبير .

لما رأى المسلمون تلك المياه والوحد نزلوا بفحل ولم يسمحهم التقدم إلى حيث يقيم العدو بيسان ، فكتبوا إلى أمير المؤمنين بذلك وأقاموا ينتظرون الجواب وهم في رعد من ريف الأردن والروم في ضحك ، وقد ظنوا في المسلمين الغفلة ، عنهم نخرجوا عليهم بقيادة قائد اسمه سقلار أو صقلار ، ورجوا أن يأخذوهم على غرة والمسلمون حذرون ، وكان قائدهم شرحبيل لشدة يقظته وحزمه لا يبيت ولا يصبح إلا على تعبئة واستعداد للحرب ، فلما هجموا على المسلمين لم يناظروهم فاقتتلوا أشد قتال كان ليلتهم ويومهم إلى الليل فأظلم الليل عليهم وقد حاروا فانهزموا وهم حيارى ، وقد أصيب قائدهم سقلار والذي يليه (أى القائد الثانى) واسمه نسطوس وركبوه ، فلم يعرف الروم مأخذهم فانهوا في الهزيمة إلى الوحد ، فأدركتهم أوائل خيل المسلمين فأخذوهم وما يتمتعون يد لأمس .

كان المسلمون يسمون هذه الواقعة ذات الرداغ لما لاقوا فيها من الوحل الذي كانوا له كارهين ، فكان عوناً لهم على العدو ، ولما انتهت الحرب بفحل انصرف أبو عبيدة ومعه خالد بن الوليد إلى حمص ، ومضى بذى السكلاع الحميري الذي كان مرابطاً بين جنود المسلمين وحمص لينبع المدد عن العدو .

أوهن المسلمون بفحل قوى العدو ، وأوقعوا الرعب في قلوب الروم ، فتأهب كل أمير لقصد الجهة التي ولى حربها ، فسار أبو عبيدة إلى حمص ، وسار شرحبيل إلى ييسان وطبرية ، وتجهيز يزيد بن أبي سفيان للخروج إلى سواحل الشام .

بمضاه وطبرية :

سار شرحبيل إلى ييسان ومعه عمرو بن العاص والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو ، وكاهم من أنجاد قریش وساداتها ، فلما بلغ أهل ييسان ما أصاب جند الروم بفحل تحصنوا من المسلمين بكل مكان ، فحصرهم المسلمون أياماً ، ثم خرج بعضهم لقتال المسلمين فأناموهم وصالحهم من بقى على صالح دمشق ، وبلغ أهل طبرية الخبر فصالحوا أبا الأعور على أن يبلغهم شرحبيل ففعل ، فصالحوا شرحبيل على صالح دمشق أيضاً ، ونزل القواد بجندهم في مدائن الأرض وقراها وكان ذلك سنة أربع عشرة للهجرة .

مرج الروم :

لما علم هرقل بما أصاب جنده في دمشق والأردن ، وبلغه مسير أبي عبيدة إلى حمص ، رأى أن يرسل جيشاً إلى دمشق إما ليشغل عن حمص جيش المسلمين ، وإما ليغتم فرصة تفرق الجيوش الإسلامية عن دمشق فتستردها جنوده من يزيد بن أبي سفيان ، فأرسل ذلك الجيش بقيادة توذر (اعلمه

تيودور) فنزلا بالجيش في مرج الروم غربى دمشق ، وبلغ ذلك أبا عبيدة بجاء ونزل بأزاء شنس وخالد بأزاء توذر . فتنازلهم لما نزلوا شنس وسار توذر يطلب دمشق ، فسار خالد وراءه في جريدة وبلغ يزيد بن أبى سفيان لإقبال توذر عليه فاستقبله بالجند فاقتتلوا ، ولحق بهم خالد وهم يقاتلون فأخذهم من خلفهم ولم يفلت منهم إلا الشريد وقتل خالد توذراً وقال :

نحن قتلنا توذراً وشوزرا وقبله ماقد قتلنا حيدرا
نحن أزرنا الغيضة الأكيدرا

وأما أبو عبيدة فقد ناهد بعد خروج خالد شنس ، فاقتتلوا بمرج الروم وأصابهم ما أصاب توذر ، وقتل أبو عبيدة شنس وانهزم فلهم إلى حصص وتبعهم بعض المسلمين . فلما انتهى الخبر إلى هرقل أمر عامل حصص بالمسير إليها وسار هو إلى الرها (اورفا) وفي رواية إلى أنطاكية ، وقال للعامل بلغنى أن طعاهم (يعنى المسلمين) لحوم الإبل وشرابهم ألبانها ، وهذا الشتاء قد أقبل فلا تقاتلوهم إلا فى كل يوم بارد فإنه لا يبقى إلى الصيف منهم أحد .

وإذا صح صدور هذا الكلام عن هرقل فإنه من الغرابة بمكان ، لأن رجلا مثله عجم عود القوم وجرب حربهم وعرف ثباتهم منذ سنتين ، لكبير عليه أن يعلق آماله على مجرى الطبيعة ، ويفوه بمثل هذا الهزء من القول إلا إذا أراد به تخفيف الملح عن قلوب الجنود المدافعة ، وتهوين الخطب على قواده ، ريثما يتم عليهم أمر القضاء الذى علمه هرقل من خلال الحوادث الماضية ، وإنما يدافع ذلك القضاء بآخر ماعنده من وسائل القوة والتحريض ، كى لاتهن نفوس الجنود ولا يستولى اليأس على ضمائر الشعب .

ذكر يعلبك وحمص وسواهل دمشق :

علمنا مما سبق أن يزيد بن أبى سفيان كان يتجهز بعد فتح دمشق للمسير

إلى سواحل دمشق ، وأن أبا عبيدة قصد حمص ، ولما جاء توذر إلى مرج الروم تربص يزيد وعاد إليه أبو عبيدة ، ولما انتهى أمر توذر لما انتهى إليه قصد يزيد سواحل دمشق ، وذلك سنة (١٤) وعلى مقدمته أخوه معاوية ابن أبي سفيان ، فابتدأ بصيدا ففتحها ، ثم فتح عرقة وجبيل وبيروت ، وجلا كثيراً من أهلها من رغبوا الجلاء ، وتولى فتح عرقة معاوية بنفسه ، ثم إن الروم غلبوا على بعض هذه السواحل في آخر خلافة عمر وأول خلافة عثمان ، فقصدهم معاوية ففتحها ورمها وشحنها بالمقاتلة ، وأقطعهم القطائع وإنما تجرأ الروم على غزو السواحل ، لأن المسلمين لم يكن لهم يومئذ أسطول يمنع غارة الروم على السواحل ، إذ لم يكن من رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ركوب المسلمين للبحر وغزوهم فيه .

وأما أبو عبيدة فقد قصد حمص عن طريق بعلبك ، وقدم إليها السمط ابن الأسود الكندي ، وقدم خالداً إلى البقاع ، فافتتح خالد بلاد البقاع ، ونزل أهل بعلبك إلى أبي عبيدة فصالحوه على أن يكون لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، وكتب لهم بذلك كتاباً ستأتى صورته ، ثم توجه إلى حمص فن قائل إنه وجد السمط قد صالحهم فأجاز صلحه ، ومن قائل إنه قاتلهم قتلاً شديداً وكانوا يغادون المسلمين القتال ويروحونهم في كل يوم بارد ، ولقى المسلمون برداً شديداً وطال على الروم الحصار ، وكان بعض مشايخهم دعاهم إلى مصالحة المسلمين فأبوا ، ولما اشتد عليهم الأمر طلبوا من أبي عبيدة الصلح فصالحهم على صلح دمشق ، وأنزلها السمط ابن الأسود الكندي في بني معاوية ، والأشعث بن ميناك في السكون والمقداد بن بلي وأنزلها غيرهم .

وفي فتوح البلدان أن السمط قسم حمص خطاً بين المسلمين ، وأسكنهم كل مرفوض جلا أهله أو ساحة متروكة ..

أما أبو عبيدة فقد بعث بالآخماس وخبر الفتح إلى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ، مع عبدالله بن مسعود ، فكتب إليه عمر : أن أقم في مدينتك وادع أهل القوة والجلد من عرب الشام ، فإنني غير تارك البعث إليك بمن يكافئك إن شاء الله .

تُحْقِيقُ خُبرِ أَجْنَادِ يَمُوكَ وَالْإِسْطَرَابِ فِي مَدِينَةِ دِمَشْقَ :

اختلف المؤرخون في وقعة أجنادين واليرموك ، فمن قائل إن الأولى كانت قبل فتح دمشق ، والثانية بعد فتح حمص ، ومن قائل بالعكس ، ولقد يحار المؤرخ الناقد في التفريق بين هاتين الواقعتين وتعيين الزمن الذي وقعتا فيه ، ويكاد يشبهه عليه أمرهما ، فيتخيل له أن الواقعتين واحدة . أو أن الواقعتين كانتا في اليرموك ، واحدة ، في خلافة أبي بكر والأخرى في خلافة عمر رضى الله عنهما ، وذلك لما فيهما من التشابه في الأسباب والحوادث ، وقد كنت أظن أن هذا الاضطراب في خبر الواقعتين قاصر على كتبنا ، وأن الغربيين ربما لم يقعوا في هذا الاضطراب ، لما عساهم نقلوه من أخبار الفتح عن مؤرخي الروم الذين كتبوها عن مشاهدة ، لا من طريق الرواية ، فإذا بالقوم وقعوا فيما وقع فيه مؤرخو العرب فقد راجعت ما كتبه بهذا الصدد المؤرخ الإنكليزي ادوردجيبون^(١) في (تاريخ السلطنة الرومانية) والمؤرخ الفرنسي نويل ديفرجي في كتابه بلاد العرب^(٢) فلم أعثر على ما يشفي الغليل وينج ستار اللبس ، فإن الأول جعل وقعة أجنادين سنة (٦٣٣م) الموافقة سنة (١٢ هـ) أي قبل فتح دمشق ، مع أن الأدلة التاريخية تؤيد حصول وقعة اليرموك قبل دمشق لأجنادين ، وأما الثاني فقد قال إن مارآه

Gibbon's Roman Empire,

(١)

Arabie Par M. Noel. Desvergers

(٢)

في تاريخ أبي الفداء في شأن اليرموك يعاوه اللبس والإشكال، وأن هذا يوجب الارتياب في كلام الشرقيين أكثر من الارتياب في كلام الغربيين ، إلى أن قال وهذا المذهب من كلامهم يدعو إلى الظن أنه حدثت واقعتان في هذا المحل (أى في اليرموك) الأولى قبل فتح دمشق ، والثانية بعد الاستيلاء على حمص .

ولقد نكاد نجاريه في هذا الظن وأن هناك التباساً في هذا الاسم ، وأن الاسمين ربما يطلقان على مكان واحد ، لو لم نر أن ياقوتاً فرق في معجمه بين المكانين ، فقال إن اليرموك واد في طرف الغوريصب في الأردن ، وأن أجنادين موضح بالشام من نواحي فلسطين من الرملة من كورة بيت جبرين ، كما أن الطبري أيضاً قال عن أجنادين إنه بلد من أرض فلسطين ، من عمل بيت جبرين .

وبما أن حصول الواقعتين الواحدة قبل فتح دمشق والثانية بعدها أمر محقق عند المؤرخين لا خلاف فيه ، وإن اختلفوا في تعيين زمن كل منهما فجعل بعضهم الأولى بمكان الثانية ، وهذه بمكان تلك وبالعكس فالذى نريد الوصول إليه الآن هو تحقيق أيهما كانت قبل فتح دمشق ، وأيها كانت بعدها فالذى اعتمده البلاذري في فتوح البلدان أن أجنادين هي الأولى ، واليرموك هي الثانية ، وجاراه على هذا الرأي ابن واضح السكائب العباسي الشهير باليعقوبي في تاريخه المعروف بتاريخ اليعقوبي^(١) . وجعل اليرموك بعد حمص ، وأما الطبري فإنه أورد خبر اليرموك كما أوردناه في الجزء الأول ، أى قبل دمشق وأورد خبر أجنادين مرة قبل فتح دمشق ، ومرة بعدها الواحدة من رواية سيف والثانية من رواية ابن إسحاق على عادته في نقل الروايات على اختلافها ، وترك الحكم فيها للمطالع

(١) هذا التاريخ جزءان طبعهما في لندن ويوجد منه نسخة في دار السكيب.

وتكاد هذه الرواية تكون أقرب للحق لو لم يتوهم الرواة أن أجنادين الأولى هي التي اجتمع عليها الأمراء ، ووافاهم إليها خالد بن الوليد ، وهذه هي التواريخ التي بين أيدينا من كتب المتقدمين الذين نقلوا الأخبار بالرواية ، وأما المتأخرون فإذا كان اعتمادهم في سرد الوقائع على ما دونه أولئك ، اضطربوا أيضاً في تعيين زمان الواقعتين ومكانهما ، وليس منهم إلا من أورد الخبر على علته دون تمحيص ولا تحقيق ، وبما أن بعضهم قال إن أبا عبيدة رجع من حمص إلى اليرموك بزعم أنها بعد فتح حمص ، مع أن المرجح أن اليرموك هي الواقعة التي حضرها خالد بن الوليد لما جاء لنجدة المسلمين في سنة ١٣ وفتح حمص كان في سنة (١٤) أو التي بعدها ، فقد حملني ذلك على اعتقاد خطئهم في تأخير تاريخ وقعة اليرموك ، مع الظن باحتمال وصول أبي عبيدة إلى حمص ، قبل مجيء خالد من العراق ، فبسطت في الجزء الأول هذا الاحتمال خطأ ، إذ الحقيقة التي ظهرت لي في هذا بعد التدقيق في التاريخ أن رجوع أبي عبيدة من حمص إنما كان بعد فتحها ، ويؤمّن ذلك اجتماع على الأمراء في أجنادين ، واجتماعهم هذا هو غير اجتماعهم على اليرموك ، وإنما تضارب الروايات في هذه الوقائع يدعو إلى غموض الحقيقة ، وتشويش الذهن ، والذي صح عندي من تحقيق هذه الروايات الآن والتدقيق فيها ، أن هناك ثلاث وقائع متشابهات ، اضطرب في ترتيبها المؤرخون ، لتشابه البواعث والاسم ، وهي أجنادين الأولى وحدثت في أواخر سنة ١٢ أو أوائل سنة ١٣ واليرموك وكانت في جمادى سنة ١٣ وأجنادين الثانية وكانت سنة (١٤) أو (١٥) .

وقد ساق ابن جرير الطبري في تاريخه خبر هذه الوقائع الثلاث ، إلا أنه أورد خبر اليرموك وأجنادين الأولى من عدة روايات ، كلها يخالف بعضها بعضاً ويدل على اضطرابهم في تحقيق هل كانت اليرموك قبل أجنادين

أو بالعكس ، أو كانتا وقعة واحدة ، ويؤخذ من يحمل هذه الروايات حصول وقعة في أجنادين لم يحضرها خالد بن الوليد . وإنما هي إما أن تكون لخالد ابن سعيد لما بعثه أبو بكر لأطراف الشام ، وواقع هناك الروم وعليهم باهان . على رواية مؤرخي العرب ، ووردان على رواية أدورد جبون الإنكليزي ، وإما أن تكون مع الأمراء في أول دخولهم الشام ، لما بعثهم أبو بكر في إثر خالد بن سعيد ، ثم لما واقعوا باهان وأوقعوا به تفرقوا في أنحاء الشام ، فسرب لهم هرقل الجنود فعادوا إلى اليرموك واستنجدوا أبا بكر فأنجدهم بخالد ابن الوليد ، فوافاهم وهم على اليرموك ثم لما تمت الهزيمة على الروم في اليرموك وسار الأمراء إلى دمشق ففتحوها ثم فخل فكان الفتح ، ثم سار أبو عبيدة إلى حمص وفتحها ، أرسل هرقل جنوداً جديدة إلى سورية اجتمعت في فلسطين ، فعاد أبو عبيدة والأمراء إلى حيث يخيم جند الروم في أجنادين فكانت وقعة أجنادين الثانية ، والظاهر أن بعض المؤرخين ومنهم البلاذري واليعقوبي ظنوا أن وقعة أجنادين واحدة . فاعتبروا الأولى وجعلوا مكان الثانية اليرموك ، مع أن المرجح أن اليرموك هو المكان الذي اجتمع عليه الأمراء ووافاهم فيه خالد بن الوليد من العراق ، بدليل ما قاله ياقوت في معجم البلدان وهو بنصه .

اليرموك واد بناحية الشام في طرف الغور ، يصب في نهر الأردن ثم يمضي إلى البحيرة المنتنة ، كانت به حرب بين المسلمين والروم في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وقدم خالد الشام مدداً لهم فوجدتهم يقاتلون الروم متساندين : وساق بجمل الخبر كما ذكرناه في الجزء الأول ثم قال : وقال القعقاع ابن عمرو يذكر مسيرة خالد من العراق إلى الشام في أيام .

بدأنا بجمع الصفرين فلم ندع لغسان أنفأ فوق تلك المناخر
صبيحة صاح الحارثان ومن به سوى ففسر نجتدهم . بالبواتر

وجئنا إلى بصرى وبصرى مقيمة فألقت إلينا بالحشا والمعاذر
فضضنا بها أبوابها ثم قابلت بنا العيس في اليرموك جمع العشائر
والشاهد من كلام ياقوت هو هذه الآيات ، التي تدل دلالة صريحة
على أن خالداً لما جاء إلى الشام واقع غسان ، ثم فتح بصرى وانتهى إلى
جيوش المسلمين وهم في اليرموك .

وأما أجنادين الأولى فإن الذى يرجح أنها كانت في أواخر سنة ١٢ ، أو
أوائل سنة (١٣) ، هو ما رواه بعض المؤرخين من أن أبا بكر بشر بانتصار
المسلمين على الروم في أجنادين وهو بآخر رمل ، مع أن انتصار المسلمين
في اليرموك كان في جمادى الثانية بعد وفاة أبي بكر ، وإنما جاء المسلمين
وفاته وهم على اليرموك .

فهذا ما وصل إليه الفسك وانتهى إليه البحث في تحقيق وقعة اليرموك
وأجنادين ، التي قبلها ، وأما أجنادين الثانية وهي التي كانت عقب فتح حمص
واضطرب أبو عبيدة أن يرحل من أجلها عن حمص ، وحذا حذوه باقي
الأمراء لمصادمة الجيوش العظيمة التي أرسلها إليهم هرقل ، واجتمعت في
فلسطين ثم في أجنادين ، فقد ذكر خبرها الطبرى سنة (١٥) كما ذكره البلاذرى
واليعقوبى ، إلا أن هذين زعما أنها وقعة اليرموك .

على أن القرائن التي تحف بهذه الواقعة التي حدثت سنة ١٥ ، تؤيد أنها
كانت في أجنادين ، وذلك أن أجنادين من عمل فلسطين ، واليرموك من عمل
الأردن ، وعمالة الأردن كانت سقطت يومئذ في أيدي الجيوش الإسلامية
وهم فيها مرابطون ، وفلسطين لم تكن كذلك بل كانت على وشك السقوط ،
وبسقوطها يسقط بيت المقدس ، ومتى سقط بيت المقدس تقطعت بالروم
الأسباب ، وقضى على سلطان دولتهم في سورية بالانقلاب ، لهذا فلا يعقل
أن هرقل يسرب جيوشه إلى الأردن ويترك فلسطين معرضة لهجوم عمرو
(١٦ — أشهر مشاهير الإسلام)

ابن العاص الذى كان يقصدها من الأردن ، ومعاوية بن أبى سفيان الذى عزم أن يأتيها من سواحل دمشق بل المعقول أن هرقل لما جلا عن حمص وأقام فى أنطاكية أو الرها ، ووصلته الأخبار بتغلب المسلمين على جيوشه فى كل مكان ، ورأى أن أبا عبيدة قد بلغ حمص من جهة الشمال ، وقطع طريق المواصلات والإمداد ما بينه وبين الجنود الرومية من جهة البر أرسل جيوشاً عظيمة من جهة البحر ، لتكون مدداً لأهل قيسارية وغزة وإيلياء (بيت المقدس) ولعل تلك الجنود أرسلت من يافا ، وعسكرت بأجنادين لقربها منها إذ المسافة لاتزيد عن ثلاث ساعات بين رافا والرملة وأجنادين من عملها ، كما قال ياقوت ، وإليك ما رواه الطبرى وغيره فى شأن قيسارية وغزة وأجنادين .

فلسطين وأجنادين :

لما انصرف أبو عبيدة من فحل إلى حمص ونزل عمرو بن العاص وشرحبيل ابن حسنة على ييسان وافتتحها ، وصالحهم أهل الأردن ، قصد عمرو فلسطين وكتب إلى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه بتفرقهم ، فكتب إلى يزيد بن أبى سفيان بأن يدعى ظهورهم بالرجال ، وأن يسرح معاوية إلى قيسارية ^(١) وكتب إلى عمرو بصدم الأرطابون وكان فى أجنادين ، وإلى علقمة بن مجزز بصدم الفيقار وكان فى غزة ، وكان مما كتبه إلى معاوية (أما بعد إنى قد وليتك قيسارية ، فسر إليها واستنصر الله عليهم . وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله ، الله ربنا ، وثقتنا ، ورجاؤنا ، ومولانا ، نعم المولى ونعم النصير) .

فسار كل أمير لما أمر به ، وسار معاوية إلى قيسارية ، وكان فيها من

(١) هذا الاسم معرب قيصرتة وهما ثنتان ، واحدة تسمى قيسرية فلسطين ، وهى خراب الآن ، وخربت على عهد الصليبيين ، والأخرى قيسرية فيلبس ، وهى بانياس على ما قاله فاندريك

المقاتلة مائة ألف أو يزيدون على ما يؤخذ من كلام الطبرى ، فافتتحها وكتب إلى عمر بالفتح وبعث بالخبر مع رجلين من بنى الضبيب ، ثم خاف منهما الضعف فبعث عبد الله بن علقمة الفراسى ، وزهير بن الحلاب الخثعمى ، وأمرهما أن يتبعاهما ويسبقاهما ، فلاحقاهما ، فطويأهما وهما نائمان ، وابن علقمة يتمثل :

أرقَّ عيني أخو جذام كيف أنام وهما أمانى
إذ يرحلان والهجير طامى أحرام نخشيم وأخو حرام

وأما علقمة بن مجزَّر فحصر القيقار بغزة ، وجعل يرأسله فلم يشفعه عسا يريد أحد ، فأناه كأنه رسول علقمة ، فأمر القيقار رجلا أن يقعد له بالطريق فإذا مر قتله ، ففطن علقمة فقال ، إن معى نفرا شركائى فى رأى فأطلق فأتيك بهم فبعث القيقار إلى ذلك الرجل لا تعرض له ، فخرج من عنده ولم يعد ، وفعل كما فعل عمرو بن العاص بالأرطوبون لما احتال عليه بنفس هذه الحيلة ونجا من القتل .

وأما بريد معاوية الذى أرسله إلى المدينة ، فوصل إلى عمر رضى الله عنه فجمع الناس ليلا ، وقال : لتحمدوا الله على فتح قيسارية ، وأباتهم على الفرح وأما عمرو بن العاص فقد سار بجيشه نحو الأرطوبون ، وكان من كبار القواد ودهاتهم ، وهو يعادل عند الروم بالدهاء عمرو بن العاص عند العرب ، فتقدم نحوه عمرو وهو نخيم بأجنادين بجند كثيف ، وعلى مقدمة عمر وشربيل . وعلى مجنبيه عبد الله بن عمرو وجنادة بن تميم المالكى مالك ابن كنانة ، وقد كان الأرطوبون وضع بالرملة جنداً عظيماً ، وبإبلياء جنداً عظيماً فكتب عمرو إلى أمير المؤمنين بالخبر فقال : قد رمينا أرطوبون الروم بأرطوبون العرب ، فانظروا عم تنفرج : وكان عمر رضى الله عنه ، من لدن توجه أمراء الشام ، يمد كل أمير جند ويرميه بالإمداد ، حتى إذا أتاه

كتاب عمرو بتفريق الروم ، كتب إلى يزيد بن أبي سفيان بأن يبحث معاوية في خيله إلى قيسارية ، وكتب إلى معاوية كتاباً بأمرته على قتال أهل قيسارية ، وقد مر ذكره ، وذلك ليشغلهم عن عمرو وكان عمرو قد استعمل علقمة بن حكيم الفراسي ، ومسروق بن فلان العكي على قتال أهل إيلياء ، وبعث أبا أيوب المالكى إلى الرملة وعليها التذارق ، ولما تابعت الأمداد على عمرو بعث محمد بن عمرو مدداً لعلقمة ومسروق ، وبعث عمارة بن أمية الضمرى مدداً لأبي أيوب ، وأقام عمرو على أجنادين لا يقدر من الأرطبون على سقطة ، ولا تشفيه الرسل ، فوليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول فأبلغه ما يريد ، وسمع كلامه وتأمل حصونه ، حتى عرف ما أراد فحدث أرطبون نفسه بأنه عمرو بن العاص ، فوضع له في الطريق من يقتله وفطن له عمرو ، فاحتال للتخلص منه بمثل الحيلة التي احتال بها علقمة على الفيقار ، ونجا عمرو وعلم الأرطبون بحيلته فقال : خدعنى الرجل هذا أدهى الخلق : وبلغت عمر بن الخطاب فقال : غلبه عمرو لله عمرو .

لما عرف عمرو مأخذ الأرطبون ، ووقف بنفسه من حالة الروم على ما يريد أن يقف عليه ، زحف عليهم بجنده واقتتلوا قتالاً شديداً كقتال اليرموك ، فانهمز أرطبون في الناس ، وأوى إلى إيلياء ، ولما وصلها أفرج له المسلمون الذين على حصارها فدخلها ، ثم أزالهم إلى أجنادين .

فهذه وقعة أجنادين التي اضطرب فيها المؤرخون وجعلها بعضهم على اليرموك سنة (١٥) ، مع أن اليرموك كانت سنة (١٣) ، كما تقدم الدليل على ذلك في أبيات القعقاع بن عمرو ، التي يذكر فيها التقاءهم مع خالد بن الوليد بجيش المسلمين ، وهم على اليرموك ، على أن وقعة أجنادين هذه لم يذكر الطبرى في سياقها اسم أبى عبيدة وخالد ، وأنهما حضرا بعسكرهما من حمص ، إلا أنه لما ساق خبر فتح بيت المقدس بعد أجنادين ذكر في

جملة رواياته عن فتح بيت المقدس أن الذي كان على حصارها هو أبو عبيدة فإذا أضيفت هذه الرواية إلى ما ذكره البلاذري في فتوح البلدان واليعقوبي في تاريخه من رجوع هذين القائدين بجيش المسلمين من حمص لإنجاد بقية الأمراء في اليرموك سنة (١٥) ، مع ما علمناه مما سبق أن وقعة اليرموك كانت سنة (١٣) لاسنة (١٥) وأن المؤرخين ربما وهموا لتشابه الوقائع وقرب المكانين أحدهما من الآخر ، بأن وقعة أجنادين كانت على اليرموك صح أن أبا عبيدة وخالداً حضرا وقعة أجنادين هذه ، هذا إذا لم يكن هناك وقعة ثانية في اليرموك ، كما كانت وقعتان في أجنادين إلا أن القول بحدوث وقعتين في اليرموك لم يقيم عليه دليل واضح في التاريخ ، وأما القول برحيل أبي عبيدة بجيشه عن حمص سنة (١٥) ، أي بعد فتحها وشخصه إلى جنوب الشام لإمداد المسلمين ، فقد اتفق عليه البلاذري واليعقوبي وما ذكره اليعقوبي بهذا الصدد قوله عن أبي عبيدة بعد أن فتح حمص .

ثم أتاه خبر ما جمع طاغية الروم من الجموع في جميع البلدان ، وبعثه إليهم من لاقبل لهم به ، فرجع إلى دمشق وكتب إلى عمر بن الخطاب ، وكتب إليهم عمر أنه قد كره رجوعهم من أرض حمص إلى دمشق : وجمع أبو عبيدة المسلمين وعسكر في اليرموك إلى أن قال ، وكانت وقعة جلييلة الخطب قتل فيها من الروم مقتلة عظيمة ، وفتح الله على المسلمين وكان ذلك سنة (١٥) وأوفد أبو عبيدة إلى عمر وفداً فيهم حذيفة بن اليمان ، وقد كان عمر أرق عدة ليال ، واشتد تطلعه إلى الخبر ، فلما ورد عليه الخبر خر لله ساجداً وقال : الحمد لله الذي فتح على أبي عبيدة ، فوالله لو لم يفتح لقال قاتل خالد ابن الوليد اه .

وأما ما نقله البلاذري فقد تقدم ذكره في الجزء الأول ، ومؤداه أن المسلمين لما بلغهم إقبال الجنود الكثيرة لوقعة اليرموك ، ردوا ما كانوا

أخذوه من أهل حصص ، وقالوا لهم قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم ،
فأنتم على أمركم ، فأقسم النصارى واليهود ، أنهم لا يدعون عامل هرقل
يدخل إلى المدينة ، وأغلقوا أبوابها وحرسوها الخ

هذا ما أورده المؤرخون بشأن اليرموك وأجنادين ، بسطناه هنا مع
ما في كثرة هذه الأقوال من التشويش والاختلاف ، ليكون القارئ على
بينة من الحقيقة والله بها عليم

فتم بيت المفهرس :

لما انتهى عمرو من أجنادين ترك أهل إيلياء (بيت المقدس) محصورين
وأخذ يتم فتح مدن فلسطين وقراها ، ففتح غزة ولد و نابلس وبيت
جبرين و مرج عيون و يافا ، وقيل إن يافا فتحها معاوية فلما أتم هذا الفتح قصد
بيت المقدس وأخذ يخبر الأوطون بخبرة حمية ويطلب إليه تسليم المدينة ،
والأوطون تمتنع عليه ، وكتب لعمرو كتاباً يقول فيه : إنك است بصاحب
فتح إيلياء بل صاحبه عمرو : فكتب عمرو إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب
يستمدده ويقول : إني أعالج حرباً كثوداً صمدوماً (كناية عن
شدتها) وبلاداً أدخرت لك فرأيتك : ولما انتهى الكتاب إلى عمر نادى
في الناس ثم خرج فيهم حتى نزل الجابية (١) .

وفي رواية للطبري أن أبا عبيدة هو الذي كان على حصار إيلياء ، وأن
سبب قدوم عمر إلى الشام أن أهل بيت المقدس طلبوا من أبي عبيدة أن

(١) قال ياقوت : الجابية من قرى الجولان من أعمال دمشق ثم من عمل دمشق قرب
منهج الصفر في شمالي حوران ويقال لها جابية الجولان أيضاً .. قال الجواس بن الفعطل :

أعبد الملك ما شكرت بلادنا فكل في رخاء إلا من مأنت آكل
بجاية الجولان لولا ابن بحدل هلكت ولم ينطق لقومك قائل

يصلحهم على صلح مدن الشام ، وأن يكون المتولى للعقد عمر بن الخطاب ، فسكتب إليه بذلك ، فسار عن المدينة وكتب للأمراء أن يوافوه بالجالية ليوم سماه لهم وأن يستخلفوا على أعمالهم فلقوه حيث رفعت لهم الجالية ، فكان أول من لقيه يزيد ثم أبو عبيدة ثم خالد على الخيول وعليهم الديباج والحريز فكبر ذلك على الخليفة العظيم الذي ولع بالتكشف وازدري بنعيم الحياة الفانية ، أن يرى آثار التنعم بادية على قواده على قرب عهدهم بالخوشنة وتخلقهم بخلق العفة والجدة والقناعة ، فنزل وأخذ الحجارة فرماهم بها وقال سرع ما نقتم عن رأيكم لماي تستقبلون بهذا الزى وإنما شبعتم منذ سفتين سرع ما نذت بكم البطنة ، وتالله لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم : فقالوا يا أمير المؤمنين إنما يلامعة ^(١) وأن علينا السلاح : قال : فنعم إذن : وركب حتى دخل الجالية وعمر وشرحيل بأجنادين ، فبينما عمر معسكرأ بالجالية فزع الناس إلى السلاح فقال ماشأنكم ؟ فقالوا ألا ترى الخيل والسيوف . فنظر فإذا كردوس يلمعون بالسيوف ، فقال عمر هذه مستأمنة فلا تراعوا وأمنوهم فأمنوهم وأذاهم أهل إلبلاء .

كان أهل إلبلاء في ضنك عظيم وحصار شديد ، وقد أيقنوا بعد انقطاع المدد عنهم واستيلاء المسلمين على أطراف الشام ومدنها العظام ، أنهم مأخوذون لا محالة وأن دولة الروم دالت وسلطتهم عن البلاد زالت ، وخافوا إذا سلموا المدينة للمسلمين ألا يصلحهم على ماصولح عليه أهل المدن الأخرى ، لكثرة مالاتي المسلمون منهم من العناء وما بذلوا في حربهم من الدماء ، ولما تحقق عندهم من أن بيت المقدس مكرم عند المسلمين ، لأنه محل الإسراء ومقر الأنبياء ، والظاهر أنهم خافوا لهذا السبب على كنيستهم العظمى أن ينزعها منهم المسلمون ، وقبلتهم المقدسة أن يحرمهم منها الفاتحون

(١) قال في القاموس اليلامعة ما لمع السلاح كالبيضة

مع أن المسلمين كانوا أحرص الناس على الوفاء بالعهود وألزمهم لشرعة الإنصاف مع المغلوبين ، وكانوا إذا صالحوا قوماً على شيء وكتبوا لهم بذلك عهداً صار ذلك العهد سنة لمن بعدهم في معاملة أولئك المعاهدين لا يحدد عنها أحد من المسلمين ، وإنما هو الروع أخذ بقلوب أهل بيت المقدس فرأوا تأكيد الأمان وتوثيقاً لعرى العهد أن يباشروا ذلك مع أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، فطلبوا من الأمراء حضوره بنفسه ، ولما بلغهم وصول أمير المؤمنين إلى الجابية أوفدوا إليه ذلك الوفد ، فتلقاهم المسلمون براءة الأمان فأخبروا أمير المؤمنين أنهم نواب في الصلح عن أهل إيلياء ، وإن أمراء الجند الرومي وهم أرطبون والتذارق لحقا بمصر فصالحهم على إيلياء وحيزها والرملة وحيزها ، فصارت فلسطين نصفين نصف مع أهل إيلياء ونصف مع أهل الرملة وكتب لهم بذلك كتباً ، وكتب لأهل إيلياء خاصة كتاباً سترد صورته في هذا الكتاب ، ثم جعل على ذينك القسمين أميرين فجعل علقمة بن حكيم على الرملة وأحوازا وأنزله الرملة ، وجعل علقمة ابن مجرز على إيلياء وأحوازا وأنزله إيلياء ، ونزل كل واحد منهما في عمله في الجنود التي معه ، وضم عمرو بن العاص وشرحبيل إليه بالجابية ، فلما انتهيا إلى الجابية وافق عمر رضى الله عنه راكباً ، فقبلا ركبته وضم هو كل واحد منهما محضنهما .

وكان فتح إيلياء سنة (١٦) وقيل سنة (١٥) ، ولما أتم عمر عهد الصلح أراد المسير إلى بيت المقدس ، فأتى له بيرذون فركبه ، فلما سار جعل يتخلج (١) به فنزل عنه وضرب وجهه ، وقال : لا علم الله من علمك هذا من الخيلاء ، ولم يركب برذوناً قبله ولا بعده ، ثم دعا بفرسه فركبه ، ثم سار حتى انتهى إلى المسجد الأقصى ليلاً ، فدخله فصلى فيه ، ولم يلبث أن طلع الفجر ، فأمر المؤذن بالإقامة فتقدم فصلى بالناس ، ثم انصرف ودعا بكمب الأحيار (وكان مادخل

(١) يضطرب ويتمايل .

المسجد قال : ارفعوا لى كعباً) فلما أتى به قال له : أين ترى أن نجعل المصلى : فقال : إلى الصخرة فقال : ضاهيت والله اليهودية يا كعب وقد رأيتك وخلعتك نعليك : فقال . أحببت أن أباشره بقدمي : فقال : قد رأيتك ، بل نجعل قبلته صدره ، كما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلة مساجدنا صدورها ، اذهب إليك فإننا لم نؤمر بالصخرة ولكننا أمرنا بالكعبة ، بفعل قبلته صدره ، ثم قام إلى كنيسة (١) قد كانت الروم دفنت بها بيت المقدس في زمان بني إسرائيل وقال : يا أيها الناس اصنعوا كما أصنع وجثا في أصلها وجثا في فرج من فروج قبائه ، وسمع التكبير من خلقه وكان يكره سوء الرعة (٢) في كل شيء ، فقال : ما هذا ، فقالوا كبر كعب وكبر الناس بتكبيره ، فقال على به ، فأتى به فسأله عن سبب تكبيره ، فقال يا أمير المؤمنين إنه قد تنبأ على ما صنعت نبي منذ خمسمائة سنة ، وسرد له خبراً طويلاً من الإسرائيليات لا محل لذكرها هنا .

ولا جرم أن يظهر كعب الأحبار سروره ، ويكبر لمصير بيت المقدس إلى المسلمين وهو إسرائيل الأصل ، يعلم سوء ما لاقى بنو إسرائيل من الرومان ، وما كانوا يلاقونه من النصارى ؛ من الاضطهاد والتعصب الذي منعه من حرية التوجه إلى قبلتهم ، والتمتع بأول معبد لهم ، كما يعلم جميل معاملة المسلمين لأهل الكتاب . وإطلاقهم لهم حرية العبادة والسكنى والاعتقال حينما كانوا ، وأنى أقاموا ولهذا السبب كان اليهود في سورية يتمنون لإدالة دولة الروم ويحرضون عليهم المسلمين ؛ ومن ذلك ما رواه الطبري أن عمر

(١) الكنيسة الزبالة ویراد ببيت المقدس الهيكل الذى بنى على الصخرة . وقد كان الروم من زمان بنى إسرائيل هدموه وألقوا عليه الزبالة نكابة باليهود ، فبنى عمر فوقه مسجداً ثم وسع بعد (٢) جثا أى جلس على ركبتيه وجثا من جثا التراب يعنوه ويعنيه ومعناه أن عمر جثا التراب في ذيل ثوبه ، والرعة الكسر كما في القاموس الهدى وحسن الهيئة أوسوء هاوهو ضد ، والتخرج أى التنطع ولعله هو الأقرب للمراد من قوله يكره سوء الرعة .

ابن الخطاب لما نزل الجابية قبيل فتح ليليا جاءه يهودى من يهود دمشق وقال له : يا أمير المؤمنين لا ترجع إلى بلادك حتى يفتح الله عليك ليليا ، وما زال ملازماً له حتى تم الفتح ، وشهد عقد الصلح .

لدونية في الإسلام :

رأيت ما قاله عمر (رضى الله عنه) لكعب الأحبار ، وهو قول لانبأ أن يفوتنا البحث فيه ، لهذا رأينا أن نفرده هذا الفصل فنقول .

أولع الإنسان بالإفراط كما أولع بالتفريط في كل شؤونه الروحية والجسمانية ، ولو أنصف واعتدل ولم يطلق لنفسه العنان ليلبغ مقام الملائكة في أعلى عليين ، أو يهبط بها إلى مقر الشرور في أسفل سافلين ، لكانت السعادة الدائمة به ألزم ، وطريق النعيم الحيوى لديه أوسع ، ولما احتاج إلى كثير من هذه القوانين وقوامها ، وزعماء السيطرة وجنودهم ، والحكام وأعوانهم والسجون وحراسها ، بل لكان اكتفى بدين واحد قويم ، وشرع إلهى مستقيم ، ولم يشوه وجه الشرائع ، ولم يدع لتعدد الأديان ، وإرسال الرسل في آن وآن .

أجل أولع الإنسان بالشطط حتى في العقائد ، فبينما يكون هذا في طرف التفريط ، مارقا من كل دين منكرأ لكل نخلة ، هائماً في المادة التى يتناولها حسه وينسكرفا فوقها عقله ، يكون الآخر مسلماً لعقيدته بما لا يبعد طبعه عن طبيعته ، طالباً بخياله ما يظن له قدرة فوق قدرته ، وسلطة أعلى من سلطته ، وأول ما يلاقيه في طلبه يعلق بقلبه ، ويظنه منتجع عقله والغاية التى يطلبها في سيره فتولع به نفسه ، ويقوى فيه أمله ، ويختص به عمله ، فيغلو في عبادته غلو المادى فى مادته ، حتى يساويه من طرف الإفراط بالتوجه تارة للأقار ، وأخرى للأشجار ، وآونة للأحجار ، ووقتاً للأرواح ، وآخر للأشباح إلى

غير ذلك بما هو داخل في المادة ، قريب من متناول الحس ، فكأن العقل
الإنسانى فى حال الإيمان والكفر أسير المادة ، لا يفلت من شرك الحس ،
ولا يذعن لى ما فوق المادة ، ويصعد لى أفق الكمال إلا هنيهة ، ريثما يتلقى
برهان ربه بواسطة الأنبياء ، ويطمئن لى التسليم بقوة آلهية ، تفوق قوى المادة
وتعلو عن العقل وتتحكم على الكائنات تحكم الصانع المختار ، ثم لا يلبث أن
ينحط عن هذه المرتبة فيعود لى تحيزته الأولى ، للهبوط لى هوة النقص
والتوجه لى مظاهر المادة ولو تدريجاً ، حتى يلتصق بالخصيض ويعود لى
الشرك وهو يظنه الإيمان ، ويخاله منتهى العبادة ومامن دين إلا أصيب
أهله بهذا المصاب وأشركوا مع الله الأرواح تارة وأخرى الأنصاب ،
توسلا لىه على زعمهم بالحس وارتياحاً لى ماتحت النظر والعقل ، والله
سبحانه وتعالى فوق ما يتصورون ، ليس من المادة ولا المادة منه ، بل هى
مخلوقة له مفتقرة لىه ، وليس بينه وبين خلقه سبب منها يتوصل به لىه ،
بل هو كما قال فى كتابه الكريم (الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه
سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده
إلا بإذنه) الآية .

ومن الثابت أن العرب كانوا على دين إبراهيم الذى هو كباقي الأديان
الإلهية ، دين التوحيد بالله والإيمان بأنه تعالى خالق الكون وما فيه ، وإنكار
مادون ذلك من الاعتقاد بشيء من المادة ، ومن التمسك فى العمل بأهداب
الشرك ، ولكن لم يلبثوا أن تدرجوا فى مدارج المادة ، وهبطوا لى خصيض
الشرك ، وتدرجوا من الاعتقاد بالأرواح لى الاعتقاد بالأشخاص ، ثم لى
الاعتقاد بالأنصاب والأحجار ، وغير ذلك ، بما هو داخل فى المادة ، واقع
تحت الحس ، وهم مع ذلك كانوا يزعمون أنهم مؤمنون لامشركون ، وأنهم
بعبادة المادة يعبدون الله ويتقربون بها لىه كما أخبر عن ذلك القرآن بقوله
تعالى (ما نعبدهم إلا ليقربونا لى الله زلفى) وهذا من الإغراق فى الجهل ،

والانحطاط في العقيدة ، والإفساد لأصل التوحيد ، ولم يكن هذا الإفساد قاصراً على العرب فقط ، بل عم سائر أرباب الأديان مما لا محل لبسطه الآن .

إذا تمهد هذا علمنا أن الإسلام بما جاء به من آيات التوحيد الخالص من كل شائبة من شوائب الشرك ، إنما جاء لاستئصال شأفة الوثنية من نفوس العرب وغيرهم من أرباب الأديان ، بمحو شائبة الاعتقاد بأى أثر من آثار المادة ، وصرف النفوس عن التوجه إلى تلك الآثار بالحس ، لتتوجه إلى واجب الوجود بالضمائر ، والاكتفاء باستحضار هيبة جلاله في القلب ، وتمكين الاعتقاد بأن الأثر الواقع تحت الحس إنما يقوم قوامه بالموثر المستحضر في الضمير الخارج عن الحس ، إذ بغير هذا لا يقوم للتوحيد أثر متين في النفس ، ينبجى من مزلّة القدم إلى الوثنية المفضية إلى الشرك المؤدى إلى الجحود وإنما الإنسان مادة ، وهذه أعراض منها تنمو وتعظم في النفس ، مادامت النفس مستشعرة بشيء من وجوب التعظيم لغير الله تعالى ، والتوجه لأى أثر من آثار المادة وساء منقلب الظالمين .

هذا هو التوحيد الذى جاء به الإسلام ، ودعا إليه النبي محمد عليه الصلاة والسلام ، وإنما اضطربت العقول وساءت الأوهام لتفاوت الأفهام ، وتباين مراتب المسلمين في العلم بحقيقة الدين ، والإحاطة بأسراره ، والوقوف على جميع مقاصده حتى على عهد الرسالة وإليك الدليل .

أخرج الإمام أبو الفرج ابن الجوزى في السيرة العمرية عن المغرور بن سويد قال : خرجنا مع عمر بن الخطاب في حجة حجاجها ، قال فقرأ بنا في الفجر (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) د لثيال قویش ، فلما انصرف رأى الناس مسجداً فبادروه فقال : ما هذا : قالوا هذا مسجد صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هكذا أهلك أهل الكتاب قبلكم ، اتخذوا آثار أنبيائهم بيعاً ، من عرضت له فيه صلاة فليصل ، ومن لم تعرض له صلاة فليمض .

فلو كان أولئك المصلون يومئذ في مرتبة عمر في العلم ، واستشعروا من إقبالهم على ذلك المسجد للصلاة فيه تعظيما له ، كما استشعر به عمر رضى الله عنه وعنهم أجمعين لما بادروا للصلاة فيه إلا إذا عرضت لهم صلاة ، ولا جرم إن أعظم الناس فهما للإسلام ، وعلمنا بغوامض الدين ووقوفا على مقاصد النبوة المحمدية ، وما كانت تدعو إليه من التوحيد البحت الخالى عن كل شائبة من الشوائب التي مر ذكرها ، هم أهل السابقة المهاجرين الأولين ، الذين تلقوا الدين أنجما كان ينزل بها الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من لدن البعثة ولازموا الرسول ملازمة الظل فاكثفوها سر شريعته ، وأدركوا مراعى غرضه ، وقلدوه في أعماله وأقواله ، وانتهجوا منهجه ، واهتدوا بسيرته ، فتنفوقوا على غيرهم في العلم بالدين وعرفوا حقيقة التوحيد ، ومن هؤلاء من هم في المرتبة الأولى في فهم مقاصد الإسلام ، ومنهم عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، ومن تتبع سيرته وأنعم النظر في أقواله وأفعاله وانطباقها على الكتاب الكريم ونهج السنة القويم ، علم ما هو التوحيد الذى أرشد إليه الإسلام ، وعرفه أولئك الصحابة الكرام ، فأرادوا أن يمحوا به كل أثر من آثار الوثنية عن صفحات الضمائر والقلوب ، وحسب العاقل دليلا على هذا قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه لكعب الأحبار لما أشار عليه يجعل المصلى إلى الصخرة . لقد ضاهيت اليهود يا كعب إلى قوله اذهب إليك فإننا لم تؤمر بالصخرة ولكننا أمرنا بالكعبة : وقد مر الخبر في الفصل السابق نقلا عن الطبرى ، ولأجله عقدنا هذا الفصل ، ليكون به عبرة وذكرى لقوم يعقلون .

* * *

تقدم معنا كيف تدرج العرب إلى الوثنية حتى أنسوا بلبس الأحجار ، وعكفوا على عبادة الأصنام ، وأن أصول التوحيد عند أرباب الأديان كلها

أفسدت تدريجاً ، كما حصل في دين العرب وإنما كان مبدأ هذا التدريج الاستسلام للشعور ، بوجوب تعظيم مظهر من مظاهر المادة يظن أن له صلة بما فوق المادة كالمعابد مثلاً ثم يأخذ هذا الشعور ينمو ، ويتعدى المظهر الأول إلى غيره ، ويتدرج في أطوار التعبد له ، حتى تنقلب صورة التوحيد المرتسمة على صفحات الضمائر ، إلى صورة من صور المادة متجسمة للحس ، ويسجل الإيمان بالله واحد فوق المادة ، إلى آلهة شتى كلها من المادة أولها صلة بها ، وهذا هو الشرك التام الجلي ومبدؤه ذلك الشرك الخفي ، ولم تكن دعوة الإسلام قاصرة على استئصال الوثنية فقط ، بل كان من مقاصدها الأولى والغايات التي ترمى إليها ، من أولها بالاهتمام ، وأجدرها بالعناية ، تطهير النفوس من كل أثر من آثار ذلك الشعور الفاسد ، ولو أشبه بدقته دقة الجرثومة الحية التي لا ترى إلا بالنظارة المكبرة ، إلا أنها إذا وجدت منبعثاً صالحاً لها تولد عنها ما لا يحصى من الجرائم في بضع ثوان فن قال بخلاف ذلك أو ظن أن الإسلام يتسامح في تلك الجزئيات ، أو يبيح تعظيم أى مظهر من مظاهر المادة تعظيماً دينياً ، أخطأ ونسب العيب إلى دين الله لهذا ولما أشرب قلب عمر (رضي الله عنه) من التوحيد الحق الصادق لم يتسامح مع كعب الأجباز حتى في خلعه نعليه عند دخوله المسجد الأقصى ، وآخذه على عمله ذلك كما آخذه على رأيه في جعل المصلى إلى الصخور كما رأيت ، وسترى من أخباره بهذا الصدد إن شاء الله .

هكذا كان فهم كبار الصحابة للدين ، ومن أمعن النظر في قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في إحدى خطبه التي مر إيرادها في هذا الكتاب ، وهو (إن الله لا شريك له ، وليس بينه وبين أحد من خلقه نسب بعطيه به خيراً ، ولا يصرف عنه سوء إلا بطاعته واتباع أمره) يعلم كيف كان أولئك الصحابة الكرام يعلمون الناس التوحيد ، ويقتلعون من أعماق نفوسهم أصول الشرك ، ورحم الله امرأ أحاسب نفسه ، وعرف دينه وتأدب بأدب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ونبتذع النفوس وأهواءها ، وتنكب مواضع

الزلل ، ومواقع الخطل ، وسوء الفهم والله ولى الرحمة ، وهو القاهر فوق عباده .

فتح حمص والمردنية وقنسرين

قيل إن هذه البلاد وما يليها شمالاً إلى أنطاكية ، فتحها أبو عبيدة قبل مسيره من حمص إلى أيلياء أى سنة (١٥) ، وقيل إنه فتحها بعد عوده من أيلياء سنة (١٦) وعندى أن هذا ، هو الأصح .

سار أبو عبيدة إلى معرة حمص ، فصالحه أهلها على صلح حمص ، سار إلى حماة فصالحه أهلها أيضاً ، وبعث خالد بن الوليد إلى قنسرين وسار هو إلى اللاذقية ، وقيل بل سار إليها عبادة بن الصامت ، فامتنع عليه أهلها أياماً ، فاحتال على فتحها بأن أمر الجنند أن يحفروا أسراباً فى الأرض ، كل سرب يستتر الرجل وفرسه ، فاجتهد المسلمون حتى حفروها ، ثم لأنهم أظهروا الففول إلى حمص فلما جنّ عليهم الليل عادوا إلى معسكرهم وحفائرهم ، وأهل اللاذقية غارون يرون أنهم قد انصرفوا عنهم ، فلما أصبحوا فتحوا بابهم وخرجوا وأخرجوا سرجمهم ، فلم يرعهم إلا تصليح المسلمين إياهم ودخولهم فى باب المدينة عنوة ، فهرب قوم من نصارى اللاذقية ، ثم لأنهم طلبوا الأمان على أن يتراجعوا إلى أرضهم ، فقوطعوا على خراج يؤدونه قلوأ أو كثروا ، وترك لهم كنيسهم ، وبنى المسلمون باللاذقية مسجداً جامعاً بأمر عبادة ثم وسع بعد .

ثم أخذ عبادة يتم فتح عمالة اللاذقية بأمر أبى عبيدة ، ففتح جبلة وانظر سوس وبانياس والمرقب وغيرها ، وكل هذه البلاد لم تزل معروفة إلى الآن بهذا الاسم وكان فتحها سنة (١٥ هـ) أو سنة (١٦) .

وأما خالد بن الوليد فإنه لما وصل إلى حاضر قنسرين زحف إليه القائد ميناس بجيش الروم ، فاقتتلوا قتالاً عظيماً وقتل ميناس ،

فأما الروم فماتوا على دمه ، وأما أهل الحاضر وكانوا من العرب من تنوخ نزله وهم في خيم الشعر ، ثم ابتنوا المنازل فأرسلوا إلى خالد أنهم عرب وأنهم إنما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه ، فدعاهم إلى الإسلام فأسلم بعضهم وأقام على النصرانية بنو سليح بن حلوان بن عمران بن الجاف ، فتركهم خالد فأرسلوا بعد ذلك يسيرون ، وقيل أرسلوا في خلافة المهدي العباسي ، ولما فرغ من حاضر قلنسرين سار إلى حاضر حلب^(١) فتيحصن أهلها منه فقال : إنكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم الله إلينا ، فنظروا في أمرهم وما لقي أهل حمص فصالحوه على صلح حمص ، فأبى إلا خراب القلعة فأخربها .

ولعمري إن قوماً بلغ اعتقادهم بالنصر إلى هذا الحد لقوم لا تعصم منهم العواصم ولا الحصون ، ولا تثبت أمامهم الجيوش وإنما حملهم على هذا الاعتقاد يقيهم الثابت بوعد الله ورسوله لهم بالنصر ، إذا نصروا الحق وتمسكوا بعري الإيمان فكانوا يدأ على من ناوأهم وعوناً لمن نصح لهم ووالاهم ، ومن لهذا غير أولئك الفاتحين الأخيار ، الذين جمعتهم كلمة الإسلام على الأخوة التي لا تنفصم عروتها ، والطريق التي لا يضل سالكها إلا إذ انحرف عنها وزاغ عن صراطها .

سير هرقل إلى القسطنطينية :

كان هرقل بعد فراره من حمص قصد أنطاكية ، ثم ارتحل على قول بعضهم إلى الرها (أورفا) في الجزيرة ليجمع منها جيشاً يمد به أهل حمص قبل سقوطها في يد المسلمين ، وكان المسلمون كما قدمنا في غير هذا المحل يقظين لا تخفى عليهم من أمر الروم خافية ، ولما استشعروا بمقاصد هرقل

(١) مدينة كانت على بعد مرحلة صغيرة من حلب ويقول ابن حوقل أن هذه المدينة أخربها الملك باسيلوس ثم تجددت على يد الأمراء من بني بيس التنوخية ثم أخربها عن آخرها تاج الدولة ، وأما حاضر قلنسرين فقريّة قريبة منها .

أدرب عليه من الكوفة عمرو بن مالك من قبل قرقيسيا ، وعبد الله بن المعثم من قبل الموصل والوليد بن عقبة من بلاد الجزيرة بجيوش المسلمين ، وطووا بلاد الجزيرة وخلفوا وراءهم عقبة لثلاثيوتوا من خلفهم .

وكذلك أدرب من قنسرين مما يلي الشام خالد بن الوليد ، وعياض بن غنم بجيش من المسلمين ، وعندئذ رحل هرقل إلى القسطنطينية وعاد القواد إلى أماكنهم دون حرب ، ولما بلغ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ما فعله خالد قال : أمر خالد نفسه يرحم الله أباه بكر هو كان أعلم بالرجال مني : (١) وقد كان عزله كما مر في سيرته ، وعزل المثنى بن حارثة الشيباني وقال : إني لم أعزلهما عن ربيّة ، ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلاوا إليهما .

وأما هرقل فإنه مضى على وجهه واستتبع أهل الرها فأبوا أن يتبعوه وقالوا نحن ههنا خير منا معك ، وتفرقوا عنه وعن المسلمين لما وصلوا إلى مدينتهم التي كان أول من دخلها منهم . وأنبح كلابها وأنقر دجاجها زياد ابن حنظلة وهو صحابي ، وكان مع عمرو بن مالك مسانده .

وكان لإدراك المسلمين إلى الرها ورحيل هرقل عنها سنة ١٦ .

ولما ارتحل هرقل لحقه رجل كان أسير آ في أيدي المسلمين فأفلت ، فقال له : أخبرني عن هؤلاء القوم ، فقال له أحدهم كأنك تنظر إليهم ، فرسان بالنهار ، ورهبان بالليل ، ما يأكلون بدمتهم (٢) إلا بشمن ، ولا يدخلون إلا بسلام : يقفون على من حازبهم حتى يأتوا عليه . فقال هرقل : إن صدقتي ليرثن ما تحت قدمي هاتين .

هذه الصفات السامية التي قل أن تجتمع في فاتح من الفاتحين ، هي التي

(١) وفي رواية أن عمر قال هذا القول لما فتح خالد قنسرين ، وقد ذكرناه في سيرة خالد .

(٢) يعني من أهل البلاد التي دخل أهلها في ذمتهم .
(١٧) أشهر مشاهير الإسلام)

مهدت لأولئك الأبطال تدوين الممالك الشاسعة وقلب كيان الدول لأعدادهم القليل ، وحدتهم الضعيفة بإزاء عدة الروم والفرس ، وعديدهم وضخامة ملكهم ، ومناعة حوزتهم ، ولهذا استشعر هرقل بضعف بنيانه وتقلص ظل سلطانه فيئس من عود ملكه في الشام وما يليها إليه ، فوقف لما باء عنها بالخسران وعاد بالخذلان وقال مودعاً لتلك البلاد الزاهرة والملك العريض .

عليك السلام يا سورية ، سلاماً لا اجتماع بعده ولا يعود إليك رومي أبداً إلا خائفاً ، حتى يولد الولد المشثوم وباليته لا يولد ، ما أحلى فعله وأمر عاقبته على الروم ، وفي رواية أنه قال :

لقد كنت سلمت عليك تسليم المسافر ، فأما اليوم فعليك السلام يا سورية تسليم المفارق ، ولا يعود إليك رومي أبداً إلا خائفاً ، حتى يولد الولد المشثوم وليته لم يولد .

فتح حلب وأنطاكية وغيرهما :

بعد أن تم لأبي عبيدة فتح حماة وقنسرين واللاذقية وغيرها سار إلى حلب وعلى مقدمته عياض بن غنم الفهرى فوجد أهلها متحصنين فنازلهم ، فلم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ومنازلهم ، والحصن الذي بها ، فأعطوا ذلك فاستثنى عليهم موضع المسجد ، وكان الذي صلحهم عليه عياض ، ولما انتهى إليهم أبو عبيدة أنفذ صلحه . وقيل إن أبا عبيدة لم يجد أحداً من المقاومة بحلب ، وإن أهل حلب صالحوه على مدينتهم بأن راسلوه من أنطاكية ، ولما تم لهم الصلح عادوا إلى مدينتهم ، وبينما أبو عبيدة في حلب أتاه الخبر بعصيان أهل قنسرين ، فوجه إليهم السمط بن الأسود الكندي ، فأخضعهم وقيل استعصى عليه فتح حلب فتركها وسار إلى أنطاكية ، وكتب إلى عمر بذلك فبعث إليه كتاباً يلومه فيه فرجع وفتحها .

ثم قصد أبو عبيدة حاضر حلب ، وكان كحاضر قنسرين ، يجمع أصنافاً من العرب ، فصالحهم أبو عبيدة على الجزية ، ثم لأنهم أسلموا بعد ذلك ، وحاولوا بعد وفاة الرشيد العباسي الاستيلاء على حلب ، فاستنجد أهل حلب من حولهم من العرب ، ولم يستطيعوا استنجد دار الخلافة لحصول فتنة محمد الأمين فيها ، فأنجدهم العباس بن زفر الهلالي ونازل أهل الحاضر فرحلوا عنه إلى قنسرين ، ثم غدروا بأهل قنسرين فجلوهم هؤلاء عن بلدهم ، ومن ثم تفرقوا في البلاد ، فقوم نزلوا تكريت ، وقوم أرمينيا وغيرها .

ثم قصد أبو عبيدة إنطاكية وكانت ذات خطر وشهرة ، وقد اتجأ إليها كثير من فالة قنسرين وغيرها من البلاد ، وتحصنوا فيها ، وبعثوا بجيش منهم إلى مهروبة على فرتخين من إنطاكية لصد المسلمين ، فلحق أبو عبيدة هذا الجيش ففضه وأجأهم إلى المدينة وحاصر أهلها من جميع أبوابها فصالحوه على الجزية والجلاء ، فجلا بعضهم وأقام بعضهم فأمنهم ووضع على كل حال منهم ديناراً وجريب حنطة ، وسار عنهم فنقضوا ، فوجه إليهم عياض بن غنم وحبيب بن مسلمة الفهرى ففتحها على الصلح الأول . ومن يرى أن فتح إنطاكية كان قبل إيليا يقول إنها نقضت بعد رجوع أبي عبيدة إلى فلسطين ، فوجه إليها من إيليا عمرو بن العاص ففتحها ، ومن قال هذا البلاذري في فتوح البلدان وما يخاله صواباً .

وكانت إنطاكية بسبب موقعها الجغرافي ، وحصانها وتفوقها على مدن سورية ، عظيمة الذكر والأمر عند عمر وعثمان رضي الله عنهما ، ولما فتحت كتب عمر إلى أبي عبيدة أن يرتب فيها جيشاً من المسلمين ، من أهل الحسبة والرأى يربط فيها وألا يحبس عن ذلك الجيش العطاء ، وهكذا فعل بعده عثمان رضي الله عنه ، فقد أمر معاوية وكان يومئذ والى الشام أن يلزمها قوماً من المسلمين ، وأن يقطعهم القطارع ففعل .

وبلغ أبا عبيدة بعد فراغه من أمر أنطاكية أن جمعاً من الروم بين معرفة مصرين وحلب ، فسار إليهم وقتلهم وفرق جمعهم ، ثم فرق خيوله في أنحاء البلاد ففتحت بوقا وسرمين وتيزين وجميع أرض قنسرين ، ثم سار أبو عبيدة إلى حلب وقد نقض أهلها فنازلهم وأخضعهم ، ثم سار أبو عبيدة نحو قورس ففتحها صلحاً وفتح تل عزاز ومنبج وسير عياضاً وحبيباً في جيشين من المسلمين ، فأتما فتح سورية إلى حدود الفرات شرقاً وآسيا الصغرى شمالاً وجعل أبو عبيدة على كل كورة فتحها عاملاً ، وضم إليه جنوداً من المسلمين ، وبعث جيشاً مع ميسرة بن مسروق العبسى إلى أطراف آسيا الصغرى ، فلقى جمعاً للروم معهم عرب من تنوخ وغسان يريدون للحاق بهرقل ، فأوقع بهم ثم لحق به مالك بن الأشتر النخعي مدداً من قبل أبي عبيدة ، وعادوا جميعاً سالمين غانمين ، وسير جيشاً آخر إلى مرعش مع خالد بن الوليد ففتحها وأخربها ، وعاد ، والظاهر أن الذى دعاه إلى إخراجها عدم وجود جند كاف يقوم بحمايتها من هجمات أهل الجزيرة والروم ، وإلا فرما يكون أخرب حصنها فقط ، لثلا يعتصم به أهلها بعد ، وينتفضوا على المسلمين .

صرهاجمة هرقل لسورية بعد استقرار ملك المسلمين :

هكذا انقضى أمر الروم في البلاد السورية ، وتم للمسلمين فتحها بعد حروب طويلة استمرت ثلاث سنين ، ولأق جند المسلمين في غضونهما من العناء ، وبذلوا من الدماء ما جعل ثمن هذه البلاد عليهم غالياً ، ومقامها في نظرهم عالياً ، وكان لرجال قريش وأشرافها في حرب الشام خاصة من الأثر العظيم والبلاء الجسيم ما لم يكن لقوم غيرهم في الفتوحات الأخرى ، وقتل منهم في وقائع الشام عدد كبير لاسيما في وقعة اليرموك ، وكان من قتل منهم عكرمة بن أبى جهل وابنه عمرو وخالد بن سعيد وهشام بن العاصى وسهيل بن عمرو وأبان بن سعيد وأضرابهم من صناديد قريش وأشرافها ،

وكان للنساء القرشيات من البلاء ما كان للرجال أيضاً ، فقد روى الطبرى أن النساء المسلمات قاتلن يوم اليرموك وخرجت جويرية بنت أبي سفيان (القرشية) فى جولة . وقال البلاذرى . وقاتل يوم اليرموك نساء من نساء المسلمين قتالا شديداً ، وجعلت هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان تقول : عضدوا الخلفان بسيوفكم :

وبالجملة فقد لاقى المسلمون فى فتح الشام أهوالا شداداً ، وصادمو أعدوا استمات فى الدفاع عن حوزته ، والذب عن سلطانه ، إذ لم يكن هرقل وجنوده بأقل ثباتاً وإقداماً وجراً من العرب ، يدلك على هذا ماظهر من الروم فى الوقائع الأولى التى حدثت فى اليرموك ودمشق وفحل وأجنادين وغيرها ، وعدا هذا فإنه لما استقرت قدم المسلمين بالشام ، وتمكن سلطانهم منها فى الشرق والغرب ، وسار أبو عبيدة عن إنطاكية بعد أن استخلف عليها وعلى قنسرين وحلب وغيرها من استخلف من القواد ، لم يستقر لهرقل حال ولم يهدأ له بال فأعاد الكرة على البلاد السورية فى سنة (١٧ هـ) بتحريض أهل الجزيرة له ، ووعدهم له بالمظاهرة والنصرة ، فلم يفجأ المسلمين إلا وهرقل قادم بجند كثيف إلى حمص من طريق البحر ، واستمد أهل الجزيرة وكاتب أهل حمص بالخروج على المسلمين فأبوا عليه وأرسلوا إليه ، إنما قد عاهدنا المسلمين ، فنخاف ألا ننصر ، وكان أبو عبيدة فى حمص فاستمد خالداً فجاءه من قنسرين بمن معه من الجنود فانضم أهل قنسرين بعده إلى هرقل ، وحاصر هذا أبو عبيدة فى حمص ، فاستشار أبو عبيدة القواد فأشار عليه خالد بالمناجزة ، وأشار غيره بالكتابة إلى عمر ، ومطاولة هرقل ريثما يأتى منه الجواب فعمل برأيهم ، وكتب إلى أمير المؤمنين يستمده ، وجاءت لهرقل الجيوش والأمداد ، وكان أمداد الجزيرة وحده ثلاثين ألفاً على مارواه الطبرى ، وبلغ الروم من المسلمين كل

مبلغ ، ووصل الكتاب إلى عمر فكتب إلى سعد بن أبي وقاص في العراق إن أبا عبيدة قد أحيط به ولزم حصنه، فبث المسلمين بالجزيرة وأشعلهم بالمسلمين عن أهل حمص ، وكان عمر أعد في كل مصر قدراً من الخيل وكان في الكوفة أربعة آلاف فارس ، فلما وصل كتاب عمر إلى سعد بعث بالجند مع القعقاع بن عمرو ، وعبد الله بن عتيان ، وسهيل بن عدى ، وعياض بن غنم وكان عياض قد عاد إلى العراق بعد فتح الشام لأنه من جند العراق ، وأشار عليهم بأمر عمر بن الخطاب أن يسلك كل أمير طريقاً إلى الجزيرة ، فيقصد واحد قريسياء ، والآخر الرقة ، والثالث نصيبين ، والرابع حران والرها ، واهتم لهذا الأمر عمر بن الخطاب فخرج من المدينة ممدداً لأبي عبيدة حتى نزل الجابية ، وكان القعقاع تعجل بأربعة آلاف فارس إلى حمص ، ولما بلغ الروم ذلك انفضوا إلى مدائنهم ، وبادروا المسلمي إليها ، فتحصنوا ونزل المسلمون عليهم فنعمهم عن أمداد هرقل ، فذب الفشل في جنوده، وراسل طائفة من تنوخ خالد بن الوليد بالتسليم أو الهزيمة ، وكان خالد بن الوليد لشجاعته وعأوهمته لا يحب الغلبة إلا بفل صفوف الأعداء ومناجزتهم في الطيحاء ، فأرسل إلى تنوخ ، والله لولا أني في سلطان غيري ما باليت أأقلتم أم أكثرتم، أو أقتم أو ذهبت ، فإن كنتم صادقين فانفشوا^(١) كما انفش أهل الجزيرة فوعده بالهزيمة إذا خرج إليهم المسلمون وقال المسلمون لأبي عبيدة قد تفرق أهل الجزيرة وندم أهل قيسرين وواعدوا من أنفسهم وهم العرب فاخرج بنا ، هذا وخالد بن الوليد ساكت فقال له أبو عبيدة مالك لا تتكلم ، فقال : قد عرفت الذي كان من رأيي فلم تسمع من كلامي : قال : فتكلم فإنني أسمع منك وأطيعك : قال : فاخرج بالمسلمين فإن الله تعالى قد نقض من عدتهم (يعني الروم) وبالعدد يقاتلون وإنما نقاتل منذ أسلمنا بالنصر فلا تحفلك كثيرهم .

(١) يقال انفش الرجل أى قتر وكسل .

روى الطبري بعد سياق هذا الخبر عن علقمة بن النضر وغيره قالوا ،
فجمع أبو عبيدة الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال .

أيها الناس ، إن هذا يوم له ما بعده ، أما من حى منكم فإنه يصفو له
ملكه وقراره ، وأما من مات منكم فإنها الشهادة ، فأحسنوا بالله الظن ، ولا
يكرهن إليكم الموت أمر قد افترفه أحدكم دون الشرك ، توبوا إلى الله وتعرضوا
للسهادة ، فإنني أشهد وليس أوان الكذب ، أنى سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول : من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة .

وكانما كان في الناس عقل^(١) ، تنشطت ، فخرج بهم وخالد على الميمنة ،
وعباس على الميسرة وأبو عبيدة في القلب ، وعلى باب المدينة معاذ بن جبل ،
ونشب القتال فإنهم لسكذلك إذ قدم القعقاع متعجلاً في مائة ، وانهمز أهل
قنسرين بالروم ، فركبهم المسلمون وتمت الهزيمة وعاد هرقل وجنوده بالخبية
وظهر من يقظة المسلمين واستعدادهم ، واهتمام أمير المؤمنين بهم في هذه الحادثة
ما رأيت ، لا يظن بقوم مثلهم حديثي عهد بالبدواة . ولما ظفر المسلمون
بجمعهم أبو عبيدة وخطبهم ، وقال لا تنكلو^(٢) ولا تزهّدوا في الدرجات ،
فلو علمت أنه يبقى منا أحد لم أحدثكم بهذا الحديث .

وتوافى إليه آخر أهل الكوفة في ثالث يوم من يوم الواقعة ، فكتب
المسلمون إلى عمر وهو بالجاية بالفتح وبقدوم أهل الكوفة بعد ثلاثة ،
وطلبوا منه الحكم في ذلك ، فكتب إليهم أن أشركوهم وقال : جزى الله
أهل الكوفة خيراً ، يكفون حوزتهم ويمدون أهل الأمصار .

(١) جمع عقال وهو ما يعقل به البعير

(٢) قال في القاموس نكل نكص وجبن .

ما كل حديث نحدث به العامة وندم أبى عبدة على نقله الحديث لعامة الناس:

كل مسلم أكتنه كنه الدين الإسلامى ووقف على حكمه وأسراره ، يرى من آياته العظمى فى الترغيب والترهيب ، ما لو أحسن استعماله ووضع فى موضعه لكان لى لإزعاج النفوس الشريرة عن مواطن الرذيلة مهما التصقت بها ، وأمعنت فيها ولجعل النفوس البارة نوراً على نور ، وألبسها من الفضيلة لباساً لا يصيبه بلى ، وقد جاء الكتاب الكريم بالترغيب ليكون باعثاً للنفوس على العمل الصالح ، رجاء الثواب الآخروى الذى أعد الله لعباده الصالحين ، لا ليكون وسيلة لاستدراج النفوس فى مدارج الاستباحة ، طمعا فى عفو الله ، لهذا جاء بإزاء الترغيب بالترهيب لترسم على صفحات النفوس صورة العقاب كما ارتسمت صورة الثواب ، فيكون لها منها داع إلى الخير يذكرها بالثواب ، ويمكن منها الرغبة فيه لا إلى حد الطمع والغرور ، ثم الاستدراج فى الشرور وزاجر عن الشر يذكرها بالعقاب ويمكن منها الرهبة منه ، لا إلى حد الانقطاع إلى تقويم أود النفس ، وتعطيل وظائف الحياة ولا إلى حد اليأس والقنوط ، ثم الاسترسال فى الشهوات واقتراف المنكرات على ذلك الأساس بنى الترغيب والترهيب فى الإسلام ، وكل ما جاء منه فى الحديث النبوى فالمراد منه عين ما أراده القرآن ، ولكن ما الحيلة وقد أوقع كثير من علماء المسلمين بالإفراط فى الوعظ ترغيباً وترهيباً ، وحملوا عامة الناس على طر يقتهم فى فهم الدين ، فأكثروا من حمل الحديث وروايته دون التفهم له ، والعلم بمقاصده ووضع كل شىء منه فى محله ، والتفريق بين صحيحه وموضوعه ، حتى أغروا العامة بعقيدة الإباحة لكثرة ما يروون لهم من أحاديث الترغيب ولو موضوعة ، كفضائل الصيام والصلاة وفضائل الشهور والأيام وفضائل التلاوات ، وجلها إن لم نقل كلها من الموضوع الذى تستدرج به العامة للاستباحة لاعتقادهم بأن من صام كذا غفر له من السيئات كذا وكذا ، ومن تنفل يوم كذا حمت سيئاته إلى كذا ، ولقد بلغ ببعضهم سوء الفهم للدين أن جعلوا لبعض القصائد النبوية من

الفضائل ، مالم يجعلوه للقرآن فقالوا لمن البيت الفلاني منها لشفاء الأسقام ،
والآخر لمحو الذنوب والآثام ، والثالث للنجاة من ظلم الحكام ، فليت شعري
إذا اعتقد العاوي أن تلاوة بيت من قصيد يكفي لمحو كل ما يقتربه في يومه من
الآثام ، فإلى أية درجة ينتهى فساد أخلاقه وشرور نفسه ، وماذا ينفعه
القرآن بأوامره ونواهيه ، ووعدته ووعيده ، وحكمه وأحكامه .

اللهم إن هذا لغاية الاستهانة بالدين ، والجهل بمقاصد الإسلام ، ومنشؤه
اضطراب الأفهام ، وتلبس الحقائق بالأوهام ، منذ أخذ الوضاعون
بالكذب على رسول الله ﷺ ، وأدخلوا في الدين ما ليس منه ، يضاف
إليه الإكثار من حمل الحديث على غير تفقه فيه ، ووضع له في مواضعه
التي أرادها الشارع وقصدها الإسلام ، ولو تتبع العلماء سيرة الصحابة الكرام
سيما خاصتهم الذين لازموا النبي عليه الصلاة والسلام ، وفهموا هذا الدين
حق الفهم ، لرأوا كيف أنهم كانوا يقولون من رواية الحديث إلا للخاصة ،
أو ما تعلق منه بالأحكام حتى بلغ بعمر رضى الله عنه أن كان ينهى عن
رواية الحديث ، ويقول عليكم بالقرآن كما ستري بعد ، وما ذلك إلا خوف
الكذب على رسول الله ﷺ ، إذا كثرت الرواية والنقل ، وخوف افتتان
العامة بما ليس لهم به علم ، وبما لم يتفقهوا فيه من الحديث .

أبو عبيدة بن الجراح كان من خيرة الصحابة ، وعلى جانب من التفقه في
الدين والورع والتقوى ، دعا النبي صلى الله عليه وسلم لأن يسميه أمين هذه
الأمه ، وقد سمع من رسول الله ﷺ ، حديثاً ربما لم يسمعه منه أحد من
الصحابة وأسمعه بعض الخاصة ، فرأى هذا الأمين أن يطوى هذا الحديث
بين الجوانح ، ويضن به على العامة ، كما ضن به عليهم رسول الله ﷺ ، لأن
عقول العامة يلبسها الاعتزاز ، ونفوسهم يلامسها الضعف وحب الشهوات ،

فهم بالوعيد أولى ، وبإلزامهم ظواهر الشرع أخرى ، ولكن لما أجهاته الضرورة القصوى وهو محصور مع المسلمين في حصص ، ورأى منهم فتوراً عن ، الحرب لا لوهم في نفوسهم ، أو جبن أصابهم ، كلا وإنما هو لرهبة الخالق التي تمسكت من أفئدتهم وقلوبهم ، وأخافتهم من الموت لا لذاته بل لما بعده ، قام نخطب فيهم وتلا عليهم الحديث وهو (من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة) استحثائاً لهمهم ، وتخفيفاً لروعهم عما بعد الموت رجاء رحمة الله وعفوه ، عن ذنوب اقترفوها عما دون الشرك إذا تابوا وأنابوا .

قال لهم هذا وهو يظن أن هذا الحديث لا يتعدى أسماعهم ، لاعتقاده أنهم إذا خرجوا من الكوفة الروم لا يبق منهم أحد يحدث به أو يلبس نفسه أثر منه ، لكثرة من كان على حصارهم من جند الروم ، ولما تم الظفر للمسلمين ونجوا من براثن العدو ندم على أن حدثهم بذلك الحديث ، وخشى من أن يعلق في نفوسهم شيء منه ، مع أنه علقه على التوبة فقام وخطب فيهم فقال .

لا تشكوا ولا تزهدوا في الدرجات ، فلو علمت أنه يبق منا أحد لم أحدثكم بهذا الحديث .

وتالله إن قوما بلغ بهم الإيمان الصادق واليقين الثابت ، ذلك المقام ، مقام الرهبة من الله ، ومن الوقوف بين يدي قدرته بعد الموت لقوم عامتهم أعلم بالدين ، وأخلص في اليقين ، من خاصتنا ومع هذا فقد ندم أبو عبيدة على أن حدثهم بذلك الحديث ، فليت شعري كيف يكون الحال بعد ذلك العصر وماذا يشترط في المحدثين وحمة علوم الدين ، ألا يشترط الوقوف على مقاصد الإسلام ، والتفقه في الحديث والعلم بحالة المخاطبين ، واجتناب الغلو معهم

في الترغيب والترهيب ومراعاة ما يلابس عقولهم من القوة والضعف ، وأن
يتيسر هذا وقد فتج عن كثرة الرواية ، وحمل الحديث بلا تفقه فيه زيغ
العقول عن مقاصد الشرع ، واجترأ الكذابين على وضع الحديث ، وشحن
الكتيب الإسلامية بما لا يرضاه الله والرسول ، وهو ما كان يحذره عمر بن
الخطاب رضى الله عنه ، ولهذا نهى في عصره الذي هو خير العصور عن
الإكثار من رواية الحديث فما بالك بما يلي عصره من العصور .

ذكر الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي الأندلسي في كتابه
جامع بيان العلم ، وفصله في باب ذكر من ذم الإكثار من الحديث دون التفهم
له والتفقه فيه ما نصه .

عن ابن وهب قال سمعت سفيان بن عيينة يحدث عن بيان عن عامر
الشمعي عن قرظة بن كعب قال : خرجنا نريد العراق ، فخشى معنا عمر إلى
حرار فتوضأ فغسل اثنتين ثم قال : أتدرون لم مشيت معكم : قالوا نعم ، نحن
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مشيت معنا : فقال : لأنكم تأتون
أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم بالأحاديث
فتشغلوهم ، جودوا القرآن ، وأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، امضوا وأنا شريككم : فلما قدم قرظة قالوا حدثنا قال نهانا
عمر بن الخطاب هـ .

ثم قال ابن عبد البر بعد هذا بقليل ما نصه : قول عمر إنما كان لقوم لم
يكونوا أحصوا القرآن فخشى عليهم الاشتغال بغيره عنه ، إذ هو الأصل
لكل علم ، هذا معنى قول أبي عبيد في ذلك : ثم قال بعد ذلك أيضاً : إن
نبيه عن الإكثار وأمره بالإقلال من الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

إنما كان خوف الكذب على رسول الله ﷺ ، وخوفاً أن يكونوا مع
الإكثار يحدثون بما لم يتيقنوا حفظه ولم يعوه ، لأن ضبط من قلت روايته
أكثر من ضبط المستكثر وهو أبعد من السهو والغلط ، الذي لا يؤمن مع
الإكثار ، فلماذا أمرهم عمر من الإقلال من الرواية اهـ .

القواد الذين مضروا فتوح الشام :

من كان له البلاء الحسن من القواد في فتوح الشام غير القائد العام الذي
كان خالد بن الوليد ، وبعده أبو عبيدة بن الجراح ، خالد بن سعيد ، وعمر
ابن العاص ، ويزيد بن أبي سفيان ، وأخوه معاوية ، وحبيب بن مسلمة
الفهري ، وعياض بن غنم الفهري ، وشرحبيل بن حسنة ، وكل هؤلاء من
قريش إلا الأخير فإنه حليف بني زهرة من قريش ، وأما غير هؤلاء من
ليسوا من قريش فهم ذو الكلاع الحميري ، والقعقاع بن عمرو^(١) ، والسمط
ابن الأسود الكندي وعلقمة بن مجزز ، وعلقمة بن حكيم الفراسي ، وعبادة
ابن الصامت ، ومالك بن الأشتر النخعي ، ومسروق بن فلان العكي ، وأبو أيوب
المالكي وغيرهم .

هكذا تم فتح هذا القطر السوري ، لأولئك القواد البواسل ، وقد رأيت
من حسن ترتيبهم للجيش ، وللمسامهم بطرق البلاد ، وتفنيهم بأساليب
الحرب ، وقهرهم للعدو ، ما يدل على علو كعبهم في فن الحرب ، وخبرتهم بالبلاد
حتى كان أمير المؤمنين وهو بالمدينة يصدر أوامره للأمرء في كيف يسترون
وأى المسالك يسلكون ، وأى البلاد يقصدون ، كأنما كان ينظر إلى هذا
القطر على خارطة مصورة بين يديه ، والعلة في هذا أن القطر السوري بسبب

(١) القعقاع وعياض هما من جند العراق لا الشام ، ووفدا مع خالد بن الوليد أيام مجيئه من
العراق وماد القعقاع بعد فتح دمشق ، وعياض بعد فتح أنطاكية وقيل قبلها إلى العراق .

اتصاله بجزيرة العرب من جهة الحجاز كان كجزء طبيعي منها ، عرف العرب طريقه وبلاده وأحواله كافة ، كما عرفوا نفس الجزيرة ، يضاف إليه أن قسما عظيما منه كان مأهولا بالعرب من مضر ، وكانت صلة الاختلاط والمتاجرة غير منقطعة بين الحجاز وسورية تمتد إلى أجيال متطاولة قبل المسيح ، وكانت قوافل قريش قبل الإسلام تتردد إلى سورية أكثر من غيرها ، لهذا كان كثير من الصحابة ، ومنهم عمر بن الخطاب عارفين بطرق البلاد وأحوالها ذوى علاقة تجارية بسكانها .

مقدمة جغرافية ونظرة اجتماعية :

قد رأينا بعد الفراغ من الكلام على فتح سورية أن نأتى على خلاصة جغرافية للبلاد السورية ، نضمها أهم المباحث الجغرافية والاجتماعية المتعلقة بهذا القطر قديماً وحديثاً ، مع بيان صنائعه وعدد سكانه وأقسامه وجبايته ، كل ذلك على وجه الإجمال الذى يسعه المقام ، إذ التفصيل ليس من شأن التاريخ العام بل هو من شأن التواريخ الخاصة . . فنقول :

يحد سوريا شمالاً ولاية أدنه (كيليكيا) من آسيا الصغرى ، وشرقا الفرات والبادية ، وجنوباً جزء من بلاد العرب ، ويقال له تيمه بنى لإسرائيل ، وغرباً بحر الروم أى البحر المتوسط ، وقد قام فى هذا القطر حكومات كثيرة تعددت تعددت بتعدد الأقاليم القاطنين فيه كالفيثقيين (١) والحثيين والأموريين

(١) الفيثقيون كانوا يسكنون سواحل الشام الجنوبية وبعض الشمالية ، وكانت عاصمتهم القديمة صيدا ثم ابثنوا صوراً حوالى سنة ١٥٠٠ قتل المسيح بعد خراب صيدا ، وكانوا من أنشط الشعوب وأعرفهم بسلوك البحار وطرق الاستعمار ، فاستعمروا معظم جزائر البحر الأبيض وذهبوا إلى سواحل أفريقيا الشمالية وأسسوا هناك مدينة قرطاجنة الشهيرة التى يقال لمتها كانت قرب تونس ، وقطعوا مضيق جبل طارق إلى المحيط ، وبالجملة فقد كانوا أعظم دول البحار فى عهدهم ، ويشبههم بعض المؤرخين بدولة انكلترا لهذا العهد .

والكنعانيين وغيرهم، من الشعوب ، ثم رحل إليه بنو إسرائيل من مصر ، وزاحموا سكان البلاد وأخذوا قسما عظيما منه ، وغزاه كثير من الدول القديمة ، كدولة الفراعنة المصريين والماديين والفرس والرومان وعرب الإسلام ، ولم تثبت فيه قدم دولة من الدول الفاتحة كما ثبتت قدم دولة الرومان ودولة الإسلام ، فقد كان ابتداء دولة الرومان من سنة ٦٥ ق . م إلى سنة (٦٣٣ م) ، حيث ابتدأ الفتح الإسلامى فى البلاد السورية ، وكانت نهايته (٦٣٨ م) أو (١٧ هـ) وفيها تقلص ظل الروم عن هذا القطر وقد كان على عهد الرومان مقسوما إلى ثلاثة أقسام كبيرة ، وهو فلسطين وتوابعا ، وأنطاكية وتوابعا ، وكان القسم الشمالى منه يسمى سورية والقسم الجنوبى يسمى فلسطين ، فأطلق عليه اسم سورية منذ تملكه الرومان ، ولما تملكه المسلمون أطلقوا عليه اسم الشام ، وقسمه عمر (رضى الله عنه) إلى أربعة أقسام ، القسم الأول النغور ، وسماها هارون الرشيد العواصم ، وهى حمص وقفسرين وحلب وأنطاكية وحاضرة هذا القسم حمص ، والقسم الثانى دمشق ، والقسم الثالث الأردن وحاضرتة مدينة الأردن (طبرية) ، والقسم الرابع فلسطين وهذا قسمه إلى قسمين قسم حاضرتة الرملة ، وقسم حاضرتة إيلياء (القدس) وكل قسم من هذه الأقسام يسمى جنداً ، وتحت كل قسم أقسام تدعى كورا ، وسيأتى الكلام على هذا بالتفصيل فى غير هذا المحل إن شاء الله .

وقد توفرت فى هذا القطر أسباب المكاسب الثلاثة وهى الزراعة والصناعة والتجارة ، لخصب أراضيها وموقعه الجغرافى ونشاط أهله للعمل ، إلا أن هذه الأسباب كانت تملو وتسفل بنسبة حال الدول الحاكمة فى هذا القطر ، ومن المقرر أن عمران الممالك تابع لترقى الدول ، وقد كانت دولة الرومان الشرقية على عهد الفتح الإسلامى دولة لحقها الهرم والعجز ، وعفت من ممالكها آثار التمدن الرومانى العظيم لما أصاب أهلها من الانشقاق الدينى ، والاختلاف المذهبى الذى أودى بحياتهم السياسية ، وفرق جامعتهم

الملية ، ولما تولى الإمبراطورية هرقل سنة (٦١٠ م) كان أمر المجادلات الدينية في أشده ، تخاض الإمبراطور نفسه في غماره ، واشتغل بالأمور الدينية ، تاركاً أمور الدولة السياسية لوزرائه وأرباب دولته ، ومن ثم ظهر الوهن في الدولة في أتم مظاهره ، فغزتها دولة الفرس واكتسحت جزءاً من ممالكها عظيم ، وهو آسيا الصغرى وسورية ومصر ، وكاد الإمبراطور هرقل يزائل بكرسيه الإمبراطورى القسطنطينية ، ويتخذ قرطاجنة عاصمة له ، ولم يمنعه عن هذا العزم بطريق القسطنطينية ، حتى نهض مرة ثانية بجثمان ثابت لمحاربة الفرس واسترد منهم ما انتزعوه من ممالكه ، كما تقدمت الإشارة إليه فيما مر من هذا الكتاب .

ولاريب في أن ما أصاب هذه المملكة من التقهقر يومئذ كان لسورية منه حظ عظيم ، ونسكت كما نكتب ذلك الملك العريض بسوء السياسة والضعف والانقسام ، لاسيما وأنها كانت حديثة عهد بمعاهد الفرس ، التي لم يكن مضى عليها حين الفتح إلا بضعة عشرة سنة : إذ أن هذه البلاد لم تكن لما دوخها المسلمون راقية مراقى العمران ، ولم تكن أسباب المكاسب الثلاثة متوفرة عند السكان ، إلا أن استعدادها الطبيعى لقبول العمران ، وما فيها من بقايا المدنية الغابرة ، تسكفل برقى أهلها في مراقى السعادة ، مذ بسطت عليها دولة العرب المسلمين جناح السلطان .

نعم نحن ليس لدينا نص تاريخى واضح على مبلغ ما وصلت إليه هذه البلاد من الرقى ، على عهد الخلفاء الراشدين والأمويين في صدر الإسلام ، لما أن أخبار تلك العصور انتهت إلينا بالرواية ، ولم يكن تدوين التاريخ الإسلامى معنياً به في ذلك العصر ، إلا أن هناك من الأدلة والأسباب ما يحتملنا على الظن بل اليقين ، بأن البلاد السورية صارت يومئذ إلى أبعد غاية من غايات الترقى ، في أصول المكاسب الثلاثة ، الصناعة والتجارة والزراعة .

من المعلوم بالبداهة أن العدل أساس العمران ، ومتى تنظمت أصول الجباية ، ورفع عن الرعية العسف ، وخفت المظالم ، وأطلق للأهلين عنان الحرية ، توفرت لهم أسباب الراحة ، ونشطوا من عقال الخنول ، فهبوا للأخذ بأسباب المكاسب ، وتبسطوا في مناحي العمران ، وقد رأيت فيما مضى من أخبار الفتح كيف أن سكان البلاد كانوا يصالحون على مقدار معين من الجزية والخراج ، لم يتجاوز حد العدل والاستطاعة ، وروعت فيه بالطبع ثروة البلاد ومقدرة كل فرد من الأهلين ، وأن هذا القدر المعين في عصر الفتح استمر على ما هو عليه مدة الخلفاء الراشدين والأمويين وصدراً من خلافة العباسيين ، وأن سببه محافظة الخلفاء على العهود التي بأيدي السكان ، ويضاف إليه تجنب تلك الدول لأسباب السرف لقرب عهدا بالبداهة ، وجدتها في تأسيس الملك ، وعدم حاجاتها لهذا السبب إلى التعسف في الجباية ، والإكثار من المظالم ، وقد كانت جباية الأقسام السورية الأربعة في عهد الأمويين على ترقى العمران في البلاد هي ما يأتي نقلاً عن فتوح البلدان :

دينار

الأردن ١٨٠٠٠٠

فلسطين ٣٥٠٠٠٠

دمشق ٤٠٠٠٠٠

٨٠٠٠٠٠ العواصم (وهي حمص وقنسرين وحلب وأنطاكية وتوابها)

الجمع ١٧٣٠٠٠٠

وهذا المبلغ ليس بشيء بالنسبة لعمران البلاد يومئذ ، وربما بلغت جباية البلاد في عصور تقهرها أكثر من ذلك ، وجبايتها على تدنيها في العمران ، وفقد الصناعة منها ، وضعف التجارة والزراعة فيها ، أكثر من جبايتها في صدر الإسلام كما سترى .

وهذا دليل على تناهى الخلفاء يومئذ بالعدل ، وعدم عسفهم في الرعية ،
يضاف إليه أيضاً جلوس الخلفاء بأنفسهم للمظالم إلى عهد عمر بن عبد العزيز ،
وإنصافهم للرعية ، وقيامهم على وسائل العمران ، وتمصير الأمصار وتأسيس
الملاجىء ، كوضع عمر بن الخطاب لدور الضيافات الخاصة بأبناء السبيل
والمنقطعين ، وترتيبها في الطرق من الحجاز إلى الشام ، ومنها إلى العراق ،
وتأسيس معاوية لمدينة طرابلس الشام ، وتمصير سليمان بن عبد الملك لمدينة
الرملة ، وتشديد الوليد بن عبد الملك الملاجىء للزمنى والمجذمين ، وأمره
ببناء الفنادق للمسافرين ، فيما بين الأقطار المتباعدة ، كما صنع عمر بن الخطاب ،
وعنايته أى الوليد بإصلاح الطرق المسهلة لنقل التجارة ، وإطلاق الخلفاء
لحرية المعتقدين الطوائف الوطنية من اليهود والنصارى ، وعدم انحياز
أحدهم لفريق منهم دون آخر ، كما كان ينحاز ملوك الروم ، ويثيرون بين
الرعية ثائرة التباغض والشحناء ، كل هذا وغيره من أسباب الراحة والأمن ،
ودواعي الترقى والعمران ، يدلنا على رقى البلاد على عهد الخلفاء الراشدين
والأمويين والعباسيين أيضاً ، وتمتع أهلها بسعادة الراحة والعمران ، التي لم
يتمتع بها هذا القطر في عهد غير دولة المسلمين ، إلا قليلاً على عهد الفينيقيين
أيام مجدهم ، والرومانين أيام تمدنهم .

ولما انقسمت دول الإسلام على بعضها ، وتداول هذا القطر السورى
عدة من الدول كالفاطميين والأثراك والأكراد والجراكسة ، أخذ بالانحطاط
تبعاً لانحطاط الدول الحاكمة ، وأصيب من النكبات بما لم يصب به غيره
من الأقطار الإسلامية ، إذ هاجمته في أواخر القرن الخامس من الهجرة
جيوش الصليب ، واستعرت في أرجائه نيران تلك الحروب المشؤمة مدة
جيلين كاملين ، الله أعلم بما أصاب في غضون هذا القطر من الخراب والتدمير ،
ثم تبع ذلك هجوم التتار عليها في نصف القرن السابع للهجرة ، وتخربهم
(١٨ — أشهر مشاهير الإسلام)

للمدن والأمصار وفعلهم في البلاد وأهلها الأفعال الكبار ، وتلا ذلك هجوم تيمورلنك عليها في أواخر القرن الثامن ، بعد اكتساحه لها في طريقه من بمالك الإسلام ، وفعل في سورية الأفاعيل ، وأجلى عن دمشق خاصة العلم والصناعة ، واستصحبهم معه في عودته إلى سمرقند .

على أن موقع هذه البلاد الجغرافي ، وطبيعة أرضها المشهورة بالخصب ، وأهلها المعروفين بالجلد ، حفظ لها ذماء الحياة ، وأعان أهلها على تحمل المصائب ، فلم تنحط إلى الدرجة التي تفقد معها أصول المكاسب ، بل استمرت حلب ودمشق إلى عهد قريب محطاً لحركة القوافل الآتية من العراق تحمل بضائع العجم والهند ، وتعود بالبضائع الشامية بل والبضائع الغربية أيضاً إذ كان هذا الطريق قبل فتح ترعة السويس أخصر طريق بين الغرب والشرق .

وكذلك الصنائع فإنها بقيت حية نامية حتى في العصور المتأخرة على عهد ملوك الطوائف ، يدلنا على هذا ما بقي منها وما لم يبق أيضاً لوجود أثره الذي ينبئ عنه ، فأما الباقي منها إلى الآن فهصناعة الأقمشة الحريرية والقطنية ، كأقمشة اللبس المعروفة بالشاهية أو القطنية والديما أو العزلية والألأجا والحامدية وغيرها ، وكأقمشة الزينة كالستائر والمتكئات وغيرها من أقمشة الحرير والصوف والقطن المختصة بالزينة وأخصها الأملس المعروف قديماً بالدامسقوو ، إلى غير ذلك من أنواع الأقمشة كالشراشف والمناشف والكوفيات والأحزمة ، كل هذا باق إلى الآن وهو في أعلى طبقة من دقة الصناعة ورواء المنظر ومتانة النسيج وبهاء الألوان وتناسب النقش ، وقد اختصت ببعض هذه الصنائع دون البعض الآخر كثير من البلدان السورية كحلب وحماة وحمص ودمشق وطرابلس والذوق (من لبنان) وغيرها .

وصناعة الحفر والنقش على الخشب بالصدف المعروفة (بالمقصص)
وهي من الصناعة الخاصة بدمشق ، وقد ترقّت الآن فتعدت الصدف إلى النقش
بقطع الخشب الملون الدقيقة بحيث لا يظنها الناظر إليها إلا منقوشة بالدهان ،
لتماسك الأجزاء الصغيرة والتحامها التحاماً لا يظهر منه أن النقوش إنما
هي أجزاء صغيرة ملتصقة في الخشب إلا بعد إمعان النظر فيها والتدقيق
في نقوشها .

وصناعة الصابون ومعاملها لم تزل تشتغل إلى الآن في حلب ودمشق
ونابلس وغيرها .

وصناعة النشا وفي دمشق معامل كثيرة لها تسمى القاعات ، لم تزل لهذا
العهد تصنع كميات عظيمة من النشا إلا أنه قل تصديره إلى الخارج بسبب
مزاومة النشا الإفرنجى له في البلاد التي كان يصدر إليها كمصر وغيرها .

وصناعة الدباغة وهي موجودة في معظم المدن السورية ، إلا أنها ساذجة
لم تترق ، إلا في مدينة زحلة التابعة لجبل لبنان ، فإنها تحسنت الآن وكادت
تضاهي الجلود التي تصنع في زحلة الجلود التي تصنع في معامل أوروبا .

وصناعة البناء والحفر في الأحجار ، ونقشها نقوشاً نائثة أو مجوفة ،
وهي صناعة قديمة في البلاد تمتد إلى زمن الفينيقيين ، كما يستدل على ذلك
بالآثار الحجرية الباقية إلى الآن ، والظاهر أنها كانت تختلف باختلاف حال
الدول ، وحبها للبخ وميلها للعمران ، فالبناء في عصر الفينيقيين ومن تلاحم
من الدول في سورية كان ظاهر الفخامة ، عظيم الضخامة ، متقن النقش
والترتيب ، كميكل بعلبك الذي بلغ الغاية في إتقان البناء والتصوير الناقى
على الحجر الصلد ، ومثله هيكل تدمر أيضاً ، على أننا لم نر أثراً يشبههما
لأواخر الدولة الرومانية ، ولما جاء الإسلام وتبسط الأمويون في
العمران وابتقى الوليد جامع دمشق وبيت المقدس ، ظهر ثانية فن إتقان

البناء وكان أجمل رواء منه في عصر الرومانيين ، من حيث النقش الدقيق على الأحجار المعروف لهذا العهد بالحفر والتنزيل ، وأما في القرون الوسطى الحجرية فقد انحطت هذه الصناعة انحطاطاً قليلاً بدليل ما نشاهده منها في بعض المساجد التي بنيت على عهد الملوك الجراكسة وغيرهم ، كجامع الملك الظاهر بدمشق ، ثم نهضت في القرون المتأخرة ، وترقت من فن البناء صناعة الزخرف والحفر والتنزيل ترقياً عظيماً حتى هذا العهد ، وقد بنى في العام الماضي محراب للجامع الأموي كله من القطع الرخام الملونة الصغيرة ، فكانت على تناسب أوضاعها ، وإتقان صنعها ، وترتيب أشكالها معجزة من معجزات الصناعة ، ومثله المنبر الذي أقيم في جانبه وعلى نمطه أيضاً .

وصناعة الزجاج وهي اليوم متدنية جداً ، لا تتعدى صنع القوارير الساذجة ، ومعاملها موجودة في دمشق وغيرها .

وصناعة الحبال المتخذة من قشر القنب ، وهي مترقية عظيمة الخطر ، وتوجد مصانعها بكثرة في دمشق ، وتهنع مع الذرة في بيروت وحماة .

وصناعة النحاس ونقشه نقوشاً نائمة وعفورة . وكانت فقدت منذ خمسين سنة ، ثم عادت بسبب كثرة رغبات الأوربيين بالآنية النحاسية التي من هذا النوع .

وصناعة الصاغة ، وهي الآن مترقية في معظم المدن السورية .

وصناعة أدوات الخيل ، وهي مترقية ، وقد تناولت كثيراً من الصناعات ، كهصانة الهميانات والصناديق الجلد وغيرها ، فهذه الصنائع في سورية ويوجد غيرها أيضاً بما لا أهمية لذكره ، وأما الصنائع التي اندثرت وإنما تدل عليها آثارها ، فهي صناعة القيشاني وكانت خاصة بدمشق ، والموجود منها لهذا العهد في بعض المنازل والحمامات والجوامع يدل على ترقى هذه الصناعة في العصور المتأخرة ترقياً عظيماً ،

خصوصاً في القرن التاسع والعاشر إلى الثاني عشر وفي جامع الشيخ يحيى الدين العربى ، فى الصالحية ، الذى ابتناه السلطان سليم العثمانى فى أوائل القرن العاشر نوع منه بلغ الغاية فى الإتقان ودقة الصنع ، وبهاء اللون ، وتناسق النقوش ، وكذلك الموجود فى جامع الدرويشية وتاريخ صنعه المكتوب عليه هو سنة (٩٨٣ هـ) والموجود فى جامع السنانية وتاريخ صنعه المكتوب عليه هو سنة (١٠٠٠ هـ) وقد دثرت هذه الصناعة فى القرن الماضى ، لانحصارها فى عائلة واحدة ضن آخر فرد منها بتعليم هذه الصناعة لسواه ، ومات فانت معه والخبر عن هذا متواتر مستفيض إلى اليوم عند الدمشقيين ، والظاهر أن أصل هذه الصناعة فارسية بدليل نسبتها إلى قنشان المحرفة عن قاشان بلد فى فارس .

وصناعة الخزف وقد كانت أيضاً فى أعلى طبقة من الدقة ، وتدل آثارها على أنها كانت مرتقية فى القرون الوسطى والمتأخرة الهجرية ، وإنما عرفنا ذلك بمشاهدة قطع من مصنوعات الخزف استخرجها الدكتور (هوردوشانو) من التل المعروف بتل الباب الشرقى خارج دمشق ، لما اشترى من الحكومة هذا التل وأزاحه من بضع عشرة سنة ، فوجدناها تشابه ما اكتشفته جمعية البعثة الأثرية الفرنسية فى مصر من القطع والآنية الخزفية المصنوعة فى عهد الفاطميين والچراكسة^(١) وقد شاهدت بعض هذه القطع المصرية عند صديق لى ألمانى ، وعليها اسم العامل بالعربية ، إلا أنى لم أعثر فى القطع الدمشقية على اسم للمعمل ولا العامل .

(١) راجع مذكرات البعثة الأثرية الفرنسية المطبوعة باللغة الفرنسية فى عدة مجلدات .

صناعة الفسيفاء وهى قطع صغيرة من الزجاج الملون والمذهب ، تنقش بها الجدران . بأن ترصف على طبقة من الجبس على أشكال شتى جميلة الصنع والترييب تمثل الأنهار والأشجار والأبنية الجميلة ، وهى من أنفس الصنائع التى وجدت بدمشق ، وهى من مخترعات الروم ، بدليل أن الوليد بن عبد الملك لما ابتنى الجامع الأموى بدمشق استجلبها من القسطنطينية ، ورصف جدرانه كلها بالفسيفاء على أشكال شتى ، تمثل الجامع والأشجار والأزهار ، واكثره ما طرأ على الجامع من الحريق تساقطت عن جدرانه الفسيفاء إلا قليلا منها فى الحائط المقابل للمنبر فى الحرم الداخلى ، والحائط الغربى والشمالى فى الحرم الخارجى ، فأما ما كان منها على الحائط الداخلى فقد تناثر بعضه فى حريق قد حدث ، وأما ما كان منها فى الحرم الخارجى فقد أدركته فى طفولتى ، وقد تشعشت القناطر الحاملة للجدار ، ولما أريد ترميمها اقتلع ما عليها من الفسيفاء إما عمداً عن جهل بقيمتها الأثرية ، وإما اضطراراً ، فكان يجمعه الأولاد وخدمة الجامع يومئذ ويبيعونه للسياح . والظاهر أن صناعة الفسيفاء استمرت فى الشام إلى ما بعد القرن السابع ، بدليل ما يشاهد منها فى جدران بعض جوامع حلب ، وجامع الملك الظاهر ببيرس بدمشق ، إلا أن القطع غير متماسكة فى التركيب ، ولا منتظمة فى الرصف وليس لها من بهاء الصنع ودقة التناسب فى النقش ، ما كان لملها فى الجامع الأموى ، وهو يدل على انحطاط صناعة النقش بالفسيفاء يومئذ انحطاط انتهى إلى تركها بتاتاً .

وصناعة السيوف الدمشقية وقد كان يتنافس بها ويضرب المثل بلين متونها ومضائها ، وقد دثرت منذ أجلي تيمورلنك صناعتها معه إلى سمرقند ، على أنه لم تزل إلى عهد قريب صناعة الأسلحة والسيوف موجوده بدمشق وغيرها من مدن سورية إلا أنها منحطة عن مرتبتها الأولى .

وصناعة الأثواب البيض المعروفة (بالخام الصالحاني) وكانت خاصة بدمشق ، وبعض قرى جبل قلمون ولم يبق لها اعتبار منذ كثر توارد البضائع الإفريقية التي من نوعها إلى سورية ، وكان شيخ في صالحة دمشق ومن أرباب هذه الصناعة طاعن في السن قد بلغ من الكبر عتياً ، يقول إن الصالحة كانت منازلها كلها أشبه بمعمل واحد يحوك أهله تلك الأثواب البيض من القطن المغزول بالشام وإن أهل الصالحة جميعهم كانوا في تنعم وغنى زائد من ثمرات هذه الصناعة ، فأصبحوا بعد ذلك في ضنك وعسر لفقداء منهم أو لعدم الحاجة إليها .

وقال ذلك الشيخ إنه أدرك أسواق دمشق ، وكل سوق منها لأرباب صناعة مخصوصة كسوق الشباعين واللبادين والغلاينية (١) والخراطين ، وسوق السلاح والعلبية وسوق المراياتية والقبارين ، وغير ذلك من الأسواق التي لم يبق لصنائع أهلها إلا رسم دارس ، وعهد طامس اللهم إلا العلبية والخراطين فقد بقيت منهم بقية إلى الآن لعدم استغناء البلاد عن صناعاتهم لهذا اليوم .

ومن الصنائع النفيسة التي فقدت من دمشق وكانت خاصة بها صناعة الدهان المعروف عند الدمشقيين (بالعجمي) ، وهو بأن ينقش باطن سقف الغرفة والجدران المبطنة بالجبس الناقى على أشكال بديعة ، ويذهب بعضها وبعضها يلون بألوان غير زاهية ، وهي من أدق الصنائع النفيسة وأجملها ، وكان لهذا النوع تركيب مخصوص من الدهان بحيث يستمر لونه لا مراً ذابها وروث مهمات طاولت عليه السنين ، ويوجد لهذا العهد كثير من آثار هذه الصناعة في منازل دمشق ، ومنها ما هو موجود في منزل أحمد باشا ، العظم الذي يقصده السياح للفرجة ، وفي منزل عبد الله باشا ومنزل المرادى ، ومنها

(١) صناعات الغلايين التي يستعمل بها التبع .

مامضى على بنائه لهذا اليوم أكثر من مائة وخمسين سنة ولم يزل الدهان الذى فيه زاهياً جميلاً كأنما صنع بالأمس . والظاهر أن فقد هذه الصناعة من دمشق قريب عهد لوجود بعض آثارها التى لم يمض عليها إلى اليوم أكثر من ستين سنة ، وإنما أهملت فى السنين المتأخرة ، لكثرة ما تحتاج إليه من النفقات التى لا يتحملها الآن أهل الترف والبذخ للفقر الذى ألم بالبلاد منذ انحطت فيها أسباب المكاسب ، وقد تقدم القائمون ببناء الجامع الأموى لهذا العهد بعد الحريق الذى طرق عليه إلى بعض الدهانين الطاعنين فى السن الذين يعلمون شيئاً من هذه الصناعة بدهن السقطين اللذين يلبان القبة من الجنوب والشمال بذلك الدهان ، فأتقنوا صنعه إلا أنهم أدخلوا فيه بعض الألوان الزاهية ، فخالف أصل الصنعة إلا أنه جاء جميلاً وافياً بالغرض لا عيب فيه .

هذا ما أردنا بسطه عن حالة سورية الصناعية والاجتماعية ، وبقي لنا كلام عن حالتها لهذا العهد من حيث الترقى أو الانحطاط سواء كان فى العلوم والمعارف أو فى الصناعة والزراعة ودرجة ثروة البلاد من هذه الأشياء ومراتب أهل مدنها منها ، وعدد نفوسها والسكك الحديدية التى أنشأتها الشركات الأجنبية فيها ، إلى غير ذلك مما يتعلق بالحالة الاجتماعية على العموم فى هذه البلاد ، وبما أنها تابعة فى هذا كله إلى المملكة العثمانية ، فقد أرجأنا الكلام على ذلك إلى الأجزاء التالية التى نخصصها لرجال الدولة العثمانية ، ونسكلم فيها عن هذه الدولة التى نضرب إلى الله تعالى أن يؤيدها بروح القوة والعلم ، ويصونها عن الزوال بأن يرشد رجالها إلى طرق الخير ، وينزع من نفوسهم حب الشهوات ، ويزرع فيها حب الملة والوطن ، لينقذوا الأمة العثمانية من خطر الانحطاط إلى دركات الضعف والاضمحلال ، التى أشرفت عليها لهذا العهد وكاد اليأس من سلامة استقلالها يستولى على نفوس العقلاء من أفرادها الذين بقى فيهم دماء من الحياة ، وأثر من الشعور ، فباتوا يتقبلون

على مضاجع الآلام ، وتساورهم الهموم الجسام ، ولا سبيل لهم إلى إصلاح الحال ، وتدارك خطر المآل ، لأنهم إذا نصبحوا رموا بالحيانة ، وإذا صدقوا خرجوا في عرف الجهلاء من عهد الأمانة وهى حالة يارباه تؤذن بتسفل الأخلاق ، وضعف العقول وموت الوجدان ، فأنقذنا اللهم بفضلك منها ، وأرشدنا للتبرؤ من عارها الذى جعلنا عبرة فى الآخرين ، وألعوبة فى أيدي الغريبيين ، إنك مجيب الدعاء .

— ٦ —

فتح العراق وفارس

انتداب أبي بكر ووقعة الجسر وغيرها :

تقدم معنا أن أول عمل عمله عمر رضى الله عنه فى خلافته ، هو إجلاء أهل نجران وعزل خالد بن الوليد وانتداب الناس لحرب الفرس ، فأما الخبر عن الأمرين الأولين فقد بسطناه فيما سبق ، وأما الخبر عن حرب الفرس فذلك أن المثنى بن حارثة الشيبانى الذى خلف خالد بن الوليد على حرب العراق ، وفد على أبى بكر فى حال مرضه ليفاوضه فى شأن الهجوم على بلاد فارس ، ماداموا مختلفين بينهم على من يولونه الملك بعد شهريراز الذى أدى موته إلى تملك سابور ثم قتله وقيام أرميدخت ثم بوران ، إلا أن أبابكر رضى الله عنه لم يسعه لإجابة طلب المثنى لمرضه ، فأوصى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن ينتدب الناس بعد توليه منصب الخلافة مع المثنى بن حارثة لحرب الفرس ، فقام عمر فى صبيحة اليوم الذى دفن فى ليلته أبوبكر وانتدب الناس لقصد العراق فلم ينتدب له أحد لأن وجه فارس كان أكره الوجوه إلى المسلمين ، وأثقلها عليهم لشدة سلطانهم وشوكتهم وقهرهم الأمم ، فلما كان اليوم الرابع عاد فانتدب الناس وتكلم المثنى بن حارثة فقال يهون على المسلمين خطب الفرس .

يأيها الناس لا يعظم من عليكم هذا الوجه ، فإننا قد تبجحنا ريف فارس
وغلبناهم على خير شقى السواد (يعنى الشق الغربى الذى هو العراق العربى)
وشاطرناهم ونلنا منهم ، واجترأ من قبلنا عليهم ولها إن شاء الله ما بعدها اه
وقام عمر رضى الله عنه فى الناس فقال :

إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة^(١) ولا يقوى عليه أهله
إلا بذلك ، أين الطراء المهاجرون عن موعود الله ، سيروا فى الأرض التى
وعدهم الله فى الكتاب أن يورثكموها فإنه قال سبحانه (ليظهره على الدين كله)
والله مظهر دينه ومعز ناصره ومولى أهله مواريث الأمم ، أين عباد الله
الصالحون . اه

فكان أول منتدب أبو عبيدة بن مسعود الثقفى وثنى سعد بن عبيد وسليط
ابن قيس ، فلما اجتمع ذلك البعث قيل لعمر أمر عليهم رجلا من المهاجرين
والأنصار فأبى ، وقال إن من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء أولى بالرياسة
ثم أمر أبا عبيدة على الجيش وقال : اسمع من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم
وأشركهم فى الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تبين ، فإنها الحرب ، والحرب
لا يصلحها إلا الرجل الحكيم الذى يعزف الفرصة والكف^(٢) ، ولم يمتنع
أن أوامر سليط إلا سرعته إلى الحرب ، وفى التسرع إلى الحرب ضياع
إلا عن بيان ، والله لولا سرعته لأمرته ، ولكن الحرب لا يصلحها إلا الحكيم .

خرج أبو عبيدة فى آخر جمادى الأولى أو أوائل جمادى الثانية
سنة (١٣ هـ) ، ومعه سعد بن عبيد ، وسليط بن قيس أخو بنى عدى
ابن النجار ، والمثنى بن حارثة الشيبانى ، فتقدمهم المثنى إلى الحيرة ، وكان

(١) النجعة طلب الكلاء (أى المرعى) فى موضعه كما فى الفاموس .

(٢) يعنى الرجل المتأنى الذى يعرف ساحة العمل فيعمل وساعة الكف فكيف

استقر أمر فارس لبوران فاستدعت رستم من خراسان وتوجته وجعلت إليه حماية البلاد وسلمته قيادة الجند ، فكتب رستم إلى دهاقين السواد أن يثوروا ودس في كل رستاق رجلاً يثور بأهله ، وبعث جنداً لمصادمة المشي ، وبلغ المشي ذلك فضم إليه مسلحه واجتمع إليه المسلمون فسار بهم إلى خفان ونزها حتى قدم أبو عبيد ، وكان أول من سار من الدهاقين جابان في فرات بادقلى فسار إليه أبو عبيد فالتقوا بالثارق وتقاتلوا فهزم أهل فارس .

موعظة :

لما انهزم الفرس أسر جابان ، أسره مطر بن فضة التيمي فخذعه جابان بأن وعده بشيء يعطيه له فأمنه وخلى عنه ، فأخذه المسلمون فأتوا به أبا عبيد وأخبروه أنه الملك وأشاروا عليه بقتله ، فقال : إني أخاف الله أن أقتله وقد أمنه رجل مسلم ، والمسلمون في التواد والتناصر كالجسد ما لزم بعضهم فقد لزم كلهم ، فقالوا له إنه الملك ، وإنه هو الذي حاربنا ، قال وإن كان لا أغدر فتركه .

انظر رحمك الله إلى هذا الأمير العظيم النفس الصادق الإيمان ، الذى ملك ناصية عدوه الذى غدر بالمسلمين وأثار عليهم نائرة البلاد ، وقابلهم بنكران الجليل وخرق العهد فأبى أن يقتله لعهد سبق له من فرد من أفراد المسلمين ، الذين بلغ بهم التناصر والتواد يومئذ أن أميرهم يقوم بحق صغيرهم ويلتزم بما ألزم به حقيرهم ، فأين تلك النفوس البارة والإخاء المتوثق والوجدان الحساس والتناصر النافع مما طرأ بعد ذلك على المسلمين ، من فساد الأخلاق وضعف اليقين وانحلال عرى الأخوة ، حتى باتوا إلماً على بعضهم وحرماً على أنفسهم يتمزقهم الأعداء ويتغلب عليهم الفاتحون ، وأمرؤهم في تناكر وتخاذل يتربص بعضهم أذى بعض ، ويتبنى أحدهم زوال أخيه انفراداً باسم الرياسة ، وطاعة لهوى النفس الشريرة ، وما يتمنون في الحقيقة إلا زوال ملك الإسلام وما يطبعون إلا شيطان الخذلان .

اللهم قد انفرجت بيننا وبين السلف مسافة الخلف ، وصوح نبت
الإسلام وتناكرت النفوس ، وتقطعت أسباب الإخاء وانحطت أخلاق
الأمراء ، وتفشى الجهل في قصور العظام ، وتنوسيت أصول الدين وغلبت
الشهوات وتغلب علينا الأهم ، وحسبنا من جزائك العادل ما لقيناه من جور
أمرائنا وتحكم أعدائنا ، فاهدنا من الحق والعلم صراطاً نخلص به إلى طاعتك
فيما أمرت ، فنوثق عرى الإخاء وتنبذ من كانوا سبب التقاطع والشحناء
ونجدد عهد التألف ونتمسك بأسباب التناصر والتكاتف إنك مجيب الدعاء .

هوذا إلى خير أبي عبيد :

انهزمت جنود جابان من التمارق وعلقت بكسكرك حيث يخيم قائد اسمه
نرسي من الأسيرة الكسروية ، فأمر أبو عبيد بالرحيل ورحل بجنده حتى
نزل بكسكرك ، وكان أهل كسكرك وما حوطها من البلاد ينتظرون مجيء
الجالينوس مدداً لهم من قبل رستم ، فعاجلهم أبو عبيد والتقوا بمكان يدعى
السقاطية فاقتتلوا قتلاً شديداً ، فانهزم الفرس وهرب قائدهم نرسي وغلب
على عسكريه وأرضه ، وأقام أبو عبيد وسرح القواد لاستخضاع من حوله
من أهل السواد ، بجاء فروخ وفرونداذ المثنى بن حارثة وطلبا منه الجزاء
والذمة عن باروسما ونهر جوبر فأبلغهما أبا عبيد فصالحاه على شيء معلوم .

صوغة أخرى :

لما تم الصلح بين أبي عبيد وبين فروخ وفرونداذ جاء آه بآنية فيها
أنواع أطعمة فارس من الألوان والأخصة وغيرها ، فقالوا هذه كرامة
أكرمناك بها وقرى لك : قال : أأكرمتم الجند وقريتموهم مثله : قالوا :
لم يتيسر ونحن فاعلون : فقال أبو عبيد فلا حاجة لنا فيما لا يسع الجند
فردوه ، وخرج حتى نزل باروسما فأناه الاندزغر بمثل ما جاء به فروخ

وفرونداذ : فقال لهم ، أأكرمتم الجند بمثله وقرىتموهم : قالوا لا : فرده وقال لا حاجة لنا فيه ، بشئ المرء أبو عبيد إن صحب قوماً من بلادهم أهرقوا دماءهم دونه أو لم يهرقوا فاستأثر عليهم بشئ يصديه ، لا والله لا يأكل مما أفاء الله عليهم إلا بما يأكل أو ساطهم .

هكذا كان الأمراء وقادة المسلمين يفعلون ، وبمثل هذه الأخلاق يمتازون ، وبحسب المساواة مع عامة الناس في السراء والضراء يوصفون ، وبمثل هذه الخصال الجميلة يسودون ، لا بالاستئثار بنفى المسلمين ، ولا بالترفع عن عامة المؤمنين ، ولا باستلاب مال البلاد التي أحرزها المجاهدون بسيوفهم ، وأسألوا على جوانبها دماءهم .

وهذا المبدأ الذي تأسس عليه الاجتماع الإسلامي منذ نبت الإسلام في أرض العرب هو مبدأ الاشتراك المعقول ، الذي يخطط للوصول إليه زعماء المذهب لهذا العهد خبط عشواء لضلالهم عن طريقه المستقيم وغلوهم فيه غلو الجاهل بخوافيه ، إذ فاتهم أن البداوة وسذاجة الفطرة أصل في قبول الخير والشر ، وأن الإنسان إذا أفسدت الحضارة نحيزته ، وأخذ حب البذخ بمجامع قلبه ، استحال تقويم أود نفسه وإرجاعه عن غلوائه والإقلال من أثرته وكبريائه والأخذ على أيدي قاداته وزعمائه ، ما لم يكن هؤلاء هم المرءون لشعوبهم القائمون على تقويم أخلاق من دونهم ، لهذا كان زعماء الأمة وحلفاؤها في صدر الإسلام قدوتها الصالحة في تربية تلك النفوس الساذجة ، على مبدأ حب العدل والمساواة ومشاطرة الخير والشر والكف عن الشهوات وعن حب الأثرة بالغنى والجاء والفخفة الباطلة كما رأيت في قصة أبي عبيد (رضي الله عنه) وبلغ بعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بغضه بدهاء حب الأثرة وكرهه لا كتنافس البعض للمال دون البعض الآخر ، أن كان يحصى مال عماله قبل أن يسند إليهم الإمارة لكي يناقشهم الحساب بعد ذلك عما

يزيد عن مقتناهم من المال قبل الإمارة ويصادرهم عليه، ثم يردده على المسلمين ،
وبلغ على بن أبي طالب رضى الله عنه في خلافته أن عاملاً من عماله أسرف
في جمع المال ومال إلى التسعم وحاد عن سبيل القصد ، فسكتب إليه كتاباً
طويلاً مما جاء فيه قوله

أيها الممدود كان عندنا من ذوى الألباب ، كيف تسيخ شراباً وطعاماً
وأنت تعلم أنك تأكل وتشرب حراماً ، وتبتاع الإماء وتنكح النساء من
مال اليتامى والمساكين ، والمؤمنين والمجاهدين الذين أفاء الله عليهم هذه
الأموال وأحرز بهم هذه البلاد . فائق الله واردد إلى هؤلاء القوم أموالهم
فإنك إن لم تفعل ثم أمكننى الله منك لأعذرن إلى الله فيك ، ولأضربنك
بسينى الذى ما ضربت به أحداً إلا دخل النار الخ .

فأين هذا الخليفة فى مشربه القويم ومذهبه المستقيم فى تأديب العمال
بأدب نفسه ، وحملهم على طريق القصد وعدم السرف فى أموال العباد بمن
يربى عماله على العكس من ذلك، ويطلق يدهم فى أموال الناس ، بل ويحكمهم
فى رقاب الرعية . ويدنى فاجرهم منه ، ويقصى غفيعهم عنه ، وكيف يقوم
للقائلين بهذا المذهب الآن قائمة بين أقوام أمات شعورهم الاستغراف بالترف
وقتلهم الخنوع للشهوات . إن هذا لا يتيسر الآن إلا إذا صبغ أديم الأرض
بنجيس الإنسان وتبدل الأشرار بالأخيار وذلك أمر بعيد .

عود إلى هجر أبى هبيرة :

رحل أبو عبيد من السقاطية وقدم المثنى فى تعبته حتى قدم الحيرة ،
وكان الجالينوس رجع إلى رستم ومن أفلت من جنوده واستحنه على مقابلة
المسلمين فوجه بهم من جاذويه ورد الجالينوس معه فأقبل بهم من جاذويه ومعه

راية كسرى (درفش كايان) وكانت من جلود النمر ^(١) وأقبل أبو عبيد حتى نزل بالمروحة على ضفة النهر المقابلة للضفة التي فيها معسكر الفرس وتسمى قس الناطف ، فبعث إليه بهمن جاذويه لما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور ، ولما أن تدعونا نعبير إليكم ، فأشار عليه الناس بعدم العبور وكان من أشدهم إلحاحاً عليه بعدم العبور سلميظ بن قيس فأبى قبول إشارتهم وترك الرأى ، وقال لا يكونوا أجراً على الموت منا ، وعبر ومعه المسلمون وكان الفرس في عدة لم ير مثلها المسلمون

وهذا وإن يكن لإقدام من أبى عبيد رضى الله عنه وشجعته لا يصدران عن غيره إلا أنه خطأ وقع فيه لأمر يريده الله ، وكانت عاقبة هذا الخطأ أن قتل أبو عبيد إذ هجم على فيل من الأفيال وضربه ثقبه الفيل وكانت أسرعت السيوف في أهل فارس وأشرفوا على الهزيمة ، فلما خبط أبو عبيد وقام عليه الفيل جال المسلمون جولة ثم انهزموا وركبهم الفرس ، فبادر رجل من ثقيف إلى الجسر فقطعه قصد إرجاع المسلمين عن الهزيمة فانتهى الناس إليه والسيوف تأخذهم من خلفهم فتهافتوا في الفرات ، ولما رأى المثنى بن حارثة ذلك البطل الجليل هذا الحال بادر هو ونفر من الشحمان فحمى الناس حتى عقدوا الجسر وعبروهم ، ثم عبروا في آثارهم ، فأقاموا بالمروحة والمثنى جريح ، وهرب الناس على وجوههم وقتل سلميظ بن قيس الذى نصح أبا عبيد على عدم العبور ، وبقي المثنى في جمع قليل ، ولما انتهى الخبر

(١) لهذه الراية قصة عجيبة جاءت في أخبار الفرس وماخصها أن أحد ملوك الفرس جار على رعيته واسترسلت حكومته في الظلم إلى حد لا يطاق ، فقام من رعيته يوماً رجل حداد حامل بين قومه عظيم في نفسه فخرج من حانوته ورفع على عصا طويلة الجلد الذى يربطه الحداد عادة في وسطه ونادى في الناس من لا يطبق الظلم فليتبني فاتبه عامة الناس فقتلوا ذلك الملك ورجال دولته وأسس ذلك الحداد الدولة السكسرية فاتخذوا ملوكها راية الحداد شعاراً لهم ثم حملوها من جلود النمر وسموها درفش كايان وكانوا لا يخرجونها إلا حين الحاجة القصوى

إلى عمر بن الخطاب اشتد عليه الأمر وبلغه أن بعض الفارين آوى إلى المدينة فخطب فقال : عباد الله اللهم إن كل مسلم في حل مني أنا فئة كل مسلم ، يرحم الله أبا عبيد لو كان عبر فاعتصم بالخيف أو تحمين لأينا ، ولم يستقل لكننا له فئة .

وإذ كان المسلمون يعلمون أن الفار من القتال آثم لقوله تعالى في الكتاب الكريم (ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله) الآية فقد ندم المسلمون واستحيوا من الفرار وجرع المهاجرون والأنصار جرعا شديدا ، ولما رأى عمر رضى الله عنه جزعهم قال : لا تجزعوا يا معشر المسلمين أنا فئتكم إنما التحزتم إلى ، وبلغ الجزع بمعاذ القارىء أحد بنى النجار أن كان إذا قرأ هذه الآية بكى فيقول له عمر : لا تبك يا معاذ أنا فئتكم وإنما التحزت إلى : وذلك تخفيفاً لروعه ودفعاً لجزعه ، فرحم الله تلك النفوس الطاهرة ما أخوفها من الله وأشدّها تمسكا بالكتاب وأجزعها من الوقوع في الخطأ ، ورضى عن عمر بن الخطاب ما أرحم قلبه وأعظم على المسلمين حنانه .

كانت جنود الفرس عقب وقعة الجسر حاولت العبور إلى الضفة الثانية ومطاردة المسلمين ، ولكن من عناية الله بالثنى ومن بقى معه من الجند القليل جاء الفرس ما شغلهم عن العبور ، إذ وصلهم الخبر أن الناس بالمدائن قد ثاروا برستم واقسموا قسمين قسم معه وقسم مع الفيرزان ، فتمكن الثنى من جمع القبائل التي حوله وأمدّه عمر رضى الله عنه بجرير بن عبد الله البجلي وقد كان قومه أزواعا متفرقين في قبائل العرب فجمعهم له عمر ، وأمره عليهم وبعث عصمة بن عبد الله من بنى عبد بن الحارث الضبي فيمن تبعه من بنى ضبة ، وكتب إلى أهل الردة فلم يوافه منهم أحد إلا رمى به الثنى وكان ممن قدم على عمر رضى الله عنه بنو كنانة وطلبوا أن يوجهوا إلى الشام ، فقال لهم

ذلك أمر قد كفيتموه عليكم بالعراق واستقبلوا جهاد قوم قد حووا فنون العيش ، لعل الله أن يورثكم بقسطكم من ذلك فتعيشوا مع من عاش من الناس ، فقام غالب بن فلان الليثي وعربجة البارقي وقال كل واحد منهما لقومه ، يا عشيرتاه أجيئوا أمير المؤمنين إلى ما يرى وامضوا له . فأجابوا إلى ذلك فدعا لهم عمر بخير وأمر على بنى كنانة غالب بن عبد الله وعلى الأزدي وعربجة بن هرثمة وسرحهم فخرج هذا في قومه ، وهذا في قومه حتى قدما على المثنى .

وقدم على عمر (رضي الله عنه) هلال بن علفة التيمي فيمن اجتمع إليه من الرباب فوجهه ، وقدم عليه المثنى الجشمي جشم سعد فأمره على بنى سعد وسرحه ، وجاء إليه ربيعي في أناس من بنى حنظلة فأمره عليهم ، وخرجوا حتى قدم بهم على المثنى بن حارثة فرأس بعده ابنة شبيب بن ربيعي ، وقدم على عمر خير هؤلاء من زعماء العرب فوجههم إلى المثنى .

وكان الفرس لما أحسوا باجتماع العرب وبكثرة من جاء من النجدة للمثنى بن حارثة ، جمعوا كلمتهم وجاء الفيرزان ورستم إلى بوران وأخبراهما أنهما انفقا على أن يرسل إلى قتال المسلمين مهران بجيش كثيف واستأذناها بذلك ، ثم بعثا مهران بجنده حتى نزل من دون الفرات والمثنى وجنده في محل يدعى البويب على شاطئ الفرات الآخر ، وكانت الجنود إليه متواصلة وجاءه أنس بن هلال النمرى ممدأ في أناس من نصارى النمر ، وقدم عبد الله ابن كليب التغلبي المعروف بمردى الغمد في أناس من نصارى تغلب ، فلما رأوا نزول العرب بالعجم قالوا نقاتل مع قومنا وانضموا إلى جنود المسلمين ، ولله ما تفعل الجامعة القومية في النفوس .

لما اجتمعت جموع العرب والفرس بعث مهران إلى المثنى إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبركم إليكم ، فقال المسلمون اعبروا إلينا فعبروا إليهم ، وجاءهم (١٩٢ — أشهر مشاهد الإسلام)

من قبل نهر بنى سليم فى صفوف ثلاثة ولهم حوضاء وزجل ، فقال المثنى للمسلمين إن الذى تسمعون فشل فالزموا الصمت ، ثم تقدم إليهم المثنى وعلى مجنبتيه بشير وبسر بن أبى رهم ، وعلى مجردته المعنى وعلى الرجل مسعود ابن حارثة ، وعلى الطلائع النسيم وعلى الردم مذعور وكان على مجنبتى مهران الآزاد به مرزبان الحيرة ومردان شاه ، ثم خرج المثنى بتعهد صفوف المسلمين ويحضهم^(١) ويأمرهم بأمره ويهزم بأحسن ما فيهم تحضياً لهم ، ولكلهم يقول إني لأرجو أن لا تؤتى العرب اليوم من قبلكم ، والله ما يسرنى اليوم لنفسى شيء إلا وهو يسرنى لعامةكم فيجيبونه بمثل ذلك ، وأنصفهم المثنى فى القول والفعل وخلط الناس فى المسكروه والمحجوب ، فلم يستطع أحد منهم أن يعيب له قولاً ولا عملاً لا سيما وأنه كان على شرفه وعلو منزلته شجاعاً ميمون النقية ، فكان المسلمون يحبونه ويعجبون بقيادته كما يعجبون بقيادة خالد بن الوليد .

ثم إن المثنى كبر وكبر المسلمون وكان واعدتهم بالهجوم عند رابع تكبيرة ، فعاجلهم الفرس من الأولى وغالطوهم والتحم القتال ، وجعل المثنى كلما رأى خللاً فى صف من صفوفه يرسل لأهل الصف رجلاً يقول إن الأمير يقرؤكم السلام ويقول ، لا تقضحوا المسلمين اليوم فيقولون نعم ويعتدلون ، ولما طال القتال واشتد حمل المثنى وحمل معه أنس بن هلال ومردى الفهر ، وقصد المثنى مهران فأزاله حتى دخل فى ميمنته واضطربت صفوف الأعاجم ، ولقى غلام نصرانى من تغلب مهران فقتله ثم استوى على فرسه وقضض الفرس فانهزموا ، وبادرهم المثنى إلى الجسر فمنع مرورهم منه فهربوا مصعدين ومصوبين والسيوف تأخذهم من كل جانب ، وكان ذلك بحسن قيادة ذلك البطل الجليل المثنى بن حارثة الذى أظهر من البراعة

(١) حضضهم كحضهم أى حثهم وأحاثهم عليه كما فى القاموس .

والشجاعة في هذه الواقعة ما يخلد له طيب الذكر ، إلا أنه أظهر يومئذ ندمه على أخذه بالجرس وقال : لقد عجزت عجزة وقي الله شرها بمسابقتي إياهم إلى الجسر وقطعه حتى أخرجتهم فإني غير عائد (يعني إلى مثل هذا الخطأ) فلا تعودوا ولا تقتدوا بي أيها الناس ، فإنها كانت منى زلة لا ينبغي إحراج أحد إلا من لا يقوى على امتناع ، هذا من حسن بصيرته وسديد رأيه وإنايته للحق رضى الله عنه .

ومات من أعلام المسلمين ممن كانوا جرحوا في هذه الواقعة ناس ، منهم خالد بن هلال ومسمود بن حارثة أخو المثنى فصلى عليهم المثنى وقال ، والله إنه ليهون على وجدى (أى أسفه وحزنه) أن شهدوا البويب ، أقدموا وصبروا ولم يحز عوا ولم ينسكلوا ، وإن كان في الشهادة كفارة لتجاوز الذنوب .

وكان أشد الناس بلاء في هذه الحرب من شهدوا وقعة الجسر مع أبي عبيد ، لاستحيائهم من الفرار في تلك الواقعة ، ولما انهزم الفرس في البويب انتدب المثنى جرير بن عبد الله البجلي لعبور الفرات وتبضع الفارين فانتدب معه من شهدوا وقعة الجسر وغنموا غنائم كثيرة وعادوا .

سُباعَةُ النساء المسلمات :

ذكر ابن جرير الطبري أن المثنى وعصمة وجريراً أصابوا في أيام البويب غنماً ودفياً وبقراً ، فبعثوا بها إلى عيالات من قدم من المدينة ، وقد خلفوهن بالقوادس وإلى عيالات أهل الأيام قبلهم وهم بالحيرة ، وكان دليل الذين ذهبوا بنصيب العيالات الذين بالقوادس عمرو بن عبد المسيح ابن ببيعة ، فلما رفعوا (أى ظهروا) للنسوة فرأى الخيل تصايحن وحسبها غارة فقمعن دون الصبيان بالحجارة والعمد فقال عمرو ابتهاجا بهن : هكذا ينبغي

لنساء هذا الجيش : وبشروهن بالفتح ، وكان على الخيل التي أتهم بالنزل
(الضيافة) النسير فأقام في خيله حامية لهم .

ولا جرم فلو لم يكن لجيش المسلمين ثقة بشجاعة نسائهم وإمكان دفعهم
العدو المفاجيء لما تركوهن في القلعة بلا حامية وتقدموا هم لحرب الفرس ،
وقد رأيت كيف كان النساء المسلمات في اليرموك يقاتلن مع الرجال ،
وكذلك قاتلن في القادسية وكن يأخذن الجرحى من ميدان الحرب
ويضمدن جراحهن ويمرضهن ذكر الطبرى في معرض كلامه على فتح
ميسان ، أن المغيرة سار إلى أهل ميسان وخلف الأثقال ، فلقى العدو دون
دجلة فقالت أردة بنت الحارث بن كعدة (طيب العرب المشهور) لو لحقنا
بالمسلمين فكنا معهم (أى عوناً لهم) ، فاعتقدت لواء من خمارها واتخذت
النساء من خمورهن رايات وخرجن يردن المسلمين فانهن لاليهم والمشركون
يقاتلونهن ، فلما رأى المشركون الرايات مقبلة ظنوا أن مدداً أتى المسلمين
فانهزموا واتهمهم المسلمون فقتلوا منهم عدة ، وهذا العمل من النساء المسلمات
لعمري غاية في الجرأة ونهاية في الإقدام ، وحق لمثلهن أن يدخلن في
مصاف الرجال ويأتين بأعظم الأعمال ، وقد أطنب ادورد جبون في تاريخ
الإمبراطورية الشرقية بشجاعة النساء المسلمات التي أظهرنها على حصار
دمشق ، وما قاله عنهن : إن هؤلاء النساء اللاتي تعودن الضرب بالسيف
واللعن بالرمح والرمي بالنبل ، هن اللاتي إذا وقعت إحداهن في الأسر تكون
قادرة على حفظ عقبتها ودينها من أى إنسان يريد لها بسوء .

ولقد صدق فيما قال ، وإلا فما كان رجالهن أن يدهوهن يخالفن الرجال
في معامع الحرب والقتال ، ومن البديهي أن الحجاب لم يكن يمنع النساء
المسلمات عن مخالطة الرجال في الحل والترحال ، ولكن كان لهن من الأخلاق
الفطرية والعفة الإسلامية ما يغنيهن عن مثل الحجاب الثقيل الذي ابتدعه

سكان المدن الإسلامية لما استغرقوا بالرفاه والترف ، وأفسدت أخلاقهم عوامل الحضارة ، فإذا كان لنسائنا من العفة وسلامة الأخلاق وظهارة النفس وحسن التربية ما كان لتلك النساء في صدر الإسلام ساغ للقائلين بتخفيف الحجاب أن يطلبوا إبراز المرأة من وراء الجدر بحلى العفة والكمال ويعطوها حقوق الرجال ، وإلا فالكلام عبث لا يجدى ، والموقف حرج ينبغى للخروج منه أناة وبصيرة ، والله أعلم بمصير الأمور .

عود إلى غير المثنى

لما فرغ المثنى من أمر البويب وتشنت جنود الفرس وعاد جرير بن عبدالله البجلي من غزاته فرق المثنى جنوده في السواد ، وأخذ يستخضع البلاد التي عصت من قبل وكانت له وقائع كثيرة مع العرب ، ظفر بها المسلمون بما شاءوا من متاع ومال ، وبلغت غاراتهم شرقاً إلى قرب مدائن فارس وشمالاً إلى الجزيرة ، فأوقعوا الرعب في قلوب الأعداء ، فقام الفرس لذلك وقعدوا .

كلمة على دولة الفرس قبيل الفتح

ليس أضر على الأمم وأشد خطراً على استقلال الممالك من تنازع السلطة وتهافت الناس على حب الرياسة ، وميل الزعماء إلى الاستئثار بمصالح الملك إذا ضعف جانب الممالك وتشعثت بناء الدولة ، وقل ما انتهت الدول في أواخر عهدها إلى هذا الحال ، من تفرق الرأي وتغلب حب الذات والاستئثار بمصالح الملك ووضع رغبات الجمهور دون رغبات الأفراد إلا انتهى ذلك بزوال ملكها وتقلص ظل سلطانها ، وقد كانت دولة الفرس أصيبت في أواخر عهدها بهذا الداء العضال والمرض القتال ، ولعله بدأ بها على عهد كسرى ابرويز في أواسط الجيل السادس بعد المسيح ، فقد ذكر

المؤرخون أن كسرى هذا عسف الناس وشره إلى أموال الرعية واستعمل رجالا على استخلاص بواق الخراج ، فعسف الرعية وظلمهم فنفرت قلوبهم منه وتحولت أنظارهم عنه ، وكان قد بلغ به الأمر أن أقصى أولاده إلى بابل ومنعهم من التصرف ، فاعتنم عظماء المملكة ضعف سطوة كسرى وتفرق قلوب الرعية عنه ، فأحضروا من بابل ولده شيرويه وأرغموا والده على التنازل إليه عن الملك ، ثم أرغموا ابنه على قتله فقتله ، ولما صفا له الملك وشعر بتفرق أهواء زعماء سلطنته وأحس بضعف نفسه ، أصابه وسواس أفضى إلى أن أمر بقتل إخوته وكانوا سبعة عشر أخا ذوى مشورة وعلم وأدب ، وأبنة أخته بوران وأزرميدخت على فعلته فندم وأصابه حزن وغم فمات دون السنة من ملكه ، فلك الفرس عليهم ابنة ازدشير ، وكان صغير السن فتكفل به أحد المتطلعين إلى الرياسة من أرباب الدولة واسمه بهادر جسندس فحسده قائد جنود الثغور وامتعض من عدم استشارته في تولية ازدشير ، فاتخذ ذلك ذريعة إلى التعنت وبسط يد القوة وطمع في الملك فأقبل بجنده نحو المدائن عاصمة الأكاسرة فدخلها وقتل جماعة من الرؤساء وقتل ازدشير ، فتولى الملك بعده شهريراز وهو من غير بيت الملك ولم يمكث في الملك إلا أربعين يوما وقتله أشياع ازدشير فملك بعده بوران ثم ملك بعدها رجل اسمه خشمشبينده فأنكر الجند سيرته فقتلوه ، ثم ملكت ازرميدخت وخطبها إلى خراسان فاحتالت عليه حتى قتلتها ، فانتصر له ابنه رستم وجاء بجنده إلى المدائن فتمكن من ازرميدخت وسمل عينيها ثم قتلها ، وأقام مقامها بوران فوقع الخلف بينه وبين الفيرزان أحد عظماء الدولة وتنازعا السلطة وتفشت الفوضى في الملك وظهر الخلل والضعف على الدولة ، ولما انتزع المسلمون منها العراق ودحر المثنى جيوش الفرس وتحفز جند الإسلام للوثوب على عرش الأكاسرة ، دب في عامة الشعب الفارسي ديبب الشعوب بحرج الموقف الذي وقفت فيه دولته ، وأحسوا بالخطر الذي جره

عليهم أمراؤهم وقادتهم فهبوا من سباتهم العميق، فأقبل رجالهم وذوو الرأي منهم إلى الفيرزان ورستم وقالوا لهما : لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتما أهل فارس ، وأطمعتما فيهم عدوهم وأنه لم يبلغ من خطركما أن يترككما فارس على هذا الرأي وأن تعرضاها للهلكة ما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن (يعنون البلاد التي احتلها المسلمون) والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت ، ووالله ما جر علينا هذا الوهن غيركم يا معاشر الرؤساء ، لقد فرقتم بين أهل فارس وثبطتموهم عن عدوهم ، ولولا أن في قتلكم هلا كنا لعجلنا لكم القتل الساعة ، ولئن لم تنتهوا لنهلككنكم ثم نهلك وقد اشتفينا منكم .

لما سمع رستم والفيرزان ما سمعا من القوم تنبها من غفلتهما وخشيا هلاكهما ، فبعثا مع القوم عن رجل من آل كسرى يولونه الملك ويجمعون عليه كلمة الناس ، فوجدوا يزدجرد بن شهريار في اصطخر وقد كانت أمه غيبته هناك وهو طفل لإشفاقاً عليه من القتل ، فجاءوا به وملكوه وهو ابن إحدى وعشرين سنة ، إلا أنه كان ضعيف الرأي والقلب ، ومع هذا فقد أطاعه الناس وبذ الرؤساء شهواتهم الخبيثة تفادياً من الخطر المحيق بالدولة ، فالتفوا حوله وأطاعوه وتباروا في معونته ، فرتبوا المسالحي والجنود وشحنوا الثغور بالمقاتلة وأعدوا العدة والعديد لقتال المسلمين .

استمهارة المثنى وصغير سهم بن أبي وقاص إلى العراق :

لما بلغ المثنى بن حارثة اجتماع الفرس على يزدجرد وتجهيزهم لحرب المسلمين ، كتب إلى عمر رضى الله عنه وبيننا هو بانتظار الجواب كفر أهل السواد بالعهد ونقضوا ما بينهم وبين المسلمين بدسائس الفرس ، فخرج المثنى على حامية حتى نزل بذي قار حتى جاء المسلمين كتاب عمر وفيه : (أما بعد فاخرجوا من بين ظهري الأعاجم وتفرقوا في المياه التي تلي الأعاجم على

حدود أرضكم وأرضهم ، ولا تدعوا في ربيعة أحداً ولا مضر ولا خلفائهم
أحداً من أهل النجدات . ولا فارساً إلا أجليتموه فإن جاء طائعا وإلا
حشروتموه . انملوا العرب على الجدد إذا جسد العجم فلتلقوا جدهم
بجدكم) .

فلما وصل السكتاباهم المثنى بأسر عمر ، وأحسن الرأي الحربى والتدبير ،
فنزل بذى قار وفرق الجند على خط واحد من الجبل وشراف إلى غضى^(١)
حيال البصرى ، فكانوا في أمواه العراق من أولها إلى آخرها مسالح^(٢)
بعضهم ينظر إلى بعض ، ويغيث بعضهم بعضاً أى جعلهم أشبه بحصن واحد
يمتد من حيال البصرة إلى شراف والجبل ، أى من أول العراق إلى آخره وهو
ترتيب بلغ الغاية من بعد النصارى فنون الحرب ونظام الجيوش وتنظيم
خطوط الدفاع ، وأعاد الفرس كذلك مسالحهم وشحنوا بالجنود نفورهم
وباتوا خائفين هائبين ، والمسلمون متحمسون وهم كالأسد ينزع
فريسته .

أما عمر بن الخطاب فإنه كتب إلى عماله على العرب والكور يستحثهم
على استنفار العرب وكل من له نجدة وبأس ، فضت الرسل بالسكتب ووافاه
القبائل إلى المدينة ممن كان طريقهم عليها ومن كان طريقهم على العراق ،
انضموا إلى المثنى وخرج عمر أول المحرم سنة (١٤) فمسك على ماء قرب
المدينة يدعى صراراً والناس لا يعلمون بشىء مما يريد ، وكانوا إذ أرادوا أن
يسئلوه شيئاً رموه بعثان أو بعبد الرحمن بن عوف ، فإذا لم يقدر هذان على

(١) في معجم البلدان جل الوضع بالبادية على جادة طريق القادسية إلى زبالة بينه وبين
الفرهاء ستة عشر ميلاً وهو بين وبين الرومانيين وشرافيين واقصة وقرماء على مائة أميال
من الأحساء وغضى تصغير الفضا امام بن ربيعة وقيل جبال البصرة .

(٢) جماعة المصلحين وفي اصطلاح الحرب الآن النقط العسكرية أو خطوط الدفاع .

علم شيء مما يريدون ثلثوا بالعباس فسأله عثمان عما يريد وعن عزه فنأدى الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس إليه فأخبرهم الخبر ثم نظر ما يقول الناس ، فقال العامة سر وسر بنا معك ، فقال استعدوا وأعدوا فإنى سائر إلا أن يحى رأى هو أمثل من ذلك ، ثم بعث إلى أهل الرأى فاجتمع إليه وجوه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأعلام العرب ، فقال احضرونى الرأى فإنى سائر فاجتمعوا جميعاً وأجمع ملوهم على أن يبعث رجلاً من الصحابة ويقم ويمده بالجنود ، فإن كان الذى يشتهى من الفتح فهو الذى يريد ويريدون ، وإلا أعاد رجلاً آخر ، وندب جنداً آخر حتى يحى نهر الله .

الحكم النبلى فى الإسلام :

علم عمر (رضى الله عنه) أن مكافأة الفرس بات أمراً حتمياً لا بد عنه ، وأن القوة والرأى مناط الظفر بدولة هى أعظم دول الأرض رهبة لذلك العهد ، فإذا تيسر هدم بنيانها ونزع سلطانها تمهد للمسلمين سبيل السيادة على الأمم ورفعت أعلام الإسلام على صروح الممالك ، وإلا كان الخطر على المسلمين عظيماً والأمر جللاً بعد إذ هيجوا أمر فارس والروم وأحفظوا الدولتين القيسرية والكسروية ، لهذا رأى من السداد ألا يفوته رأى عامة المسلمين وخاصتهم فيمن يولى أمر هذه الحرب ، فاستشار العامة فأشاروا عليه بالمسير بنفسه لأنهم بأميرهم أرغب ولخليفتهم أخوع ، واستشار الخاصة فأشاروا عليه بتسليم القيادة لغيره وبقائه فى المدينة لأنهم بقيمة حياته أعرف وعلى وجوده بعيداً عن ساحات القتال أحرص : وكان تخلف عن الجمع على وطلمة . رضى الله عنهما ، لأن الأول استخلفه عمر على المدينة ، والثانى كان على مقدمة الجيش ، فرأى ألا تفوتهما الشورى فاستدعاهما وجمع الناس جميعاً وقام فيهم خطيباً ولهم مستشيراً فقال :

أما بعد إن الله عز وجل قد جمع على الإسلام أهله فألف بين القلوب وجعلهم فيه إخواناً ، والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره ، وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا وأمرهم شوري بينهم وبين ذوى الرأي منهم ، فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر . ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم . ومن قام بهذا الأمر تبع لأولى رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم . (يا أيها الناس إني إنما كنت كرجل منكم حق صرفنى ذوى الرأي منكم عن الخروج ، فقد رأيت أن أقم وأبعث رجلاً وقد أحضرت هذا الأمر من قدمت ومن خلفت) ويعنى بمن خلف علياً وطليحة ، لأنهما لم يحضرا رأى الأول كما ذكرنا .

لعمرك أى ملك فى العالم يبعثه الوجدان الطاهر أن يضع نفسه عن رضا واختيار فى موضع فرد من هامة رعيته ، ويقول كما قال عمر للمسلمين (من قام بهذا الأمر فإنه تبع لذوى الرأي منهم) فجعل نفسه تبعاً لذوى الرأي ، وجعل المسلمين تبعاً لهم فيما يرتأون تمحيصاً للحق والرأى ، وهذا هو الحكم النبائى الذى تقوم به سعادة الأمم ويرتفع شأن الدول ، ولم يتوصل إليه قوم إلا بعد جهد وجهاد مع قادتهم المستبدين وأمرائهم القاهرين ، وقد وضع أساسه الإسلام وبدأ به أبو بكر وعمر رضى به وإخلاصاً لله وإرشاداً للمسلمين لما ينفعهم فى أمر دنياهم إلا أن هذا الحكم لم يدم لأن العبرة باستمرار العمل والعمل لم يستمر لارتباطه بوجدان الخلفاء وإخلاصهم ، وعدم ارتباطه بالروابط القانونية والقيود المعروفة وتركه يترقى بطبعه بترقى الأمة ، وعلى مقتضى حاجة الزمان ، لهذا لم يستمر إلا باستمرار دولة الخلفاء الراشدين ، مع أن حالة القوم البدوية وميلهم الفطرى للحرية يقتضيان استمرار الحكم النبائى فى الدول العربية ، وإنما أرغم القوم على مخالفة الفطرة البدوية مذ قامت دولة بنى مروان فى وسط الممالك الأعجمية ، وخالط خلفاؤها الأماجم من

الفرس والروم ، ورأوا مبلغ تبسط يد الحكومة السالفة في الرعية وسلطانها القاهر الذى هو فوق سلطان الوجدان والحاكم على الحرية والعدل لا المحكوم منهما والنفس تتلون أحياناً بألوان البيئة وتتبدل أخلاقها بتبدل المشأ والمكان فراق أولئك الخلفاء سلطان الحكم المطلق وغلبوا على أمرهم بحكم الوسط فتغلبوا على حكم الفطرة وانقادوا لميل النفوس إلى التبسط فى السيادة ، حتى بلغ بعبد الملك بن مروان أن خطب يوماً خطبة أشار فيها إلى أن من راجعه فى أمره فقد تعرض للقتل ، مع أن عصر بنى مروان هو العصر الذى كان يرجى به استثمار البذور الديموقراطية التى يذرها الخلفاء الراشدون لاستغلال شأن الإسلام يومئذ ، وتفرغ الناس إلى النظر فى الشؤون الإدارية بعد انهماكهم فى الشؤون الحربية واشتغالهم بالفتح ، وما نخل الباعث للأمة العربية على الانقلاب لشهوات الملوك من بنى مروان إلا ذلك المويج الذى تألف منه جسم المجتمع الإسلامى يومئذ ، وأخصصهم الموالى من التبسط والفرس والروم الذين كان يسميهم معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه (الحمر) ويتوقع منهم كثيراً من الشر ، وفى الحقيقة فقد غلبت يومئذ الأمة العربية على أمرها بتفرق عصبيتها ، وتشتت قبائلها فى فارس والروم والشام ومصر وأفريقيا والأندلس ، فلم يفهم ذلك الفتح عن استبداد خلفائهم الذين خلا لهم الجو وتفرق عنهم أنصار الحرية الذين كان يؤمل أن يتعاهدوا ذلك النبات الطيب لإيمانه فى عصر الحضارة الإسلامية واجتناء ثمراته الشبيهة ، فيبسطوا يد القوة ، وتبسطوا فى الاستبداد ، ولو علموا أن الحكومة النيابية شرط فى بقاء الدول وسياج للملك يقيه وثبات الدول الناشئة لما نزعوا منازع الجبروت وهدموا ركن الشورى ، إذ مطمح نظر الشعوب ومناط سعادة الناس الحرية والعدل ، ومتى كان هذان أساس الحكم فى دولة من الدول ، فقد تحصل الناس على منتهى ما يرجون من بقاء هذه الدولة سائدة عليهم حاكمة فيهم ،

وليس لهم من وراء ذلك غرض إلا الذود عنها ، والذب عن حوزتها ، ذوداً عن حوضهم وذباً عن راحة مجتمعهم .

لو استمر بنو مروان سائرین على نهج الخلفاء الراشدين الواضح في حكم الناس على أصول الشورى وعدم التسلط على حرية الضمائر والأفكار ، إذن والله لما وجد بنو العباس نصيراً لدعوتهم ولا راغباً في دولتهم ، وهل يلجئ الناس إلى التوثب على الملوك والمزج على الدول والرغبة عنها إلى غيرها إلا فساد الحكم وإفساد قلوب الرعية بالتسلط الجائر والاستبداد القاهر .

لعمرك لو أحسن بنو مروان السياسة واتمسوا وسائل سلامة الدولة لجعلوا لأخلافهم تلك الحكومة الديموقراطية الساذجة التي وضعها لهم الخلفاء الراشدون حكومة ثابتة الدعائم منتظمة الشؤون آخذة بأطراف الحاجة بربطها بقوانين خاصة ترسخ عليها دعائمها وتقوم بها أصولها ، والطريق إلى هذا كان سهلاً عليهم لو اتمسوا إليه الحيلة باستقصاء أخبار مجاورهم من الروم الذين قامت لأسلافهم الرومان كثير من الحكومات النيابية ، كانت آثارها وأخبارها معروفة لذلك الجيل من الروم ، مخفوظة في مؤلفات القوم والذي أتاح لهم وللخلفاء الراشدين قبلهم أخذ اللازم لقيام الدول من الأصول الإدارية وغيرها عن الروم والفرس كوضع عمر رضى الله عنه للتاريخ ووضعه للدواوين على أصول الفرس والروم ، واتخاذ معاوية الحجاب وضرب عبد الملك للنقود وغير ذلك من الأمور التي لم يكن لها أثر عند العرب (كان يتيح لهم ترتيب حكومة ثابتة على أصول التجارب التي عاينها غيرهم من الأمم التي سبقتهم في الحضارة ، لو أخلصوا النية ونظروا إلى المستقبل بنظر الحكمة والرؤية ولو فعلوا لوضعوا الدول الإسلام أساساً ثابتاً في نوع الحكم لا يتأق لأية دولة إسلامية بعد جيلهم ذلك أن تضع مثله البتة لأسباب عديدة أهمها : إصفاق الفقهاء بعد كل شيء بالدين وحظرهم على الأمة العمل

بأى أمر نافع إلا ما سبق للصحابة والتابعين ، وكان عندهم كالتنزيل لا يحدد عنه أحد من المسلمين ، ولو نخر عظامهم فساد الحكم المطلق وأكل لحومهم الظلم وذهب بسلطانهم التباعد عن الانفعال بأصول الترقى عند الأمم الأخرى ، كما انتفع الأوربيون من المسلمين فى كثير من أصول مدينتهم السالفة أيام الحروب الصليبية وقبلها ، وهذا بحث طويل نمسك عنه الآن على وعد العود إليه فى محل آخر إن شاء الله .

عود الى فمبر السورى :

لما انتهى عمر من خطبته أشار عليه طلحة وعلى بما أشار عامة الناس ونهاه العباس وعبد الرحمن بن عوف عن هذا رأى ، وقال له الثانى أقم وابعث جنداً فقد رأيت قضاء الله لك فى جنودك قبل وبعد ، فإنه إن يهزم جيشك ليس كزيمتك وإنك إن تقتل أو تهزم فى أنف الأمر خشيت ألا يكبر المسلمون وألا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً .

ونعم هذا رأى والإخلاص من عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه إذ أن المسلمين يومئذ كانوا أحوج إلى حياة عمر والإسلام لم يمتد ويتأصل فى الجزيرة والفتنة لم تركد ، فلو أصيب عمر بشىء لصدق ما قاله عبد الرحمن ابن عوف لأن هبة عمر وعزيمته وأناة أبى بكر قبله ورويته مهدت لمن جاء بعدهما السبيل ، ومكنت للإسلام والمسلمين السلطان فى الأرض .

بينما المسلمون فى المشورة وفى عمر كتاب سعد بن أبى وقاص ، وكان عامله على صدقات هوازن بمن انتخبه له من أهل النجدة لحرب الفرس ، وهم ألف فارس ، فقال بعض المسلمين لعمر (رضى الله عنه) قد وجدته : قال فن : قال الأسد عاديا : قال من هو : قالوا سعد : فانهى إلى قولهم فأرسل إليه فقدم عليه فأمره على حرب العراق وانتدب معه الناس فمكأن أهل اليمن

ينزعون إلى الشام، وكانت مضر تنزع إلى العراق فقال عمر (أى لأهل اليمن)
أرحامكم أرسخ من أرحامنا ما بال مضر لا تذكر أسلافها من أهل الشام .

وصية عمر لعمر :

لما أمر عمر سعداً رضى الله عنهما أوصاه فقال :

ياسعد سعد بن وهيب ، لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحب
رسول الله ، فإن الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ، ولكنه يمحو السيء
بالحسن ، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا صاعته ، فالناس شريفهم
ورضيعهم في ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون
ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت النبي صلى الله عليه وسلم منذ بعث
إلى أن فارقتنا فالزمه فإنه الأمر ، هذه عظمى إياك إن تركتها ورغبت عنها
حبط عملك وكنت من الخاسرين .

ثم لما أراد أن يسرحه دعاه فقال :

إني قد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتي فإنك تقدم على أمر شديد
كره لا يخلص منه إلا الحق ، فعود نفسك ومن معك الخير واستفتح به واعلم
أن لكل عادة عتاداً فعتاد الخير الصبر ، فالصبر الصبر على ما أصابك أو نأبك
يجتمع لك خشية الله ، واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين في طاعته واجتناب
معصيته ، وإنما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة وعصاه من عصاه
بحب الدنيا وبغض الآخرة ، وللقلوب حقائق ينشئها الله لإنشاء . منها السر .
ومنها العلانية . فأما العلانية فأن يكون حامده وذامه في الحق سواء ، وأما السر
فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه وبمحبة الناس ، فلا ترهد في التمجيد
فإن النبين قد سألوا محبتهم ، وإن الله إذا أحب عبداً حبه وإذا أبغض
عبداً أبغضه . فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس ممن يشرع
معك في أمرك .

صغير صغير :

خرج سعد ومعه أربعة آلاف مقاتل منهم ثلاثة آلاف من اليمن وألف من غيرهم ، وكان فيهم من السراة وزعماء العرب عدد وافر ، منهم حميضة ابن النعمان البارقي ، وشداد بن ضمعج الحضرمي ، وعمرو بن معدى كرب على مذحج ، ويزيد بن الحارث الصدائي ، وبشر بن عبد الله الهلالي ، وشرحبيل ابن السمط الكندي ، وأضرابهم من صناديد العرب وقادتها .

وشيعهم عمر رضى الله عنه إلى الأعوص ، وهناك خطب فيهم خطبة أمرهم فيها بالعدل والرحمة واللين ، وأن ينهوا شؤونهم إليه ولا يؤخروا شيئاً من الشكوى عنه ، وستأتى الخطبة في باب خطبه إن شاء الله .

سار سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه بمن اجتمع لديه من الجنود حتى نزل زرود من أرض العرب بما يلي العراق ، وأمدّه عمر بأربعة آلاف مقاتل ، ووافاه الأشعث بن قيس في ألف وسبعماية ، فكان عدد جيشه الذي شهد القادسية نحو ثلاثين ألفاً بمن انضم إليه من جند العراق الذين كانوا مع المنفى ، ولما رحل سعد عن زرود كتب إليه عمر : أن ابعث إلى فرج^(١) الحمند رجلاً ترضاه يكون بحماله ويكون ردماً لك من شيء أتاك من تلك التخوم : فبعث المغيرة بن شعبة في خمسمائة ، فكان بحمال الأبله من أرض العرب ، ونزل على جرير وهو مرابط هنالك يومئذ . ولما بلغ سعد شراف نزل وكتب بمنزله إلى عمر بن الخطاب فكتب إليه عمر : إذ جاءك كتابي هذا فعشر الناس وعرف عليهم^(٢) وأمر على أجنادهم وعيهم ، ومر رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدرهم وهم شهود ثم وجههم إلى أصحابهم وواعدهم

(١) هو الثور وموضع الخفاة والأبله هي التي كانت تفر العراق يومئذ لقرىها من مصب الفرات في خليج فارس .

(٢) قال في القاموس العريف رئيس القوم أو النقيب وهو دون الرئيس .

القادسية ، واضم إليك المغيرة بن شعبه في خيله واكتب إلى بالذي يستقر عليه أمرهم .

فبعث سعد إلى رؤساء القبائل فاتوه فتدبر الناس وعبأهم تعبئة تشبه بسائر ترتيبها تعبئة الجيوش في هذا العصر ، وسنأتى على تفصيل الخبر عن هذا في غير هذا المحل إن شاء الله ، ورضى الله عن عمر بن الخطاب ما كان أعلمه بفنون الحرب وأشدّه احتياطاً على المسلمين وأبعده نظراً في أمور الفتح ، فإنه ما كان يأمر أميراً بحركة ما لم يأخذ لها العدة ويسد الفروج ويستوثق من معرفة أحوال البلاد وقوة العدو ومبلغ كفاءة القواد والحنود .

ولما أعد سعد لكل شيء عدته وفرغ من تعبئة جيشه ، كتب بذلك إلى عمر وجاءه في غضون ذلك المعنى بن حارثة أخو المثنى وزوجته خصمته التيممية ب وفاة المثنى ووصيته لسعد ، ومؤداها أن لا يقاتل سعد عدوه من أهل فارس إذا اجتمع أمرهم وملؤهم في عقر دارهم ، وأن يقاتلهم على حدود أرضهم بما يلي أرض العرب ، ولما انتهى إلى سعد رأى المثنى ووصيته ترحم عليه وأمر أخاه المعنى على عمله ، وأوصى بأهل بيته وخطب امرأته وتزوجها .

وكانت وفاة المثنى على أثر انتفاض جراحة كانت أصابته في وقعة الجسر المضية ، واستخلف على جيشه بشير بن الخصاصية ، وقد كان رضى الله عنه على جانب من الشجاعة والإقدام والنظر البعيد في شؤون الحرب لا يدانيه فيه إلا خالد بن الوليد ، وكان منذ وفوده على أبي بكر في أول خلافته يهون عليه أمر الفرس حتى ولاه قتالهم ، ثم ولي خالداً فقاتل تحت رايته ، ثم لما سافر خالد إلى الشام وبقي المثنى أميراً على ما فتحه وخالد من أرض العراق دفعه الإقدام على أن يتوسع في الفتح ويرمى بسهم المسلمين بملكة الأكاسرة ويدوخ ذلك الملك العريض ، فوفد على أبي بكر في حال مرضه فلم يسعه إجابة

سؤلة وأوصى به عمر وأشار عليه بأن يرسل معه الجنود إلى فتح بلاد فارس
فبعث معه أبا عبيد فكان منه ما كان من الأفراد بالرأى والوقوع في التهلكة ،
وما زال المثنى بعده يقاتل الفرس ويستتضع الخارجين من أهل العراق
ويسعى بتثبيت دعائم الإسلام ثمة ، حتى وافاه سعد فوافته منيته قبل أن يراه
ويتحقق أمله في تدوين بلاد الفرس ، نفى المسلمون بوفاته شهماً مقدماً
وقائداً عظيماً بلغ من إخلاصه ونصيحته وعلمه بفنون الحرب أن أوصى
سعداً قبل وفاته بوصية وافقت رأى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .
جاء كتابه إلى سعد يوصيه به بمثل وصية المثنى .

وأما نسبه فهو المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن سعد بن مرة بن ذهل
ابن شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل الربيعي الشيباني
وكانت منازل قومه في العراق ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم ستة تسع
مع وفد قومه فرضى الله عنه وأرضاه .

انتظر سعد جواب كتابه الذي بعث به إلى عمر فجاءه الجواب يوصيه
فيه بالآيقاتل الفرس إلا في أطراف بلاد العراق مما يلي البادية ، وأن
يلاقهم في القادسية ويوصى جمعه بالأمانة والصبر والثبات وأن يتيقظ لخدعة
الفرس ومكرهم ، وستأتي صورة الكتاب في كتبه إن شاء الله .

فارتحل سعد بالناس حتى نزل بعذيب الهجانات فوفاه كتاب عمر رضى
الله عنه ، يوصيه به ويسأله عن جغرافية البلاد وعن إلى أمر الفرس في ميادين
القتال ، وعن مبلغ قوة العدو وعن منازل المسلمين ومعسكراتهم ، ذلك لكي
يكون على بصيرة فيما يأمره به من الشؤون الحربية في تلك الأصقاع النائية
عنه ، ثم جاءه منه كتاب ثالث يأمره فيه بالتوقف ، ثم كتاب رابع يوصيه
فيه بالوفاء بالعهد والذمة وبأن يني بأمان من يؤمن من الأعاجم ولو بالإشارة
(٢٠ — أشهر مشاهد الإسلام) .

إذا لم يفهمها وظنها أماناً ، وستأتى هذه الكتب فى بابها إلا هذا الكتاب
فإننا رأينا أن نأتى به هنا لضرورة إيرادِهِ وهو بنصهِ (عن تاريخ
الطبرى) .

إنى قد ألقى فى روعى أنكم إذا لقيتم العدو هزمتهم ، فاطرحوا الشك
وآثروا التقية عليه فإن لاعب أحد منكم أحداً من المعجم بأمان أو قرفه (١)
بإشارة أو بلسان كان لا يدرى الأعجمى ما كله به وكان عندهم أماناً ، فأجروا
ذلك له مجرى الأمان وإياكم والضحك . والوفاء الوفاء فإن الخطأ بالوفاء
بقية وإن الخطأ بالغدر هلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ربحكم
وإقبال ربحهم ، واعلموا أنى أحذركم أن تكونوا (أى بعدم الوفاء) شيئاً
على المسلمين وسياً لتوهينهم اهـ .

كلمة فى التاريخ الإسلامى ورأفة عمر بالمحاربين :

هذا الكتاب يدلنا على أمرين : الأمر الأول أن الرأفة فى الحروب
ورفع السيف عن المغلوب ليست من خصائص المدنية الجديدة فى هذا
العصر وحدها ، بل هى من خصائص الدين الإسلامى أيضاً ، وقد سبق بها
العرب على بداوتهم سبقاً بعيداً لا يشق غبارهم فيه بقيمة الأمم ، وحسبك من
ذلك أن من شرط الاستئمان فى الحروب القانونية عند الأمم المتمدينة لهذا
العهد إلقاء السلاح ورفع الراية البيضاء ، وكان شرطه عند المسلمين أهون
من ذلك ، وهو أن مجرد الإشارة ولو نشأت عن هزل أو سوء تفاهم كانت
تحتّم على المسلم إجراءها مجرى الأمان .

(١) قال فى القاموس لاعب أى لعب معه والقرف بالتحريك من المقارفة والقراف
للمخالطة .

والأمر الثانى أن ما يتخبرص به بعض المؤرخين من الغربيين وما يذكرونه من المثالب الشائنة عن الفتح الإسلامى منشؤه إما الغيظ والضغينة وإما سوء الفهم المتأتى عن تشويش التاريخ الإسلامى ، وإلقاء المؤرخين من المسلمين الكلام على عواهنه وخلطهم غثه بسمينه ، بحيث يصعب الوقوف على مجرى الشؤون الحربية والسياسية يومئذ ، وتفريق الحق من الباطل ومعرفة النافع من الضار إلا لمن يدقق النظر ويستقصى حوادث التاريخ استقصاء الناقد البصير ، وما ذلك إلا لتجنب مؤرخى الإسلام لفلسفة التاريخ واكتفاء أكثرهم بالتألف من الحوادث وتوسعهم فى أخبار الحروب الإسلامية دون الذرائع العلمية التى ترقى بها الأمة فى الشؤون الاجتماعية والعمرانية والسياسية ، حتى إن المدنية الإسلامية التى طبقت شهرتها الآفاق كادت تكون مع قرب عهدها وبقاء آثارها وآثار أهلها إلى الآن أشبه فى الغموض بمدنية الأمم البائدة التى ينقب الباحثون فى تاريخها عن دفائن الأرضية وآثارها العافية ليحققوا على تاريخها الغابر ، بل بلغ بغموض تاريخنا وإغماض طرف مؤرخينا عن حاجات التاريخ أن أحدا لو أراد أن يعلم كيف كانت حالة قومه الاجتماعية منذ قرن مضى لا يجد إلى ذلك سبيلا ، هذا فيما قرب عنده من العصور ، فما بالك بالقديم ، وإلا فإين هو لعمر وأبيك التاريخ الذى يفصل لنا أخبار السلف التى تتعلق بمدنيتهم الغابرة وأصول معيشتهم وصناعاتهم وعوائدهم وأزيائهم وأصول حكومتهم المتعلقة بالإدارة والقضاء والسياسة والجندية وأصول التعليم والمدارس والمصانع وغير ذلك مما يتعلق بترقى هذه الأمة وحالتها الاجتماعية التى أدهشت أهل المغرب أيام الحروب الصليبية فرأوا عندها من النظام السائد والتبسط فى العمران والقيام على شؤون الإدارة والحرب ما لم يخطر لهم على بال .

اللهم إنا لا نرى فى التواريخ الإسلامية خبراً من هذا القبيل إلا بطريق

العرض مستوراً في ثنايا الأخبار ، وربما ألم بعض المؤرخين بشيء من ذلك كالخطيب في تاريخ بغداد والمسعودي في تاريخه الكبير ، إلا أننا لسوء الحظ لم نر من هذه التواريخ إلا شذرات منقولة في تضاعيف الكتب والأصل مفقود العين ، إلا أجزاء من تاريخ الخطيب متفرقة في بعض المصنفات لا تشفي الغليل .

فإذا كان هذا شأن التاريخ الإسلامي في عصور الترقى والحضارة ، وذلك شأن المؤرخين في إغفال تدوين المهم من أخبار التاريخ وتبسطهم في سرد أخبار الحروب ، فلا جرم أن يظن الجاهل والعدو أن الأمة الإسلامية إنما وجدت لإزعاج العالم بالحرب والقتال ، وأن تشوش الحقائق المندمجة في أخبار الفتوح فيصعب وقوف الناس على مجرى السياسة والحرب يومئذ ومبلغ نظامها في عصر الخلفاء الراشدين وأخصهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى يشهد ذلك القليل الذى وصلنا من أخبار سياسته أنه وضع للحرب والسياسة أصولاً بلغت الغاية من الرأفة والعدل ، لو استقصيت ودونت في كتاب على حدة وعمل بها الخلفاء والسلاطين في كل عصر وأضافوا إليها ما تمس إليه الحاجة التابعة لترقى الدول والزمان ، لما وجد الأعداء سبيلاً للقدح في الفتوح الإسلامية ، وكذلك لو عني المؤرخون أيضاً بذكر وتدوين الوسائط المدنية في عصور الترقى الإسلامية . لكانت لهذا العهد منوالاً تنسج عليه الأمة أو منبهاً يحرك فيها باعث الجد لاسترجاع ما فات والتوثيق من حفظ استقلالها وصون حياتها مما هوأت .

نمبر القادسية وغيرها :

لما انتهى سعد إلى عذيب الهجانات أقدم أمامه زهرة بن الحوية إلى

القادسية (١) ، وجاء على أثره بعد أن ترك خيلاً وجنداً تحوط الحريم فلم يجد في القادسية جنداً من الفرس ، فأخذ يبت السرايا للغارة والإرهاب ووقف مكانه موقف المدافع تبعاً لإشارة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وبعث عيونه إلى الخيرة وغيرها ليأتوا له بالخبر ، فعادوا فأخبروه أن كسرى قد ولي رستم بن الفرخزاد الأرمني حربه وأمره بالعسكرة فكتب بذلك إلى عمر فكتب إليه عمر .

أما بعد لا يكره لك ما يأتيك عنهم ولا ما يأتونك به ، واستعن بالله وتوكل عليه ، وابعث إليه رجالاً من أهل النظر والرأى والجلد يدعونه فإن الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم وفليجاً (٢) ، عليهم واكتب إلى في كل يوم .

وأما رستم فإنه جاء حتى عسكر بساباط بين المدائن والقادسية بمائة ألف مقاتل أو يزيدون كما في رواية البعض ، وتقدم سعد إلى نفر من قادة المسلمين ذوى منظر وآراء وعليهم مهابة ، فبعثهم إلى يزدجرد يدعونه إلى الإسلام أو الجزية وهم النعمان بن مقرن ، وبسر بن أبي رهم ، وحملة بن جوية السكتاني ، وحنظلة بن الربيع التيمي وفرات بن حيان العجلي وعدى ابن سهيل ، والمغيرة بن زرارة بن النباش وعطارد بن حاجب ، والأشعث ابن قيس والحارث بن حسان ، وعاصم بن عمرو ، وعمرو بن معدى كرب والمغيرة بن شعبة ، والمعنى بن حارثة ، فخرجوا من العسكر حتى قدموا المدائن دعاة يزدجرد فطووا رستم حتى انتهوا إلى باب يزدجرد فلبسوا ريشاً جمع

(١) القادسية على حافة البادية وحافة سواد العراق ، لهذا اختارها الخليفة عمر لمقام جيش سعد لقربها من البادية وعدم إقدام الفرس على التوغل فيها فيما لو تقهقر أمامهم جيش المسلمين .

(٢) قال في القاموس الفلج الظفر والنصر .

يزدجرد وجوه دولته واستشارهم فيما يجيبهم به ، فلما اجتمع رأيهم أذن لهم فأدخلوا عليه وأجرى بينه وبينهم كلام طويل ، سیرد معنا في سيرة سعد ابن أبي وقاص . ولما لم يجب يزدجرد طلب المسلمين أرسل سعد المغيرة بن شعبه إلى رستم وكان رجلاً داهية ذا بصيرة ورأى ، إلا أنه أبي أن يجيب إلى الإسلام أو الجزية تبعاً لرأى قومه ومشورتهم ، فأعلن الحرب على المسلمين وكانت بينه وبين المسلمين إلى أن قتل حروب شديدة انتهت بفعل جموع الفرس في القادسية وتقدم جيش المسلمين إلى عاصمة الأكاسرة ، كما سنرى تفصيل الخبر في سيرة سعد بن أبي وقاص إن شاء الله وكان مقام المسلمين في القادسية منذ وصلوا إلى أن ظفروا شهرين .

لما فرغ سعد من حرب القادسية أقام فيها بعد الفتح شهرين وكتب إلى عمر فيما يفعل ، فكتب إليه عمر يأمره بالمسير إلى المدائن فسار إلى المدائن لأيام بقرين من شوال سنة (١٥) وقيل (١٦) والتقى بجيش للفرس في مكان يدعى برس فهزمه ، فانضم إلى فالة القادسية في بابل فأرسل إليهم زهرة ابن الحوية فقاتلهم وهزمهم ، ثم سار سعد إلى المدائن وهي بهرسير (١) ودخلها بعد حصار شهرين ، وهرب منها كسرى إلى حلوان فغزم المسلمون من ذخائر كسرى وأموال الفرس في المدائن ما لا يعد ، ثم دعا سعد الدهاقين إلى الإسلام أو الجزية ولهم الذمة فلم يبق غربى دجلة إلى أرض العرب سوادى إلا آمن واعتبط بملك الإسلام ، ثم بعد أن ملك المسلمون إيوان كسرى جعلوه مسجداً وإن سعدا ليصلى فيه بالناس والتائبين من الجص قائمة فيه ، ثم أرسل سعد جيشاً من المسلمين بقيادة ابن أخيه هاشم بن عتبة ابن أبي وقاص إلى حلوان وماسبذان فافتتحهما ، وفر كسرى من حلوان إلى

(١) المدائن هي عاصمة الأكاسرة وموقعها على دجلة على مرحلة من الجنوب الغربي من بغداد وتسمى قديماً طيسيفون ويسمىها الإفرنج الكلفيون .

الراى وقيل إلى أصفهان وكان ذلك سنة (١٩) وأقام سعد في المدائن سنة (١٧) وفتحت جيوشه في غضونهما تكريت والموصل ، ثم تحول إلى الكوفة بعد أن اختطها بأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كما سيأتى ذكره في محله إن شاء الله .

مسح سواد العراق وترتيب الجزية والخراج

كيف يكون الاستعمار :

إن من الأصول السديدة في الفتح والاستعمار أن يؤسس على مبدأ حفظ الثروة المحلية لأهلها ، لتكون هذه الثروة مادة ينتفع منها الفاتح وأصلاً تنمو بنائه ثروة الدولة وتدوم بدوامه مادة العمران ، وكلما تبسط أهل المملكة في العمران وجد المستعمر من وسائل الكسب عندهم ما لم يجدوه فيما لو انضبط معين ثروتهم وانكسبت عن العمل أيديهم ، وقل أن تراعى الدولة الفاتحة هذا الأصل السديد والمرمى البعيد في الممالك المفتوحة ، بل معظم الفاتحين إلى هذا العهد يعتبرون البلاد التي أخذت عنوة ملكاً حلالاً لهم يجوز انتزاع الثروة من أهلها بطريق الإكراه التدريجية ليستأثر بها أهل ملتهم ويستغنى منها وطنهم على زعمهم ، ولم نعهد في هذا العصر دولة من الدول المتمدنية الأوربية تراعى حفظ الأصل في الثروة لأهلها في المستعمرات الإفريقية والآسيوية إلا دولة انكلترا ، وربما كانت أحسن الدول قياماً على ذلك الأصل في مستعمراتها الكثيرة الشاسعة ، وأخفهن وطأة على الرعية ، مع أن دعوى التمدن العريضة تستدعى الرأفة والعناية بسكان المستعمرات من سائر الدول الأوربية ، وتستلزم مراعاة الأصول الاقتصادية في حكم البلاد المفتوحة كما هي مرعية في الممالك الأوربية ، وهيئات هيئات فإن غلبة الشهوات تمحو عن لوح الذاكرة كل علم نقشته عليه أقلام العلماء في ديار المدنية، وليت جهلة

الكتاب من الإفرنج الذين يرمون الفتح الإسلامى وأهله بوصمة التخريب والتدمير ويسمونهم بسمات البداوة يمحشون فى التاريخ الإسلامى عن أصول الاستعمار والفتح عند العرب ، ويتعلمون منهم ما يفيدون به دولهم المتمدينة فى وضع أساس العدالة وحفظ أصول الثروة لأهلها فى الممالك المفتوحة .

إن مبدأ الفتح الإسلامى الذى يسم جهلة الإفرنج أهله بالبداوة والتخريب ، إنما كان فى عهد عمر بن الخطاب الخليفة الثانى للمسلمين الذى قهرت جيوشه دولتى الفرس والروم ، ورفعت أعلام دولته على أخصب ممالك الأرض لعهد ، فكان من جميل سياسته فى هذه الممالك وعظيم عدله فى الرعية أن حفظ على الأهلىن مادة ثروتهم وكف يد المسلمين عن انتزاع أرضهم ، وراعى فى ترتيب الجزية والخراج ثروات الأفراد وخصب الأرض وجدها ونوع النبات والشجر المستفبت فيها ، وكان شديد الحرص على استبقاء الفلاحين يعملون فى أرضهم لا يرضى بمزاحمة المسلمين لهم ولا انتزاع أرضهم منهم ، ومن ذلك ما رواه فى آثار الأول وترتيب الدول عن عبد الله ابن هبيرة أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر مناديه أن يخرج إلى أمراء الأجناد يتقدمون إلى الرعية بأن عطاءهم قائم ورزق عيالهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون .

وعن شريك بن عبد الرحمن أن شريك بن أبى سى العطيفى أتى إلى عمرو ابن العاص فقال إنكم لا تعطونا ما يحسبنا (يكفيننا) أفأذن لى بالزرع ، فقال له عمرو ما أقدر على ذلك . فزرع شريك من غير إذن عمرو فلما بلغ ذلك عمر أ كتب إلى عمر بن الخطاب يخبره أن شريك بن سى العطيفى زرع بأرض مصر ، فكتب إليه عمر بن الخطاب أن ابعث إلى به فلما انتهى كتاب عمر إلى عمرو بن العاص أقرأه شريكا : فقال شريك لعمرو قتلتنى يا عمرو ، فقال له

عمرو أنا قتلتك ، أنت صنعت هذا بنفسك ، فقال له إذا كان هذا من رأيك فأذن لي بالخروج من غير كتاب ، وذلك عهد الله أن أجعل يدي في يده (يعنى أنه لا يهرب) فأذن له بالوقوف ، فلما وقف على عمر قال : تؤمنى يا أمير المؤمنين : قال ومن أى الأجناد أنت : قال من جند مصر : قال فلعلك شريك بن سبي : قال نعم يا أمير المؤمنين قال : لأجعلنك نكالا لمن خلقتك : قال أو تقبل منى ما قبل الله من العباد : قال أو تفعل : قال نعم : فكتب إلى عمرو أن شريكا جاءنى تائباً فقبلت منه .

وأخرج فى فتوح البلدان عن إبراهيم التيمى قال لما افتتح عمر السواد (يعنى سواد العراق) قالوا له اقسمه بيننا فإننا فتحناه عنوة بسيوفنا ، فأبى وقال فما لمن جاء بعدكم من المسلمين ، وأخاف إن قسمته أن تنفاسدوا بينكم فى المياه : قال : فأقر أهل السواد فى أرضهم وضرب على رؤوسهم الجزية وعلى أرضهم الطسق (الخراج) ولم يقسم بينهم .

وأخرج عن يزيد بن حبيب : قال : كتب عمر بن الخطاب إلى سعد ابن أبى وقاص حين فتح السواد (أما بعد) فقد بلغنى كتابك ، تذكر أن الناس سألوك أن تقسم بينهم ما أفاء الله عليهم ، فإذا أتاك كتابى فانظر ما أجلب عليه أهل العسكر بخيلهم وركابهم من مال أو كراع فاقسمه بينهم بعد الخنس ، واترك الأرض والأنهار لعمالها ، ليكون ذلك فى أعطيات المسلمين فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن يبقى بعدهم شئ ، وفى كتاب الخراج لأبى يوسف بحث طويل بهذا الصدد فليرجع إليه .

وبلغ من حرص عمر رضى الله عنه على حقوق أهل العراق وحفظ أرضهم لهم ، أن أحد بنى الحارث بن كلدة طلب من عمر أرضاً يفتلى (١)

(١) فى القاموس فلا الصبى والمهر فلولاً وفلام عزله عن الرضاع أو نطمه كأفلام وافتلام

فيها خيله ، فكتب إلى أبي موسى الأشعري إن أبا عبد الله سألني أرضاً على شاطئ دجلة يفتلي فيها خيله فإن كانت في غير أرض الجزية ولا يجزأ إليها ماء الجزية فأعطه إياها ، وقيل بل كتب بذلك إلى المغيرة بن شعبه في ولايته كتاباً غير هذا وهو بمعناه كما تراه في محله إن شاء الله وهذا وايم الله من الإغراق في العدل ، وحقه أن يكون شرعة حق يسلكها دول الاستعمار مع المسلمين وهيئات هيئات : وأما كيفية ترتيب عمر للجزية والخراج في العراق فهو أنه لما زال عن العراق ملك الفرس وتوطدت دعائم الإسلام وانبسط عليه عدل عمر بن الخطاب ، رأى ورأيه العدل أن ينظم شؤونه الإدارية ويرتب فيه الواضائع على نحو ترتيب كسرى أنوشروان ، إلا أنه خوفاً من إجحاف العراقيين أو تظلمهم رأى أن تمسح أرض السواد وتفرض أجزاء بنسبة الخصب وما يحمله كل جزء من الشجر ، وأن يحصى السكان فتضرب عليهم الجزية على نسبة حال الأفراد من الغنى والفقر ، فبعث عثمان بن حنيف الأنصاري إلى العراق العربي وحذيفة بن اليمان إلى العراق العجمي فقسما الأرض ووضعاً عليها الخراج بنسبة حالها ومذدوعها فجعلوا على جريب^(١) النخل عشرة دراهم وعلى جريب السكرم عشرة دراهم وعلى جريب القصب ستة دراهم ، وعلى جريب البر أربعة دراهم وعلى جريب الشعير درهمين ، وكتبوا بذلك إلى عمر فأجازه ، وفي رواية لأبي يوسف أنه جعل على جريب النخل ثمانية دراهم .

وأخرج أبو يوسف والبلاذري عن الشعبي أن عثمان بن حنيف لما مسح السواد وجده ستة وثلاثين ألف ألف جريب (أى ستة وثلاثين مليوناً)

(١) في القاموس الجريب اسم المكيال والزرعة وأما مساحته فقد ذكر الطبري في تاريخه أن المسلمين لما غنموا بساط كسرى وجدوه ستين ذراعاً طولاً وستين عرضاً قال وهو مقدار جريب فعلى هذا تسكون مساحته ٣٦٠٠ ذراع مربع .

وفي رواية أنه استثنى النخيل وفي رواية أن عمر ألغى النخل في ولاية المغيرة ابن شعبة على العراق والظاهر أنه أراد باستثناء النخل من الخراج تسهيل تجارته وإصداره إلى البلاد لأنه مادة التجارة في العراق .

وبلغ خراج العراق في ولاية عثمان بن حنيف مائة ألف ألف درهم (أى مائة مليون درهم) وذلك عدا الصوافى التى اصطفاهما عمر لبيت المال وكانت لال كسرى أو لمن هرب وترك أرضه ، وبلغ خراجها سبعة آلاف ألف درهم (أى سبعة ملايين) وأقطعت هذه الصوافى بعد ذلك للصحابة .

وأما الجزية فقد أحصى عثمان بن حنيف من تجب عليه من سكان السواد فبلغوا خمسمائة وخمسين ألف شخص ، فجعلها على ثلاث مراتب ثمانية وأربعين وأربعة وعشرين واثني عشر ، وذلك بنسبة حال الأفراد فإذا اعتبرنا في هذا العدد متوسط الجزية الذى هو أربعة وعشرون درهما فيكون مجموع الجزية ثلاثة عشر مليونا ومائتى ألف درهم إذا أضيفت إلى مبلغ الخراج بما فيه خراج الصوافى فيكون مجموع الجباية في العراق على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه مائة وعشرين مليون درهم ومائتى ألف درهم^(١) كانت تنفق في أعطيات الجند وأرزاق المسلمين بما عدا الخمس ، فإنه يرسل إلى المدينة وينفق ما يلزم من الجباية لإصلاح الجسور وحفر الأنهر ، ومن الأنهر التى احتضرها عمر في العراق النهر المعروف بنهر معقل قرب البصرة ، ونهر سعد بن عمرو بن حرام قرب الأنبار وغيرهما .

وأخرج الإمام أبو الفرج بن الجوزى في مناقب عمر عن عمر بن ميمون

(١) ورأيت في مناقب عمر للإمام أبى الفرج بن الجوزى أن جباية العراق العربى المعروف بالسواد والعراق العجمى المعروف ببلاد الجبل بلغت مائة وعشرين مليونا (واق) قال والواق درهم ودانقان ونصف ، هذا ما قاله ابن الجوزى وأما الدانق فقد كان كل درهم أربعة دوانق وهو الدرهم البغلى ، وأما الدرهم الطبرى فقد كان ثمانية دوانق وقبل بالعكس

قال : رأيت عمر بن الخطاب قبل أن يصاب بالمدينة وقف على حذيفة ابن اليمان وعثمان بن حنيف ، فقال كيف فعلتما (يعنى بالعراق) أخاف أن تكونا حملتما الأرض مالا تطيق : قال لا ، فقال عمر لئن سلجنى الله لأدعن أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى أحد بعدى أبداً فما أنت عليه الأربعة إلا أصيب ، وروى أبو يوسف في الخراج أن عمر كان يجبي الخراج ثم يخرج كل سنة عشرة من أهل الكوفة وعشرة من أهل البصرة يشهدون أربع شهادات بالله إنه من طيب ما فيه ظلم مسلم ولا معاهد ، وهل بعد هذا العدل عدل يؤثر عن الملوك والخلفاء ، ويذكر عن الدول لا والله . هكذا كان ما يسمونه الاستعمار الآن على عهد عمر بن الخطاب ، إذ تأسس على قاعدة حفظ الثروة المحلية لأهلها لتكون مادة ينتفع منها الفاتح وأصلاً تنمو بنيانه ثروة الدولة ، وإنما أخذ عمر هذه القاعدة من القرآن الكريم الذى هو أول كتاب إلهى قرر هذه القاعدة ، وذلك أن عمر لما ألح عليه بعضهم بقسمة الأرضين في العراق والشام أبى إلا إبقاءها بيد أهلها وانتفاع المسلمين بخراجها فقط ، وقال كيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الأرض قد حيزت وقسمت ما هذا برأى . وجمع الناس للشورى واحتج على من رأى قسمة الأرضين بالكتاب الكريم كما ترى ذلك مبسوطاً في كتاب الخراج لأبى يوسف ، وقال لئن قد وجدت حجة الله تعالى في كتابه وتلا الآيات التى نصت على النية وقسمته وعلى مستحقه من المسلمين وهى (ما أفاء الله على رسوله) إلى أن قال بعد ذكر ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والمجاهدين والأنصار (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم) وقال لهم عمر رضى الله عنه هذه الآية عامة لمن جاء بعدهم (أى بعد من ذكروا في الآيات) فقد صار هذه النية بينهم جميعاً فكيف نقسمه لهؤلاء (يعنى الفاتحين) وندع من تخلف

من بعدهم بغير قسم فأجمع على تركه وجمع خراجهم ووافقه على ذلك المخالفون وتم الأمر أن تبقى الأرضين بيد أهلها لتكون مادة يستمد منها أهلها والفاتحون مادة الحياة ، وهذا هو قانون الاستعمار العادل وأساسه المتين .

لما تمهد أمر العراق لعمر بن الخطاب رضى الله عنه بعث عتبة ابن غزوان والياً على البصرة ، وولى سعد بن أبى وقاص الصلاة وإمارة الحرب العامة على كل ما غلب عليه من البلاد ، وجعل مقره الكوفة ، ولما عزله ولى عمر بن ياسر ثم المغيرة بن شعبة ثم أباموسى الأشعرى ثم عمر بن سراقه وغيرهم ، وولى على الخراج النعمان بن مقرن على ماسقت دجلة وسويدا أخاه على ماسقى الفرات ، ثم ولى عملهما حذيفة بن أسيد وجابر بن عمرو ثم حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف وهما ، اللذان مسحوا العراق كما تقدم ،

عود إلى خبر الفتح

غزوة فارس من البحرين :

كان العلاء بن الحضرمي ، أحد أبطال حروب الردة عاملاً لعمر على البحرين وهي من بلاد العرب مما يلي خليج فارس ، وكان يبارى سعد ابن أبى وقاص لصدع صدعه القضاء بينهما وطار عليه بالفضل في أيام حروبه في الردة ، فلما ظفر سعد بالفرس ودوخ عاصمة ملكهم واستعلى وجاء بأعظم مما جاء به العلاء ، رأى العلاء أن يبارى سعداً ويؤثر أثراً في الأعاجم ونعمت المباراة والمنافسة في الفتح والجهاد لو لم تكن بدون إذن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي كان لا يأذن بخوض جيوشه في البحار تربصاً بهم لأوان الفرصة وانتظاراً للوقت المناسب ، وأما العلاء فقد تسرع وندب الناس لمهاجمة الفرس من جهة البحر فأجابوه بفجر جيوشاً

عدته ١٢ ألف مقاتل ، فيهم من الرؤساء الجارود بن المعلى والسوار بن همام وعلى الجميع خليل بن المنذر بن ساوى فحملهم فى البحر إلى فارس فخرجوا إلى اصطخر وعليها المرابطة وعليهم قائد اسمه الهربذ ، فاعتم أن قابلهم الفرس حتى حالوا بينهم وبين سفنهم ، واجتمعت عليهم جموع فارس فقاتلوهم قتالا شديدا وشجعهم خليل بخطبة خطبها فيهم فتراموا على الموت وقتل الجارود وسوار فاستمات ابناهما عبد الله بن السوار والمنذر بن الجارود فقاتلا حتى قتلا وجعل خليل يومئذ يرتجز ويقول :

يا لـ تميم أجمعوا النزول وكاد جيش عمر ينزل
وكلكم يعلم ما أقول

فنزّلوا واقتتل القوم وقتل من الفرس مقتلة عظيمة ، ثم خرجوا يريدون البصرة وقد غرقت سفنهم فلم يجدوا إلى الرجوع سبيلا وأخذ الفرس عليهم الطرق فلما أحسوا بالخطر عسكروا وامتنعوا ودافعوا العدو مدافعة الأبطال الصناديد .

وكان لما بلغ عمر بن الخطاب تسيير العلاء لهذا الجيش أدرك بفراسته ما يصير إليه من الهلاك فى تلك البلاد النائية فاشتد غضبه على العلاء وكتب إليه بعزله وأمره بأثقل الأشياء عليه ، وذلك أن ينضم بمن معه إلى سعد ابن أبى وقاص ويكون تحت إمارته ، وكتب إلى عتبة بن غزوان وإلى البصرة بالخبر وأمره أن يندب الناس إلى نصرتهم قبل أن يحتاجهم الفرس ، فندب عتبة الناس وأخبرهم بكتاب عمر فانتدب عاصم بن عمر وعرجة بن هرثمة وحذيفة بن محصن والأحنف بن قيس وأمثالهم من قادة العرب وفرسانهم ، فخرجوا فى اثنى عشر ألفاً على البغال يحبسون الخيل كي لا يفنيها الركوب وعليهم أبو سبرة بن أبى رهم أحد بنى مالك وساحل (أى مشى على الساحل)

أبو سبرة والمسالخ في الأهواز وهم رده له حتى التقى بخليد بحيث عسكر وأخذت عليه الطرق وحصر هو وجنوده الليوث البواسل ، فاستصرخ أهل اصطخر أهل فارس على المسلمين فأقبلوا عليهم من كل فج ، فالتقوا هم وأبو سبرة وتوافت للمسلمين أمدادهم وتواصلت جنوهم ، فلم يتمكن الفرس من حصرهم أو قطع المادّة عنهم وقاتلهم المسلمون وغنموا منهم غنائم كثيرة ، وعادوا بذلك الجيش المحصور ببركة رأى عمر وأخذ الحيلة اللازمة لسلامة جيش يريد التوغل في بلاد العدو ، وكان لأهل البصرة فضل عظيم بإنقاذ جيش العلاء والظفر بالفرس .

ولما رجع الجيش إلى البصرة استأذن عتبة عمر بالحج فأذن له ، فلما قضى حجه استعفاه فأبى أن يعفيه وعزم عليه أن يرجع إلى عمله فانصرف على غير رضاه فأت في بطن نخلة فدفن . وبلغ عمر وفاته فأثنى عليه بفضل له وولى مكانه أبا سبرة بن رهم بقية السنة ، ثم استعمل المغيرة بن شعبه في السنة الثانية فاستمر فيها إلى أن جرى بينه وبين أبي بكر ما جرى ، مما سيأتى في محله إن شاء الله فمزل له عمر واستعمل مكانه أبا موسى الأشعري .

خبر الهرمزان

وفتح الأهواز وتستر والسوس وغيرها

كان الهرمزان أحد البيوتات الصبغة في أهل قارس وكان شهد القادسية مع الفرس وانهزم بهزيمتهم فجاء إلى الأهواز^(١) وتولى أمرها وأخذ يغير على

(١) الأهواز اسم ولاية واقعة بين ولاية البصرة وولاية فارس ونحن نلخص هنا ما ذكره في شأنها ياقوت في معجمه وهو :

الأهواز جمع هوز وفي قول جمع خوز فهي على القول الأول . محرفة عن حوز والحوز مصدر حاز الرجل الشيء يحوزه حوزاً لذا حصله وملكه والحوز في الأرضين أن يتخذها رجل ويعين حدودها فيستحقها فلا يكون لأحد فيها حق فذلك الحوز .

أهل ميسان فقلق منه عامل البصرة عتبة بن غزوان فاستمد يسعداً فأمدّه بنعيم
ابن مقرن ونعيم بن مسعود وأمرهما أن يأتيا أعلى ميسان - ودستهم ميسان
ووجه عتبة سلمى بن القين وحرملة بن مريطة وكانا من المهاجرين فبذلوا أعلى
حدود أرض ميسان ، وهناك قوم من العرب يقال لهم بنو العم بن مالك
فاتفقوا معهم على المعاودة ، وأن يشوروا بالهرمزان ، وكان من زعمائهم
عالب الوائلي وكليب بن وائل ونعيم ، وبلغ ذلك الهرمزان فسقط في يده
فانهزم ، فتمتعه المسلمون وقتلوا من قومه ما شاءوا حتى انتهى الهرمزان إلى
جسر سوق الأهواز فعبره وأقام بها ونزل المسلمون بيماله ، فلما رأى مالا
حاجة له بد طلب الصلح فكتبوا إلى عتبة بن غزوان بذلك فأجاب عتبة إلى
الصلح على الأهواز كلها ما خلا نهر تيرى ومناذر وما غلبوا عليه من سوق
الأهواز فإنه لا يرد عليهم وجعل سلمى بن القين على مناذر مسلحة وأمرها
إلى غالب وحرملة على نهر تيرى وأمرها إلى كليب فكانا على مصالح البصرة
وكتب عتبة بذلك إلى عمر أوفد إليه وفداً منهم سلمى وحرملة وكانا من
الصحابة وغالبا وكليبا وأوفد معهم بعض وجوه أهل البصرة وفيهم الأحنف
ابن قيس فأمرهم عمر أن يرفعوا حوائجهم فكلهم قال : أما العامة فانت
صاحبها ولم يبق إلا خواص أنفسنا ، فطلبوا لأنفسهم إلا الأحنف بن
قيس فإنه تكلم فأعرب وأعرب عن حاجات البصريين فأجابه عمر إليها وقال :
هذا الغلام سيد أهل البصرة : ثم كتب إلى عتبة بن غزوان فيه بأن يسمع منه
ويشرب برأيه . وقيل بل احتبسّه عنده في المدينة وسيأتي الكلام على هذا
في سيرة الأحنف إن شاء الله .

== وعلى القول الثاني الأخواز مواضع في خوزستان - وموقع الأهواز بين البصرة وفارس ،
وكورها أى أقسامها سوق الأهواز ورامهرمز وأندج وعسكن ومكرم ونستر وجنديسابور
وسوس وسرق ونهر تيرى ومناذر وكان خراجها ثلاثين ألفاً (٣ مليون) درهم وكانت
الفرس تقسط عليها خمسين ألف ألف وعاصمة هذا القسم هرمزدار ورامهرمز أو سوق الأهواز .

ثم إن عمر رد سلعى وحرمة وغالباً وكلياً إلى مناذر ونهر تيرى فكانوا
عدة فيه ليكون إن كان .

ثم وقع بين الهرمزان وبين غالب وكليب اختلاف فى حدود الأرضين
فخضرت ذلك سلعى وحرمة لينظر فيما بينهم فوجدا غالباً وكلياً محقين والهرمزان
مبطلاً فخالا بينهما وبينهما فكفر الهرمزان أيضاً ومنع ما قبله واستعان
بالأكراد فكشف جنده فكاتب الأمراء إلى عتبة بذلك فكاتب عتبة إلى
إلى عمر رضى الله عنه فأمدهم عمر بحرقوص بن زهير السعدى
وكانت له صحبة وأمره على القتال وعلى ما غلب عليه من البلاد فجاء
فقاتل الهرمزان فهزمه ففر إلى رامهرمز وافتتح حرقوص سوق الأهواز
وأقام بها واتسقت له بلاد سوق الأهواز إلى تستر ووضع الجزية وكتب
بالفتح إلى عمر ثم بعث جزء بن معاوية فى أثر الهرمزان بأمر عمر فأتته
إلى قرية الشغرو أعجزه بها الهرمزان فقال جزء إلى دورق (وهى مدينة سرق)
وفىها قوم لا يطيقون منها فأخذها جزء صافية وكتب إلى عمر بذلك وإلى عتبة
وإنه دعا من هرب إلى الجزء والمنعة فأجابوه فكاتب عمر إليه وإلى حرقوص
ابن معاوية بن زهير بلزوم ما غلبا عليه وبالمقام حتى يأتيهما أمره وذكر الطبرى
فى غضنون هذا الخبر أن جزء بن معاوية استأذن عمر رضى الله عنه فى
عمران البلاد فأذن له فشق الأنهار وعمر الموات ، وهكذا كان دأب هؤلاء
الفاطحين الذين يزيمهم الأعداء بالهمجية والتدمير والتخريب فإنهم ما وطئوا
أرضاً إلا عمروها وأنصفوا أهلها فى الحكم والمعاشرة والجوار .

وأما الهرمزان فأقام فى رامهرمز وطلب الصلح فصوّل على ما لم يغلب عليه
المسلمون من أرضه فأقام الهرمزان على صلحه يوجبى إلى الأمراء ويمنعونه وإن غار
عليه أكراد فارس ممنوعه وكان ذلك فى سنة (١٧) وقيل فى سنة (١٦) ثم كفر

(أي جند) مرة أخرى وذلك أن كسرى يزديجرد حرضه على العصيان وحرّض أهل الأهواز عامة ، فأنهى ذلك إلى الأمراء ، فكتبوا إلى عمر رضى الله عنه وإلى المسلمين بالبصرة فكتب عمر إلى سعد أن ابعث إلى الأهواز بعثا كشيفا مع النعمان بن مقرن وعجل وابعث سويد بن مقرن في نفر من وجوه المسلمين ذكرهم له : وكتب بمثل ذلك إلى أبي موسى الأشعري وكان عاملا على البصرة بعد عتبة بن غزوان وأمره أن يسرح إلى الأهواز جنداً كشيفاً وفيهم نفر من سادة المسلمين ذكرهم له ، ومنهم البطل الشهير البراء بن مالك وعرجة بن هرثمة وحذيفة بن محسن وأشباههم وأن تكون إمارة الجيشين جيش الكوفة وجيش البصرة إلى أبي سبرة بن أبي رهم نخرج النعمان في أهل الكوفة فأخذ وسط السواد حتى قطع دجلة بحيال ميسان ثم أخذ البر إلى الأهواز وانتهى إلى نهر تيرى فجازها ثم جاز سرق الأهواز وخلف حرقوصا وسلبى وحرمله أمراء الأهواز ثم سار إلى رامهرمز وبها الهرمزان ولما سمع الهرمزان بمسير النعمان إليه بادره الشدة ورجا أن يقطعه وقد طمع الهرمزان في نصر أهل فارس وقد أقبلوا نحوه ونزلت أوائل أمدادهم بتستر فالتقى النعمان والهرمزان بأربك فاقتتلوا قتالا شديداً انتهى بانتصار المسلمين وانهمزام الهرمزان إلى تستر ثم توافى الأمراء واجتمعوا على تستر وكتب أبو سبرة يستمد أمير المؤمنين فأمدهم بأبي موسى والظاهر أن جنود الفرس التي كانت جاءت مدداً للهرمزان كانت كثيرة العدد ، لهذا حاصروهم أشهراً وقتل البطل الصنديد البراء بن مالك مائة مبارز في غضون مدة الحصار وقتل مثل ذلك مجزاة بن ثور ومثله كعب بن سور وقتل مثل ذلك كثير من أبطال البصرة والكوفة ، وعند نهاية الحصار جاء رجل إلى النعمان فاستأمنه على أن يده على مدخل المدينة ، فندب النعمان نفراً من الشجعان فدخلوا معه المدينة وأناموا من على الباب وفتحوه ودخلها الجنود ، فلما شعر بذلك الهرمزان فر إلى القلعة واعتصم بها ثم طلب الأمان على أن ينزل منها على حكم أمير المؤمنين

عمر بن الخطاب فنزل فأوثقوه واقتسموا ما أفاء الله عليهم فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف ، وقتل ليلتمذ جمع من المسلمين فيهم البراء بن مالك ومجزة بن ثور قتلها الهرمزان بنفسه .

وخرج أبو سبرة في أثر الفل إلى السوس وأحاط بها بجنده وكتب بذلك إلى عمر فكتب عمر برد أبي موسى إلى البصرة وأن يسير زربن عبد الله بن كليب إلى جندی سابور وأمر على جند النصر المقترب الأسود ابن ربيعة أحد بني ربيعة بن مالك .

ثم إن أبا سبرة أوفد إلى المدينة وفد فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس ومعهم الهرمزان فلما اقتربوا من المدينة ألبسوه حلته الملوكية وتاجه ودخلوا به المدينة ليراه المسلمون على هذه الصفة وانطلقوا إلى المسجد يطلبون أمير المؤمنين فوجدوه قائما في ميمنة المسجد متوسدا برنسه فجلسوا دونه وليس في المسجد غيره : فقال الهرمزان أين عمر : فقالوا : هوذا : فقال أين حرسه وحجابه : قالوا ليس له حارس ولا حاجب ولا ديوان فقال فينبغي أن يكون نبيا : فقالوا بل يعمل عمل الأنبياء وكثر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة فاستوى جالسا ثم نظر إلى الهرمزان فقال الهرمزان : قالوا نعم : فتأمل ما عليه وقال : الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشياعه يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدي نبيكم ولا تبطرواكم الدقيا فإنها غرارة ، ثم قال هيه يا هر مزان رأيت وبال الغدر وهاقية أمر الله : فقال يا عمر إنما ولياكم في الجاهلية كأن الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم فلما كان معكم غلبتمونا : فقال عمر إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا .

هذا هو القول الحق الذي لامرأ فيه ، إذ ما حق الأمم وذهب باستقلال الشعوب إلا التفرق ، ومأمهد للمسلمين سبيل النصر على الدول إلا اجتماع

تلك القبائل المتفرقة على كلمة الإسلام وتمسكهم بعرى الأخوة والوئام ، هذا على إغراقهم في البداوة وبعدهم عن أسباب الحضارة وجدتهم في سياسة الملك وبالله لو استمرت عرى اجتماعهم متوثقة وأمور دولتهم متنسقة إلى عهد الحضارة الإسلامية التي استراح فيها المسلمون من عناء الفتح وأخذوا أنفسهم بالعلوم وتبسطوا في مناحي العمران لمساتطرق إليهم الوهن ولمافترت منهم الهمم ، ولكن سلط عليهم أمراؤهم ففرقوا كلمتهم وأفسدوا عليهم أمرهم فتباغضوا تباغض الأعداء ، وتناسوا يارباه روابط الإخاء التي ربطت تلك القبائل البدوية بعراها ، ففتحت لهم بمالك الأرض أقصاها وأدناها ، وبعد فإن المسلمين لم يكونوا في عصر أحوج إلى الوئام وأفقر للالتئام منهم في هذا العصر الذي ملأ فراغ الوجود عبراً يهز أعصاب الأموات وتثير في النفوس الخامدة بواعث الشعور بما هو آت ، ومع هذا فلا يزال أولياء أمورهم في تخاذل وتباغض لا يودون اجتماعاً ولا يقبلون نصحاً ولا تؤثر فيهم الزواجر ولا تعظمهم العبر يفرقون بين الأخ وأخيه والوطن وبنيه تزاماً على اسم الرياسة وتواطؤاً مع الزمان على هذه الأمة الإسلامية التي تمزقها الأعداء والفاثون وزاحمها على أرضها الغرييون وطاردها في سماها المتغلبون وهي مستغرقة في بحران الغفلة مستسلمة لأحكام القضاء استسلام الجبان للعدو القاهر ، لا تلتمس لها مخرجاً من هذا الضيق ، ولا تفتأ تعبد رؤساءها الذين قذفوا بها إلى هذا المكان السحيق ، وقالوا بعداً للقوم الجاهلين.

ثم إن عمر رضى الله عنه قال للهرمزان ماعذرك وماحجتك في انتقاصك مرة بعد مرة فقال أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك ، قال لا تخف ذلك فاستسقى الهرمزان ماء فأتى له به في قدح غليظ ، فقال لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب في مثل هذا ، فأتى به في إناء يرضاه فأظهر الجزع وقال إنى أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء فقال عمر : لا بأس عليك حتى تشربه : فأكفاه

فقال عمر : أعيذوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش : فقال لا حاجة لي في المساء إنما أردت أن أستمأن به فقال له عمر : إني قاتلك : قال : قد آمنقتني : فقال كذبت فقال أنس صدق يا أمير المؤمنين قد آمنته : قال ويحك يا أنس أنا أو من قاتل بجزاة والبراء والله لتأتيني بمخرج أو لأعاقبك : قال : قلت له لا بأس عليك حتى تخبرني وقلت لا بأس عليك حتى تشربه : وقال له من حضر مثل ذلك فأقبل على الهرمزان وقال خدعتني والله ولا أنخدع إلا لمسلم فأسلم الهرمزان وفرض له على ألفين وأنزله المدينة . وربما كان بعض الوفد هو الذي علمه هذه الحيلة شفقة عليه من القتل وإلا فأنخاله يعلم من أخلاق العرب الوفاء إلى هذا الحد والله أعلم .

خشى عمر رضى الله عنه أن يكون سبب خروج الهرمزان على المسلمين عدة مرار مع كونه عاهدهم ودخل في ذمتهم ناشئاً عن سوء معاملة المسلمين لأهل ذمتهم في فارس والعراق ، فاستدعى الوفد الذي وفد عليه مع الهرمزان وسألهم عن ذلك وقال لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى : فقالوا لا مانعهم إلا وفاء وحسن ملكة : قال فكيف هذا وما سبب غدر أهل فارس : فلم يجد عند أحد منهم شيئاً يشفيه ويصر به بما يقولون إلا ما كان من الأحنف ابن قيس فقال : يا أمير المؤمنين أنا أخبرك إنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد وأمرتنا بالاعتصار على ما في أيدينا وإن ملك فارس حى بين أظهرهم وأنهم لا يزالون يساجلوننا ماذا ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شيء إلا بانبعاثهم وإن ملكهم هو الذى يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح في بلادهم حتى نزله عن فارس ونخرجه من مملكته وعزامة فهناك ينقطع رجاء أهل فارس ويضربون جأشاً : فقال عمر صدقتني والله وشرحت لى الأمر عن حقه ونظار في حوائجهم وسرحهم : وقدم السكتاب على عمر باجتماع أهل

نهاوند فتحرك في نفسه أن يأذن بالانسياح بعد أن كان متوقفاً فيه لقلّة جيوش المسلمين بالنسبة لأهل فارس وعظيم قوتهم وضخامة سلطاتهم .

قدمنا أن أباسيرة ذهب في أثر المنهزمين من جنود الهرمزان إلى السوس وحاصرها فسلمت له ، وقيل بل كان على حصارها أبو موسى الأشعري ، وكان يزدجرد بعث أحد قواده واسمه سياه في ثلثمائة مقاتل فيهم نحو سبعين رجلاً من أشرف فارس وعظمائهم إلى السوس وأمره أن ينتخب من كل بلدة مر بها من أحب ، ففضى سياه إلى السوس وقد سلمت ودخلت في حوزة المسلمين ، فتحول سياه ونزل بين رامهرمز وتستر وقد عظم عنده أمر المسلمين وعلم بفراسته أنهم ظافرون بالدولة الفارسية لاحالة ، فدعا الرؤساء الذين كانوا معه وقال لهم : قد علمتم أنا كنا نتحدث أن هؤلاء القوم أهل الشقاء والبؤس سيغلبون على هذه المملكة وتروث دوابهم في إيوانات اصطخر ومصانع الملوك ويشدون خيولهم بشجرها ، وقد غلبوا على مارأيتم وليس يلقون جنداً إلا فلوه ولا ينزلون بحصن إلا فتحوه فانظروا لأنفسكم .

قالوا رأينا رأيك . قال فليكن في كل رجل منكم حشمة والمنقطعين إليه فإنني أرى أن ندخل في دينهم . وإنما أمرهم بأن يكفوه الجند تلافياً لما عساه يحدث منهم فيما لو أسلم أشرفهم فلبى الرؤساء أمره ثم وجهوا أحدهم واسمه شيرويه إلى أبي موسى في عشرة من الأساورة فقدم عليه وقال له : إنا قد رغبنا في دينكم فنسلم على أن نقاتل معكم العجم ولا نقاتل معكم العرب وإن قاتلنا أحد من العرب منعتمونا منه ونزل حيث شئنا ونكون فيمن شئنا منكم وتلحقونا بأشراف العطاء^(١) ويعقد لنا الأمير الذي هو فوقك

(١) كذا في تاريخ الطبري ولعله بأشرف العطاء أى أعلاه أو بالأشراف من أهل العطاء والعطاء هو في عرفنا الآن المرتب أو الماهية ، وسيأتي الكلام عليه في هذا الكتاب .

بذلك : فقال أبو موسى بل لكم مالنا وعليكم ما علينا : قالوا لا نرضى :
فكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب فكتب إليه أن أعطهم ما سألوه ورأى
منهم مرة تقصيراً في الحرب فلامهم على ذلك فاعتذروا إليه بقلة العطاء
فكتب بذلك إلى عمر رضى الله عنه فكتب إليه أن ألحقهم على قدر البلاء
في أفضل العطاء وأكثر شيء أخذه العرب ، فقرض لمائة منهم في الفين واستتة
منهم في ألفين وخمسمائة ، فقال الشاعر :

ولما رأى الفاروق حسن بلائهم وكان بما يأتى من الأمر أبصرا

فسن لهم ألفين فرضاً وقد رأى ثلاث مئين فرض عك وحميرا

وفي هذه الآيات استحسن لما صنعه عمر رضى الله عنه بإلحاق القوم
بأفضل العطاء تأليفاً لقلوبهم وحذراً من أمر يأتى من قبلهم ، ولا جرم أن
الاتقاع بناس كهؤلاء لا يفوت ذلك الخليفة العظيم الذى أدهش بحسن
سياسته يومئذ ملوك الفرس والروم فرضى الله عنه وجزاه عن هذه الأمة
خير الجزاء .

خبر جندى سابور

وأمان عبد أمضاء جيش المسلمين

روى الطبرى أن أبا سبرة لما فرغ من السوس خرج في جنده حتى نزل
على جندى سابور وزر بن عبد الله بن كليب محاصريهم فأقاموا عليها ينادونهم
ويراؤونهم القتال فلم ينجأهم يوماً إلا وأبواب البلد تفتح ثم خرج الناس
وخرج الأسواق وانبت أهلها فغار المسلمون من ذلك وأرسلوا فسألوهم
أن مالكم : قالوا رميتم إلينا بالأمان فقبلناه وأقررنا لكم بالجزاء على أن
تمنعونا : فقال المسلمون ما فعلنا : فقال أهل جندى سابور ونحن ما كذبنا :
فسأل المسلمون فيما بينهم فإذا عبد يدعى مكشفاً كان أصله منها هو الذى

كتب لهم : فقالوا إنما هو عبد : فقالوا إنا لا نعرف حركم من عبدكم قد جاءنا
أمان فذبح عليه قد قبلناه ولم نبدل فإن شئتم فاغدروا : فأمسكوا عنهم وكتبوا
بذلك إلى عمر فكتب إليهم .

إن الله عظيم الوفاء فلا تكونون أوفياء حتى تفروا مادمت في شك
أجيزوهم وفوا لهم : فوفوا لهم وانصرفوا عنهم .

ولو لم يعلم هذا العبد من أخلاق أولئك الفاتحين السامية أنهم يجيزون
أمانه وأن أخلاقهم الكريمة ونفوسهم الشريفة فوق كل فاتح محارب لما رمى
لقومه بالأمان واستنزلهم من المعازل ولو أنصف جهلة المتعصبين من المؤرخين
وتتبعوا أخبار هذا الفتح وبحثوا عن سيرة أولئك الفاتحين وأخلاقهم البارة
بالإنسانية لكفوا أنفسهم مؤونة التهجيم على ثلب المسلمين ووصفهم بالهمجية
والتخريب في أيام فتوحهم العظيمة ، ولكن ما الحيلة وإنما لا تعمى الأبصار
ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

الانسياح في بلاد فارس :

أشرنا فيما تقدم إلى ما رأى الأحنف بن قيس من لزوم انسياح^(١) الجيوش
الإسلامية في بلاد فارس تخلصاً من عصبية الملك واستخضاعاً للفرس
وقد انتهى عمر رضى الله عنه إلى رأى الأحنف وعرف فضله وصدقه
فأعد لذلك العدة وقسم الجيوش وأمر الأمراء من أهل الكوفة والبصرة
فأمر أبا موسى الأشعري أن يسير من البصرة إلى منقطع ذمة البصرة أى
آخرها فيكون هنالك حتى يبعث إليه وبعث بألوية من ولى مع سهيل بن عدى
حليف بنى عبد الأشهل فقدم سهيل بالألوية ودفع لواء خراسان إلى الأحنف
ابن قيس : ولواء ازدشير خره وسابور إلى مجاشع بن مسعود السلمي : ولواء

(١) الانسياح هو الذهاب في الأرض

اضطخر إلى عثمان بن العاص الثقفي ، ولواء فساوداز بجرذ إلى سارية بن زئيم
الكناني ، ولواء كرمان مع سهيل بن عدى ، ولواء سجستان إلى عاصم بن
عمر ، ولواء مكران إلى الحكم عمير التغلبي ، فخرجوا في سنة (١٧ هـ)
فمضوا ليسيروا إلى هذه الكور فلم يتيسر مسيرهم حتى دخلت سنة (١٨)
وأمدهم عمر رضى الله عنه بجماعة من جنود الكوفة : فأمد سهيل ابن
عدى بعبد الله بن عبد الله بن عتبان : وأمد الأحنف بعلمقة بن النضر
وبعبد الله بن أبي عقيل وبربعي بن عامر وبابن أم غزال ، وأمد عاصم بن
عمرو بعبد الله بن عمير الأشجعي : وأمد الحكم بن عمير بشهاب بن
المخارق المازني .

سارت هذه الجيوش كل جيش في وجهته وافتتحت في غضون خمس
سنين أعنى إلى نهاية خلافة عمر رضى الله عنه القسم الأعظم من بلاد
فارس الشرقية والغربية صلحاً وحرباً فبلغت ولاية أذربيجان شمالاً
وبخستان من ولاية أفغانستان ومكران من ولاية بلوخيستان أي السند
شرقاً وبحر الهند وخليج فارس جنوباً وكردستان والجزيرة غرباً ، وكانت
أعظم وقائع المسلمين في فارس بعد انسياع الجيش وقعة نهاوند وأحسن
الفتح فتح خراسان : فأما فتح خراسان فقد اختلف فيه هل كان في خلافة
عمر بن الخطاب أو خلافة عثمان رضى الله عنهما لهذا نرجى الكلام عليه
إلى سيرة الأحنف بن قيس ، وأما فتح نهاوند فنذكر طرفاً من خبره هنا
لأهميته وللكثرة ما عاناه المسلمون في هذا الفتح من المشاق وبما لا قوة من
شدة العدو وعدته فنقول نقلاً عما رواه الطبري في تاريخه .

خبر نهاوند

كان الذي هيج أمر نهاوند كسرى يزدجرد فإنه جمع إليه عظماء الفرس
وخوفهم من اجتماع الجيوش الإسلامية على فارس وأنذرهم بذهاب الملك

إذا لم ينهضوا نهضة رجل واحد لصد المسلمين ، فأجمعوا رأيهم على إعداد الجيوش في نهاوند وكتبوا إلى البلاد فحشروا الجنود الفارسية إلى نهاوند وكانت عدتها ١٥٠,٠٠٠ مقاتل ، فلما انتهى الخبر إلى موبدان حلوان كتب بذلك إلى سعد بن أبي وقاص وكتب هذا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فجمع عمر الصحابة واستشارهم في الأمر فنهض منهم من أشار عليه بالنهوض بنفسه إلى فارس ومنهم من أشار عليه بالمقام وبتسريح جنود الشام ومنهم من رأى غير ذلك ، وعن رأى أن يذهب إلى حرب القوم بنفسه عثمان بن عفان رضى الله عنه فإنه قام فقال (١) بعد أن تشهد :

أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم وتكتب إلى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم ، ثم تسير أنت بأهل هذين الحرمين إلى المصرين البصرة والكوفة فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين فإنك إذا سرت بمن معك وعندك ، قل في نفسك ما قد تكاثر من عدد القوم ، وكنت أعز عزاً وأكثر يا أمير المؤمنين إنك لا تستبقي من نفسك بعد العرب باقية (٢) ولا تتمتع من الدنيا بعز ولا تلوذ منها بحرين ، إن هذا اليوم له ما بعده من الأيام فاشهد برأيك وأخوانك ولا تغب عنه : ثم جلس فعاد عمر فقال .

(١) هكذا كانت العادة عند المسلمين إذا اجتمعوا عند الخليفة للشورى يقوم أحدهم عند إبداء الرأي خطيباً ويشير بما يراه ويشبهه في هذا العصر حال مجالس الشورى عند الأمم الأوربية ولكن شتان بين أهل شورى يفضى بهم البحث لاختلافهم في المنازع والفايات إلى المجادلة ثم المنازعة والمقارعة ثم الضرب والملاكمة ، وبين أهل شورى وجهتهم واحدة وأخلاقيهم رزينة ونياتهم سليمة فلا يسفه أحدهم رأى الآخر ولا يتناول في الكلام على سواء بن يبدى رأيه مع الأدب والرياسة فإن قبل كان بها ولما فلغيره أن يقول ما يشاء

(٢) يريد لاتبالي بنفسك إذا أصيب العرب بشيء وفي قوله هذا ومن بقية الخطبة دليل على ما أعده الفرس من القوة والعدة لكافة المسلمين يومئذ مما استكبر أسرهم الصعابة ورأوا لزوم إعداد القوة المماثلة لقوة الفرس الحاسمة لخطر هجومهم على المسلمين

إن هذا اليوم له ما بعده من الأيام فتكلموا : فقام علي بن أبي طالب
رضي الله عنه فقال :

أما بعد يا أمير المؤمنين فإنك إن أشخصت أهل الشام من شامهم سارت
الروم إلى ذراريهم^(١) . وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة
إلى ذراريهم . وإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك الأرض
من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك أهم إليك مما بين يديك
من العورات والعيالات . أقرر هؤلاء في أمصارهم واكتب إلى أهل البصرة
فلينفروا فيها ثلاث فرق فلتقم فرقة لهم في حرمهم وذراريهم ولتقم فرقة
في أهل عهدهم لئلا ينتقضوا عليهم ولتسر فرقة إلى إخوانهم بالكوفة مدداً
لهم ، إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدأ قالوا هذا أمير العرب وأصل العرب
فكان ذلك أشد ليلبهم وألبتهم على نفسك ، وأما ما ذكرت من مسير
القوم فإن الله هو أكره لمسيرهم منك ، وهو أقدر على تغيير ما يكره .
وأما ما ذكرت من عددهم فإننا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ، ولكننا كنا
نقاتل بالنصر .

فقال عمر : أجل والله لئن شخصت من البلد لتنتقضن على الأرض من
أطرافها وأكنافها ولئن نظرت إلى الأهاجم لا يفارقن العرصة وليدنهم
من لم يمدهم وإيقولن هذا أصل العرب فإذا اقتطعتموه اقتطعتهم أصل
العرب ، فأشيروا على برجل أوله ذلك الثغر غدأ واجملوه عراقياً ،
قالوا أنت أفضل رأياً وأحسن مقدرة وأنت أعلم بأهل العراق : فقال أما والله
لأولين أمرهم رجلاً ليكونن لأول الاسنة إذا لقيها غدأ : فقبل من يا أمير
المؤمنين : فقال النعمان بن مقرن المزني فقالوا هو لها :

(١) جمع الذرية وهو ولد الرجل والنساء الواحد والجميع ومراده أن الروم يسرون إلى
الشام حيث لا يبق إلا النساء والأطفال فيكتسبون البلاد ويسبون الذرية .

وكان النعمان (١) يومئذ بالمدينة ، وقيل كان بالبصرة مع القواد الذين أمدوهم عمر لما افتتح رامهرمز ، وقيل بل كان على خراج كسكر وكان كتب إلى عمر يستعفيه من إمارة الخراج ويطلب منه إلحاقه بجيش من جيوش المسلمين ، وذلك لأن إمارة الحرب كانت أحب إلى أقبال الصحابة من إمارة الخراج ، لا اعتبارهم الثانية من دواعي الراحة والرفاهية اللتين لم تألفهما نفوسهم العالية لميلها إلى اكتساب الفضيلة والشرف من ساحات الحرب والقتال . وإليك كتاب النعمان إلى أمير المؤمنين ، ومنه نرى بماذا شبه نعيم كسكر وكيف كان يأنف ذلك النعيم ، أما بعد إن مثلي ومثل كسكر كمثل رجل شاب إلى جنبه مومسة تلون له وتعطره فأنتشدك الله لما عزلتني عن كسكر وبعثتني إلى جيش من جيوش المسلمين فكتب إليّ إليه عمر أن انت الناس بنهاوند فإني قد وليتك حربهم ، فسر من وجهك ذلك حتى تأتى ماه ، فإني قد كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها ، فإذا اجتمع لك جنودك فسر إلى الفيرزان ومن يجمع إليه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم واستنصروا الله وأكثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله .

وكتب إلى الكوفة بشخص الجيش إلى نهاوند وعليهم حذيفة بن اليمان حتى يلتقي بالنعمان فتكون إمارة الجيش وكتب إلى سلمى بن القين وحرمة ابن مريطة وغيرهم من الأمراء الذين كانوا بالعراق العجمي وفارس أن يشغلوا الفرس عن جيش نهاوند ، فتقدم بعضهم إلى تخوم أصهبان وبعضهم إلى تخوم فارس فقطعوا عن نهاوند أمداد فارس ، ولما قدم جيش الكوفة على النعمان جاءه كتاب عمر إن مملك حد العرب ورجالهم في الجاهلية فأدخلهم دون من

(١) هذا البطل الجليل هو النعمان بن مقرن بن عائذ بن سيحان ويتصل نسبه بأد بن طابخة المزني نسبة إلى مزينة من ولد عيمان بن عمرو قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أربعمائة من مزينة . وقيل أباجر ومنه سبعة أخوة له وكان معه لواء مزينة يوم فتح مكة . وحضر حرب القادسية . وغيره من حروب الفرس واستشهد بنهاوند .

هو دونهم في العلم بالحرب واستغن بهم واشرب برأيهم وسل طليحة وعمرأ وعمرأ ولا تولهم شيئاً .

ويعنى بالعمرين عمرو بن معدى كرب الزبيدي وعمرو بن أبي سلمى العنزي ، وهما وطليحة بن خويلد الأسدي من زعماء العرب في حروب الردة ، لهذا أمره عمر باستشارتهم ونهاه عن تأميرهم ، لأنه رضى الله عنه كان لا يرى تأمير أحد من زعماء الردة ، وإن أذن لأهل الردة بالجهاد واستنفرهم للفتح ، وكان أبو بكر رضى الله عنه لا يرى هذا ولا ذاك كما رأيت فيما مر من سيرته وإنما ساغ لعمر رضى الله عنه أن يأذن لهم بحضور الفتوح للحاجة إليهم في إبان الفتح ولحصول الاطمئنان من جهتهم سيما بعد تبسط المسلمين في البلاد وحصول العرب على ذلك الملك العريض بفضل الإسلام .

تقدم النعمان وتقدم أمامه عمرو بن أبي سلمى وطليحة الأسدي لاستكشاف حال العدو ، فخاف عمرو ، التوغل ورجع ومضى طليحة على وجهه ، وكان بطلا شجاعا حتى بلغ نهاوند ، وعاد فأخبر النعمان بأن ليس بينه وبين نهاوند شيء يخشاه ، فتقدم النعمان حتى نزل على نهاوند وعلى جيوش الفرس قائد اسمه الفيرزان وآخر اسمه بهمن جاذويه ، ووافى النعمان إمداد أهل المدينة فيهم المغيرة بن شعبة ، وكذلك وافى أهل نهاوند كل من غاب عن القادسية والأيام قبلها من أهل الثغور ، ونزلوا ونزل النعمان ، ولما أريد بناء فسطاط للنعمان بادر أشراف أهل الكوفة فبنوا له فسطاطا (وهو السرادق) وهم أربعة عشر منهم حذيفة بن اليمان وعقبة بن عمرو والمغيرة بن شعبة وبشير بن الخصاصية وحنظلة الكاتب بن الربيع وابن الهوثر وربيع بن عامر وعامر بن مطر ، وجريز بن عبد الله الحميري ، والأقرع بن عبد الله الحميري وجريز بن عبد الله البجلي ، والأشعث بن قيس الكندي ، وسعيد بن قيس الهمداني ووائل بن حجر ، فلم ير بناء فسطاط بالعراق كهؤلاء وفي هذا

دليل على حسن الرابطة التي جعلها الإسلام بين أشراف العرب .

وأنشب النعمان القتال فاقتتلوا يوم الأربعاء ويوم الخميس والحرب بينهم في ذلك سجال وفي يوم الجمعة لجأ الفرس إلى خنادقهم وحصرهم المسلمون فأقاموا عليهم ما شاء الله والأعاجم لا يخرجون إلا إذا أرادوا الخروج فاشتد ذلك على المسلمين وخافوا أن يطول عليهم الأمر فجمع النعمان أهل الرأي والنجدة للشورى فاجتمعوا ، وأبدى كل واحد منهم رأيه وكان من رأى طليحة الأسدي أن يبعث النعمان خيلاً تفاجئ الأعداء في خنادقهم وتخاطبهم ثم تخرج بهم وتستطرد لهم حتى يقاربوا الجيش فيبادرهم القتال ويقطع عليهم خط الرجوع ، فانهى النعمان إلى رأى طليحة فأمر القمقاع بن عمرو وكان على المجردة ففعل وأنشب القتال مع العجم فلما خرجوا فكس وما زال يتأخر ناكساً شبه المهزوم حتى اقترب بهم من جيش المسلمين وكان النعمان على تعبئة فأخذ يمر على الصفوف ويحرض المسلمين على القتال وكلهم سامعون مطيعون ، ثم حمل النعمان وحمل الناس وراية النعمان تنقض نحوهم انقضاض العقاب فاقتتلوا بالسيوف قتالاً شديداً ، وكانت وقعة لم يسمع بمثلها قط ، وسال الدم في أرض المعركة فزلق به الناس والدواب وأصيب فرسان من فرسان المسلمين في الزلق وزلق فرس النعمان في الدماء فصرعه وتناول الراية نعيم بن مقرن ثم دفعها إلى حذيفة وجاء المنيرة بن شعبة وقال اكتبوا مصاب أميركم لئلا يهن الناس واقتتلوا إلى الليل وتمت الهزيمة على الفرس ، فانكفأوا في الخنادق فقتلوا ولم يفلت منهم إلا الشريد ونجاة الفيرزان فاتبعه نعيم بن مقرن وقدم القمقاع قدامه فأدركه عند ثنية همدان فتوقل الجبل فتوقل القمقاع في أثره وأخذه ، ولما بلغ الفل همدان جاءت خيل المسلمين في آثارهم فزلوا عليها ، نثرج إليهم خسرو شنوم فاستأنسهم وضمن لهم همدان ، ودستبي وألا يؤتى المسلمون من قبلهم فأجابوهم إلى ذلك وآمنوهم فأقبل كل من كان هرب واطمان الناس .

وقتل في وقعة نهاوند ناس من المسلمين ويقال إن ممن قتل يومئذ طليحة الأسدي وعمر بن معدى كرب الزبيدي ، ودخل المسلمون المدينة بعد هزيمة الفرس واحتوا ما فيها وما حولها وجمعوا الأسلاب إلى صاحب الأقباض (١) وهو السائب بن الأقرع وجاءهم الهربذ صاحب بيت النار مستأمناً ودلهم على ذخيرة لكسرى كانت عنده على شرط أن يعطوه الأمان على نفسه وعلى من شاء فأعطاه حذيفة ذلك ، فأخرج له تلك الذخيرة في سفطين (٢) وهي جوهر ثمين كان أعده لنوائب الزمان فأجمع رأى المسلمين على رفعه إلى عمر وقسم حذيفة الغنائم فكان سهم الفارس ستة آلاف وسهم الراجل ألفين ، ورفع ما بقي من الأخماس إلى السائب بن الأقرع فقبض السائب الأخماس نفرج بها إلى عمر مع ذخيرة كسرى ، وتقدم الرسول بخبر الفتح وهو طريق بن سهم أخو بني ربيعة وكان عمر متمللاً ينتظر أخبار نهاوند فلما جاءه الرسول وأخبره خبر الفتح واستشهاد النعمان بكى حتى اخضلت لحيته ، وترحم على النعمان وكان رضى الله عنه رقيق القلب محباً للمسلمين ، حريصاً على حياة القواد يحزن حزناً شديداً إذا أصيب أحد منهم .

ثم وصل السائب بالأخماس، فوضعت في المسجد وأمر عمر نفرأ من أصحابه منهم عبد الرحمن بن عوف بالمبيت فيه ، ودخل منزله فاتبعه السائب بالسفطين وأخبره خبرهما ، وأن الناس رضوا بأن يكونا له فقال له عمر : يا مليكة والله مادروا هذا ولا أنت معهم فالنجا عودك على بدئك حتى تأتى حذيفة فيقسمهما على من أفاءهما الله عليه : فأقبل راجعاً حتى انتهى إلى حذيفة فأقامهما وباعهما فأصاب أربعة آلاف ألف (أربعة ملايين) .

(١) أمين المال والغنائم

(٢) قال في القاموس السقط محركه كالجوالق أو القفة اه قوله الجوالق معربة عن جوال التركية وهو ما يسميه الشاميون الآن المدل أو السكيس وما يسميه المصريون الزكية

هذه هي العفة التي قل أن تكون في بشر فضلاً عن ملك يكون له من السلطة على الناس ما كان لذلك الخليفة العظيم ، ولقد صدق والله من قال للهرمزان أن عمر ليس بنبي ، ولكنه يعمل أعمال الأنبياء ، وحقاً إن هذه الأخلاق أخلاق الأنبياء الذين استهانوا بالدنيا ومتاعها وإلا فأى حرج على عمر رضي الله عنه لو قبل هدية خصه بها المسلمون ورضى الجيش كله برفعها إليه وإن كانت من فيهم ومما غنموه بسيو فهم لو لم يكن متخلفاً بأخلاق النبوة المحمدية مخلصاً لله في السر والعلانية ليس له رغبة في غير الكفاف من العيش وسعادة المسلمين وعناهم وراحتهم ، فرضى الله عن نفسه الطاهرة ما أشرفها وأسمأها ، ومن للأمة بعمر ثان يرد أحرارها إلى أولائها ويذل نفسه في سبيل سعادتها .

ثم لما جرى بسبي نهاوند إلى المدينة جعل أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة لا يلقي منهم صغيراً إلا مسح رأسه وبكى وقال : أكل عمر كبدي : وكان نهاوندياً فأسرته الروم أيام حربهم مع الفرس وأسره المسلمون بعد فتنسب إلى حيث سبي .

ولما تم فتح نهاوند جاء أهل الماهين ماء بهرذان وماء دينار وطلبوا من حذيفة الأمان على أن يؤدوا الجزية ، فكتب لأهل كل ماء عهداً هذه صورته (عن الطبري) .

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى حذيفة بن اليمان أهل ماء دينار أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأراضيهم لا يغيرون عن ملة ولا يخال بينهم وبين شرائعهم ولهم المنعة (١) ما أدوا الجزية في كل سنة إلى من وليهم

(١) قد مر معنا لفظ المنعة في عهد أهل الذمة عدة مرار في هذا الكتاب ، ولم نذكر شيئاً عنها ونقول هنا المنعة محركة هي الحماية والامتناع بالعشيرة وكان المسلمون يشترطون على أنفسهم لا ذى الذمة أى أنه يصير كواحد منهم بمنعونه من كل غائب ومحارب ومن كل من أراد به سوء ، ولهذا السبب لم يكتب أهل الذمة بالدخول مع المسلمين في محاربة أعداء وطنهم =

من المسلمين على كل حالم في ماله ونفسه على قدر طاقته. وما أرشدوا ابن السبيل وأصلحوا الطرق وقروا (أضافوا) جنود المسلمين من مربيهم فأوى إليهم يوماً وليلة ونصحوا . فإن غشوا وبدلوا فذمتنا منهم بريئة . شهد القعقاع ابن عمرو ونعيم بن مقرن وكتب في المحرم سنة ١٩ .

وما يستنبط من هذا الكتاب أن العرب لما أمعنوا في بلاد فارس وكثرت مخالطتهم للفرس والروم أخذوا بأصول الحضارة وتمكنوا من سياسة الملك وعرفوا لوازم العمران ، فجعلوا لإصلاح الطرق التي هي عون الأسم التجارية والحربية إجبارياً على أهل البلاد كما رأيت في هذا الكتاب ، وكما جاء في كتاب عياض بن غنم لأهل الرها من الجزيرة ، وكان فتحها في سنة ١٨ في السنة التي فتحت بها نهاوند والماء وربما كانوا رأوا الطرق في التشعث والخراب تابعة لسائر العمران في مملكتي الفرس والروم يومئذ لما كانتا عليه من التناهي في الظلم وإغفال شؤون العمران فاشتروا على أهل البلاد إصلاحها وإنما قلنا لأنهم شعروا بهذه الحاجة لما أمعنوا في البلاد وكثرت مخالطتهم لتلك الأمم لأننا لم نر في كتب العهد السابقة على ذلك التاريخ شرطاً كهذا الشرط وهو وجوب إصلاح الطرق ، وهذا يخبرنا عن بدء انتظام الشؤون العمرانية في الدولة العربية ، لاسيما إذا أضفنا إليه انصراف همه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه منذ السنة السادسة عشرة للهجرة إلى تمصير الأمصار في العراق ، وشق الأنهر ، وإصلاح الجسور ، كما رأيت وسترى في هذا الكتاب .

وكان الذي عقد صلح الماء مع المسلمين أحد أبناء البيوتات من آل

== دفاعاً عن الحوزة لتحمل المسلمين ذلك دونهم من عهد الفتح ، وهذه هي العلة في أن الدول الإسلامية لا تنعم أحكام الجندية ، ولا تأخذ من أهل الذمة عسكرياً لحراسة البلاد أو للحرب مع أعدائها من أي جنس كانوا ، وهي نعمة لا يزال يقدرها كثير من عقلاء المسيحيين في المشرق ، ويتمنون لإصلاح حال الحكومات الإسلامية لتدوم عليهم بدوامها سلطة الإسلام . (٢٢ — أشهر مشاهير الإسلام)

قارن ، واسمه دينار وبه سمي الماء الواحد ماء دينار ، وكان سبب صلحه أن أحد أبطال المسلمين وهو سمالك بن عبيد العيسى أسره عقب فراره من وقعة نهاوند ثم من عليه بالإطلاق ، فعرف له هذا الجليل وطلب منه أن يقدمه إلى الأمير ليصلحه على بلده فقدمه إلى حذيفة فسكتب له حذيفة ذلك الكتاب وجعله على عمله ، فوفى للمسلمين بالعهد وأحسن الجوار ، وكان يختلف إلى الكوفة كلما كان عمله تابعاً لعامل الكوفة فاختر أخلاق المسلمين أيام الفتح وعرف أحوالهم ووقف على سيرتهم ، ولما كان من أهل الكوفة ما كان من الانشقاق والخروج على العمال ومنايذة الخلفاء قدم عليهم دينار في خلافة معاوية فقام بالناس في الكوفة فقال .

يا معشر أهل الكوفة أتتم أول ما مررتم بنا كنتم خيار الناس فعمرتم بذلك زمان عمر وعثمان ثم تغيرتم وفشت فيكم خصال أربع بخل وخب (أى خداع) وغدر وضيق (الشك والتردد) . ولم يكن فيكم واحدة منهم . فرمقتم فإذا ذلك في مولديكم فعلمت من أين أتيتم فإذا الخب من قبل النبط ، والبخل من قبل فارس ، والغدر من قبل خراسان ، والضيق من قبل الأهواز .

ولمّا أحببت لإيراد هذه الحكاية هنا لما لها من العلاقة بما قام في فكري منذ ولعت بالتاريخ من جهة تغير أخلاق أهل العراق من العرب دون أهل الشام في أيام الخلفاء على ومعاوية رضى الله عنهما ومن بعدهما وسأبسط الكلام على هذا في محله إن شاء الله .

والى هنا نقف بالقلم عن التبسط في تاريخ فتح بلاد العجم اكتماء بما أجمعناه من خبر انسياح الجنود الإسلامية في تلك البلاد والأطراف التي بلغوها في خلافة عمر رضى الله عنه ، ولمّا توسعنا في بعض الأخبار دون البعض الآخر التماساً لبعض الشوارد التاريخية التي لها مناسبة بما علقناه

وسنعلقه عليها من الشروح والاستنباطات التاريخية ، الدينية والاجتماعية ، ولو أوردنا كل أخبار الفتح وعلقنا عليها الشروح وتبعنا المناسبات لاحتجنا لكتابة أكثر من مجلدين فى سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وفى هذا من المشقة ما ربما يبطئ بنا كثيراً فى إبراز هذا التاريخ على أن الفائدة التى قصدناها حاصلة إن شاء الله ، وفى القليل أحياناً ما يغنى عن الكثير ، وفيما يأتى من هذا الجزء غنية عما تركناه ، والله ولى التوفيق .

— ٦ —

فتح الجزيرة

الجزيرة هى الجزء الشمالى من الأراضى الواقعة بين الفرات ودجلة ، وأما الجزء الجنوبى فإنه العراق ، وكلاهما كانا من منازل العرب من بكر وربيعة ومضر ، وكان رحيل العرب إلى هذه البلاد من أزمان متطاولة قيل إنها تمتد إلى ما بعد سيل العرم حيث رحلت هذه القبائل ونزلت بهذا القسم من الأرض وقاعدة الجزيرة هى الموصل وقد كان فتحها وفتح تكريت فى سنة (١٦ هـ) على يدى عبد الله بن المعتم وربعى بن الأفسكل وكان بهما سعد بن أبى وقاص من العراق وقيل بل كان فتح الموصل على يدى عياض بن غنم^(١) لما فتح الجزيرة بين سنة ١٨ وسنة ٢٠ وتحير الخبر أنا ذكرنا فى فتوح

(١) قد مر معنا كثيراً اسم هذا الفاتح الكبير فى هذا الكتاب لهذا رأينا هنا بمناسبة فتحه للجزيرة أن نذكر شيئاً من نسبه وسيرته فهو عياض بن غنم بن زهير بن أبى شداد ابن ربيعة هلال بن وهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر القرشى أبو سعد وقيل أبو سعيد وأبو عبيدة بن الجراح ابن عمه وقد قاتل معه بالشام ومع خالد بالعراق كما رأيت فى هذا الكتاب ، وصار إليه فتح الجزيرة وولاية أبى عبيدة بالشام وتوفى سنة عشرين ، وكان صالحاً فاضلاً شجاعاً سمحاً يسمونه لكرمه زاد الركب لأنه كان يطعم الناس زاده ، فإذا نفذ نحر لهم جله وكان إسلامه قبل الحديبية ، رضى الله عنه وأرضاه .

الشام كيف أن هرقل ملك الروم هاجم المسلمين في حمص بعد استقرارهم في بلاد الشام ، وأن عمر كتب إلى سعد بن أبي وقاص بأن يمد أبا عبيدة في حمص بالقعقاع بن عمرو ويشغل جيوش الجزيرة عن إمداد هرقل بجيوش من المسلمين عليها عياض بن غنم ، فسار القعقاع حتى أدرك أبا عبيدة في حمص وقد ظفر بالروم وتفرقوا وحاصر عياض بعض مدن الجزيرة ثم لما بلغه شخوص عمر رضى الله عنه للجابية شخص السلام عليه هو وخالده وأبو عبيدة ومعظم الأمراء فطلب أبو عبيدة من عمر رضى الله عنهما أن يعينه بعياض ففعل وأبقاه عنده ، ولما مات أبو عبيدة في طاعون عمواس سنة (١٨) استخلف عياضاً فورد عليه كتاب عمر بتوليته عمل أبي عبيدة وهو حمص وقنسرين وأضاف إليه الجزيرة وأمره بالمسير إلى فتحها فسار ومعه من القواد ميسرة ابن مسروق العيسى وسعيد بن عامر بن حذيم الجمحي وصفوان بن المعطل السلمي ويقال وخالده بن الوليد ، والأصح أن خالداً لم يسر تحت لواء أحد بعد أبي عبيدة .

وقد تضاربت الروايات في زمن مسير عياض إلى فتح الجزيرة وفي هل سار من قبل سعد وهو في العراق أم من قبل أبي عبيدة والصحيح الذي يستنتج من مجموع تلك الروايات هو ما ذكرناه .

وكان فتح الجزيرة كله صلحاً ، ومنه ما كان بعد قتال فليل وأهم البلاد التي فتحت هي الرقة والرها (أورفا) ونصيبين وحران وسميساط وسنجار وقرقسيا (وكان فتح هذه على يد حبيب بن مسلمة الفهري) وسروج وجسر منبج والموصل وآمد وغيرها وهكذا حتى بلغ عياض بادية الشام غرباً وأرمينيا وكرديستان شرقاً ، ثم دخل الدرب^(١) فبلغ بدليس (بتليس الآن)

(١) قال في القاموس الدرب باب السكة الواسع والباب الأكبر وكل مدخل إلى الروم
أ . وهو المقصود بقولهم أدرب أى دخل الدرب .

من كردستان وجازها إلى خلاط وانتهى إلى العين الحامضة ثم عاد فضمن صاحب بدليس خراج خلاط ، ثم عاد إلى الرقة وانصرف منها إلى حمص ومات سنة ٥٢٠ هـ فولى عمر مكانه سعيد بن عامر بن حذيم ، فلم يلبث إلا قليلا حتى مات ، فولى عمر عمير بن سعد بن شهيد الأنصارى أحد الأوس وقيل هو عمير بن سعد بن عبيد ، وقتل أبوه سعد يوم القادسية .

ففتح عمير عين الوردية ويقال لها رأس العين وهي مجتمع العيون التي يجرى منها نهر الخابور ويصب في الفرات ثم سلك الخابور حتى أتى قرقيسيا وقد نقض أهلها فافتتحها وصالح أهلها على صلحهم الأول ، ثم أتى حصون الفرات حصناً حصناً ولم يلق فيها كيداً حتى بلغ النأوسة وآلوسة ، وهيت فوجد سعد بن عمرو بن حرام الأنصارى وقد بعثه أمير الكوفة ليغزو ما فوق الأنبار ، فلما اجتمع عمير وسعد صالح عمير أهل هيت وانصرف إلى الرقة .

وكان عياض بن غنم رضى الله عنه أعطى كتباً في الصلح لأهل الجزيرة وقد تقدم معنا في أواخر باب فتح بلاد العجم بمناسبة الكلام على العمران في عصر عمر أن من تلك الكتب ما اشترط فيه على أهل النمة إصلاح الطرق والجسور ، وهانحن ننقل هنا كتاباً منها كتبه لأهل الرها وهو بنهضه عن فتوح البلدان .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ هذا كتاب من عياض بن غنم لأسقف الرها ، إنكم إن فتحتم لى باب المدينة على أن تؤدوا إلى عن كل رجل ديناراً ومدى قمح فأنتم آمنون على أنفسكم وأموالكم ومن تبعكم وعليكم إرشاد الضال وإصلاح الجسور والطرق ونصيحة المسلمين شهد الله وكفى بالله شهيداً .

فتح مصر وبرقه

كان عمرو بن العاص شديد التطلع إلى مصر رغباً في فتحها ، لأنه جاءها مرة في الجاهلية ورأى من ثروة أهلها وسهولة أمرها ما أطمعه في فتحها ، فلما قدم عمر بن الخطاب الجابية في سنة (١٨) واختلى به وفاتحه بما في نفسه وهون عليه أمر مصر ورغب إليه أن يوايه فتحها فتردد عمر رضى الله عنه في الأمر لأن جيوشه متفرقة في الشام والجزيرة وفارس تكافح دولة الفرس والروم ، فما زال به عمرو حتى استرضاه وأذن له بقصدها وجهز معه أربعة آلاف مقاتل كلهم من عك وقال له سر وأنا مستخير الله في مسيرك وسيأتيك كتابي إن شاء الله تعالى ، فإن أدركك كتابي وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف ، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره .

فسار عمرو بن العاص ووافاه كتاب عمر يأمره فيه بالانصراف فلم يفتحه حتى دخل أرض مصر ، وسيأتي الكلام على هذا في سيرة عمرو ، ثم تقدم عمرو حتى بلغ الفرما فقاتله بها الروم نحواً من شهر فهزمهم ، وتقدم إلى القواصر ولا يدافع إلا دفاعاً خفيفاً ثم إلى بلبيس ثم إلى أم دنين ثم مصر وأبطأ عليه الفتح فاستمد عمر فأمدته بأربعة آلاف ثم استمدته مرة أخرى فأمدته بأربعة آلاف آخرين وكتب إليه إنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل منهم رجال مقام الألف . الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود . وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد . واعلم أن معك اثني عشر ألفاً ولا تغلب اثنا عشر ألفاً من قلة .

كان القبط في مصر يكرهون سيادة الروم ويودون التخلص منها ولو بسيادة المسلمين ، فلما بلغ عمرو مصر وظفر بجنود الروم تواطأ على صلحه المقوقس مع قومه وصالحوه على شيء معلوم ، وبعد أن تم الصلح شخص عمرو بجنده إلى الإسكندرية وكان فيها جمع كثيف من الروم فحاصرها مدة طويلة ثم أخذها عنوة وكتب بالفتح إلى عمر واستقرت قدمه في البلاد فأخذ في تنظيم شؤونها وترتيب خراجها وتقرير أسباب الراحة والأمان بين أهلها ، وما زال والياً عليها حتى تزله عثمان بن عفان رضى الله عنه وقد رأينا أن نرجى تفصيل الكلام على فتح مصر وجغرافيتها وحالتها الاجتماعية على عهد ذلك الفاتح العظيم عمرو بن العاص إلى سيرته التي نوفيها حقها من البيان إن شاء الله .

لما استتب لعمرو الأمر بمصر سار إلى برقة وتسمى قديماً أنطابلس وهي واقعة بين مصر وطارابلس الغرب ومن فرضها الشهيرة بنغازى ، فصالحه أهلها على الجزية وسار إلى طرابلس الغرب ففتحها عنوة وكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب :

أما بعد - إنا قد بلغنا طرابلس وبينها وبين أفريقيا (١) تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل . فنهاه عمر فولى على برقة عقبة بن نافع الفهري وعاد وربما ذكرنا ذلك في سيرته ببيان أطول إن شاء الله .

انتهى ما أردنا إيراده من أخبار الفتح في خلافة عمر رضى الله عنه .

(١) يريد بأفريقيا تونس وهكذا كان يسميها الرومان ثم سماها العرب بهذا الاسم أيضاً والظاهر ، أن الجغرافيين سموها القارة كلها بهذا الاسم بعد من قبيل تسمية السكلي باسم الجزء .

تعبية الجيوش وبراعة القواد

وديوان الجيش

وعدنا فيما سبق أن نفرد فصلاً خاصاً في هذا الكتاب نبين فيه كيفية تعبئة الجيوش على عهد عمر بن الخطاب وبراعة قواده وتفنتهم في أساليب الحرب ، ووفاء بالوعد أفردنا هذا الفصل لهذه الغاية وليبان أصول التجند وديوان الجيش على عهده فنقول .

اعلم أن العرب أمة حربية قل أن يماثلها في ذلك العصر شعب من الشعوب في الشجاعة والإقدام . والتعود على أساليب القتال ، لدأب أفرادها منذ نعومة الأظفار على الفروسية وتعلم فنون الحرب وائتلافهم للقتال وحبهم للغارة التي تقتضيها حالتهم الاجتماعية وعوائدهم البدوية ، إلا أنه كانت تنقصهم الجامعة والعدة أي آلات الحرب ، فكانوا مع كونهم أمة واحدة من جنس قبائل متفرقة الأهواء والمنازع يقاتل بعضها بعضاً ويثب بعضها على بعض ، ولم يكن عندهم من آلات الحرب والقتال وأنواع السلاح إلا الرمح والسيف والدرع والسهم ، ولم يكن لعامتهم حظ بالجيد من أنواع هذا السلاح لفقرهم وربما كان أجودهم سلاحاً أهل اليمن لخصب أرضهم وتقدم بلادهم في الحضارة وعراقهم في الملك من عصور التبابعة ، ولذلك كان الفرس في واقعة القادسية يشبهون سهام العرب بالمغازل لدقتها وسداجة صنعها ، ولما جاء الإسلام جمع هذه الأمة على كلمته وضم قبائلها إلى رايته فلم يلبثوا أن دبت فيهم روح الاجتماع وشعروا بالحاجة إلى الطاعة والانقياد والتكاتف والاتحاد ، وكان من ذلك أن خضدوا شوكة الدولتين فارس والروم لما دفعهم أبو بكر وعمر إلى قتال الأمم وفتح الممالك وأظهروا في قتال جنود

الدولتين من التفنن في أساليب الحرب والتعود على الطعن والضرب ما رأيت فيما تقدم من هذا الكتاب مما جعل النصر حليفهم والقوة رائدهم في كل مكان .

فمن ذلك أنهم كانوا لا يقتحمون جنداً ولا يعمنون في داخل البلاد مالم يجعلوا وراءهم ردها أى مدداً يحمى ظهورهم ويؤمن طريق الرجعة ولا يمكن العدو من أن يقطع على موادهم كما رأيت ذلك في وقعة اليرموك حيث كان ردؤهم يزيد بن أبى سفيان ، وعند مسير الجيش إلى اصطخر لإفقاذ العلاء حيث قامت المسالحة من البصرة إلى الأهواز يمد بعضها بعضاً ويواصل بالمدد ذلك الجيش كي لا يقطع عليه الفرس طريق الرجوع ويهلك مع جيش العلاء .

ومنها أنهم كانوا لا يحاصرون مدينة مالم يقطعوا عنها طرق المواصلات مع جيش العدو ، كما رأيت في فتوح دمشق حيث أرسل أبو عبيدة عشرة قواد ومعهم الجيوش فنزلوا بين فحل ودمشق ، وأرسل ذا الكلاع بجيش فكان بين حمص ودمشق ، وبعث علقمة بن حكيم ومسروقاً فكانا بين فلسطين ودمشق ثم زحف هو وخالد ويزيد بن أبى سفيان على دمشق وحاصرها حتى فتحها ثم سار منها إلى فحل .

ومنها أنهم كانوا يبدون العدو بالقتال في أطراف بلاده التي تلي البادية حتى إذا أصابهم هزيمة تكون جزيرة العرب من ورائهم فلا يسع جيش العدو تتبع أثرهم واقتحام صحارى بلادهم كما رأيت ذلك في عملهم باليرموك والقادسية ، وكانوا يجتهدون أن يجعلوا هذه الوقائع الأولى كبيرة عظيمة لتكون مقدمة للنصر وباعثاً على توهين شوكة العدو وإلقاء الرعب في قلوب جيوشه ، لهذا كانت وقعة القادسية واليرموك من أهم مآدون في تاريخ الحروب الإسلامية وكل ما كان بعدهما من النصر إنما تأتى عن كسر حدة الجيوش الرومية والفارسية وخضد شوكتهم وإضعاف قوتهم في هاتين الواقعتين .

ومنها براعتهم في إقامة خطوط الدفاع على طول البلاد إذا أراد مهاجمتها العدو ، كما صنع المثنى بن حارثة الشيباني في العراق حيث رتب المسالـح من أوله إلى آخره بحيث ينظر بعضها إلى بعض ويمد بعضها بعضاً ، ومنها ترقب الفرص واغتنامها كما صنع خالد في فتح دمشق واستعمال التآني والحيلة في الحرب توصلاً للفتح ، صنع ذلك عمرو بن العاص بدخوله بنفسه على جيش الأربطون بحجة أنه رسول من قبل المسلمين ليوقف من حال جيشه على ما لم يقف عليه بواسطة الرسل ، وكما صنع عبادة بن الصامت في فتح اللاذقية بإظهاره القفول عنها وحفره الأسراب لاختفاء جنده فيها .

ومنها البقظة الدائمة لحركات العدو وسكنتاته والاستعداد لصد غاراته كما كان ذلك لما حاول هرقل مهاجمة جيش المسلمين من جهة الجزيرة ، ووقف المسلمون على خبره قبل أن يبدأ بشيء من ذلك ، فأطبقت عليه الجنود من جهتين ، من جهة الشام بقيادة خالد بن الوليد ، ومن جهة العراق بقيادة من ذكر في محله من القواد حتى أوقفوه عن حركته ولم يتمكنوه من المهاجمة ولا الوصول إلى الجزيرة .

ومنها توهينهم قوة العدو باشتغال جيوشه بالحرب عن أن يمد بعضها بعضاً عند الحاجة ، كما كان ذلك لما هاجم هرقل حمص واستنجد بأهل الجزيرة فأسرعت القواد من العراق وشغلت أهل الجزيرة عن نصرة هرقل ريثما تمت هزيمته وغلب عليه جيش أبي عبيدة بن الجراح .

ومنها براعتهم في سرعة اجتماع جيوشهم بعضها إلى بعض وجود الخطر الكبير ومظنة الخوف من غلبة العدو على جيوشهم إذا كانت متفرقة كما كان ذلك في اجتماع الأمراء على اليرموك بعد أن تفرقوا في أنحاء البلاد وإنما تسر لهم هذا الاجتماع بمحافظتهم على خط الرجوع وعدم تمكن العدو من قطع طرق

المواصلات بين تلك الجيوش وبين الردء الذى هو جيش يزيد بن أبى سفيان، هذا وأشباهه من مكائد الحرب التى مر ذكرها فى غضون أخبار الفتح كلها تدل على براعة القواد المسلمين يومئذ وتفوقهم فى أساليب الحرب وأصول القيادة على قواد جيوش الروم والفرس لاسيما الخليفة عمر بن الخطاب الذى كان مع بعده عن مواقف القتال يصدر أوامره إلى القواد فى الأعمال الحربية وكيفية الهجوم والدفاع على وجه يدل على أنه من أعظم قواد الجيوش فى العالم هذا فضلاً عما كان يوصى بها القواد من الرفق وحسن المعاملة مع المغلوبين، وعدم التسلط بالإيذاء عليهم، وبدوام اليقظة والسهر والرفق بجيوش المسلمين، وعدم إلقاءهم فى المهالك، والترثى فى الحرب والتبصر فى أمور القتال، إلى غير ذلك مما مر بيانه فى هذا الكتاب ولا حاجة لإعادته هنا .

وأما تعيينه العرب للجيوش فى إبان الفتح الذى مر ذكره فى هذا الكتاب فقد بلغ الغاية فى الترتيب وحسن النظام والانتظام، ونحن نذكر لك هنا ما لم يسبق منا ذكره فى هذا الكتاب من تعيينهم للجيوش فى وقائعهم الشهيرة وهى وقعة اليرموك ووقعة القادسية ومنها تظهر لك مرتبتهم فى فنون الحرب ومكانهم من البصيرة فى تعبئة الجيوش التى تشبها من كل الوجوه تعيينه الجيوش فى هذا العصر كالطلانج والمجردات (الكشاف) والميمنة والميسرة (الجناحين) والقلب والساقة والردء (المدد) والرجل (المشاة) والركبان (الفرسان) وكان الغالب على العرب قبل الإسلام حب المبارزة والمهاجمة عند الالتقاء مع العدو، فصاروا فى الإسلام يفضلون الزحف صفوفاً (كراديس) لقوله تعالى «إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص»، وكان الأمراء والقواد يتفاوتون فى المراتب فمنهم الأمير العام (المشير الآن) ويليهِ خليفة (الفريق الآن) ويليهِما أمراء التعبئة كأمر الميمنة والميسرة والقلب وغيره (وهم الأولوية الآن) ويليهِم خلفاؤهم (العميد الآن) ويليهِم أمراء الكراديس (الصفوف) ويليهِم العرفاء وأمراء الأعشار

(الجاويش) والنقباء ولعلمهم رؤساء المائة ، وفضلاً عن هذا فقد كان يكون مع الجيش الرائد الذى يرتاد المواضع الموافقة لنزول الجيش والقاضى وأمير الأقباض أى الذين ينتهى إليه حفظ الغنائم وقسمة الفى والترجمان والسكراتب والأطباء لمداداة الجرحى ، كما ترى ذلك كله مبسوطاً فيما يلى من ذكر نعبية الجيوش فى اليرموك والقادسية .

روى الطبرى فى تاريخه أن خالد بن الوليد عصى جيش المسلمين يوم اليرموك نعبية لم تعب العرب مثلها فجعل القلب كراديس وأقام فيه أباً عبيدة ، وجعل اليمين كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شريحيل بن حسنة ، وجعل اليسر كراديس وعليها يزيد بن أبى سفيان وجعل على كل كردوس من هذه الكراديس قائداً فجعل القعقاع بن عمرو على كردوس من كراديس أهل العراق ومذعور بن عدى على كردوس وجعل غير هذين بضعة وثلاثين قائداً كل قائد على كردوس منهم عياض بن غنم القرشى وحبيب بن مسلمة القرشى وسهيل بن عمرو القرشى وعكرمة بن أبى جهل القرشى فى عدة مثلهم من قریش ، وأما من كان من غير قریش ، فمنهم ذو الكلاع الحميرى والسمط ابن الأسود الكندى وضرار بن الأزور الأسدى وجارية بن عبدالله الأشجعى وأضرابهم من صناديد العرب الذين نضرب صفحاً عن ذكر أسمائهم حباً بالاختصار ، وكان القاضى أبو الدرداء والقاص^(١) أبو سفيان بن حرب ، وكان على الطلائع قباث بن أشيم السكنانى ، وكان على الأقباض عبد الله ابن مسعود ، وكان القارىء المقداد بن عمرو كان من السنة أن تقرأ سورة الأنفال عند القتال ، وكان أبو سفيان يسير فيقف على الكراديس ويحرض المسلمين على القتال .

هكذا كانت نعبية الجيش على اليرموك ، وأما على القادسية فرمما كانت

(١) فى القاموس القاص من يأتي بالقصة ولعله هنا الذى يعمل أو امرأ الأمير لى الصفوف ويأتيه بأخبارهم .

أرقى من ذلك وأحسن نظاماً وترتيباً ، فقد ذكر الطبرى أن سعد بن أبي وقاص قدر الناس وعباهم بشراف كما أمره عمر رضى الله عنه فأمر أمراء الأجناد وشرف العرفاء على كل عشرة رجلاً كما كانت العرافات أزمان النبي صلى الله عليه وسلم : قال الطبرى وكذلك كانت إلى أن فرض العطاء ، وأمر على الرايات رجلاً من أهل السابقة وعشر الناس وأمر على الأعشار رجلاً من الناس ولهم وسائل في الإسلام وولى الحرب رجلاً : فولى على مقدماتها ومجنباتها وساقاتها ومجرداتها وظلائعها ورجلها وركبانها فلم يفصل (أى من شراف) إلا بتعبية فأما أمراء التعبئة فاستعمل زهرة بن عبد الله بن قتادة ابن الحوية من ملوك هجر ، فقدمه ففصل بالمقدمات من شراف حتى انتهى إلى العذيب : واستعمل على الميمنة عبد الله بن المعتم : واستعمل على الميسرة شرحبيل بن السمط الكندى وكان غلاماً شاباً وكان قاتل أهل الردة فعرف ذلك له (مرخبره في ذلك في سيرة أبي بكر) وجعل خليفته خالد بن عرفة وجعل عاصم بن عامر التميمي ثم العمرى على الساقة وسواد بن مالك التميمي على الطلائع وسلمان بن ربيعة الباهلي على المجردة وعلى الرجل جمال بن مالك الأسدي وعلى الركبان عبد الله بن ذى السهمين الخثعمي فكان أمراء التعبئة يلون الأمير (أى بعده في المرتبة) والذى يلون أمراء التعبئة أمراء الأعشار والذين يلون أمراء الأعشار أصحاب الرايات والذين يلون أصحاب الرايات والقوادى وس القبائل : قال الطبرى وبعث عمر الأظبة^(١) وجعل على قضاء الناس عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي ذا النور وجعل إليه الأقباض وقسمة الفيء وجعل داعيتهم^(٢) ورائدهم سلمان الفارسي والترجمان هلال الهجرى والكتاب زياد بن أبي سفيان .

(١) جمع طبيب وهو جمع قاة ، وذلك لأن الأطباء يومئذ قلائون ، فكان يرسل مع الجيش ولو عدداً قليلاً لمداوة جرحى الحرب (٢) داعيتهم أى الذى يدعو إلى دينهم ويبلغ العدو مطالبهم ورائدهم الذى يرتاد لهم مواضع النزول .

وأنت ترى من هذا أن تعبئة الجيش على عهد عمر بن الخطاب كانت وافية بالغرض من كل الوجوه ، وما نخال أن تعبئة جيوش الدول المتمدنة يومئذ كالفرس والروم كانت أرقى من تعبئة جيوش المسلمين ، وإنما كان الفرق بين الجيشين بالعدد الحربية كما قدمنا ومع ذلك فإن العرب لما خالطوا تلك الجيوش ورأوا ما عندها من أدوات الحرب وعدتها كالأوهاق^(١) والمجانيق والسمائم وغيرها من أدوات الحصار وما شابهها بادروا إلى استعمالها في حروبهم معهم كما رأيت ذلك في الكلام على حصار دمشق ، وبالطبع كما أنهم استعملوا أمثال هذه الآلات فقد استعملوا أيضا أنواع السلاح الجديد الذي كانوا يغنمونه من هذه الجيوش ، ومن ثم تكافأ المسلمون بالقوى الحربية يومئذ مع أعدائهم وإنما كانت تفضلهم جيوش الفرس والروم بكثرة العدد ، ويفضلهم العرب بالشجاعة العربية التي فاقت حد الوصف ، وألقت العرب يومئذ في قلوب الأمم كما رأيت ذلك في أخبار القتح يضاف إليه علم أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ويقظته وسهره الدائم على أمور المسلمين ، وتعزيزه جانب الملك بسد الثغور وإعداد المربطة وإقامة المسالح في الأطراف التي يأتي من قبلها الخطر وأمره للعمال بإدراك أرزاق الجند ومواصلته بالأخبار وشحن الأماكن المخوفة بالجنود وإقامة الحراس على المناظير التي توقد فيها النيران لتخبر عن الجهة التي يقبل منها العدو ، وبالجملة صرفه العناية في كل ما يعود بالقوة والعز على المسلمين ويرفع شأن الخلافة كما رأيت وترى ذلك في هذا الكتاب ، ويضاف إليه براعة القواد المسلمين وتفوقهم في أساليب الحرب واعتقاد المسلمين بالنعيم الآخروي الذي كان يحبب إليهم الموت في ميادين الحرب ونيل الشهادة بين صفوف الأعداء ، وصبرهم على المكارِه وتحملهم لشظف العيش ورضاهم بالكفاف من القوات واستخفافهم

(١) الجبل يرمى في أنشودة فتؤخذ به الدابة والإنسان كما في القاموس .

بجنود الأعداء قتلوا أو كثروا واعتقادهم بالحصول على النصر الذى وعدمهم الله به إذا نصروا الحق وعدلوا بين الناس .

كل هذه من الأسباب التى رجحت جانب المسلمين على جانب الأعداء ومهدت طرق الغلبة لجيوش العرب والذى وفر هذه الأسباب إنما هو اجتماع العرب بعد التفرق واتحادهم على كلمة الإسلام بعد التخاذل والانقسام كما عرفت ذلك مما قاله عمر للهزبان وهو : إنما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا ، وحسبك فى مهاجمة الأمة العربية لدولتى الفرس والروم وإقدامهم على التغلغل فى أحشاء المملكتين القديمتين فى آن واحد ومهابتهم التى خامرت النفوس دليلاً يؤيد قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه وشاهد أن يشهد بفضل الإسلام الذى جمع على كلمته تلك القبائل المتفرقة التى ما كانت لتحلم بالسيادة على الشعوب لولا ذلك الاجتماع ، هذا وأما أصول التجنيد فى عهد عمر رضى الله عنه وأعطيات الجند وديوان الجيش فالكلام عليه طويل وإنما نجتزئ عنه بما يأتى .

الجهاد فرض على المسلمين يحتم عليهم حماية الدعوة والذب عن حوزة الإسلام ، إلا أنه من فروض الكفاية التى إذا قام بها البعض سقط عن الكل وعلى هذه القاعدة بنى التجنيد فى الإسلام ، فكان أبو بكر وعمر يستنفران الناس للجهاد فمن أجاب كان جندياً له حظ فى الفى والغنائم ، واستمر ذلك فى ولده إلى ما شاء الله ولا يؤخذ من هذا أن الجندية على هذا الوجه اختيارية بل هى باعتبار كونها فرضاً إجبارية ، وللخليفة إذا تخلف المسلمون عن هذا الفرض إجبارهم عليه عند الحاجة وكان أبو بكر رضى الله عنه يسوى بين الناس فى قسمة الفى ، ويضرب فى المغامر للفارس منهم ثلاثة أسهم ، سهمان لفرسه وسهم له ، وللراجل سهم ولا يفضل الخيل بعضها على بعض وبقي الحال على ذلك صدرأ من خلافة عمر رضى الله عنه أى إلى سنة ١٥

حيث دون عمر الدواوين وفرض العطاء كما سترى في باب آثاره في الخلافة ، ولم يسو في قسمة الفء بين الجند بل جعلهم على مراتب وطبقات باعتبار السابقة ، فقد روى ابن جرير الطبري أن عمر لما فرض العطاء فرض لأهل بدر خمسة آلاف ثم فرض لمن بعد الحديبية إلى أن أقلع أبو بكر عن أهل الردة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف في ذلك من شهد الفتح وقاتل عن أبي بكر ومن ولى الأيام قبل القادسية (أى الحروب التى كانت قبلها) كل هؤلاء ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ثم فرض لأهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين وفرض لأهل البلاء (أى الذين عرف بلاؤهم في الحرب) البارع منهم ألفين وخمسمائة وفرض لمن بعد اليرموك والقادسية ألفاً ألفاً ، وكانت هذه الطبقات هى الأصل في ترتيب العطاء ومن جاء بعدهم من الطبقات ممن لم يشهد تلك المشاهد الكبيرة كان يلحق كل قوم منهم بأهل طبقة من تلك الطبقات يسمون الروادف ، والرديف لغة التبعية ، وقد فرض هؤلاء الروادف على درجاتهم للمثنى منهم خمسمائة خمسمائة ثم للروادف الثلث بعدهم ثلثمائة ثلثمائة وسوى كل طبقة في العطاء قويمهم وضعيفهم عربهم وعجمهم ، وفرض للروادف الربع مائتين وخمسين مائتين وخمسين ، وفرض للنساء مثل ذلك أيضاً فجعل للنساء الجند من الخمسمائة إلى المائتين وجعل للصبيان مائة ، وعلى هذا الترتيب ضبطت أعطيات الجند في ديوان الجيش ، وكان من أراد الالتحاق بالجيش بعد تدوين عمر رضى الله عنه للديوان يقيد في ديوانه على هذا الترتيب ، ثم كان على عهد عثمان رضى الله عنه ومن بعده يزداد وينقص العطاء على مقتضى الظروف والأحوال كما سترى بعد . وأما المغانم فقد ضرب أحد عماله بالشام للفارس بسهمين وللراجل بسهم فأجازه .

ويظهر مما تقدم أن عمر رضى الله عنه كان يسوى بين الجنود الأعاجم من الفرس والروم الذين تأخر إسلامهم وبين الحرب كل منهم في طبقته باعتبار السابقة أيضاً ، بل ربما ميز بعضهم أحياناً في العطاء تأليفاً لقلوبهم

كما صنع ذلك مع سياه الفارسي وقومه لما أسلم وأسلموا معه كما رأيت ذلك في خبر فتح تستر والسوس .

وكانت أصول إعطاء العطاء لأهله على ما في رواية ابن جرير الطبري هكذا يدفع العطاء إلى أمراء الأسباع وأصحاب الرايات والرايات على أيادي^(١) العرب فيدفعونه إلى العرفاء والنقباء والأمناء فيدفعونه إلى أهله في دورهم . ولنا كلام آخر على تدوين الديوان والنقود وحكمه سيأتي في باب آثاره في الخلافة إن شاء الله .

علائق عمر مع الملوك

كانت علائق عمر قبيل وفاته مع ملك الفرس حربية كما رأيت ، وتوفي رضى الله عنه وجيوشه تطارد يزودجرد في بلاده وتدوخ ملكه ، وأما علائقه مع ملك الروم فقد كانت سلمية واستقر بين دولتيهما الصلح منذ أتم عمر رضى الله عنه فتح الشام والجزيرة وجرت بينه وبين ملك الروم المسكاتبات الودادية ، وذكر مؤرخو العرب أن هذه المسكاتبات كانت مع هرقل ولكن لم يذكروا هل كانت مع هرقل الأول الذي انتزع منه عمر بلاد الشام أم مع ابنه هرقل الثاني المعروف بهرقل قسطنطين لأن هرقل الأول توفي سنة (٦٤١ م) الموافقة سنة (٥٢١ هـ) وتولى الملك ابنه المذكور في هذه السنة أى قبل وفاة عمر (رضى الله عنه) بسنتين وسواء كان حصل التواد والمكاتبة مع هرقل الأول أو الثاني فقد بلغ من توثق عرى العلائق الحبية يؤمئذ بين الفريقين أن كان تتردد بينهما الرسل بالمكاتبة ، وأن أم كلثوم بنت

(١) كذا في الأصل .

على بن أبى طالب رضى الله عنه وزوج عمر بن الخطاب أرسلت مرة مع رسول جاه المدينة من قبل ملك الروم هدية من اللطاف المدينة إلى إمبراطورة الروم امرأة هرقل ، وأرسلت لها هذه في نظيرها عقداً نفيساً من الجواهر فأخذه منها عمر ورده إلى بيت المال . هذا على ما في رواية نقلها في كنز العمال ، وأما الطبرى فذكر أن أم كلثوم أرسلت تلك الهدية مع بريد عمر ، ونص رواية الطبرى بتصرف واختصار .

قالوا وترك ملك الروم الغزو وكاتب عمر وقاربه وسأله عن كلمة يجتمع فيها العلم كله ، فكتب إليه أحب للناس ما تحب لنفسك وأكره لهم ما تكره لها يجتمع لك الحكمة كلها واعتبر الناس بما يليك تجتمع لك المعرفة كلها ... إلى أن قال بعد أن أورد مكاتبات أخرى جرت بينهما . وبعت أم كلثوم بنت على بن أبى طالب إلى ملكة الروم بطيب ومشارب وأخفاش من أخفاش النساء ودسته إلى البريد فأبلغه لها وأخذ منه وجاءت امرأة هرقل وجمعت نساءها وقالت هذه هدية امرأة ملك العرب ، وبنت فيهم وكاتبها وكافتها وأهدت لها وفيما أهدت لها عقداً فاخراً فلما انتهى به البريد إلى عمر أمره بإمساكه ودعا الصلاة جامعة فاجتمعوا فصلى بهم ركعتين وقال إنه لا خير في أمره أبرم من غير شورى ثم أخبرهم الخبر وسألهم عن أمر العقد فكلهم أشار بدفعه لأم كلثوم . فقال ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد يريدهم فأمر برده إلى بيت المال ورد على أم كلثوم منه بقدر نفقتها .

وقد ذكر الطبرى هذه الرواية في أخبار سنة (٢٨) في غضون الكلام على غزو المسلمين في البحر وأن عمر ترك غزو البحر فترك ملك الروم غزوه وكاتبه وسأله وهو دليل على رهبة ذلك الخليفة العظيم التي دبت في قلوب الملوك فرأى هرقل أن مسالمته خير من مناوأته ففعل وكان من الغانمين .

أهم الأحداث في عصره

أهم الأحداث في خلافة عمر رضى الله عنه طاعون عمواس وعام الرمادة فأما طاعون عمواس فاختلف في سنة حدوثه هل كانت سنة ١٧ أو سنة ١٨ وروى الطبرى أنه ظهر في العراق ومصر واستقر بالشام وفتك بالناس فتكا ذريعاً ، ومات به في الشام عدة من أعلام المسلمين منهم أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان ولما اشتدت على الناس وطأته خطب الناس عمرو بن العاص فقال : أيها الناس إن هذا الوباء إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار فتجبلوا منه في الجبال ، ثم خرج وخرج الناس فتفرقوا في الجبال ورفع الله عنهم .

وروى الطبرى عن ابن عباس أن عمر خرج في تلك السنة غازياً وخرج معه المهاجرون والأنصار فلما بلغ سرغ ، وافاه أمراء الأجناد في الشام وأخبروه خبر الطاعون وأشاروا عليه بالرجوع فجمع الناس واستشارهم في الرجوع فمنهم من أشار عليه به ، ومنهم من أشار عليه بالقدوم ، وكان ممن أشار عليه بالرجوع مهاجرة الفتح فأصبح وقد عزم على الرجوع فقال له أبو عبيدة بن الجراح أفراراً من قدر الله : قال نعم فراراً من قدر الله إلى قدر الله أ رأيت لو أن رجلاً هبط وادياً له عدوتان (ضفقتان) إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس يرعى من رعى الجدبة بقدر الله ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله : ثم قال لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة ثم خلا به بناحية دون الناس فبينما الناس على ذلك إذ أتى عبد الرحمن بن عوف وكان متخلفاً عن الناس لم يشهدهم بالأمس فقال ما شأن الناس فأخبر الخبر فقال عندى من هذا علم : فقال عمر فأنت عندنا الأمين المصدق فماذا عندك :

قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إذا سمعتم بهذا الوباء يبلد فلا تقدموا عليه وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه) فقال عمر فليله الحمد انصرفوا أيها الناس فانصرف بهم^(١).

ولما زال الطاعون وبلغ عمر ما أصاب الناس من كثرة الموت حتى كادت تضيع المواريث قدم الشام ونزل الجابية وقسم المواريث وسد الثغور واستعمل بدل من ماتوا من العمال كما سترى ذلك في الباب التالى وكانت هذه المرة هى المرة الرابعة التى قدم بها الشام ولم يأتها بعد ذلك .

واعلم أن طاعون عمواس كان عظيم الخطر على المسلمين وأفنى منهم أكثر من عشرين ألفاً وهو عدد يوازى نصفهم بالشام وربما تخوف من ذلك المسلمون يومئذ واستشعروا الخطر من قبل الروم ، وفى الحقيقة لو تنبه الروم لهذا النقص الذى أصاب جيش المسلمين فى سورية يومئذ وهاجموا البلاد لصعب على الجيوش المرابطة دفعهم ، ولكن ربما كان اليأس تمكن من نفس هرقل فأقعده عن مهاجمة المسلمين خصوصاً إذا كان أهل البلاد راضين بسلطة المسلمين مرتاحى القلوب إلى سلطانهم العادل وسيرتهم الطيبة الحسنة وبدون الاستعانة بهم لا يتيسر لهرقل مهاجمة البلاد لا سيما إذا أضفنا إلى هذا ملل القوم من الحرب وإخلادهم إلى الراحة من عناء المقاومة لقوم أصبح النصر حليفهم فى كل مكان ودب الرعب من سطوتهم فى قلب كل إنسان .

وأما عام الرمادة فسمى بذلك لريح كانت تسفى تراباً كالرماد وأصاب الناس بالحجاز مجاعة شديدة ، وكان قحط عظيم أهلك الضرع والزرع وعانى عمر رضى الله عنه بسبب ذلك النصب ، وآلى ألا يأكل سمناً ولا عسلاً

(١) اتخذ المتأخرون هذا الحديث ورجوع عمر إلى الحجاز حجة على ممروعية الحبر الصمى المعروف بالكورتينا .

حتى يحيي الناس ويكون إياهم سواء بالخصب والجذب وجعل يأكل الزيت حتى قرقر بطنه فقدمت السوق يوماً عكة سمن ووطب^(١) من لبن فاشتراهما غلام لعمر بأربعين درهما ، ثم أتى عمر فقال يا أمير المؤمنين ، قد أبر الله يمينك وعظم أجرك قدم السوق وطب من لبن وعكة من سمن ابتعهما بأربعين درهما ، فقال عمر ، تصدق بهما فإنى أكره أن آكل إسرافاً ، وقال كيف يعيننى شأن الرعية إذا لم يصبنى ما أصابهم ، وكتب عمر إلى أمراء الأمصار يستغيثهم فبعث عمرو بن العاص الطعام إلى المدينة وبعث أمير الشام بأربعمائة راحلة عليها الطعام ، وقالوا إنه أبو عبيدة بن الجراح وهو خطأ لأن عام الرمادة كان بعد طاعون عمواس الذى توفى به أبو عبيدة بن الجراح ويدلك على هذا إرسال عمرو بن العاص من مصر ، وإنما كان فتح مصر بعد الطاعون إذ كان عمرو بن العاص عام الطاعون بالشام ، ولما قدم عمر بن الخطاب لقسمة المواريث استأذنه بقصد مصر وأذن له وسار ، وكان ذلك سنة ١٧ أو سنة ١٨ والذى دعا عمرو بن العاص لاختصار التركة الموصلة بين النيل وبحر القلزم إنما هو عام الرمادة ، وقال بعضهم ومنهم ابن الأثير إن عمر أأصلح بحر القلزم وأرسل فيه الطعام وهو غير مفهوم وإنما أرسل الطعام فى البر ثم استأذن عمر بحفر التركة ووصل بين النيل وبحر القلزم احتياطاً من مثل ذلك الحادث وتقريباً للمسافة بين المدينة وبين مصر ، وسنستقصى الخبر عن ذلك فى سيرة عمرو بن العاص إن شاء الله تعالى .

ولما اشتد الضيق على المسلمين استسقى عمر بالناس ودعا ودعاه معه العباس رضى الله عنهما ، ففرج الله على الناس وأرسل عليهم من سماء رحمته السحاب الثقال ، فسقت الأرض وأنعشت النفوس وانفجرت الأزمة ، ولحديث الاستسقاء كلام طويل بين العلماء لانهب الخوض فيه ، فليرجع إليه من شاء فى كتب المحدثين .

(١) مكة القرية الصغيرة والوطب سقاء اللبن أى وعاؤه .

آثاره في الخلافة

كتاب التاريخ الهجري

لم يكن للعرب قبل الإسلام تاريخ يؤرخون به إلا الحوادث الشهيرة عندهم فإنها كانت بمثابة التاريخ . فكانوا يقولون حدث ذلك في عام الفيل مثلاً وولد فلان بعد عام الفجار بكذا وهلم جرأ ، واستمر ذلك في الإسلام إلى مضي سنتين ونصف من خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أى إلى سنة ست عشرة من الهجرة وفيها رأى عمر لزوم وضع التاريخ لضبط الحوادث بعد إذ انتشر الإسلام وكثر الفتح ومست الحاجة لضبط الشؤون والأعمال في الحكومة الإسلامية ، فجمع الصحابة الكرام واستشارهم في ذلك وسأهم من أى يوم نكتب التاريخ فأشار عليه على بن أبى طالب رضى الله عنه بأن يجعل التاريخ من السنة التى هاجر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ففعل .

تموين الدواوين وفرض العطاء :

من البديهي أن حاجات الدولة تترقى بترقى العمران وامتداد السلطان، وقد كانت دولة الإسلام في خلافة أبى بكر وصدر من خلافة عمر في مبادئ الظهور وسداجة البيضة وعدم اتساع السلطان، ولم يكن لها من الدخل والخرج إلا الصدقة التى كانت تؤخذ من الأغنياء وترد على الفقراء^(١) وأما الغنائم والفيء فكانت

(١) علمت من هذا الفصل وغيره حكم الفيء في الإسلام ووجوه صرفه التى أبانها الكتاب الكريم وزيادة في الفائدة نعرض لك هنا حكم الصدقة ووجوه الصرف التى قررها للصدقة الإسلام ، ومنها تعلم أن الأمة الإسلامية إنما سعدت واعتزت وقويت في صدر الإسلام بالعمل بهذا وأشباهه من قواعد الإسلام التى ترى كلها لغرض واحد وهو سعادة المسلمين : =

قليلة لم تحوج أخماسها التي يبعث بها للمدينة إلى صرف العناية في ترتيب الشؤون الإدارية على أصول الدول المتقدمة يومئذ كفارس والروم ، وإنما كانت العناية منصرفة إلى الشؤون الحربية والفنون العسكرية ، ولما توسع المسلمون في الفتح وانتشروا في الممالك وكثرت موارد الدولة وتبسطت في مناحي العمران وأخذ يزداد النعم من الخراج والجزية زيادة لاطاقة للخليفة وأمرائه بضبطها ولا قبل لهم بإحصاء مستحقيها وتوزيع الأعطيات (المرتبات) على أربابها بالعدل إلا بضبطها وترتيبها على أصول ثابتة وقيدتها في قيود خاصة ، دعا عمر رضى الله عنه الصحابة واستشارهم في كيفية تدوين الديوان . فقال علي بن أبي طالب تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال ولا نمسك منه شيئاً ، وقال عثمان : أرى ما لا كثيراً يسع الناس ، وإن

== الصدقة تؤخذ على السائمة من غنم ولابل وبقر بنسبة معلومة في كتب الشريعة لا محل لبسطها هنا ، وهي ليست كالنعم من حق سائر المسلمين بل هي والعشور التي تؤخذ من المسلمين لمن سمى الله عز وجل في كتابه الكريم بقوله تعالى (لأما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل) قال أبو يوسف أما المؤلفة قلوبهم فقد ذهبوا ، وأما العاملون عليها (يعنى ولاية الصدقة) يعطيهم الإمام ما يكفيهم من غير سرف ولا تقتير وبقية الصدقة للفقراء والمساكين سهم وللغارمين وهم الذين لا يقدر على قضاء ديونهم سهم وفي أبناء السبيل المنقطع بهم سهم يحملون به ويعانون وفي الرقاب سهم في الرجل يكون له الرجل المملوك أو أب مملوك أو أخ أو أخت أو أم أو ابنة أو زوجة أو جدة أو عم أو عمة أو خال أو خالة وما أشبه هؤلاء فيعان في شراء هذا ويعان منه المساكين وسهم في إصلاح طرق المسلمين ، في كلام طويل يرجع إليه من شاء في كتاب الخراج ولما نقول هنا أن الأمة الإسلامية لو عمات بالكتاب الكريم ، ولم يجد أولياء أمورهم عن هذا النهج القويم لما عرف فرد من أفرادها شقاء الحياة التي تعانيها الطبقة النازلة الآن ، وأى شريمة في العالم تقضى على الأمة بوفاء دين العاجزين عن وفاء ديونهم من أفرادها وإعالة فقرائها ومواساتهم بقسم من مالها وأى شريمة في العالم تأخذ من الأغنياء قسماً من مالهم لتستري به الأرقاء وتجعلهم أحراراً سعداء ، اللهم ليس غير هذه الشريعة شريعة تجعل الناس في سعادة لحياة كلهم سواء وتريد المسلمين على التكافل والتضافر والإخاء ، ولكن أضعافها أهلها فحسروا وكانوا من النادمين فإننا لله ولنا إليه راجعون .

لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر (ينبسط أو يلتبس) : فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة قد جئت الشام ، فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا وجندوا جنداً^(١) فدون ديواناً وجند جنداً ، فأخذ بقوله ، فدعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم ، وكانوا من نهاء قريش فأمرهم بتدوين الديوان ففعلوا ، والديوان هو الدفتر أو مجتمع الصحف والكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية كما في القاموس ، وتوسعوا بمسماه بعد فأطلقوه على كل دفاتر الحكومة الإدارية وغيرها ، ثم على المكان الذي يكون فيه الديوان فسموه ديواناً .

ولما كتبت الدواوين كتب ديوان الشام بالرومية ، وديوان العراق بالفارسية ، واستمر كذلك إلى عهد عبد الملك بن مروان في الشام والحجاج ابن يوسف عامله على العراق فنقل عبد الملك في الشام الديوان إلى العربية ونقله الحجاج في العراق إلى العربية وسماه كما نقل ذلك في فتوح البلدان أن عبد الملك بن مروان بلغه عن أحد كتاب الروم أمر ساءه فأمر سليمان ابن سعد بنقل الديوان إلى العربية فسأله أن يعينه بخراج الأردن سنة ففعل ذلك وولاه الأردن فلم تنقض السنة حتى فرغ من نقله ، وأتى به عبد الملك ابن مروان فدعا بسر جيون كاتبه فعرض عليه ذلك فغمه وخرج من عنده كئيباً ، فلقبه قوم من كتاب الروم ، فقال اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله منكم .

وكذلك فعل الحجاج في العراق ، والذي نقله له إلى العربية هو صالح ابن عبد الرحمن مولى بني تميم ، وكان يكتب بين يدي زاذان فروخ الفارسي

(١) قال في القاموس الجند بالضم العسكر والأعوان والمدينة وصنف من الخلق على حدة اهـ . والعرب كانوا يسمون كل ناحية لها جند يقبضون أرزاقهم به جنداً فيقولون جند قسرين وجند الأردن وغيرها وهى من ترقب عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) كما سترى .

كاتب الحجاج ، ولما قصد نقل الديوان إلى العربية بذل له مردان شاه بن زاذان
مائة ألف درهم ، على أن يظهر العجز عن نقل الديوان ويملك عن ذلك
فأبى ونقله ، والقصة طويلة سترد في سيرة الحجاج إن شاء الله .

وأنت تعلم أن قوام الدولة هو المال وروحها التي تختلج في جسمها فتدير
حركته هو الديوان ، ومع هذا فلما لم يكن العرب يومئذ في الدرجة التي
تؤهلهم لإدارة شؤون الديوان على أصول الدول المتقدمة في الحضارة عهد
الخلفاء بهذا العمل إلى الأعاجم من الفرس والروم ورضوا بكتابة
الديوان بلغة الكتاب الغربية عن لغتهم مع ما في هذا من الغبن الظاهر
وتعريض أموال الدولة لتلاعب الكتاب ، وإنما دعاهم إلى تسليم الدواوين
إلى الأعاجم وترتيبها على نحو ترتيب دواقي الفرس والروم ضرورة التوسع
في الفتح والترقي في مراقي الحضارة والخروج عن حالة البداوة إلى حالة تستلزم
تقليد الأمم الراقية في وسائل العمران ، إذ لم يروا لهم مندوحة عن هذا
الأمر كما لم يروا مانعاً في الدين يمنعهم من مباراة الأمم في أصول الحضارة
والمدينة وأخذ العلم النافع ولو عن مشركي الفرس . ومن البلاء أن ألحق
بعض الفقهاء بعد كل شيء من أمورنا الدنيوية بالدين وحرموا على الأمة
العمل بأي شيء نافع مادام لم يصبغ بصبغة إسلامية ولو تمجلاً : ولو كان
الدين يضيق على هذه الأمة إلى الحد الذي نوهمه أولئك الفقهاء لما قلدهم
رضى الله عنه الفرس والروم فيما اقتضته حاجة الدولة في عصره ، من وضع
التاريخ والديوان وترتيب الجيوش وإعداد العدة الحربية ونحو ذلك . وإذا
قليل إن عمر رضى الله عنه مجتهد له أن يفعل بما يرى فيه المصلحة وعلى الأمة
أن تعمل ، فكيف ساغ لمثل الحجاج بن يوسف أن يبذل أمراً اجتهد به
الخلفاء الراشدون وأقروه فأصبح شرعاً لا ينبغي لأحد سواهم التصرف فيه
والعدول عنه .

اللهم إن طبيعة الاجتماع تقضى بأخذ الأمم بعضها عن بعض كل ما يصلح للترقى في مراقي الكمال ، وشأن الأمم هذا شأن الأفراد في إحراز العلم بالمسابقة والاكتساب ، ومعاذ الله أن يرضى الإسلام بالخرج للمسلمين ويمنعهم عن المسابقة مع السابقين ليكونوا أدنى الأمم والشعوب ، وإنما توهم بعضهم أن من لوازم الدين صبغ كل شيء بصبغة الدين جعلنا تتحكم بعقولنا القاصرة في الدين ونعتقد أن الأخذ بأى سبب نافع من أسباب المدنية التى تتوصل بها إلى مسابقة الأمم والغلبة على الدول زيغ عن صراط الدين ، حتى بلغ بنا هذا الاعتقاد الفاسد أن صرنا نحرم الأمر الذى يدعونا الدين إليه ويحثنا عليه ، وأقرب شاهد من هذا القبيل تتلوه عليك هذا الشاهد المخلص من تاريخ السلطان سليم الثالث العثمانى رحمه الله ، تولى هذا السلطان العاقل منصب السلطنة فى أوائل الجيل الماضى ، وقد اضطرب أمر الدولة وأشرفت على السقوط فى هوة الدمار ، لتغلغل الفساد فى جسم الفرق اليكجيرية يومئذ وانحلال قوى الدولة بانحلال قوى الجندية العثمانية ، وانحطاط نظامها فى جانب نظام الجند الأوروبى الذى ظهر يومئذ بمظهر جديد مبني على الأصول العلمية والاختبارات الفنية ، فخشى السلطان إن هو لم يأخذ بأصول الجندية الجديدة ولم يبار بترتيب الجيوش المنظمة جيرانه من الدول الأوربية أن تكتسح هذه الدول مملكته العظيمة إذ ظهرت له بوادر الخطر يومئذ باحتلال نابليون لمصر ، وتحفز الروس للوثوب على القسطنطينية ، ونزوع أهالى المورة للثورة ، فعزم عزماً أكيداً على تنظيم الجندية العثمانية ، وقبول الإصلاحات الأوربية فى البحرية والعسكرية وإلغاء الجندية اليكجيرية ، ورأى أن تعريض حياته الشخصية للخطر مع جنود اليكجيرية خير من تعريض المملكة لهجوم الدول الأوروبية ومصير الدولة العثمانية للزوال ، وهو شتم وعلو نفس ، وأقدام قل أن صدر مثله عن أحد من الملوك إلا فيما ندر ، إذ معظمهم يعملون حياة الدولة والمملك فداء على حياتهم الشخصية ولا جرم

فإن لكثير من أفراد هذه الأسرة العثمانية كثيراً من الأيادى البيضاء على الأمة وكل امرئ يذكّر بفعله ، وأجهل المؤرخين من يغمط فضل الرجال لما سنحت الفرصة لذلك الملك المقدم وأراد إبراز هذا العمل من القوة إلى الفعل ، كان أول المقاومين له علماء الدين ، وفي مقدمتهم عطاء الله أفندى شيخ الإسلام في عصره فحرضوا عليه العامة وأثاروا عليه الضغائن بحجة أنه يريد التشبه بالأفرنج وما زالوا يكافؤونه مع الينيچرية ويكافؤهم حتى تغلبوا عليه وخلصوه ثم قتلوه ، وجرت بعد ذلك أمور يطول شرحها على عهد خلفه السلطان مصطفى والذي يليه السلطان محمود كان قصارها إهراق سيول من الدماء أنفذ بعدها السلطان محمود رحمه الله بما مضى عزيمته إرادته في الإصلاح وقضى على نظام الينيچرية وأهلها شر قضاء وتالله لو لم يفعل ذلك لما بقي لدولة آل عثمان باقية إلى الآن ، إذ هي الآن على ضئامة قوتها وترتيب جندها على النظام الجديد ومجاراته لأحسن جنود الدول في فنون الحرب قد غلبت على أمرها وانتزعت الدول الأوربية كثيراً من عالمها الأوربية والإفريقية ، فكيف بها لو كانت على حالها القديم من ضعف الجندية وفساد النظام ، لاجرم أنها كانت ذهبت لا قدر الله مع الذاهبين ، وأصبحت مثلاً في الغابرين ، ولو سئل ساعته عطاء الله أفندى هل بهذا يأمر الدين ويريد تلاشى المسلمين ، لأجابه بالبراءة إلى الله من ذنبه ، واستغفر إلى ربه .

على أن الدول العثمانية حرسها الله قد قدت هذه القيود الثقالة ، وقبلت من الإصلاح في أمورها السياسية وأمور الأمة المعاشية ما جعلها تدخل في مصاف الدول الأوربية ، وإن كانت الأمة العثمانية لم تزل في دور الانحطاط وأما غيرها من الدول الإسلامية كدولة مراکش مثلاً فإنها لم تزل إلى الآن على ما كانت عليه منذ مئات السنين ، فليس لديها نظام للجندية ولا للإرادة

ولا للقضاء وليس عندها مدارس تعلم الناشئين الفنون الحديثة والأصول الحربية وتسكسب الأمة ملكات العلم بحاجات العصر ، وترشد الدولة إلى أسباب المنفعة والقوة ، والمانع من هذا كله هو زعم تحريم الدين لمثل هذه المنافع الدنيوية ومعاذ الله أن يكون الدين رائد هلاك الأمة والمانع من ترقى المسلمين ، ولو كشفت الأمة المرا كشية عن بصائرهما حجاب الغفلة ، وقامت دولتها بواجب الخدمة الصحيحة فنبذت عنها أوهام الواهمين وتخرصات الجاهلين فأخذت بحظ من أصول المدنية النافعة لكانت أحسن دول الإسلام حالاً وأعظمهم قوة لخالو بلادها من أهل الملل من غير المسلمين الذين تجعلهم الدول الأوربية في الممالك الأخرى ذريعة لمديدها للشؤون الداخلية والتعرض بالأذى للدول الإسلامية وتالله إن أمة يبلغ عددها الثمانية ملايين كلهم من جنس واحد ودين واحد لو رزقها الله سائساً عظيم النفس على المهمة محباً للإصلاح يرتب شؤون دولته على نمط جديد ويصرف همته في إعزاز شأن الملك لكانت أمة عزيزة الجانب منيعة الجنتاب ، ولكان لها جيش منظم يزيد عدده عن النصف مليون ، يحمى ديارها ويرد الغارة عن ديارها ولكن أين من يسمع ويعقل ، ومن يتصف ويعمل .

هذا وأما فرض العطاء فإن عمر أمر بأن يحصى الناس بالديوان ويبدأ من ذلك بالعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن يليه من ذوى القربى ، ثم بأهل السابقة والذين حضروا الفتوح على درجاتهم التي اختارها لهم عمر ، ثم بالفقراء والمساكين والنساء والأطفال كما هو مبين في مظانه من كتب الأحاديث والتاريخ ، وقد أشرنا إليه في باب ديوان الجيش ، وقال قائل لعمر يومئذ يا أمير المؤمنين لو تركت في بيوت الأموال عُدَّة لكون إن كان : فقال كلبه ألقاها الشيطان على فيك وقانى الله شرها ، وهي فتنة لمن بعدى ، بل أعد لهم ما أمرنا الله ورسوله . طاعة الله ورسوله فهما عدتنا

التي بها أفضينا إلى ما ترون فإذا كان المال ثمن دين أحدكم هلكتم :

على أن العطاء على ذلك الوجه لم يستمر إلا مدة الخلفاء الراشدين ، ثم لما تغير حال الدول وانتشر الإسلام وكثر المسلمون خص الخلفاء العطاء من غير الخمس بطبقة الجند فقط على نسبة اختاروها لا على نسبة الفيء كله ، أى خصصوا لهذا قدرأ مخصوصاً من الفيء يختلف باختلاف الدول ، واستأثروا بالباقي وبالخمس لإنفاقه في وجوه المصالح العامة ، لأن العطاء كان يعطى للمسلمين باعتبار أنه فيء أخذوه بسيفهم إذ كانوا كلهم جنوداً محاربين فاتحين ، ثم لما خصصت الجندية بطبقة مخصوصة من الناس تغير نظام العطاء أيضاً واضطر الدول بحكم الضرورة لاقتصاد الأموال وادخارها في بيت المال لإنفاقها على المصالح الأخرى التي تقوم بها الدول وتقتضيها أهبة الملك ، هذا بقطع النظر عما خصص منها للإنفاق على ترف الدولة وشهوات الملك لأن هذا تابع بالطبع لحال الملوك من عفةٍ وشركةٍ وإمساكٍ وبذل .

وأما الكلام على الفيء الذي هو أصل العطاء وعلى حكمه وحكم الخمس وما هو وحكم الجزاء أو الجزية المستثناة من الخمس إلى غير ذلك مما يتعلق بهذا البحث فمبسوط في كتب الفقه وكتب التفسير المطولة فليرجع إليه من أحب .

ولإنما زيادة في الفائدة نقول هنا إن الفيء هو كل ما صالح عليه العدو بعد وضع الحرب أوزارها ، وحكمه أن يرفع منه الخمس إلى الإمام ليقسمه بين أهله الذين نص عليهم القرآن ، والباقي يوزع على الجند الفاتحين للبلاد والمرابطين في الثغور والقائمين على حراسة الدولة إلا الجزية فإنها مستثناة من حكم الخمس ، أى لا يرفع منها الخمس بل تعطى للجند القائمين بحماية أهل الذمة وحراسة البلاد .

واعلم أن الإسلام هو أول شريعة نصت على مصرف الفء أى وجوه
الصرف والإنفاق من أموال بيت المال ووضع ما يعرف الآن (بالبودجه)
ومعناها تقرير وجوه النفقات السنوية للحكومة ، فقد روى الطبرى فى تاريخه
عن ابن عباس قال : لما فتحت القادسية ودمشق قال عمر للناس اجتمعوا
فأحضرونى علمكم فيما أفاء الله على أهل القادسية وأهل الشام فاجتمع رأى
عمر وعلى على أن يأخذوا من قبل القرآن فقالوا (ما أفاء الله على رسوله من
أهل القرى) يعنى من الخمس (فله وللرسول) من الله الأمر وعلى الرسول
القسم (ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) الآية ثم فسروا ذلك
بالآية التى تليها (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم) الآية
فأخذوا الأربعة الأخماس على ما قسم عليه الخمس فيمن بدىء به وثنى وثلث
وأربعة أخماس لمن أفاء الله عليه المغنم ثم استشهدوا على ذلك أيضاً : بقوله
تعالى : (واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسته) فقسم الأخماس على
ذلك واجتمع على ذلك عمر وعلى وعمل به المسلمون بعد .

هذا ما ذكره الطبرى وإنما كان عمل المسلمين بذلك مدة الخلفاء
الراشدين وأما من يليهم إلى أواسط الدولة العباسية فقد عملوا بهذا بما
وصل إليه الإمكان ، ثم لما توسع أمر الدول وتبسط الخلفاء فى متاحى
الحضارة ، أخذ يتغير ذلك الترتيب كما علمت ، هذا مما تقدم ، وربما بدأ هذا
التغيير فى عهد ولاية معاوية على الشام كما سترى فى قصته مع أبى ذر فيما يلى
من هذا الكتاب .

ترتيب المال وتقسيم الولايات

لما تولى الخلافة عمر بن الخطاب كانت الحرب قائمة فى الشام ، وكانت
الأمراء من علمنا مما تقدم فى محله ، فجعل إمارة ما يفتح من الشام إلى أبى عبيدة

وجعل إمارة الحرب في كل جهة لأمير مخصوص ، فجعل إمارة الحرب في دمشق ليزيد بن أبي سفيان وإمارة الأردن لشرحبيل بن حسنة وإمارة فلسطين لعمر بن العاص وقد مر تفصيل ذلك وبيانها ، إلا أن الإمارة العامة كانت لأبي عبيدة ، فالخبايرة والصلح وكل ما يتعلق بأمور الحرب السياسية كان منوطاً به ، ولما تم فتح الشام واستقرت فيها قدم المسلمون أبا عبيدة أميراً عاماً على الشام وجعل مقره حمصاً وأضاف إليه جند قنسرين ، ثم أضيف إلى هذا القسم جزء من الجزيرة لما فتحها عياض بن غنم وولى جند قنسرين بعد وفاة أبي عبيدة ثم ، جعل دمشق جنداً ، وعليها يزيد بن أبي سفيان ، ثم معاوية بعده ، ثم جعل الأردن كذلك جنداً وفلسطين جنداً وقسمه إلى قسمين أحدهما حاضرتة لإيلاء والآخر حاضرتة الرملة ، وقد مر الكلام على ذلك فلا حاجة للتفصيل والمراد من الجند هو أنهم كانوا يسمون كل ناحية بها جند يقبضون أرزاقهم منها جنداً فبدلاً من أن يقولوا ولاية قنصرية مثلاً يقولون جند قنسرين ويسمون الولاية أيضاً كورة جمعها كور ، وروى الطبري في أخبار سنة (١٧ هـ) أن عمر لما جاء الشام في هذه السنة رتب الشوائب والصوائف (أي الجنود التي تغزو في الصيف والجنود التي تغزو في الشتاء) وسد فروج الشام ومصالحها (١) وأخذ يدور بها واستعمل عبد الله ابن قيس على السواحل من كل كورة . أي على السواحل جميعها ، سواء كانت تابعة لكورة دمشق أو غيرها .

وجعل أبا عبيدة على حمص وخالد بن الوليد تحت يديه على قنسرين وعلى دمشق يزيد بن أبي سفيان وعلى الأردن معاوية (بعد شرحبيل)

(١) تقدم معنى المصالح والقروج في خبر فتوح سعد بن أبي وقاص .

وعلى فلسطين علقمة بن حُجَزَز وعلى الأهرام^(١) عمرو بن عبسة ، وجعل على كل عمل عاملاً فقامت مسالح مصر والشام والعراق على ذلك الترتيب الذى رتبته عمر رضى الله عنه إلى عهد العباسيين .

وذكر فى فتوح البلدان أن معاوية كتب إلى عمر بعد موت أخيه يزيد يصف له حال السواحل ، فكتب إليه فى مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها وإقامه الحرس على منازرها^(٢) واتخاذ المواقيد لها .

وكذلك كان تقسيم العراق وفارس ، فكان ذلك الوجه قسمين قسم تابع للبصرة وعليه عتبة بن غزوان ثم المغيرة بن شعبه ثم أبو موسى الأشعرى ، وقسم تابع للكوفة وعليه سعد بن أبي وقاص ثم عمار بن ياسر ثم غيره وغيره ، وكانت عمالة عامل هذا القسم أى قسم الكوفة كما فى رواية ابن جرير الطبرى تمتد ما بين الكوفة وحلوان والموصل وما سبذان وقرقيسياً إلى البصرة ، ثم امتدت هذه العمالة حتى تجاوزت فارس الغربية وكانت تقسم إلى أقسام عليها عمال من قبل عامل الكوفة ، وكانت مسالحها وثغورها بما يلي الجزيرة وأرمينيا الموصل وقرقيسياً وثغورها فيما يلي فارس تابعة لتقدم الجيوش فى الفتح وتجاوزها حدود البلاد الإسلامية بالطبع .

(١) المخازن التى تخزن فيها الحبوب وغيرها من أموال النى .

(٢) المناظر وتسمى لهذا العهد المناظير هى قباب مبنية على رموس الجبال العالية بين كل بلد وآخر ، بحيث يتقارب بعضها من بعض ، ويشرف بعضها على بعض وكان يقام فيها حراس يوقدون النار عندما يرون لمقابل العدو من جهتهم ، فيوقد حراس المنظار الذى يليهم كذلك وهكذا حتى يصل الخبر إلى المدينة أو الثغر أو المسلحة فى زمن قليل ، فيسرعون لإمداد الجهة التى أقبل منها العدو ولم تزل آثارها قائمة إلى الآن فى كثير من أنحاء سورية ، وقد شاهدت المناظر القائمة على الجبال بين دمشق وحماة إلى ما فوق ومعظم الموجود من بقاياها إلى الآن هو من آثار الدول التركانية والكردية والبربر كسة التى شيدوها فى أيام الحروب الصليبية وعنوانها اعتناء عظيم جداً .

وكان يتبع كل أمير حرب كاتب وقاض يقضى بين الناس كما رأيت في باب تعبئة الجيش وغيره ويتبعه أمير يسمى عامل الأقباض يحصى الغنائم فإذا فتحت البلاد وتقررت الجباية كان عامل الخراج وكان عامل الأقباض في حرب فارس السائب بن الأقرع وعامل الخراج النعمان بن مقرن ثم غيره وغيره ، وقد مر بيان ذلك في غضون أخبار الفتح فلا حاجة للزيد .

وأنت ترى أن ذلك الترتيب هو غاية في إصاغة الغرض وبعد النظر في تنظيم شؤون الدولة بالنسبة لذلك العصر ، وربما نجا عمر رضى الله عنه في بعضه نحو فارس والروم ولعله بدىء ساذجاً ثم ترقى بترقى المسلمين وتقدمهم في الفتح في خلافة عمر رضى الله عنه بحيث تم هذا الترتيب في سنة (١٧) كما رأيت .

ضرب النقود :

كانت العرب قبل الإسلام تتعامل بالنقود الفارسية والرومية من الدرهم والدينار واستمر ذلك إلى أن جاء الإسلام ومضى صدر من خلافة عمر وكان الشائع استعماله بينهم يومئذ الدراهم البلغية وهى دراهم فارس وكان وزن هذا الدرهم زنة مثقال من الذهب ، فلما كانت سنة (١٨هـ) ضرب عمر الدراهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير أنه زاد في بعضها الحمد لله وفي بعضها محمد رسول الله ، وجعلها في أواخر خلافته كل عشرة دراهم بزنة سبعة مثاقيل كما ذكر ذلك المقرئى فى النقود الإسلامية ، إلا أن عمر رضى الله عنه لم يضرب الدينار وإنما ضربت الدنانير على عهد عبد الملك بن مروان . وأما نسبة الدرهم إلى الدينار فقد كانت تختلف باختلاف الزمان كما سنذكر ذلك فى سيرة عبد الملك بن مروان إن شاء الله : وأما نسبة الدرهم والدينار إلى نقود هذا الوقت لا باعتبار الوزن بل باعتبار قيمة المقومات من كل شيء بالدرهم أو الدينار فذلك يحتاج أولاً إلى الوقوف على نسبة حقيقية لأجور (٢٤ — أشهر مشاهير الإسلام)

العمال بالدرهم في صدر الإسلام ليقاس عليها مثلها في هذا العصر وتعلم القيمة الاعتبارية يومئذ للدرهم وتقاس على مثلها في هذا العصر وكل ما قيل من هذا القبيل إذا لم يُبين على ذلك التقدير الصحيح فخدس وتخمين ليس من الحقيقة على شيء ، لأن الدرهم من الفضة دنى القيمة الآن إذ ربما ساوى كل أربعين درهماً باعتبار الوزن ديناراً والدينار يتراوح ثمنه بين ١٢ فرنكا و١٦ فرنكا ، وهذه القيمة ربما كانت في بعض بلاد أوروبا لهذا العهد قيمة أجره عاملين أو ثلاثة وفي بعض بلاد المشرق قيمة أجره أربعة عمال إلى الثمانية من ذوى المهن لا ما يسمونه العمل البسيط .

فالدرهم والدينار لا يصح أن يكون قيمتهما الاعتبارية في صدر الإسلام كقيمتهما الآن ، بل أعلى وربما كان الدينار أجره عشرين عاملاً أو أكثر والفرق بينهما لا يعلم إلا من تحقيق عمل العامل في ذلك الوقت ، وعسانا نتوقف إلى الوقوف على حقيقة ثابتة من هذا القبيل ، فتبسطها عند الكلام على النقود الإسلامية في خلافة عبد الملك بن مروان إن شاء الله .

وضع البريد :

البريد اسم للمسافة التي بين كل محطة وأخرى من محطات البريد ، وهي أربعة فراسخ أو اثنا عشر ميلاً ، ثم أطلق على حامل الرسائل وتوسعوا به فأطلقوه على أضيبار (أكياس) البريد وأصله ، على ما يقال من وضع الفرس ، والذي رتبته دارا ملك الفرس في القرن الخامس قبل الميلاد ، ثم استعمله الرومان وغيرهم من الأمم ، وربما نأتى على شيء من تفصيل خبره في غير هذا المحل .

ثم استعمل في الإسلام وأقيم له عامل مخصوص يسمى عامل البريد ، وهو منفصل عن سلطة الولاية مكلف خلا أعمال البريد بنقل أخبار الولاية والبلاد لدار الخلافة ، وأن يكتب المهم من هذه الأخبار للخليفة ليكون على علم

بأحوال الرعية والولاة ، وقد كانت هذه الوظيفة تارة لصاحب البريد وتارة منفصلة عنه يسمى عاملها صاحب الأخبار وسنستقصي الكلام على هذا عند وصولنا إلى الكلام على دولة الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس إن شاء الله .

وروى المؤرخون أن أول من وضع البريد في الإسلام هو معاوية بن أبي سفيان ، ولعله هو أول من رتبته على أصول معرفة ووضع له الخيل وأقام له المحطات ، وإلا فالبريد استعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل معاوية ، إذ قد جاء ذكره كثيراً في سيرته ، ومنه ما مر في فصل علائقه مع الملوك عند ما قال عن الرسول الذي أتى بالعقد هدية من إمبراطورة الروم إنه يريد المسلمين ، وفي مناقب عمر للإمام ابن الجوزي أن عمر لما أبعد نصر بن حجاج عن المدينة إلى البصرة بسبب تغزل بعض النساء به قلق نصر للرجوع إلى المدينة ، وكتب عمر إلى عامله بالبصرة كتاباً فكث الرسول عنده أياماً ثم نادى مناديه ، ألا إن بريد المسلمين يريد أن يخرج فن كافت له حاجة فليكتب ، فكتب نصر بن حجاج كتاباً ودسه في الكتيب إلى أمير المؤمنين .

فمن هذا الخبر وغيره يستدل على أن أول واضع للبريد في الإسلام هو عمر بن الخطاب إلا أنه ربما لم يكن على الوجه الذي كان بعد ، ولم يبلغ من الإتقان مبلغه في عصر الأمويين والعباسيين وإنما هو بدىء ساذجاً ثم ترقى بترقى الزمان ،

محصير البصرة والكوفة :

مصرت البصرة سنة (١٥ هـ) عن يد عتبة بن غزوان بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وكان في مكانها محل يسمى الخريبة تقم فيه مسلح كسرى لتمنع العرب من العبث ومصرت الكوفة سنة (١٧ هـ) عن يد سعد بن أبي وقاص ، وكان البناء أولاً بالقصب فدب الحريق في الكوفة والبصرة

فأرسل سعد إلى عمر نفرأ يستأذنوه في البنيان باللبن (الطوب) فقال أفعلو أولا
يزيد أحدكم على ثلاثة آيات ولا تطاولوا في البنيان وكتب إلى أهل البصرة بمثل
ذلك فخططوا المناهج (الشوارع) على عرض عشرين ذراعاً وطول أربعين
ذراعاً والأذقة سبعة أذرع والقطائع ستين ذراعاً وبنوا المسجد الجامع في
الوسط بحيث تتفرع الشوارع ، وكان أمرهم عمر بتخطيط الشوارع على
ذلك الوجه إلا أنه لما ازدحمت الشوارع وكان أمرهم عمر بتخطيط الشوارع
على ذلك الوجه إلا أنه لما ازدحمت السكان في المدينتين أدخلوا بذلك الأصل
ولم يراعوا حالة التنظيم ، فتقدموا في البناء في الشوارع والساحات حتى
ازدحمت المنازل وضائق الشوارع واختلت أصول التنظيم التي وضعها لهم
عمر رضى الله عنه ولما كان الباعث على ذلك بعد القوم عن أسباب
الحضارة وعدم مراعاتهم لأصول التآفق في البنيان لقرب عهدهم بالبداءة
وقد عقد العلامة ابن خلدون فصلاً بهذا الصدد في مقدمته الشهيرة أغنانا عن
الكلام فليرجع إليه من شاء .

التوسعة في المسجدين :

في سنة (١٧هـ) حج عمر رضى الله عنه فبنى المسجد الحرام ووسع فيه
وهدم على قوم أبوا أن يبيعوا دورهم ، ووضع أثمان دورهم في بيت المال
حتى أخذوها واستأذنه أهل المياه التي على الطريق بين مكة والمدينة ، في أن
يبنوا منازل في هذا الطريق فأذن لهم وشرط عليهم أن ابن السبيل أحق
بالظل والماء ، وكذلك صنع بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه
هدمه ووسع فيه وأدخل دار العباس فيما زاد فيه .

بجولة مآثر :

ومن مآثره أن أقام دور الضيافات وأدر عليها الأرزاق : عن ابن سعد
قال اتخذ عمر دار الدقيق فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج

إليه يعين به المنقطع ووضع فيما بين مكة والمدينة في الطريق ما يصلح من ينقطع به ، وفي بعض الروايات أنه فعل مثل ذلك أيضاً بالطريق بين الشام والحجاز (ومنها) أنه مر يوم مجيئه الشام على قوم من المجذمين فقرض لهم شيئاً من بيت المال ومنعهم بذلك عن التكفف بين الناس (ومنها) أمره عمرو بن العاص بمصر بحفر الترعة التي وصلت بين النيل وبين البحر الأحمر في عام الرمادة ، واستمرت كذلك إلى عهد الفاطميين ثم ردمت كما سترى تفصيل الخبر عنها في سيرة عمرو بن العاص (ومنها) ما تقدم ذكره من حفر الترع وإقامة الجسور في العراق العربي والعراق العجمي (ومنها) ما تقدم ذكره أيضاً من وضع الديوان وإقامة الكتاب له وفرض العطاء للعساكر المجاهدين وتقسيم الجيوش وترتيبها كما ستراه مفصلاً في سيرة سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه ، وغير ذلك من الآثار الجليلة التي تمكن من إيجادها ذلك الخليفة العظيم مع اشتغاله بالفتوح وانصراف همته لتوسيع نطاق سلطان الإسلام جزاه الله عن هذه الأمة خير الجزاء ، وربما نأتى على إجمال آخر من آثاره عند ذكر أوائله في غير هذا الباب إن شاء الله .

أخلاقه ومناقبه

سبأته وعمره :

كانت العرب على جانب من خشونة الطباع وجفاء الخلق والاعتزاز بالعشيرة والأنفة عن الخضوع لحكم السلطان ، يعلمه من وقف على تاريخ هذه الأمة ، ولما جاء الإسلام هذب أخلاق فريق منهم وهم الصحابة لمعاشرتهم للنبي عليه الصلاة والسلام ، ووقفهم على حقائق الدين ، وإشراب قلوبهم حب الإيمان ، والفريق الآخر الذين لم يتمكن من قلوبهم الإسلام

لقرب عهدهم منه بقي في نفوسهم شيء من آثار الجاهلية لا يبتزعه إلا تهادى الزمان ، لهذا لم يسع أبا بكر الصديق رضى الله عنه إلا أن يعاملهم بالقوة الممزوجة بالرفق كما رأيت ذلك في سيرته وأخباره معهم أيام الردة ، ولما استخلف عمر رضى الله عنه وجد أن لامناص له من أن يحذو في معاملتهم بالشدة عند الحاجة حذو أبى بكر ، خوف النزوع إلى الثورة والخروج عن حدود الإسلام وقيود الأخوة والرجوع إلى الفرقة والشقاق والعصبية المضرة ، وقد كان رضى الله عنه شديداً بطبعه فساس أولئك الأقوام بمنزلة الشدة والإرهاب ، لما كان يتوقعه من حصول الفتن والدسائس ، ولو لم يقابل شدته إغراقه في العدل وكرمه في بذل المال وحكمته في وضع الثواب في محله والعقاب في محله لما استقام له أمر الخلافة ، كما أنه لو لم يستعمل مع العرب تلك السياسة لما استقام أمر المسلمين ، ولخيف من حصول فتن كبرى تنكشف لها أعصاب الإسلام كما حصل ذلك بعد وفاته رضى الله عنه ، إلا أنه لم يتأت عن تلك الفتن من الضرر ما يوازى الضرر الذى كان يتأتى عنها فيما لو حصل ذلك في أوائل خلافة عمر رضى الله عنه وإنما خف ضرر تلك الفتن بعد لأن الإسلام كان قد ملأ أكناف الأرض ، والعرب كلهم تفرقوا في أنحاء البلاد واشتغلوا بأمور الفتح وذاقوا لذة الملك والسلطان وأسسوا ذلك الملك العريض الذى استحال أن تدك أساسه عواصف الفتن في خلافة عثمان وعلى ومعاوية رضى الله عنهم وإنما كان الفضل في هذا لعمر بن الخطاب الذى أخذ على الأمة سبيل النزوع إلى الجاهلية الأولى ودفعها في غمار الفتح وشغلها بمحاربة الأمم عن محاربة نفسها ، ورباها على الخضوع لأولى الأمر فيما لا يكون به حيف على النفوس ولا مساس بالدين ولا حجير على الحرية ولا تمييز بين الطبقات ، وهذا منتهى ما توصف به رجال السياسة من الفضل والدهاء والعلم بسياسة الأمم وإحكام أمور الدول ، وحسب عمر أنه كان كالشمس المشرقة على الآفاق لا تخفى عليه خافية من أمور الرعية ، ولا يفوته

ظالم فينتصف منه أو مظلوم فينصفه ، حتى قيل إن علمه بمن نأى من عماله كان كعلمه بمن كان عنده لأنه جعل عليهم عيوناً حيثما كانوا ينقلون إليه أخبارهم في معاملة الرعية حتى كانت أخبار الجهات كلها عنده تأتيه بها البرد صباح مساء (١) وياويح العامل الذي تبدر منه بادرة أذى لأحد من الرعية أو يهفو هفوة في شأن من الشؤون فإنه لا يلبث أن يأتيه نذير عمر بالعزل أو التأييب من حيث لا يشعر ، فلهذا ملأت رهبة القلوب وخافه العمال وانقاد له الناس واستكانت لديه النفوس العاتية .

أخرج ابن الجوزي في المناقب عن عمر بن مرة قال : لقي رجل من قریش عمر ، فقال لن لنا فقد ملئت قلوبنا مهابة . فقال . أفى ذلك ظلم . قال لا . قال فزادنى الله فى صدوركم مهابة . وأخرج عن عبد الله بن جبير أنه سمع عبد الله بن عباس رضى الله عنهما يحدث قال . مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن آية فلا أستطيع أن أسأله هيبة .

(١) هكذا جال الدول عندما تبدأ فى سلم الصعود ومتى انقلبت إلى الهبوط انقلبت عندها هذه القاعدة رأساً على عقب لجعل الأسراء الميون على الرعية لاعلى المال ليكونوا عوناً للولاة على الرعية كما هى الحال فى ممالك الاسلام . حيث لا يستطيع أحد أن يشكو ظلم العمال وسوء الأحوال حتى أوغل الولاة فى الظلم وساموا الناس سوء العذاب وخربوا العمران وانتشر أمر الدول الاسلامية فى الشرق والغرب واختل الملك وقوى عليها العدو وياويح من تبدو منه بادرة شكوى من هذا الخطب ، فإنه للحال يزعج به فى ظلمات السجون أو ينفى من الأرض ، وهذا ماجعل الأوربية لهذا العهد تمسك على الممالك الاسلامية وترى المسلمين بوصمة العجز عن لمادة شؤون الحكومات ، وتلصق بهم عار الانحطاط إلى دركات الضمة والذل واستسلامهم لعقيدة الرضا بالقضاء والصبر على الضيم ولو تخطفهم الأمم ، وأصبخوا يساقون بعضا الاستعباد كاليهود ، ولقد شافنى مرة أحد علماء الألمان بكلام من هذا القبيل علمت منه صرختنا فى نظر العالم المتقدم بين الأمم ، وكنت والله أعلم لا أعلم أننا اتهمنا فى نظرهم إلى هذا الحد فإننا لله ولأنه لمقيه راجعون .

وأخرج ابن جرير في تاريخه عن زيد بن أسلم عن أبيه أن نقرأ من المسلمين كلوا عبد الرحمن بن عوف فقالوا : كلم عمر بن الخطاب فإنه قد أخشانا حتى والله ما نستطيع أن نديم إليه أبصارنا : قال فذكر ذلك عبد الرحمن بن عوف لعمر : فقال أو قد قالوا ذلك فوالله لقد كنت لهم حتى تخوفت الله في ذلك ، ولقد اشتددت عليهم حتى خشيت الله في ذلك . وإيم الله لانا أشد منهم فرقاً (خوفاً) منهم مني : وأخرج ابن عساكر هذا الحديث من طريق آخر وزاد عليه قول عمر . فأين المخرج وقام يبيكي بحر رداءه ويقول عبد الرحمن بيده أف لهم بعدك . والظاهر أن عمر رضى الله عنه لما استعمل مع العرب هذه الشدة لعلمه بأخلاقهم الجافية وأنهم إن تظاهر لهم باللين فقد فتح لهم باب الإدلال والتعجرف المعروف فيهم بذلك على هذا ما رواه الحافظ بن عساكر عن الأصمعي قال . كلم الناس عبد الرحمن بن عوف أن يكلم عمر بن الخطاب في أن يلين لهم فإنه قد أخافهم حتى أخاف الأبقار في خدورهن . فكلمه عبد الرحمن فالتفت عمر إليه فقال . يا عبد الرحمن ، إني لأجد لهم إلا ذلك ، والله لو أنهم يعلمون ما لهم عندي من الرأفة والرحمة والشفقة لأخذوا ثوبي من عاتقي ، والذي زاد عمر هيبة في النفوس أنه كان لا يراعى في الحق كبيراً ولا يملك شريفاً ولا أميراً إلا فيما تقضى به الضرورة السياسية ، وهذا فيما لا يمس به حق من حقوق الرعية ، ومن هذا القبيل حكايته المشهورة مع جبلة بن الأيهم ملك غسان ، فإنه لما أسلم ووفد على عمر بن الخطاب بأبهة الملك وحشمه تلقاه عمر بالترحيب ، وبينما هو يطوف يوماً وطىء على إزاره أعرابي من بني فزارة فضر به على وجهه ، فشكاه الأعرابي إلى أمير المؤمنين ، فاستدعى عمر جبلة وقال له إما أن ترضيه وإما أن يضربك كما ضربته ، فكبر ذلك على جبلة وقال ألا تفرقون بين الملك والسوقة ، قال لا قد جمع بينكما الإسلام . فاستمهله إلى الغد ثم أخذ قومه وفر بهم ليلاً ، ولحق بالإمبراطور هرقل بالقسطنطينية ،

فأرسل عمر من يسترضيه فأبى الرجوع ، وهذه مرتبة من لإنصاف الرعية وإقادتهم حتى من الملوك لم يبلغها أحد غير عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ومن بدائع أخباره فى لإنصاف أفراد الرعية من الولاية ما نقله فى حسن المحاضرة عن أنس ، قال أتى رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب ، فقال يا أمير المؤمنين عائد بك من الظلم . قال عذت معاذاً . قال سأبقت ابن عمرو بن العاص فسبقتة فجعل يضربنى بالسوط ويقول . أنا ابن الأكرمين ، فكاتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم بابنه عليه فقدم . فقال عمر أين المصرى خذ السوط فاضرب فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر اضرب ابن الأكرمين ثم قال للمصرى ضعه على صلعة عمرو . قال يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذى ضربنى وقد اشتفيت منه فقال عمر لعمرو . مذكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، قال يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتنى (يعنى) المصرى .

هذا منتهى الإنصاف للرعية والعدل بين طبقات الأمة ، وبمثله علم الناس أن لا كبير فوق الحق ولا أمير إلا دون الشريعة حتى نفسه رضى الله عنه ، فقد كان ينصف غيره منها ولا يعتبر نفسه أمام الحق والعدل إلا كواحد من الناس ، فقد جاء فى كنز العمال عن الشعبي قال كان بين عمر وبين أبى ابن كعب خصومة ، فقال عمر اجعل بينى وبينك رجلا . فجعل زيد بن ثابت ، فأتياه فقال عمر أتيناك لتحكم بيننا وفى بيته يؤتى الحكم . فلما دخلا عليه وسع له زيد عن صدر فراشه ، فقال ههنا يا أمير المؤمنين . فقال له عمر هذا أول جور جرت فى حكمك ولكن أجلس مع خصمى ، فجلس بين يديه فادعى أبى وأنكر عمر ، فقال زيد لأبى اعف لأمير المؤمنين من اليمين ، وما كنت لأسألهما لأحد غيره ، فحلف عمر ثم أقسم لا يدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض الناس عنده سواء (وفيه) عن عبد الله

ابن عكيم قال قال عمر بن الخطاب . إنه لاحلم أحب إلى الله تعالى من حلم
إمام ورفقه ، ولا جهل أبغض إلى الله تعالى من جهل إمام وخرقه ، ومن
يعمل بالعفو فيما بين ظهريه تأتية العافية ، ومن ينصف الناس من نفسه
يعطى الظفر في أمره والذل في الطاعة أقرب إلى البر من التعوز بالمعصية .
وخلا هذا فقد كان رضى الله عنه حريصا على ألا يشكى منه ويرشد
إلى كل ما فيه راحة الناس وسلامة الأمة وتنسكب طرق الخطأ أو الجور ،
حتى بلغ الأمر أن كان كلما اجتمع إليه ناس من الأمصار أو جماعة من
كبار الصحابة يسألهم عن سيرته بين الناس ويستطلع طلع ضماثرهم من جهة
سياسته في الرعية ولا يابى قبول النصيحة (ومن) ذلك ماجاء في كنز العمال
عن النعمان بن بشير أن عمر بن الخطاب قال في مجلس وحوله المهاجرون
والأنصار . أرايتم لو ترخصت في بعض الأمور ما كنتم فاعلين فسكتوا ،
فقال ذلك مرتين أو ثلاثا . فقال بشير بن سعد لو فعلت ذلك قومناك تقويم
القدح (وهو السهم المعوج قبل أن يراش وينصل) فقال عمر . أتم إذن أتم إذن
(استحسننا لقولهم) . وفي المناقب عن عبد الجبار بن عبد الواحد التنوخي
قال قال عمر رضى الله عنه وهو على المنبر أنشدكم الله لا يعلم رجل مني عيباً
إلا عابه ، فقال رجل نعم يا أمير المؤمنين ، تدل بين البردين وتجمع بين
الأدمين ولا يسع ذاك الناس قال فما أدال بين بردين ولا جمع بين أدمين
حتى لقي الله . وقوله بديل بين بردين أى يليس قيصاً ويخليه ويلبس
غيره . (وذكر) بعض المؤرخين أنه خطب يوماً فقال . أيها الناس من
رأى منكم في اعوجاجا فليقومه . فقام رجل فقال . والله لو وجدنا فيك
اعوجاجا لقومناه بسيوفنا . فقال عمر . الحمد لله الذى أوجد في المسلمين من
يقوم اعوجاج عمر بسيفه .

إلا أننى لم أقف على سند لهذه الخطبة وهى إن صحت فربما تكون من
قبيل الخبر الأول لاخطبة ، وأنت ترى من هذه الأخبار إلى أية درجة بلغت

حرية الضمائر وحب العدل بالمسلمين يومئذ ومنها تعلم أنهم إنما سادوا بقول الحق وتعشق الحرية واستقلال الضمائر لا بالذل والخنوع والتقييد بقيود العبودية التي ما تقيد بها قوم إلا ضربتهم بالهلاك وسودت عليهم الأمم كما سودت الغربيين الآن على مائتي مليون من المسلمين اتخذوا رؤسائهم أولياء من دون الله فقتلوا بهم إلى هوة الدمار ، وأقفروا من آثار ملكهم العظيم الديار .

وفي كنز العمال عن سلمة بن شهاب العبدى قال قال عمر بن الخطاب أيها الرعية إن لنا عليكم حق النصيحة بالغيب ، والمعاونة على الخير ، وأنه ليس شيء أحب إلى الله تعالى وأعم نفعاً من حلیم لإمام ورفقه ، وليس شيء أبغض إلى الله تعالى من جهل لإمام وخرقه .

(رمن سياسته) في تقويم أخلاق الناس وحملهم على المحجة الواضحة في الأعمال وأن لهم ما تسكنه السرائر ، ما جاء في كنز العمال أيضاً من حديث عتبة بن مسعود قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : إن ناساً كانوا يؤخذون بالوحى في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الوحى قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر من أعمالكم ، فمن أظهر لنا خيراً آمناه وقرّبناه وليس لنا من سريره شيء الله يحاسبه في سريره ، ومن أظهر لنا شراً لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال إن سريره حسنة ، وإنما يعرض بهذا بالمنافقين تنبيهاً لهم إلى أنه مراقب لأعمالهم .

ومع أنه كان يأخذ الناس بهذه الطريقة ويحملهم على الاستقامة في الأعمال فإنه كان يحذرهم من خيانة السرائر وينهاهم عن التردد في الأمور ويرشدهم إلى الجمع بين العزيمة والنية سوفاً لهم إلى الاستقامة في العمل والحزم في الرأي فقد أخرج ابن جرير الطبري في تاريخه عن عمر بن مجاشع قال : قال عمر

ابن الخطاب القوة في العمل ، أن لا تؤخر عمل اليوم لغد . والأمانة أن لا تخالف سريرة علانية ، واتقوا الله عز وجل ، فإنما التقوى بالتوقى ومن يثق الله يقه .

وهكذا رضى الله عنه كان في رعيته كالوالد الرءوف يواليهم بالنصائح ويرشدهم إلى طريق الخير والسعادة ويأمرهم بالتقوى والعدل والتآلف والاجتماع وينهاهم عن التحزب والتفرق وخصوصاً قريشاً فإنه كان لا ينام لهم على أمر ولا يدعهم ساعة من نصيحة لأنهم قدوة الناس وأئمة العرب .

أخرج الطبرى عن ابن عباس أن عمر قال لناس من قريش بلغنى أنكم تتخذون مجالس لا يجلس اثنان معاً حتى يقال من صحابة فلان من جلساء فلان حتى تحوميت المجالس ، وإيم الله إن هذا لسريع فى دينكم سريع فى شرفكم سريع فى ذات بينكم ، ولكأنى بمن يأتى بعدكم يقول هذا رأى فلان ، قد قسموا الإسلام أقساماً . أفيضوا مجالسكم بينكم وتجالسوا معاً فإنه أدم لألفتكم وأهيب لكم فى الناس اللهم ملونى ومللتهم وأحسست من نفسى وأحسوا منى ولا أدرى بأينا يكون الكون وقد أعلم أن لهم قبيلة منهم فاقبضنى إليك .

ومن جميل سياسته أنه كان يعلم من نفسه الشدة فلا يرضى لعماله أن يكونوا مثله ، لهذا عزل خالد بن الوليد من الإمارة وجعل بدله أبا عبيدة ابن الجراح ، وكان عماله جميعهم ممن عرفوا باللين والأناة كأبى عبيدة وسعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان وحذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف وأضرابهم إلا بعض القواد فرمما كانوا على شئ من الشدة وذلك يكون فى مشاهم بالطبع ومع شدته رضى الله عنه فقد كان يوصى عماله بالرفق والعدل والأناة وعدم الإيغال فى العقوبة وبلغ به كرهه للإيغال فى العقوبة أن أرسل مرة إلى أبى موسى الأشعرى وقد اشتد فى العقوبة على بعضهم يهدده بالعقاب إذا عاد إلى مثلها .

جاء في كنز العمال عن ابن عمر قال : كنت مع عمر في حج (أو عمرة) فإذا نحن براكب : قال عمر أرى هذا يطلبنا : فجاء الرجل فبكي : قال ما شأنك إن كنت غارماً أعناك وإن كنت خائفاً أمناك إلا أن تكون قتلت نفساً فتقتل بها وإن كنت كرهت جوار قوم حولناك عنهم : قال لاني شربت الخمر وأنا أحد بني تيم وإن أبا موسى جلدني وخلقتني وسود وجهي وصاف بي الناس وقال لا تجالسوه ولا تؤاكلوه فحدثت نفسي يا حدى ثلاث . إما أن أنخذ سيفاً فأضرب به أبا موسى . وإما أن آتيك فتحولني إلى الشام فإنهم لا يعرفوني : وإما أن ألحق بالعدو فأكل معهم وأشرب : فبكي عمر . قال ما يسرنى أنك فعلت وأن لعمر كذا وكذا ، وإنى كنت لأشرب الناس لها في الجاهلية ، وإنما ليست كالزنى . وكتب إلى أبي موسى ما صورته .

سلام عليك أما بعد فإن فلان ابن فلان التيمي أخبرني بكذا بكذا وإيم الله إن عدت لأسودن وجهك ، ولأطوفن بك في الناس ، فإن أردت أن تعلم حق ما أقول فعد . فأمر الناس أن يجالسوه ويؤاكلوه فإن تاب فاقبلوا شهادته . وحله عمر (أى أركبه) وأعطاه مائتي درهم .

ومن جميل سياسته اهتمامه بأهل الذمة الذين دخلوا في عهد المسلمين وسلطانهم من الشعوب غير المسلمين ، ووصاياه للعمال بالحرص على راحتهم وتجنب ظلمهم وأذاهم وبلغ اهتمامه بهم أن كان إذا غابت عنه أخبارهم أو بلغه أقل شيء عنهم يستدعي ذوى أمانة من المسلمين الذين أقاموا في بلادهم ويسألهم عن أحوالهم ويستقصي سيرة العمال ، ومن ذلك ما رواه الطبري في تاريخه أن عمر رضي الله عنه كتب إلى أمير البصرة أن يبعث له جماعة من ذوى الرأي والبصيرة ، فأرسل إليه وفدأ فيهم الأحنف بن قيس فسألهم عن أهل الذمة وهل يشكون ظلماً أو حيفاً فأجابوه بالسلب ولم يطمئن لقولهم حتى استوثق من الأحنف ، وكان يثق بصدقه ثم صرفهم .

ومن أجل ما يؤثر عنه من الرفق بأهل الذمة ما جاء في كنز العمال أن
عمر مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب المساجد فقال ما أنصفناك
كنا أخذنا منك الجزية في شبيبته ، ثم ضيعناك في كبرك ثم أجرى عليه
من بيت المال ما يصلحه .

ومن حسن سياسته تقدمه إلى قواده بأن لا يمسكوا الجند في الغزو أكثر
من أربعة أشهر ، وسببه أنه كان يطوف ليلة بالمدينة على عادته فسمع امرأة
من وراء بابها تقول :

تطاول هذا الليل واسود جانبه وأرقى أن لا خليل الأعبه
فلولا حذار الله لا شيء مثله لزحزح من هذا السرير جوانبه
فكتب عمر إلى عماله أن لا يغيب أحد بالغزو أكثر من أربعة أشهر :
ونعم الرأي .

ومن سياسته توقيفه الحدود عند الضرورة الداعية لذلك فقد أخرج
ابن أبي شيبة في المصنف عن حكيم بن عمير قال كتب عمر بن الخطاب ألا
يحملن أمير جيش ولا سرية أحداً الحد حتى يطلع الدرب لئلا نحمله حمية
الشیطان أن يلحق بالكفار .

ومن سياسته أنه كان يحبس عن العمل كثيراً من كبار الصحابة منهم
من كان لا يستعمله خوفاً على دينه من أن يدنسه بالولاية ، فقد أخرج
ابن سعد عن عمران بن عبد الله قال : قال أبي بن كعب لعمر بن الخطاب
مالك لا تستعملني : قال أكره أن تدنس دينك .

وممنهم من لا يستعمله خشية أن يحمله على رقاب الناس أو خشية أن تحدته
نفسه بالإمارة إذا بعد عن مراقبته .

وهؤلاء هم بنو هاشم لما كان يتفرسه فيهم من التطلع إلى الإمارة ،

ففي مروج الذهب للمسعودي عن عبد الله بن عباس أن عمر أرسل إليه فقال يا بن عباس إن عامل حمص هلك ، وكان من أهل الخير وأهل الخير قليل ، وقد رجوت أن تكون منهم وفي نفسي منك شيء لم أره منك وأعياني ذلك فما رأيك في العمل ، قال لن أعمل حتى تخبرني بالذي في نفسك . قال وما تريد إلى ذلك . قال أريده فإن كان شيء أخافه على نفسي خشيت منه عليها الذي خشيت وإن كنت بريئاً من مثله علمت أني لست من أهله فقبلت عملك هنالك . فإني قلما رأيت أو ظننت شيئاً إلا عاينته : فقال يا بن عباس إني خشيت أن يأتني عليّ الذي هو آت وأنت في عملك فتقول هلم إلينا ولا هلم إليكم دون غيركم : إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وترككم : قال (أي ابن عباس) والله قد رأيت من ذلك فلم تراه فعل ذلك : قال (أي عمر) والله ما أدرى أضن بكم عن العمل فأهل ذلك أنتم ، أم خشى أن تبايعوا بمنزلتكم منه فيقع العقاب ولا بد من عتاب فقد قرعت لك فما رأيك ؟ قال : (أي ابن عباس) أراني لا أعمل لك : قال ولم : قلت إن عملت لك وفي نفسك ما فيها لم أبرح قذى في عينك قال : فأشعر عليّ ؟ قلت إني أرى أن تستعمل صحيحاً منك صحيحاً لك .

ومن سياسته تقدمه إلى العمال بأن لا يأذنوا لأحد من جنود المسلمين أن يزرع أو يزارع في البلاد المفتوحة وأن لا يقطعوا أرضاً لأحد منهم البتة ، وذلك لأمر الأول كي لا يزاحم المسلمون أهل الذمة والعهد في أراضيهم ويضيقوا عليهم في معيشتهم ، والأمر الثاني كي لا يآلف الجنود الاعمال في الأرض في إبان الفتح فتميل نفوسهم إلى الراحة من عناء الحرب والأمة حربية لم يأن لها أطراح لأمة القتال واعتزال الحرب والإخلاد إلى الراحة والترف ، والأمر الثالث كي تبقى الأرض في يد أهلها مادة تستمد منها الدولة ما يقوم بشؤونها العسكرية والإدارية ، ولا يحتكرها المقتطعون من جنده فتعدم مادة القوة عن الدولة الإسلامية فيما بعد ، ولا تجرد من المال ما يكفي

لمن يقوم من الجند بحراسة البلاد ، وقد مر الشاهد على سياسته هذه في غير محل من هذا الكتاب ، ومنه ما كتبه إلى عمال العراق وعمرو بن العاص في مصر كما رأيت ذلك في فصل (كيف يكون الاستعمار) وأخباره في سياسته طويلة نكتفي منها بما تقدم دلالة على الباقي .

نظرة في بعض الأخبار المتعلقة بأهل الزمة :

قد رأيت في هذا الباب وفي باب إجلاء عمر لأهل نجران وسرى في باب أخباره وأقواله كيف كانت سياسة عمر مع أهل الزمة وكيف كان شديد الحرص على راحتهم حائماً للعمال على إنصافهم وعدم إيذائهم ومن كان هذا شأنه مع القوم فيستحيل على العقل التصديق بما يناقض سيرته هذه معهم ، وقد أورد بعض أرباب السير ونقله الحديث خبرين عن عمر يتعلقان بأهل الزمة ، أحدهما أمره لعامله في العراق بحتم رقاب أهل الزمة من الفرس بالرصاص ، والثاني تقدمه إلى العمال أن لا يحدث النصارى في أمصار المسلمين (أى التي مصرها المسلمون خاصة كالبصرة والكوفة) بيعة ، ولا يرفعوا صليباً ، على أن هذين الخبرين وما شابههما قد وهن روايتهما أهل الحديث وحفاظه ، وقالوا إنها موضوعة وقد أورد الإمام الشوكاني في نيل الأوطار الحديث الثاني عن البيهقي وعن الحافظ الحراني باختلاف بينهما باللفظ ، وقال عن الأول في إسناده ضعف وعن الثاني في إسناده حش وهو ضعيف . ويريد بحش أحد المطعون بهم في رواية الحديث .

فلا ندري ما هو الباعث لفريق الوضاعين على وضع أمثال هذه الأحاديث أهو الجهل بمقاصد الإسلام الذي جاء للتأليف بين القلوب والتعارف بين الشعوب (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) أم ذلك شيء دس في

الأخبار وتناقله الرواة مع الغفلة عن مقاصد الشرع .
ليس بعجيب على الكذابين أو المنافقين أو الجاهلين أن يدسوا ما شاءوا
في الأخبار ، إنما العجيب أن ينقلها بعض المؤرخين والعلماء الأعلام على
علاقتها كما نقل ابن الجوزي وهو إمام معروف الخبر الثاني في مناقب عمر
دون التنبيه على ضعفه ، وإنما جرّ بلاء التشيع ونفت روح التفرق وأنسى
المسلمين أصول التألف والتحابب حتى بين أنفسهم انتشار أمثال هذه الأحاديث
والأخبار في كتب الخاصة مع علمهم بأن منها ضعيف السند وإنما دعاهم إلى
نقلها توهم أنها قريبتهم بها إلى الدين أو يتعصب بها له ، مع أن التعصب
للدن هو التمسك به والذود عن حوضه وإعزاز جانبه وجانب أهله بإرشادهم
إلى أن السيادة على الأمم إنما هي بمساقبتهم في مضمار الحياة الاجتماعية
لا بإيذاء الغير في دينه وحرية ، والله تعالى يقول (لكم دينكم ولي دين)
ولو أراد الإسلام إيذاء الذمّي في حرّيته الدينية والشخصية لأمر بإكراه أهل
الكتاب على الإسلام كما أمر بإكراه مشركي العرب . ومن ثم فلو فرض
ورود أمثال تلك الأخبار سواء عن عمر رضي الله عنه أو عن غيره فلا ينبغي
لها أن تحمل على ما يناقض أصول الدين بل تحمل على الضرورة السياسية التي
ربما تدعو إليها سياسة الفتح ، كما يدل عليه تخصيص أمر عمر لو صح الخبر
عنه بمصر مخصوص إذ لا بد لكل فاتح من إظهار الشدة في بادئ الأمر بما
يشبه ما يسمونه الآن الإدارة العرفية أو العسكرية ريثما تثبت قدمه في البلاد
وتسكن إلى حكمه نفوس المغلوبين ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فربما كان
لجدة العرب في الدين وعدم تمكن عامتهم منه لقرب عهدهم به دخل في مثل
تلك السياسة التي يراود بها المحافظة على عقائد العرب يومئذ من أن يتطرق إليها
أهل جوارهم من الكتائبين بشيء من الإفساد لقرب عهدهم بالوثنية وإغراقهم
في الجهل ، كما كان لهذه السياسة دخل في إجلال أهل نجران ، ومن هذا
القبيل الخبر الذي نحن بصدد الكلام عليه وهو خبر تقدم عمر إلى عماله بعدم

لأحداث النصرارى بيعاً فى الأمصار التى مصرها المسلمون، هذا على فرض صحته وهو لم يصح كما رأيت ، وعلى هذا القصد ينبغى أن يحمل كل ما جاء من الأحاديث والأخبار التى من هذا القبيل لا على قصد إيجاد النفرة بين المسلمين وأهل الكتاب ، لا سيما والمخدور الذى كان يدور فى خلد الصحابة ويخشاه النبى صلى الله عليه وسلم على العرب يومئذ كان قد زال بزوال أسبابه ولا يحمل هذه الأخبار على غير هذا المحمل الذى بسطناه إلا جاهل بمقاصد الإسلام غير عالم بأن الدين الذى يأمر أهله بمعاشرة أهل الذمة بالمعروف ، ومعاملتهم بالإنصاف وعدم إيذائهم فى حال من الأحوال لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، لا يناقض نفسه ويأتى بما يخالف عدله ، وليكن العقلاء الذين يصنعون الأمور موضع النقد والمحاكمة قليل وآفة العلم الفهم بما يوافق الهوى لا الحق والسلام .

أخباره مع عماله ووصاياه لهم :

كان رضى الله عنه شديد المراقبة لعماله كثير السؤال عن سيرتهم وأخبارهم ، وبلغ به ذلك أن أقام عليهم العيون يوافونه بأخبارهم ، وجعل أحد الصحابة وهو من أهل التقي والصدق واسمه محمد بن مسلمة قاصداً أى محققاً لأخبارهم ومقتصفاً لآثارهم ، فإذا شكأ أحد من الرعية أحداً من العمال أرسل محمد المذكور يقتص الخبر ويحقق الشكوى تحقيقاً علنياً لا فى السركى لا يؤخذ العامل بوشاية وأش أو سعاية مفترة ، فيذهب ويجمع إليه الناس فى المسجد ، وربما طاف عليهم فى أحيائهم يسألهم عن عملهم بسيرة الأمير وبأسباب الشكوى منه ، ومن ذلك ما ذكره الطبرى فى تاريخه عند الخبر عن إرسال الجيوش إلى نهاوند فى أخبار سنة (٢١) قال ونزل بسعد (أى ابن أبى وقاص) أقوام وألبوا عليه فيما بين ترأسل القوم واجتماعهم إلى نهاوند ولم يشغلهم مادهم المسلمين من ذلك ، وكان ممن نهض الجراح بن ستان الأسدى فى نفر فقال

عمر إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم في هذا الأمر وقد استعد لكم من استعد وإيم الله لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم وإن نزلوا (يعنى الفرس) بكم فبعث عمر محمد بن مسلمة والناس في الاستعداد للأعاجم والأعاجم في الاجتماع وكان محمد بن مسلمة هو صاحب العمال الذى يقتص آثار من شكى زمان عمر^(١) ، فقدم محمد على سعد ليطوف به على أهل الكوفة والبعوث تضرب على أهل الأمصار إلى نهاوند ، فطوف به على مساجد أهل الكوفة لا يتعرض للمسئلة عنه في السر وليست المسئلة في السر من شأنهم إذ ذاك . وكان لا يقب على مسجد فيستلمهم عن سعد إلا قالوا لا نعلم إلا خيراً ولا نشتهى به بدلاً ولا نقول فيه ولا نعين عليه : إلا من مالا الجراح بن سنان وأصحابه فإهم كانوا يسكتون ولا يقولون سوءاً إلى أن قال الطبرى وخرج محمد به (أى بسعد) وبهم إلى عمر حتى قدموا عليه فأخبره الخبر فسأله عمر عن أوجه الشكوى فأنكرها ولم يسمعهم إثباتها فردهم عمر وخشى إذا أبى سعداً على الكوفة أن يكون بينهم وبينه أمر فعزله احتياطاً وسأله من خليفتك على الكوفة فقال له عبد الله بن عبد الله بن عتيان فأقره .

ومنه تعلم كيف كان رضى الله عنه مرافقاً لعماله كثير التحقيق عن أخبارهم لا يتمجل في أمرهم إذا جاءت شكايه على أحدهم بل تثبت الخبر بنفسه ويحققه بمواجهته ، فإن ثبت عليه شيء مما يدعيه الشاكى عزله وله بهذا الصدد أخبار كثيرة مع عماله ، ربما نأتى على شيء منها في سيرة أشهر المشهورين من رجاله إن شاء الله تعالى

وكان رضى الله عنه لا يحب أن يفرق بين عماله في المعاملة لا بين الحر

(١) وظيفة محمد بن مسلمة هذه تشبه وظيفة المفتشين لهذا العهد .

والعبد ولا بين القوى والضعيف ، أخرج ابن جرير الطبري عن الأسود بن
يزيد قال كان الوفد إذا قدموا على عمر رضى الله عنه سألهم عن أميرهم فيقولون
خيراً ، فيقول هل يعود مرضاكم فيقولون نعم ، فيقول هل يعود العبد
فيقولون نعم ، فيقول كيف صليعه بالضعيف وهل يجلس على بابيه فإن
قالوا لا عزله .

وكان رضى الله عنه لا يغفل عن أن يرسل الأوامر إلى عماله تبعاً في أن
يعدلوا ولا يظلموا ولا يأخذوا بالظنة ولا يبخوا أو يغدروا ، ومن ذلك
أنه لما وفد عليه الأحنف بن قيس وسأله عن حالة النمة في ولاية البصرة
وصرفه كما تقدم الخبر عن ذلك في الفصل السابق كتب معه كتاباً إلى عتبة
ابن غزوان أمير البصرة يوصيه فيه بأهل النمة هذه صورته (عن تاريخ
الطبري)

أعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون
منكم أو بغى ، فإنكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه ، وقد
تقدم إليكم فيما أخذ عليكم ، فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم
عونا وناصرأ

وبلغه مرة أن حرقوصاً عامله على الأهواز نزل جبل الأهواز والناس
يختلفون إليه ، والجبل كؤود يشق على من راحه فكتب إليه ماصورته نقلاً
عن تاريخ الطبري في حوادث سنة (١٧) :

(أما بعد) بلغنى أنك نزلت منزلاً كشوداً لا تؤتى فيه إلا على مشقة
فأسهل ولا تشق على مسلم ولا على معاهد ، وقم في أمرك على رجل تدرك
الآخرة وتصف لك الدنيا ، ولا تدركنك فترة ولا عجلة فتكدر دنياك
وتذهب آخرتك

هذه لعمرى الرؤفة بالرعية وهذا منتهى الجنان وغاية الحرص على راحة الناس ، فاللهم إن خليفة لا يغفل حتى عن أمثال هذه الجزئيات الخليفة لا يخلفه الزمان ولا يوهن له سلطان ولا يمحي ذكره عن صفحات الجنان فرضى الله عنه وأرضاه

ومن وصاياهم للعالم ما أخرجه الطبري عن أبي عمران الجوني قال كتب عمر إلى أبي موسى : إنه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائجهم ، فأكرم من قبلك من وجوه الناس ، وبحسب المسلم الضعيف من العدل أن ينصف في الحكم وفي القسم

ومراده بهذه الوصية أن يكرم أبو موسى وجوه الناس ليأمنوه ويرفعوا إليه حوائج المسلمين وأمور الضعفاء كي يكون عارفاً بحاجات الرعية من كل الطبقات فينصف هذا في الحكم ، وذلك في القسم ، ولا يفوت عدله فرداً من أفراد الرعية الذين لا يصلون إليه

وأخرج عن أبي فراس قال خطب عمر بن الخطاب فقال : يا أيها الناس إني والله ما أرسل عمالا إليكم ليضربوا أبشاركم ولا يأخذوا أموالكم ، ولكني أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم (وفي رواية) ويقضوا بينكم بالحق ويحكموا بينكم بالعدل) فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلى فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه (١) فوثب عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين أرأيت إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته إنك لتقصه منه : قال إى والذي نفس عمر بيده إذا لأقصنه منه وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه . ألا لاتضربوا المسلمين فتذلهم ولا تجمروهم فتفتنهم ولا تمنعهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلهم الغياض فتضيعهم .

(١) يعنى يمكن خصمه من الاقتصاص منه أو يقص له منه

وعن أبي رواحة قال كتب عمر بن الخطاب إلى العمال : اجعلوا الناس عندكم في الحق سواء قريبتهم كبعيدهم وبعيدهم كقريبتهم ، إياكم والرشا والخبث بالهوى وأن تأخذوا الناس عند الغضب فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار .

وروى الطبري أن عمر كان يقول في عماله : اللهم إني لم أبعثهم ليضربوا أبشارهم من ظلمه أميره فلا إمرة عليه دوني ، ومع كل هذا التشديد على العمال فإنه رضى الله عنه كان دائماً قلقاً على الرعية خائفاً من أن يجار عليهم بأمر لا يصلح خبره ، لهذا عزم قبيل قتله أن يسافر ويطوف على العمال جميعهم ليجتنب عن أمور الرعية ويقضى حاجاتهم : فقد أخرج الطبري عن الحسن قال : قال عمر بن الخطاب لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولاً ، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني ، أما عمالهم فلا يرفعونها إليّ وأما هم فلا يصلون إلي فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين والله نعم الحول هذا ، ونحن نقول نعم الخليفة هذا ولا والله لا يخلفه خليفة في المسلمين ، ولا يدانيه ملك من ملوك الأرض أجمعين .

هكذا كان قلقه على الرعية وتطلعه إلى أخبار العمال مع تحريه في انتخابهم أهل الأمانة والتقى والكفاءة لولاية أمور الرعية ، حتى كان أكثر عماله ناهجين في العدل منهجه ، سالكين في الزهد والورع والعفة طريقه ، فمن عماله سلمان الفارسي وكان عامله على المدائن وكان على جانب من الزهد والتقى والصلاح عظيم ، فكان يلبس الصوف ويركب الخمار ببردته بغير إكاف ، ويأكل خبز الشعير فلما احتضر بالمدائن قال له سعد بن أبي وقاص يا أبا عبد الله أذكرك الله عند هملك إذا هممت ، وعند لسانك إذا حكمت ، وعند يدك إذا قسمت ، فجعل سلطان يبيكي فقال يا أبا عبد الله ما يبكيك : قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول إن في الآخرة عقبة لا يقطعها إلا المخفون ، وأرى هذه الأساودة
(جمع سواد وهو المال الكثير) حولي فنظروا فلم يجدوا في البيت إلا دواة
وركوة ومطهرة .

وكان عامله على الشام أبا عبيدة بن الجراح وكان يظهر للناس وعليه
الصوف الجاني فعذل على ذلك ، وقيل له إنك بالشام وأمير المؤمنين وحولنا
الآعداء فغير من زيك وأصلح من شارتك : فقال ما كنت بالذي أترك
ما كنت عليه في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان عامله على حمص سعيد بن عامر بن حذيم فشكاه أهل حمص إليه
وسأله عزله ، فقال عمر : اللهم لا تقل فراستى فيهم ، ماذا تشكون منه : قالوا
لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار ، ولا يجيب أحداً بليل ، وله يوم في الشهر
لا يخرج إلينا . فقال عمر علىَّ به فلما جمع بينه وبينهم فقال ما تنقمون منه :
قالوا لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار : فقال ما تقول يا سعيد : فقال يا أمير
المؤمنين إنه ليس لأهلي خادم فأعجن عجيني ثم أجلس حتى يخبثر ثم أخبز
خبزى ثم أتوصاً وأخرج إليهم ، قال وماذا تنقمون منه . قالوا لا يجيب بليل .
قال قد كنت أكره أن أذكر هذا إنى جعلت الليل كله لربي وجعلت النهار
لهم . قال وماذا تنقمون منه : قالوا له يوم في الشهر لا يخرج إلينا . قال نعم
ليس لى خادم فأغسل ثوبى ثم أجففة فأمسى . فقال عمر الحمد لله الذى لم يقل
فراستى فيكم يأهل حمص فاستوصوا بوالىكم خيراً . ثم إن عمر بعث إليه
بألف دينار وقال استمن بها . فقالت له امرأته قد أغنانا الله عن خدمتك ،
فقال لها ألا ندفعها إلى من يأتينا وأحوج ما كنا إليه قالت بلى ، فصرها
صراراً ثم دفعها إلى من يثق به وقال انطلق بهذه إلى فلان وهذه إلى يقيم
بنى فلان ومسكين آل فلان ، حتىبقى منها شىء يسير فدفعه إلى امرأته وقال
أنفق هذه ثم عاد إلى خدمته فقالت له امرأته ألا تبعث بذلك المال فتشتري

لنا منه خادماً فقال سيأتيك أحوج ما تكونين إليه .

هكذا كان معظم عمال عمر رضى الله عنه ، فكيف لا يكون عصره أسعد العصور على المسلمين وأعظمها بركة على الرعية ، ولا جرم فالخليفة الصالح لا يختار من العمال إلا الصالحاء العدول والناس على دين ملوكهم والعمال يسلمون طرائق سلوكهم ، فإن كان المملوك ظالمين ظلم العمال وإن كانوا عادلين عدلوا .

وكان رضى الله عنه يكره احتجاب العمال عن الرعية ويبالغ في حب ظهورهم للناس ، فإن بلغه أن عاملاً احتجب عن الرعية نكل به أشد تنكيل ، فقد روى الطبري أن سعد بن أبي وقاص لما بنى دار الإمارة في الكوفة وكانت الأسواق قريبة منه وغواؤهم تمنع سعداً الحديث ادعى الناس عليه مالم يقل ، وقالوا قال سعد سكتن عن التصويت وبلغ عمر ذلك ، وأن الناس يسمون الدار قصر سعد فدعا محمد بن مسلمة فسرجه إلى الكوفة ، وقال اعمد إلى القصر حتى تحرق بابه ثم ارجع عودك على يدك ، نفرج حتى قدم الكوفة فاشتري حطباً ثم أتى به إلى القصر فأحرق الباب ، وأتى سعد فأخبر الخبر . فقال : هذا رسول أرسل لهذا الشأن ، وبعث لينظر من هو فلما عرفه أرسل إليه رسولاً بأن ادخل ، فأبى نفرج إليه فأراد على الدخول والنزول فأبى وعرض عليه نفقة فلم يأخذ ودفع كتاب عمر إلى سعد وفيه .

بلغنى أنك بنيت قصرأ اتخذته حصناً ويسمى قصر سعد ، وجعلت يديك وبين الناس باباً ، فليس بقصرك ولكنك الخيال انزل منه منزلاً مما يلي بيوت الأموال وأغلقه ، ولا تجعل على القصر باباً يمنع الناس عن دخوله وتنفيهم به عن حقوقهم ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك إذا خرجت .

فخلف له سعد ما قال الذى قالوا ورجع محمد بن مسلمة من فوره حتى إذا دنا من المدينة فنى زاده قبلتبع بلحاء الشجر ، فقدم على عمر فسأله فأخبره الخبر

كله فقال له هلا قبلت من سعد : فقال لو أردت ذلك كتبت لى به أو أذنت لى فيه : فقال عمر إن أكمل الرجال رأياً من إذا لم يكن عنده عهد من صاحبه عمل بالحزم أو قال به ولم ينكل .

وأخبره محمد بن يمين سعد وقوله فصدق سعداً وقال : هو أصدق من روى عليه وأبلغنى .

جاء فى كنز العمال عن حاصم بن أبى النجود أن عمر بن الخطاب كان إذا بعث عماله شرط عليهم أن لا تركبوا برذوناً ولا تأكلوا نقياً ولا تلبسوا رقيقاً ولا تغلقوا أبوابكم دون حوائج الناس . إن فعلتم شيئاً من ذلك فقد حلت بكم العقوبة . ثم يشيعهم فإذا أراد أن يرجع قال : لى لم أسلطكم على دماء المسلمين ، ولا على أعشارهم ولا على أبشارهم ^(١) ولا على أعراضهم ولا على أموالهم ولستكنى بعثكم لتقيموا بهم الصلاة ، وتقسموا فيهم فيهم ، وتحكموا بينهم بالعدل ، فإن أشكل عليكم شىء فارفعوه لى : ألا فلا تضر بوا العرب فتذلوها ولا تجمروها ^(٢) فتفتنوها ، ولا تعتلوا عليها فتحمروها جوّدوا القرآن : (وفى رواية) وأقلوا من الرواية .

وكان إذا بلغه عن أحد من عماله أمر يخل بالمروءة عزله فى الحال ، وفى المناقب لأبى الفرج بن الجوزى عن ابن سعد قال . كان عمر بن الخطاب استعمل النعمان بن فضالة على ميسان وكان يقول الشعر فقال :

ألا هل أتى الحسناء أن حليلها بميسان يسقى فى زجاج وحنتم
فى أبيات يقول فى ختامها :
لعل أمير المؤمنين يسوءه تنادمننا بالجوسق المتهدم

(١) كناية عن أجسامهم وأموالهم .

(٢) قال قى القاموس جره تجميرا جمه والقوم على الأمر تجمروا لى أن قال والجيش

حيسهم فى أرض العدو ولعله هو المراد .

فلما بلغ عمر قوله قال . نعم والله إنه ليسوءني من لقيه فليخبره أني قد عزلته ، فقدم عليه رجل من قومه فأخبره بعزله فقدم على عمر فقال والله ما أحب شيئاً مما قلت ولكن كنت امرأة شاعراً وجدت فضلاً من قول فقلت فيه الشعر فقال عمر والله لا تعمل لي على عمل ما بقيت ، وفي رواية عن عثمان الخراساني عن أبيه قال لما بلغ عمر بن الخطاب هذا الشعر كتب إلى النعمان ابن نضلة (بسم الله الرحمن الرحيم) «حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير» أما بعد فقد بلغني قولك :

لعلّ أمير المؤمنين يسوءه تنادينا بالجوسق المهتمدم
وأيام الله ليسوءني وعزله .

ومن عجيب سياسته مع العمال أنه كان يحصى أموالهم قبل العمل ، وما زاد بعده يصادرهم على كله أو بعضه ومن هذا ما رواه الطبري أن عمر استعمل عتبة بن أبي سفيان على كنانة ، فقدم المدينة بمال فقال له ما هذا يا عتبة قال مال خرجت به معي وتجرت فيه . قال ومالك تخرج المال معك في هذا الوجه فصيره في بيت المال .

وروي أن خالداً لما أدرب هو وعياض إلى بلاد الروم انتجعه من العراق رجال منهم الأشعث بن قيس فوصله بعشرة آلاف درهم فبلغ ذلك عمر فكتب إلى أبي عبيدة أن يحصى مال خالد ويصادره على النصف ، فدعاه وتلا عليه أمر أمير المؤمنين ويصادره على نصف ماله حتى الخفين أخذ منهما واحداً وترك له الآخر . وكان خالد بن الوليد أميراً على قنشرين من قبل أبي عبيدة لا من قبل عمر ، ففي رواية أخرى للطبري أن عمر كان لا يخفى عليه شيء في عمله ، فكتب إليه من العراق بخروج من خرج من الشام وبجائزة من أجز ، فدعا البريد وكتب معه إلى أبي عبيدة أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته

وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين أجاز الأشعث أمن ماله أم من إصابة أصابها (يعنى من المغنم) فإن زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقر بخيانة، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف وأعزله على كل حال واضمهم إليك عمله . فكتب أبو عبيدة إلى خالد فقدم عليه ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر فقام البريد فقال أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من إصابة فلم يجبه حتى أكثر عليه وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً فقام بلال (مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم) إليه فقال إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ثم تناول قلنسوته فعقله بعمامته ، وقال ما تقول أمن مالك أم من إصابة قال لا بل من مالى فأطلقه وأعاد قلنسوته ثم عممه بيده ، ثم قال (نسمع ونطيع لولا تنا وفتنهم ونخدم موالينا) وأقام خالد متحيراً لا يعلم أمعزول هو أم غير معزول وأبو عبيدة لا يخبره كرامة له ، وكان عمر لما أبطأ عليه الخبر علم بالذى كان فكتب إلى خالد بالقدوم عليه فعتب خالد على أبي عبيدة لأنه لم يعلمه بأمر عمر من قبل ، فقال أبو عبيدة لى والله ما كنت لأرورك ما وجدت لذلك بداً وقد علمت أن ذلك يروك . ثم إن خالد أرجع إلى قسرين فخطب أهل عمله وودعهم وتحمل ، ثم أقبل إلى حمص فخطبهم وودعهم ثم خرج نحو المدينة حتى قدم على عمر فشكاه وقال لقد شكوتك إلى المسلمين وبالله إنك فى أمرى غير بحمل (١) يا عمر ، فقال عمر من أين هذا الثرى . قال من الأنفال والسهمان ما زاد على الستين ألفاً فلك فقوم عمر عروضة (٢) فخرجت إليه عشرون ألفاً فأدخلها بيت المال ، ثم قال يا خالد والله إنك على لسكريم ، وإنك لى الحبيب ، ولن تعاتبى بعد اليوم على شىء . ثم إن عمر كتب إلى الأمصار لى لم أعزل خالد عن سخطه ولا خيانه ، ولكن الناس فتنوا به فخطب أن يوكلوا إليه ويبتلوا به فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وأن لا يكونوا بعرض (٣) فتنه .

(١) يحمل من أجل فى الطلب اتأد واعتدل ولم يفرط .

(٢) متاعه .

(٣) بطريق .

ويقال إنه عوضه عما أخذه منه وكتب إلى الناس . وهكذا أيضاً شاطر سعد بن أبي وقاص على ماله وشاطر أبا هريرة ، ولما أبى أن يشاطره ضربه وصادر غيرهم أيضاً ورد أموالهم لبيت المال . وهذا أمر لا يعجب من صدوره عن عمر رضى الله عنه على شهرته بالعدل لأنه لا بد أن يكون له في هذا رأى سديد ومرمى بعيد ، ولعل الحامل له على ذلك هو لأنه كان يرى أن هذا المال حق المسلمين فينبغي له أن يكون لعامة المسلمين حتى لا يتكاثر به الأغنياء ويتعالموا به على الفقراء ، ويدلنا على هذا مارواه ابن جرير الطبري في تاريخه عن السائب بن يزيد قال . سمعت عمر بن الخطاب يقول والله الذى لا إله إلا هو (قالها ثلاثاً) ما من أحد إلا له في هذا المال حق أعطيه أو منعه ، وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك وما أنا فيه إلا كأحدكم ولسكننا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والرجل وبلاؤه في الإسلام ، والرجل وقدمه في الإسلام ، والرجل وغناؤه (كفايته) في الإسلام ، والرجل وحاجته ، والله لأن بقيت ليأتين الراعى بجبل صنعاء حفظه من هذا المال وهو مكانه

وأخرج عن حبيب بن أبي وائل قال . قال عمر بن الخطاب لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين .

ولا يخفى على من له إلمام بأصول المذاهب الاشتراكية القائمة في هذا العصر في أوروبا أن من الأعراض التى ترمى إليها جعل الأموال حقاً يشترك فيه الناس من كل الطبقات ، والإسلام قد قرر قاعدة الاشتراك إلا أن بين مذهب الاشتراكيين ومذهب المسلمين فرقاً في أن المسلمين يعتبرون في هذا الحق في ثمرة رأس المال وهى الفضول ، وإن الاشتراكيين يعتبرونه في رأس المال نفسه وهو خطأ أدام إليه الإفراط والغلو .

وبالله لو علم أولئك الناس أن الإسلام قرر قاعدة الاشتراك على أصول الحق والعدل التي لا تصادم نواميس الاجتماع وأن أهله باتوا لا يعرفون شيئاً من هذه القاعدة ولا غيرها من القواعد التي تضمن سعادتهم الاجتماعية وحياتهم الملية لأخذتهم الحيرة من هذا الأمر ، وربما نبه قادتهم وزعماءهم إلى قبول الإسلام وجعله أساساً للسعادة التي ينشدونها للأنام واكتفوا في بث دعوتهم مؤنة المقاومة التي يلاقونها من أهل الجدل والخصام .

كلمة في الحرية والطاعة

أو الحكومة العسكرية والحكومة القانونية

أخذت على نفسي أن لا أغفل في هذا الكتاب خبراً يمر على القارىء من الأخبار التاريخية المهمة ما لم أردفه ببيان مفيد لاسيما فيما يرجع للأخلاق ويمثل صورة الفضائل والذائل ويفرق بين السعادة والشقاء ، وما ينبغي أن لا يفوتنا النظر فيه حادث خالد بن الوليد الذي هو أهم حادث في تاريخ الحرية العربية في الإسلام ، وكيف لا يكون كذلك وهو يمثل نتائج الحرية والعدل في صورة من السكال تنزل لها أقدام الظلم ، وتخضع أمامها قوى الكون البشرى الهابطة من أعلى عليين والصاعدة من أسفل سافلين ، ألا وهي الطاعة للرئيس والخضوع للقانون

الحرية فضيلة معناها تخلص الإنسان من الأسر وتملصه من ضيق الحجر وجواز تصرفه في كل حق من حقوق الإنسانية التي سوغها العقل وقضت بها أصول الاجتماع والتعاون ، بحيث يكون الإنسان مالكا لإرادته لابهيمة تتحرك بإرادة سواء مالكا لثمرة عمله لاحق لآخر بحرمانه منها ، مالكا لأنفسه لاسلطان لآخر في سلبه منه ، ومتى فقد الشخص واحدة من هذه

الثلاث سلب منه معنى الحرية وصار كالحيوان يتعب لئلا كل سواه ويشقى
ليسهل غيره ويسمى ليوت هو ويحيا من عداه .

ربما يتوهم أن الحرية بهذا المعنى هي الانطلاق عن كل قيد مادام ليس
لإرادة النفس على ما يعلم من حالها من قيد ، وليس الأمر كذلك إذ كما أن
التفريط بالحرية طرف للرديلة كذلك الإفراط فيها أيضاً وفي كلا الطرفين
رجوع للبهيمية وفقد لفضيلة الحرية ، وإنما هناك وسط ترجع إليه وقيد
تتقيد به بل قيدان وهما القيد النفسى والقيد الخارجى ، فأما القيد النفسى فهو
إما الزاجر الدينى وإما الفضيلة الذاتية ، والقيد الخارجى هو الوازع وليس
في كلا القيدين معنى للعبودية أو منع للحرية ، وإنما هو إمساك للنفس عن
الاندفاع مع تيار الهوى والشهوة الذى يلحق الإنسان بالبهائم ، ففي مطاوعة
الإرادة للزاجر النفسى مطاوعة للفضيلة ووقوف عند حد الإنسانية ، وفي
مطاوعتها للوازع مطاوعة للشرع وخضوع للقانون

الإنسان ميال بطبعه للسعادة إذا أرشد إلى ما وحث عليها ، والشرائع
إنما هي شرعة السعادة البشرية وقوام الحياة الاجتماعية ، فالوازع الذى يزع
الناس بالشرعية لا يحاول بما يزع به قهراً للنفوس ولا حجراً على الإرادة
بل يماشى الإرادة ويساعد النفوس على نيل السعادة ، لهذا فطاعة الوازع
من مستلزمات السعادة لا ياباها العقل ولا يهضم بها حق من حقوق الحرية
مادامت طاعته يراد بها طاعة القانون الذى هو أصل فى السعادة لاطاعة
الوازع نفسه من حيث كونه أمراً بهواه وشهواته لأموراً من القانون
ومهيماً عليه .

إذا تقرر هذا فاعلم أن الأمة العربية كانت فى جاهليتها على جانب من
الإغراق فى الحرية يكاد يكون إفراطاً فيها كما يعلم ذلك كل مطلع على تاريخ
هذه الأمة ، لأن حب الحرية خلق نأصل فى نفوسها منذ نشأت فى فضاء

البوادي المتسع مطلقة عن كل حجر . ومن هذا الإفراط نشأ ما يسمونه العصية ، ذلك لأنهم كانوا أشنأاً في التجزؤ إلى بطون وقبائل لا تجمعهم جامعة الجنس ، وليس ثمة وازع يضمهم إلى كلمة واحدة ، فكانوا يفزعون عند الحاجة إلى العصية بأن تتحد العشيرة الواحدة ضد الأخرى دفاعاً عن الحوزة وصدأ لغارة أو جلباً لمغنم ومع مافى هذا الأمر من ضعف النظام الاجتماعى وفقد الرابطة القانونية فإنهم كانوا به ولعين وعليه حريصين ، لأنه نتيجة مغالاتهم فى الحرية وحبيهم للانطلاق عن كل قيد . ولما جاء الإسلام ببيانه وبسط عليهم جناح حنانه وجمعهم على كلمته وضم شتيتهم إلى رايته كان من مبادئه الأولى فى النصيح والإرشاد تحذيرهم من التفرق وتعليمهم لأصول الطاعة وأمرهم بالخضوع إلى الوازع ليسكونوا يداً واحدة وقوة واحدة ، ومن ذلك قوله تعالى فى الكتاب الكريم « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ، وإنما أرادهم على الطاعة لأولى الأمر لأنها طاعة للشرع الذى فيه سعادتهم بردهم فى الحرية إلى حد الوسط بلا شطط عليهم فى التقييد ولا إرسال لهم منه ، ولا حمل لهم على طاعة الوازع لنفسه بل لما ينزعهم به من الشرع العادل يدلك على هذا قول أول خليفة فى الإسلام وهو أبو بكر رضى الله عنه فى إحدى خطبه التى مر ذكرها فى الجزء الأول « أطيعونى ما أطعت الله (فى تنفيذ أوامره) فيكم فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم » وقول الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف وإحضارى النصيحة وأعينونى على أنفسكم بالطاعة ، وقوله إنه لم يبلغ حق ذى حق « يعنى نفسه » أن يطاع فى معصية الله ، وكثير من أمثال هذا الكلام مما مر فى باب خطبه وغيرها من هذا الكتاب ، وإذ كانت البدأة أصلاً فى سلامة الفطرة وقبولها للخير وقد رأى القوم أن هناك نظاماً يضم أشنأت الأفكار إلى وجهة واحدة ويقوم بحراسة الحقوق قياماً يغنى عن العصية مع استبقاء ما ألفوه من الأصول الديمقراطية فى حالتهم الاجتماعية

لم تأنف نفوسهم السامية من مثل تلك الطاعة وخضعوا لحكم الإسلام واجتمعوا على الرضا بسيادة الخلفاء ومن ثم تعلم أن دولة المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين كان قيامها بالقانون لا بالقوة وحياتها بالشريعة لا بالسيف وبعبارة أوضح إنما كانت دولة قانونية تستند إلى الشرع الإلهي لتقوم ، لا دولة عسكرية تستند إلى القوة الجبرية لتسقط وتنحل ، وشتان بين دولة تستند إلى القانون الذي هو سيف لايفل حده وبين دولة تستند على قوة القهر التي لا تلبث أن تنف أو تنحل ، وتهوى بالدولة إلى حضيض الأضمحال وتعاجلها بالانحلال .

لما علمت الأمة العربية يومئذ أن الطاعة على ذلك الوجه ركن من أركان الحرية لا سبب لسلبها منهم ، وأن ليس فيها سلب لإرادتهم ولا قهر لنفوسهم ولا حيف عليهم ولا هضم لحقوقهم وأن ليس للوازع فوق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمر يراد به الاشتطاط عليهم والاستئثار بالأمر دونهم راضت لأولياء الأمر نفوسهم العاتية ولائت أخلاقهم الجافية فآلفوا طاعتهم في الحق ومعاونتهم على المعروف وإليك الدليل .

خالد بن الوليد من سادات قريش وابن عم عمر بن الخطاب وفي مرتبته في الشرف الذي انتهى إلى الرهط من قريش فوصله في الإسلام كما رأيت في صدر الجزء الأول من هذا الكتاب وخلا هذا فإنه كان محبوباً من المسلمين كبير الجاه عند الناس له من قلوب الجند مكانة ليست لسواه إذا أمر أطاعوا وإذا أشار قبلوا جاءه أمر أمير المؤمنين بالشخص إلى حيث يقيم أبو عبيدة فامتل ، وسئل فتردد وهابه أبو عبيدة وهو ابن عمه وأميره أن يأمر فيه بأمر الخليفة فقام إليه مولى (عبد) من موالى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزع عمامته عن رأسه وعقله بها وسأله ما سأله حتى أجاب فأعاد قلنسوته إلى رأسه وعممه بيده وقال نسمع ونطيع

لولاتنا (يعنى عمر) ونفخهم موالينا^(١) » يعنى خالداً ، هذا كله على مآل الناس ومشهد من عامة المسلمين فما الذى أسكت مثل هذا الأمير الجليل فى مثل هذا الموقف ، فلم ينتصر لنفسه ولم ينتصره أحد من المسلمين ، هذا على ما عرف به من علو النفس وإباء الضيم .

أسكته أمران : الأول : علمه أن لا يطاوع بسكوته وخضوعه هوى أمير المؤمنين ، بل يطاوع وجدانه ويطيع قانونه ودينه ، والأمر الثانى : علمه بأنه فيما صنع غير مسلوب الإرادة بقوة عمر رضى الله عنه ولا مغلوب له على أمره ، بل هو حر فى أن يناقشه الحساب ويسأله عن سبب ما صنع وينتصف لنفسه منه إذا اشتط عليه أو جار ، وقد كان ذلك كما رأيت وأنصفه عمر رضى الله عنه . ولولا أن يعلم خالد أن له سلطاناً فى نفسه يناقش به عمر وإرادة لا يغلبه عليها إلا الحق لاستحال على عمر أن يعامل مثله بتلك الشدة لما يعرفه فى القوم من حب الحرية واستقلال الإرادة وعزة النفوس ، وحسبك دليلاً على هذا أن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه لم يسعه بعد أن عامل خالداً بتلك المعاملة إلا أن يعتذر عما صنع للناس ويجهز بالسبب على مآل المسلمين دفعاً لشبه الضمائر ، وإعلاناً لسلامة حريتهم من مساس القوة والحجر وذلك أنه قام يوماً فخطب فيهم خطبة فى شأن العطاء : رواها ابن الجوزى فى المناقب قال فى آخرها :

وإنى أعتذر إليكم من خالد بن الوليد فإنى أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين ، فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان فنزعته وأمرت أبا عبيدة بن الجراح .

(١) المولى : يطلق على السيد وعلى العبد .

فقام أبو عمرو بن حفص بن المغيرة (ابن عم خالد) فقال والله ما اعتذرت
يا عمر ، ولقد نزلت عاملاً استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعمدت
سيفاً سله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووضعت أمراً نصه رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وقطعت رحماً وحسدت ابن العم .

فقال عمر رضى الله عنه إنك قريب القرابة حديث السن مغضب في
ابن عمك ، ثم نزل ولم يزد على أن رد عليه رداً جميلاً .

وهذا نهاية ما يقال في إطلاق الحرية للرعية يناقشون بها عن أنفسهم
ويكفون الأيدي عن حقوقهم ، ومع وصول العرب إلى هذا الحد من
الجرأة في الرد على مثل عمر بن الخطاب ومناقشته الحساب ، فإنهم كانوا
أطوع له من بنائه ، لعلمهم بأنهم إنما يطيعون بطاعته الله والرسول في الشرع
الذى كان عمر منفذاً له مهيمناً عليه ، ولو كانت الحكومة ثمة حكومة
عسكرية لكان خالد أول من لجأ إلى القوة وضرب بجيوشه وجه
الدولة وناصب خليفة المسلمين العداوة وتوثب على الخلافة ، ومعاذ الله
أن يحدث خالد نفسه بشيء من ذلك ما دام لا أمر يومئذ للقوة ، وإنما
كان الأمر الناهى عند سائر المسلمين هو الشرع والوجدان لا القوة
ولا الرئاسة ، ولقد بلغ فريق من المسلمين في دولة الخلفاء الراشدين وغلوهم
في الخضوع للوجدان والشرع دون الوازع وهم الحرورية وغيرهم من
فرق الخوارج ، أن قالوا العلي رضى الله عنه قولهم المشهور « لا حكم
إلا لله » وتغالوا في هذا القول حتى أنكروا لزوم الخلافة وسفكوا
دماء آلاف من الناس في سبيل معتقدهم الشاذ حتى أفضى الأمر إلى
فنائهم كما سترى بعد .

إذا تمهد هذا علمنا أن حكومة الخلفاء الراشدين قامت على دعامة الشريعة
لا القوة ، وكانت حكومة دستورية لا عسكرية ، وأن الحرية لازم من لوازم
الطاعة وسبب متين يتوصل به إلى السعادة وشد عرى الصلة والاتفاق بين

الحاكم والمحكوم ، لهذا كانت دولة الخلفاء الراشدين من أعظم الدول قياماً على الحق والحرية والعدل ، وبلغ المسلمون على عهدنا مبلغاً من القوة والغنى وقهر الأمم وفل جيوش الدول ما عهد مثله في تاريخ دولة قبلهم ولا بعدهم قط ، ومنذ اختلط العرب بالأعاجم وابتدعوا في أطراف البلاد وتفرقوا على قلوبهم في الممالك وضعفت عصبيتهم عن مقاومة أعداء الحرية من المتوثبين على الخلافة والدخلاء في دولتهم من الأمم الأخرى الذين ألفوا الاستعباد وفطروا على حب الاستبداد وانحطت دول الإسلام عن مقامها وأخذت بالتقهقر في سيرها وانقطعت صلة الاتفاق بينها وبين رعيتهما فأصبحت ورعيتها على طرفي نقيض تريدنهم على الخضوع طوى الأمراء وشهواتهم ويريدونها على العدل والاستقامة واتباع الشرع والقانون ، وهذا خطب عظيم إذا صال أمره والعياذ بالله في أمة دمرها تدميراً ، إذ لا يزال يضرب الأمراء عقلاءها بجحلاتها وفضلاءها بسفهاها حتى يفنى الفريقان كما فنيت أمة الرومان واليونان وعرب المسلمين ، هذا إذا أبقى الاستبداد لأفراد الأمة أفئدة تهوى إلى الحرية ونفوساً تطلب النزوع إلى الحياة الطيبة والرقى إلى مرتبة الإنسانية ، وأما إذا بلغ الاستبداد من عامة الأمة مبلغه فأصابها الفالج العام الذي يصيب الأمم في أواخر عهدها فيذهب بقواها ويميت أعضائها عن الحركة وعقولها عن الإدراك فدمارها يكون بيد غيرها لا بيدها والمآل إلى هذا أشنع والموت بيد المتغلبين أفظع ، وحسبك دليلاً على هذا ما يقاسيه المسلمون من ضروب القهر والشقاء من بعض الدول الأوروبية التي آل إليها لذلك السبب ملك المسلمين وتسلطت على أقوام كثيرين منهم ولو كان ثمة قوم لهم قلوب يفقهون بها وآذان يسمعون بها فإذا ذكروا يذكرون لما خنعوا لهذا الاستعباد ولكانوا أنداد الأمم الأوروبية في مضمار المنافسة الحيوية ولكن يا حرفة الفؤاد قومنا في واد والغريون في واد .

مفهوم الناس على الكسب :

الإنسان مدني بالطبع يتعاون على العمل ويتبادل مع أخيه العوض والعوض إنما هو ثمرة العمل ، فكل يعمل للآخر ليبدله العوض ، ورب صنعة يتعاون عليها جمع من الناس كل فرد منهم يشتغل بفرع منها ، فإذا ترك أحدهم نصيبه من العمل بذلك الفرع خسر الكل لهذا كان أس الحياة الاجتماعية وأصلها الكسب ، وليس في الوجود شرع ينهى عن الكسب بل كل الشرائع تأمر به ، ولو مع الرفق في الطلب ، والإسلام من الشرائع التي حثمت السعي للرزق وأمرت بالكسب، إلا أنه أمر بالرفق في الطلب والتوكل على الله مع السعي ليسكون الرجاء بالكسب أقوى والقناعة لجرثومة اليأس أقطع ، والعزيمة على السعي أمضى ، وإذا كان عمر رضى الله عنه أعلم الصحابة بالدين وأفقههم فيه وخشى أن يلبس نفوس العامة شيء من ظواهر الآيات التي أمرت بالتوكل والقصد ورأى بعضهم حمل معنى التوكل على حمل الزهد وترك السعي جعل دأبه حض الناس على السعي وحثهم على العمل والكسب ، ومن ذلك ما جاء في كنز العمال عن معاوية بن قرة قال : لقي عمر بن الخطاب ناساً من أهل اليمن فقال ما أنتم فقالوا متوكلون : فقال كذبتُم ما أنتم متوكلون إنما المتوكل رجل ألقى حبه في الأرض وتوكل على الله ، وفي المناقب لأبي الفرج بن الجوزي عن محمد بن سيرين عن أبيه قال شهدت مع عمر بن الخطاب المغرب فأتى على ومعي وزيمة^(١) لي فقال ما هذا معك فقلت وزيمة لي أقوم في هذا السوق فأشتري وأبيع ، فقال يا معشر قريش لا يغلبنكم هذا وأشباهه على التجارة فإنها ثلث الإمارة .

وفيه عن حوالب التيمي قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه يا معشر

(١) تصغير رزيمة وهي الكارة من الثياب .

القراء ارفعوا رءوسكم فقد وضح الطريق واستبقوا الخيرات ، ولا تكونوا عيالا على المسلمين .

وفيه عن الحسن قال : قال عمر رضى الله عنه من تاجر في شيء ثلاث مرات فلم يصب فيه شيئا فليتحول إلى غيره .

وفيه عن الأكيذر العارض قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه تعلموا المهنة فإنه يوشك أن يحتاج أحدكم إلى مهنة .

وفي كنز العمال عن عمر قال : لولا هذه البيوع صرتم عالة على الناس .
وفي المناقب عن بكر بن عبد الله قال : قال عمر مكسبة فيها بعض الدناءة خير من مسألة الناس .

وفيه عن ذكوان قال : قال عمر إذا اشتري أحدكم جملا فليشتريه عظيما سميئاً فإن أخطأه خيره لم يخطئه سوقة .

وفيه عن محمد بن عاصم قال : بلغني أن عمر بن الخطاب كان إذا رأى فقي فأعجبه حاله سأل عنه هل له حرفة فإن قيل لا سقط من عينه .

وفي العقد : قال عمر بن الخطاب لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وإن الله تعالى إنما يرزق الناس بعضهم من بعض ، وتلا قول الله جل وعلا (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) .

وفيه : قال عمر بن الخطاب يا معشر القراء التمسوا الرزق ولا تكونوا عالة على الناس .

وفيه قال : عمر بن الخطاب حسب الرجل ماله وكرمه دينه ومروءته خلقه .

نهيهم عن التنطع وتمزيقه من الابتداع :

الإسلام دين السر ودين الفطرة يأمر بالاعتدال في كل الأعمال حتى العبادة ، وينهى عن التنطع الناشئ عن التوسع والابتداع ، ولم يكن العرب على صلابتهم في الدين يعرفون هذا التنطع الذي ابتدعه الأعاجم بعد لعدم توسعهم في التأويل ووقوفهم عند ظاهر الشرع .

لهذا لما انتشر الإسلام في أنحاء الأرض وعم سائر الشعوب في دولة الخلفاء الأمويين والعباسيين ، وأكثر الأعاجم من الابتداع وغالوا بالتنطع والتشدد بما ليس من الدين كان يعيبهم العرب على ذلك ويهزءون بهم ويتباعدون عن بدعهم ، فقد ذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد عن الأصمعي قال : قدم أبو مهدية الأعرجي من البادية فقال له رجل يا أبا مهدية أتتوضئون بالبادية ، قال والله يا بن أخي لقد كنا نتوضأ فتسكفينا التوضئة الواحدة ثلاثة أيام والأربعة حتى دخلت علينا هذه الجراء (وهي الموالى من الأعاجم) فجعلت تليق استأها بالماء كما تلاق الدواة .

ولما أراد بقوله فتسكفينا التوضئة الواحدة الخ الإغراق بالتهكم على تنطع الأعاجم لا أنهم (أي العرب) كانوا حقيقة يفعلون ذلك بالوضوء معاذ الله أن يكون في هذه المرتبة من التهاون بالفرائض ، وهم أبناء أولئك الذين نشروا هذا الدين وعلى عهدهم أنزل القرآن ،

ومن هذا تعلم أن التنطع أمر لا يريده الدين وإنما كان منشؤه الابتداع والتوسع ، ومن هذا القبيل توسعهم في حديث السواك وهو (لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك) ومع أن الحديث يتضمن النذب والاستحباب فقد كاد بعضهم ينزله منزلة الواجب وكتبوا فصولاً وأبواباً مخصوصة في فوائده واستعماله وحمله إلى آخر ما قالوه في شأنه مما لم يكن منشؤه إلا التنطع حتى فيما ليس من الدين .

كان من الصحابة نفرولعوا بالعبادة وانقطعوا إلى التهجّد لكن بما لا يخرج عما جاء به الكتاب ورأوه من نبيهم عليه الصلاة والسلام ، نخشى عمر أن يسرى إلى العامة حب الانقطاع إلى العبادة والتنطع في الدين فينشأ عن ذلك تعطيل لوظائف الاجتماع الدنيوية وتوسع في التأويل وتجروّ على الابتداع فجعل ينهى الناس عن التنطع ويحذرهم من الابتداع ، ومن نهي عن التنطع ما أخرجه أبو الفرج بن الجوزي عن محمد بن عبد الله القرشي عن أبيه قال : نظر عمر إلى شاب قد نكس رأسه فقال له يا هذا ارفع رأسك فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما في قلبه فإنما أظهر للناس نفاقاً على نفاق .

وأخرج عن أبي عمرو الشيباني قال : خبر عمر بن الخطاب برجل يصوم الدهر فجعل يضربه بمخففته وجعل يقول كل يادهر كل يادهر .

وعن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : كنت جالساً عند عمر رضي الله عنه إذ جاءه راكب من أهل الشام فطفق يسأله عن حالهم فقال : هل تعجل أهل الشام الإفطار . قال نعم . قال لن يزالوا بخير ما فعلوا ذلك ولم ينتظروا النجوم انتظار أهل العراق .

وعن محمد بن سيرين أن عمر بن الخطاب خرج من الخلاء يقرأ القرآن فقال له أبو مريم يا أمير المؤمنين أتقرأ القرآن وأنت غير طاهر : فقال له مسلمة (هكذا) أمرك بهذا .

وأما تحذيره من الابتداع فقد أخرج الإمام أبو الفرج أيضاً عن عابس بن ربيعة قال : رأيت عمر نظر إلى الحجر فقال : أما والله لولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك ثم قبله .

وعن عبد الله بن سرجيس قال : كان الأصمعي (يعني عمر) إذا استلم الحجر قال : إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك .

وعن نافع قال : كان الناس يأتون الشجرة التي بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحتها بيعة الرضوان فيصلون عندها فبلغ ذلك عمر فأوعدهم فيها وأمر بها فقطعت : وهذا الأثر يوافق ما قدمناه في فصل (لا وثنية في الإسلام) .

وليت عمر يأتى في هذا العصر بدرته وسيفه وينظر إلى مصير صار إليه المسلمون من تقديس الأحجار والأشجار وإذا كانت تلك شجرة واحدة وبويع تحتها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعندنا الآن عدد لا يحصى من الأشجار كالجيز في مصر والميس والزيتون في الشام وهي من التي كانت تعتبر مقدسة عند الوثنيين القدماء فقدس عوام المسلمين بعضها بحجة أن هذه دفن تحتها فلان الصالح ، وتلك لمسها فلان الشيخ ، إلى غير ذلك من الأعذار التي ينتحلونها بعقولهم القاصرة عن مرتبة التوحيد التي وضع الله فيها مثل أبي بكر وعمر فإننا لله وإننا إليه راجعون .

وأخرج عن عمرو بن ميمون عن أبيه قال : أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجل فقال : يا أمير المؤمنين إنا لما فتحنا المدائن أصبت كتاباً فيه كلام معجب : قال أمن كتاب الله : قال لا فدعا بالدرة فجعل يضربه بها ويقول (الر تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) إلى قوله تعالى : « وإن كنتم من قبله لمن الغافلين » : ثم قال إنما أهلك من كان قبلكم أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم وتركوا التوراة والإنجيل حتى درسوا وذهب ما فيهما من العلم .

أدبه وتأديبه

أدبه مع رسول الله :

تقدم معنا في باب صحبته كلام على أدبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحببه له وقيامه دائماً بين يديه يغني عن الإسهاب في هذا الباب ، وحسبه أدباً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تفانيه في حبه تفانياً أذهله عن حقيقة موته فقال في ذلك اليوم (من قال إن محمداً قد مات علوت رأسه بسيفي هذا) والقصة طويلة مر معنا في هذا الكتاب ملخصها .

أدبه مع نفسه

عن أنس قال دخلت حائطاً (بستاناً) فسمعت عمر يقول ويثني وبينه جدار : عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بحجج والله لمتقين الله ابن الخطاب أو ليعذبك الله .

وقال السيوطي قال عبد الرحمن بن عامر بن ربيعة رأيت عمر أخذ تبنة من الأرض فقال ياليتني كنت هذه التبنة ، ياليتني لم أك شيئاً ، ليت أمي لم تلدني . وعن سفيان بن عيينة قال : قال عمر بن الخطاب أحب الناس إلى من رفع إلى عيوبي . وأخرج الطبري عن سلمان أن عمر قال له أملك أنا أم خليفة فقال له سلمان إن جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر ثم وضعته في غير حقه فأنت ملك غير خليفة فبكى عمر : ولشد ما كان وأبو بكر يهربان من صفات الملوك ويقومان بحقوق الخلافة خوف الاتسام بسمة الملوك الجبارين التي يأبأها الإسلام ، وتنهى عنها شريعة محمد عليه الصلاة والسلام .

تأديبه لنفسه

كان عمر رضى الله عنه شديداً على الناس سريع العقوبة يتناول المسيء

بالدرة التي قيل فيها « لدرة عمر أهيب من سيوفكم » ، ومع هذا فقد كان سريع الإنابة رقيق القلب لا يلبث أن يعاقب حتى يندم لطهارة وجدانه وسلامة قصده .

أخرج الحافظ عز الدين الجزري في أسد الغابة عن أبي غنية يحيى بن عبد الملك بن سلامة بن صبيح التيمي قال : قال الأحنف بن قيس : كنت مع عمر بن الخطاب فلقيه رجل ، فقال يا أمير المؤمنين انطلق معي فأعذني على فلان فإنه قد ظلمني ، فرفع عمر الدرة فحقق بها رأسه : فقال : تدعون أمير المؤمنين وهو معرض لكم حتى إذا شغل في أمر من أمور المسلمين أتيتموه أعذني أعذني : قال فانصرف الرجل وهو يتنذر قال « أي عمر » على الرجل « أي ردوه علي » ، فألقى إليه المخفقة ، وقال امثل « أي اقتص بمثل الضربة » فقال لا والله ، ولكن أدعها لله ولك : قال ليس هكذا إما أن تدعها لله إرادة ما عنده أو تدعها لي فأعلم ذلك : قال أدعها لله : قال « أي الأحنف » فانصرف ثم جاء يمشي حتى دخل منزله ونحن معه فصلى ركعتين وجلس فقال : « يخاطب نفسه » يا بن الخطاب كنت وضيعاً فرفعك الله ، وكنت ضالاً فهداك الله ، وكنت ذليلاً فأعزك الله ، ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل يستعذك فضربته ما تقول لربك غدا إذا أتيتته : قال فجعل يعاتب نفسه في ذلك معاتبة حتى ظننا أنه خير أهل الأرض .

وأخرج ابن جرير في تاريخه عن إياس بن سلمة عن أبيه قال : مر عمر بن الخطاب رضى الله عنه في السوق ومعه الدرة فحققني بها خفقة فأصاب طرف ثوبي فقط أمتط عن الطريق فلما كان في العام المقبل لقيني فقال . يا سلمة تريد الحج ، فقلت نعم فأخذ بيدي فانطلق بي إلى منزله فأعطاني ستائة درهم ، وقال استعن بها على حجك ، واعلم أنها بالمخفقة التي خفقتك ، قلت يا أمير المؤمنين ما ذكرتها قال : وأنا ما نسيتها ؛

هذه هي الفضيلة وذلك هو الوجدان الحساس الذي جعل ذلك الخليفة العظيم يطلب العفو من شخص عن خفقة أصابت ثوبه لم يقصد بها أذاه ، وإنما قصد تنبيهه إلى كشف الأذى عن طريق الناس ، والله أعلم بما عانى من القلق ريثما آن وأوان الحج ووجد سبيلا لاسترضاء ذلك المسلم عنه وطلب الصفح منه ، مع أنه خليفة المسلمين الذي أنيط به العقاب فعاقب بمعروف ولم يتجاوز في مس طرف الثوب بدرته حد التنبيه إلى إلماطة الضرر عن الطريق ، فأين هذا الإنصاف والرحمة من جبروت الخلفاء والسلاطين الذين بسطوا يد القوة بعد على الناس وتحكموا فيهم تحكم المالك في العبيد لا رحمة تشفع ولا جاء ينفع ولا فضيلة تمنع ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

تأديب المسلمين

بلغ برأفة عمر بالمسلمين وحملهم على الطريق الواضحة وتأديبه بآداب النبوة ، أن كان إذا أراد تنبيههم إلى أمر نافع وصرفهم عن أمر ضار يتقدم إلى أهله بذلك التنبيه ليكون قدوة الناس وأسوة المسلمين في التأديب ، ومن ذلك ما أخرجه ابن جرير في تاريخه عن سالم وابن عساكر في تاريخه عن ابن عمر قال كان عمر إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله فقال : إني نهيت الناس عن كذا وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم ، واقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة لمساكنة مني .

وروى عن عكرمة بن خالد قال دخل ابن عمر بن الخطاب عليه وقد أترجل ولبس ثياباً حسناً فضربه عمر بالدرة حتى أبكاه فقالت له حفصة لم ضربته قال رأيت أنه قد أعجبته نفسه فأحببت أن أصغرها إليه .

ومن أخباره في التأديب التي تدل على عظيم رحمته وحنانه وشدة

عقوبته لغلاظ القلوب ما جاء في كنز العمال عن أبي عثمان النهدي قال :
استعمل عمر بن الخطاب رجلاً من بني أسد على عمل نجاء يأخذ عهده فأتى
عمر ببعض ولده فقبله ، فقال الأسدي : أتقبل هذا يا أمير المؤمنين والله
ما قبلت ولداً قط : قال عمر فأنت والله بالناس أقل رحمة هات عهدنا لا تعمل
لى عملاً أبداً : فرد عهده .

جوزى هذا العامل بالعزل والإبعاد بتأتاً عن العمل « التوظيف » لكلمة
قالها لعمر رضى الله عنه أحس منها عمر بغلظة فؤاده فخشي إن هو عهد إليه
بالعمل أن يكون فظاً غليظ القلب على الرعية فعزله : فهل كان للأمراء
والسلاطين من بعده بصر يبصرون به أو سمع يسمعون به ، فيعلموا أن عمر
ابن الخطاب الذى أُرهب أبناء الحرية وصناديد العرب وسادات قریش
واستخضع لحكمه الفرس والروم الصابئة منهم وأهل الكتاب فكانوا كلهم
بالسمع والطاعة له سواء ، إنما ساسهم بمثل هذه السياسة وكان بهم رءوفاً
كرأفة الوالد بالبنين ، وعليهم عطوفاً ، كعطف الموضع على الطفل .

أجل كان منهم من علم ذلك وعمل به وهم الخيرة الطيبون الذين ساسوا
وعمروا ، وجاء غيرهم فخرّبوا ودمروا فكانوا صواعق من العذاب انقضت
على المسلمين فقضت على ماشيده غيرهم بالدمار وشوّشت نظام الملك وقتلت
العقول وجردت سيوف الاستبداد على الأمة فأعدمته رشدها وأفسدت
أخلاقيها ، وذهبت بعلمها وطأمت من أشرافها وأفقدتها عزها وشممها
فأذلّتها ذلاً هائلاً أولاء نشاهد نتائجه الآن بالعيان حيث ن ظلم ونهان
من كل إنسان وليس فينا روح تدب ، ولا نائم يهب ، بل كلنا أموات
يحسبنا العالم المتمدين من الرفات قلوبنا متفرقة وأهواؤنا شتى ونفوسنا
خامدة إلا عن السفاسف وخطانا قاصرة إلا عن أماكن الفساد وشأننا كله
شأن من رضى بالذل وانغمس في الجهل واستسلم للقضاء حتى ساعة الفناء ، قلت :

ومن ينم عن شؤون كلها خطر فليس يخطئ من ينعيه للناس
ومن تأديبه لأشراف قريش وقهره لنفوسهم مع ما عرفوا به من الكبرياء
والسيادة مارواه ابن الجوزي عن الحسن قال حضر باب عمر رضى الله عنه
سهيل بن عمرو بن الحرث بن هشام وأبوسفيان بن حرب في نفر من قريش
من تلك الرءوس ، وصهيب وبلال وتلك الموالى الذين شهدوا بدرأ فخرج
إذن عمر فأذن لهم (أى للموالى) وترك أولئك ، فقال أبوسفيان لم أر
كاليوم قط يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابهم لا يلتفت إلينا : فقال سهيل
ابن عمرو وكان رجلاً عاقلاً أيها القوم لاني والله أرى الذي في وجوهكم
إن كنتم غضاباً فأغضبوا على أنفسكم دعى القوم ودعيت فأمروا وأبطأتم
فكيف بكم إذا دعوا على أنفسكم يوم القيامة وتركتم : وكان هذا شأنه
رضى الله عنه مع كبار قريش الذين تأخر إسلامهم إلى ما بعد الفتح ، أخرج
أبو الفرج أيضاً عن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي حاطب عن أبيه قال قدمنا
مكة فأقبل أهل مكة يسعون ، يا أمير المؤمنين أبوسفيان حبس مسيل الماء
علينا ليهدم منازلنا ، فأقبل عمر ومعه الدرة فإذا أبوسفيان قد نصب أحجاراً
فقال ارفع هذا فرفعه ثم قال وهذا وهذا حتى رفع أحجاراً كثيرة خمسة
أو ستة ، ثم استقبل عمر الكعبة فقال الحمد لله الذي جعل عمر يأمر أباسفيان
ببطن مكة فيطيعه ، ومن علم ما هي سلطة أبي سفيان بمكة ، وكيف كان تحكم
قريش في رقاب الناس علم فضل الإسلام في تأسيسه قاعدة المساواة وعدله
بين الناس ومحوه آثار التفاضل بالأنساب ، ومن أخباره في التأديب ما نقله
في العقد الفريد أن عمر رضى الله عنه قال لرجل من سيد قومك : قال أنا :
قال كذبت لو كنت كذلك لم تقله .

أدب مع المسلمين ونواضع لهم :

إذا أردت أن تعلم أدب الرجال العظام الذين رفع الله نفوسهم

لا بالكبرياء وسودهم على الأمم لا بالخطيئة والتجبر ، وحبيهم إلى الناس لا بالخيلة فاسمع ما أخرجه الطبري في تاريخه عن الحسن قال : قال عمر إذا كنت في منزلة تسعى وتعجز الناس فوالله ما تلك لي بمنزلة حتى أكون أسوة للناس .

هذا الخليفة العظيم الذي دوخ ملك فارس والروم وأرعبت سطوته الأمم ، وامتد ظل سلطانه إلى حدود الهند شرقاً وأفريقيا الشمالية غرباً ، ومنحه الله هذا الملك العريض والسلطان العظيم ، لا يرضى لنفسه منزلة فوق منزلة الناس حتى من أدنى رعاياه ، إن هذا هو العدل الذي ليس فوقه عدل ولا جرم ، فبمثل ذلك عظم قدره وشاع ذكره وملا الأذهان خبره ، حتى عده المؤرخون من أعظم رجال الإسلام وحتى إننا لنفتخر به على ملوك الأرض فرضى الله عنه وأرضاه .

ومن تواضعه ما أخرجه الطبري عن ابن أبي سليمان عن أبيه : قال قدمت المدينة فدخلت داراً من دورها فإذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه عليه إزار قطري يدهن إبل الصدقة بالقطران .

وأخرج عن زهير بن سالم أن كعب الأحبار قال : نزلت على رجل يقال له مالك وكان جاراً لعمر بن الخطاب فقلت له كيف الدخول على أمير المؤمنين : فقال ليس عليه باب ولا حجاب يصلى الصلاة ثم يقعد فيكلمه الناس .

وفي المناقب عن الحسن رضى الله عنه قال كان بين عمر بن الخطاب وبين رجل كلام في شيء ، فقال له الرجل اتق الله فقال رجل من القوم أتقول لأمر المؤمنين اتق الله فقال له عمر دعه فليقلها لي نعم ما قال لا خير فيكم إذا لم تقولوها ولا خير فينا إذا لم نقبلها .

وليس قول عمر هذا من قبيل التواضع فقط ، بل هو من قبيل العلم
بوجوب النصيحة على المسلمين وبوجوب انتصاح الإمام منهم ورضاهم بنصحهم
وتذكيرهم له بالتقوى والعدل وذكر أرباب السير أن عمر رضى الله عنه كان
أيام القادسية شديد التطلع إلى أخبار جيوش المسلمين كثير الاهتمام بأمرهم
فكان يخرج كل يوم خارج المدينة يتربص الأخبار ويتنسمها ثم يرجع إلى
أهله ، فلما لقيه البشير سأله من أين ، فأخبره ، فقال يا عبد الله حدثني ، قال
هزم الله العدو : وعمر يحب معه ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه ،
حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين ، فقال الرجل :
فها أخبرني رحمك الله أنك أمير المؤمنين وجعل عمر يقول لا عليك يا أخى .

وذكروا أن عمر لما قدم الشام عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره
وخلع نعليه فأمسكهما بيده فخاض الماء ومعه بعيره ، فقال له أبو عبيدة
رضى الله عنه قد صنعت صنيعاً عظيماً عند أهل الأرض (يعنى أهل الشام) ،
فصك عمر فى صدره وقال أو اه لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة ، إنكم كنتم أذل
الناس وأحققر الناس وأقل الناس فأعزكم الله بالإسلام ، فهما تطلبوا العزة
بغير الله يذلكم الله

وروى الطبرى أن عمر لما قدم الشام فى أيام الطاعون اتخذ أيلة طريقاً
حتى إذا دنا منها تنحى عن الطريق واتبعه غلامه فنزل فبال ، ثم عاد فركب
بعير غلامه وعلى رحله فرو مقلوب وأعطى غلامه مركبه ، فلما تلقاه أوائل
الناس قالوا أين أمير المؤمنين : قال أمامكم يعنى نفسه وذهبوا هم إلى إمامهم
فجازوه حتى انتهى هو إلى أيلة فنزلها وقيل للمتقين قد دخل أمير المؤمنين
أيلة ونزلها فرجعوا إليه (وذلك لأنه لما قال لهم إمامكم ، وعنى نفسه لم
يعرفوه وظنوا أنه يشير إلى أن الأمير غيره وقد تقدمه إلى الإمام)

وروى عن مولى لعثمان بن عفان رضى الله عنه قال كنت رديفاً لعثمان

ابن عفان حتى أتى على حظيرة الصدقة في يوم شديد الحر شديد السموم ، فإذا رجل عليه إزار ورداء قد لف رأسه برداء يطرد الإبل يدخلها الحظيرة حظيرة إبل الصدقة فقال عثمان من ترى هذا ، قال فاقتهينا إليه فإذا هو عمر ابن الخطاب : فقال هذا والله القوي الأمين .

وفي كنز العمال عن الفضل بن عميرة أن الأحنف بن قيس قدم على عمر بن الخطاب في وفد من العراق قدموا عليه في يوم صائف شديد الحر وهو محتجز^(١) بعباءة يهنا^(٢) بعيراً من إبل الصدقة ، فقال يا أحنف ضع ثيابك وهلم فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير فإنه من إبل الصدقة ، فيه حق اليتيم والأرملة والمسكين ، فقال رجل يغفر الله لك يا أمير المؤمنين فهلاً تأمر عبداً من عبيد الصدقة يكفيك هذا : فقال عمر : يا بن فلانة وأى عبد هو أعبد مني ومن الأحنف هذا ، إنه من ولى أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده من النصيحة وأداء الأمانة في الإدارة .

تالله إن هذا خلقي يعلو بصاحبه عن وصف الواصفين ومرتبة لا يبلغها أحد من الخلفاء والسلاطين ، ومن يعد نفسه عبداً للرعية إذا ملسها وخادماً لها إذا أمرته عليها ويقوم على خدمتها قيسام التابع على خدمة المتبوع في جزئيات أمورها وكليات سياستها لجدير به أن يقال هذا ملك كريم لا ملك عظيم ، وحقيق بمثله الافتخار وعليه البكاء وإلى مثله الحنين ، ولا مثل لعمر جباراً على الظالمين رحباً بالمستضعفين قوياً على الحق كريماً على الناس ، باراً بالرعية يتعب لتستريح ، ويسهر لتنام ، ويجوع لتشبع ، ويفتقر لتستغنى فنسأل الله له الرحمة والرضوان ، كما نسأله لأنفسنا العافية من الظلم والسلامة من عاقبة الجور ، إنه يجيب السؤال .

(١) ملف . (٢) ينحى .

اهتمامهم بأمور الرعية (وعصمه بالليل) :

كان عمر رضى الله عنه من حرصه على راحة الرعية ، يتفقدهم بنفسه ويهتم بشئونهم أكثر من اهتمامه بشؤون بيته ، وبلغ ذلك به أن كان لا ينام عنهم بالليل كما كان لا يغفل عنهم ساعة من نهار ، فليله ونهاره فى خدمة الرعية سواء إذ كان أكثر لياليه يعس بالمدينة بنفسه ويرتاد منازل المسلمين ويتفقد أحوالهم شأن الأمراء الذين يعرفون أنهم بما فوض إليهم من أمر الهمينة على القانون خدام للرعية مسئولون عن راحة الأمة وسعادتها لا أن الرعية خدام لهم عبيد لشهواتهم .

روى الطبرى فى تاريخه عن أبى بكر بن عبد الله المزنى : قال جاء عمر بن الخطاب إلى باب عبد الرحمن بن عوف فضر به فجاءت المرأة ففتحت له ، ثم قالت له لا تدخل حتى أدخل البيت وأجلس مجلسى فلم يدخل حتى جلست ، ثم قالت ادخل فدخل ثم قال هل من شىء فأتته بطعام فأكل وعبد الرحمن قائم يصلى : فقال له تجوز أيها الرجل فسلم عبد الرحمن حينئذ ثم أقبل عليه فقال : ما جاء بك فى هذه الساعة يا أمير المؤمنين : قال رفقة نزلت فى ناحية السوق خشيت عليهم سراق المدينة فانطلق فلنحرسهم : فانطلقا فأتيا السوق فقعدا على نشز (مرتفع) من الأرض يتحدثان فرفع لهما مصباح فقال عمر ألم أنه عن المصاييح بعد النوم : فانطلقا فإذا هم قوم على شراب لهم : فقال انطلق فقد عرفته فلما أصبح أرسل إليه فقال يا فلان كنت وأصحابك البارحة على شراب : قال وما علمك يا أمير المؤمنين : قال شىء شهدته : قال أو لم ينهك الله عن التجسس : قال فتجاوز عنه .

قال بكر بن عبد الله وإنما نهى عمر عن المصاييح لأن الفأرة تأخذ القميلة فترمى بها فى سقف البيت فيحترق وكان إذ ذاك سقف البيت من الجريد .

وأخرج عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : خرجت مع عمر بن الخطاب (٢٧ — أشهر مشاهد الإسلام)

إلى حرة حتى إذا كنا بصرار إذا نازت تورث (تتقد) فقال : يا أسلم إني أرى هؤلاء ركباً قصر بهم الليل والبرد انطلق بنا ، نخرجنا نهرول حتى دنونا منهم فإذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون (يتصايحون) فقال : عمر السلام عليكم يا أصحاب الضوء ، وكره أن يقول يا أصحاب النار ، قالت وعليك السلام : قال أدنو قالت أدن بخير أودع . فدنا فقال ما بال هؤلاء الصبية يتضاغون : قالت الجوع ، قال وأى شيء في هذه القدر : قالت ما أسكتهم به حتى يناموا : الله بيننا وبين عمر : قال أى رحمة الله ما يدرى عمر بكم : قالت يتولى أمرنا ويغفل عنا : فأقبل على (أى على أسلم) فقال انطلق بنا نخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق ، فأخرج عدلا فيه كبة شحم ، فقال أحمله علىّ فقلت أنا أحمله عنك قال أحمله علىّ مرتين أو ثلاثاً ، كل ذلك أقول أنا أحمله عنك ، فقال فى آخر ذلك أنت تحمل عني وزرى يوم القيامة لا أمّ لك ، لحملته عليه وانطلق وانطلقت معه نهرول حتى انتهينا إليها ، فالتى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها ذرى علىّ ، وأنا أحرك لك وجعل ينفخ تحت القدر ، وكان ذا لحية عظيمة فجعلت أنظر إلى الدخان من خلل لحيته حتى نضج وأدم القدر ثم أنزلها ، وقال ابغنى شيئاً : فأنته بصحفة فأفرغها فيها ثم جعل يقول أطعمهم وأنا أسطح لك فلم يزل حتى شبعوا ، ثم خلى عندها فضل ذلك وقامت معه فجعلت تقول : جزاك الله خيراً ، أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين : فيقول قولى خيراً إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك إن شاء الله ، ثم تمنحى ناحية عنها ثم استقبلها وربض مريض السبع : فجعلت أقول إن لك شأناً غير هذا وهو لا يكمنى ، حتى رأيت الصبية يهبطون ويضعكون ثم ناموا وهدموا فقام وهو يحمد الله ثم أقبل على فقال . يا أسلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم ، فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت منهم .

وفي مناقب عمر للإمام أبى الفرج بن الجوزى عن أنس بن مالك قال :

بينما عمر يعس المدينة إذ مر برحبة من رحابها فإذا هو ببית من شعر لم يكن بالأمس فدنا منه فسمع أنين امرأة ورأى رجلاً قاعداً فدنا منه فسلم عليه ، ثم قال من الرجل : فقال رجل من أهل البادية جئت إلى أمير المؤمنين أصيب من فضله : فقال ما هذا الصوت الذى أسمع فى البيت ، قال انطلق يرحمك الله لحاجتك قال على ذلك ما هو ، قال امرأة تمخص قال هل عندها أحد : قال لا قال (أى أنس) فانطلق حتى أتى منزله ، فقال لامرأته أم كلثوم بنت على رضى الله عنهما هل لك فى أجر ساقه الله إليك : قالت وما هو : قال امرأة عربية تمخص ليس عندها أحد : قالت نعم إن شئت : قال فخذى معك ما يصلح المرأة لولادتها ، من الخرق والدهن وجيشينى ببرمة وشحم وجبوب : قالت فجاءت به فقال لها انطلقى وحمل البرمة ومشيت خلفه حتى انتهى إلى البيت ، فقال لها ادخلى إلى المرأة وجاء حتى قعد إلى الرجل ، فقال له أوقدى ناراً ففعل فأوقدت تحت البرمة حتى أنضجها ، وولدت المرأة فقالت امرأته : يا أمير المؤمنين بشر صاحبك بغلام : فلما سمع (أى الرجل) يا أمير المؤمنين كأنه هابه فجعل يتنحى عنه ، فقال له مكانك كما أنت لحمل البرمة فوضعها على الباب ثم قال (أى لأم كلثوم) أشبعيها ففعلت ، ثم أخرجت البرمة فوضعها على الباب ، فقام عمر رضى الله عنه فأخذها ، فوضعها بين يدي الرجل فقال كل ويحك فإنك قد سهرت من الليل ففعل ، ثم قال (أى عمر) لامرأته اخرجى ، وقال للرجل إذا كان غد فأتنا فأمر لك بما يصلحك ، ففعل الرجل فأجازه وأعطاه .

لله أى نفس طاهرة بارة هذه النفس ، وأى حنان خالص من شوائب التصنع هذا الحنان ، وأى خليفة عظيم بعد عمر يحمل نفسه مثل هذا العناء ، ويضع نفسه فى هذه المرتبة من التواضع والرحمة ، ويأخذ نفسه بهذا الأدب والاهتمام بأفراد الرعية ، وهو يحتاج إلى التجرد عن شهوات الملك وعظمة السلطان والتنزل عن مرتبة التسلط والكبرياء ، إلى منزلة المساوى بأفراد

الرعية ، وهيئات هيئات فإن الجبروت ملكة في نفوس الملوك لا يمحوها
إلا الرغبة في الله ، كـرغبة عمر أو الرهبة من الشعب كرهبة ملوك الإفرنجية
من رعيّتهم لهذا العهد .

ورعه وزهره :

تقدم معنا في سيرة أبي بكر رضى الله عنه أن طريقة الصحابة في الزهد
هي العفة عن الفضول والقناعة بالكفاف ، وأن ليس منهم إلا من كان له
سبيل للارتزاق وعمل اليد سواء كان في التجارة والصناعة ، وقد كان عمر
كما في رواية النخعي تاجراً ، وإنما هو كما أبي بكر رضى الله عنهما ترك التجارة
لما ولي أمر المسلمين واقتنع من بيت المال بالكفاف ، وقال أصحاب السير
إن عمر رضى الله عنه لما كتب نفسه في العطاء أقام نفسه مقام الأجير
وأخرج ابن جرير الطبري في تاريخه وابن الجوزي في المناقب عن نافع عن
ابن عمر قال : جمع عمر الناس بالمدينة حين انتهى إليه فتح القادسية ودمشق
فقال إني كنت امرأ تاجراً وقد شغلتموني بأمركم هذا ، فإذا ترون أنه يحل
لي من هذا المال فأكثر القوم وعلى رضى الله عنه ساكت : فقال يا على
ما تقول : قال ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف ليس لك من هذا الأمر
غيره : فقال القول ما قال على بن أبي طالب .

وأخرجنا عن أسلم قال : قام رجل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه
فقال ما يحل لك من هذا المال : فقال ما أصلحني وأصلح عيالي بالمعروف
وحلة للشتاء وحلة للصيف وراحلة عمر للحج والعمرة ودابة لحوائجه وجهاده .

وروى الطبري أن هذا العطاء الذي رضى به عمر لنفسه وفرضه له المسلمون
لم يكفه واشتدّت به الحاجة فاجتمع نفر من المهاجرين منهم عثمان وعلى
وطلمحة والزبير وتشاوروا في زيادة يزيدونها لعمر في رزقه من بيت المال

فها بوا مقابله بذلك فأتوا ببنته حفصة وأمرها أن تخبره بالخبر وترى رأيه فيه ولا تذكر له أسماءهم ، فلما أخبرته بذلك عرفت الغضب في وجهه وقال لها من هؤلاء : قالت لاسبيل إلى علمهم حتى أعلم رأيك فقال لو علمت من هم لسألت وجوههم ، أنت بيني وبينهم أنشدك بالله ما أفضل ما اقتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتك من الملبس (وكانت زوجته) قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد ويخطب فيهما للجمع ، قال فأى الطعام ناله عندك أرفع : قالت خبزنا خبزة شعير فصبنا عليها وهي حارة أسفل عكة (١) بفتحناها هشة (٢) دسمة فأكل منها وتعلمم استطابة لها : قال فأى مبسط كان يبسطه عندك كان أوطأ (٣) قالت كساء لنا ثخين كنا نربعه في الصيف فنجعله تحتنا فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه ، قال يا حفصة فأبلغني عن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية وإني قدرت فوالله لأضع الفضول مواضعها ولأبلغن بالترجية (٤) وإنما مثلي ومثل صاحبي كثلثة سلكوا طريقاً ففضى الأول وقد تزود زادا فبلغ ثم اتبعه الآخر فسلط طريقه فأفضى إليه ، ثم اتبعه الثالث فإن لزم طريقهما ورضى بزادهما لحق بهما وكان معهما وإن سلك غير طريقهما لم يجامعهما .

هكذا كان شأن عمر رضي الله عنه في العفة والقناعة والرضا ، بالكفاف بما يسد الجوع ويستر العرى ، وروى في المناقب عن الحسن قال خطب عمر الناس وهو خليفة وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة ، وفي المناقب أيضاً عن أبي عثمان النهدي قال رأيت عمر بن الخطاب يطوف بالبيت وعليه إزار فيه اثنتا

(١) قرية السمن الصغيرة .

(٢) طرية .

(٣) ألين .

(٤) قال في القاموس تبلغ بكنا اكتفى به والترجية والرجاء بمعنى واحد وهو ضد اليأس .

عشرة رقعة لإحداهن بأدم (جلد) أحمر : وفيها عن قتادة أن عمر بن الخطاب أبطأ على الناس يوم الجمعة ثم خرج فاعتذر إليهم في احتباسه وقال إنما حبسني غسل ثوبي هذا ، ولم يكن لي ثوب غيره .

وفيهما عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال ، قالت حفصة بنت عمر بن الخطاب لعمر يا أمير المؤمنين لو لبست ثوباً هو ألين من ثوبك هذا ، وأكلت طعاماً هو ألين وأطيب من طعامك ، فقد وسع الله من الرزق وأكثر من الخير ، فقال إني سأخاصمك إلى نفسك ، أما تذكرين ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقي من العيش ، فإزال يذكرها حتى أبكاها .

ومن هذا وغيره من أخبار عمر الكثرة في الزهد نعلم أنه رضى الله عنه إنما سلك هذا الطريق من الزهد اقتداء برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبأبي بكر الصديق ، ولم يكن يرضى لعامة المسلمين بمثل هذا الزهد والتشفي وإنما هو كان يحملهم على الطريق الوسطى كي لا ينغمسوا في النعيم ويسترسوا في الشهوات فتفسد أخلاقهم وتفتت هممهم ولا ينقطعوا عن العمل ويعرضوا بتاتا عن نعيم الحياة فتجمد ملكاتهم وتتعطل أمور معاشهم ومن يرى كتابه الذي كتبه إلى أبي عبيدة بن الجراح (وستأتي صورته في باب كتبه) يلومه فيه على شدته في منع المسلمين عن التمتع يتضح له مذهبه في حمل المسلمين على طريق الوسط وعدم حملهم على الزهد ، وإنما هو كان يشدد على العمال فقط في النهي عن التمتع ويحملهم على طريقته في الزهد كي لا يتيسطوا في نعيم الحضارة ويتوسعوا في أسباب الرفاهة فيحملهم ذلك على السرف الذي يحتاج إلى كثرة المال ، وربما حملت أحدهم حاجة السرف إلى تناول المال من غير طريقه المشروعة فتأذى بهم الرعية ويضطرب نظام العدل الذي لم يكن شيء في الدنيا أحب إليه منه .

كلمة في بيت المال :

علمت مما مر في الفصل السابق أن عمر رضى الله عنه إنما سلك في زهده وتعففه طريق النبوة ، ولم يأخذ من بيت المال إلا مقدار الحاجة للمعيشة الساذجة التي تليق بزهده ، كما أن المسلمين إنما راعوا في فرضهم العطاء له حالة معيشته ولما اشتدت به الحاجة رأوا لزوم الزيادة في عطائه ليعادل نفقته ، فأبى عليهم هذه الزيادة ورعا وزهداً ، وعمل الصحابة هذا يدل على جواز تناول الأمير من بيت المال ما فيه الكفاية له في معيشته بنسبة حاله فيما لو ترقى أصول معيشته إذ ليس في طاقة كل خليفة أن يسلك مسلك عمر وأبي بكر في التقشف والزهد ويتأدب مثلهما بآداب النبوة ، وليس ذلك بواجب على كل خليفة ، بل الواجب هو القصد في المعيشة والإمساك عن البذل إلى حد السرف والتعفف عن فضول أموال الأمة ووضعها في مواضعها المشروعة كما كان ذلك من الخليفة عثمان رضى الله عنه فإنه لما لم يستطع المسير على قدم من سبقه جاز له أن يتوسع في المعيشة ويتناول من بيت المال ما يكفيه من غير سرف ولا تقتير .

وقد رأيت أن الصحابة رضوان الله عليهم لما تشاوروا في أمر الزيادة في عطاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه إنما راعوا حاجته الضرورية التي كانت تناسب معيشته وتقضى بتلك الزيادة ، ولم يراعوا نفس المنصب أو يريدوا التوسعة عليه بفضول الأموال كما أنه هو لم يرض بتلك الزيادة خشية أن يكون فيها شيء من السرف في الأموال ، وحبذا لو نظر الخلفاء بعد هذا النظر وراعوا في بيت المال أوامر الشريعة وسنة السلف من الصحابة ، فإن فيها كل الحكمة ، وليس في ذاتها بمأنة لهم من تناول مقدار الحاجة مهما بلغ ، وإنما هي تمنع من تناول الفضول والتوسع في البذل والسرف في المعيشة إلى حد الاستثثار بأموال بيت المال وتبديدها في سبيل الشهوات

ووضعها في غير مواضعها المشروعة التي بها قوام الأمة كلها لا الخليفة وحده ، ولقد بلغ تجاوز هذه الحدود المعقولة في دول الإسلام مبلغاً يدهش عقول الباحثين ، وما نظن إلا أن أكثر البلاء الذي حل بهذه الأمة والضعف الذي انتابها في العصور القديمة والحديثة ناشئ عن إسراف أمرائها وسلاطينها وتبديدهم للأموال في طرق الشهوات ، وليست هذه الآفة خاصة بدول الإسلام وإنما هي عامة في كل دول الأرض ، وإنما هي تتفاوت بتفاوت الأمم بمعرفة حقوق الرؤساء وحقوقها وتباين بتباين صفة الحكومة في كل قوم .

وأشقى الأمم من هذا القبيل الأمم التي لا حد لسلطة رؤسائها يعرف ولا غاية لسلطانهم توصف ، وإنما هم أرباب اليد المطلقة في أموال الرعية يأخذون منها ما شاءوا ويمنعون من شاءوا وينفقون الأموال فيما شاءوا ليس عليهم من الأمة رقيب عتيد ، ولامن الوجدان زاجر عنيد ، وقلماً منيت مملكة بهذا النوع من الحكم وبهذا البلاء من التسلط إلا في زادها وساء معادها ، والشاهد على هذا من دول الإسلام سيأتي في هذا الكتاب ، وأما من دول أوربا فيمكنني فيه أن يقال إن الإمبراطور شارلسكان الذي قام في أوروبا في أوائل القرن السادس عشر بعد المسيح ومالك معظم الديار الأوربية وتسلط على سائر الشعوب والدول لما لم يكن لسلطته حد في بيوت الأموال جعل ينفق منها في سبيل سيادته على الملوك في عصره ما لا يدخل تحت حساب حتى إذا أحس بالعجز عن سياسة ذلك الملك العريض لفقر بيوت أمواله وإنها كه قوى رعيته انزوى في دير من الأديرة ، ولم يلبث أن مات فيه وانكشف بموته عن سماء الممالك الأوربية ظل الأسبانيول واندك أساس ما ابتناه شارلسكان لنفسه من الملك الكبير حتى كأنه ما كان لهذا لما تنهيت الشعوب الأوربية من ستة الافئلة ووضعوا حداً لسلطة الرؤساء والإمبراطرة أخذوا على أيديهم فيما أخذوا التسلط على بيوت الأموال وفرضوا لكل منهم

كفايته منها بنسبة حاله في المعيشة وحال بلاده من الثروة ، كما كان ذلك على عهد الخلفاء في صدر الإسلام ، فكان من ذلك أن عم اليسر خزانة الدول الأوربية وتوفرت على القيام بشؤون الرعية الحربية والعلمية واعتزت بفضول المال بأسباب المنعة والجاه والقوة ، فبسطة جناح السلطان على معظم ممالك الأرض ، وهذا شأن الحياة في الأمم إذا دب ديبها في جسمها ونهت دورة الدم في عروقها والعكس بالعكس .

ومن عجيب الأمور أن يد الحاكم متى أطلقت في بيت المال يتفنى الخلل في سائر فروع الحكومة تفشياً وبيلاً ، بحيث لو أراد الحاكم نفسه أن يتلافى ذلك الخلل لتعذر عليه ذلك بأي سبب من الأسباب ، ولو مهما كان قادراً ومملكته غنية ، وأقرب شاهد نذكره للشرقي هنا ما كان في عهد إسماعيل « باشا » الخديوي الأسبق في مصر من الخلل العظيم في سائر فروع الحكومة المصرية بسبب تسلطه على أموال الحكومة وسرفه فيها وتبديدها في الوجوه التي لا تستلزمها حياة الأمة ولا الملك حتى كان من ذلك أن بات العامل في الحكومة والجندى في الثكنة لا يتناولان مرتبهما إلا كل بضعة شهور مرة ، مع غنى البلاد وثروتها ومع ما حملها من الديون التي تزيد عن مائة مليون من الليرات (الجنهات) .

ولما أحس بالخطر الذي أشرفت عليه البلاد والضيق الذي استحوذ على مالية الحكومة وهب لتلافي ذلك الخطر وأخذ في تنظيم شؤون البلاد تعذر عليه ذلك مع طول باعه في السياسة وحسنه في الأمور ووجود رجال يساعدونه على ذلك القصد ، ثم فشل فشله المعروف في التاريخ ، وانتهى الأمر بعزله عن إمارة مصر باتفاق كل الدول صاحبات الديون في مصر مع الدولة العلية صاحبة الشأن فيها ، ولما ولي الإمارة ابنه توفيق « باشا » ، وأقبل منها على أمر جليل لا يقوم به إلا العفيف الحازم الرأي وأراد أن ينقذ البلاد

من ورطة العوز والحكومة من خلل النظام ، فأول ما بدأ به أن كف يده عن بيوت الأموال وأمر بتنظيم شؤون الجباية وقيد نفسه بقانون مخصوص من جهة ما يتناوله وأبناء عشيرته من الأمراء من مال الحكومة ، وكان ذلك بإشارة بعض مندوبى الدول صاحبات الشأن فى المالية وهو لحسن قصده لم يقاوم رأيهم أو يأبى قبول إشارتهم ، ومن ثم ظهرت فى الحكومة وعلائم الإصلاح وبدأت فى الحال ثمرة تنظيم الشؤون المالية ، حتى حدث ما حدث فى مصر من أسباب الثورة العراقية واحتلال الدولة الإنكليزية فى البلاد ، ثم مضى الأمر لهذا العهد على وجهه واستمر نظام المالية فى نمو وجباية البلاد فى ازدياد حتى بلغت إلى هذا العهد عشرة ملايين ونصفاً ونيفاً من الجنيهات ، وانتظمت سائر فروع الحكومة انتظاماً يحسدّها عليه كثير من الشعوب الشرقيين وحكوماتهم ، وكل ذلك نتيجة كف يد الحاكم عن بيوت الأموال وضبط أصول الجباية وحسابات الحكومة والله يوفق من شاء إلى ما شاء .

هذا وأما واضع بيت المال فى الإسلام فإنه أبو بكر رضى الله عنه كما مر فى سيرته وإنما كان ساذجاً تحشر إليه الأموال من الفى والصدقة ، ثم توزع فى أماكنها المشروعة وعلى الوجوه التى أمر بها الله فى الكتاب الكريم الذى وضع للمسلمين أصول التوزيع (المعروفة الآن بميزانية الحكومة المالية) ، وقد مر ذكر ذلك ، إلا أنه لم يكن ثمة ضابط ولا قيد فى ديوان وقد رأيت فيما مضى من سيرة عمر رضى الله عنه كيف نهض لوضع الديوان لما كثر الفى والخراج وازدادت الجباية ضبطاً لأمر بيت المال وتقييداً للنفقات وإنما كان ديوان بيت المال هو الدفتر الذى يضبط فيه الحساب ثم ما زال يترقى الحال حتى تفرع عن بيت المال عدة ادواوين على عهد الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس كافر ادهم ديوان العطاء وحده وكذلك ديوان الخراج وديوان الإقطاع وسنستقصيها عند الكلام على رجال هذه الدول إن شاء الله ، وكل هذه الدواوين كانت تابعة لبيت المال ، وقد توسع الأئمة

والفقهاء بعد في وضع الضوابط والقوانين التي تتعلق ببيت المال ، وكلها كانت استنباطاً من أصول الشريعة وعمل الصحابة مثل كتاب الخراج لأبي يوسف وما يشبهه من الكتب الواردة في مؤلفات الفقه الإسلامي ، إلا أن أمر بيوت الأموال تقلب بعد ذلك بتقلب الدول الإسلامية وتغير بتغير الزمان وخرجت ضوابطه عن طوق الفقهاء واستأثر بها الأمراء قلباً وإبدالاً ومحوراً وإثباتاً على مقتضى الظروف والأحوال إلى الآن .

مقدمة :

أصل الحسبة هي مشاركة السوق والنظر في موازينه ومكاييله ومنع الغش والتدليس فيما يباع ويشترى فيه من المأكول والمصنوع وغيره ، ورفع الضرر عن الطريق ودفع الخرج عن السابلة وتنظيف الأزقة وبالجملة ، هي كل الوظائف المتعلقة بما يعرف الآن بالمجالس البلدية ولها في الإسلام ولاية خاصة تسمى ولاية الحسبة وأول من وضعها على ما يظهر هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقد جاء في كنز العمال في حديث أخرجه ابن سعد عن الزهري أن عمر بن الخطاب استعمل عبد الله بن عتبة على السوق ، وقال العلماء هذا أصل ولاية الحسبة .

ومن ثم ترقى الحسبة في الإسلام ترقياً عجبياً حتى كانت من أهم الشؤون التي عنى بها الخلفاء والفقهاء وقد توسع بعض العلماء بتوسع الحاجة في وظيفة وإلى الحسبة فجعلوها تشمل كل أمر بمعروف ونهى عن منكر ، ومن هؤلاء شيخ الإسلام ابن يثية فقد أجاز التوسع في ولاية الحسبة حتى في إقامة الصلوات الخمس في موافقتها ، وتعاهد الأئمة والمؤذنين وإلزامهم بأداء وظائفهم على مقتضى الشرع وحجته في جواز التوسع بهذه الوظيفة ما قاله عن الولايات في كتاب الحسبة في الإسلام المطبوع حديثاً في مصر ونصه .

عموم الولايات وخصوصاً وما يستفيد منه المتولى بالولاية يتلقى من الألفاظ والأحوال والعرف ، وليس لذلك حد في الشرع فقد يدخل في ولاية القضاء في بعض الأمكنة والأزمنة ما يدخل في ولاية الحرب في مكان وزمان آخر وبالعكس ، وكذلك الحسبة وولاية المسالمة .

ومن هذا ترى مبلغ عناية القوم بهذه الوظيفة السامية وتوسعهم فيها وإتقانهم لها حتى إننا رأينا من بعض آثار الحسبة على عهد الفاطميين قطعاً مستديرة من الزجاج ومن يجأ آخر معه على وزن الدينار والدرهم مكتوباً عليها وزن واف أو ماهو بمعناه ، ومثلها للأوزان الخفيفة وكلها كانت تصدر من وإلى الحسبة أو المحتسب على تعبير المتأخرين لأجل أن يضبط بها الناس عيار الدراهم والدينارين والأوزان على ما يظن منعاً للتلاعب والغش ، إلا أننا لم نقف على التاريخ الذي ألغى فيه اسم المحتسب ، ولعله منذ أنشئت المجالس البلدية في المملكة العثمانية وسنتكلم عليها في مكان آخر بأوسع من هذا إن شاء الله .

أما حسبة عمر رضى الله عنه فقد قدمنا أنه استعمل لها عبد الله بن عتبة ومع ذلك فقد كان يقوم بنفسه بوظائف المحتسب ويشarf السوق ويراقب المكييل والموازن ويأمر بإمالة الأذى عن الطريق .

أخرج الإمام ابن الجوزى عن المسيب بن دارم قال : رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يضرب جمالا ويقول حملت جملك ما لا يطيق .

وفى كنز العمال عن يزيد بن فياض عن رجل من أهل المدينة قال دخل عمر بن الخطاب السوق وهو راكب فرأى دكاناً قد أحدث في السوق فكسره .

وفيه عن عبد الله بن ساعدة الهذلى قال : رأيت عمر بن الخطاب يضرب التجار بدرة إذا اجتمعوا على الطعام بالسوق حتى يدخلوا سكك أسلم ويقول لا تقطعوا علينا سابلتنا .

وفيه عن علي أنه كان يأمر بالمشاعب^(١) والكنف تقطع عن طريق المسلمين .

وفيه عن القاسم بن محمد أن عمر بن الخطاب مر بحاطب بسوق المصلى وبين يديه غراران فيهما زبيب ، فسأله عن سعرها فسهر مدين بكل درهم فقال له عمر : حدثت بعير مقبلة من الطائف تحمل زيباً وهم يعتبرون بسعرك فإذا أن ترفع في السعر ، ولما أن تدخل زيبك البيت فتبيعه كيف شئت ، فلما رجع عمر حاسب نفسه ثم أتى حاطباً في داره فقال إن الذي قلت ليس بعزمة ولا قضاء ، وإنما هو شيء أردت به الخير لأهل البيت فحيث شئت فبع وكيف شئت فبيع (أخرجه الشافعي في السنن .) .
وله أخبار غير هذه في الحسبة وقد اكنفينا عنها بما تقدم دلالة على الباقي .

فضاؤه :

كتبنا في سيرة أبي بكر فصلا عن القضاء في الإسلام وكيف كان يقضى أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فلا نرى حاجة للمزيد هنا إلا بعض أخبار عمر في القضاء فإننا نأتي بها إتماماً للفائدة .

كان عمر رضى الله عنه يتولى القضاء بنفسه وينيب عنه غيره لما هو معروف من أن القضاء في الإسلام وظيفة من وظائف الإمام يجوز له أن يتولاها بنفسه وأن ينيب بها عند الحاجة غيره ، وكان تحريه للعدالة في انتخاب القضاة كتحريره في انتخاب الولاة لا يراعى في كليهما إلا الأهلية والاستعداد والتقوى والعدل ، ويعلم إن لم ثم الظالم إذا ظلم على موليه فقد أخرج ابن الجوزي في المناقب عن عبد الملك بن عمير قال : قال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه من استعمل رجلاً لمودة أو لقرابة لا يستعمله إلا لذلك فقد خان الله ورسوله والمؤمنين .

(١) مسائل الماء كما في النهاية .

وأخرج عن عمران بن سليم عن عمر قال . من استعمل فاجراً وهو يعلم أنه فاجر فهو مثله .

وكما كان يتحرى في انتقاء العمال والقصة التقوى والعدالة يتحرى العلم والمعرفة والذكاء ويغض خرق العامل وجهله .

أخرج ابن الجوزى عن محارب بن دثار عن عمر بن الخطاب أنه قال لرجل قاض من أنت قال قاضى دمشق : قال كيف تقضى ، قال أقضى بكتاب الله ، قال : فإذا جاءك ما ليس فى كتاب الله قال أقضى بسنة رسول الله . قال : فإذا جاءك ما ليس فى سنة رسول الله قال : أجتهد رأى وأوامر (أى أشاور) جلسائى . قال أحسنت . وقال فإذا جلست فقل اللهم لى أسألك أن أفتى بعلم وأن أقضى بحكم ، وأسألك العدل فى الغضب والرضا قال فسار الرجل ما شاء الله أن يسير ثم وجع إلى عمر : فقال ما رجوعك : قال رأيت الشمس والقمر يقتتلان مع كل واحد منهما جنود من الكواكب فقال مع أيهما كنت : قال مع القمر . قال يقول الله عز وجل (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) لا تلى لى عملاء .

ولمّا عزله لجهله وأبعده عن العمل لسخافة قوله ، وهكذا كان شأنه مع عماله رضى الله عنه .

وكان لا يحب تعجيل الفصل فى الخصومة رجاء أن يصطلح الخصمان وتمحى آثار الضغائن من النفوس ، فقد جاء فى كنز العمال عنه رضى الله عنه أنه قال ردوا الخصوم حتى يصطلحوا ، فإن فصل القضاء يورث الضغائن بين الناس . وأما كلامه فى القضاء ووصاياه للقضاة فتظهر من السكتا بين التالين .

كتاب فى القضاء إلى سريح القاضى :

أما بعد إذا جاءك شىء فى كتاب الله فاقض به ولا يلفتنبك عنه الرجال

فإن جاءك أمر ليس في كتاب الله فانظر سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بها ، فإن جاءك أمر ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به . فإن جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أى الأمرين شئت . أن تجتهد رأيك وتقدم فتقدم ، وإن شئت أن تأخر فتأخر ولا أرى التأخير إلا خيراً لك اهـ (من كنز العمال) .

كتابه في القضاء إلى أبى موسى الأشعري :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ أما بعد : فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدلى إليك ^(١) فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاد له آس ^(٢) بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك ^(٣) ولا يخاف ضعيف من جورك ، والبيئة على من ادعى ، واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالاً أو أحل حراماً . ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمر . راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه ، فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل ، الفهم الفهم عند ما يتلجلج ^(٤) في صدرك بما لم يبلغك في كتاب الله ولا سنة النبي صلى الله عليه وسلم . اعرف الأمثال والأشياء وقس الأمور عند ذلك ثم اعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى واجعل للمدعى حقاً غائباً أو بيئة أمدأ ينتهى إليه (أى وقتاً محدوداً) فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا وجهت عليه القضاء فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ في العذر . المسلمون عدول

(١) رفع لك الأمر وجىء به إليك .

(٢) أعدل وساو .

(٣) الحيف الجور والظلم كما في القاموس .

(٤) التلجلج التردد في الكلام كما في القاموس .

بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيماً (هـ) في ولاء أو قرابة ، فإن الله قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالشبهات ، ثم إياك والقلق والضجر والتأذى بالناس والتشكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الذخر ، فإنه من يخلص بها نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه يكفبه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه هتك الله ستره وأبدى فعله والسلام (من البيان والتبيين) .

وهذا الكتاب على إيجازه هو الذي تدور عليه أحكام القضاء إلى هذا العهد .

وأما أقضيته فكثيرة لا يسعها هذا الكتاب ، فليرجع إليها من أحب في كتب الحديث ، وقد خالف في بعض أحكامه ما قضت به السنة مراعاة للحال والمصلحة ، فلم يؤخذ على ذلك لحسن قصده منها حكمه بتحريم المتعة ، وقد أحلت في ظروف مخصوصة ، ومنها حكمة بوقوع الطلاق الثلاث إذا صدر عن شخص مرة واحدة ، مع أن السنة قضت بوقوعه طلقة واحدة وأراد بهذا قهر النفوس على تجنب الطلاق لما يحصل عند المطلق من الندامة إذا أحس بألم الحكم بوقوع الطلاق الثلاث ، وغير ذلك من الأحكام النافعة التي أخذ بها بعد كثير من أئمة المسلمين اقتداء بحسن رأيه ، وجميل قصده ، فليرجع إليها في مظانها من كتب الأئمة والمحدثين من شاء .

فراسته وذاكؤه

كان رضى الله عنه حديد الذكاء شديد الفراسة يكاد بفراسته يستطلع خبايا القلوب ويستخرج ما سكنه النفوس ، وقد ساعده تفرسه في الناس

(١) هو المتهم بسبب قرائته أو ولائته.

على وضع الشدة في مواضعها واللين في مواضعه حتى أخذ بنواصي الناس واستكانت له رغبة ورهبة ، وكان أشد الناس حذراً منه قريش كما كان هو أشد الناس حذراً منهم واستكناها لسكرته ضمائرهم ، ليحسن إلى محسنهم ويأخذ على يدي مسيئتهم ، لهذا دبت في قلوبهم هيئته وفعلت في نفوسهم فراسته .

لما جاء عمرو بن العاص من جيفر وأخبر المسلمين بكثرة من يجمع لهم من جيوش الردة في خلافة أبي بكر تفرق المسلمون وتحلقوا حلقاً ، وأقبل عمر للتسليم على عمرو وفر على حلقة فيها نفر من المهاجرين وهم على عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد ، فلما دنا عمر منهم سكتوا ؛ فقال فيم أتم فلم يجيبوه فاستطلع طلع بواطنهم وأدرك بفراسته ما هو دأب بينهم من الكلام فقال لهم : إنكم تقولون ما أخوفنا على قريش من العرب : قالوا صدقت : قال فلا تخافوهم أنا والله منكم على العرب أخوف مني من العرب عليكم والله لو تدخلون معاشر قريش جحراً لدخلته العرب في آثاركم فأتقوا الله فيهم ومضى .

ولا يخفى ما في هذا الكلام من المخامر خلا مافيه من الاستخفاف بقوة العرب ، وإنما أدرك ماخامر نفوسهم من أخبار الردة فأراد أن يستفز منهم صدق العزيمة لمضافرة أبي بكر ومكانته على استخصايع العرب ، وبين لهم أنهم قدوة العرب وأئمة الناس فيما اتجهوا اتجه معهم الناس طوعاً أو كرهاً وهذا هو الحق الذي تشهد له الحوادث العظمى التي حدثت بعد خلافة أبي بكر وعمر ، وسبق بها العرب إلى ماسيقوا إليه ودخلوا مع قريش إلى حيث دخلوا كما هو معروف في التاريخ ، وسنشير إليه في محله إن شاء الله .

وحسب عمر من سعة المدارك وبعد النظر والذكاء قيامه ببيعة أبي بكر ومبادرته إلى ذلك قبل إخوانه من المهاجرين مع تحققه أن أمر البيعة منوط

بالشورى متوقف على اتفاق المهاجرين وغيرهم من أهل الحل والعقد ، لهذا اعتدها بعد ذلك فلتة وفى الله المسلمين شرها ، كما سترى فى إحدى خطبه التى تجيء فى باب الخطب وإنما عجل ببيعة أبى بكر لما كان يتفرسه فى وجوه القوم ويتوقعه من المهاجرين من الاختلاف كما كان ذلك من الانصار ، وياويع الأمة لوحدث من الخلاف بين المهاجرين فى ذلك العهد ما حدث فى خلافة عثمان وما بعده إذ كان الإسلام غصناً طرياً والناس لوفاة النبي صلى الله عليه وسلم فى اضطراب ، والعرب على قدم القيام على المسلمين ، وإنما تلافى هذا الخطر وحال دون ذلك الخلاف عمر رضى الله عنه بمبايعته لأبى بكر لعلمه أنه أقدم المهاجرين إسلاماً وأكبرهم سنّاً وأضعفهم عصبية ، فإذا تعجل بمبايعته قطع آمال المتطلعين إلى الخلافة من أولى العصبيات الكبيرة فكانوا بأجمعهم عصبية لأبى بكر يذودون عن حوضه ويفون بحق طاعته ، لاسيما وأن ليس لأحد منهم غاية بعد تقرير أمر الخلافة إلا نصرة الدين والقيام على الحق شأنهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مدى حياته ، وإنما هم تراحوا على الخلافة بعدد لا عتزاز كل فرد منهم بعصبيته أو سابقته فى الإسلام وكونه يرى نفسه أولى بخدمة المسلمين وأحق بإمرة المؤمنين لأنهم كما قدمنا فى غير هذا المحل كافوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ، أى كلهم أهل للخلافة وجدير بخدمة ذلك المنصب فقيام عمر ببيعة أبى بكر قطع جهيزة قول كل خطيب ، وجعلهم كلهم راضين بها لعلمهم بسابقته وفضله وعزيمته ولاطمئنان ضمير كل فرد من المتطلعين إليها بصرفها عن الآخر وهذا الذى دعا لارتياحهم جميعاً لخلافة أبى بكر ، وإنما كان القائم بها العارف بلزومها عمر بن الخطاب رضى الله عنهم أجمعين .

ومن عجيب فراسته التى كان كأنه ينظر منها بعين الغيب ما ذكره ابن عبدربه

في العقد قال : قال أبو بكر بن أبي شيبة كان عبد الله بن عباس من أحب الناس إلى عمر بن الخطاب وكان يقدمه على الأكبر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ولم يستعمله قط ، فقال له يوماً كدت أستعملك ولكن أخشى أن تستحل النية على التأويل ، فلما صار الأمر إلى علي أستعمله على البصرة فاستحل النية على تأويل قول الله تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى) واستحل من قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تفرس فيه ذلك عمر من قبل .

هكذا كان مبلغ فراسة عمر رضي الله عنه خصوصاً في بني هاشم ، وقد كان يتفرس فيهم القيام يوماً لطلب الخلافة وإثارة غبار الفتن والاستحواذ على ذلك المنصب الذي كانوا يرون أنفسهم أحق الناس به ، على خلاف ما كان يراه جلة المهاجرين الذين يعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم منعهم من أن يعملوا له عملاً كي لا يحدثوا أنفسهم بشيء من الإمارة لأنها غير النبوة ، ومن ذلك ما ذكره في العقد أن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم طلب منه ولاية فقال له (يا عم نفس تحبها خير من ولاية لا تحبها) .

وكان عمر لتفرسه فيهم التطلع إلى الإمارة لا يستعمل أحداً منهم كما لم يستعملهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحاهر بظنه هذا فيهم ، وقد جاهر به لعبد الله بن عباس مراراً ، ومنه ما تقدم ذكره في باب سياسته إذ قال له : يا بن عباس إني خشيت أن يأتي عليّ الذي هو آت ، وأنت في عمالك فتقول هلم إلينا ولا هلم إليكم دون غيركم .

ولقد تحققت فراسته في بني هاشم بعد إذ قضا عصوراً طويلة في مكافأة الملوك ومزاحمة الخلفاء على الخلافة وأسسوا عدة دول ، أضخمها العباسية في بغداد ، والفاطمية في أفريقيا ، وأهرقوا سيولاً من دماء أشياعهم وأشياع

عيرهم في سبيل نيل هذه البغية . وتأق من هذه المزاحمة من التشويش في أمور الدول الإسلامية والاضطراب في المسلمين ما الله به عليم ، على أنهم لو اتعظوا بعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ صرف أسلافهم عن الإمارة وصرفها عنهم لما أقدموا على شيء من ذلك ، بل لكانوا إذا استمر في نفوسهم شيء من التطلع إلى الخلافة سلكوا إليها سبيلا غير ذلك السبيل وجعلوا الأمة بأجمعها طامعة الأنظار إليهم ساعية بنفسها لإسناد منصب الخلافة لأهل الجدارة منهم ، وحسبهم موعظة وذكرى أن على بن أبي طالب رضى الله عنه على صلاحه وتقواه وسابقتها في الإسلام وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهرته بالعدل والورع والزهد (ومن كعلى بعده) لم يتوفق بجمع كلمة الأمة على الرضا ، بخلافته لا لقصور فيه معاذ الله وإنما هو لما قر في نفوس الأمة يومئذ من أن الهاشمين بسبب قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينفسكون عن الإدلال على الناس وحب الاستعلاء على الكافة والناس يومئذ في إبان نشأة الإسلام وعز الحرية وحظيرة المساواة والإخاء التي حشرهم إليها الإسلام بقوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة) وبقول النبي صلى الله عليه وسلم (لأفضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى) فتوهم أن أن يسلبهم بنو هاشم شيئا من هذه النعمة بالاستعلاء عليهم كانوا غير ميالين لاستخلاف أحد منهم يدلك على صدق هذا القول ما ذكره في العقد عن عبد الله بن عباس قال : ما شئت عمر بن الخطاب يوما فقال لي يا بن عباس ما يمنع قومكم منكم وأنتم أهل البيت خاصة : قلت لا أدري : قال لكنني أدري أنكم فضلتموهم بالنبوة فقالوا إن فضلوا بالخلافة مع النبوة لم يبقوا لنا شيئا وإن أفضل النصيبين بأيديكم بل ما إخالها إلا مجتمعة لكم وإن نزلت على رغب أنف قريش (يريد الخلافة) .

نبذة من فنونه أقواله وأخباره :

من أخباره في الشفقة ورقة القلب ما أخرجه في المناقب عن الأحنف ابن قيس قال وفدنا على عمر رضى الله عنه بفتح عظيم فقال أين أنزلتم : فقلت في مكان كذا فقام معنا حتى انتهينا إلى مناخ رواحلنا فجعل يتخللها يبصره ويقول : ألا اتقيتم الله في ركابكم هذه أما علمتم أن لها عليكم حقاً ألا خليتم عنها فأكلت من نبت الأرض : فقلنا يا أمير المؤمنين لما قدمنا بفتح عظيم فأحببنا التسرع إلى أمير المؤمنين بما يسره .

عن نافع قال دخل شاب قوى المسجد وفي يده مشاقص^(١) وهو يقول من يعينني في سبيل الله ، فدعا به عمر فأتى به فقال من يستأجر مني هذا يعمل في أرضه فقال رجل من الأنصار : أنا يا أمير المؤمنين : قال بكم تأجره قال كل شهر يكذا وكذا قال خذه فانطلق به : فعمل في أرض الرجل شهراً ثم قال عمر للرجل : ما فعل أجيرنا : قال صالح يا أمير المؤمنين . قال انتنى به وبما اجتمع له من الأجر : فجاء به وبصرة من دراهم : فقال (عمر للرجل) خذ هذه فإن شئت فالآن اغز وإن شئت فاجلس .

وشفقته على هذا الرجل هي من جهة أنه رآه قوياً وأهلاً للعمل فأعطاه لمن يستأجره كي لا يكون عالة على الناس .

ومن جميل أخباره في تأديب الناس على ستر العورات وكتيان ما يمس بشرف الصيانة ما جاء في المناقب عن الشعبي قال أتى عمر بن الخطاب رجل فقال إن ابنة لى كنت وأدتها^(٢) في الجاهلية فاستخرجنها قبل أن تموت

(١) قال في القاموس المشقص كمنبر نصل عريض أو سهم فيه ذلك ، والنصل الطويل أو سهم فيه ذلك يرمى به الوحش .

(٢) الوأد هو دفن البنات وهن أحياء ، وكانت عادة الوأد عند العرب في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام أبطلها .

فأدركت معنا الإسلام فأسلمت ، ثم أصابها حد من حدود الله فأخذت الشفرة لتذبح نفسها وأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها فداويناها حتى برئت ، ثم أقبلت بعد توبة حسنة ، وهي تخطب إلى قوم أفأخبرهم بالذي كان : فقال عمر رضى الله عنه أتعمد إلى ماستره الله فتبيديه ، والله لئن أخبرت بشأنها أحداً من الناس لأجعلنك نكالا لأهل الأمصار نكحها نكاح العفيفة المسلمة .

ومن أخباره في رفع القصاص عن القاتل دفاعاً عن الشرف والعرض ما أخرجه في المناقب عن الليث عن عبدالله بن صالح قال أتى عمر بن الخطاب بفتى أمرد وجد قتيلا ملقى على وجهه في الطريق ، فسأل عمر عن أمره واجتهد فلم يقف له على خبر ولم يعرف له قاتل فشق ذلك على عمر ، وقال اللهم أظفرني بقاتله حتى إذا كان رأس الحول أو قريبا من ذلك وجد صبي مولود ملقى موضع القتل ، فأتى به عمر فقال ظفرت بدم القتل إن شاء الله فدفع الصبي إلى امرأة وقال لها قومي بشأنه وخذي منا نفقته وانظري من يأخذه منك ، فإذا وجدت امرأة تقبله وتضمه إلى صدرها فأعلييني بمكانها ، فلما شب الصبي جاءت جارية فقالت للمرأة إن سيدتي بعثتني إليك تبعثي الصبي لترآه وترده إليك . قالت نعم اذهبي به إليها وأنا معك فذهبت بالصبي والمرأة معها حتى دخلت على سيدتها فلما رأيته أخذته فقبلته وضمته إليها ، فإذا هي بنت شيخ من الأنصار من أصحاب رسول الله فأخبرت عمر خبر المرأة فاشتمل عمر على سيفه ثم أقبل إلى منزلها فوجد أباها متكئا على باب داره : فقال يا أبا فلان ما فعلت ابنتك فلانة : قال يا أمير المؤمنين جزاها الله خيرا هي من أعرف الناس بحق الله تعالى وحق أبيها مع حسن صلاتها وصيامها والقيام بدينها .

فقال عمر قد أحبت أن أدخل إليها فأزيدها رغبة في الخير وأحسها على

ذلك ، فقال جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين امكث مكانك حتى أرجع إليك . فاستأذن لعمر فلما دخل عمر أمر كل من كان عندها بخروج عنها وبقيت هي وعمر في البيت ليس معهما أحد ، فكشف عمر عن السيف وقال لتصدقيني ، وكان عمر لا يكذب : فقالت على رسالك يا أمير المؤمنين فوالله لأصدقن : إن عجوزاً كانت تدخل على فاتخذتها أمّاً ، وكانت تقوم أمري بما تقوم به الوالدة ، وكنت لها بمنزلة البنت فأمصيت بذلك حيناً ، ثم لأنها قالت لي يا بنية إنه قد عرض لي سفر ولي بنت أتخوف عليها منه أن تضيع وقد أحببت أن أضيق إليك حتى أرجع من سفرى . فعمدت إلى ابن لها شاب أمرد فهبأته كهية الجارية وأتتني به لا أشك أنه جارية فكان يرى منى ما ترى الجارية من الجارية ، حتى اغتفلني يوماً وأنا نائمة فما شعرت حتى علاني وخالطني فددت يدي إلى شفرة كانت إلى جنبي فقتلته ثم أمرت به فألقي حيث رأيت ، فاشتملت منه على هذا الصبي ، فلما وضعت ألقته في موضع أبيه فهذا والله خبرهما على ما أعلمتك : فقال عمر صدقت بآرك الله فيك ، ثم أوصاها ووعظها ودعا لها وخرج ، وقال لأبيها بآرك الله في ابنتك فنعمم الابنة ابنتك وقد وعظتها وأمرتها ، فقال الشيخ وصالك الله يا أمير المؤمنين وجزاك خيراً عن رعيتك .

فمنه شتى من أخباره :

عن الحسن قال عاتب عيينة عثمان فقال له كان عمر خيراً لنا منك ، أعطانا فأغنانا وأخشاننا فأثقتانا .

تظلم رجل من بعض عمال عمر وادعى أنه ضربه وتعدى عليه : فقال اللهم إني لا أحل لهم أعشارهم ولا أبشارهم (أموالهم وأجسامهم) كل من ظلمه أميره فلا أمير عليه دوني ثم أقاده منه (أى أخذ له القود) وقال المغيرة بن شعبة وذكر عمر فقال كان والله له فضل يمنعه أن يخذع وعقل يمنعه أن ينخدع .

في كنز العمال عن طاوس أن عمر قال أرأيتم إن استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل أفضيت ماعلى قالوا نعم : قال لا حق أنظر في عمله أعمل بما أمرته أم لا .

وفيه عن عمر قال : الرعية مؤدية إلى الإمام ما أدى الإمام إلى الله فإذا رفع الإمام رفعوا (أخرجه ابن سعد)

وفيه عنه أنه قال لا ينبغي أن يلي هذا الأمر إلا رجل فيه أربع خلال ، اللين في غير ضعف ، والشدة في غير عنف ، والإمساك في غير بخل والسماحة في سرف . فإن سقطت واحدة منهن فسدت الثلاث .

وما أظن أن خليفة اتصف بهذه الصفات من غير تصنع ولا تكلف كعمر رضى الله عنه .

وفيه عن قطن بن وهب عن عمه أنه كان مع عمر بن الخطاب في سفر فلما كان قريباً من الروحاء سمع صوت راع في جبل فعدل إليه فلما دنا منه صاح ياراعى الغنم فأجابه الراعى : فقال له إني مررت بمكان هو أخصب من مكانك فإن كل راع مسئول عن رعيته ثم عدل صدور الركاب (أخرجه الإمام مالك وابن سعد) .

وثالثه إن هذا الاهتمام بشئون الناس حتى في إرشاد الرعاة إلى أماكن الخصب لحدير بأن يقوم به كل خليفة من خلفاء المسلمين اقتداء بسلفهم الصالحين ، وهيئات هيئات فإن الشهوات غلابة ومحبة الذات خلافة ، وليست كل النفوس خيرة كنفس عمر .

وفيه عن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب قال في ولايته من ولي هذا الأمر بعدى فليعلم أن سير يده عنه البعيد والقريب وإيم الله ما كنت إلا أقاتل الناس عن نفسي قتالا .

وأخرج ابن الجوزى فى المناقب عن يحيى بن جعدة قال : قال عمر لولا أنى أسير فى سبيل الله ، أو أضع جبينى لله فى التراب أو أجالس قوماً يلمتقطن طيب القول كما يلمتقط طيب التمر ، لأحببت أن أكون قد لحقت بالله .

وفيه عن ابن سعد قال : قال عمر والله ما أدرى أخليفة أنا أم ملك فإن كنت ملكاً فهذا أمر عظيم : فقال قائل يا أمير المؤمنين إن بينهما فرقاً ، قال ماهو : قال الخليفة لا يأخذ إلا حقاً ولا يضعه إلا فى حق ، وأنت بحمد الله كذلك ، والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطى هذا ففسكت عمر .

وفيه عن الزهرى قال كان جلساء عمر أهل القرآن كهولاً كانوا أو شباناً وفيه عن الأوزاعى قال : بلغنى أن عمر رضى الله عنه سمع صوت بكاء فى بيت ومعه غيره فقال عليهم ضرباً حتى بلغ النائحة فضر بها حتى سقط خمارها وقال اضرب فإنها نائحة لأحرمة لها لأنها لا تبكى لشجوعكم وإنما تهريق دموعها على أخذ دراهمكم لأنها تؤذى أموالكم فى قبورهم وأحياءكم فى دورهم . إنها تنهى عن الصبر الذى أمر الله به وتأمر بالجزع الذى نهى الله عنه .

وفيه عن عبد الله بن بريدة قال : ربما أخذ عمر بن الخطاب بيد الصبي فيجىء به ويقول ادع لى فإنك لم تذنّب بعد : وفيه عن محمد قال : كان عمر يشاور حتى المرأة .

وفيه عن أبى أمامة بن سهل قال : كتب عمر لى أبى عبيدة رضى الله عنهما علموا غلمانكم العوم ومقاتلتكم الرمى .

ولا يخفى أنه أراد بهذا التعليم التمرن على فنون الحرب من حال الصغر ، وإنما كان تعلم الرمى من أهم لوازم الجند بالنسبة لذلك العصر .

وأما فى هذا العصر فنوازم الحرب كثيرة ، ومنها تعلم فنون الكيمياء لأجل عمل المواد الالتهابية التى يحتاج إليها المحارب ، وتعلم الهندسة والميكانيات أى علم صناعة الآلات لأجل عمل المدافع والبتادق والقلاع

والماتريس ونحوها من لوازم القوة والدفاع ، وفن الجغرافية لأجل معرفة أطوال البلاد وعروضها وسهولها ونجودها وطرقها وجبالها وأخلاق أهلها وقوتهم وثروتهم وغير ذلك مما يعين على معرفة البلاد وأهلها معرفة تامة قبل مهاجمتها ، وإعلان الحرب على أهلها معرفة تامة قبل مهاجمتها ، وإعلان الحرب على أهلها .

وأخرج الطبري عن زيد بن أسلم قال قال عمر كتنا نعد المقرض بخيلا وإنما هي المواساة .

ومن ماثور كلامه قوله من كتم سره كان الخيار في يده ، أشقى الولاة من شقيت به رعيته ، أعقل الناس أعذرهم للناس ، ما الخمر صرفاً بأذهب لعقول الرجال من الطمع ، لا يكن حبك كلفاً ولا بغضك تلفاً ، مر ذوى القربايات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا ، قلما أدبر شيء فأقبل ، أشكو إلى الله ضعيف الأمين وخيانة القوى ، من لا يعرف الشر كان أجدر أن يقع فيه (عن زهر الآداب وثمر الألباب) .

ودخل عدى بن حاتم على عمر فسلم وعمر مشغول فقال يا أمير المؤمنين أنا عدى بن حاتم فقال: ما أعرفني بك ، آمنت إذ كفرنا ، ووفيت إذ غدروا وعرفت إذ أنكروا ، وأقبلت إذ أدبروا (عنه أيضا) .

ومن جميل قوله إياكم والمعاذير فإن كثيراً منها كذب ، وقوله تعلموا المهنة فإنه يوشك أحدكم أن يحتاج إلى مهنته (المناقب) .

عن قبيصة بن جابر قال : قال لى عمر بن الخطاب إنك رجل حدث السن فصيح اللسان فسيح الصدر ، ولأنه يكون في الرجل عشرة أخلاق تسعة أخلاق حسنة وخلق سيء فيغلب الخلق السيء التسعة الأخلاق الحسنة ، فاتق عثرات الأشياء :

وفي المناقب عن عبيد بن أم كلاب أنه سمع عمر يقول لا يعجبنيكم من الرجل طنطنته^(١) ، ولكن من أدى الأمانة وكف عن أعراض الناس فهو الرجل .

وفيه عن إسماعيل بن أمية قال قال عمر الراحة في ترك خلطاء السوء ، وما أعظمها من حكمة وأفيدها من موعظة ، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وعن مسروق قال تذاكرنا عند عمر بن الخطاب الحسب فقال : حسب المرء دينه وأصله عقله ومرءته خلقه .

ومن قوله في بيان فضيلة الكسب ما ذكره في المناقب عن عطاء قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأن أموت بين شعبي رحل (هو قتب الجمل) أسعى في الأرض أبتغي من فضل الله كفاف وجهي أحب إلى من أن أموت غازيا .

كلمة إسماعيل في المصروف :

هذا ما أحببنا لإيراده من مناقب عمر رضى الله عنه وأخلاقه وسيرته ومنه تعلم كيف كان ذلك الرجل العظيم فيتمثل لك فيه صورة من النور وجسم من الفضيلة والسكال ، وعلم من أعلام الرجال الذين تفتخر بحياتهم الأمم ويقتدى بسيرتهم أرباب المهمة ، فالجد والصبر والثبات والجلد والقوة والعدل والتقوى والتواضع والرفق والحلم والبصيرة والرأى كلها أخلاق قل أن تجتمع في عدد عديد من الرجال ، وقد اجتمعت في عمر بن الخطاب كما رأيت فيما أوردناه من سيرته وكل أخلاقه هذه تكاد تكون فطرية لا يظهر عليها شيء

(١) صوت صلاته في الليل .

من التصنع أو التكلف ولو أردنا استقصاء كل أخباره وآثاره لأعجزنا هذا الأمر كما أعجز كثير آخرنا من الفضلاء الذين حاولوا جمع أخباره وتبعية آثاره فلم يدركوا غايتها ولم يأتوا بمعشارها ، ومن أحسن وصف موجز وصف به عمر ماروى أن معاوية بن أبي سفيان قال لصعصعة بن صوحان صف لي عمر بن الخطاب فقال :

كان عالما برعيته ، وعادلا في قضيته ، عاريا من الكبر ، قبولاً للعذر ، سهل الحجاب ، مصون الباب ، متحريراً للصواب ، رفيقاً بالضعيف ، غير محاب للقريب ، ولا جاف للغريب :

وكان من أخص صفاته الجدد المصحوب بالحزم مع التأنى في الأمور والاستشارة في جليلها وحقيقها لهذا من تتبع سيرته لا يراه فشل في أمر من الأمور ، بل كل تلك الأعمال التي عملها في خلافته وذلك الفتح العظيم الذي كان على عهده توفق إليه توفيقاً صاحبه من أول عهده بالخلافة إلى حين وفاته ، وسبب هذا التوفيق هو الجدد والحزم وعدم التردد في الأمر وتمحيص الأشياء شأن كل رجل عظيم يريد ما يقول ، ويثاب ما يريد ، ولو بحثنا في تاريخ الأمم القديمة والحديثة لوجدنا لكل أمة رجلاً أو رجلاً من رجال السياسة والحرب تفتخر بهم وتعلي ذكرهم ، ولكن ليس من هؤلاء الرجال من اجتمعت فيه تلك الخصال السامية والأخلاق الحميدة التي اجتمعت في عمر بن الخطاب. إذن فإذا افتخرت كل أمة برجالها فنحن لا نبالي إذا فخرنا بهذا الرجل العظيم كل الأمم ، وإذا كان هناك مبالغ في القول أو غلو في الوصف ووقف غيرنا من سير رجال الأمم المشهورين على من اتصف بكل صفات عمر فليبينه لنا وهو المتفضل ، وأنا أضع له خدى التراب اعترافاً بالحق وإقراراً بفضل ذوى الفضل من رجال العالم .

نعم إن مشهورى الرجال رجالاً أسسوا مملكات عريضة أوسع من ملك عمر ، وافتتحوا من الممالك ما لم يفتتحه ونالوا من السيادة على الشعوب الكثيرة فوق

ما نال ، ولكن هل منهم من كان كعمر جباراً غير ظالم ، كريماً غير مسرف ، عادلاً لا عن ضعف ، شجاعاً غير متهور ، قنوعاً غير شره زاهداً بغير تصنع ، حليماً من غير جبن تقياً غير متنطع ، كلاً ما نظن أن أوصافاً كهذه تجمع في رجل واحد غيره قط لاسيما إذا نشأ في بيئة كريمة وبين قوم كقومه حاطهم من البداوة معروف والتاريخ حكم عدل ، وما بسطناه من سيرته في هذا الكتاب خير شاهد أمين ولنا والله لنتمنى لكثير من مضى من خلفائنا الذين نشئوا في مهاد الحضارة وحنسكتهم نجارب الزمان وغذتهم لبان السياسة بعضاً من أخلاق عمر ، يحملون بها الأمة على طريق الخير والسعادة ويربونها على الجد ويتنسكبون بها طرق المهالك التي ساقتها إليها أيدي الظلم والاستبداد والجهل بأصول سياسة الرعية ، والله في خلقه شؤون .

أولياته :

تقدم معنا كلام طويل على آثار عمر في الخلافة وفي تلك الآثار ما هو من أولياته ونحن ننقل هنا بوجه الإجمال أوليات عمر كما ذكرها السيوطي في تاريخه فهو أول من كتب التاريخ من الهجرة ، وأول من اتخذ بيت المال ، وأول من من قيام شهر رمضان ، وأول من عس بالليل ، وأول من عاقب على الهجاء ، وأول من ضرب في الخمر ثمانين ، وأول من حرم المتعة ، وأول من نهى عن بيع أمهات الأولاد وأول من جمع الناس في صلاة الجنائز ، وأول من فتح القنوج ومسح السواد ، وأول من حمل الطعام من مصر في بحر أيلة (البحر الأحمر) إلى المدينة ؛ وأول من احتبس صدقة^(١) في الإسلام ، وأول من أعال الفرائض^(٢) وأول من أخذ زكاة الخيل ، وأول من قال أطال الله بقاءك (قاله لعل) وأول من قال أيدك الله وقال له أيضاً) وأول من اتخذ الدرة ، وأول من استقضى القضاة في الأمصار ، وأول من مصر الأمصار ، وأول من سمي أمير المؤمنين ، وكان يكتب أولاً من خليفة أبي بكر

(١) أي وقف وقفاً .

(٢) أعال من العول المعروف في الفرائض وهي أن تزيد الفريضة في الحساب فتعدل القسمة على وجه معروف عند علماء الفرائض .

أو من خليفة خليفة رسول الله حتى كتب مرة إلى عامل العراق أن يبعث إليه رجلين جلدين يسألهما عن العراق وأهله فبعث إليه ليبيد بن ربيعة وعدى ابن حاتم فقدموا المدينة ، ودخلا المسجد فوجدا عمرو بن العاص فقالا استأذن لنا على أمير المؤمنين ، فقال عمرو أنتم والله أصبتما اسمه فدخل عليه عمرو فقال السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال ما بدالك في هذا الاسم ، لتخرجن مما قلت فأخبره ، وقال أنت الأمير ونحن المؤمنون فجرى الكتاب بذلك من يومئذ .

وهو أول من اتخذ دار الدقيق يعين به المنقطع ، وأول من وسع المسجد النبوي وفرشه بالحصباء .

هذا ما نقله السيوطي من أوليات عمر عن النوى والعسكري وابن سعد ونزيد عليه أنه أول من ضرب النقود في الإسلام ، وأول من استعمل البريد لنقل الرسائل ، وأول من أقام والياً للحسبة ، وأول من شق الترع وأقام الجسور ، وأول من وضع المراقبة من الجند في الثغور وسمى الأجناد ، وأول من أمر بالعناية بالمناظر ، وأول من عين شخصاً مخصوصاً لاقتصاص أخبار العمال وتحقيق الشكايات التي تصل إلى الخليفة من عماله وهو محمد بن مسلمة ، وربما كان له أوليات أخرى غير هذه ، وقد تقدم الكلام على كل هذا مفصلاً فيما مر من هذا الكتاب .

كُتِبَهِ

إلى أبي عبيدة مبن وإلى الخليفة يوليه على جنرال السام :

أوصيك بتقوى الله الذي يبق ويغنى ما سواه ، الذي هدانا من الضلالة ، وأخرجنا من الظلمات إلى النور ، وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذي يحق عليك ، لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تنزلهم

منزلاً قبل أن تستريده^(١) لهم وتعلم كيف ماتاه ، ولا تبعث سرية إلا في كثف من الناس ، وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة ، وقد أبلاك الله في وأبلا في بك فأغمض بصرك عن الدنيا وأله قلبك عنها ، وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم (هكذا وردت صورة هذا الكتاب في تاريخ الطبري) ورأينا صورة غيرها في حقائق الأخبار وهي بنصها ،

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح : سلام عليك فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد وليتك أمور المؤمنين فلا تستحي فإن الله لا يستحي من الحق ، وإنني أوصيك بتقوى الله العظيم الذي لا يفي ويغني سواه الذي استخرجك من الكفر إلى الإيمان ، ومن الضلالة إلى الهدى ، وقد وليتك على جند خالد فاقبض الجيش منه ولا تنفذ المسلمين إلى الهلاك رجاء غنيمة ، ولا تبعث سرية إلى جمع كثير ولا تقل إنني أرجو لكم النصر ، وإياكم والتغريب وإلقاء المسلمين إلى الهلكة ، وأغمض عن الدنيا عينك وأنه عنها قلبك ، وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم واختبرت سرانهم وبينك وبين الآخرة بيت كالهام ، وقد تقدم إليه سلفك فتنتظر سيراً أو سفرأ طويلاً من دار قد مضت نضارتها وذهبت منها زهارتها فأحرم الناس الخارج إلى غيرها ، واتفق الله في شرك ونجواك وتفكر في زاد التقوى وراع المسلمين ما استطعت ، وأما الخنطة والشعير التي وجدتموها في دمشق وكثرت مشاجرتكم عليها فهي للمسلمين ، وأما الذهب والفضة ففيهما الخمس والسلام اه

وكتب إلى أبي عبيدة بلوم على تركه مصارعهم :

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة عامر بن

(١) تخبره .

الجراح ، سلام عليك فإنني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وبعد فقد ورد كتابك على مع رسلك فسرني ما سمعت من الفتح وعلمت من قتل من الشهداء ، وأما ما ذكرت من انصرافك عن قلعة حلب إلى النواحي التي قربت من إنطاكية فهذا بنس الرأي ، أترك رجلاً ملكك دياره ومدينته ثم ترحل عنه ، وتسمع أهل النواحي والبلاد بأنك ما قدرت عليه . فما هذا رأي فيضعف رأيك ، ويعلو ذكره بما صنع ، ويطمع من لم يطمع فترجع إليك الجيوش وتسكتب ملوكها ، فيأياك أن تبرح حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ، فبث الخيل في السهل والسعة ، واكفها في المضائق والجبال ، ومن المعدات إلى حد الدروب ومن صالحك منهم فاقبل صلحه ، ومن سالمك فساله ، والله خليفتي عليك وعلى جميع المسلمين ، وقد أنفذت إليك كتابي هذا ومعه أهل مشارف اليمن وهب نفسه لله ولرسوله ورغب في الجهاد في سبيل الله وهم عرب وموال رجال وفرسان والمدد يأتيك متولياً إن شاء الله تعالى اه .

كتب أبو عبيدة كتاباً إلى عمر بن الخطاب فيه بأنه لا يريد الله فائدة بانطاكية

لطبيب هوائها وعرف انه رد الجيوش إلى الرامة فأجاب بما فهم :

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح ، سلام عليك ، فإنني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأشكره ملياً (كثيراً) على ما وهب من النصر للمسلمين ، وجعل العاقبة للمتقين ، ولم يزل معيناً لطيفاً ، وأما قولك إنك لم تقم بانطاكية لطبيب هوائها ، فانه عز وجل لم يحرم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات ، فقال تعالى في كتابه العزيز (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم) ، وكان يجب عليك أن ترجع المسلمين من تعبهم ، وتدعهم يرغدون (١) في مطعمهم

(١) يتوسعون ويتنعمون .

ويريحون الأبدان النصبة في قتال من كفر بالله، وأما قولك إنك ننظر أمرى الذى آمرك به أن تدخل الدروب خلف العدو ، فأنت الشاهد وأنا الغائب والشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وأنت بمحضرة عدوك وعيونك يأتونك بالأخبار ، فإن رأيت الدخول إلى الدروب صواباً فابعث إليهم السرايا وادخل معهم بلادهم وضيق عليهم مسالكهم ، وإن طلبوا منك الصلح فصالحهم ، وأما قولك إن العرب أبصرت نساء الروم فأرادوا التزويج ، فن أراد ذلك فدعه إن لم يكن له فى الحجاز أهل ، ومن أراد أن يشتري الإماء فدعه ذلك أصون لفروجهم ، والسلام عليك وعلى جميع من معك من المسلمين ، ورحمة الله وبركاته .

(نقله والذى قبله فى حقائق الأخبار عن منشآت السلاطين لفريدون بك)

وكتب إليهم كتاباً فقرأه على الناس بالجابية ونصهم :

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبى عبيدة بن الجراح ، سلام عليك أما بعد فإنه لم يقيم أمر الله فى الناس إلا حصيف العقدة (١) بعيد الغرة (٢) لا يطلع الناس منه على عورة ولا يخفى فى الحق على جرتة (٣) ولا يخاف فى الله لومة لائم (كنز العمال) .

وكتب إلى ابنه بنصهم :

(بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد : فإن من اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه ومن شكر له زاده ، ومن قرضه جزاه ، فاجعل التقوى عماد قلبك

(١) قوله حصيف العقدة أى محكمة ، والعقدة بالضم الولاية على البلد أو هى من عقد الحبل ربطه وهى كناية عن لحكام الأمن بالمعنى الثانى ولحكام الولاية بالمعنى الأول .

(٢) الغرة هى الغفلة (٣) قال فى لسان العرب لا يصلح هذا الأمر إلا لمن لا يخفى على جرتة أى لا يفتقد على رعيته ، وفلان لا يخفى على جرتة أى لا يكتم سراً .

(م ٢٩ — أشهر مشاهير الإسلام)

وجلاء بصرك فإنه لا عمل لمن لا نية له ، ولا أجر لمن لا حسبة له ، ولا جديـد
لمن لا خلق له (العقد الفريد) .

وكتب الى أبى موسى الأشعري يوصيه :

(بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد فإن للناس نفرة عند سلطانهم ، فأعوذ
بالله أن تدركني وإياك عمياء مجهولة ، وضغائن محمولة وأهواء متبعة ودنيا
مؤثرة فأقم الحدود ولو ساعة من نهار ، وإذا عرض لك أمران أحدهما لله
والآخر للدنيا ، فأثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا فإن الدنيا تنفذ
والآخرة تبقى ، وكن من خشية الله على وجل وأخف الفساد واجعلهم يدا
يـداً ، ورجلا رجلا ، وإذا كانت بين القبائل نازرة ^(١) وتداعوا بآل فلان
فإنما تلك نجوى الشيطان فاضربهم بالسيف حتى يفيثوا إلى أمر الله ، وتكون
دعواهم إلى الله وإلى الإمام ، وقد بلغ أمير المؤمنين أن ضبة تدعو بآل ضبة ،
وإني والله ما أعلم أن ضبة ساق الله بها خيرا قط ، ولا منع بها من سوء قط
فإذا جاءك كتابي هذا فأنهكهم عقوبة حتى يفرقوا ^(٢) إن لم ينفقوا ، وألصق بغيلان
ابن خرشة من بينهم ، وعد مرضى المسلمين واشهد جنائزهم ، واقتح بابك
وباشر أمرهم بنفسك ، فإنما أنت امرؤ منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملا ،
وقد بلغ أمير المؤمنين أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك
ومركبك ليس للمسلمين مثلها ، فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة التي
مرت بواد خصيب فلم يكن لها همة إلا السمن ، وإنما حتمها في السمن
واعلم أن للعامل مردا إلى الله فإذا زاغ العامل زاغت رعيته ، وإن أشقى
الناس من شقيت به رعيته والسلام (مفتاح الأفكار) .

(١) قوله نازرة أى عداوة ، وقوله يفيثوا أى يرجعوا ،

(٢) وقوله حتى يفرقوا أى يخافوا ويقزعوا ، وإذا كانت بتشديد الراء فمعناها يتفرقوا .

وكتب الى معاوية وقيل الى أبي عبيدة

(بسم الله الرحمن الرحيم) . أما بعد : فإنى لم آلك فى كتابى إليك ونفسى خيراً ، إياك والاحتجاب وأذن للضعيف ، وأذنه حتى تبسط لسانه ، وتجرى قلبه ، وتعهد الغريب ، فإنه إذا ضال حبسه وضاق لإذنه ترك حقه وضعف قلبه ، وإنما ترك حقه من حبسه ، وأحرص على الصلح بين الناس ما لم يستتب لك القضاء ، وإذا حضرك الخصمان بالبينة العادلة والأيمان القاطعة فامض الحکم (مفتاح الأفكار) .

كتاب لأهل إيلياء « القرس »

(بسم الله الرحمن الرحيم) : هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيما وبريئها ، وسائر ملتها ، إنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من حيزها ، ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود ، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص^(١) ، فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان^(٢) ، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله ، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين ، إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية ، شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان وكتب وحضر سنة ١٥ (تاريخ الطبرى) .

(١) وفى رواية : واللصوص ، وهو الظاهر . (٢) هكذا فى الأصل .

كتاب الى اهل لد

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لد ، ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولسكنائسهم وصلبهم وسقيهم وبريتهم وسائر ملتهم ، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينقص من حيزها ولا مللها ولا من صلبهم ولا من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، وعلى أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل مدائن الشام ، وعليهم أن يخرجوا مثل ذلك الشرط إلى آخره (عن الطبري) .

كتب الى سعد في اليوم الذي يرمحل فيه من شراف

أما بعد ، فإذا كان يوم كذا وكذا فارتحل بالناس حتى تنزل فيما بين عذيب الهجانات وعذيب القوارس ، وشرق بالناس وغرب بهم (عن الطبري)

وكتب اليه أيضا جوابا عن كتابه

أما بعد ، فتعاهد قلبك ، وحادث جندك بالموعظة والنية والحسبة ، ومن غفل فليحدثهما (١) والصبر الصبر ، فإن المعونة تأتي من الله على قدر النية ، والأجر على قدر الحسبة ، والحذر الحذر على من أنت عليه وما أنت بسبيله ، واسألوا الله العافية ، وأكثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله . واكتب إلى أين بلغك جمعهم ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم ، فإنه قد منعني من بعض ما أردت الكتابة به إليك قلة على بما هجمتم عليه ، والذي استقر عليه أمر عدوكم ، فصف لنا منازل المسلمين ، والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفقة كأي أنظر إليها ، واجعلني من أمركم على الجلية ، وخف الله وأرجه ولا تدل بشيء ، واعلم أن الله قد وعدكم ، وتوكل لهذا الأمر بما لا خلف له ، فاحذر أن تصرفه عنك ، ويستبدل بكم غيركم .

(١) هكذا في الأصل ، والإحداث : الإيداء فليعبر .

وكتب الى سمرو وهو بشراف يربز المراسى وحرب الفرس مانصر

أما بعد ، فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين ، وتوكل على الله ، واستعن به على أمرك كله ، واعلم فيما لديك أنك تقدم على أمة عددهم كثير ، وعدتهم فاضلة ، وبأسهم شديد ، وعلى بلد منيع ، وإن كان سهلاً كؤوده لبحوره وفيوضه ودآدنه (١) إلا أن توافقوا غيضاً من فيض ، وإذا لقيتم القوم أو واحداً منهم فابدهم الشر والضرب ، ولما كنتم والمناظرة لجموعهم ، ولا يخدعنكم فإنهم خدعة مكرة ، أمرهم غير أمركم ، لئلا أن تجدوهم ، وإذا انتهيت إلى القادسية والقادسية في باب فارس في الجاهلية وهي أجمع تلك الأبواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الأصل ، وهو منزل رغب خصيب رحيب دونه قناطر وأنهار ممتنعة ، فتكون مسالحك على أنقابها ، ويكون الناس بين الحجر والمدن على حافات الحجر وحافات المدر والجراخ بينهما ، ثم الزم مكانك فلا تبرحه ، فإنهم إذا أحسوك أنقضتهم رموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وخدمهم وجدهم ، فإن أتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونوitem الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً إلا أن يجتمعوا وليس معهم قلوبهم ، وإن تسكن الأخرى كان الحجر في أدباركم فانصرفتم من أدنى مدبرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم ، ثم كنتم عليها أجراً وبها أعلم ، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتي الله بالفتح ويرد لكم الكرة عليهم (هذا الكتاب وما قبله عن الطبري) :

(١) كؤوده أى صعبه ، وفيوضه : أى مياهه الفائضة والدآد جمع دآداء ، وهو الفضاء الواسع ، وتوافقوا أى تلاقوا : غيضاً من فيض أى قليلاً من كثير : النقب الطريق يكون في الجبل والنقب وجمعها أنقاب ، ولعل مراده بالأنقاب هنا أنقاب القناطر التي على الأنهار ، والحجر والمدن كناية عن البادية والعران أو المدن والفضاء لأن المدر هي المدن والحجر هي نقا الرمل ، وقوله أنقضتهم أى حركتهم .

وكتب الى سعد

قد جاءني كتابك وفهمته ، فأقم مكانك حتى ينفض الله عدوك ، وأعلم
أن لها ما بعدها ، فإن منحك الله أديارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم
المدائن ، فإنه خرابها إن شاء الله (الطبري) .

وكتب اليه أبو عبيدة ومعاذ بن جبل ^{نصفه}

(بسم الله الرحمن الرحيم) : من أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى
عمر بن الخطاب : سلام عليك ، فإننا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو .
(أما بعد) فإننا عهدناك وأمر نفسك لك مهم ، فأصبحت وقد وليت أمر هذه
الامة أحمرها وأسودها ، يجلس بين يديك الصديق والعدو ، والشريف
والوضيع ، ولكل حصاة من العدل ، فانظر كيف أنت يا عمر عند ذلك .
ولنا نذكرك يوماً تغزو فيه الوجوه ، وتجب (١) له القلوب ، وتنقطع فيه
الحجج بحجة ملك قهرهم بجبروته ، والخلق داخرون (٢) له يرجون رحمته
ويخافون عقابه ، ولنا كنا نتحدث أن أمر هذه الامة يرجع في آخر زمانها
أن يكون إخوان العلانية أعداء السرية ، ولنا نفوذ بالله أن تنزل كتابنا
سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا فإننا إنما كتبنا إليك نصيحة لك والسلام .

فكتب اليهما

(بسم الله الرحمن الرحيم) : من عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة عامر بن
الجراح ومعاذ بن جبل : سلام عليكما ، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا
هو (أما بعد) فقد جاءني كتابكما تزعمان أنه بلغكما أني وليت أمر هذه الامة
أحمرها وأسودها يجلس بين يدي الصديق والعدو ، والشريف والوضيع ،

(١) تغاف .

(٢) أي أذلاء ساغرون .

وكتبتما أن انظر كيف أنت يا عمر عند ذلك ، ولأنه لا حول ولا قوة لعمر عند ذلك إلا بالله ، كتبتما تضراني ما حذرت به الأمم قبلنا ، وقديماً كان اختلاف الليل والنهار بأجال الناس يقربان كل بعيد ويبليان كل جديد ويأتیان بكل موعود ، حتى يصير الناس إلى منازلهم من الجنة والنار ، ثم توفي كل نفس بما كسبت إن الله سريع الحساب ، كتبتما زعمان أن أمر هذه الأمة يرجع في آخر زمانها أن يكون لأخوان العلانية أعداء السريرة ، ولستم بذلك ، وليس هذا ذلك الزمان ، ولكن زمان ذلك حين تظهر الرغبة والرغبة ، فتسكون رغبة بعض الناس إلى بعض لإصلاح دينهم ورغبة بعض الناس لإصلاح دنياهم ، وكتبتما تعوذاني بالله أن أنزل كتابكما منى سوى المنزل الذي نزل في قلوبكما ، ولما كتبتما نصيحة لي ، وقد صدقتما فتعهداني منكما بكتاب فلا غنى بي عنكما والسلام عليكم (مفتاح الأفكار) .

وله كتب غير هذه تقدم لإرادها في غضون أخباره ، وكتب أخرى كتبها إلى عمرو بن العاص وهو في مصر ، رأينا من تمام الفائدة أن نرجى ذكرها إلى سيرة عمرو بن العاص ، لأن إيرادها في سيرته أنسب لاشتغالها على تبادل المسكاتبة بين الاثنين في شؤون خاصة ستري في محلها إن شاء الله .

ومجوب التناصح في الإسلام

رأنت ترى من هذين الكتاتين كيف كان المسلمون يتناصحون بالمعروف عملاً بأمر كتابهم وهدى نبيهم ، ولا يمتنعون عن أداء النصيحة للإمام لكونه إماماً له عليهم السلطان ، بل يرون أن النصيحة به أخرى وله أولى ، وأن له عليهم حق الطاعة ، كما لهم عليه حق النصيحة والإرشاد إلى مواقع الخطأ والتعهد بما يقيم الأود ويصلح العمل ، شأن الأمم التي تعاون رؤساءها على البر ، وتعتمد في رفع شأنها على قوة التكافل في الحق والتعاون على شؤون الملك ، وقد انتهت بهم حرية الفكر والانطلاق عن قيود العبودية والقيام

على حسن المناصحة ، ألا يغفلوا ساعة عن نصيحة الإمام وهو من هو :
فد الأمة الإسلامية ونفخ الإسلام والمثل المضروب في التقوى والعدل عمر
ابن الخطاب رضى الله عنه وعنهم أجمعين ، وقد بلغ بهم الإغراق في حرية
الضمان وعدم الإمساك عن الحق أن قال أحدهم لمثل ذلك الخليفة العظيم
لما سأله عما إذا ترخص بأمر من أمور المسلمين (لو فعلت لقومناك تقويم
القدح) أى تقويم السهم المعوج ، كما رأيت ذلك فيما بسطناه في باب سياسته
فما ازداد ذلك الخليفة العظيم إلا سروراً بقول ذلك المسلم ، واستبشاراً في
أن المسلمين قائمون على شؤونهم ، رجال في أخلاقهم متمسكون بشرع نبيهم
متنبهون لكل خطأ يصدر عن خليفتهم ، وكان ذلك دأبه مع الناس في استطلاع
طالع ضمائرهم من جهته ليعلم مبلغ الحياة فيهم ، ويستترشد إلى عيوبه بجميل
نصيحهم وصادق قولهم ، ولم يكن يخطر له على بال أو يمر له في خيال أن
استرشاده بآراء ذوى الرأى والبصيرة من المسلمين وانتصاحه بنصائحهم فيه
حطة في شأنه أو مس لسلطانه ، لهذا كتب لأبى عبيدة ومعاذ لما نصحاه في
آخر كتابه (قد صدقنا فتمهدانى منسكاً بكتاب فلا غنى بى عنكما) وقد رأيت
فيما مر زجره لمن اعترض على قائل قال له اتق الله يا عمر ، وقوله للبعترضى
دعه فلاخير فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خير فينا إذا لم نسمعها ، إذا تقرر هذا
علمنا أن التناصح بين المسلمين واجب لا يستثنى منه أمير ولا صغير ، بل
الأمير أولى بأن ينصح ويستنصح بسبب ما أوسد إليه من أمور الملك التى
ليس من طوق الأحاد القيام بها ، إلا إذا سلكوا سبيل الأثرة أو أطاعوا
هوى النفوس فكان الانفراد بالسلطان والتسلط على الرعية والتطوح بمصالح
الملك والدولة في مهاوى الهوى أحب إليهم من الاتصاح بنصيحة الأعوان
والأخذ على شكائم النفوس الأماراة بالسوء ، التى يقودها الهوى إلى تصور
أن الإمارة مرتبة لا ينبغي لها أن تكون إلا في مصاف الملائكة المقربين
أو الأنبياء المعصومين ، وحيداً لو تحقق هذا التصور لإنسان من أولئك

الأمراء ، إذن والله لحكموا الناس بحكم الأنبياء ، وهو هو التناصح الذى يهربون منه التعاون الذى يترفعون عنه ، وحسب هذا الترفع آفة أنه أودى بدولة بنى مروان فى إبان شبابه كما أودى بكثير من أضرابها .

المناصحة بالمعروف أس من أسس السعادة القومية فى كل قبيل وعصر ، بل هى مدرسة الأمة التى يتربى فيها الأخلاق وتنمو الفضيلة وتتطهر الأعراق وتنبث روح الألفة والتعاون ، وليس لمدرسة مثلها أثر فى الأخلاق : مؤثر فى نفوس الأمة قط ، إذ تتناول بالتعليم الكبير والصغير عفواً بلا أجر ، وتسرى روحها بين كل الطبقات مختارة بلا إكراه ، فيربى الكبير الصغير ويرشد المهتدى الضال ، وينصح الصغير الأمير ، وكلهم يتبادل العوض مع الآخر بما ينفعه فى أخلاقه ويقوم أوده فينتفع الكل بالكل ، وتعم السعادة والرخاء سائر الناس .

أجل هذه هى المدرسة التى ربت مثل معاذ وأبى عبيدة وعمر وأضرابهم من عامة المسلمين وخاصتهم ، فسادوا بالمناصحة والإخلاص على كل الأمم وأدهشت سيرتهم عقول الشعوب ، وامتد ظل سلطانهم على نصف الكرة وناهم من السعادة والعز والمجد فوق ما رأيت فى هذا الكتاب .

وهى هى المدرسة التى علمت الشعوب الأوربية حرية الضمائر والأفكار ، ورفعتهم من حضية الجهالة ، وسلكت بهم سبيل المجد وسودتهم لهذا العهد على الأمم ، فملكوا ثلاثة أرباع المعمور ، وقضوا على استقلال الدول الشرقية ، فمحوا بعضه محواً ، وجعلوا بعضه صورة فى الخيال قد باتت على وشك الزوال ، كما زالت دول الهند العظيمة وإفريقيا الكبيرة والجاوى والقرىم وبخارى وسمرقند ومالا يعد من الشعوب والدول الإسلامية .

ليس بعجيب أن يصير المسلمون فى أسر الدول المتغلبة ، ويتقلص ظل

مجدهم عن الأرض بعد إذ كان شأنهم في المناصحة والقيام على الحق ما ذكر ،
ثم بلغ ترك المناصحة وانحطاط النفوس والأخلاق بفريق كبير منهم أن
صاروا يعدون الناصح بالمعروف خارجاً عن دينه خارجاً على سلطانه ،
والدين يقول (يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على
أنفسكم) (وإذا قلتم فاعدوا ولو كان ذا قربى) والنبي صلى الله عليه وسلم
يقول (من لم يحمّد عدلاً ولا يذم جوراً فقد بارز الله تعالى بالمحاربة) (١) .

ومن البديهي أن مدح العدل وذم الجور إنما يكون بأن يقول المسلم
للعادل المحسن عدلت وأحسننت ، وللجائر على نفسه أو على غيره جرت
وأسأت ، فاستقم كما أمرت ، وهو من باب الأمر بالمعروف والنهي عن
المُنكر ، الذي وردت آياته الباهرة في الكتاب الكريم .

ومن الإغراق في الجمالة والتناهي في الانحطاط أن يرى المسلمون بلادهم
تتخرب واستقلالهم ينتزع وملكتهم يزول ودولتهم تدول ، والأوروبيون
قد غلبوهم على أمرهم وزاحموهم في ملكهم وتحكموا فيهم وفي دولهم وسبقوهم
في العلم والمعارف والاختراع وأجلبوا عليهم بالخيول والرجل وسدوا دونهم
منافذ الصناعة والتجارة ، وإذا دعاهم ناصح من إخوانهم غيور من بني دينهم
إلى النظر في أسباب انحطاطهم وارتقاء غيرهم وتقهرهم وتقدم سواهم
وأبان لهم طرفاً من تلك الأسباب وحكمهم في التفريق بين خطئها والصواب
أعرضوا عنه لإعراض المريض عن الماء الزلال ، بل ربما راماه بعضهم بأنواع
الزور وتقرب بماله وأهله ودمه إلى ولاية الأمور رجاء نيل الخطوة عندهم
والتزلف إليهم واكتساب رضاهم ، وإن أغضب الله والمروءة والوجدان ،
وخرج عن الإنسانية والدين إذ لا وازع من النفس ينهاه ولا فضيلة تلوى
عنان شهوته عن ظلم أخيه ، والشواهد على هذا كثيرة في الأشخاص والأعمال

(١) أخرج هذا الحديث في أسد الغابة في ترجمة المغيرة بن نوفل .

سنأتى على بيانها فى محالها إن شاء الله لتكون عبرة يتعظ بها الآتى والحاضر
وصورة فى التاريخ تهرب قلوب الأشرار وتزعج عن مواطئ الرذيلة
أقدام الفجار .

خطبه

أوردنا عند ذكر استخلافه أول خطبة خطبها ، ورأينا فى رواية
أخرى رواها ابن الجوزى فى المناقب عن جامع بن شداد عن أبيه ورواها
غيره من المحدثين من طرق أخرى أن أول خطبة خطبها عمر رضى الله عنه
أن صعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وقال .

(اللهم إني شديد فلينى ، وإني ضعيف فقونى ، وإني بخيل فسخنى)
وقد رأينا هذه الخطبة فى العقد الفريد بعبارة أطول إلا أنها لا تخرج عن
هذا المعنى .

وفى تاريخ الحافظ ابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال لما ولى
عمر بن الخطاب خطب الناس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال .

أيها الناس إني قد علمت أنكم كنتم تؤنسون منى شدة وغلظة ، وذلك
أنى كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنتم عبده وخادمه وجلازه
(شرطيه) ، وكان كما قال الله تعالى بالمؤمنين رءوفا رحيمًا ، وكنت بين يديه
كالسيف المسلول إلا أن يحمى منى أو ينهى عن أمر فأكف عنه ، وإلا أقدمت
على الناس لمكان أمره فلم أزل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك
حتى توفاه الله وهو عنى راض والحمد لله على ذلك كثيرًا وأنا به أسعد ، ثم
قت ذلك المقام مع أبى بكر الصديق خليفة رسول الله بعد رسول الله وكان

من قد علمتم في رغبة ولينه ، فكنت خادمه وجلوازه وكنت كالسيف
المسلول بين يديه على الناس ، أخلط شدتي بليته إلا أن يتقدم إلى فأ كف
وإلا أقدمت ، فلم أزل حتى توفاه الله فكان عني راضياً والحمد لله على ذلك
كثيراً وأنا به أسعد . ثم صار أمركم اليوم إلى وأنا أعلم أنه يقول قائل كان
يشتد علينا والأمر إلى غيره فكيف به لما صار الأمر إليه ، فاعلموا أنكم
لا تسألون عني أحداً قد عرفتموني وخبرتموني وقد عرفت بحمد الله من محمد
نبيكم صلى الله عليه وسلم ما قد عرفت ، وما أصبحت نادماً على شيء كنت أحب
أن أسأله إلا وقد سألته ، واعلموا أن شدتي التي كنتم ترونها ازدادت أضعافاً عن
الأول على الظالم والمتعدي ، والأخذ للمسلمين للضعيفهم من قويمهم ، ولاني بعد
شدتي تلك واضع خدي إلى الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف ، إن كان
بيني وبين من هو منكم شيء من أحكامكم أن أمشي معه إلى من أحبه منكم
فينظر فيما بيني وبينه : فأتقوا الله عباد الله وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر وإحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم^(١) .

وفي تاريخ الحافظ ابن عساكر أيضاً عن الشعبي قال : لما ولي
عمر بن الخطاب صعد المنبر فقال .

ما كان الله ليراني أن أرى نفسي أهلاً لمجلس أبي بكر فنزل مرفاة فحمد الله
وأثنى عليه ثم قال : اقرءوا القرآن تعرفوا به واعملوا به تكونوا من أهله
وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وترتبوا للعرض الأكبر يوم تعرضون على
الله لا تخفى منكم خافية . لأنه لم يبلغ حق ذي حق أن يطاع في معصية الله^(٢)

(١) تصرفت تصرفاً طفيفاً ببعض الألفاظ الواردة بهذه الخطبة لأن الناسخ الذي نسخ
لى سيرة عمر من تاريخ ابن عساكر من مكتبة دمشق لم يتمكن من ضبط الألفاظ المشوشة
والمتشابهة لسقاية خط التاريخ .

(٢) يعنى بذى الحق نفسه وهو الحق الذى يعين به حد السلطة العليا بما لا يتعدى ما أمر
الله من العدل إلى ما تأمر به النفس وتطلبه السيادة وهو من قبيل قول أبي بكر رضى الله عنه

ألا وإنى أنزلت نفسى من مال الله بمنزلة ولى اليتيم إن استغثت عفت وإن
افتقرت أكلت بالمعروف .

وفى الخراج لأبى يوسف خطبة بهذا المعنى إلا أنها أطول وأجمع رواها
عن طلحة بن معدان قال :

خطبنا عمر بن الخطاب خطبة فحمد الله وأثنى عليه ، ثم صلى على النبي
صلى الله عليه وسلم وذكّر أبا بكر فاستغفر له ثم قال : أيها الناس لم يبلغ
ذو حق فى حقه أن يطاع فى معصية الله ، وإنى لا أجد هذا المال يصلحه
إلا خلال ثلاث أن يؤخذ بالحق ويعطى فى الحق ويمنع من الباطل ، وإنما
أنا وما لسكم كولى اليتيم إن استغثت استعفت وإن افتقرت أكلت
بالمعروف ، ولست أدع أحداً يظلم أحداً ولا يعتدى عليه حتى أضع خده
على الأرض وأضع قدمى على الخد الآخر حتى يذعن للحق ، ولسكم على
أيها الناس خصال أذكرها لسكم نخذونى بها : لسكم على ألا أجبى شيئاً من
خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه ولسكم على إذا وقع فى يدى
ألا يخرج منى إلا فى حقه : ولسكم على ألا أزيد أعطياتكم وأرزاقكم إن شاء
الله وأسد ثغوركم : ولسكم على ألا ألقىكم فى المهالك ولا أجركم (أحبسكم)
فى ثغوركم ، وقد اقترب منكم زمان قليل الأمان كثير القراء قليل الفقهاء كثير
الأمم يعمل فيه أقوام للآخرة ، يطلبون به دنيا عريضة تأكل دين صاحبها
كما تأكل النار الحطب ، ألا من أدرك ذلك منكم فليتيق الله ربه وليصبر :
يا أيها الناس إن الله عظيم حقه فوق حق خلقه ، فقال فيما عظم من حقه
دولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم
مسلمون ، ألا وإنى لم أبعثكم أمراء ولا جبارين ، ولكن بعثتكم أئمة الهدى

==عنه فى إحدى خطبه أطبعونى ما أطعت الله فيكم ، فرضى الله عن تلك النفوس السامية ما كان
أعرفها للحق والعدل ، وألزمها لشرعة الإنصاف مع الرعية .

يهتدى بكم ، فأدروا على المسلمين حقوقهم ولا تضربوهم فتذلوهم ولا تجحروهم
فتفتموهم ، ولا تغلقوا الأبواب دونهم فيما كل قويمهم ضعيفهم ، ولا تفسأثروا
عليهم وقاذلوهم الكفار طاعتهم فإذا رأيتم بهم كلاله فكلموا عن ذلك فإن ذلك
أبلغ في جهاد عدوكم ، أيها الناس إني أشهدكم على أمراء الآلهصار إني لم أبعثهم
إلا ليفقهوا الناس في دينهم ويقسموا عليهم فيهم ويحكموا بينهم فإن أشكل
عليهم شيء رفعوه إلى الله .

هذه الخطبة من أجمع خطبه ، لأنها تمثل عدله وسياسته وعقيدته وتحدد
وظيفته وتبين مقاصده وتنبئ عن إخلاصه في خدمة المسلمين ، وشدة على
الظالمين ورأفته بالمظلومين إلى غير ذلك مما يدركه الفارء من معاني هذه
الخطبة الغراء فرضى الله عنه .

وخطب خطبة :

فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

يا أيها الناس إني قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم
وأفواكم عليكم وأشدكم استبضاعاً بما ينوب عن مهم أموركم ما توليت ذلك
منكم ، ولكنني عمر مهمم مخزوناً موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذها
ووضعها أين أضعها وبالسير فيكم كيف أسير فربي المستعان فإن عمر أصبح
لا يثق بقوة ولا حيلة إن لم يتداركه الله عز وجل برحمته وعونه وتأييده
(تاريخ "طبري") .

وخطب فقال :

إن الله عز وجل قد ولاني أمركم وقد علمت أنفع ما يحضرنكم لكم ،
ولاني أسأل الله أن يعينني عليه وأن يحرسني عنده كما حرسني عند غيره ، وأن
يلهمني العدل في قسمكم كالذي أمر به ، ولن يغير الذي وليت من خلافتكم من
خليقي شيئاً إن شاء الله ، إنما العظمة لله عز وجل وليس للعباد منها شيء ، فلا
يقولن أحد منكم إن عمر تغير منذ ولي ، أعقل الحق من نفسي وأتقدم وأبين

لكم أمرى فأما رجل كانت له حاجة أو ظلم مظلمة أو عتب علينا في خلق فليؤذنى (١) فإنما أنا رجل منكم فعليكم بتقوى الله في سركم وعلايتكم ، وحرمانكم ، وأغراضكم وأعطوا الحق من أنفسكم ، ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا إلى فإنه ليس بيني وبين أحد من الناس هوادة (٢) ، وأنا حبيب إلى صلاحكم عزيز على عتبكم ، وأتم أناس عامتكم حضر في بلاد الله وأهل بلد لا زرع فيه ولا ضرع إلا ما جاء الله به إليه ، وإن الله عز وجل قد وعدكم كرامة كثيرة وأنا مسئول عن أمانتي وما أنا فيه ومطلع على ما بحضرتي بنفسى إن شاء الله لا أكله إلى أحد ولا أستطيع ما بعد منه إلا بالأمناء وأهل النصيح منكم للعامة ولست أجعل أمانتي إلى أحد سواهم إن شاء الله (تاريخ الطبري) .

ومطلب أيضا

فقال بعد ما حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، أيها الناس إن بعض الطمع فقر وإن بعض اليأس غنى ، وإنكم تجمعون ما لا تأكلون وتأملون ما لا تدركون ، وأتم مؤجلون في دار غرور ، كشم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤخذون بالوحي ، فمن أسر شيئاً أخذ بسريته ومن أعلن شيئاً أخذ بعلايته فأظهروا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر ، فإنه من أظهر لنا شيئاً وزعم أن سريته حسنة لم نصدقه ، ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسناً ، واعلموا أن بعض الشح شعبة من النفاق (فأنفقوا خيراً لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) أيها الناس اطيعوا مشواكم وأصلحوا أموركم واتقوا الله ربكم ، ولا تلبسوا نساءكم القبايط فإنه إن لم

(١) أي فليعلمني وهي من آذنه بالأمر أي أعلمه به .

(٢) الهوادة بالفتح الصلح والاختصاص بالميل .

يشف فإنه يصف (١) أيها الناس إنى لوددت أن أنجو كغافاً لا لى ولا على ولا فى لأرجو إن عمرت فيكم يسيراً أو كثيراً أن أعمل بالحق فيكم إن شاء الله وألا يبقى أحد من المسلمين وإن كان فى بيته إلا أتاه حقه ونصيبه من مال الله ولا يعمل إليه نفسه ولم ينصب إليه (٢) يوماً وأصلحوا أموالكم التى رزقكم الله ولقليل فى رفق خير من كثير فى عنف، والقليل حتف من الحتوف يصيب البر والفاجر، والشهيد من احتسب نفسه وإذا أراد أحدكم بعير أفليه عمداً إلى الطويل العظيم فليضربه بعصاه فإن وجده حديد الفؤاد فليشتره (تاريخ الطبرى) .

ونخطب أيضاً :

فقال: إن الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر ، واتخذ عليكم الحج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا عن غير مسئلة منكم له ولا رغبة منكم فيه لإيه ، خلقكم تبارك وتعالى ولم تكونوا شيئاً لنفسه وعبادته ، وكان قادراً أن يجعلكم لأهون خلقه عليه فجعل لكم عامة خلقه عليه ولم يجعلكم لشيء غيره ، وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ (٣) عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، وجعلكم فى البر والبحر ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ، ثم جعل لكم سمعاً وبصراً ومن نعم الله عليكم نعم عم بها بنى آدم ومنها نعم اختص بها أهل دينكم ثم صارت تلك النعم خواصها وعوامها فى دولتكم وزمانكم وطبقتكم ، وليس من تلك النعم نعمة وصلت إلى امرئ خاصة إلا لو قسم ما وصل إليه منها بين الناس كلهم أتعجبهم

(١) القباطى أثواب مشهورة وشف رق المحي ماتحته ويصف لعله من الوصف أو من الموصف وهو أن يصفوا الشيء بعضهم لبعض

(٢) ولا يعمل إليه نفسه أى لا يجهد نفسه إليه أى يأتيه بلا طالب ، ولم ينصب أى لم يتعب

(٣) أفان

شكرها وفدحهم (١) حقها ، إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله فأنتم مستخلفون في الأرض قاهرون لأهلها قد نصر الله دينكم ، فلم تصبح أمة مخالفة لدينكم إلا أمثال أمة مستعبدة للإسلام وأهله يجزون لكم يستصفون معائشهم وكداً ثمهم ورشح جباههم (٢) ، عليهم المؤونة ولكم المنفعة وأمة تنظر وقائع الله وسطواته في كل يوم وليلة قد ملأ الله قلوبهم رعباً فليس لهم معقل (٣) يلجئون إليه ولا مهرب يتقون به ، قد دهمتهم جنود الله عز وجل ونزلت بساحتهم مع رفاغة العيش (٤) واستفاضة المال ، وتتابع البعث وسد الثغور ياذن الله مع العافية الجليلة العامة ، التي لم تكن هذه الأمة على أحسن منها مذ كان الإسلام والله المحمود مع الفتوح العظام في كل بلد ، فاعسى أن يبلغ مع هذا شكر الشاكرين وذكر الذاكرين واجتهاد المجتهدين مع هذه النعم التي لا يحصى عددها ولا يستطيع أداء حقها إلا بعون الله ورحمته ولطفه فنسأل الله الذي لا إله إلا هو الذي أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمسايرة إلى مرضاته ، واذكروا عباد الله بلاء الله عندكم واستنموا نعمة الله عليكم وفي مجالسكم مثنى وفرادى ، فإن الله عز وجل قال لموسى (أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكركم بأيام الله) وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض) فلو كنتم إذ كنتم مستضعفين محرومين خير الدنيا على شعبة من الحق تؤمنون بها وتستريحون لآلها مع المعرفة بالله ودينه وترجون بها الخير فيما بعد الموت لكان ذلك ، ولكنكم كنتم أشد الناس معيشة وأثبتته بالله

(١) أقتلهم

(٢) قوله يجزون أى يعطون الجزية ، وكداً ثمهم أى سبيهم أو مكابهم ، ورشح

الجباه عرقها

(٣) حصن وملجأ

(٤) رفاغة العيش سعة وخصبه

جهالة ، ولو كان هذا الذى استشلاككم (١) به لم يكن معه حظ فى دنياكم ، غير أنه ثقة لكم فى آخرتكم التى إليها المعاد والمنقلب ، وأنتم من جهد المعيشة على ما كنتم عليه أحرى أن تشحوا على نصيبكم منه وأن تظهروه على غيره قبله ، أما إنه قد جمع لكم فضيلة الدنيا وكرامة الآخرة ، ومن شاء أن يجمع له ذلك منكم فأذكركم الله الحائل بين قلوبكم إلا ما عرفتم حق الله فعملتم له وقسرتم أنفسكم على طاعته ، وجمعت مع السرور بالنعم خوفاً لها ولا تتقاهها ووجلا منها ومن تحويلها فإنه لا شيء أسلب للنعمة من كفرانها ، وأن الشكر أمن للغير ونماء للنعمة واستجلاب للزيادة ، هذا الله على من أمركم ونهيك واجب (تاريخ الطبرى) .

٩ — وخطب لما شيع بهيئته سمع به أبى وقاص

إن الله تعالى ضرب لكم الأمثال وصرف لكم القول ليحيى به القلوب ، فإن القلوب هيمة فى صدورهم حتى يحييها الله ، من علم شيئاً فلينتفع به . وإن للعدل أمارات وتبشير فأما الأمارات فالحياء والسخاء والهيئ واللين ، وأما التبشير فالرحمة ، وقد جعل الله لكل أمر باباً ، وبسر لكل باب مفتاحاً ، فباب العدل الاعتبار ومفتاحه الزهد ، والاعتبار ذكر الموت بتذكر الأموات والاستعداد له بتقديم الأعمال ، والزهد أخذ الحق من كل أحد قبله حق (أى عنده) وتأدية الحق إلى كل أحد له حق ، ولا تصانع فى ذلك أحداً ، واكتف بما يكفيه من الكفاف فإن من لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء ، إني بينكم وبين الله وليس بيني وبينه أحد وإن الله قد ألزمنى رفع الدعاء عنه فأتموا شكائكم إلينا ، فمن لم يستطع فإلى من يبلغناها نأخذ له الحق غير متع (٢) (تاريخ الطبرى)

(١) استشلاه دماء لينجيهم من ضيق أو هلاك

(٢) فى القاموس تغتمه أى تلتله وحركه بعنف أو أكرهه فى الأمر

١٠ — وسمع مرة أن نفرأ يقولون لو مات عمر لبايعنا فلاناً اعتماداً منهم على أن بيعة أبي بكر تمت بمبايعة نفر من المهاجرين والأنصار فأراد عمر رضى الله عنه أن يبين لهم أن بيعة أبي بكر كانت فلتة وأن أهليته واستعداده وخرج الموقف الذى وقف به المسلمون يومئذ سوغ تلك البيعة ، فخطب فيهم هذه الخطبة التى رواها الشيخان فقال :

قد بلغنى أن فلاناً منكم يقول لو مات عمر بايعت فلاناً فلا يعتزن امرؤ أن يقول إن بيعة أبي بكر كانت فلتة ، ألا وإنها كانت كذلك إلا أن الله وثق شرها ، وليس فيكم اليوم من تقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر وإنه كان من خيرنا حين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن علياً والزبير ومن معهما تخلفوا في بيت فاطمة وتخلفت الأنصار عنا بأجمعها في سقيفة بنى ساعدة ، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر فقلت يا أبا بكر انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار فانطلقنا نؤمهم حتى لقينا رجلاً صالحاً فذكر لنا الذى صنع القوم ، فقالا أين تريدون يا معشر المهاجرين قلت نريد إخواننا من الأنصار فقالا عليكم أن لا تقربوهم وافضوا أمركم يا معشر المهاجرين ، فقلت والله لنأتينهم . فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بنى ساعدة فإذا هم مجتمعون وإذا بين ظهرانيهم رجل مزمل فقلت من هذا قالوا سعد بن عبادة فقلت ماله قالوا وجع ، فلما جلسنا قام خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله وقال (أما بعد) فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا وقد دفت دافة^(١) منكم يريدون أن تحتزلونا من أصلنا وتحصنونا من الأمر ، فلما سكنت أردت أن أتكلم وقد كُنت زورت مقالة أعجبتنى أردت أن أقولها بين يدي أبي بكر ، وقد كنت أدارى منه بعض الجذ وهو كان أحلم منى وأوفر

(١) الدفة الجيش يدفعون نحو العدو ، والاختزال : الانتطاع ، وتحصنونا تكفوننا

فقال أبو بكر على رسالك فكبرهت أن أغضبه وكان أعلم مني ، والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قالها في بداهته وأفضل حتى سكنت فقال .

أما بعد فما ذكرتم من خير فأنتم أهله ولم تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قریش، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين أيهما شئتم. فأخذيدي وييد أبي عبيدة بن الجراح ، فلم أكره مما قال غيرها وكان والله أن أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك ، من ثم أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر فقال قائل من الأنصار أنا جديلم المحكك وعذيقها المرجب ، منا أمير ومنكم أمير، يامعشر قریش وكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى خشيت الاختلاف فقلت : ابسط يدك يا أبا بكر فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون ثم بايعه الأنصار، أما والله ما وجدنا فيما حضرنا أمراً هو أوفق من مبايعة أبي بكر ، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة ، فإما أن نبايعهم على مالا نرضى ، وإما أن نخالفهم فيكون فيه فساد .

١١ - وخطب فقال :

أيها الناس ما الجزع مما لا بد منه ، وما القبطع فيما لا يرجى وما الخيلة فيما سيزول ، وإنما الشيء من أصله وقد مضت قبلنا أصول ونحن فروعها فما بقاء الفرع بعد أصله ، إنما الناس في هذه الدنيا أغراض تنتقل^(١) المنايا فيهم وهم نصف المصائب ، مع كل جرعة شرق وفي كل أكلة غصص لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يستقبل معمر من عمره شيئاً إلا بهدم آخر من أجله ، وأنتم أعوان الختوف على أنفسكم فأين المهرب مما هو كائن ، وإنما

(١) في أساس البلاغة وخرجوا إلى النضال وهم يتناضلون ويتناضون : وممناء يترامون ويتبارون .

ينقلب الهارب في قدرة الطالب ، فأصغر المصيبة اليوم مع عظم الفائدة غداً
وأكثر جنبه الجانب ، جعلنا الله وإياكم من المتقين (مفتاح الأفكار) .

١٢ - ومُطِب فقال :

أيها الناس : إنه أتى على حين وأنا أحسب أن من قرأ القرآن إنه إنما يريد
به الله وما عنده إلا وقد خيل إلى أن أقواماً يقرءون القرآن يريدون به ما عند
الناس ، ألا فأريدوا الله بقراءتكم وأريدوه بأعمالكم ، فإننا كنا نعرفكم إذ
الوحي ينزل وإذ النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا فقد رفع الوحي وذهب
النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فإنما نعرفكم بما أقول لكم ألا فن أظهر لنا
خيراً ظننا به خيراً وأثنينا به عليه ، ومن أظهر لنا شراً ظننا به شراً وأبغضناه
عليه ، اقدعوا^(١) هذه النفوس عن شهواتها فإنها طلعة فإنكم إلا تقدعوها
تنزع بكم إلى شر غاية ، إن هذا الحق ثقيل مرء ، وإن الباطل خفيف وبع
وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ، ورب نظرة زرعت شهوة وشهوة ساعة
أورثت حزناً طويلاً (مفتاح الأفكار) .

١٣ - ومُطِب فقال :

إنما الدنيا أمل محترم^(٢) وأجل منتقض وبلاغ إلى دار غيرها ، وسير
إلى الموت ، ليس فيه تعريج ، فرحم الله امرأً فكر في أمره ونصح لنفسه
وراقب ربه واستقال ذنبه ، بش الجار الغني يأخذك بما لا يعطيك من نفسه
فإن أبيت لم يعذرك ، إياكم والبطنة فإنها مكسلة عن الصلاة ومفسدة
للجسم ومؤدية إلى السقم ، وعليكم بالقصد في قوتكم فهو أبعد من السرف
وأصح للبدن وأقوى على العبادة ، وإن العبد إن يهلك حتى يؤثر شهوته
على دينه (مفتاح الأفكار)

(١) قوله اقدعوا أى كفوا ، وقوله نفس طلعة تكثر التطلم إلى المعنى .

(٢) محترم أى منتقم وقوله منتقض من الانتقاض وهو التراجع والانتكاث .

١٤ — خطبته بالجابية عند أوبته مع الشام إلى المدينة :

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه ، ألا إني قد وليت عليكم وقضيت الذي على في الذي ولاني الله من أمركم إن شاء الله قسطننا بينكم فيتمكم ومنازلكم ومغازيكم ، وأبلغنا ما لديكم فجندنا لكم الجنود وهبنا لكم الفروج وبوأناكم ووسعنا عليكم ما بلغ فيكم وما قاتلتم عليه من شأكم وسمينا لكم أطعاكم وأمرنا لكم بأعطياتكم وأرزاقكم ومعاونكم ، فمن علم علم شيء ينبغي العمل به إن شاء الله ولا قوة إلا بالله (تاريخ الطبري)

مقتل عمر

ذكر أرباب السير والمحدثون عن مقتل عمر أن أبا لؤلؤة غلام المغيرة ابن شعبة شكاً إليه ارتفاع الخراج الذي ضربه عليه مولاه المغيرة ، وطلب إليه تخفيفه فمن قائل إنه وعده خيراً ، وعزم أن يلقي المغيرة في تخفيف الخراج عنه ، ومن قائل إنه سأله كم خراجك قال درهمان في كل يوم قال وايش صناعتك قال نحاس نقاش حداد ، قال فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال فتوعده الغلام وانصرف ، فقال عمر توعدتني العبد .

قالوا ولما انصرف عمر إلى منزله جاءه من الغد كعب الأحبار فقال يا أمير المؤمنين ، اعهدي فإنك ميت في ثلاثة أيام ، قال وما يدريك قال أجده في كتاب الله عز وجل التوراة ، قال عمر الله إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ، قال اللهم لا ولكني أجد صفتك وحليتك وأنه قد فني أجلك ، قال وعمر لا يحس وجعاً ولا ألماً ، فلما كان من الغد جاءه كعب فقال يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقي يومان ، وهكذا مازال يحبسه كل يوم إلى

مساء اليوم الذى قتل فى صبيحته . وعمن روى هذا الخبر وذكر فيه قول كعب
هذا ابن جرير الطبرى فى تاريخه رواه عن المسور بن مخرمة .

وروى فى أسد الغابة عن أبى رافع أن أبا لؤلؤة لما طلب إلى عمر ما طلب
قال له عمر اتق الله وأحسن إلى مولاك ، ومن نية عمر أن يلتقى المغيرة
فيكلمه أن يخفف عنه فغضب العبد ، وقال وسع الناس كلهم عدله غيرى
فأضمر على قتله ، فاصطنع له خنجرأ له رأسان وشحذه وسمه ثم أتى به الهرمزان
فقال كيف ترى هذا قال إنك لا تضرب به أحداً إلا قتلته ، قال فتحن
أبو لؤلؤة عمر فجاءه فى صلاة الغداة حتى قام وراء عمر ، وكان عمر إذا
أقيمت الصلاة يقول أقيموا صفوفكم فقال كما كان يقول ، فلما كبر وجأه
(طعنه) أبو لؤلؤة فى كتفه ووجأه فى خاصرته وقيل ضربه ست ضربات
فسقط عمر ، وطعن أبو لؤلؤة بخنجره ثلاثة عشر رجلاً (ممن حاولوا
القبض عليه) فهلك منهم سبعة .

وفى رواية أن أحد المسلمين ألقى على أبا لؤلؤة برنساً ليتمكن من القبض
عليه ، فلما أحس أنه مأخوذ انتحر بخنجره : وفى رواية الطبرى وغيره أن
عمر لما سقط قال أفى الناس عبد الرحمن بن عوف قالوا نعم هو ذا ، قال
تقدم فصل بالناس ، فصلى عبد الرحمن بالناس صلاة خفيفة وعمر طريح
ثم احتمل فأدخل داره فدعا بعلی وعثمان والزبير وسعد وأمرهم أن يتشاوروا
فى أمر الخلافة ، وقال لهم انتظروا أخاكم طلحة ثلاثاً فإن جاء وإلا فاقضوا
أحدكم وليشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء ، قوموا فتشاوروا
وليصل بالناس صهيب ، ثم قال لأبى طلحة الأنصارى يا أبا طلحة إن الله
أعز بكم الإسلام فاختار خمسين رجلاً من الأنصار وكونوا مع هؤلاء الرهط
حتى يختاروا رجلاً منهم ، وقال للبقداد بن الأسود إذا وضعتونى فى حضرتى
اجمع هؤلاء الرهط وقم على رؤوسهم فإن اجتمع خمسة على رأى واحد

وأبى واحد فأشدخ رأسه بالسيف ، وإن اجتمع أربعة ورضوا وأبى الاثنان
فاضرب رأسيهما ، فإن رضى ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله
ابن عمر ، فإن لم يرضوا بعبد الله فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن
ابن عوف واقتلوا الباقيين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس .

وفي المناقب عن ابن ميمون قال لما طعن عمر دخل عليه كعب فقال :
(الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) قد أنبأتك أنك شهيد ، فقلت
من أين لى الشهادة وأنا فى جزيرة العرب . وفى تاريخ الطبرى إن المهاجرين
والأنصار جعلوا يدخلون على عمر لما طعن فيسلمون عليه ، ويقول لهم
أعن ملا منكم كان هذا ، فيقولون معاذ الله ، ودخل فى الناس كعب فلما نظر
إليه عمر أنشأ يقول :

فأوعدنى كعب ثلاثاً أعدها ولا شك أن القول ما قال لى كعب
وما بى حذار الموت لى لميت ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

وفى رواية أبى جعفر الطبرى أن عبيد الله بن عمر قتل بأبيه ابنة أبى لؤلؤة
وقتل جفينة رجلا نصرانياً من أهل الحيرة أتى به سعد بن أبى وقاص ليعلم
الناس الكتابة ، وقتل الهرمزان ، وإن سبب قتله للثنتين الآخرين أن
عبد الرحمن بن أبى بكر قال غداة قتل عمر ، رأيت عشية أمس الهرمزان
وأبا لؤلؤة وجفينة وهم يتتاجون فلما رأوني ثاروا ، وسقط منهم خنجر له
نصابه فى وسطه وهو الخنجر الذى ضرب به عمر فقتلهم عبيد الله ، وقال
والله لأقتلن رجلا من شرك فى دم أبى يعرض بالمهاجرين والأنصار ، فبلغ
ذلك صهيياً فبعث إليه عمرو بن العاص ، فما زال به حتى أخذ منه السيف ، ثم
ثاوره سعد بن أبى وقاص وأخذه وحبسه فى داره .

هذه الروايات التى جاءت فى قتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ومن

أمعن فيها النظر وراجع ما كتبناه عن الهرمزان ونكثته عهد المسلمين قبل أسره المرة بعد المرة ، وكيف احتال للخلاص من القتل ثم إذا أضاف إلى هذا ما ذكرناه في أخبار نهاوند من أن أبا لؤلؤة فارسي الأصل من نهاوند وقد كان أسره الروم ثم أسره منهم المسلمون ، ولما قدم سبي نهاوند إلى المدينة جعل أبو لؤلؤة لا يلقي منهم صغيراً إلا مسح رأسه وبكى ، وقال له أكل عمر كبدي وإن جفينة نصراني وإن كعب الأحبار يهودي حديث عهد بالإسلام وأن مراجل الحقد على عمر وتدويخه لبلادهم وقهره لهم ولملوكهم كانت تغلي في صدور هؤلاء الدخلاء في الدين اتضح لديه أن قتل عمر لم يكن إلا عن مؤامرة بين أولئك الدخلاء كما شهد بذلك عبد الرحمن بن أبي بكر وإن السبب الظاهر الذي اختلقه أبو لؤلؤة تحته أسباب أهم وأعظم وهي الغيظ والحقد على المسلمين ، وإن كعباً كان واقفاً على أمر هذه المؤامرة فأنذر عمر بالقتل قبل ثلاثة أيام من قتله ، وإلا فقوله لعمر إنه رأى خبر قتله في التوراة كلام غير معقول يرفضه العقل بتاتا وليس عليه دليل ، كما أنه ليس لكعب أن يعلم الغيب وإنما علمه عند الله ، ومن المحتمل ألا يكون لكعب الأحبار يد في هذه المؤامرة إلا أنه علمها وأراد أن يعرض بذكرها لعمر رضي الله عنه بالسكناية تحذيراً له ، ولم يشأ أن يصرح له بذلك لأمر لانهلته ، إلا أن عمر رضي الله عنه لم يعبأ لسلامة صدره بقوله ، ولم يشدد عليه في السؤال وربما لم يخطر له ذلك الأمر في بال ، لما يعلمه من نفسه من القيام على الحق والعدل وإنصاف الناس مسلمهم وغير مسلمهم وعريتهم وعجميهم ، ومن كان هذا شأنه يكون بالطبع آمناً غائلة الناس وغدر الغادرين وخصوصاً عمر بن الخطاب الذي يحكى أنه جاءه مرة رسول من قبل ملك الروم فوجده قائماً على الأرض متوسداً الحصى فقال : الله أنت عدلت فأمنت فنمت ، ولكن قدر على المسلمين أن يغفلوا عن مضرة وجود أمثال أولئك الدخلاء في المدينة ، في مثل عصر عمر الذي كانت فيه جيوشه تضرب في أنحاء

الأرض وتثل عروش الملوك وتزعزع أركان الممالك وتشهيد بنيان الإسلام ، وهذا كله مما يحفظ قلوب الأعداء ويطوى جوانحهم على دغل ويستدعي الانتباه لمثل أبي لؤلؤة والهزمزان وجفينة وأماطهم من الدخلاء ، ولا ينبغي أن يحسن بهم الظن إلا مع الاحتياط والتحذر ريثما يتناسون ثأرهم وتضعف في نفوسهم أسباب الضغن ويسكنون إلى سلطان المسلمين ويألفون حكم الإسلام ويوثق باخلاصهم في الطاعة وأمانة الجوار ، هذا مع أن عمر رضى الله عنه كان يكره وجود الأعاجم في المدينة فلا ندرى لهذا السبب أم لغيره ، فقد أخرج في المناقب عن ابن عمر قال كان عمر يكتب لأمرأه الجيوش لا تجلبوا علينا من العلوج أحداً جرت عليه المواسى ، فلما طعنه غلام المغيرة قال ألم أقل لكم لا تجلبوا علينا من العلوج أحداً فغلبتموني ، فربما كان على علم ويئنة مما يبطنون إلا أنه لم يظن أنهم يجرءون عليه ما دام قائماً فيهم وفي كل الرعية بالقسط ، هذا ولما طعن عمر قال لابن عباس انظر من قتلى جبال ساعة ثم جاء فقال غلام المغيرة بن شعبة : قال الصنع : قال نعم : قال قاتله الله لقد أمرت به معروف فالحمد لله الذى لم يجعل منيق بيد رجل يدعى الإسلام ، ولما حمل إلى بيته جزع الناس عليه جزعاً شديداً وكأنه لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ ، وأما هو رضى الله تعالى عنه فقد أظهر من الثبات والجلد ما هو معروف به في حال الشدة والرخاء ، وكان أول همه النظر في أمر الخلافة وتقريرها على وجه يمنع من حصول الفتنة بعده ، فرأى ورأيه الحق أن يتركها شورى بين النفر الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، ففعل ، وبلغ به الحرص على دفع الفتنة ، وتعجيل نصب الخليفة بعده ، أن أمر المقداد بما أمر كي لا يكون بينهم فتنة وإن كانت فأن تقمع بالسيف .

وفي المناقب عن ابن عمر أن عمر دعا بطبيب ينظر في جرحه فجاءه

بطبيب من الأنصار من بنى معاوية فسقاه لبناً فخرج من الطعنة أبيض ، فقال له الطبيب يا أمير المؤمنين اعهد : فقال عمر صدقتي أخو بنى معاوية ولو قلت غير ذلك لكذبتك : فبكى عليه القوم حين سمعوا فقال لا تبكوا علينا من كان باكياً فليخرج ، ألم تسمعو ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعذب الميت ببكاء أهله عليه .

وفيه عن جعفر بن محمد : قال لما طعن عمر اجتمع إليه البديرون المهاجرون والأنصار فقال لابن عباس اخرج إليهم فسلمهم عن ملائمتكم ومشورة كان هذا الذي أصابني قال فخرج ابن عباس فسلمهم فقال القوم لا والله ولوكدتنا أن زاد الله في عمرك من أعمارنا .

وفي العقد عن ابن عباس قال دخلت على عمر بن الخطاب في أيام طعنته وهو مضطجع على وسادة من آدم وعنده جماعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال له رجل ليس عليك بأس : قال لئن لم يكن عليّ اليوم ليكون بعد اليوم ، وإن للحياة لنصيياً من القلب وإن للوثة لسكرة ، وقد كنت أحب أن أنجي نفسي وأنجو منكم ، وما كنت من أمركم إلا كالغريق يرى الحياة فيرجوها ويخشى أن يموت دونها فهو يركض بيديه ورجليه ، وأشد من الغريق الذي يرى الجنة والنار وهو مشغول ، ولقد تركت زهرتكم كما هي ما لبستها فأخلفتها ، وثمرتكم يانعة في أكمامها ما أكلتها وما جنيت ما جنيت إلا لكم وما تركت ورأى درهما ما عدا ثلاثين أو أربعين درهما ، ثم بكى وبكى الناس معه ، فقلت والله يا أمير المؤمنين أبشر فوالله لقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنك راض ، ومات أبو بكر وهو عنك راض ، وإن المسلمين راضون عنك : قال (أى عمر) المغرور والله من غرتموه ، أما والله لو أن لي ما بين المشرق والمغرب لافتديت به من هول المطلق .

وفيه عن هشام بن عروة عن أبيه قال : لما طعن عمر بن الخطاب قيل له يا أمير المؤمنين لو استخلفت : قال إن تركتكم فقد ترككم من هو خير

منى ، وإن استخلفت فقد استخلف عليكم من هو خير منى ، ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً لاستخلفته ، فإن سألتى ربى قلت سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة ، ولو كان سالم مولى حذيفة حياً لاستخلفته فإن سألتى ربى قلت سمعت نبيك يقول إن سالما يحب الله حباً لو لم يخفه ما عصاه قيل له فلو أنك عهدت إلى عبد الله فإنه له أهل فى دينه وفضله وقديم إسلامه قال بحسب آل الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد عن أمة محمد ولوددت أنى نجوت من هذا الأمر كفافاً لالى ولا على ، ثم راحوا فقالوا يا أمير المؤمنين لو عهدت فقال : قد كنت أجمعت بعد مقاتلى لكم أن أولى رجلا أمركم أرجو أن يحملكم على الحق وأشار إلى على بن أبى طالب ، ثم رأيت ألا أتحمّلها حياً ولا ميتاً فعليكم بهؤلاء الرهط الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم إنهم من أهل الجنة ، وذكر السبعة واستثنى من الشورى سعيد ابن زيد ، وقال عن الستة فليختاروا منهم رجلا فإذا ولوكم والياً فأحسنوا موازرتة (أى معاونتة) فى حديث طويل سيأتى معنا ما هو بمعناه فى قصة الشورى إن شاء الله .

ومن هذا تعلم مقدار حرج الموقف فى منصب الخلافة الرفيع ، حتى إن عمر لم يقبل أن يتحمل مسؤوليته بعد الموت كما تحملها فى الحياة ، وإنما يعرف هذه المسؤولية من كان له دين يردعه كعمر بن الخطاب رضى الله عنه وإخوانه من الخلفاء الراشدين .

أخرج فى أسد الغابة عن عمرو بن ميمون فى حديث طويل أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال لابنه يا عبيد الله بن عمر ، انظر ما على من الدين فحسبوه ، فوجدوه ستة وثمانين ألفاً قال إن وفى له مال آل عمر فأدوه من أموالهم ولا فسل فى بنى عدى ، فإن لم تكف أموالهم فسل فى قریش ، ولا تعدهم إلى غيرهم فأدعنى هذا المال وانطلق إلى غائشة أم المؤمنين فقل لها يقرأ عليك عمر

السلام ، ولا تقل أمير المؤمنين فإنى لست اليوم بالمؤمنين أميراً ، وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه . فسلم (أى عبد الله) واستأذن ودخل عليها فوجدها قاعدة تبكى ، فقال يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه : فقالت كنت أريده لنفسى ولأوثرن به اليوم على نفسى ، فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء ، قال عمر ارفعونى ، فأسنده رجل إليه فقال مالدريك قال الذى تحب قد أذنت : قال الحمد لله ما كان شئ أهم إلى من ذلك فإذا أنا قبضت فاحملونى ، ثم سلم فقل يستأذن عمر بن الخطاب ، فإن أذنت لى فأدخلونى وإن ردتنى ردونى إلى مقابر المسلمين .

روى أنه لما ثقل عمر قال لابنه عبد الله ضع خدى على الأرض فوضعه على الأرض فجعل يقول ويلى وويل أى إن لم يغفر لى ربى ، ثم مات . ولما توفى صلى عليه فى المسجد وحمل على سرير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وغسله ابنه عبد الرحمن وصلى عليه صهيب ، وكان تقدم قبل ذلك على عثمان للصلاة عليه ، فقال عبد الرحمن لا إله إلا الله ما أحرصك على الإمرة أما علمتما أن أمير المؤمنين قال ليصل بالناس صهيب .

قال فى أسد الغابة روى أبو بكر بن إسماعيل بن محمد بن سعد أنه قال طعن عمر يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين ، ودفن يوم الأحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين ، وكانت خلافته عشر سنين وخمسة أشهر وواحد وعشرين يوماً ، قال : وقال عثمان بن محمد الأحمسى هذا وهم توفى عمر لأربع ليال بقين من ذى الحجة وبويع عثمان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذى الحجة .

وتوفى عمر وهو ابن ثلاث وستين سنة وقيل أقل والأول أصح الأقوال فى عمره .

وصيته لمن يخلفه :

أخرج ابن الجوزى وغيره من الحفاظ والمحدثين عن ابن عمر أنه قال :
دفع إلى عمر كتاباً فقال إذا اجتمع الناس على رجل فادفع إليه هذا الكتاب
واقراه منى السلام فإذا فيه .

أوصى الخليفة من بعدى بتقوى الله وأوصيه بالمهاجرين الأولين (الذين
أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون
الله ورسوله ، أن يعرف حقهم ويحفظ لهم كرامتهم ، وأوصيه بالأنصار
خيراً) الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم
ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا) إلى قوله تعالى : المفلحون : أن
يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئتهم وأن يشركو في الأمر ، وأوصيه بذمة^(١)
الله وذمة محمد صلى الله عليه وسلم أن يوفى بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم
وأن يقاتل من ورائهم (أى يحميهم) اهـ .

هكذا انقضت حياة هذا الرجل العظيم نقيّة طاهرة ، بعد أن فتح الممالك
ورفع منار الإسلام ، وبسط بساط العدل وبث روح الجِد والنشاط في
العرب ، وأسس لهم ذلك الملك العريض وقل بهم جيوش فارس والروم ،
ورباهم على العفاف وكف يد الظلم واحترام العهود والوفاء بالذمة ، كما أمر
به الإسلام وقرّره شريعة محمد عليه الصلاة والسلام فسعدت بحياته الرعية
من سائر الملل ، ودخل الأمم في طور جديد من الحرية والعدل والأمن
والراحة لم يكونوا يعهدونه ، ولم يكن لأسلافهم أن يروه ، وبلغ به الحرص
على ذلك البذر الطيب الذي بذره في المسلمين ، أن أوصى عند آخر نسمة

(١) وهم أهل الذمة من غير المسلمين ويدخل فيها الفرس والكتايون وكل من رضى
بدفع الجزية للمسلمين فصار ذمة له ما لهم وعليه ما عليهم .

من حياته بتلك الوصية الغراء التي تدل على الهمة العالية والشيم الطاهرة والأخلاق البارة التي اكتسبها عمر من نبيه عليه الصلاة والسلام ، فكان خير قدوة للمسلمين وذكرى الفخر الخالد لهم بين الناس أجمعين .

لما توفي عمر أكثر الشعراء من مرثيته فرثاه حسان بن ثابت وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل وكانت زوجته وغيرهما .

صفته :

قال في أسد الغابة كان عمر أعسر يسراً يعمل بكلمات يديه ، وكان أصلح طويلاً قد فرع^(١) الناس كأنه على دابة ، وقال الواقدي كان عمر أبيض أمهق^(٢) تعلوه حمرة يصفر لحيته ، وإنما تغير لونه عام الرمادة لأنه أكثر من أكل الزيت وحرم على نفسه السمن واللبن حتى يخضب الناس : وقال بعضهم إنه كان أسمر شديد السمرة ، وهو الأكثر عند أهل العلم .

ولده وعماله

ولده :

قال ابن قتيبة ولد عمر بن الخطاب هم : عبد الله ، وحفصة ، وأمهما : زينب بنت مظعون : وعبيد الله (وهو الذي قتل الهرمزان وجفينة) وأمه : مليكة بنت جرويل الخزاعية : وعاصم وأمه : جميلة بنت عاصم بن ثابت حمى الدبر : وفاطمة وزيد وأمهما : أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب : ومجير واسمه عبد الرحمن : وأبو شحمة (وهو الذي حده أبوه في الخمر فمات) واسمه أيضاً عبد الرحمن : وبنات أخرى .

(٢) الأبيض لاجرة فيه .

(١) علام .

وأما الذين أعقبوا من أولاد عمر فهم عبد الله وعبيد الله وعاصم ومجير وعقب مجير هذا بادوا ولم يبق منهم أحد .

عماله :

كان عماله على الأمصار سنة ٢٣ أى السنة التى توفى بها على مكة نافع ابن عبد الحارث الخزاعى ، وعلى الطائف سفيان بن عبد الله الثقفى ، وعلى الكوفة المغيرة بن شعبة ، وعلى البصرة أبو موسى الأشعرى . وعلى مصر عمرو بن العاص ، وعلى دمشق معاوية بن أبى سفيان ، وعلى حمص عمير ابن سعد ، وعلى البحرين وما حولها عثمان بن أبى العاص الثقفى ، وعماله فى الحرب من علمنا من القواد الذين مر ذكرهم قبل ، وكاتبه زيد بن ثابت ، وكتب له معقيب أيضاً ، وعلى بيت ماله عبد الله بن أرقم ، وحاجبه يرفاً مولاه .

الحالة الاجتماعية على عهده

كانت الحالة الاجتماعية على عهد عمر غيرها على عهد أبى بكر رضى الله عنهما إذ توطد على عهد الثانى للمسلمين الملك ، وشيدت دعائم الدولة ، وصارت تلك الأمة العربية المشهورة بالانقسام والتفرق والجهل بأمور الدولة ، والانغماس فى الجهالة وسذاجة الفطرة سائسة ملك وربة سطوة ومجد ومقننة قانون وصاحبة دين جعلها أمة تذكر فى التاريخ بأنها أعظم الأمم ، وكانت تلك الحياة العربية والجامعة المليية مع أنها بادية الظهور وتنمو بسرعة وتؤذن بانقلاب عظيم يحدث فى أنحاء العالم وتهتز له أركان الدول العظمى يومئذ ، حيث اندفعت هذه الأمة بقوة الجامعة الإسلامية والاتحاد القومى على أطراف الممالك المجاورة لها ، وهى فارس والروم فانتزعت من الأولى سلطاتها وتغلغلت بجيوشها

في أحشاء بلادها وقلبت سرير ملكها وأزعجت قاداتها ورؤساءها وأجالت
للاتكاش إلى أطراف البلاد الشرقية ، والتخلي عن الملك أسرة الأكاسرة
من ملوكها وأنقصت من الثانية أطرافها وقلصت عن سورية والجزيرة ومصر
ظلمها وهي تتقدم في داخل بلادها وتهدد بالهجوم عاصمة الإمبراطورية .

تأصلت في تلك الممالك جذور الاستعباد وتناسى الروم معنى الحرية
التي كان يقاتلونها أسلافهم الرومان ، ويدافعون عنها يد الإمبراطورة
والمملوك وخنع الفرس للأكاسرة ، واستعبدوا لأشراف البلاد ، فألف
الفرقيان حكم العبودية وفقدوا مبدأ الاعتماد على النفس والاستقلال الذاتي
في الحياة ، فجاءهم العرب وقد امتزج في دماهم حب الحرية حتى ما يطبقون
علو أمير المؤمنين عليهم واستشاره بشيء من أمورهم دونهم كما رأيت فيما مر
فنفثوا في روعهم روحاً جديدة من حب الاستقلال الذاتي والحرية الشخصية
فهبوا كمن نشط من عقال فوضعوا أيديهم في أيدي الغالبيين علامة الشكر
والوفاء ، وشعروا حينئذ بأنهم بشر لا ينحطون في الحقوق العامة عن مرتبة
الأمراء ، وبلغ بهم ذلك أن لما أهيئ رجل مصري من ابن أمير مصر عمرو
ابن العاص شخص إلى مقر الخلافة يشكوه ويطلب انتصافه منه ، ولم يعد
إلا بعد أن استنزل أباه عن منصة إمارته فقدم هو وابنه إلى المدينة وأقادا
ذلك الفرد من الرعية بحضور الخليفة كما سبق إirاده في غير هذا المحل ،
وما نعلم أن قوما بلغت بهم الحرية الشخصية يوماً مبلغها في ذلك العصر وتمتعوا
بعدل مثل ذلك العدل ، وهو حال ما أهنأ لتلك الأمم يومئذ من حال رفعهم
من حضيض الذل والعبودية إلى ذرى العز والحرية وبشرهم بعصر جديد
وسعادة ما عليها مزيد .

خالط العرب هذه الأمم ودال إليهم ذلك الملك العريض ورأوا أبهة
الحضارة واستشعروا بلزوم الحياة المدنية للأمم الغالبة ، وليس لديهم من
(م ٣١ — أشهر مشاهير الإسلام)

ذلك إلا الاستعداد الفطرى لقبول الخير والشر والشرع الإلهى الذى دعاهم إلى الخروج من ظلمات البداوة ، فأخذوا بحكم الضرورة يقلدون مجاورهم فى العادات وبدءوا يبارونهم فى مضمار الحياة ، وكان مطمئناً نظراً وأول عملهم بالطبع تقليد مجاورهم فى الأمور الحربية واستعمال آلات القتال الفارسية والرومية ، ليقابلوا القوة بمثلها ويعدوا لهذه الفتوح عدتها ، ثم تطرقوا من ذلك إلى الأمور السياسية والإدارية فوضع الخليفة عمر رضى الله عنه التاريخ ودون الدواوين على نحو ما هو موجود فى الدولتين الرومية والفارسية ، ثم أقبل على ترتيب الولايات وتقسيم الأعمال وانتقاء العمال ثم فرض الأعطيات وقرر مصرف النىء فى غير سرف ولا تقتير ، ونشر جناح الأمن وأقام ميزان العدل وقرر أصول الجباية بلا إجحاف فى حقوق الرعية ولا غبن للدولة ، فعم الرخاء وبدأت مظاهر العمران تتجلى فى أنحاء المملكة وانهاى الغنى والثروة على الفانحين ، وخطوا خطى خفيفة إلى ميدان الراحة والتنعيم مع الأخذ على الشكاكم والتخوشن فى المأكل والملبس والتوسط فى العيش والقصد فى الإنفاق والإمساك عن البذل خوف الأخذ على أيديهم من عمر بن الخطاب رضى الله عنه كما أخذ على يد خالد بن الوليد ، إذ وصل بعشرة آلاف من الدراهم شريفاً من أشرف العرب كما رأيت فى باب سياسته مع العمال .

هذا من وجه ، ومن وجه آخر فإن عمر رضى الله عنه لم يدع للعرب بعد إذ دفع بهم فى غمار الحضارة وقذف بهم إلى ميدان الحروب وقتاً للإخلاق إلى الراحة والإيواء إلى ظل التنعم ، والسكون تحتم كنف الأمصار ، بل شغلهم عن ذلك بالفتح وألهاهم بادخار المغانم عن التمتع بها ، ريثما يفل من غرب الدول المجاورة ، ويأمن غائلة الأمم المغلوبة ، وكان له بهذا مأرب أخرى أيضاً ، وهى إشغال العرب فى الحرب ، وزجهم فى مضمار

الفتح ليأمنوا بأصول الاجتماع والحضارة ، وتبديل أخلاقهم الجافية وتزول من نفوسهم أسباب التنافر والاتباء إلى العصبية الداعية إلى الشقاق والفرقة ، يدلك على هذا ما كتبه لأبي موسى الأشعري في الكتاب عدد ٦ الذى جاء فى باب كتبه وأمره فيه بأن يضرب من ينادى بالعصبية بالسيف .

استفاد العرب فى حالتهم الاجتماعية من هذه السياسة العمرية لكن اندفاعهم للفتح وتفرقهم فى أنحاء الممالك وتعجلهم فى ذلك الظهور قبل تأصل الدين فى عامتهم ، نشأ عنه بعد تشويش فى الدين والمملك منه عدم التمكن من نحو آثار الوثنية من البلاد المفتوحة مع دخول أهلها فى الإسلام ، وإنما اختفت هذه الآثار حيناً ثم بدأت تظهر ثانية منصبة بصيغة أخرى دعت لسرعة تفرق أهواء المسلمين ، وظهور البدع والمبتدعين خصوصاً بين الأعاجم من المسلمين ، مما لا محل لتعداده وذكره فى هذا المقام ، ومنه سرعة تقهقر الأمة العربية بمقدار سرعة تقدمها فى الحضارة والمدنية إلى غير ذلك من الأمور التى ربما يمر معنا ذكرها فى هذا الكتاب ، ومع هذا فإذا نظرنا من جهة أخرى إلى سياسة عمر فى تعجل الفتح نرى لها فوائد كبيرة فى حينها ، وذلك لأن دفعه للقوم إلى الفتح فى إبان الظهور وحين التمسس مهد لهم السبيل لقر الأمام وتدويع الممالك ، لا سيما ، وأنه كان من ورائهم جزاء الله عنا وعنهم خير الجزاء يؤدبهم بأدبه ويحملهم على القناعة والقصد ويحبب فيهم الأمام ، ويغل أيديهم عن التناول إلى حقوق الغير ويأمرهم بحراسة الناس وحماية أهل الذمة ، حتى كان من ذلك أن ارتاح لحكمهم الشعوب وسهل عليهم استئضاع الأقوام وبث دعوة الإسلام فلم يخرج على سلطانهم خارج لإباء لحكمهم أو تظلموا من سياستهم ، مع حداثة عهدهم فى الفتح وقلة الحماية منهم بين ظاهرى الشعوب الخاضعين لسلطانهم الأمنين فى أوطانهم .

بسط المسلمون على عهد يد السلطة على الشعوب ، واستفتحوا أغلاق
الكنوز وملكوا ما ملكوا من البلاد، ومع هذا فلم تأخذهم الدنيا بزخارفها ولم
يغرم الغنى والسلطان بالنعيم ولم يبطرهم المال ولم تخط بهم الحضارة إلا خطى
قليلة إلى الأمام ، فكانوا وسطاً في المعيشة في كل الأمور، ذلك لأن عمر
ابن الخطاب رضى الله عنه كان يريد على البطء في السير في طريق الترقى ،
ويحملهم على التوسط في العيش ، فلا يمنهم منعاً ولا يذمهم ذمماً ، اللهم إلا
الأمراء والعمال فإنه كان يحملهم على طريقته في التقشف وشطف العيش بالحكمة
ذكرناها فيما سبق من هذا الكتاب ، يدل ذلك على هذا كتابه إلى أبى موسى
الأشعري الذى يقول له فيه : بلغنى أنه فشت لك ولأهلك هيئة في المطعم
والملبس ، وينصحه بالتزام القصد . وتأنيبه لسعد بن أبى وقاص على أن سمى
داره في البصرة قصر سعد ، وغير هذا من أخباره الكثيرة مع العمال، ومنها
شرطه عليهم أن لا يأكلوا نقياً ولا يقربوا برذونا الخ ماجاء في باب سياسته
مع العمال ، وأما عامة المسلمين فكان لا يريد على هذا الحال ولا يمنهم
من التمتع بما أحل الله لهم من الطيبات ، بل يرغب حملهم على طريق الوسط ،
وحسبك دليلاً على هذا كتابه إلى أبى عبيدة بن الجراح الذى يلومه فيه
على رحيله من أنطاكية لطيب هوائها وتنعم المسلمين فيها .

وأما أنه كان يريد على البطء في السير في طريق الترقى فيدل ذلك عليه
ما رواه عامة أهل السير أن الأحنف بن قيس قد وفد عليه مرة وتكلم عن
أهل البصرة بكلام دل على سعة عقله ، فاحتبس عنده حولا وأشهرراً ثم
سرحه ، وكذلك فعل مع زياد بن أبيه لما وفد عليه من العراق ورأى فيه
قوة العارضة والفطنة وزلاقة اللسان احتبس عنده ، ولما سأله زياد عن
السبب قال كرهت أن أحمل الناس على فضل عقلك ، وإنما كان يريد للعرب
بهذه السياسة الترقى التدريجى حتى في المدارك على أن يخالطهم الأمم وسكنى
الأمصار غير ولا شك من أخلاقهم وألأن من طباعهم ، وزاد في معارفهم

ولا يعقل أن قوما كانوا يظنون الكافور ملحاً أيام فتح المدائن تصير إليهم كنفوز الأرض بعد ذلك ويسوسون الأمم إلا باستعداد عظيم في قوى المدارك كمن في نفوسهم وأظهره الاحتكاك بتلك الأمم على وجه خال بالطبع عن كل شائبة من شوائب التصنع والختل المشهور بهما أهل الأمصار في ذلك العصر ، وفي كل عصر فهم إذن كانوا أحسن أخلاقاً وأسد عملاً على سداجة فطرتهم وجدة إسلامهم ممن حاربوهم من الأمم ، وهذا شأن لا ينكر على مثل عصر عمر رضى الله عنه الذى دأب فيه هذا الخليفة العظيم على تدريب هذه الأمة على أصول السياسة وتهذيبها على وفق ما جاء به القرآن من آيات الحث والترغيب في أسباب الظهور على الأمم ، يدلك على هذا ما رواه الطبرى في أخبار القادسية أن رستم زعيم الفرس وقائدهم قال يومئذ : أكل عمر كبدى أحرق الله كبده علم هؤلاء حتى علموا ؛ وفيه دليل على أن العرب لم يكونوا قليل الإسلام في نظر الفرس شيئاً مذكوراً ، لبعدهم عن أسباب الحضارة وإغراقهم في الجهالة ، ولما اجتمعوا على كلمة الإسلام وانكفئوا على مملكتى فارس والروم وظفروا بحسن قيادة عمر رضى الله عنه بدولتى الفرس والروم عرف رستم وأشباهه من زعماء الدولة الفارسية عظم قدر عمر بن الخطاب ، وبعد نظره في السياسة وحسن قيامه على تربية المسلمين وتعليمهم كيف تكون حياة الأمم ، ولهذا قال رستم ما قال ولا جرم فلا خلاص الراعى لله ووجه لرعيته وحسن قيامه على مصالح الأمة دخل عظيم في تسودهم على الأمم وتعززهم بالعلم والقوة والعكس بالعكس .

وبالجملة فالخالة الاجتماعية على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه على حداثة عهد أهلها في تسنم ذرى الارتقاء تمثلها لك سيرة هذا الخليفة الجليل في قالب الجد والاستقامة والعزيمة ، وتظهرها لديك في مظهر النهوض إلى ارتقاء قمم المجد التى انتهى إليها المسلمون فيما بعد بسيرهم سيراً حديثاً مدة تزيد على جيلين ، وقفوا بعدها وقفة المستريح من وعناء سفر شاق المتلذذ يحنى

ثمرات الجِد والنشاط والعمل ، وهكذا حتى تغير الحال وانقلب الجِد والنشاط إلى فتور وإهمال ، وكان بعد ذلك ما كان من هبوط مستمر بلغ بنا الآن أن فقدنا كل حول وقوة لإِمن السُفاسف والأوهام ، وكل اشتغال إلا بالباطيل وكل سعى إلا وراء الرتب والألقاب التي أضحككت علينا الأُهم ، وأسرعت ببقية الأخلاق الفاضلة فينا إلى هوة العدم ، والغربيون يبعثون إلينا كل يوم بنذير من الرهوت والقوة وواعظ من العلم والاعتبار ومنبه من التسلط على الممالك الإسلامية والديار الشرقية ، ومرشد إلى كيف تكون حياة الأُهم وسيادة الشعوب ونحن سكوت لا يسمعون لنا ركزاً إلا في تهاتر ولا يحسون منا حركة إلا إلى تدابر قد امتزج الاستعباد في نفوسنا حتى ما نطيق الحرية ولا نرضى العلم ولا نقبل التذرع إلى السيادة والسعى إلى المجد وهي حالة يا الله تمزق غشاء القلوب وتنذر بشق الجيوب فواغوثاه وواعمره .

عَمَّا لَمْ يَرْوِ قَوْلُهُ

أبو عبيدة بن الجراح

حاله في الجاهلية

تسميته وأصله

اسم أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة ابن الحارث بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة ، اشتهر بكنيته ونسبه إلى جده فيقال أبو عبيدة بن الجراح ، وهو أمين هذه الأمة وأحد العشرة الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض .

روى ابن عساكر أن أمه أميمة بنت غنم بن جابر بن عبد العزى بن عامرة ابن عميرة وأمها دعد بنت هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر ، وأدركت أمه الإسلام وأسلمت .

وأخرج ابن عساكر في تاريخه عن محمد بن سعد : قال في الطبقة الأولى من بني فهر بن مالك بن النضر بن كنانة — وهم آخر بطون قريش — أبو عبيدة بن الجراح .

سيرته في قومه ومطائفهم

كان أبو عبيدة محترماً في قومه مستشاراً فيهم معروفاً بالرأى والدهاء ، وكان يقال كما روى ابن عساكر في تاريخه « داهيتا قريش أبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح » ، ولم نقف على زيادة تفصيل من سيرته في الجاهلية فتمحّن نكتفى عن ذلك بسيرته في الإسلام ، فإن فيها ما يغني ، وهي المطلوب في كتابنا هذا .

إسلامه وصحبته

إسلامه

أبو عبيدة قديم الإسلام ومن السابقين الذين كشف عن بهائهم حجاب الغفلة وانتزعوا من أعماق النفوس آثار الجهل والجاهلية ، مذدهام داعى الحق إلى التوحيد ، واستبان لهم طريق الخلاص من ربة التقليد ، فقد أخرج الحافظ بن عساكر في تاريخه عن يزيد بن رومان قال : انطلق عثمان بن مظعون وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعبد الرحمن بن عوف وأبو سليمة بن عبد الأسد وأبو عبيدة بن الجراح ، حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض عليهم الإسلام وأنبأهم بشرائعه فأسلموا في ساعة واحدة ، وذلك قبل دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم ، وقبل أن يدعو فيها . وكان إسلامهم كما في بعض الروايات بدعوة أبي بكر رضى الله عنهم أجمعين .

صحبته

أسلم أبو عبيدة مخلصاً لله لإسلامه فكان قوياً في دينه صادقاً في صحبته ، متفانياً في حب نبيه حتى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمين هذه الأمة . أخرج الحافظ الجزرى في أسد الغابة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لكل أمة أمين وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح ، وهذا مقام من الثقة لا يبلغه عند الرسول صلى الله عليه وسلم إلا من عرف حقيقة دينه واستمسك بعروته وأخلص الله في سره وعلايته ، ولقد كان يغبطه على هذه المنزلة كثير من كبار الصحابة رضى الله عنه وعنهم أجمعين .

أخرج ابن عساکر عن حذيفة قال : جاء أهل نجران إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : ابعث لنا رجلاً أميناً : فقال : « لا بعثن إليكم أميناً حق أمين : فاستشرف لها الناس (أى تطلّعوا) فبعث أبا عبيدة بن الجراح .

وفي رواية جاء العاقب والسيد صاحباً نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالا يا رسول الله ابعث معنا أميناً حق أمين فقال رسول الله « نبعث معكما رجلاً أميناً حق أمين فاستشرف لها أصحاب محمد قال « قم يا أبا عبيدة . وإنما نال أبو عبيدة هذه الحظوة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لصدقه واتباعه أمره وعظيم حبه وطاعته له .

ومن أعظم ما يؤثر عنه من ذلك ما رواه الحافظ الجزرى فى أسد الغابة وابن عساکر فى تاريخه أن أبا عبيدة لما كان بيدى يوم الواقعة جعل أبوه (وكان مع المشركين) يتصدى له ، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر أبوه قصده قتله أبو عبيدة ، فأنزل الله تعالى (لا تجدقوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم وأبناءهم) الآية . هذا غاية ما يؤثر من صدق إيمان أصحاب نبي بنبيهم ، ولإشراب قلوبهم بغض الشرك وتيقنهم أن الإسلام فوق العواطف وآية التوحيد تمحو عن صفحات القلوب حتى صورة الآباء إذا لم تشاكل بطمارة الإيمان الأبناء .

لا جرم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدع أبا عبيدة بأمين هذه الأمة ، إلا لعلهم يصدق إيمانه وكما يقينه ، لهذا روى أنه صلى الله عليه وسلم أنه طعن فى خاصرة أبي عبيدة وقال : إن ههنا خويصرة مؤمنة : رواه ابن عساکر عن جابر . وروى عن موسى بن عقبة قال : قال أبو بكر الصديق : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي عبيدة ثلاث كلمات لأن يكون قاهن لى أحب إلى من حمر النعم : قالوا وما هن يا خليفة رسول الله قال (١) كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام أبو عبيدة فأتبعه رسول الله صلى الله

عليه وسلم بهصره ثم أقبل علينا فقال : « إن ههنا لكافرين مؤمنتين » (٢)
وخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتحدث فسكبتنا فظن أننا
كنا في شيء كرهنا أن يسمعه فسكت ساعة لا يتكلم ، ثم قال : « ما من
أصحابي إلا وقد كنت قائلاً فيه لا بد إلا أبا عبيدة » (٣) وقدم علينا وفد
نجران فقالوا : يا محمد ابعث لنا من يأخذ لك الحق ويعطيناه : فقال « والذي
بعثني بالحق لأرسلن معكم القوي الأمين » قال أبو بكر : فما ترضى للإمارة
غيرها ، فرفعت رأسي لأريه نفسي فقال قم يا أبا عبيدة ، فبعثه معهم : وشهد
أبو عبيدة المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان من ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ونزع
الحلقتين اللتين دخلتا في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم من المغفر يومئذ
فانتزعت ثيابه فحسنتاه وصار أهتما فما روى قط أحسن منه هتما وبالجملة قد
صحب أبو عبيدة رضى الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم خير صحبة .

وكان كما روى المحدثون من عليّة أصحابه وأعظم المقربين منه ولاقي من
قریش في صحبته ما لاقاه أهل الهجرة وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية ،
ثم هاجر إلى المدينة ، وكان ملازماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم شديد
التمسك بأوامره حريصاً على رضاه فمتخلق بأخلاقه ووقف على حقيقة دينه
فكان من التقوى والرفق والزهد والتمسك بالإسلام والحنو على المسلمين على
جانب عظيم ولو بقي حياً لولى الخلافة لما اتصف به من حسن الشيمة وكرم
الأخلاق والتقوى والعدل ، فقد أخرج ابن عساكر عن عمر بن الخطاب أنه قال :
لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح لاستخلفته وما شاورت ، فإن سئلت عنه
قلت استخلفت أمين الله وأمين رسوله .

ثم كان له بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم من الأثر في فتوح الشام
ما بسطناه للقارىء في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وما سئلوه عليه
بجملها فيما يلي إن شاء الله .

حروبه وفتوحاته

بالشام

علمنا بما تقدم أن أبا بكر رضى الله عنه ولى أبا عبيدة قيادة جيش من الجيوش التي وجهها إلى الشام ، وأمره بقصد حمص وأنه ولى قيادة الجيش العامة لما استخلف عمر رضى الله عنه ، وعزل عن إمارة الجيش خالد بن الوليد ، وقد اختلف المؤرخون في هل ولى الأمانة وهو في اليرموك أو على دمشق ، وذكرنا رأينا في هذا الخلاف ، فلا حاجة هنا للمزيد ، وقد فصلنا ثمة أخبار حروبه في الشام وفتوحه فيه ، وإنما أحببنا أن نورد هنا بمجمل فتوحه لعلاقة ذلك بترجمة هذا الصحابي الجليل والبطل الكبير فنقول :

أول فتح عظيم كان لأبي عبيدة فتح دمشق التي فتحها بعد حصار سبعين ليلة وكان فتحها من جانبه صلحا ومن جانب خالد بن الوليد عنوة وكان هو على دمشق يسرح الجنود وعليها الأمراء لكي يشغلوا جيوش الروم عن إمداد دمشق كما ذكر في محله من هذا الكتاب حتى تيسر له فتحها بعد عناء شديد لقيه القواد المحاصرون معه لدمشق ، وبعد فتح دمشق واستخلف عليها أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان ، ثم سار إلى فحل من أرض الأردن وقل هناك جيوش الروم وأتى ييسان وطبرية وحاصرها فصالحا على صلح دمشق ، ثم بعد أن وجه يزيد بن أبي سفيان إلى سواحل دمشق سار إلى حمص عن طويق بعلبك ، وقدم إليها السمط بن الأسود السكندى وقدم خالداً إلى البقاع ، ونزل أهل بعلبك إلى أبي عبيدة فصالحوه وكتب لهم بذلك كتاباً ، ثم ذهب إلى حمص فافتتحها أيضاً ثم رجع من هناك إلى اليرموك أو أجنادين لنجدة عمرو بن العاص ، ثم سار إلى حمص فصالحه أهلها ، ثم سار

إلى حلب وقدم خالداً إلى قنسرين وعبادة بن الصامت إلى اللاذقية ،
ثم ترك حصار حلب وسار إلى حاضرها فافتتحه ثم صار إلى إنطاكية
وجيوشه تحاصر حلب فكتب إليه عمر بالرجوع إلى حلب وإتمام
الفتح ، فعاد وفتحها ، ثم رجع إلى إنطاكية لحاصرها وفتحها صلحا ،
ثم سير جيوشه تضرب في الشمال والشرق حتى آتت فتح سورية ، وبلغت
الفرات شرقاً وآسيا الصغرى شمالاً ، وجعل أبو عبيدة على كل كورة فتحها
عاملاً ، ورتب فيها المراقبة والجيوش ، ونظم شؤون البلاد ، وبسط على
أهلها جناح الرأفة والعدل وعاملهم بما اشتهر عنه من اللين والأناة والرفق ،
حتى بات سلطان المسلمين أحب إليهم من سلطان الروم ، فكانوا عوناً لهم
على الفتح ونصراء على العدو كما رأيت ذلك في أخبار فتح حمص من سيرة
عمر بن الخطاب ، وإنما كان هذا ببركة اختيار عمر بن الخطاب للإمارة هذا
الرجل العظيم وأمثاله من الأمراء والعمال الذين كان يوليهم أمور البلاد
ويوسد إليهم قيادة الجيوش ، ومن لنا يمثلهم ومثله في هذا العصر بل وفي
كل عصر .

كلمة في العمال

اعلم أن عمران الممالك وترقى الدول يتوقف على أمرين عظيمين هما
صبغة الحكومة وأمانة الرجال .

فالحكومة إذا كانت ذات صبغة دستورية أى حكومة مقيدة برأى
الأمة خاضعة لسلطة الشورى سعدت بها المملكة لغلبة الأمانة في رجالها
على الحيانة والعدل على الظلم ، وإنما تغلب الأمانة الحيانة في رجال هذه الحكومة
لما هناك من الهيمنة الشرعية على الحاكم من المحكوم ، إذ الظلم كمين في النفس ،
القوة تظهره والعجز يخفيه ، وإنما يمنع النفوس أن تنزع منازع الظلم مانع
القوة ، وهو هيمنة الشعب القانونية ، هذا في الحكومات الشورية ، وأما

في الحكومات المطلقة فنانح تلك النفوس عن الظلم أحد أمرين : إما الزاجر النفسى وهو الشعور الدينى الناشئ عن الورع والتقوى الباعثين على الخوف من بارئ النفوس ، وإما سيطرة السلطان ؛ وهذه لا تكون في الحكومات المطلقة إلا من أمير مستبد عادل إذ المستبد الظالم شأنه مع عماله شأنهم مع الرعية ، فلا سيطرة له على العمال ولا يرجى منه الخير .

وبما لا مشاحة فيه أن لحكومة الإسلامية في مبدأ ظهورها كانت كما رأيت فيها مرّ من هذا الكتاب تشبه من بعض الوجوه الحكومة الشورية كما أنها لم تخل من صبغة استبدادية ، وكيف كان حالها فقد علمنا أن العمال أحوج ما يكونون إلى المراقبة ليقوم بهم عمران البلاد وتنظيم شئون المملكة ، وسواء قدرنا أن هيمنة عمر بن الخطاب الشديدة على عماله كانت مستندة من قوة السلطة المطلقة أو من قوة السلطة القانونية أو مشتركة بينهما فقد ساعده مانع القوة أو قوة الهيمنة الشرعية ، ومانع الدين على أن ينزع من نفوس العمال آثار الظلم ويبسط بواسطتهم للرعية بساط الطمأنينة والعدل ، لتتمهل للمسلمين سبيل الفتح ويرتاح الشعوب المغلوبون لحكم الإسلام ويتفشيوا ظلال السكون ، ويتسخطوا في مناحى العمران ، فما كان يختار للحكم والإمارة إلا أحد رجلين رجل له دين يردعه ، أو رجل عنده خوف يمنعه ، وكلا الرجلين بالإضافة إلى غرض الرعية والإمام واحد .

فمن عماله الذين كان لهم دين يردعهم أبو عبيدة بن الجراح وكثيرون غيره ، ومع ما عرف عن هذا الصحابي الجليل والعامل الأمين والقائد العظيم من الأناة والرفق ولين الجانب والورع والزهد ، فقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يتساهل معه بحق من حقوق الهيمنة عليه والنظر في سيرته ، كما لم يتساهل مع غيره أيضاً ممن هو في طبقة في الورع أو من دونه فيه ، وذلك قياماً على أوامر الشريعة وأداء لخلق الهيمنة على تمشية قوانين الشرع على نهج السداد وحرصاً على رضا الله والرعية .

روى ابن عساكر أن عمر بن الخطاب أرسل إلى أبي عبيدة بأربعة آلاف درهم أو أربعمائة دينار، وقال للرسول انظر ما يصنع، فقسمها أبو عبيدة ثم أرسل بمثلها إلى معاذ فقسمها معاذ إلا شيئاً قالت له امرأته : نحتاج إليه ، فلما أخبر الرسول عمر ، قال الحمد لله الذى جعل فى الإسلام من يصنع هذا .

هكذا كان عمر يمتحن حتى أتقى عماله وأرفقهم بالرعية وآمنهم على أمور الناس وأحكام الشرع ، لهذا بلغ العدل فى عصره غاية ليس وراءها زيادة لمستزيد ، وامتد سلطان المسلمين على قسم عظيم من الأرض لم يسمع لسكانه شكوى من خيانة عامل فى عمله ، وظلم فى حكمه ، بل كانت الرعية قاطبة راضية عن حكم الإسلام ، متمتعة بالراحة آخذة فى طريق الصمود إلى قفم السعادة الاجتماعية ، والحياة المدنية ، آمنة من شرور الفتن التى يضطرب لها جبل الدولة ويختل نظام الاجتماع ، ومن تصفح تاريخ الإسلام ووقف على أخبار دوله لا يرى سبباً لاختلال أمر دولة قط إلا خيانة العمال وجورهم وتساهل الملوك فى الأخذ على أيديهم ، إما بحكم الضرورة أو بحكم الضعف وسوء السياسة ، شأن كل الدول أيضاً لا دول الإسلام وحدها . ولنا لنعجب من غلو بعض المؤرخين فى ذم الحجاج بن يوسف الثقفى عامل دولة بنى مروان على العراق وإنما يحوج إلى الحجاج من هو مثل الحجاج إذ العامل الخائن إذا أفسد قلوب الرعية بجوره وقبح سيرته ، يثير فى نفوسها نائرة البغضاء على الدولة ، ويحفظ عليها قلوب الأمة فتستعصى على الحاكم ويخرج امتلاك أزمته عن طوق الدولة إلا باستعمال مثل الحجاج قوى الشكيمة قليل الرأفة ، هذا فى الدول المطلقة كدولة الأمويين ، وأما فى الدول المقيدة فقل أن يكون شئ من هذا وذاك ، وعلى تقدير حصوله فالرأفة تقوم مقام العنف والعدل يغنى عن استعمال القوة ، والإنسان أسير الإحسان وغاية ما يرمى إليه الطمأنينة والأمان وحسبك شاهداً على هذا أن الخليفة عمر بن عبد المزين الأموى لما نحا فى الحكم والإمارة منحى عمر بن الخطاب ، من

حيث العدل وتتبع سيرة العمال وانتفاء أخبار الناس للولايات تألف قلوب الأمة واستتس قباد الرعية بعد أن انفضوا من حول بني مروان ، ثم لم يلبث أن عاد المروانيون بعده إلى سيرتهم الأولى حتى ضعف أمرهم وعلبوا على ملكهم ، لتفرق القلوب عنهم وانقضاء الناس من حولهم وما كان ذلك إلا من نتائج إطلاق يد العمال وإمعان هؤلاء في الجور ، هذا بقطع النظر عن بعض الخلفاء الأمويين الذين كانوا من حسن السيرة والقيام على العدل بحيث لا يخرج عليهم خارج ، إباء لحكمهم أو تظلماً منهم ، وإنما ذكرنا بني مروان مثالا في الدول التي أصابها الضعف وقضى عليها سوء الإدارة وجور العمال بالانحلال ، كما أنا كتبنا هذا الفصل ليكون مقدمة لما عساه يرد معنا من أخبار الدول في الغابر وعظة يتسخط بها الحاضر .

أخلاقه وسيرته

كان أبو عبيدة كما قدمنا من كبار الصحابة ، ومن لازم النبي صلى الله عليه وسلم وتخلق بأخلاقه ، فكان متواضعا زاهداً تقياً عاقلاً رزيناً لين الجانب مخفوض الجناح عالماً بالشرع ، ذا دربة في أمور الحرب نصوحاً في خدمة المسلمين ، وأحسن شاهد على جميل سيرته قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه إنه أمين هذه الأمة ، ومثله ما رواه ابن عساكر في تاريخه عن عمر ابن الخطاب أنه قال يوماً لجلسائه : تمنوا فتمنوا : فقال عمر بن الخطاب : لكني أتمنى بيتاً ممتلئاً رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح : فقال له رجل ما ألوت (١) الإسلام : فقال ذاك الذي أردت وأخرج عن عبد الله بن عمر أنه قال : ثلاثة من قریش أصبح الناس وجوها وأحسنها أحلاماً (٢) وأثبتها جناناً (٣) إن حدثوك لم يكذبوك . وإن حدثتهم لم يكذبوك : أبو بكر الصديق ، وعثمان ابن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح .

(١) أى ما نقصته حقه (٢) عقولا (٣) قابلاً .

وها نحن اولاء ننقل إليك شيئاً من سيرته وأخلاقه ليكون فيها موعظة
وذكرى لقوم يتفكرون ، فمنها (فى الزهد والتواضع) ما أخرجه الجزرى
فى أسد الغابة وابن عساكر فى تاريخه عن هشام بن عروة عن أبيه قال :
قدم عمر بن الخطاب الشام فتلقيه أمراء الأجناد وعظماء أهل الأرض فقال
عمر : أين أخى ؟ قالوا من ؟ قال أبو عبيدة : قالوا يأتيك الآن : قال لجاء
على ناقة مخطومة (١) بحبل فسلم عليه وسأله ، ثم قال للناس انصرفوا عنا
فسار معه حتى أتى منزله ، فنزل عليه فلم ير فى بيته إلا سيفه وترسه فقال عمر :
لو اتخذت متاعاً أو قال شيئاً : قال أبو عبيدة يا أمير المؤمنين إن هذا
سيدبلغنا المقييل .

وفى رواية رواها ابن عساكر عن ابن عمر ، أن عمر حين قدم الشام
قال لأبى عبيدة اذهب بنا إلى منزلك : قال : وما تصنع عندى إلا ما تريد
إلا أن تعصر عينيك على : قال فدخل منزله فلم ير شيئاً . قال أين متاعك
لا أرى إلا لبدا وصحفة وشنا (٢) وأنت أمير أعندك طعام : فقال أبو عبيدة
إلى جونه (٣) فأخذ منه كسيرات فبكى عمر ، فقال له أبو عبيدة قد قلت لك
إنك ستعصر عينيك على يا أمير المؤمنين يكفيك ما بلغك المقييل : قال عمر :
غيرتنا الدنيا كأننا غيرك يا أبا عبيدة .

(ومن كريم أخلاقه وجميل تواضعه) ما رواه ابن عساكر عن قتادة قال :
قال أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير على الشام (يا أيها الناس إني امرؤ من
قريش وما منكم من أحد أحمر ولا أسود يفضلنى بتهوى إلا وددت أنى
فى مسلاخه (٤) .

(١) قوله مخطومة الخطام زمام الناقة (٢) الشن هو القرية (٣) جونه أى مسلكه
(٤) أى فى جلد .

هكذا كان أمراء الأمة وأئمتها لا يرون لأنفسهم فضلاً على فرد من أفراد المسلمين إلا بالتقوى ، كما عليهم نبيهم عليه الصلاة والسلام وفهموه من قواعد الإسلام ، وكانوا لا يزالون ينادون بهذا على قمم المنابر وملا الناس ، تهذيباً لنفوس العامة وقياماً على نشر الفضيلة ، فلا يزيدهم هذا التواضع إلا شرفاً وعلواً وامتلاكاً لأفئدة الناس وأخذاً على شكائهم أرباب العتو والجبروت حتى دانت لهم الأمم ، واعتلوا بدولتهم على كل الدول ، ومنذ أصبح الجبروت والكبرياء من شعار الأمراء ، واستعمال القوة والعنف ديدن أولى السلطة انقلب بدولهم الحال إلى شر مآل ، مما سيأتى بيانه بجملاً أو مفصلاً في هذا الكتاب إن شاء الله .

إذا كان أمير البلاد والقباض على زمام السلطة فيها ولى الولاية لا لدنيا يصيبها ، ولا لجاه يرغب فيه ولا لمال يدخره ، بل لمطلق خدمة الأمة ورجاء رضى الله كأبى عبيدة بن الجراح الذى مات فى ولايته ولم يملك من حطام الدنيا إلا سيفه وترسه ، ولم يك فى بيته ما يأكل إلا كسيرات من الخبز فألى أية درجة من السعادة يصل أهل ولايته ؟ وكيف تكون دولة هذا حال رجالها وتلك أخلاق عمالها ؟ لأنها ولا مرء فى الحق دولة لو طال أمدها وامتدت حيناً من الدهر أيامها لطوقت الكرة بقوتها ، ونشرت على الأرض أعلام نصرتها ، ولم تدع ساجداً على وجه البسيط لغير خالق العباد ، وناطقاً فى أرجاء الأرض ينطق بغير الضاد ، ولكن النعم عند من لا يعرف قيمتها قليل دوامها ، والسعادة الخالصة من شوائب الزمان عزيز فى الأرض مقامها ، (وتلك الأيام نداولها بين الناس) .

(ومن أخلاقه فى الأدب ولين الشيمة) ما رواه ابن عساكر عن موسى ابن عقبة أن عمرو بن العاص لما كان فى غزوة ذات السلاسل فى مشارف الشام ، وخاف من جانبه الذى هو به ، بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

يستتمده ، فندب رسول الله المهاجرين والأنصار فانتدب فيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب في سرية من المهاجرين ، وأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وأمد بهم عمرو بن العاص فلما قدموا على عمرو قال : أنا أميركم وأنا أرسلت إلى رسول الله أستتمده بكم : فقال المهاجرون : بل أنت أمير أصحابك وأبو عبيدة أمير المهاجرين ، فقال عمرو وإنما أنتم مدد أمددت بكم : فلما رأى ذلك أبو عبيدة وكان رجلاً حسن الخلق لين الشيمة متبعاً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده : قال : تعلم يا عمرو أن آخر ما عهد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال : إذا قدمت على صاحبك فتطاولا وإنك إن عصيتني لأطيعنك : فسلم أبو عبيدة الإمارة لعمر بن العاص .

لا جرم أن أبا عبيدة مع حسن أدبه ولين شيمته كان زاهداً بالدنيا ، لا يعبأ بالرياسة لشرفها ولا يرغب في الإمارة لذاتها ، بل لما فيها من الثواب في خدمة الإسلام والمسلمين ، وأما عمرو بن العاص فقد كان حريصاً على الإمارة راغباً بالدنيا والآخرة ، يحب الظهور ويميل إلى إتيان الأعمال الكبار ليكون كبيراً عند الناس ، جامعاً بين الأجرين أجر الأولى ، وأجر الآخرة ، كما ستري ذلك مبسوطاً في سيرته إن شاء الله .

ومن أدبه أيضاً ما أخرجه ابن عساکر عن أبي البختری قال : قال عمر لأبي عبيدة (أى يوم السقيفة) هلم أبايعك فإنى سمعت رسول الله يقول لك أمين هذه الأمة : فقال أبو عبيدة كيف أصلى بين يدي رجل أمره رسول الله أن يؤمننا حين قبض : يعنى أبا بكر الصديق .

وأخرج أيضاً عن جابر قال : كنت في الجيش الذين مع خالد بن الوليد أمد بهم أبو عبيدة بن الجراح وهو محاصر أهل دمشق : قال أبو عبيدة صل بالناس فأتى أحق أتيتني تمدني ، قال ما كنت لأصلى قدام رجل سمعت النبي يقول : لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح

(ومن أخباره في الوعظ وحسن التأديب) ما رواه ابن عساكر عن أبي الحسن عمر أن أبا عبيدة بن الجراح كان يسير في العسكر فيقول أأرب مبيض لثيابه ، مدنس لدينه ، أأرب مكرام لنفسه ، وهو لها عدو مهين ، ادرءوا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات ، فلو أن أحدكم عمل من السيئات ما بينه وبين السماء ثم عمل حسنة لعلت فوق سيئاته حتى تقهرهن .
ربما تبادر إلى ذهن القارئ أن أبا عبيدة يتغالي في الترغيب . بقوله للمسلمين فلو أن أحدكم الخ الحديث وليس الأمر كذلك إذ هو يريد بتلك السيئات سيئات الجاهلية ، لأنه إنما يخاطب قوماً حديثي عهد بالإسلام فكأنما هو يريد أن يعظم لهم شأن الإسلام ، وأنه يمحو ما قبله من سيئات الجاهلية إذا عمل أحدكم بما أمر به من إتيان الحسنات ، وإلا فلو أراد غير ذلك لكان ترغيبه إلى هذا الحد غلواً وإغراقاً يتبرأ عن مثله أبو عبيدة على مكانته من الدين وعلمه بالشريعة وصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد رأيت في فصل (لا وثنية في الإسلام) كيف ندم أبو عبيدة على نقله حديثاً في الترغيب : وكم أدى سوء الفهم لمثل هذه الأحاديث والأخبار إلى تشويش عظيم في أفكار بعض الخلف حتى استدرجوا الناس بالمغالاة في الترغيب إلى مدارج الإباحة وكل اضطراب دخل على عقائد المسلمين إنما كان منشؤه سوء الفهم .

تفهم :

قد أغفلنا باب الكتب هنا لأننا لم نعثر لأبي عبيدة على كتب غير بعض كتب عهد لأهل الذمة قد مر مثلها في هذا الكتاب للقاتحين ، اللهم إلا كتاباً إلى عمر بن الخطاب هو ومعاذ بن جبل ، وقد مرت صورته في سيرة عمر ، وكتاباً آخر أورده ابن عساكر في حديث طويل وهو جواب كتاب أرسله إليه عمر بن الخطاب يستدعيه به للشخص إلى المدينة لما بلغه فتك الطاعون بالمسلمين بالشام وهذا نص الكتاب :

إني في جند من المسلمين ان أرغب بنفسى عنهم ، وإني قد علمت حاجة أمير المؤمنين التي عرضت لك ، وإنك تستبقي من ليس بياق ، فإذا أتاك كتابي هذا خللني من عزمتك ، وأذن لي في الجلوس .

وقد أورد ابن عساكر هذا الكتاب في حديث طويل عن أبي موسى الأشعري كان بودنا إيراده في سيرة أبي عبيدة لما فيه من وجوب التوقي من الطاعون لو لم نر أن ابن الأثير وهن رواية هذا الحديث بسبب يقرب من الصحة ،

(وفاته)

قلنا في باب الأحداث على عهد عمر إن من أهمها طاعون عمواس ، وعمواس بين الرملة وبيت المقدس ، وهي على أربعة فراسخ من الرملة ، وكان ظهور الطاعون فيها سنة ١٨ للهجرة ، وانتشر في البلاد فاجتاح السكان وكان أبو عبيدة كما في رواية ابن عساكر في سنة وثلاثين ألفاً من المسلمين فلم يبق منهم إلا ستة آلاف رجل ، ومات به كثير من الأعلام منهم أبو عبيدة ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان ، وقد اختلف في مكان وفاة أبي عبيدة فمن قائل إنه في ييسان ، ومن قائل إنه في عمواس ومن قائل إنه في الأردن ، ففي أسد الغابة عن عروة بن رويم أن أبا عبيدة انطلق يريد الصلاة ، ببیت المقدس فأدركه أجله بفحل فموت في بها : وكذا في رواية ابن عساكر عن ابن رويم وزاد عليها أنه أوصى قبل وفاته بقوله :

أقرئوا أمير المؤمنين السلام ، وأعلموه أنه لم يبق من أمانتي شيء إلا وقد قمت به وأديته إليه ، إلا ابنة خارجة نسكحت في يوم بقي من عدتها لم أكن قضيت فيها بحكومة ، وقد كان بعث إلى بمائة دينار فردوها إليه : فقالوا إن في قومك حاجة ومسكنة فقال : ردوها إليه وأدفنوني من غربي

نهر الأردن إلى الأرض المقدسة ثم قال ادفنوني حيث قضيت فياني أنخوف
أن يكون سنة (أى بعده) .

وفي رواية له أيضاً عن سعيد المقبرى قال : لما طعن أبو عبيدة بن
الجراح بالأردن وبها قبره دعا من حضره من المسلمين فقال :

وصية :

إني موصيكم بوصية إن قبلتموها لن تزالوا بخير : أقيموا الصلاة ،
وآتوا الزكاة ، وصوموا شهر رمضان ، وتصدقوا وحجوا واعتمروا ،
وتواصوا وانصحووا لأمرائكم ولا تغشوه ولا تلهيكم الدنيا فإن امرأ لو
عمر ألف حول ما كان له بد من أن يصير إلى مصرغى هذا الذى ترون ،
الله كتب الموت على بنى آدم فهم ميتون . وأكسهم أطوعهم له وأعملهم
ليوم معاده ، والسلام عليكم ورحمة الله ، يا معاذ بن جبل صل بالناس :
ومات . . فقام معاذ فى الناس فقال :

خطبة معاذ

بعد وفاة أبى عبيدة

يأيها الناس توبوا إلى الله من ذنوبكم توبة نصوحا فإن عبداً لا يلقى
الله تائباً من ذنبه إلا كان حقاً على الله أن يغفر له : من كان عليه دين
فليقضه فإن العبد مرتين بدينه ، ومن أصبح منكم مهاجراً (مقاطعاً) أخاه
فليلقه فليصالحه ، ولا ينبغي لمسلم أن يهجر أخاه أكثر من ثلاث ، والدين
العظيم أنكم أيها المسلمون لجمعتم برجل ما أزعج أنى رأيت عبداً أبر صدرأ ،
ولا أبعد من العائلة ولا أشد حباً للعامة منه ، فترحموا عليه رحمه الله
واحضروا الصلاة عليه اهـ

ومن تبصر في وصية أبي عبيدة وخطبة معاذ رضى الله عنهما علم أن المسلمين إنما سادوا يومئذ على الأمم بمثل هذه المناصحة وبذلك الأخلاق البارة ولأنهم كانوا دائبين على التواصى بالحق والتواصى بالصبر ، ينصح فقيرهم لغنيهم ويوصى بالحق أميرهم مأمورهم كما أمرهم الله في كتابه العزيز ، فكانوا له سامعين وبأمره مؤتمرين وحق لقوم جعلوا دأبهم التواصى بالحق والتواصح بالمعروف ، أن يسودهم الله على الأمم كما سود أولئك القوم البررة النصحاء ، الذين خلدوا للمسلمين نفراً كاد يححوه عن صفحات الزمان أقوام عطل من الفضيلة بعيدون عن فهم القرآن ، مستغرقون في سبات الوسوس والأوهام ، سريعة خطاهم إلى التبدل بطيشة عن الصعود ، لا يوافق نداء المنادى منهم قلوباً واعية ، ولا آذاناً مصغية ، لهذا قد أخنى عليهم الزمان ، فهم يسبون ظلماً وينسبون تقهقرهم إليه جهلاً ، وما الزمان إلا آية العبر ومستودع أسرار الأمم ، ومظهر سنن الله في الخلق ، فهو مرشد العاقل ومردى الجاهل ، وإن في هذا لبلاغاً لقوم يعقلون .

روى ابن عساكر أن أبا عبيدة شهد بدرأ وهو ابن إحدى وأربعين سنة ، ومات في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة وهو ابن ثمان وخمسين سنة وكان يصبغ رأسه ولحيته بالحناء والسكتم ، وفي رواية أنه مات ولم يعقب وفي رواية أخرى أنه أعقب وانقرض عقبه ، رحمه الله ورضى عنه وجزاه وسائر الصحابة الكرام عن أمتهم خير الجزاء .

ولما حضرته الوفاة استخلف على عمله معاذ بن جبل ، فتوفي بعده في الطاعون واستخلف قبل وفاته عمرو بن العاص ، فارتفع بالناس إلى الجبال فأنكشفت عنهم المرض ،

كلمة في القبور :

لا نريد بهذا العنوان البحث عن تاريخ القبور كالنوايس والأهرام وما

شاكلها من معالم الوثنية الأولى ، وإنما نريد الوقوف بفكرة القارىء عند اختلاف المؤرخين فى مكان قبر أبى عبيدة ، كاختلافهم فى تعيين كثير من قبور جلة الصحابة الكرام الذين دوخوا هذا الملك العظيم ، وتحلوا بتلك الشيم السماء وبلغوا من الفضل والتمفضل والتقوى والصلاح غاية لم يبلغها أحد من الأولين ولا الآخرين ، وقد بسط المؤرخون أخبار أولئك الرجال العظام وعنوا بتدوين آثارهم العظيمة فى فتوح الممالك والبلدان حتى لم يتركوا فى النفوس حاجة للاستزادة ونعم ما خدموا به الأمة والدين .

إن القارىء إذا وقف بفكره عند هذا الأمر وقفة المتأمل لا يلبث أن يأخذه العجب لأول وهلة من ضياع قبور أولئك الرجال العظام واختفاء أمكنتها عن نظر نقلة الأخبار ومدونى الآثار على جلالة قدر أصحابها وشهرتهم التى طبقت الآفاق وملأت النفوس إعظاماً لقدرة ، ولا كبراً لجلال أعمالهم ، وثناء عليهم ، وتكريماً لذكر أسمائهم ، وشكراً لآلائهم ، واعترافاً بجميلهم ، وإقراراً بفضيلة سبقتهم بالإيمان ، ونشرهم دعوة القرآن .

لا جرم أن القارىء أقل ما تحدث به النفس عند التأمل فى هذا الأمر ، أن أولئك الرجال ينبغى أن تعلم قبورهم بالتعيين ، وتشاد عليها القباب العاليات ذات الأساطين ، إذ لم يكن لشهرتهم بالصلاح والتقوى وصدق الإيمان وصحبتهم للنبي عليه الصلاة والسلام لما أتوه من كبار الأعمال التى تعجز عنها أعظم الرجال ، فكيف غابت قبورهم عن نظر المؤرخين ودرست أجدانهم التى تضم أكابر الصحابة والتابعين ، حتى اختلف فى تعيين أمكنتها أرباب السير ، وعفا من أكثرها الأثر ، إلا ما علموه بعد بالحدس والتخمين ، وأظهروا أثره بالبناء عليه بعد ذلك الحين ، مع أن المشاهد عند المسلمين صرف العناية إلى قبور الأموات بما بلغ الغاية بالتأنيق فى رفعها ، وتشديد لها ورفع القباب عليها واتخاذ المساجد عندها لاسيما قبور الأمراء الظالمين الذين لم يظهر لهم أثر يشكر فى الإسلام ، والمتمشيخة والدجالين الذين كان أكثرهم

يجعل أحكام الإيمان ، ولا نسبة بينهم وبين أولئك الرجال العظام كأبي عبيدة ابن الجراح وإخوانه من كبار الصحابة الكرام الذين تلقوا الدين غضاً طرياً ، وبلغوا بالقوى والفضيلة مكاناً قصياً .

والجواب عن هذا أن الصحابة والتابعين لم يكونوا في عصرهم بأقل تقدير أقدر الرجال ، وتعظيماً لشأن من نبغ فيهم من مشاهير الأبطال وأخيار الأمة ، لا أنهم كانوا يأنفون من تشييد قبور الأموات ، وتعظيم الرفات لتحققهم النهى الصريح عن ذلك من صاحب الشريعة الغراء الحنيفية السمحة التي جاءت لاستئصال شأفة الوثنية ، وهو آثار التعظيم للرفات ، أو العكوف على قبور الأموات ، ويرون أن خير القبور الدوارس ، وأن أشرف الذكر في أشرف الأعمال ، لهذا اختفت عن أنى بعد جيلهم ذلك قبور كبار الصحابة وجملة المجاهدين إلا ما ندر ثم اختلف نقلة الأخبار في تعيين أمكنتها باختلاف الرواة ، وتضارب ظنون الناقلين ، ولو كان في صدر الإسلام أثر لتعظيم القبور والاحتفاظ على أماكن الأموات بتشديد القباب والمساجد عليها لما كان شيء من هذا الاختلاف ، ولما غابت عنا إلى الآن قبور أولئك الصحابة الكرام كما لم تغب قبور الدجاجلة والمتمشيخين التي ابتدعها بعد العصور الأولى مبدعة المسلمين ، وخالفوا فعل الصحابة والتابعين حتى باتت أكثر هذه القباب تمثل هياكل الأقدمين وتعيد سيرة الوثنية بأقبح أنواعها ، وأبعد منازعها عن الحق ، وأقربها من الشرك ، ولو اعتبر المسلمون بعد باختفاء قبور الصحابة الذين عنهم أخذوا هذا الدين وبهم نصر الله الإسلام لما اجترأوا على إقامة القباب على القبور وتعظيم الأموات تعظيماً يباه العقل والشرع وخالفوا في هذا كله الصحابة والتابعين الذين أدوا إلينا أمانة نبينهم فأضعفناها وأسرار شريعته فعبثنا بها : وإليك ما رواه في شأن القبور مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي قال : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ألا أبعثك

على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته . وفي صحيحه أيضاً عن ثمامة بن شفي قال : كنا مع فضالة ابن عبيد بأرض الروم برودس فتوفي صاحب لنا فأمر فضالة بقبره فسوى . ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بتسويتها (١) .

هكذا بلغونا الدين ، وأدوا إلينا أمانة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم تأكيداً لعهد الأمانة بدعوا بكل ما أمرهم به الرسول بأنفسهم ، لنستن بسنتهم ونهتدى بهدى نبهم ، ولكن قصرت عقولنا عن إدراك معنى تلك الجزئيات ، وانحطت مداركنا عن مقام العلم بحكمة التشريع الإلهي ، والأمر النبوي القاضى بعدم تشييد القبور ، اتقاء التدرج في مدارج الوثنية ، فلم نحفل بتلك الحكمة ، وتحكمنا بعقولنا القاصرة بالشرع ، فحكمنا بجواز تشييد القبور استجابة لمثل هذه الجزئيات حتى أصبحت كليات وخرقا في الدين وإفساداً لعقيدة التوحيد ، إذ ما زلنا نتدرج حتى جعلنا عليها المساجد وقصدنا رفاتنا بالندور والقربات ووقعنا من ثم فيما لأجله أمرنا الشارع بطمس القبور ، وكل هذا ونحن لا نزال في غفلة عن حكمة الشرع ، نهضام الحق ويصادمنا حتى نهلك مع الهالكين .

انتهى ما أحببنا إirاده من سيرة أبي عبيدة رضى الله عنه ، وها نحن أولاء نشرع بسيرة سعد بن أبي وقاص الذى هو من مشاهير الدولة العمرية فنقول :

(١) الأحاديث الواردة بالنهى عن تشييد القبور وتمطيها ولعن من يتخذها مزاراً ويقصدها بالندور كثيرة ، قد استقصى السلام عليها كثير من الأئمة المصلحين ، كشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وأمثالهما ، فلتراجع في مظانها من كتب القوم كالواسطة ولعانة الله ما نؤوغيرها .

سعد بن أبي وقاص

حاله في الجاهلية

نسبه وأصله :

سعد بن أبي وقاص واسم أبي وقاص مالك بن وهيب ويقال أهيب (كما في أسد الغابة) بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤي بن غالب بن فهر بن النضر بن كنانة القرشي الزهري يكنى أبا إسحاق وأمه حمثة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس .

مطالعته عن قومه وصناعته :

كانت صناعة سعد بن أبي وقاص كما تقدم يرى النبل ، وأما مكائته عند قومه وسيرته فيهم فلم تقف على شيء منها إلا أن مكائته عند قومه تعلم بالضرورة من درجة غناه ، فإنه كان قبل الهجرة غنياً موسراً ويستبدل على غناه بالحديث الآتي الذي (روى في الصحاح والسنن) عن سعد أنه شكى في مكة مرضاً فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله قد بلغ مني الوجع ما ترى ، وأنا ذو مال ولا يرثني إلا ابنة ، أفأوصي بثلاثي مالي : قال لا : قال فبالشطر قال لا : ثم قال الثلث والثلث كثير إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم حالة يتكففون الناس ، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها .

إسلامه وصحبته

إسلامه :

سعد بن أبي وقاص من السابقين الأولين إلى الإسلام الذين وافقت الدعوة التوحيدية منهم قلوباً واعية فبادروا لقبولها مبادرة الظمان للماء . والعليل

للدواء ، والنفس الحساسة من طبعها تتملل من الشرك ، وتتألم من عبادة
الأوثان ، وإنما هي تترقب نوراً ينقشع عنه ظلام الوثنية ، ومعيناً يمزق عنها
غشاء الخيرة لتبصر سبيل النجاة من متاعب الحياة الشركية ، وتتوصل لأطراح
الآصار الجاهلية ، وسعد رضى الله عنه لم يلبث أن طرق سمعه داعي السلامة
والسلام حتى كان رابع أربعة في الإسلام .

روى ابن عساكر في تاريخه وابن الأثير في أسد الغابة عن عائشة ابنة
سعد قالت سمعت أبي يقول : رأيت في المنام قبل أن أسلم بثلاث كائن في ظلمة
لا أبصر شيئاً إذ أضاء لي قمر فاتبعته فكأنني أنظر إلى من سبقني إلى ذلك
القمر فأنظر إلى زيد بن حارثة وإلى علي بن أبي طالب وإلى أبي بكر وكأني
أسألهم متى انتهيتم إلى هاهنا قالوا الساعة : وبلغني أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم يدعو إلى الإسلام مستخفياً فلقيته في شعب أجياد وقد صلى العصر
فأسلمت فها تقدمني أحد إلا هم : وروى ابن عساكر أن سعداً أسلم وهو
ابن سبع عشرة سنة .

ليس العجب من مبادرة سعد إلى الإسلام بعد أن استبان له طريق الرشد
فدفعه صفاء وجدانه إلى التملص من حبال الوثنية ، وإنما العجب من هذا
الدين الذي ما داخل قلباً إلا تمكن منه تمكن الروح من الجسم ، ورسوخ
فيه رسوخ الأطواد فاستحال أن تدركه العواصف أو تسطو عليه الأغراض ،
شأنه مع المسلمين الأولين ومن بعدهم إلى هذا اليوم ، وأن ما نال الصحابة من
الأذى وما عانوا من أنواع الشدائد في سبيل تمسكهم بعروة الإسلام الوثقى ،
والتفافهم على صاحب الشريعة الغراء لما تنوء به الجبال ومع هذا فلم يدفعهم
عن شأنهم دافع ، ولم يمنعهم عن المضى في سبيل الهدى والرشاد مانع ، ومن
هذا القبيل ما روى عن سعد بن أبي وقاص قال : نزلت هذه الآية في (وإن
جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا
معروفاً) قال كنت رجلاً برأ بأمر فلما أسلمت قالت يا سعد ما هذا الدين

الذى أحدثت لتدعن دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي : فقال لا تفعل يا أمي فإنى لا أدع ديني ، قال فكشكت يوماً وليلة لا تأكل فأصبحت وقد جهدت فقلت : والله لو كانت لك ألف نفس شفرجت نفسها نفساً ما تركت ديني هذا لشيء ، فلما رأت ذلك أكلت وشربت فأنزل الله هذه الآية ، أخرجه ابن الأثير في أسد الغابة وابن عساكر في تاريخه عن أبي عثمان المهدى ، وفي أسد الغابة عن ابن إسحاق : قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلوا ذهبوا إلى الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم ، فبينما سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين فعاكروهم وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم فاقتتلوا فضرب سعد رجلاً من المشركين بلحى جمل فشججه فكان أول دم أهرى في الإسلام ، وللصحابة الأولين من مثل هذا أخبار كثيرة تدل على صبرهم على المكاره وتحملهم ضروب الإهانة من المشركين استمساكاً بحبل الإسلام ، ووفاء بعهد الإيمان وإيقاناً بصدق رسالة محمد عليه الصلاة والسلام .

صحيحته :

كان سعد بن أبي وقاص من خيرة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأحد العشرة المبشرين بالجنة صاحب النبي صحيحته مخلص في إيمانه وجاهد بين يديه جهاداً يشهد له بعظيم حبه له وتفانيه بين يديه إذ شهد معه المشاهد كلها ، وكان معه يوم فتح مكة إحدى رايات المهاجرين الثلاث وكان ممن ثبت معه يوم أحد وقاتل دونه قتال الأبطال ، وروى عن الزهري أنه قال : رمى سعد يوم أحد ، ألف سهم ، وجمع له رسول الله يومئذ أباه وأمه إذ قال له « ارم فذاك أبى وأمى ، ارم أيها الغلام الخزور » ^(١) رواه في أسد الغابة عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه .

(١) الغلام الخزور أى القوى

وعابه يوماً بنو أسد في الكوفة فقال راداً عليهم : إني لأول العرب
رحى بسهم في سبيل الله، والله إن كنا لنغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لنا
طعام إلا السمر وورق الحيلة ، حتى إن كان أحداً ليضع كما تضع العنز (وفي
رواية الشاة) ما بنا خلط ثم أصبحت بنو أسد تعزرنى (١) على الدين لقد
خسرت إذأ وضل عملي . رواه ابن عساكر وابن الأثير عن قيس بن أبي حازم ،
ومن أجهل ما يؤثر عنه في صحبته ما رواه ابن عساكر عن عبد الله بن عامر
ابن ربيعة أن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : سهر رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمه
المدينة ليلة فقال ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة ، فيدبنا نحن كذلك
إذ سمعنا خشخشة سلاح فقال : من هذا ، فقالوا : سعد بن أبي وقاص ، فقال له
رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء بك ، فقال سعد وقع في نفسي خوف على
رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء بك ، فقال سعد وقع في نفسي
خوف على رسول الله فحمت أحرسه ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
قالت فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعت غطيطة في نومه .

وهذا ما يدل على منتهى الحرص من سعد رضي الله عنه على حياة نبيه
وراحته صلى الله عليه وسلم وكانه شعر في تلك الليلة بخاطر على النبي صلى الله عليه وسلم
كما شعر النبي بذلك أيضاً فبادر ليحرسه بنفسه ويقه أذى عدوه شأن صحابته
كلهم الذين كانوا يتنافسون في خدمته ، ويحرصون على الذب عنه والذود
عن حوضه وتعزير دعوته وإعلاء كلمته جزاهم الله خير الجزاء .

وقد كان من حب رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد أن دعاه أن يسدد رميته

(١) قوله السمر وورق الحيلة كلاهما شجر وقيل لأن الأول هو شجر الطلح والثاني
نبات يشبه اللوباء . وقوله كما تضع الشاة أي كما ترعى يراد أنهم بلغ بهم الصبر مع رسول الله
على قلة الطعام لأن كانوا يرعون ذلك النبات كما ترعى الشاة : وقوله ما بنا خلط ، الخلط والخلط
يسكون اللام وكسرهما التملق وقوله تعزرنى من العزرو هو اللوم أو التوقيف على باب الدين
وأحكامه كما في القاموس .

ويجب دعوته فكان بحسب الدعوة حتى لقد كان كبار الصحابة كعمر بن الخطاب وابن مسعود يتحاشون دعوته ، وقد روى المحدثون كثيراً من الأخبار فيمن أصابته دعوة سعد رضي الله عنه .

مروبه وفتوماته :

قد كان سعد بن أبي وقاص من شجعان قریش وكما تم ، لهذا كان لما استشار عمر فيمن يوليه حرب الفرس أن أشاروا عليه بسعد وقالوا عنه : إنه الأسد عاديا : كما رأيت في غير مسير سعد إلى العراق فانهى عمر إلى رأيهم وسلم لهذا البطل الكبير قيادة الجيوش الإسلامية في حرب الفرس وأوصاه بما أوصاه فصار بالجيوش حتى انتهى إلى شراف وهناك عشر الناس وأمر على أجنادهم وعباهم وفرق المسالح في الأطراف وسد المروج الخفيفة ، ولما أتم لكل شيء عدته ارتحل إلى القادسية وهي المكان الذي اختاره لحرب الفرس وكان على حافة البرية مما يلي أرض العرب وقد مر تفصيل الخبر عن مسير سعد إلى القادسية في سيرة عمر ونشير هنا إلى ما كان بعد وصوله القادسية من أخباره مع الفرس فنقول :

لما نزل سعد القادسية نفر أهل السواد (سواد العراق) إلى كسرى بزدجرد يستغيثونه وأخبروه بنزول العرب القادسية وتفرق سراياهم للغارة وطلبوا منه النجدة وقالوا إن أبطأ علينا النجاة أعطيناهم بأيدينا .

علم بزدجرد من وقائع العرب الأولى مع جيوشه التي دحرت في العراق أيام خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة أن العرب بعد الإسلام ليسوا العرب قبله وأن القوم الذين كانوا على زعم الفرس من رعاة الإبل أصبحوا من رعاة الأمم وقادة الفتح فلا ينفع معهم إلا الجد ولا يقاومون إلا ببذل الجهد في إعداد العديد والعدة فاستدعى إليه رستم وكان قائد قواد الدولة وصاحب

الرأى فيها وقال له إني أريد أنى أوجهك فى هذا الوجه ، فأنت رجل فارس اليوم ، وقد نرى ما حل بالفارس مما لم يأتهم مثله .

كان رستم صاحب رأى ودربة وقد وقف على حال المسلمين وأوجس منهم خيفة على دولة الفرس فرأى أن مقامه مع كسرى لتدبير أمور الحرب وتسريح الجيوش ومناظرة القواد أولى من حضوره ساحات الحرب بنفسه ضناً بها عن مواقف الخطر ، فرغب إلى يزدجرد استبقاءه فى عاصمة الدولة ليمد القواد بالرأى ، وكان مما قاله له يومئذ أن العرب لا تزال تهاب العجم مالم تضربهم بى ولعل الدولة أن تثبت بى إذا لم أحضر الحرب فيكون الله قد كفى ونكون قد أصبنا المكيدة ، والرأى فى الحرب أنفع من بعض الظفر ، والأناة خير من العجلة وقتال جيش بعد جيش أمثل من هزيمة بمرة وأشد على عدونا .

فأبى عليه وأعاد رستم كلامه وقال : قد اضطررتى تضيق الرأى إلى إعظام نفسى وتزكيتها ، ولو أجد من ذلك بدأ لم أتكلم به فأشددك فى نفسك وملكتك دعنى أقم بعسكرى وأسرح الجاليينوس فإن تكن لنا فذلك وإلا بعثنا غيره حتى إذا لم نجد بدأ صبرنا لهم وقد وهنناهم ونحن حامون فأبى لا أزال مرجواً فى أهل فارس مالم أهزم . فأبى إلا أن يسير فخرج حتى ضرب عسكره بساباط . وجاءت الأخبار إلى سعد بذلك ، فكتب إلى عمر فكتب إليه أن يستعين بالله ولا يجوز وأن يرسل إلى يزدجرد أولاً يدعوه إلى الإسلام كما مر الخبر عن هذا فى سيرة عمر رضى الله عنه . فأرسل سعد فقرأ من أهل الرأى منهم النعمان بن مقرن وبسر بن أبى رهم وحملة بن حوية وحنظلة بن الربيع وفرات بن حبان وعدى بن سهيل وعطار بن حاجب والمغيرة بن زرارة ابن النباش الأسدى والأشعث بن قيس والحرث بن حسان وعاصم بن عمرو وعمرو بن معد يكرب والمغيرة بن شعبة والمعنى بن حارثة دعاة . فخرجوا (٣٣ - أشهر مشاهير الإسلام)

من العسكر فقدموا على يزدجرد وطووا رستم واستأذنوا على يزدجرد ،
فقبسوا ريثما أحضر يزدجرد وزراه ورستم معهم واستشارهم فيما يصنع ،
واجتمع الناس ينظرون إليهم وتحتهم خيول كلها صهال وعليهم البرود
وبأيديهم السياط فأذن لهم وأحضر الترجمان وقال له سلمهم ما جاء بكم
وما دعاكم إلى غزونا والولوغ ببلاد ؟ أمن أجل أننا تشاغلنا عنكم
اجترأتم علينا .

فقال النعمان بن مقرن لأصحابه إن شئتم تكلمت عنكم ومن شاء آثرته
فقالوا بل تكلم فقال :

إن الله رحمتنا فأرسل إلينا رسولا يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ووعدنا
على إجابته خير الدنيا والآخرة ، فلم يدع قبيلة إلا وقاربه منها فرقة وتباعده
عنه بها فرقة ، ثم أمر أن نبتدىء إلى من خالفه من العرب ، فبدأنا بهم
فدخلوا معه على وجهين مكره عليه فاغتيبط ، وطائع فازداد ، فعرفنا جميعا
فضل ما جاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق ، ثم أمرنا أن نبتدىء
بمن يليقنا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو
دين حسن الحسن وقبح القبيح كله فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر
شر منه الجزية ، فإن أبيتم فإلما نجزى (الحرب) فإن أجبتكم إلى ديننا خلفنا
فيكم كتاب الله ، وأقمتنا على أن تحكموا بأحكامه وزجع عنكم وشأنكم وبلادكم
وإن بذلتكم الجزى قبلنا ومنعناكم وإلا قاتلناكم .

ومن نظر في كلام النعمان هذا نظر منصف لا يتعصب لفكر ولا دين ،
يرى أن أصول الدعوة إلى الإسلام على هذا الوجه خير وسيلة لهداية الأمم
بلا إكراه ولا إجبار ، إلا ما يصاحب الدعوة من القوة التي يراد بها حمايتها
وإظهار شأن أهلها وقوتهم ويجدهم لمن لا يرى قوة دين وصحته من البشر
إلا بقوة أهله والإنسان أكثر ما يخضع للحس دون الوجدان إلا من اطرح

رداء التقليد ، وأطلق عقله من قيود الآوهام ، فوضع كل ما يرد عليه موضع المحاكمة والنقد ، وهؤلاء عددهم قليل ، في كل أمة وجيل .

لم يقنع يزدجرد بما سمع من كلام النعمان ، فأجابه بجواب قد يظهر فيه امتنانه للعرب وعجبه من ظهورهم بذلك المظهر العظيم ، بعد أن كانوا من أفقر الشعوب وأدناهم وأجهلهم ، فأجابه المغيرة بن زرارة بأن ما وصف به العرب من الجهل وسوء الحال هو حق ، إلا أنه قد كان ذلك قبل الإسلام ، وأما بعده فالحال صار غير الحال ، ثم دعاه إلى ما دعاه إليه النعمان من قبول الإسلام ، أو يدفع الجزية عن يد وهو صاغر ، أو السيف ، فغضب يزدجرد من ذلك واستدعى بوقر من تراب ، فقال احمليه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن ، وقال ارجعوا إلى صاحبكم وأعلموه أني مرسل إليهم رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه في خندق القادسية ، ثم أوردته بلادكم حتى أشغلكم بأنفسكم بأشد مما فالكم من سابور ، فتقدم عاصم بن عمرو وقال أنا سيد هؤلاء ، وحمل التراب على عاتقه ، وخرج إلى سعد وقال أبشر فوالله لقد أعطانا الله أقاليد ملكهم .

قال يزدجرد لرستم بعد أن فارقه الوفد ما كنت أرى أن في العرب مثل هؤلاء ما أنتم بأحسن جواباً منهم ولقد صدقني القوم لقد وعدوا أمراً ليدركنهم أو ليموتن عليه ، على أني وجدت أفضلمهم أحقهم حيث حمل التراب على رأسه ، فقال رستم أيها الملك إنه أعقلهم وتطير من ذلك .

والعجيب في هذا الخبر أن يعتقد يزدجرد أن القوم وعدوا أمراً هم مدركوه ، ثم يعاملهم بمثل تلك المعاملة التي يريد بها تأكيد امتنانه لهم واحتقار أمرهم ، وهذا بلا ريب من الخرق في الرأي والتناهي في الكبرياء الباطلة ، وسوء التدبير مع قوم سيكونون عما قريب سادة ملكه وهو يتوقع منهم ذلك ، ويحدث قومه به ، ولا جرم أن أكثر ما مهد للمسلمين يومئذ طريق

الفتح والغلبة على الأمم ، هو استصغار شأنهم من ملوك الأرض وقادة الشعوب بسبب ما كانت عليه تلك الأمة البدوية قبل الإسلام ، من الضعف وسوء الحال وتفرق الكلمة ، على أنه كان في مظاهرهم وأخلاقهم بعد الإسلام ما يكفي لاعتبار أعدائهم بتغيير أحوالهم وينذر بعلو شأنهم على من سواهم ، والله في هذا شأن هو بالغه .

أخذ سعد بعد ذلك في بث السرايا للغارات على الأطراف ومناوشة مسالح الفرس ، وسار رستم من ساباط وبعث على مقدمته الجالينوس في أربعين ألفاً ، وخرج هو في ستين ألفاً ، وجعل على ميمنته الهرمزان وعلى ميسرته مهران ، وكتب إلى أخيه البندوان في مرمة الحصون وإعداد العدة ثم سار فنزل بكوثر وأتى له هناك برجل من المسلمين ، فقال له ما جاء بكم وماذا تطلبون ، فقال جئنا نطلب موعود الله بملك أرضكم وأبنائكم إن أبيتم أن تسلموا ، قال رستم فإن قتلتم قبل ذلك ! قال من قتل منا دخل الجنة ومن بقي منا أنجزه الله ما وعده ففتح على يقين . فقال رستم قد وضعنا أذن في أيديكم ، فقال أعمالكم وضعتمكم فأسلمكم الله بها ، فلا يغرنك من ترى حولك فإنك لست تحاول الأناص إنما تحاول القدر ، فضرب عنقه ثم سار فنزل البرس فعات جيشه في النواحي ، وغضب أصحابه الناس أبناءهم وأموالهم ، ووقعوا على النساء وشربوا الخمر ، فضج أهل برس إلى رستم فقال : يا معشر فارس ، والله لقد صدق العربي ، والله ما أسلمنا إلا أعمالنا . والله إن العرب مع هؤلاء وهم لهم حرب أحسن سيرة منكم ، إن الله كان ينصركم على العدو ويمكن لكم في البلاد بحسن السيرة وكف الظلم والوفاء والإحسان ، فإذا تغيرتم فلا أرى الله إلا مغيراً ما بكم ، وما أنا بآمن من أن ينزع الله سلطانه منكم . ثم أتى ببعض من يشكى منه فضرب عنقه .

وأنت ترى من هذه الحكاية إلى أية درجة بلغ فساد النظام ، وفشو مرض الظلم والفوضى في أمة الفرس يومئذ ، ولا تثريب على عرب العراق إذا أعطوا بأيديهم إلى المسلمين الذين رأوا منهم من حسن الأخلاق والحفاظة على الحقوق ، والقيام على العدل ما لم ير من فاتح قبلهم قط .

أقام رستم بالعراق دون القادسية نحو أربعة أشهر ، ولا يكون بينه وبين المسلمين حرب ، إلا بعض المناوشات التي كانت تقع بين بعض جنوده وسرايا المسلمين ، ثم عزم بعد هذه المطاولة على قصد سعد وهو بالقادسية ، فسار وقدم أمامه الجالينوس وكان يطاول المسلمين رجاء أن يضجروا بمكانهم فينصرفوا ، إلا أن الملك استعجله وأنهضه . وكان عمر رضى الله عنه كتب إلى سعد يأمره بالصبر والمطاولة أيضاً ، فأعد للمطاولة عدتها فلما وصل رستم القادسية وقف على العتيق بجيال عسكر سعد ، ونزل الناس فزالوا يلاحقون حتى أعتموا من كثرتهم ، والمسلمون مسمكون عنهم وكان مع رستم ثلاثة وثلاثون فيلا منها فيل سابور الأبيض .

دعوة المسلمين إلى الأخاء والمساواة وما نشأ عنها :

لما أصبح رستم من تلك الليلة ركب وسار من العتيق نحو خفان حتى أتى على منقطع عسكر المسلمين ، ثم صعد حتى انتهى إلى القنطرة فتأمل المسلمين ووقف على موضع يشرف منه عليهم ، ولما هاله ما رأى من جمعهم مع ما خامر فؤاده من قبل من الخوف منهم ، أرسل إلى زهرة بن الحوبة وهو من سادات بني تميم فوافقه ، فأراده على أن يصالحه ويجعل له جعلا على أن ينصرفوا عنه من غير أن يصرح له بذلك ، بل يقول له كنتم جيراننا وكنا نحسن إليكم ونحفظكم ، ويخبره عن صنيعهم مع العرب فقال له زهرة : ليس أمرنا كأمر أولئك ، إنا لم نأتكم لطلب الدنيا إنما طلبتنا وهمنا الآخرة وقد كننا كما ذكرت إلى أن بعث الله فينا رسولا فدعانا إلى ربه فأجبناه

فقال لرسوله إنى سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بدينى ، فأنا منتقم بهم منهم ، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد إلا ذل ، ولا يعتصم به أحد إلا عز ، فقال رستم : ما هو ، قال : أما عموده الذى لا يصلح إلا به ، فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قال : وأى شيء أيضاً ، قال وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله ، والناس بنو آدم وحواء إخوة لأب وأم ، قال ما أحسن هذا ، ثم قال رستم أرأيت إن أجبته إلى هذا ومعنى قومى كيف يكون أمركم أترجعون ؟ قال إى والله ، قال صدقتنى ، أما إن أهل فارس منذ ولى أزدشير لم يدعوا أحدا يخرج من عمله من السفلة ، وكانوا يقولون إذا خرجوا من أعمالهم تعدوا طورهم وعادوا أشرافهم ، فقال زهرة نحن خير الناس للناس فلا نستطيع أن نكون كما تقولون بل نطيع الله فى السفلة ولا يضرنا من عصى الله فينا .

من تأمل فى هذه المحاورة علم أن دعوة المسلمين لما كانت مبنية على الإخاء والمساواة وإعتاق الطبقات الدنيا من رق العبودية ، لا سيما فى الأمم القديمة التى كانت دوطها عريقة فى الاستبداد وأشراف مملكتها مستعبدين للشعب كان أصعب شيء على الأمراء والملوك قبول هذه الدعوة ، لما يتوقعونه بعدها من وجوب كف يد القهر والقوة التى هم باسطوها على الناس ، لهذا كانوا يفضلون الحرب مع المسلمين على قبول دعوة الإسلام ويزجون بالعامية فى غمار الحروب ، لا دفعاً عن الدولة بل منعاً عن الخير واستئثاراً بالسلطة وتشبهاً باسم السيادة المطلقة على الشعب ، بدليل ما سمعت من هذه المحاورة وما تتلوه عليك من تنمة ما كان من الخبر عن رستم ، فإنه بعد أن سمع ما سمع من زهرة أحب أن يسمع أشراف أمته وقواده من المسلمين مثل ما سمع ، لعلمهم يتزعون إلى إطلاق حرية الشعب والتسامح بحقوق الطبقة الدنيا من الناس ، ليكونوا جميعاً أخوة فى الدين سواء أمام العقل والعدل ، فدعا رجال فارس وذاكرهم

في هذا فأنفوا وهو يتوقع منهم ذلك ، لهذا أرسل إلى سعد أن ابعث لنا رجلا نكلمه ويكلمنا ، فدعا سعد جماعة ليرسلهم إليهم فقال له ربي بن عامر متى نأتهم جميعا يروا أنا احتفلنا بهم فلا تزدهم على رجل ، فأرسله وحده فسار إليهم في أبسط زي من اللباس والعدة ، واقتحم بفرسه بساط رستم ونمارقه ، ثم دنا منه وجلس على الأرض ولم يشأ أن يجلس على البسط والنارق ، فسئل ما جاء بكم ؟ فدعاهم إلى الدين أو الجزية أو الحرب ، وبعد كلام طويل بينه وبين رستم استمهل لينظر وقومه في هذا الأمر فأهمله ثلاثا فقال له : وهل أنت سيد قومك ؟ قال لا ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض يحيز أدناهم على أعلام ، نفلا رستم برؤساء قومه فقال : هل رأيتم كلاما أعز وأوضح من كلام هذا الرجل ؟ ترغيباً لهم في إجابة دعوة الإسلام ، فقالوا معاذ الله أن نميل إلى دين هذا الكلب ، أما ترى إلى ثيابه ؟ فقال ويحكم لا تنظروا إلى الثياب ولكن انظروا إلى الرأي والكلام والسيرة ، إن العرب تستخفف باللباس وتصون الأحساب ليسوا مثلكم .

ولعل رستم استمال أمراه بعد ذهاب ربي بن عامر أو أراد تردد رسل المسلمين عليه رجاء اقتناع قومه منهم ، فلما كان من الغد أرسل إلى سعد ابن أبي وقاص أن ابعث إلينا ذلك الرجل ، فبعث إليهم حذيفة بن محض فأقبل في نحو زي سابقه ووقف على رستم راكباً قال : انزل ، فأبى فقال له ما جاء بك ولماذا لم يحى الأول ؟ قال : إن أميرنا يجب أن يعدل بيننا في الشدة والرخاء ، ثم سأله رستم عما جاء بهم ، فأجابه مثل الأول فصرفه ، ثم بعث من الغد أن ابعثوا إلينا رجلاً ، فبعث المغيرة بن شعبة داهية القوم في عصره ، فأقبل إليهم وعليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب ، وبسطهم على غلوة (مرمى بسهم) لا يوصل إلى صاحبهم حتى يمشى عليها ، فأقبل المغيرة حتى جلس مع رستم على سريرته ، فوثبوا عليه ومكوه وأنزلوه فقال : قد كانت

تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوما أسفه منكم ، إنا معشر العرب لا نستعبد
بعضنا بعضاً فظننت أنكم تواسون قومكم د أى تساؤونهم بأنفسكم والخطاب
كما لا يخفى للأمراء ، كما تتواسى فـكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبروني
أن بعضكم أرباب بعض ، فإن هذا الأمر لا يستقيم فيكم ولا يصنعهُ أحد ،
ولانى لم آتكم ولمكن دعوتمنى ، اليوم علمت أنكم مغلوبون وإن ملكاً
لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول .

قال المغيرة ما قال على ملا الناس بين جندى وأمير ، وهو يسمع بصوته
الجمهورى كل الناس ، فسرى كلامه فى الرءوس كما تسرى الشرارة الكبر بائية
فى الأسلاك ، وانتفض لها القوم كما ينتفضى العصفور بالله القطر .

ماذا كان بعد هذه الهزة الكبر بائية ، والدعوة الإسلامية ، كان أن
السفلة هبوا هبوب المستيقظين من سبات عميق ، فنادوا صدق والله العربى
فيما قال ، وأما الدهاقين فكأنه صب عليهم صوت من العذاب وقالوا ، والله
لقد رمى (يعنون المغيرة) بكلام لا تزال عبيدنا ينزعون إليه ، قاتل الله أولينا
حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة ، ولم يكن بعد هذا من الدهاقين أى
أشراف البلاد وسادة الأمة الذين يعتبرون بقية الشعب الذين هم دونهم
عبيداً لهم ، كما رأيت من قول أولئك الدهاقين إلا أن أصروا على الحرب
ورفض ما دعاهم إليه المسلمون ، فأفضى ذلك إلى زوال دولتهم وذهاب
ملكهم ، وإنما حال بينهم وبين الإسلام واستبقاء ملكهم فى أيدي ملوكهم ،
حب الشهوات والحرص على السيادة المطلقة التى أرادهم على تركها المسلمون
وعيرهم بها المغيرة وسابقوه ، وكـم أزال حب السلطة الاستبدادية من الدول
ودمو من الممالك ، وليس أشأم على البصر وأشد خطراً على الدول من حكومات
تأصل فى زجالتها حب الاستبداد وبسط يد القهر على طبقات المحكومين ،
واستفحل فيها شأن الأشراف . فكأنوا أرباباً والرعية مر بوبين ، تساق بأيديهم
إلى حيث تلاقى الختوف وتعانى أنواع الشقاء .

تأصلت جرثومة الاستعباد ونمت ملكة الاستبداد في نفوس أشرف
الفرس وغيرهم من الأمم القديمة ، فجاء الإسلام يدعو إلى الحرية وأن البشر
كلهم سواء ، أبوهم آدم والام حواء ، وإنما أمر الشعوب في الأمم
القديمة إلى أشرافهم كما رأيت ، فهم لأمرائهم تبع ولذوى السيطرة عليهم
مقلدون ، قد سدت دونهم المنافذ بسور من سطوة أولئك الجبارين ، فان
تصل إليهم دعوة الإسلام إلى المساواة في الحقوق والإخاء في الدين ، وعدم
التفاضل إلا بالعلم ، إلا يارهاب قادتهم ، وقهر سادتهم ، فهل يؤخذ على الإسلام
وهذا شأنه في إسعاد البشر أن جعل أساس الدعوة الموعظة وحياتها
القوة ، لا والله إن هذا المنتهى الحكمة بالإضافة إلى أخلاق تلك الأمم ،
وحياتهم التي هي ذل محض ولده طول الصبر على الضيم ، والرضوخ لسيطرة
الأمراء الجائرة وسلطانهم القاهر ، حتى أصبح ملكة من ملكات النفوس
تظهر حيناً وتختفي آخر ، وإليك الدليل .

دعا المسلمون رجال الفرس إلى مادعوم إليه فأبوا واستكبروا ،
ومنشأ الإباء كما علمت هو الحرص على السيطرة الاستبدادية ، والخوف
من محو آية التفاضل ، أو النهوض بالسفلة إلى مقام الحرية الذي يلحقهم
بالأشرف ، ويقضى على سيطرة هؤلاء بالضعف والزوال ، فزجوا بالعامّة
في غمار الحرب وألحقوا بدولتهم الهلاك : فلذا إذا نظرنا إلى الدعوة الإسلامية
يومئذ نجد أنه قد نشأ عنها أمران عظيمان ، أمر ظهر أثره في الحال ، وأمر
ظهر أثره في المستقبل .

فأما الأمر الذي ظهر أثره في الحال فهو رفض زعماء الفرس ودهاقينهم
للإسلام ، ورضاهم بحرب المسلمين دون قبول دينهم ، خوفاً من انتشار تعاليمه
المؤذنة بغل أيدي الأشراف ، حتى كان من ذلك توقف انتشار الإسلام .

بالدعوة إلا بعد حمايتها بالقوة فتسلط العرب على مملكة الفرس ومحو آثار الوثنية من البلاد .

وأما الأمر الذى ظهر أثره فى الاستقبال فهو أن الرضوخ لسيطرة الأشراف لما صار مملكة فى نفوس الأعاجم كانوا لها أطوع ، وإليها أميل ، ولما بسطت عليهم دعوة العرب بجناح العدل ورفعت فوق ربوعهم لواء الإسلام اغتبطوا حينما بسطان المسلمين ثم لما امتد ملك العرب فى الشرق والغرب ، وتفرقت عصبيتهم فى أنحاء الممالك وقلت الحامية منهم بين ظهرانى الأعاجم وأفضوا إلى هؤلاء بأمور الملك ، وشاركهم فى شئون الدولة بحكم الوحدة الإسلامية والجامعة المالية ، نزع الأعاجم إلى سيرتهم الأولى ونبض فيهم عرق القوة فتحزبوا أحزاباً تناوى الدولة العربية ، وتحاول هدم أركان حكومتهم الديمقراطية ، واستبدالها بحكومة الأشراف الأرستوقراطية ، ولم يروا أعون لهم على هذه البغية إلا الدعوة لآل البيت النبوى الشريف ، فبشوا منهم الدعاة فى الآفاق الإسلامية يدعون لآل البيت فى السر تارة والعلانية أخرى ، حتى تمكنوا من كبد الدولة المروانية وأوغروا عليها صدور الأمة وشوشوا على ملوكها تدمير أمور الرعية ، فكان ما كان من تتبع هؤلاء لأهل البيت بالقتل والتشريد حتى استفحل الخطب وأحفظوا عليهم قلوب المسلمين ، فتألبوا على قلب دولتهم مراراً عدة انتهت بظهور الدولة العباسية وتسليمها مقاليد الأمور لأنصارها من الأعاجم الذين لم يلبشوا إلا جيلاً أو بعض جيل ، حتى توثبوا على الخلافة وتشاطر زعماءهم ملك العباسيين العريض ، فأعادوا سيرة الأشراف الأولى لأقبح ما كانت عليه من قبل ، فى سوء الاحدوثة والإيغال فى الظلم وبسط يد القهر والاستبداد على الناس ، وسلم بشيء من هذا البحث فيما يأتى من هذا الكتاب إن شاء الله .

وفائع القادسية :

دعا رستم قومه إلى مسالمة المسلمين بعد كلام طويل جرى بينه وبين .

المغيرة فأبوا عليه ، وأراد سعد أن يباشر الحرب إنذاراً للقوم آخر مرة ، فأرسل ثلاثة من ذوى الرأى إلى رستم يدعونه وقومه إلى الإسلام ، فقالوا له : إن أميرنا يدعوك إلى ما هو خير لنا ولك ، والعافية أن تقبل ما دعاك إليه ، ونرجع إلى أرضنا وترجع إلى أرضك وداركم لكم وأمركم فيكم ، وما أصبتم كان زيادة لكم دوننا وكنا عوناً لكم على أحد إن أرادكم ، فأتق الله ولا يكونن هالك قومك على يدك ، وليس بيننا وبين أن تغبط بهذا الأمر إلا أن تدخل فيه .

هذه كانت آخر دعواهم له أن يقبل الإسلام ويحتفظ بدولته ومملكته ومملكته ، ويبقى في أرضه ، ويرجعون إلى أرضهم وسلطان الفرس لهم وعليهم ، لا يضارون ولا يمس جانب سلطانهم ، ولهم مع ذلك الحماية والدفع من المسلمين ، إن هذا لغاية الإنصاف ومنتهى السعادة لقوم انغمسوا في حماة الوثنية ، واستنماوا الزعماء الجور ، لكن رستم رفض هذه الدعوة وغمط هذه النعمة بجسارة لزعماء الأمة وقادة الجيش ودهاقين البلاد ، فرد الرسل كما جاءوا أول مرة وأنذروا المسلمين بالحرب ، وهو في باطن الأمر لا يريد لها ولم يتقدم لها إلا مكرها عليها عالماً بمصير قومه بعدها ، فأمر قومه بعبور النهر بعد أن سأل سعداً : أنعبر إلينا أم نعبر إليك ، فأجابه أن اعبر ، وأرسل سعد إلى المسلمين أن يقفوا مواقفهم ويأخذوا للمصاف أهبتهم فقموا ، وعبر إليهم الفرس من العتيق ، وجعل رستم بينه وبين يزدجرد بريدأ ينقل الخبر بالصوت أى وضع رجالاً في مواقف يقرب بعضها من بعض بحيث إذا نادى الواحد يسمعه الآخر ، فيصل الخبر إلى يزدجرد في أقرب وقت ،

كان بسعد يومئذ مرض عرق النساء وقروح في أليته ، لا يستطيع الركوب ، فبقى على سطح القصر وهو مكب على وجهه في صدره وسادة

يشرف على الناس والصف في أصل حائطه ، فعابه بعض الناس بذلك وذكره
في شعره وقال :

نقاتل حتى أنزل الله نصره وسعد يباب القادسية معهم
فأبنا وقد آمت نساء كثيرة ونسوة سعد ليس فيهن أيم

فبلغت أبياته سعداً ، فقال اللهم إن كان هذا كاذبا وقال الذي قال رياء
وسمعة فاقطع عني لسانه ، ثم نزل إلى الناس وأراهم ما به من القروح فعذروه
وعلموا حاله ، ولما عجز عن الركوب استخلف خالد بن عرفة ودعا بناس
من ذوى الرأى والنجدة ، منهم المغيرة بن شعبه وطلحة الأسدي وعمر
ابن معد يكرب وأمثالهم ، وأمرهم بتحريض الناس إلى القتال ففعلوا ،
وأمر سعد الناس بقراءة سورة الأنفال فلما قرئت هشت قلوب الناس
وعيونهم ، وعرفوا السكينة مع قرائتها ، فلما فرغ القراء منها قال سعد : الزموا
مواقفكم حتى تصلوا الظهر ، فإذا صليتم فإني مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا ،
فإذا سمعتم الثانية فكبروا والبسوا عدتكم ، ثم إذا كبرت الثالثة فكبروا
فكبروا ولينشط فرسانكم الناس ، فإذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعاً حتى
تخالطوا عدوكم ، فلما كبر سعد الثالثة خرج أهل النجدات فأنشبوا القتال ودارت
رحى الحرب واعتور الطعن والضرب ، وكانت الفرس قد قصدت بجيلة
بسبعة عشر فيلاً فنفرت خيل بجيلة فكادت بجيلة تهلك لنفار خيلها . وأرسل
سعد إلى بنى أسد ورئيسهم طليحة أن دافعوا عن بجيلة فخرج طليحة بن خويلد
في كتابتها فباشروا الفيلة ، وقام الأشعث بن قيس في بنى كندة فحرضهم على
القتال ، فلما رأى الفرس ما يلقي الناس والفيلة من أسدروهم بحدهم وحملوا
عليهم وفيهم ذو الحجاب والجالينوس ، والمسلمون ينتظرون التكبيرة الرابعة
من سعد ، واجتمعت حلبة فارس على أسد فثبتوا لهم ، وكبر سعد الرابعة
وزحف إليهم المسلمون ورحى الحزب تدور على أسد ، وحملت الفيول على

الميمنة والميسرة فكانت الخيول تحيد عنها ، فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو التميمي أن يكفيه وقومه شر الفيلة ، فتقدم عاصم بجماعة من شجيمان قومه ورماتهم فقطعوا وضمن الفيلة ، فعوت وفرت رجالها ونفس عن أسد ، فردوا جنود فارس عنهم إلى موافقهم واقتتلوا حتى غربت الشمس ، ثم حتى ذهب هداة من الليل ثم رجع الفريقان ، وقد أبلى بنو أسد في ذلك اليوم - وهو يوم أرمات - بلاء عظيما .

لما أصبح القوم في اليوم الثاني - وهو يوم أغواث - وكل سعد - بالقتلى والجرحى من ينقلهم ، فسلم الجرحى إلى النساء ليقعن عليهم وأما القتلى فدفنوا هنالك ، وبينما هم يدفنون القتلى طلعت نواصي الخيل من الشام ومعها القعقاع بن عمرو الذي قال عنه أبو بكر : لا يهزم جيش فيهم مثل هذا : وقد كان عمر كتب إلى أبي عبيدة بإرسال أهل العراق إلى العراق كما تقدم في سيرته ، فأرسلهم وعليهم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ابن أخي سعد ويعرف بالمرقال ، وكان القعقاع على مقدمته فتعجل فقدم على الناس صبيحة هذا اليوم وهو يوم أغواث ، فهدى إلى أصحابه وهم ألف أن يقطعوا أعشاراً كل ما بلغ عشرة مدى البصر مرحوا عشرة ، ولما وصل سلم على الناس وبشرهم بالمدد وحرصهم على القتال وقال اصنعوا كما أصنع ، ثم خرج وهو ينادى بالثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب الجسر ، وطلب البراز فبرز إليه ذو الحاجب فتجاولا ساعة ثم قتله القعقاع ، ثم خرج البندوان والفيروزان فانضم إلى القعقاع الحارث بن ظبيان أحد بني تميم اللات ، فتبارزوا فقتل القعقاع الفيروزان وقتل الحارث البندوان ، ثم ما زال يتبارز الأقران حتى انتصف النهار ، فتزاحف الفريقان واقتتلوا حتى انتصف الليل .

ثم أصبحوا يوم عماس وهو اليوم الثالث وهم على موافقهم ، فكان من حسن مكاييد القعقاع أن بات تلك الليلة يسرب أصحابه إلى المكان الذي

فارقهم فيه ، وقال إذا طلعت الشمس فأقبلوا مائة مائة فإن أقبل هاشم (يعنى ببقية الجيش الآتى من الشام) فذاك ، ولألا جددتم للناس رجاء ورجاء وأصبحوا على مواقفهم ، فلما ذر قرن الشمس أقبل أصحاب القعقاع فحين رآهم كبر وكبر المسلمون وتقدموا ، وتسكتبت الكتائب واختلفوا الضرب والطعن ، فما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى انتهى إليهم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، فأخبر بما صنع القعقاع فعبى أصحابه سبعين سبعين ، وكان فيهم قيس بن هبيرة بن عبد يغوث المعروف بقيس بن مكشوح فانتدب مع هاشم ، حتى إذا خالط الناس كبر وكبر المسلمون ، ثم حمل على المشركين حتى خرق صفهم إلى العتيق ، وكان الفرس باتوا يعملون توابيتهم ويعدون فيلتهم ، وأقبلت الرجالة تحميها أن تقطع وضنها فلم تنفر الخيل منهم كما كانت بالأمس لأن الخيل استأنست بالرجال المطيفين بها ، وكان يوم حماس شديدا على العرب والفرس ، وقاتل فيه القعقاع وعمرو بن معد يكرب وهاشم وقيس بن مكشوح وعاصم بن عمرو وأضرابهم من أنجاد المسلمين قتالا شديدا ، وانتدب عمرو والقعقاع لليلة فشردوها ، وما زال القتال دائرة رحاه حتى أمسوا ، فلما أمسى الناس اشتد القتال وكانت ليلة (الحرير) وكان الفرس لا يريدون غير الزحف ، فقدموا صفوفهم وزاحفهم الناس بغير إذن سعد وكان أول من زاحفهم القعقاع وقال سعد : اللهم اغفرها له وانصره فقد أذنت له لأن لم إن لم يستأذنى : ثم إن سعدا واعد المسلمين ثلاث تكبيرات لينزحفوا جميعهم فلما كبر الأولى تقدمت أسد ، ولله در أسد على حسن بلائها في هذه الحرب فقال : اللهم اغفرها لهم وانصرهم : ثم حملت النخع ثم بجيلة ثم كندة ، ثم زحف الرؤساء ورحى الحرب تدور على القعقاع ، وتقدم حنظلة بن الربيع وأمرأ الأعشار وطليحة وغالب وجمال وأهل النجدات ، ولما كبر سعد الثالثة تلاحق الناس بعضهم ببعض ، وخالطوا جنود الفرس واستقبلوا الليل استقبالا بعدما صلوا العشاء ، وكان صليل الحديد فيها كصوت القيون ليلتهم

إلى الصباح ، وأفرغ الله الصبر عليهم لإفراغا وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها ،
ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله قط . فلما كان عند الصبح انتهى الناس
أى (انتسبوا) فاستدل سعد بذلك على أنهم الأعلون وأن المسلمين هم
الظافرون ، وكان أول شيء سمعه نصف الليل الباقي صوت القعقاع بن عمرو
وهو يقول :

نحن قتلنا معشراً وزائداً أربعة وخمسة وواحداً
نحسب فوق البلد الأسودا حتى إذا ماتوا دعوت جاهدنا
الله ربى واحترزت عامداً

وأصبح الناس من تلك الليلة التى تسمى ليلة (التحرير) وهم حسرى لم
يغمضوا أجفانهم « فسار القعقاع فى الناس ، فقال إن الدائرة بعد ساعة لمن
بدأ القوم فاصبروا ساعة واحملوا ، فإن النصر مع الصبر فاجتمع إليه جماعة
من الرؤساء ، وصمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه ، فلما رأت ذلك القبائل
قام فيها رؤساؤهم وقالوا . لا يكونن هؤلاء أجدر فى أمر الله منكم ، ولا
هؤلاء (يعنون الفرس) أجراً على الموت منكم ، فحملوا فيما يليهم واقتتلوا
حتى قام قائم الظهيرة ، فكان أول من زال الفيرزان والهرمزان فتأخرا
وثبتا حيث انتهىا ، وانفرج القلب وركب عليهم النقع ، وهبت ريح
عاصف ، فقلعت طيارة رستم فهوت فى العميق ، وانتهى القعقاع ومن
معه إلى السير وقد قام عنه رستم ، وجاء هلال بن علقمة فضرب رستم
فقتله ، ونادى إلى قتلت رستم ، فأطاف به الناس وانهمز قلب الفرس ،
فقام الجالينوس على الروم ونادى الفرس إلى العبور ، وأما المقترون
بالسلاسل فتهافتوا كلهم فى العميق ، وأخذ ضرار بن الخطاب درفش كايان ،
وهو العلم الأكبر الذى كان للفرس (مر خبره فى سيرة أبى بكر) فعوض منه
ثلاثين ألفاً ونقل سعد سلب رستم لقاتله هلال .

كانت وقائع القادسية هذه من أعظم الوقائع التي دونها التاريخ ، وقتل فيها من المسلمين نحو سبعة آلاف وخمسمائة ، وأما من قتل من الفرس فعدد كبير بالغ فيه المؤرخون وانتهت هذه الوقائع بكسر شرة الفرس وفل حدهم ، وتشلت جندهم ودخول الوهن على نفوسهم ، كما كان ذلك مع الروم في وقعة اليرموك . والغريب في هذا أن عدة المسلمين كانت ضعيفة لا تشا كل عدة الفرس العريقين في المدنية ، الماهرين في الصناعات لا سيما في الأدوات الحربية ، حتى لقد روى المؤرخون أن الفرس كانوا يشبهون سهام العرب بالمغازل ، فقد روى البلاذري عن أبي رجاء الفارسي عن أبيه عن جده قال : حضرت وقعة القادسية فلما رمتنا العرب بالنبل جعلنا نقول (دوك دوك) . نعى مغازل ، فما زالت بنا تلك المغازل حتى أزالنا أمرنا .

وقد غنم المسلمون في القادسية غنائم كثيرة الله أعلم بمقدارها ، ولما جمعت الأسلاب والأموال جمع شيء لم يجمع قبله مثله ، وأمر سعد القعقاع وشرحيل بن السمط باتباع الفارين ، وخرج زهرة بن الحوية التميمي في آثارهم في ثلاثمائة فارس ثم أدركه الناس فلحق المنهزمين والجالينوس يجمعهم ، فقتله زهرة وأخذ سلبه وأمعنوا فيمن لحقوه قتلا وأسرا ، ورؤى شاب من النخع وهو يسوق ثمانين رجلا أسرى من الفرس ، وهو دليل على ما أصاب القوم من الذعر والخوف وما داخلهم من الجبن بعد القادسية التي رأوا فيها من قتال المسلمين ما تشيب له الولدان ويخفق عند ذكره الجنان .

رأى سعد سلب الجالينوس فاستكثره على زهرة بن الحوية وليس له أن يستكثر عليه مثله في مثل موقفه ذلك ، فكاتب إلى عمر في ذلك فأخذ عليه عمر استكثاره على زهرة سلب الجالينوس وكتب إليه : تعمد إلى مثل زهرة وقد صلى (سبق) بمثل ما صلى به وقد بقي عليك من حريتك ما بقي .

تفسد قلبه ؟ أمض له سلبه وفضله على أصحابه عند عطاءه بخسائة : ونعم ما فعل عمر رضى الله عنه فقد أنصف الرجل من جهة ، ونبه سعداً من جهة ثانية إلى وجوب تألف كبار الناس في مواقف الحروب امتلاكاً لقلوبهم ، وتقديرآ لقدر خدمتهم .

لما رأى جنود الفرس بعد وقعة القادسية ما رأوا من ظفر المسلمين ، وهاهم أمر الإسلام استأمن قسم عظيم منهم على أن يكونوا من جند المسلمين وكان مع رستم أربعة آلاف جندي يسمون جند شهاب (ولهم من الحرس المملوكي) استأمنوا على أن ينزلوا حيث أحبوا ، ويخالفوا من أحبوا ، ويفرض لهم في العطاء ، فأعطوا الذي سألوه ، وحالفوا زهرة بن حوية السعدي التميمي ، وأنزلهم سعد بحيث اختاروا وفرض لهم في ألف ألف : نقل هذه الرواية البلاذري في فتوح البلدان ، وهي إذا صحت تدل على جواز استخدام الذمي في الجند الإسلامي إذا طلب ذلك ، ولا يعترض هنا أن الفرس من المجوس وهم غير أهل الذمة من السكتايين ، فإن عمر كان يعامل المجوس معاملة أهل الذمة من حيث الجزية وغيرها ، فقد روى البلاذري أيضاً عن جعفر بن محمد عن أبيه ، قال كان للهاجرين مجلس في المسجد « للشاورة » فكان عمر يجلس معهم ، ويحدثهم عما ينتهي إليه من أمر الآفاق « ليستشيرهم في الأمور » : فقال يوماً أما أدري كيف أعنع بالمجوس ، فوثب عبد الرحمن بن عوف فقال : أشهد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « منوا بهم (أى بالمجوس) سنة أهل الكتاب » .

ومن هذا الحديث نعلم أن المجوس في المعاملة الشرعية كأهل الكتاب ، لهذا عاملهم عمر رضى الله عنه معاملة أهل الكتاب .

فتح المدائن

عاصمة الولاية :

إن واقعة القادسية كانت كما ذكرنا مقدمة لتوهين قوة الفرس وتمهيداً للوصول إلى عاصمة الولاية التي كانت أم البلاد الفارسية ، ومعقل الأسرة الكسروية ، لهذا كان ما كان من سعد في القادسية من طول التأني والتريث في أمر الحرب ، وأخذ العدة ومطاوله العدو حتى أضجر رستم من طول المكث ، وجعله يهاجم جيش المسلمين مهاجمة اليأس من الظفر بعد أن رأى ما رأى من ثبات العرب ورزائهم وحسن قيام رؤسائهم على أمور الحرب : ولما انتهى أمر القادسية إلى ما انتهى إليه أقام سعد بها بعد الفتح شهرين وكان عمره فيها يفعل ، فكتب إليه عمر يأمره بالمسير إلى المدائن وأن يخلف النساء والعيال بالعتيق ، وأن يجعل معهم جنداً كثيراً وأن يشركهم في كل مغنم ما داموا يخلفون المسلمين في عيالاتهم : ففعل ذلك وسار من القادسية لأيام بقرين من شوال سنة خمس عشرة ، وقدم أمامه عبيد الله بن المعتم وزهرة بن حوية وشرحبيل بن السمط ، فلقينهم في برس جمع من الفرس فهزمهم المسلمون ففرّوا إلى بابل وفيها فالة القادسية ، ولما هزموا أقبل بسطام دهقان برس فصالح زهرة ، وعقد له الجسور وأخبره بمن اجتمع ببابل فأرسل زهرة إلى سعد يعرفه الخبر فقدم عليه سعد ببرس وسيره في المقدمة ، واتبعه عبيد الله وشرحبيل وهاشما المرقال ابن أخيه واتبعهم هو ببيعة الجيش فزلوا على الفيرزان ببابل فاقتتلوا فهزمهم المسلمون ، وكان فيهم عدة من القواد الكبار منهم النخير خان والأرمزان ومهران ، فانطلق هؤلاء القواد كل إلى جهة ، فأخذها ورحل سعد وعلى مقدمته زهرة فالتقوا بجمع من الفرس في كوئي فهزموهم ، ثم ارتحلوا إلى بهرشير وهي المدائن الغربية ،

فلما وصلها المسلمون ورأوا الإيوان قال ضرار بن الخطاب : الله أكبر أبيض كسرى . هذا ما وعد الله ورسوله : وكبر وكبر الناس معه ، فكانوا كلما وصلت طائفة كبروا ثم نزلوا على المدينة ، وكان نزولهم عليها في ذى الحجة سنة خمس عشرة ، وإنما كانوا يكبرون لتحقيق وعد رسول الله لهم بملك كسرى ، والذي أخذ بأفئدة العرب فاستكانوا للدعوة وأخلصوا للإسلام النية ، وتفانوا في سبيل نشر الدين ورفع رايته على صروح الممالك إنما هو تحقيق وعد النبي صلى الله عليه وسلم لهم بمصير ملك فارس والروم إليهم ، حتى إن هذا الأمر كان من أعظم البواعث على إخلاص كثير من المنافقين وحسن إسلامهم ، بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى كانوا من أعوان الإسلام وقادة الفتح بعد : والله الحجة البالغة على الناس أجمعين .

نزل المسلمون على بهرشير وهي على شاطئ دجلة الغربي وحاصروها نحو شهرين ، وهم يرمون العدو بالمجانيق ، ويدبون إليهم بالدبابات ، ويقاتلونهم بكل عدة ونصبوا على المدينة عشرين منجنيقاً ، حتى ضيقوا على أهلها الحصار ، وباتوا في ضنك شديد ، فأكلوا الكلاب والسنابير ، وصبروا من شدة الحصار على أمر عظيم ، وبالنهاية غادروا المدينة ، وقطعوا إلى المدينة الثانية فأخذها سعد وأنزل المسلمين منازلها وكان فتحها في صفر سنة ست عشرة .

أقام سعد في بهرشير أياماً من صفر ، وهو يفكر في كيفية العبور إلى المدينة الثانية ، التي فيها إيوان كسرى فأتاه علج فدله على مخاضة تخاض إلى صلب الفرس ، فأبى وتردد عن ذلك لأن النهر كان كثير المد يومئذ ودجلة تقذف بالزبد ، فجاءه آخر وحرضه على العبور ، وقال إن بقيت ثلاثة أيام فإن يزدجرد يذهب بكل شيء في المدائن ، فبهجه ذلك على العبور فجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليه معه ويخلصون إليكم إذا شاءوا في سفنهم فيناوشونكم وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه . وقد كفاكم أهل الأيام وعطلوا ثغورهم . وقد رأيت من الرأي أن تجاهدوا العدو قبل أن تحصدكم الدنيا . ألا إنى قد عزمت على قطع النهر : إليهم

فقالوا جميعاً عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل : فنذب الناس إلى العبور وقال : من يبدأ ويحمي لنا الفراض حتى تتلاحق به الناس لكيلا يمنعهم من العبور ؟ فانتدب عاصم بن عمرو ذا البأس في ستمائة من أهل النجدات ، فاستعمل عليهم عاصماً فقدمهم عاصم بستين فارساً على الخيل الذكور والإناث ليكون أسلس لسباحة الخيل . ثم افترحموا دجلة فلما رأهم الفرس وما صنعوا أخرجوا للخيل التي تقدمت مثلها فافترحموا عليهم دجلة فلقوا عاصماً وقد دنا من الفراض ، فقال عاصم : الرماح الرماح اشرعوها ونوخوا العيون : فالتقوا فاطعنوا وتوخى المسلمون عيونهم ، فولوا فلحقهم المسلمون وتلاحق الستمائة بالسنتين غير متعبين ، ولما رأى سعد عاصماً على الفراض قد منعها . أذن للناس بالاعتحام ، وتلاحق الناس في دجلة حتى إذا بلغوا الضفة الثانية ورأى الفرس ذلك ولوا هاربين : وكان يزدجرد قدم عياله إلى حلوان قبل ذلك ، وخلف جماعة على بيت المال من خواص أصحابه ، فخرجوا بما قدروا عليه وتركوا من المتاع والآنية والألطاف شيئاً كثيراً ، مع ما كانوا أعدوا للحصار من البقر والغنم ، وذكر المؤرخون عما وجد في بيت المال مقداراً فيه من الغلو والمبالغة ما يرفضه العقل وهو ثلاثة آلاف ألف ألف ألف وقد نقل هذا العدد ابن الأثير عن الطبري والطبري أعقل من أن لا يحكم العقل في إيراد مثل هذا العدد ، وإنما هو من تحريف النساخ أو من حشو بعض أغبياء الناس إذ وجود ثلاثة آلاف ألف أى ثلاثة

ملايين بلا تكرير ثلاث مرات أمر يستبعده العقل فكيف به لو كرر ،
وقد رأينا كثيراً من أمثال هذه الروايات الكاذبة في التاريخ ، وإنما
يظهر كذبها بقليل من التبصر والإمعان ، ومعظمها ناشئ عن التحريف في
النقل والمسخ في النسخ

لما دخل المسلمون المدينة لم يجدوا بها أحداً إلا حامية القصر الأبيض ،
وهؤلاء استأنموا في الحال ودخل سعد الإيوان واتخذ فيه مصلى للمسلمين ،
ولم يغير ما فيه من التمثيل ولأنه ليصلي بالناس والتماثيل قائمة فيه : وقرأ سعد
يوم دخوله الإيوان « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ، الآية

وجمع سعد من الغنائم ما يفوق الحصر ، ومنها ذخائر كسرى وسلاحه
وناهيك بذخائر الأكاسرة . وقسم الفى على الجند فأصاب الفارس اثني عشر
ألفاً ، وكان كلهم فارس ليس فيهم راجل وبعث بالآخماس إلى أمير المؤمنين
عمر بن الخطاب وفيها سيف كسرى ومنطقته وزبرجده فلما رآها قال : لمن
قوماً أدوا هذا الذو أمانة : فقال له على رضى الله عنه إنك عفت
فعمت الرعية

ولا جرم فإنه مع إقبال هذه الدنيا العريضة على المسلمين يومئذ ، وامتلاء
أيديهم بالغنائم وصيرورة كنوز فارس إليهم ، كانوا على جانب من غرة النفس
والأمانة والتعفف قل ما صدر عن جيش من جيوش الفاتحين . وخذ لك
مثلاً على ذلك أن رجلاً من المسلمين أقبل يومئذ بحق (عليه) إلى صاحب
القباض فقال ومن معه : ما رأينا مثل هذا ما يعدله (بماثله) عندنا ولا ما يقاربه :
فقالوا : هل أخذت منه شيئاً ؟ فقال : والله لولا الله ما أتيتكم به : فقالوا من
أنت ؟ فقال والله لا أخبركم فتحمدوني ، ولكنى أحمد الله وأرضى بثوابه :
فأتبعوه رجلاً فسأل عنه ، فإذا هو عامر بن عبد قيس وقال سعد : والله
إن الجيش لذو أمانة ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت لهم على فضل أهل

بدر ، لقد تتبععت منهم هناة ما أحسبها من هؤلاء .

وقال جابر بن عبد الله : والذي لا إله إلا هو ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة . فلقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كأما نهم وزهدهم ، وهم طليحة ، وعمر بن معد يكرب ، وقيس بن المكشوح .

إلى هذا الحد بلغت العفة والأمانة من المسلمين يومئذ ، وإنما كان الباعث لهم على ذلك أمور ، منها جدة الدين والإخلاص لله في الجهاد ، ومنها القناعة بكل ما حصل واعتباره أنه نعمة عظيمة بالنسبة لما كانوا عليه قبل الإسلام من شظف العيش ، وضنك الحياة يضاف إلى هذا سداجتهم الفطرية ومعيشتهم البدوية ، حتى لقد روى أن بعضهم أخذوا الكافور فظنوه ملحاً وطبخوا به الطعام : وكان بعضهم يستبدل الذهب بزنته فضة ، وبالجملة فقد بلغ جيش المسلمين هذا من الأمانة والإخلاص وسلامة القلوب وصدق القول والعمل منتهى المراتب ، حتى أثنى الناس على جيش القادسية خير الثناء كما رأيت ، وقال عمر عنهم : أولئك أعيان العرب .

لما استتم لسعد فتح المدائن واستقر به المقام ، أرسل في أثر المنهزمين زهرة بن الحوية إلى النهر وان ، وأتاه أهل النواحي واستأمنوه وصالحوه على الجزية ، ولم يدخل في صلحهم ما كان لآل كسرى إذ هذا صار فينا المسلمين .

ثم سير جيشا عليه عبد الله بن المعتم إلى الجزيرة ففتح تكريت والموصل وقد تقدم الخبر عن ذلك في سيرة عمر والخلاف بين المؤرخين في فتح الموصل ، هل كان على يد عياض بن غنم لما أرسله عمر لفتح الجزيرة سنة ١٨ ، أم كان على يد عبد الله بن المعتم من قبل سعد بن أبي وقاص سنة ١٦ والأرجح أن فتح الموصل كان سنة ١٦ من قبل سعد بن أبي وقاص ، وفتح هامة الجزيرة كان سنة ١٨ عن يد عياض بن غنم ، لأن عياضا تولى فتح

الجزيرة بعد وفاة أبي عبيدة ، وكانت وفاة أبي عبيدة سنة ١٨ وقد مر الخبر عن ذلك في سيرة عمر في أخبار فتح الجزيرة فليراجع .

وسير سعد جيشا إلى حلوان بقيادة هاشم بن عتبة ، وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو فكان لهم مع الفرس وقعة جلولاء الشهيرة التي تشبه وقعة القادسية ، ثم قصد القعقاع حلوان حيث يقيم كسرى ، وكان كسرى قد فر منها منذ وصل المنهزمون من وقعة جلولاء ، فنزلها القعقاع في جند من الأماء والجرأ (أى متطوعة الأعاجم) ونازلها حتى افتتحها وبقي القعقاع فيها إلى أن تحول سعد إلى الكوفة فلاحقه القعقاع ، واستخلف على حلوان قباذ وكان أصله خراسانيا . ويظهر من هذا أن المسلمين لما توسعوا في الفتح اضطروا بحكم الضرورة إلى مشاركة الأعاجم في الأمور الحربية والإدارة ، بدليل نزول القعقاع على حلوان بجند من الأعاجم ، ثم تسليمه ولايتها إلى قباذ أيضا . على أن مشاركة الأعاجم في أمور الفتح وتدير شؤون البلاد يومئذ من أحسن مارمت إليه سياسة المسلمين ، لأن القوم يتأسون بمثل هذه المعاملة الجميلة فيكونون عوناً للمسلمين في تدوير البلاد وتدير أمور السياسة ، ولعل هذه السياسة الحسنة التي كانت من عمر وقواده في مشاركة الأعاجم ، كانت من مهادت الفتح وأسباب سرعة انتشار الإسلام ورفع أعلامه في أقاصى البلاد ، إذ تسامح الفاتح وملاينته لأهل البلاد وتخصيصهم بشيء من السلطة من أعظم الأسباب الممهدة سبيل الظفر للفاتحين .

أتم سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه ماعهد إليه من فتح المدائن وفل جيش الفرس في القادسية ، وهدم عرش الدولة القديمة ودوخ عاصمة ملكها العظيم ، فأنحدرت من شاطئ مجدها المتأثر فيها بعد إلى هاوية الخراب ، حيث قامت مقامها في تلك الأصقاع بغداد دار الخلافة العباسية ومنبع أشعة التمدن الإسلامى العظيم .

وإذا نظرت إلى البلاد رأيته تشقى كما تشقى لعلها (العباد) وتسعد

على أن ماضيته بغداد تحت جناحي الخلافة الإسلامية من الممالك الشاسعة
والأمصار النائية لم تضمه المدائن في عهد الدولة الساسانية . والفضل في هذا
لسعد وأضرابه من أقبال الصحابة السابقين ، ورجال خلافة الراشدين ،
جزاهم الله خير الجزاء عن المسلمين .

تخطيط الكوفة وإمارته عليها

أقام سعد بالمدين بعد الفتح فأضر بالعرب وخافها ، وكان أوفد منهم
بخبز الفتح وفدأ إلى عمر فرأى اصفرار وجوههم وتغير ألوانهم فساأهم عن
السبب ، فأخبروه أنه وخومة البلاد ، فكتب إلى سعد أن ابعث سلمان
وحذيفة رائدين فليرتادا منزلاً برياً بحرياً ليس يبنى وينكم فيه بحر ولا جسر ،
فأرسلهما سعد فخرج سلمان حتى أتى الأنبار ، فمار في غربي الفرات لا يرضى
شيئاً حتى أتى الكوفة وسار حذيفة في شرقي الفرات لا يرضى شيئاً حتى أتى
الكوفة (وكل رملة وحصباء مختلطين فهو كوفة) فأعجبتهما البقعة ، فنزلا
فيها فصلياً ودعوا أن تكون منزل ثبات ، ورجعا إلى سعد بالخبر فكتب
سعد إلى القعقاع بن عمرو وعبد الله بن المعتم أن يستخلفا على جنديهما
ويحضرا عنده فارتحل حتى نزل الكوفة في المحرم سنة (١٧ هـ) وكان بين
نزل الكوفة ووقعة القادسية سنة وشهر ، وقيل أكثر فلما نزلها كتب إلى
عمر ، فكتب إليه بالبناء على الوجه الذي تقدم في سيرة عمر (رضي الله عنه)
وأقام سعد والياً على الكوفة وتوابعها نحو ثلاث سنين ونصف ، وكان حسن
الإمارة ، كثير التمتع لأحوال الرعية ، منصفاً بين المسلمين ، شديداً على
المعتدين ، وكان عمر لا يفتأ يسأل عن سيرته كما هو دأبه مع جميع العمال ،
فوفد عليه مرة عمرو بن معد يكرب الزبيدي فسأله عنه فقال : متواضع [في
خبائه ، عربي في نمرته ، أسد في تاموره ، (عريته) يعدل في القضية ، ويقسم

بالسوية ، ويبعد في السرية ، ويعطف علينا عطف الأم البرة ، وينقل إلينا حقنا نقل الذرة .

إلا أن أهل الكوفة لما أخلدوا إلى الراحة وأخذ يتولد فيهم الفساد ، ويظهر التحزب ، وجعلوا يأنفون من سيادة قريش لإدلالهم بالفتح وطول معاناتهم للحرب مع الفرس وغيرهم ، سعى قوم منهم بسعد بن أبي وقاص وأبوا عليه ، وكان أكثرهم من بنى أسد وكان ممن تحرك في أمره الجراح ابن سنان الأسدي . وكان مما عابوه عليه أنه لا يحسن الصلاة . فبعث عمر محمد بن مسلمة والناس في الاستعداد للفرس في نهاوند ، فسأل عن سيرته في الكوفة فكلمهم قال خيراً ، سوى من مالا الجراح فإنهم سكتوا ولم يقولوا سوءاً ولا يسوغ لهم حتى انتهوا إلى بنى عبس ، فسأطهم فقال أسامة بن قتادة : اللهم إنه لا يقسم بالسوية ، ولا يعدل في القضية ولا يغزو في السرية : فقال سعد : اللهم إن كان قائلها رياء وكذباً وسمعة ، فأعم بصره وأكثر عياله وعرضه لمضلات الفتن : فأصابته دعوة سعد . ثم دعا سعد على أولئك النفر فأصديبوا وأصيب الجراح ، إذ قطع بالسيوف يوم بادر الحسن بن علي رضي الله عنه ليعتاله بسابط .

وخرج محمد بسعد وبهم معه إلى المدينة فقدموا على عمر فأخبروه الخبر : فقال كيف تصلي يا سعد : قال أطيل الأوليين وأخفف الآخرين : فقال هكذا الظن بك يا أبا إسحاق : ثم إن عمر دفعاً للفتنة في وقت يريد به تجهيز الجيوش لنهاوند ، حيث يعد الفرس العدة العظيمة لحرب المسلمين عزل سعداً ، وولى مكانه خليفته على الكوفة وهو عبد الله بن عبد الله بن عتبة : وأراد عمر على الإمارة مرة ثانية فأبى ، وقال كيف أتأمر على قوم يزعمون أني لا أحسن أصلي : ولما علم عمر أوصى الخليفة بعده أن يؤمر سعداً فأعاد عثمان رضي الله عنه إلى الكوفة ثم عزله ، لأنه اقترض من عبد الله

ابن مسعود من بيت المال قرصنا ، وتقاضاه ابن مسعود فلم يوسر سعد فتلاحيا وتناجيا بالقبيح ورفع سعد يده ليدعو على ابن مسعود . فقال له : ويحك قل خيراً ولا تلعن : وبلغ عثمان الخبر فعزله عن الكوفة ، فاعتزل في منزله في العميق قرب المدينة . وقد منا أن عمر رضى الله عنه كان يصادر عماله فلما كان سعد أميراً من قبله على الكوفة شاطره ماله ، فقال له سعد لقد هممت قال عمر : بأن تدعو على ؟ قال : نعم قال : إذا لا تجدنى بدعاء ربى شقياً .

نبذ من أخباره واعتزاله الفتنة

(صدقه في الحديث) كان سعد رضى الله عنه صادق الحديث ، صادق الرواية ، لما فطر عليه من صدق اللهجة وقول الحق : روى ابن عساكر عن عبد الله بن عمر عن سعد بن أبي وقاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مسح على الخفين ، وأن عبد الله بن عمر سأل عمر عن ذلك فقال : إذا حدثك سعد عن رسول الله فلا تسأل عنه غيره . وفي رواية : فلا تبتغي وراء حديثه شيئاً .

وقد بلغ به الحرص على صدق الحديث أن كان يرضن بالرواية خوف التحريف ، ونقل ما لم يقل ، ففي رواية ابن عساكر عن السائب بن يزيد : قال خرجت مع سعد إلى مكة فما سمعته يحدث حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رجعنا إلى المدينة : وروى عن عائشة بنت سعد قالت سئل سعد عن شيء فاستعجم ، فقيل له في ذلك ، فقال لى أكره أن أحدثكم حديثاً فتجعلوه مائة حديث .

ومن البديهي أن سعداً ما قال هذا القول إلا لأنه يخاف كما كان يخاف كبار الصحابة ، ومنهم عمر وأبو عبيدة من كثرة الرواية وتحريف النقل ، ووضع الحديث ، ومن علم بما حدث من الوضع لاسياً في أيام الفتن العظمى ،

التي نازت أثرها بين المسلمين عذر هؤلاء الصحابة وأشباههم على تجنب رواية الحديث والنهي عنه إلا ما تعلق منه بالأحكام ، وحسب الأمة ما أصابها من البلاء وتفريق الكلمة بما وضعه يومئذ الشيعة وأعداؤهم من الأحاديث ، التي يريد بها كل فريق تأييد دعواه وتعزيز جانبه ، ولو لم يكن من البلاء إلا ما دخل في نفوس العامة ووقر في آذانهم من أخبار المهدي المنتظر لسكنى ذلك ، وهنا على الأمة وهونا على الأمة وهونا لها لترك عامتها التذرع بالأسباب عند حلول كل حادث جمل اعتماداً على ظهور ذلك المنتظر ، وطالما تظاهر أناس بهذه الدعوى الباطلة وغشوا العامة بأكاذيبهم المفتراة ، ولم ينشأ عن دعواهم من دفع البلاء الذي يرجوه العامة إلا زيادة في البلاء ، وسفكا للدماء ، وتفريقاً بين الأمة وتشتيتاً للكلمة ، ومع هذا فليس ثمة من يعتبر بكذب تلك الأخبار المفتراة ، ويزدجر عن غي النفس وإضلال العقل وغش الضمير : وماذا عسانا نقول عن واضعي أمثال تلك الأخبار . وما أصاب الأمة من جرائمها شاهد عدل يشهد بأنهم لم يريدوا بها الإسلام خيراً . ومن كان هذا شأنه فأحرى به ألا يحشر مع المؤمنين . ولنا كلام على أحاديث المهدي وما جرت من المصائب على الأمة نرجته لمحل آخر ، وكلام أعم منه يجول في الضمير ويحجم عنه اللسان ، أدبا مع أسلافنا الغابرين وتفادياً من تهجم الجاهلين .

(ومن محاسن أقواله) ما رواه ابن عساكر عن المدائني قال : قال سعد لابته : إذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة فإنه من لم يكن له قناعة لم يغنه مال .

(ومن جميل خلق سعد) ما رواه ابن عساكر عن طارق بن شهاب قال : كان بين سعد وخالد بن الوليد كلام فذهب رجل يقع في خالد عند سعد فقال : مه إن ما بيننا لم يبلغ ديننا .

وما أن خلق بأهل الفضيلة وأرباب العقل والدين الحتم على أفواه النمامين ،

والأخذ على أيدي المغتابين كما صنع سعد رضى الله عنه ، إذ ليس أفسد للقلوب وأفصم لعمى التآلف وأدعى لبث روح البغضاء بين الأفراد من النغمة والنيمة ، وشر الناس الذين هم شركاء على المجتمعات النمامون المغتابون الساعون بالتفريق الدائبون على الوشاية . ومن أراد أن يعلم مصير الأقوام الذين يتفشى بينهم هذا الداء العضال ، والمرضى القتال مرض الوشاية فليطلق نظر المتأمل على ما أصاب بعض الممالك الإسلامية ، ليرى من تباغض الأفراد وتناكر القلوب وتداعى أركان العمران ، وهدم بيوت المجد وتقويض أسس السعادة القومية والإخاء الجُنسى والدينى مالا دليل على سوء مغبة النغمة أعظم منه .

واعلم أنه وإن كان أكثر ما يؤثر على حياة الأمم ويبحث على زوال الدول هو فساد الأخلاق عامة ، إلا أن لفعل هذا الخلق دأب أى خلق النغمة والسعاية ، خاصة أثر أقييحا فى الوجود يربو على كل أثر من آثار فساد الأخلاق وفقد التربية ، لأنه إذا فشا فى قوم فأكثر ما ينزع إليه الأمراء توصلا بزعمهم إلى اكتنازه كنهه القلوب ، ووقفا على ضمانات الرعية وهيئات أن يجدوا وسيطا لنقل أخبار الناس إليهم ، إلا من انغمس فى حمأة الشر واطّرح رداء الحياء وغلب عليه حب الشهرة وفقد المروءة ، وتجرد عن الفضيلة فيسعى فى التفريق بين الأمير والمأمور والحاكم والمحكوم ، لزلفى يريد لها ودناءة يتوخاها وفى هدام من المضرة ما لا يخفى على أعمى فضلا عن البصير ، إذ كلمة سوء واحدة تلقى لسلطان جائر مثلاً تكفى لهدم ملك كبير ، واستئثار شر عظيم ، وقيام فتن عمياء ، تضطرب لها الدهماء ، كما سيمر عليك مفصلاً فى محله من هذا الكتاب إن شاء الله .

(ومن أخباره فى القادسية) ما رواه صاحب الأغاني أن عمر بن الخطاب كتب إليه ، أن فض ما زاد من أموال الغنائم على حملة القرآن ، فأثناه عمرو

ابن معد يكره فقال له : مامعك من كتاب الله تعالى ؟ فقال إني أسلمت
باليين ثم غزوت فشغلت عن حفظ القرآن : قال مالك في هذا المال نصيب :
وأناه بشر بن ربيعة الخثعمي فقال : مامعك من كتاب الله ؟ قال بسم الله
الرحمن الرحيم . فضحك القوم منه ولم يعطه شيئاً فقال عمرو في ذلك :

إذا قُتِلنا ولا يبكى لنا أحدٌ قالت قريش ألا تلك المقاديرُ
نعطى السوية من طعن له نقدٌ ولا سوية إذا تعطى الدنانيرُ

وقال بشر بن ربيعة :

أنختُ بباب القادسية ناقتي وسعدُ بنُ وقاص عليّ أميرُ
وسعد أمير شره دون خيرِهِ وخير أمير بالعراق جريرُ
وعند أمير المؤمنين نوافل وعند المثنى فضة وحريرُ
تذكر هداك الله وقسح سيوفنا بباب قُدَيْسٍ والمسكر عسيرُ
عشية ودّ القوم لو أن بعضهم يعار جناح طائر فيطير
إذا ما فرغنا من قراع كتبية دلفنا لأخرى كالجبال تسير
ترى القوم فيها أجمعين كأنهم جمال بأحمال لهن زفيرُ

فكتب سعد إلى عمر رضى الله عنه بما قال لهما ، وما ردا عليه
وبالقصيدتين ، فكتب إليه أن أعطيها على بلائهما . فأعطى كل واحد منهما
ألني درهم .

اهتمر له الفتنة :

نريد بالفتنة فتنة عثمان وعلى طلحة ومعاوية والزبير التي تحزب فيها
المسلمون أحزاباً كل حزب بما لديهم فرحون ، وهى الفتنة التي يقف دونها
عقل الحكيم حائراً بين الأقدام على خوض عباها واستكناه كنهه خباياها ،
وبين الإحجام عنها وإلقاء أخبارها على علائها وغض الطرف عما انطوى

في ثنائياها . لا لأنها أول بادرة بدت في الملك وفتنة ظهرت في الدول ، كلا
إن قيام الدول واستصفاء الملك إنما يتم بوجود أحزاب ينصرون النازع
إلى الملك ، وأعوان يتبعون القوة أو يناضلون عن صاحب الحق في كل قوم
وعصر . وإنما صبغ السلف هذه الفتنة بصبغة دينية هو الذي يجعل الباحث
بين إقدام وإحجام مع أنها فتنة سياسية تابعة لمجرى السنن الطبيعية في الدول ،
إذ مدامت شؤون البشر لا تستقيم إلا بالوازع والمجتمعات لا تقوم إلا بحكم
يدبر أمورها وينظم شؤونها وينفذ قوانينها ، فالخلاف على رئاسة الدول
والنزاع على منصب الحكم متوقع بين الطامحين إليه القادرين عليه ، في كل أمة
وجيل ، وتنازع البقاء في الملك أمر طبيعي كما هو في كل الأشياء كما سنفيض
في هذا البحث عند الكلام على هذه الفتنة ، وإنما اجتزأنا عنه بهذه المقدمة
تمهيداً لما سيتلوه من الكلام في غير هذا المحل إن شاء الله .

رأى سعد بن أبي وقاص أن الأمة انقسمت في أمر الخلافة إلى أحزاب ،
كل حزب يرى أن صاحبه على حق ، وأنه بالخلافة أحق ، وأن الأمر
لا ينقض إلا بالمغالبة بين النفر المتطلعين إلى الخلافة ، وهذا يحجر إلى سفك
الدماء وامتداد شواظ الحرب ، وإن فتنة هذا شأنها فالغالب والمغلوب ملوم
فيها ، وليس في طوقه رتق فتق فتقه الطموح إلى الخلافة وسد ثلثة اندفع
منها تيار الأمة ، فلم يسعه إلا اعتزال الفتنة والبعد عن مواقف الحرب حتى
ينجلي الغبار وتنتهي الأمور إلى حدها ، ويعود السيف إلى غمده ، فاعتزل
خارج المدينة وأمر أن لا يخبروه بشيء حتى يجتمع الناس على إمام .

واعلم أن سعداً من الحقيقيين بالخلافة وهو أحد الستة أصحاب الشورى
الذين عهد إليهم عمر ، وقد كان له عصبية كبيرة تريدها على الخلافة وهو يأبأها
لأعن ضعف بل عن حب للسلامة . وتجنب للانغماس في الدماء ، يدلك عليه
أن ابنه عمر وابن أخيه هاشم أرادا أن يدعو إلى نفسه وقال له ابن أخيه إن
مائة ألف سيف تريده على الخلافة فأبى .

روى ابن عساكر عن بعض أهل العلم أن هاشماً قال له : إن ههنا مائة ألف سيف يرونك أنك أحق الناس بهذا الأمر : فقال أزيد من مائة ألف سيف سيفاً واحداً إذا ضربت به المؤمن لم يقطع شيئاً ، وإذا ضربت به الكافر قطع : فانصرف من عنده إلى علي بن أبي طالب فكان في أصحابه وقاتل معه .

وروى عن المطلب عن عمر بن سعد أنه جاءه ابنه عامر (يدعو له) الخليفة (فقال : أي بني أفي الفتنة تأمرني أن أكون رأساً ، لا والله حتى أعطى سيفاً إن ضربت به مسلماً نجا عنه ، وإن ضربت به كافراً قتله . وإنما يريد بهذا أنه يعلم أن المتقاتلين جميعهم من أهل الإسلام ، وأن له من صدق إيمان الجميع الظاهر ، وليس له أن يعلم السرائر ليقاقل الباغي بسيفه فإذا قتله فلا يأثم ولا يلام .

ولما اشتد الأمر على علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وعانى من شيعته ما عاناه من أعدائه ، قام على منبر الكوفة فقال : قد كنت نهيتكم عن هذه الحكومة فمصيبتهموني : فقام إليه فتى آدم فقال : إياك والله ما نهيتنا ولكنك أمرتنا فدمرنا ، فلما كان منها ما نكره برأت نفسك ونحلتنا ذنبك فقال علي : وما أنت وهذا قبحك الله ، والله لقد كانت الجماعة فكنت بها جاهلاً فلما ظهرت الفتنة تجمت فيها نجوم قرن الماعز ، ثم التفت إلى الناس فقال يغبط سعداً وعبد الله بن عمر على اعتزالهما الفتنة : لله منزل نزله سعد وابن عمر لأن كان ذنباً لأنه لصغير مغفور ، وإن كان حسناً لأنه لعظيم مشكور ، (أخرجه ابن عساكر) .

وأما معاوية فقد طمع في اعتزاله واعتزال ابن عمر ومحمد بن مسلمة ، وكانهم يستميلهم للقتال معه فأجابوه بالرفض ، وكان كتب إلى سعد بن أبي وقاص ماصورة :

سلام عليك ، أما بعد فإن أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشورى من قرّةش ، الذين أثبتوا حقه واختاروه على غيره ونصره طلحة والزبير ، وهما شريكك في الأمر ونظيرك في الإسلام ، وخفت لذلك أم المؤمنين فلا تسكره ما رضوا ، ولا ترد ما قبلوا ، وإنما نريد أن نردها شورى بين المسلمين والسلام :

فأجابه سعد بما صورته :

أما بعد فإن عمر لم يدخل في الشورى إلا من تحل له الخلافة ، فلم يكن أحد أولى بها من صاحبه إلا باجتماعنا عليه ، غير أن علماً كان فيه ما فينا ولم يكن فينا ما فيه ، ولو لم يطلبها ولزم بيته لطلبته العرب ولو بأقصى اليمن ، وهذا الأمر قد كرهنا أوله وكرهنا آخره . وأما طلحة والزبير فلو أنما بيوتهما لكان خيراً لهما . والله يغفر لآم المؤمنين ما أنت : وفي هذا الجواب من اعتدال اللهجة وعدم مساس جانف أحد من المتقائلين ما يعرف منه ابتعاده عن سوء الظن بأحد منهم ، وتبرأوه بتاتا من أمرهم . وروى أنه كتب إليه أبيات شعر ، ولعلها كانت جواباً بالكتاب آخر كتبه إليه وهي :

معاوى داؤك الداء العياء	وليس لما تجيء به دواء
أيدعوني أبو حسن على	فلم أردد عليه ما يشاء
وقلت له اعطني سيفاً بصيراً	نميز به العداوة والولاء
أطعم في الدنيا أعياء علياً	على ما قد طمعت به العفاء
ليوم منه خير منك حياً	وميتاً أنت للمرء القداء

ويؤخذ من هذه الآيات أن قلب سعد كان مع علي رضي الله عنهما ، لكنه رأى الحياء أسلم فلم يمه واعتزل بحيث لا يكون له ولا عليه ، وقد عظم عليه قتل عثمان رضي الله عنهما واشتد عليه أمر هذه الفتنة لهذا قال : ما بكيت

من الدهر إلا ثلاثة أيام يوم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ويوم قتل عثمان . واليوم أبكى على الحق فعلى الحق السلام : رواه
ابن عساكر .

ولما استتببت الخلافة لمعاوية جاء سعد بن أبي وقاص فدخل على
معاوية ، فقال له أين كنت في هذا الأمر ؟ فقال : إنما مثلنا ومثلكم كمثل
ركب كانوا يسرون فأصابتهم ظلمة فقالوا : أخ أخ : فقال معاوية ما في
كتاب الله : أخ أخ : ولكن في كتاب الله د وإن طائفتان من المؤمنين
اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى
تفيء إلى أمر الله ، فبايعه سعد وما سأل شيئا إلا أعطاه (أخرجه ابن عساكر)
عن حفص وأخرجه من طريق آخر بمعنى آخر ، وربما جاء معنا في غير هذا
المحل إن شاء الله .

ولما دخل على معاوية بعد استقرار الأمر له قال له : السلام عليك
أيها الملك : فضحك معاوية وقال ، ما كان عليك يا أبا إسحق لو قلت : يا أمير
المؤمنين ؟ فقال : أتقولها جذلان ضاحكا ، والله ما أحب أني وليتها بما
وليتها به : يريد أنه وليها بالسيف ، لهذا لما صارت مغالبة صارت ملكا فقال
له د أيها الملك ، استخفافا بشأن الملك وتعظيما للخلافة التي ذهبت مع الراشدين
رضى الله عنهم أجمعين .

وفاته وصفته وولده

أجمع أهل الأخبار على أن سعداً رضى الله عنه اهتزل بعد الفتنة في منزل له بالعقيق على عشرة أميال من المدينة حتى توفاه الله ، ولما حضرته الوفاة دعا بخلق جبة له من صوف فقال : كفونى فيها لأنى لقيت المشركين فيها يوم بدر وهى على وإنما كنت أخبؤها لهذا .

ولما مات حمل من العقيق على أعناق الرجال حتى أتى به المسجد ، فوضع عند بيوت النبي صلى الله عليه وسلم بفناء الحجر فصلى عليه مروان بن الحكم ، وكان والياً على المدينة وذلك سنة خمس وخمسين . وكان يوم مات ابن بضع وسبعين سنة ، على قول من قال إنه أسلم وهو ابن بضع عشرة سنة ، وأما على قول من قال إنه أسلم وهو ابن بضع وعشرين سنة فقد كان يوم وفاته ابن ثلاث وثمانين سنة . وهو آخر العشرة الكرام موتاً .

وترك سعد ثروة حسنة لأنه كان غنياً . قيل إنه ترك مائتين وخمسين ألف درهم : وعن بنته عائشة أنه أرسل مرة إلى مروان بن الحكم بركة عين ماله خمسة آلاف درهم .

صفته :

قال الواقدي : قالت عائشة بنت سعد كان أبى رجلاً قصيراً دحداحاً غليظاً ذا هامة شثن الأصابع (١) .

(١) قولها دحداحاً أى قصيراً ، وقولها شثن الأصابع أى خشنها .

ولمده :

قال ابن قتيبة ، ولد سعد : عمر ، ومحمد ، وعامر ، وموسى ، ومصعب وعائشة ، وغيرهم . فأما عمر فقتله المختار بن عبيد ، لأنه كان أميراً على الجيش الذى حارب الحسين بن علي رضى الله عنهما وقتله : وأما محمد فخرج مع الأشعث بن قيس فقتله الحجاج صبراً ، وأما عامر فكان يروى عنه الحديث ومات سنة أربع ومائة ، وأما مصعب فقد مات سنة ثلاث ومائة ، وقد روى عنه الحديث ، ومن أعقب من أولاده عمر ، ومحمد ، وموسى .

* * *

انتهى ما أردنا إيراده من سيرة سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه ويلييه عمرو بن العاص وهو آخر من نذكر سيرته من أشهر مشاهير الرجال فى دولة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

عمرو بن العاص

حاله في الجاهلية

نسبه وأصله :

هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي السهمي ، وكنيته أبو عبد الله وقيل : أبو محمد وأمه النابغة بنت حرملة من بني عترة (وقيل عنزة) وأخوه لأمه عمرو بن أذينة العدوي . وعقبه بن نافع بن عبد قيس الفهري : وسأل رجل عمرو بن العاص عن أمه فقال : سلمي بنت حرملة تلقب النابغة من بني عترة أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ فاشتراها الفهاكة بن المغيرة . ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان ، ثم صارت إلى العاص بن وائل فولدت له فأنجبت فإن كان جعل لك شيء نفذه^(١) .

صناعته ومكانته في قومه :

كان عمرو بن العاص كما ذكرنا في صدر الجزء الأول جزاراً ، ثم كان يختلف بالتجارة إلى الشام ومصر ، ويقال إن سبب توجهه فسكرة لفتح مصر هو ذهابه مرة إلى الإسكندرية وعلمه بغنى البلاد وثروتها ، وأما مكانته عند قومه فقد كانت عالية ، لشهرته بالدهاء والمكيذة حتى عدوه من دهاة العرب في الجاهلية ، وقالوا إن دعاتهم في الإسلام عمرو بن العاص . والمغيرة

(١) كان عمرو بن العاص يعير بأمه لأنها كانت سبية لهذا قال للسائل ما قال

ابن شعبة . وقيس بن سعد بن عبادة . وأخباره في الدهاء كثيرة ستأتي فيما يلي من سيرته إن شاء الله .

إسلامه وصحته

إسلامه :

تأخر إسلام عمرو بن العاص إلى ما قبل فتح مكة بستة أشهر أى سنة ثمان من الهجرة ، وأما سبب إسلامه فإن قريشا أرسلته إلى النجاشي في طلب جعفر بن أبي طالب ومن معه من المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة فلم يجب النجاشي طلبه . وقال له يا عمرو ؟ كيف يعزب عنك أمر ابن عمك فوالله إنه لرسول الله حقا ؟ قال : أنت تقول ذلك : قال إى والله فأطعني نفرج من عنده مهاجرا إلى النبي صلى الله عليه وسلم : رواه في أسد الغابة : وروى ابن عساکر في تاريخه عن محمد بن حفص التيمي : قال لما كانت الهدنة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قريش ووضعت الحرب أوزارها خرج عمرو ابن العاص إلى النجاشي يؤكد أصحاب رسول الله عنده ، وكانت له منه ناحية فقال له : يا عمرو تكلمنى في رجل يأتيه الناموس كما يأتي موسى بن عمران ، قال : وكذلك هو أيها الملك ؟ قال نعم : قال فأنا أبايعك له . فبايعه له على الإسلام ثم قدم مكة فلقى خالد بن الوليد فقال : ما رأيتك قد استقام الميسم والرجل نبى : قال خالد : وأنا أريده (وقد كان خالد على أهبة المهاجرة إليه) قال وأنا معك . قال عثمان بن طلحة وأنا معك : نفرجوا فقدموا على النبي صلى الله عليه وسلم قال محمد بن سلام قال أبان قال عمرو بن العاص وكنت أسن منهما فقدمتهما لأستدبر أمرهما فبايعا على أن لهما ما تقدم من ذنوبهما . فأضمرت على أن أبايعه على ما تقدم وما تأخر ، فلما أخذت بيده بايعته على ما تقدم ونسيت ما تأخر .

وفي رواية له أيضا عن الحافظ أبي نعيم أن أصحاب عمرو لما بلغهم إسلامه أخذوه فغموه فأفلت منهم مجرداً ليس عليه قشرة فأظهر للنجاشي إسلامه فاسترجع من أصحابه جميع ماله ورده عليه .

وبالجملة فإن عمرو بن العاص أسلم بعد طول أناة ، وبعد أن تحققت لديه نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وشهد له بها النجاشي ، وأيدها ما كان يخالج ضميره من النزوع إلى الإسلام بعد إذ ظهرت كلبة أصحابه ظهوراً لا يخفى على من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد : لهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص ، وقال « ابنا العاص مؤمنان عمرو وهشام ، رواه ابن عساکر في تاريخه .

واعلم أنما أبطأ بعمرو وأضرابه من قريش عن الإسلام التقليد والاستمسك بالعوائد التي تكاد تكون ملكة في النفوس لا ينزعها إلا أحد أمرين : إما طول المعالجة والصبر ، وإما القوة والقهر ، وهي ملكة من أقبح الملكات المتسلطة على نفوس البشر لقيامها مقام الحاجز بين الحق والنفس فلا تصل إليه إلا بعد عناء شديد ، وإحجام طويل ، وهذا كان شأن قريش مع النبي صلى الله عليه وسلم لما دعاهم إلى التوحيد الذي تدرك البداهة ويؤيد العقل والحس أنه خير من الشرك وعبادة الأصنام ، وإنما أبطأ بهم عن قبول الإسلام تسلط العوائد واستحكام ملكة التقليد يدلك عليه ما رواه ابن عساکر عن الزبير بن بكار قال : قيل لعمرو بن العاص ما أبطأ بك عن الإسلام وأنت أنت في عقلك : فقال إنا كنا في قوم لهم علينا تقدم وبين توازن حلومهم الجبال ، ما سلكوا نجاً فتبعناهم إلا وجدناه سهلاً ، فلما أنكروا على النبي صلى الله عليه وسلم أنكرنا معهم ولم نفكر في أمرنا وقلدناهم ، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا في أمر النبي صلى الله عليه وسلم وتدبرناه ، فإذا الأمر بين فوق في قلبى الإسلام فعرفت قريش ذلك في إبطائى عما كنت

أسرع فيه من عونهم على أمرهم ، فبعثوا إلى فتي منهم فقال : أبا عبد الله إن القوم قد ظنوا بك الميل إلى محمد : فقلت له : يا بن أخي إن كنت تحب أن تعلم ما عندي فوعدك الظل من حراء : فالتقينا هناك فقلت إني أنشدك الله الذي هو ربك ورب من قبلك ومن بعدك ، أنحن أهدي أم فارس والروم : قال اللهم بك نحن : فقلت أفنحن أوسع مماشا وأهظهم ملكا أم فارس والروم : قال بل فارس والروم : قلت فما ينفعنا فضلنا عليهم في الهدى إن لم تكن إلا هذه الدنيا وهم فيها أكثر فيها أمراً . قد وقع في نفسي أن ما يقول محمد من البعث حق ليجزي المحسن في الآخرة بإحسانه والمسيء بإساءته . هذا يا بن أخي الذي وقع في نفسي ولا خير في التماذي في الباطل . وروى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه قال : قال عمر بن الخطاب لعمر بن العاص : لقد عجب لك في ذهنك وعقلك ، كيف لم تكن من المهاجرين الأولين : فقال له عمرو وما أعجبك يا عمر من رجل قلبه بيد غيره ، لا يستقر التخلص منه إلا إلى ما أراد الذي هو بيده : فقال عمر صدقت :

صحيحه :

إن عمرو بن العاص وإن كان ممن تأخر إسلامهم إلا أنه كان حسن الصحبة ، محبباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى لقد روى عنه أنه قال ما عدل بي رسول الله وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه في حربه منذ أسلمت (رواه ابن عساكر) وذلك بلا ريب لثقتهم بإسلامهم وكفائتهما في أمور الحرب وحسبهما فضيلة فتوحهما العظيمة في مصر والشام بعد .

وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم رئيساً على جيش فيه أبو بكر وعمر وذلك في غزوة ذات السلاسل التي تقدم الخبر عنها في سيرة أبي عبيدة لما نازعه ثمة على الإمارة ، وقد أظهر في هذه الغزوة من الكفاءة وحسن المشيكة ما حمده عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

روى ابن عساكر عن إسماعيل بن أبي خالد عن عمرو بن العاص أن رسول الله بعثه إلى ذات السلاسل ، فسأله أصحابه أن يأذن لهم أن يوقدوا النار ليلاً لبرد أصابهم فمنعهم . فكلّموا أبا بكر أن يسكّمه في ذلك فأثابه . فقال لأبي بكر لا يوقد أحد منهم ناراً إلا ألقيته فيها : فلقوا العدو فهزموهم فأرادوا أن يتبعوهم فمنعهم : فلما انصرف ذلك الجيش إلى رسول الله شكّوه إليه فقال : يا رسول الله إنى كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قتلهم : وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم (أى للعدو) مدد فيعطفوا عليهم : قال فأحمد رسول الله أمره :

وأرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى عمان والياً على الصدقة وأن يدعو الناس إلى الإسلام فذهب ودعاهم إلى الإسلام فآمنوا ، وكان الذى ساعده على ذلك جيفر وعياذ ابنا الجملندى ، وكان الملك منهما جيفر فأسلما وخليما بينه وبين الصدقة فكان يأخذها من الأغنياء ويردها على الفقراء ، ولم يزل مقيماً هناك حتى أتاه نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاءه كتاب أبى بكر محتوماً وفيه : أن لا يحل عقلاً عقله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن لا يعقل عقلاً عقله رسول الله : فلما قرأ الكتاب بكى بكاء طويلاً ثم خرج على القوم فأعلمهم الخبر فعزّوه . ثم لما اضطربت نار الردة شخص إلى المدينة ومر منهصرفه من عمان بمسلة فدعاه إلى أمره وقرأ عليه من قراءته . فقال له عمرو : والله إنك لتعلم أنى أعلم أنك كذاب : ثم انصرف فمر بقرة بن هبيرة وقال له قرة : إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة : فأجابه جواباً يدل على بعد نظره وقوة جنانه إذ أظهر استهائته بردة العرب ، وهدد قرة بالحرب احتقاراً لشأن العرب ، وإظهاراً للجلد الذى هو أنفع شيء للمسلمين في مثل موقفهم ذلك ، وقد مر الخبر عن ذلك في سيرة أبى بكر رضى الله عنه .

وبالجملة فقد كان عمرو حسن الصحبة نافعاً في إسلامه ، وحسبه فضيلة كبيرة وخدمة عظيمة فتحه مصر ، وطرابلس الغرب ، وحروبه مع الأمراء بالشام كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب ، وسنرى فيما يلي إن شاء الله : إلا أنه أخذ عليه دخوله في غمار الفتنة العظمى ، وكونه كاليد القوية فيها والكلام على هذا سيأتي في محله إن شاء الله .

حروبه وفتوحاته

فتح مصر وبرقة :

قد مضى معنا في سيرة عمر بن الخطاب ذكر المواقع التي حضرها عمرو بن العاص في سورية ، والفتح الذي فتحه في فلسطين ، لما كان أميراً على جيش من جيوش المسلمين ثمة فلم نزاجة لإعادة ذكر ذلك ، وإنما نأتى هنا على خبر فتحه مصر وطرابلس الغرب ، لا نفراذه بهذه المأثرة الجليلة التي هي من أعظم مآثر ذلك الرجل الكبير في الإسلام فنقول .

كان عمرو بن العاص محباً للإمارة طامحاً للعلا ، ذا نفس عالية لا ترضى بالحقير من الأعمال بل تطلب جليلها مهما قام دونها من المصاعب ، وترتب عليها من التبعات يدلك عليه لإقدامه على دخول مصر بجيش قليل ، وعدة ضعيفة لما أذن له عمر بقصدها ، حتى كان عما قاله عثمان لعمر يومئذ (إن عمر ألقى الجرم ، وفيه إقدام وحب الإمارة فأخشى أن يخرج في غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلاك) ومن تصفح تاريخ حياته ووقف على أعماله سواء في الفتح والإمارة ، أو في دخوله غمار الفتنة ، علم أنه رجل فذقل أن تنجب بمثله الأمهات لولا طمع فيه ربما أؤخذ أحياناً عليه . على

أنه لم يكن طمعه في دنيا في الأمور بل في أبعدها غاية وأعصاها على غيره منالاً وأى قائد غير عمرو بن العاص يقدم على دخول مصر ، ويرغب في تدوين ملك الفراعنة ، بجيش يقل عن الأربعة آلاف مقاتل ، يريد أن يقهر به أمة كان يربو عددها على العشرة ملايين ، وكان في البلاد من حامية الروم وحدها أضعاف مائة من المقاتلة يحمون ذمارها ويذبون عنها .

إن الذي أطمع عمرأ بمصر ذهابه إليها في الجاهلية وعلمه بحالها ووقوفه على ثروة أهلها وخيرات أرضها ، ولكن إقدامه على قصدها بجيشه القليل يدل أنه رأى بعين البصيرة عقب وقائع الشام أن دولة الروم دالت وقواها خارت ، وأن الله موف وعده للمسلمين قتلوا أو كثروا . وأن جدة الدين والدولة ونزوع العرب إلى الفتح وتكاتفهم على إهلاك شأن الإسلام فرصة لا ينبغي للعامل تركها ، واستمهال عزيزة النفس في انتهازها فافتحم البلاد اقتحام الوائق بالنصر العارف بأساليب الحرب ، المعتمد على كفاءة جنود المسلمين ، الواقف على شئون البلاد فافتتحها من أدناها إلى أقصاها ، ورفع أعلام الإسلام على ربوعها ، فكان له بهذا العمل العظيم أعظم الفخر وأشرف الذكر أبدي الدهر .

قلنا فيما سبق إن سبب رغبة عمرو في فتح مصر هو دخوله إليها في الجاهلية ، ووقوفه من أحوالها على ما يحب . وقد نقل المقرئ عن ابن عبد الحكم في سبب دخول عمرو إلى مصر ما خلاصته أن عمرأ قدم إلى بيت المقدس لتجارة في نفر من قريش ، فإذا هم بشماس من شمامسة الروم من أهل الإسكندرية ، قدم للصلاة في بيت المقدس فخرج في بعض جبالها يسبح ، وكان عمرو يرعى إبله وإبل أصحابه ، وكانت رعية الإبل نوبا بينهم ،

فبينما عمرو يرعى إبله إذ مر به ذلك الشماس وقد أصابه عطش شديد في يوم شديد الحر ، فوقف على عمرو فاستسقاها فسقاها عمرو من قربته له فشرب حتى روى ونام الشماس مكانه ، وكانت إلى جنب الشماس حيث نام حفرة نفرت منها حية عظيمة فبصر بها عمرو فنزع لها بسهم فقتلها . فلما استيقظ الشماس نظر إلى حية عظيمة قد أتجاء الله منها فقال لعمرو : ما هذه ؟ فأخبره عمرو أنه رماها فقتلها . فأقبل إلى عمرو فقبل رأسه وقال : قد أحياني الله بك مرتين . مرة من شدة العطش ، ومرة من هذه الحية : وسأله عما أقدمه هذه البلاد فأخبره أنه قدم مع أصحابه للتجارة ، فرغب إليه أن يصحبه إلى الإسكندرية ليكافئه على عمله فأبى ، وما زال به حتى قبل أن يصحبه إلى الإسكندرية بعد أن أخذ عليه العهد والميثاق ليفين بعده معه وانطلق إلى أصحابه فاستشارهم وقال لهم : انتظروني ولستم على أن أشاطركم على النصف عما آخذ : وأخذ منهم معه واحداً يأنس به ، فانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس حتى انتهوا إلى مصر فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها ، وما بها من الأموال والخير ما أعجبه ، ومضى إلى الإسكندرية ، فنظر إلى كثرة ما فيها من الأموال والعمارة وجودة بنائها وكثرة أهلها فازداد عجباً . ووافق دخول عمرو الإسكندرية فيها عيداً عظيماً يجتمع فيه أشرافهم في ملعب مشهور ، ولهم كرة من ذهب يترامون بها فن وقعت في كفه لم يمت حتى يملكهم ، وكان ذلك فيما اختبروه من تلك السكرة على ما وصفها به من مضى منهم ، وكان الشماس ألبس عمراً ثوب ديباج وأجلسه مع القوم في ذلك المجلس ، حيث يترامون بتلك السكرة فرمى بها رجل منهم فأقبلت تهوى حتى وقعت في كم عمرو فاجبوا من ذلك وقالوا : ما كذبتنا هذه السكرة قط إلا هذه المرة أترى هذا الأعرابي يملكنا ؟ هذا مالا يكون أبداً : ثم إن الشماس وفي بما وعد به سرراً ، وجمع له من أهل المدينة ألفي دينار وأصحبه برسول ودليل ، فانطلق عمرو إلى أصحابه وشاطرهم على النصف عما أخذ .

هذا ما نقلوه عن سبب دخول عمرو إلى مصر في الجاهلية، وسواء صحت هذه الحكاية أو لم تصح فإنه ليس فيها شيء من الغرابة إلا قولهم عن الكرة أن القوم اختبروا أمرها واعتقدوا أن من وقعت في كفه هذه الكرة صار ملكاً عليهم . وليست المسألة مسألة اعتقاد بل ربما كانت من قبيل التفاؤل أو أن بعض الإمارات التي يتناوبها الإشراف كإمارة الجيش كانت لا تعطى إلا على هذا الشرط فأخطأ مؤرخو العرب في النقل : وبالجملة فالذي أثار في نفس عمرو الرغبة في فتح مصر هو ما سبق له من دخولها ، والوقوف على أحوالها وأحوال أهلها ، يضاف إليه ما عرّض في نفسه من حب الإمارة والإقدام على جلائل الأمور ، كما قال عنه عثمان رضى الله عنه . وقد تقدم معنا الخبر في سيرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن كيفية مسير عمرو إلى مصر ، وكان أول موضع قوتل فيه الفرما^(١) ، قاتلته الروم قتالاً شديداً نحواً من شهر ثم فتح الله عليه ، وقيل إنه كان بالإسكندرية أسقف يقال له أبو ميامين فلما بلغه قدوم عمرو إلى مصر كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا يكون للروم دولة ، وأن ملكهم قد انقطع ، ويأمرهم بتلقي عمرو ، فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعواناً ، فإذا صحت هذه الرواية يكون أكبر عون لعمرو على فتح الفرما هم القبط ، لأن الفرما كانت حصينة جداً ، وفي رواية أن فتح الفرما كان بعد فتح دمياط وتنيس .

ثم تقدم عمرو ولا يدافع إلا بالامر الخفيف حتى أتى بلبليس فحاصرها حصاراً شديداً ونقل المقريزي عن الواقدي أن المقوقس زوج ابنته ارمانوسه

(١) اختلف المؤرخون في موقع الفرما فمنهم من قال لأنها كانت على البحر الرومي ، ومنهم من قال لأنها على بحيرة تنيس وقد صارت خراباً وغمرت المياه ، والمرجح أنها لم تكن على البحر الرومي بل بعيدة عنه لرواية نقلها المقريزي عن يحيى بن عثمان قال كنت أربط في الفرما وكان بينها وبين البحر قريب من يوم يخرج الناس والمرابطون على الساحل ثم علا البحر على ذلك كله . ويظهر من رواية ابن خردادبه في الممالك والمسالك أن بين القرامطين بلبليس ثلاثة وثمانون ميلاً وبين هذه والفسطاط أربعة وعشرون ميلاً .

من قسطنطين ابن هرقل وجنودها بأموالها وحشمتها لتسير إليه حتى يبنى عليها في مدينة قيسارية (من سورية) ، فخرجت إلى بلبس وأقامت بها وأرسل أبوها جنودا إلى حدود الشام كي لا يتركوا أحداً من الروم أو غيرهم يدخل أرض مصر مخافة أن يتحدث الناس بغلبة المسلمين على الشام فيدخل العرب في قلوب عساكره . ولما أتى عمرو بلبس حاصرها حصارا شديدا ، وقاتل من بها ، وقتل منهم زهاء ألف فارس وانهمز من بقي إلى المقوقس ، وأخذت أرمانيوسه وجميع مالها وسائر ما كان للقبط في بلبس ، فأحب عمرو ملاطمة المقوقس فسير إليه ابنته مكرمة في جميع مالها مع قيس بن أبي العاص السهمي فسر بقدمها . وكان هذا العمل من عمرو عملا جميلا يدل على حسن سياسة وبعد نظر .

ثم إن عمرو آسار من بلبس إلى بابل أو باب ليون وهو حصن كان بناه الفرس أيام تملكهم لمصر ، وكان يسميه العرب قصر الشمع وكان على الضفة الشرقية من النيل قرب الكنيسة المعلقة في مصر القديمة أو الفسطاط ، ويقابل على الضفة النيل الغربية مدينة منف عاصمة البلاد يومئذ ومقر المقوقس صاحب مصر . وكان فيه حامية عظيمة وعليها قائد اسمه الأعيرج وكان المقوقس مع الحامية أيضا .

وقد اختلف المؤرخون فيمن كان على مصر يومئذ فمنهم من قال الأعيرج ، ومنهم من قال الأرطبون ، ومنهم من قال المقوقس ، ومنهم من قال إن المقوقس كان في الإسكندرية . كما اختلفوا في أصل المقوقس هل هو يوناني أو مصري ، والذي ظهر لي أن الأعيرج والأرطبون قائدان لأن أحدهما وهو الأرطبون كان على جيوش الروم في بيت المقدس ، وفر إلى مصر لما أخذها المسلمون .

وأما المقوقس فهو أمير مصر بلا ريب من قبل الروم ، وكان قصدي

استقصاه خبر المقوقس للوقوف على جلية أمره، لكن مجلة المقتطف نقلت في الجزء الثالث من المجلد الثامن والعشرين فصلاً عن كتاب انكليزي ألفه أحد علماء الانجليز - وهو الدكتور بطارفي تحقيق من هو المقوقس أغنانا عن معاناة البحث، وخلاصة حكم المؤلف في هذا الكتاب على ما جاء في المقتطف أن المقوقس كان والياً وبطريقاً على مصر من قبل الإمبراطور هرقل، وهو حكم يقرب من الصواب بدليل نفوذ سلطنة المقوقس على المصريين يومئذ نفوذاً لا يكون إلا لمن بيده قوة السلطنة الدينية، على أن القرائن التي تحتف أخبار المقوقس مع القبط ومخبراته مع المسلمين تؤيد كونه كان بطريقاً نافذ الكلمة في القبط. وكلمة صاحب القبط التي جاءت في تواريخ العرب ومخبرة الرسول صلى الله عليه وسلم للذكور ودعوته وقومه إلى الإسلام، كافية لتأييد ما ذهب إليه الدكتور والفصل الذي لخصه عن كتابه المقتطف لا يخلو من فائدة فليراجعها من أحب.

نازل عمرو بن العاص الحصن وحاصر من فيه وقتلهم قتالاً شديداً يصحبهم ويمسيهم، ولما أبطأ عليه الفتح كتب إلى عمر بن الخطاب يستمده ويعلمه بذلك، فأمدّه بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم رجل مقام الآلف: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعباد بن الصامت، ومسلمة بن مخلد. وقيل إن الرابع كان خارجة بن حذافة وكان عمرو يومئذ في عدة قليلة، فكان يفرق أصحابه ليرى العدو أنهم أكثر مما هم، وقيل إن الزبير جاءه بإثني عشر ألف مقاتل، ولما علم عمرو بقدوم الزبير تلاقاه ثم أقبلا يسيران فلم يلبث الزبير أن ركب ثم طاف بالحنديق ثم فرق الرجال حول الحندق، وألح عمرو على القصر ووضع عليه المنجنيق فلم يتيسر أخذه وأبطأ الفتح، وكان الزبير رضى الله عنه من الشجعان المعروفين فقال: إني أهب نفسي لله أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين، فوضع سلمها على جانب

الحصن ، ثم صعد فأمرهم إذا سمعوا تكبيرة أن يجيئوه جميعاً ، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف ، وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو وخوفاً من أن ينكسر ، وكبر الزبير فكبرت الناس معه ، وأجابهم المسلمون من خارج فلم يشك الروم أن العرب اقتحموهم جميعاً فهربوا وعمد الزبير وأصحابه إلى الباب ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن وفر القبط إلى الجزيرة (أى جزيرة الروضة) على مراكب أعدوها لذلك .

وتم بذلك الفتح وكان على يد البطل الجليل الزبير بن العوام رضى الله عنه كما رأيت ، لهذا ينكر بعضهم الفضل لعمرو بن العاص في فتح مصر وهو جمل فاضح وتعصب منكسر ، لأن فتح البلاد كلها إنما كان بحسن قيادة عمرو ودربته ، ولم يكن عمرو بأقل شجاعة من الزبير أيضاً رضى الله عنهما ، وعن كل رجال الفتح ، فإن لكل منهم فضيلة في عمل وخدمة جليلة للإسلام .

رأى المقوقس شدة قتال المسلمين وصبرهم ، وعلم أنهم لا يزالون يقاتلون الروم والقبط حتى تصير إليهم البلاد ، فاستشار أصحابه بمصالحة القوم وبعث إلى عمرو يقول : إنكم قوم قدد ولجتم في بلادنا وألحتم على قتالنا . وطال مقامكم في أرضنا ، وإنما أنتم عصابة يسيرة وقد أظلمتكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل (وكان الوقت وقت الفيضان) وإنما أنتم أسارى في أيدينا فابعثوا إلينا رجالاً منكم ، نسمع من كلامهم فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما نحب وتحبون ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم .

ولما أتت الرسل إلى عمرو وحبسهم عنده يومين وليلتين لبروا حال المسلمين ، ثم ردهم وأرسل معهم للمقوقس يقول :

إنه ليس بيننا وبينكم إلا إحدى خصال ثلاث إما أن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا ، وإن أبيتم فالجزية . وإما جاهدناكم بالقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم ، وهو خير الحاكمين .

علمنا أن عمراً حبس رسل المقوقس ليروا حال المسلمين ويخبروا قومهم عنه ، لعلمه أن سيرة المسلمين وحدها كانت كافية يومئذ لاعتبار القوم ، وانعاضهم وتسليمهم بالأيدي المسلمين ، وقد أصاب عمرو بهذا الأمر المرمى ولم يخطئه في الظن إذ لما عاد رسل المقوقس سألهم : كيف رأيتم هؤلاء ؟ فقالوا :

« رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة ، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، إنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد منهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم » :

هذه الأخلاق الطاهرة والسيرة الجميلة التي رفعت من أقدار القوم وملأت منهم قلوب الأعداء ، وعيونهم في كل مكان حلوه وبلد قصدوه ، فكانت الشعوب لا تلبث أن ترى سيرتهم وتسمع بأخلاقهم فتعطيهم أيدي الطاعة وتترك إليهم مقاليد الأمور توخيا للسلامة ورضا بسيادة قوم ذلك حالهم ، وتلك السيرة الطيبة سيرتهم : ومنهم المقوقس الذي لما سمع من الرسل ما سمع قال لقومه : لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها . وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ، ولئن لم نفتنهم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبوا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض وقووا على الخروج من موضعهم . ثم أرسل إلى عمرو أن يبعث إليه من يسكلمه بشأن الصلح

فبعث عبادة بن الصامت ، وقيل بل طلب منه الاجتماع به وكان بما بعث به إليه قوله :

لأنى لم أزل حريصا على إجابتك إلى خصلة من تلك الخصال التى أرسلت إلى بها . فأبى ذلك من حضرنى من الروم والقبط ، فلم يكن لى أن أفاتى عليهم ، وقد عرفوا نصيحى لهم وحبى صلاحهم ، ورجعوا إلى قولى فأعطى أمانا أجتمع أنا وأنت فى نفر من أصحابك ، فإن استقام الأمر بيننا تم لنا ذلك جميعا وإن أيتم رجعنا إلى ما كنا عليه .

فاستشار عمرو وأصحابه وكانوا عرفوا جانب الضعف من القبط ، وطمعوا بالفتح فأشاروا عليه بأن لا يجيبه إلى الصلح ، وكان عمرو يزع إليه ويعرف فائدته ، فأخبرهم بعهد عمر إليه فى أن من أجابه إلى خصلة من الثلاث يصالحه ، ثم اجتمع عمرو بالمقوقس ، واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ، ديناران ، ديناران عن كل نفس شريفهم ووضيعهم من بلغ منهم الحلم ، ليس على الشيخ الفانى ولا الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شىء . وعلى أن للمسلمين عليهم منزلا لجماعتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم ، وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم فى شىء منها ، فشرط ذلك كله على القبط خاصة ، وأحصوا عدد القبط يومئذ من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الديناران : رفع ذلك عرفاؤهم باليمان المؤكدة فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها ستة آلاف نفس « ستة ملايين » فكانت فريضتهم يومئذ اثنى عشر ألف ألف دينار « اثنى عشر مليونا » .

هكذا نقل المقرئى رواية هذا العهد وعدد المصريين الذين ضربت عليهم الجزية فى سياق خبر الصلح مع المقوقس ، وفى هذا نظر لا يخفى على بصير ، إذ أن الذى يظهر من سياق الأخبار أن صلح المقوقس لم يشمل كل المصريين ، لأن من البلاد ما أخذ عنوة بعد عقد الصلح . وعلى تقدير شمول الصلح لكل المصريين كيف يعقل أن يكون من بلغ الحلم من المصريين من الرجال وحدهم ستة ملايين ، مع أن البالغين الحلم لو كانوا ربع سكان البلاد للزم أن يكون عدد جميع سكانها من شيوخ وأطفال وشبان ونساء أربعة وعشرين مليوناً . وهو بعيد عن الصواب ، لا سيما وقد جاء فى بعض الروايات أن جزية مصر وخراجها معاً بلغا على عهد عمرو بن العاص ألفى دينار مليونى دينار . ومنها ما رواه البلاذرى فى فتوح البلدان عن يزيد بن أبى حبيب قال : جى عمرو بن العاص خراج مصر وجزيئها ألفى ألف . وجباها عبد الله بن سعد بن أبى سرح « فى خلافة عثمان » أربعة آلاف ألف . فقال عثمان لعمرو : إن اللقاح بمصر بعدك قد درت ألبانها : قال : ذلك لأنكم أعجفتموها .

والفرق بين هذه الرواية والرواية الأولى عظيم كما ترى ، على أنه جاء فى بعض الروايات أيضاً أن الذى جباه عمرو هو اثنا عشر مليوناً والذى جباه ابن أبى سرح أربعة عشر مليوناً . وكما يضطرب الفكر فى مقدار تلك الجزية يضطرب أيضاً فى قولهم إن الصلح تم مع المقوقس لما فتح عمرو بابلون عن جميع القبط فى أسفل مصر وأعلاها وأحصوا بالآيمان المؤكدة مع أن هذا منقوض بالبداهة التى تؤيدها رواية لابن عبد الحكم نقلها المقرئى فى فتح الإسكندرية ، إن عمرو بن العاص إنما صالح المقوقس لما فتح الإسكندرية وهكذا قال الطبرى وابن خلدون وهو الأقرب للتوفيق بين تلك الروايات ، إذ ما نخال وقوع هذا الإحصاء سواء صح عدده أو لم يصح إلا بعد فتح الإسكندرية

وبقية البلاد ، وإجراء الجميع بحرى الصلح لما هو المشهور عن عمر بن الخطاب فى أنه اعتبر كل القبط أهل ذمة وعهد وأقرهم على أراضهم ، وروى البلاذرى أن قرى من مصر قاتلت فوق سبائهم بالمدينة فردهم عمر بن الخطاب وصيرهم وجماعة القبط أهل ذمة ، وبالجملة فهذا بحث طويل يحتاج إلى تمحيص وربما نعود إليه فى الكلام على حالة مصر الاجتماعية إن شاء الله (١) .

لما تعاهد عمرو والمقوقس على ما تعاهدا عليه شرط المقوقس للروم على أن يغيروا بين الرضا بما رضى به القبط ، وبين اللحاق ببلاد الروم ، وكتب المقوقس إلى ملك الروم بما تم عليه الصلح ، فكتب إليه كتابا يوبخه فيه على التسليم ويوهن جانب المسلمين ، وكتب بمثل ذلك إلى قواد الروم فى الإسكندرية وغيرها ، فأعادوا الكرة على المسلمين فقاتلهم عمرو حتى ألجأهم إلى الإسكندرية ثم حاصرهم فيها وافتتحها عنوة وجلا عنها الروم .

هكذا انتهى فتح بابليون وأعطى المقوقس بيده ويد القبط للمسلمين مع أنه يونانى الأصل . وأكثر الروم وقتئذ أبوا أن يوافقوه على الصلح وقاتلوا المسلمين فى كل بلد أراد فتحه عمرو وقواده الذين بهمهم لإتمام فتح البلاد .

(١) بعد كتابة ما كتبناه هنا قرأنا كتاب العهد الذى أعطاه عمرو للمقوقس كما تراه مبسوطا فى باب أخباره ، فأتضح لنا منه أن عمرا كتب للمقوقس فى كتاب العهد على أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا العهد أى إذا رضوا به جميعهم بعد تمام الفتح . وبهذا اهل الإشكال واتضح أن المصريين جميعهم قبلوا بما صالح عليه المقوقس عمرو بن العاص بعد الفتح ومن ثم كان الإحصاء .

والذى يظهر للمتأمل فى أخبار فتح بابليون أن نظام الدفاع فى البلاد المصرية كان مختلفاً جداً ، إذ أن عمرو بن العاص كان قليل الجند ، ولا يسعه ترك حامية من جنده فى البلاد التى افتتحها فى دخوله إلى مصر لتحتفظ خط الاتصال بينه وبين جيوش المسلمين بالشام ، فهو بالضرورة جاء بكل جيشه إلى بابليون وأصبح فى قلب البلاد فلو كان ثمة نظام حسن للدفاع عند الروم كما كان ذلك فى سورية لانكفئوا عليه من أطراف البلاد ، وحاصروه فى مستقره حصاراً لامناس له بعده من الموت أو التسليم ، ولعل السلطة العامة لم تكن يومئذ متوفرة للمقوقس ، وكان عمال الأطراف كل واحد منهم مستبد على الآخر ، يعد أسباب الحيلة لنفسه دون غيره . وربما كان هذا الأمر من أهم الأسباب التى دعت لتسليم المقوقس وطلبه الصلح والأمان للقبط ، كما كانت لهذا أسباب أخرى أيضاً — منها نفور القبط من سلطة الكنيسة الشرقية وتأفقهم من سلطان الروم كما يقول مؤرخو المسيحيين ، ومنها تحقق المقوقس من علو شأن المسلمين واستحالة التخلص من الرضوخ لسيادتهم ، بعد أن دوخوا الشام وأنجحوا دولة الروم ، وقهروا الإمبراطور هرقل وكسرى يزدجرد ، يدلك على هذا اجتهد المقوقس فى منع أخبار المسلمين عن المصريين لما قهروا الروم فى سورية خوفاً من أن يفت ذلك فى عضدهم ويدخل الوهن والفرع على نفوسهم .

ومنها وهو الأثر تواتر الأخبار عن حسن سيرة المسلمين فى البلاد التى افتتحوها ، وإطلاقهم لأهلها حرية الفكر والدين ، وعدم مسهم بشئ من الأذى والجور كما مرت الشواهد الكثيرة على ذلك فى هذا الكتاب .

وهذا مادعا البطريك بنيامين إلى عمالة عمرو وتحريره القبط على التسليم كما سترى الخبر عن ذلك آخر الفصل ، ومحمتم أيضاً أن تكون

مساعدة المقوقس للمسلمين ناشئة عن طمعه بالاستقلال لأنه من أصل مصري ، وكان ميالاً للاستقلال منذ دخول الفرس إلى مصر كما يقول جبون لو لم يوهن هذا الرأي إجماع أكثر المؤرخين على أنه من أصل يوناني ، وجبون يقول إنه كان من أشرف البلاد وكان ربما تظاهر بالاستقلال على أن الدكتور بطريرى أن نفوذه على القبط إنما كان كبيراً لأنه كان والياً وطريركاً معاً كما تقدم قوله هذا والله أعلم .

لما بعث الإمبراطور إلى المقوقس ينكر عليه فعله ويوبخه جمع جماعة الروم عنده ، وأعلمهم أنه لم يصلح المسلمين إلا صوناً لمصلحة البلاد ، بسبب ما عرف عنهم من القوة والشجاعة ، وما سبق لهم من قهر الإمبراطور وجيوشه في سورية ، وما شاهده من أخلاق العرب وأحوالهم ودرجة قوتهم واستعدادهم ، ثم قال لهم : واعلموا معشر الروم أنى لا أخرج مما دخلت فيه وما صالحت العرب عليه ، وإنى لأعلم أنكم سترجعون غداً إلى قولى ورأى وتتمنون لو كنتم أطعمونى ، وذلك أنى رأيت وعانيت وعرفت ما لم يعاين الملك ولم يره ولم يعرفه ، أما يرضى أحدكم أن يكون آمناً فى دهره على نفسه وماله وولده بدينارين فى السنة ، ثم أقبل المقوقس إلى عمرو فقال له : إن الملك قد كره ما فعلت وعجزنى وكتب إلى وإلى جماعة الروم أن لا نرضى بمصالحتك وأمرهم بقتالك حتى يظفروا بك أو تظفر بهم . ولم أكن لأخرج مما دخلت فيه وعاقبتك عليه ، وإنما سلطانى على نفسى ومن أطاعنى ، وقد تم صلح القبط فيما بينك وبينهم ، ولم يأت من قبلهم نقض وأنا متم لك على نفسى والقبط متمون لك على الصلح الذى صالحتهم عليه وعاقبتهم . وأما الروم فأنا منهم برىء وأنا أطلب إليك أن تعطينى ثلاث خصال — لا تنقض بالقبط وأدخلنى معهم ، وألزمى بالزمهم ، وقد اجتمعت كلتى وكنتهم على ما عاقبتك عليه فهم متمون لك على ما تحب ،

وأما الثانية إن سألك الروم بعد اليوم أن تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم
فيئاً وعبيداً ، فإنهم أهل ذلك لأنى نصحتهم فاستغشوني ، ونظرت إليهم
فاتهموني ، وأما الثالثة فأطلب إليك إن أنامت أن تأمرهم أن يدفنوني
بجسر الإسكندرية .

فأنعم عليه عمرو بذلك وأجابه إلى ما طلب ، على أن يضمّنوا له
الجسرين ويقيموا لهم الأنزال والضيافة والأسواق والجسور ما بين القسطنطينية
إلى الإسكندرية فتم له ذلك ، وصارت القبط له أعواناً كما جاء فى الحديث .

وأنت ترى أن هذا الكلام يؤم أن الصلح تم مع كل القبط ، فى أعلى
مصر وأسفلها ، مع أن عمرأ تمم بعد فتح بابليون فتح البلاد التى لم تدع
بالطاعة كما أشرنا إليه قبل ، فلا ندري هل استعصى أهلها بعد ورود كتب
الروم على أمراء الروم بعدم التسليم والطاعة وبمحاربة المسلمين ، أم كان
الذين دخلوا بالحرب بعد ذلك مع المسلمين هم حامية الروم التى فى البلاد .
وليك بقية أخبار الفتح فتحصها إن شئت .

روى البلاذرى أن عمرو بن العاص لما فتح القسطنطينية وجه عبد الله بن
حذافة السهمى إلى عين شمس ، فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على
مثل حكم القسطنطينية . ووجهه خارجة بن حذافة العدوى إلى الفيوم
والأشمونين وأخميم والبشرودات وقرى الصعيد ففعل مثل ذلك . ووجه
عمير بن وهب الجمحى إلى تنيس ودمياط وتونه ودميره وشطا ودقهلة ، وبنا .
وبوصير ففعل مثل ذلك . ووجه عقبة بن عامر الجهمى ويقال وردان مولاه
صاحب سوق وردان بمصر إلى سائر قرى أسفل الأرض ففعل مثل ذلك ،
فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر فصارت أرضها أرض خراج .

وذكر المقرئ أن الذى بعثه عمرو إلى دمياط هو المقداد بن الأسود

وأن الذى بعثه إلى الفيوم هو ربيعه بن حبيش بن عرفة الصدقي ، فأما أهل الفيوم فلم يقاتلوا وأعطوا بأيديهم ، وأما أهل دمياط فقاتلوا وكان على دمياط أمير اسمه الهاموك استعد لقتال المسلمين فلما جاءه المقداد قاتله وقتل ابنه فانهزم ، وعاد إلى دمياط واستشار قومه وكان فيهم رجل حكيم عاقل قد حضر الشورى فقال : أيها الملك إن جوهر العقل لا قيمة له ، وما استغنى به أحد لإلهاده إلى سبيل الفوز والنجاة من الهلاك ، وهؤلاء العرب من بدء أمرهم لم ترد لهم راية ، وقد فتحوا البلاد وأذلوا العباد ، وما لأحد عليهم قدرة . ولسنا بأشد من جيوش الشام ولا أعز وأمنع ، وأن القوم قد أيدوا بالنصر والظفر . والرأى أن نعتد مع القوم صلحاً ننال به الأمن . وحقن الدماء . وصيانة الحرم فما أنت بأكثر رجالاً من المقوفس .

هذه النصيحة ولا نكران للحق نصيحة صادق عاقل وهى نافعة لو وجدت من الهاموك أذنأ صاغية ، ولكنها لم تجد لأنه لم يعبأ بقوله وغضب عليه فقتله ، وشر الأخلاق الحق والتسرع . وكان للرجل ابن عاقل أيضاً اسمه شطا فعرف جنائية أبيه على الرجل وعلى قومه أيضاً ، إذا أصر على قتال العرب وكان له دار ملاصقة للسور فخرج إلى المسلمين فى الليل ودلهم على عورات البلد ، فاستولى المسلمون عليها ، ولما علم الهاموك بما وقع سقط فى يده واستأمن المقداد فتسلم المقداد البلد ، وجاءه شطا وأسلم ثم لى يظهر صدقه وصدافته للمسلمين خرج إلى البرلس والدميرة وأشمو طناح فشد أهل تلك النواحي ، وقدم بهم مدداً للمسلمين وعوناً لهم على عدوهم وسار بهم مع المسلمين لفتح تنيس^(١) ، وكان عليها رجل من العرب المنتصرة يقال

(١) تنيس هذه كانت قرب دمياط على عشرة أميال منها وقد أطنب بذكرها القرئزى ، وذكر أنه كان فيها من البساتين والمصانع والمعامل والغنى والثروة ما لا يوجد فى بلد من مصر ، وكان يصنع فيها ثوب للخليقة يسمى البدنة لا يدخل فيه من الغزل سداً ولحمة غير أوقيتين وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تنوح إلى تفصيل ولا خياطة ، تبلغ قيمته ألف دينار ولم =

له أبو ثور فبرز إليهم في نحو عشرين ألفاً من العرب المنتصرة والقبط والروم فكانت بينهم حروب آلت إلى وقوع أبي ثور في أيدي المسلمين وانهزم أصحابه وامتلك المسلمون البلد .

قدمنا أن الإمبراطور كتب إلى من بالإسكندرية من الروم بأن يأذنوا العرب بالحرب وبعث بالعدة والجند . وكان عمرو بن العاص ينتظر انحسار النيل ليتمكن من الخروج . ولما أمكنه ذلك خرج وقد عقب له القبط الأسواق وأقاموا له الجسور وفاء بالمعاهدة التي تمت بينهم ، وسمع بذلك الروم فاستعجشوا واستعدوا وقدمت عليهم مراكب عليها جمع عظيم من الجند بالعدة والسلاح ، فخرج إليهم عمرو متوجهاً إلى الإسكندرية فلم ير أحداً حتى بلغ مريوط ، فلقى فيها طائفة من الروم فقاتلهم قتالاً خفيفاً فهزمهم ، ومضى عمرو بمن معه حتى لقي جمع الروم بكوم شريك فاقتتلوا ثلاثة أيام ثم فتح الله على المسلمين وولى الروم أكتافهم . ثم التقوا بالكريون فاقتتلوا بضعة عشر يوماً ، وكان عبد الله بن عمرو على المقدمة فأصابته جراحات كثيرة فجاءه رسول أبيه يسأله عن جراحه فأنشد :

أقول لها إذا جشأت وجاشت رويدك تحمدى أو تستريحي

ثم رجع الرسول إلى عمرو فأخبره بما قال : فقال عمرو : هو ابني حقاً : وصلى عمرو يومئذ صلاة الخوف . ثم فتح الله على المسلمين وقتلوا من الروم مقتلة عظيمة ، واتبعهم حتى بلغوا الإسكندرية فتحصن بها الروم وكان عليها حصون متينة لا ترام حصن دون حصن ، فنزل المسلمون ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة .

== نزل نيس عامرة حتى خربها الملك السكامل في سنة أربع وعشرين وستمائة (المهاجمة الفرنج لها) فاستمرت خراباً ولم يبق منها إلا رسومها في وسط البحارة .

والذى أحسبه أن القبط إنما ألجأهم إلى الانحياز للمسلمين أنهم لما عاقدوهم على الصلح وغضب من ذلك الإمبراطور هرقل خافوا أن ينتقم منهم ومن المقوقس إذا هو ظفر بالمسلمين ، فكانوا عوناً لهؤلاء تخلصاً من سيادة الروم وتفادياً من الوقوع ثانية في شرك الإمبراطور وأن يبالغهم منهم أذى على مآلاتهم للمسلمين .

اهتم الإمبراطور هرقل بمهاجمة العرب للإسكندرية وحصارهم لها ، وخاف من تقلص ظل سلطانه عنها كما تقلص عن سورية ، فعزم على الشخصوص بنفسه إلى الإسكندرية وبينما هو يتجهز للسفر فاجأته المنون ، وكانت وفاته على قول العرب سنة عشرين مع أنه توفي سنة (٦٤١ م) وهى توافق سنة (٢١ هـ) فلعل وفاته كانت فى الحصار الثانى للإسكندرية فانكسرت بموته شوكة الروم ، واستأسدت العرب عند ذلك وألحت بالقتال على أهل الإسكندرية ، واقتحموا الحصن فحاشت عليهم الروم وقتلهم أشد قتال حق أخرجوهم من الحصن جميعاً إلا أربعة نفر تفرقوا فى الحصن وأغلقت عليهم الأبواب ، وهم عمرو بن العاص ، ومسلمة بن مخلد ، واثنان آخران ، فالتجأوا إلى ديماس من حماماتهم فدخلوا فيه واحترزوا فكلمهم واحد بالعربية أن يخرجوا والروم يفادون بهم أسراهم فأبوا وخاف الروم من اقتحامهم فقال لهم الرومى هل لكم إلى خصلة وهى نصف فإن غلب صاحبنا صاحبكم استأسرتم لنا وأمكنتمونا من أنفسكم ، وإن غلب صاحبكم صاحبنا خلينا سييلكم إلى أصحابكم ، فرضوا بذلك وتعاهدوا عليه فتداعوا إلى البراز فبرز رجل من الروم وقد وثقت الروم بنجدته وشدته ، فأراد عمرو أن يبارزه فنهقه مسلمة وقال ما هذا ؟ تخطيء مرتين تشذ من أصحابك رأيت أميراً ، وإنما قوامهم بك رقلوبهم معلقة نحوك لا يديرون ما أمرك ولا ترضى حتى تبارز وتعرض للقتل فإن قتلت كان ذلك بلاء على

أصحابك ، مكانك ١١ وأنا أكفيك إن شاء الله تعالى : فقال عمرو دونك
فر بما فرجها الله بك ، فبرز مسلمة للرومي فتجاولا ساعة ثم أعانه الله وقتل
الرومي ووفي لهم الروم بما عاهدوهم عليه ففتحوا لهم باب الحصن فخرجوا
ولا يدرى الروم أن أمير القوم فيهم حتى بلغهم بعد ذلك وأسفوا .

وكان مسلمة برز لرجل رومي وهم على الحصار فصرعه الرومي فأسمعه
عمرو كلاماً يؤذيه ، فلما خرجوا هذه المرة ورأى عمرو من كرم أخلاق
مسلمة ما رأى ، استحميا عمرو منه وقال له استغفر لي ما كنت قلت لك
فاستغفر له ، وقال عمرو ما أخفشت قط إلا ثلاث مرات مرتين في الجاهلية
وهذه الثالثة وما منن مرة إلا ندمت ، وما استحييت من واحدة منهن أشد
بما استحييت بما قلت ، ووالله إنى لأرجو أن لا أعود إلى الرابعة .

أبطأ على عمر بن الخطاب خبر الفتح وقال والله ما أبطأوا بالفتح إلا
لما أحدثوا ، وكتب إلى عمرو يلومه على الإبطاء ويحذره من أن يحدث
المسلمون في أخلاقهم ما يبغضهم بهم في الفتح ، ويأمره أن يخاطب الناس ويحضهم
على القتال والصبر وحسن النية . ويقدم الأربعة القواد الذين أرسل له معهم
المدد وهم الزبير ، والمقداد ، ومسلمة ، وعبادة ، في صدر الجيش ويصدم
بهم العدو صدمة واحدة ، فلما جاءه الكتاب قرأه على المسلمين وفعل
ما أمره به عمر فكان الفتح ودخل المسلمون المدينة بعد حصار ستة أشهر
وقيل أكثر من ذلك .

وتتبع عمرو الفارين في البر من الروم وقيل ترك حامية في المدينة وقفل
إلى القسطنطينية ، فبلغه نكث الروم في الإسكندرية وقدموا مراكب تحمل
العدة والرجال وأنهم قتلوا الحامية فعاد إلى الإسكندرية فوجد الروم قد
تحصنوا وامتنعوا فحاصروهم حتى افتتحها وكان فتحها الثاني على يد رجل يدعى ابن

بسامة طلب من عمرو أن يؤمنه على أرضه وما له ففعل ، ففتح له ابن بسامة الباب فدخل عمرو إلى المدينة وفر الروم في البحر حيث أعدت لهم المراكب ، وأرسل عمرو بجبر الفتح إلى عمرو بن الخطاب مع معاوية بن خديج ، ثم كتب إليه يصف له حال المدينة وعمرانها وأن المسلمين يطلبون قسمتها بينهم فكتب له ينهاء عن قسمتها ويأمره بأن يجعل الإسكندرية ذمة ويضرب على أهلها الخراج ليكون عوناً لهم على عدوهم ، ففعل وتحول عمرو من الإسكندرية إلى الفسطاط ، وما زال عمرو بن الخطاب بعد ذلك يبحث في كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط في الإسكندرية ، وكان لا يغفلها ويكشف مخابراتها خوفاً من الروم .

هكذا تم لذلك الفاتح الجليل فتح الإسكندرية التي كانت أجمل مدن العالم في وقتها وأغناها وأوسعها تجارة وأزهاها وذلك ما ذكره مؤرخو العرب عن كيفية فتح الإسكندرية ، وأما ما ذكره الإفرنجي أكثره مأخوذ عن تواريخ العرب ، ومنهم المؤرخ الانكليزي الشهير جيون فإنه نقل أخبار فتحها كما جاء في تواريخ العرب وزاد عليها ما نقله عن يوتيوخس المؤرخ القبطي أن العرب حاربوا على أسوار الإسكندرية كالأسود وأنهم فتحوها بعد حصار ١٤ شهراً وقتل ٢٣ ألفاً من المسلمين ، على أنا لا نسلم له بهذه الرواية لأن جيش المسلمين كله لم يبلغ هذا العدد يومئذ .

تحقيق الكلام في حريق مكتبة الاسكندرية :

لخط بعض المتأخرين بحادثة حريق مكتبة الإسكندرية وأن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية وجد فيها مكتبة عظيمة ، فاستأذن أمير المؤمنين عمرو عن حرقها وأحرقها ، وهو خبر مختلف لا أصل له من الصحة ، وأغرب ما فيه من الإغراق في الكذب الذي يدل على عدم صحته أن قالوا إن عمرو

ابن العاص أمر بتوزيع تلك المكتب على الأربعة آلاف حمام التي ذكروا أنها كانت موجودة في الإسكندرية ، وأنها كفتها ستة أشهر ، فلو أن ذلك الآخرق الذي كتب هذا الخبر قدر لسكل حمام في كل يوم مائة مجلد (وهو قليل) لبلغ عدد المجلدات التي أحرقت ٧٢ مليون مجلد ، فأى مكتبة في العالم يوجد فيها مثل هذا العدد من المكتب ، وأى عاقل يتصور صدق هذا الخبر الذي ينقض بعضه بعضاً ، على أن المشهور عن هذه المكتبة طروء الحريق عليها أكثر من مرة قبل الفتح الإسلامي ، وأن الذي يقى منها نقل بعضه امبراطرة الرومان إلى القسطنطينية ، وما بقى أحرقه الاميراطور تبودورس لما أمر بحرق الهياكل الوثنية في الإسكندرية ، وأيد هذا الرأى سديو في تاريخه المسمى خلاصة تاريخ العرب .

والذى يدل على اختلاق هذا الخبر أنه لم يرد في تواريخ المتقدمين من أهل الأخبار كالطبرى واليعقوبى والكندى وابن عبد الحكم والبلاذرى ، وهذه هي التواريخ التي نقل عنها المتأخرون أخبار الفتح وهي موجودة بين أيدينا إلا تاريخ الكندى وتاريخ مصر لابن عبد الحكم ، ومع ذلك فقد نقل عنهما المقرئى والسيوطى أخبار الفتح ولم يأت في تلك الأخبار ذكر لمكتبة الإسكندرية البتة ، بل أغرب من ذلك أن يوتيوخوس الذى هو مؤرخ معاصر لذلك الفتح لم يذكر حريق تلك المكتبة ، وهذه كتب المحدثين التي أحصت بالسند الصحيح كل سيرة عمر بن الخطاب لم يرد فيها شئ من ذلك البتة وإنما نقل هذا الخبر بعض المتأخرين عن غير روية ولا تحقيق ، ونقله الإفرنج على صورته الغريبة عن أبى الفرج الملقب مع أنه لم يرد في تاريخ أحد من المتقدمين على تلك الصورة الغريبة ولا على غيرها ، على أن الخبر على ما فيه من الغرابة والإغراق فى الباطل الذى يكذب بعضه بعضاً قد صار عند علماء البحث مفروغاً منه لتحقق بطلان نسبة حرق هذه المكتبة لعمر و

ابن العاص ، وإنما أوجد فكرة هذا البحث وجود ذلك الخبر في تاريخ أبي الفرج . ولنا زيادة في البيان ودفعاً للريرة ننقل هنا كل ما عثرنا عليه من كلام العلماء والمؤرخين عن هذه المكتبة فنقول :

أفرد جبون في تاريخه (سقوط الإمبراطورية الرومانية) فصلاً مخصوصاً بحث فيه عن حرق مكتبة الإسكندرية ، ومما جاء في ذلك الفصل بعد حكايته لكيفية حرقها وما ذكره أبو الفرج عنها قوله : « بعد ما نقل كتاب أبي الفرج إلى اللاتينية وتناقل خبر تلك المكتبة لكتاب تأسفوا كلهم على احتراقها لضياح كثير من العلم والأدب فيها ، وأما أنا (يعني نفسه) فلأنى شديد الميل إلى إنكار الحقيقة والنتيجة » : يعني أنه ينكر حقيقة حرقها وينكر أنه كان فيها شيء من العلم والأدب .

وجاء في ذلك الفصل أيضاً قوله :

والغريب أن هذه الرواية يكتبها رجل من أطراف مادي (مملكة الفرس) ويسكت عنها مؤرخان مسيحيان من مصر وأقدمهما يوترخوس الذي كتب تاريخ الإسكندرية في القرن السادس .

وجاء في ذلك الفصل أيضاً : أن تعاليم الإسلام تخالف هذه الرواية ، لأن تعاليمه أن الكتب الدينية اليهودية والنصرانية المأخوذة في الحرب لا يجوز إحراقها وأما كتب العلم والفلسفة والشعر وسواها من العلوم غير الدينية فإنه يجوز الانتفاع بها .

ويقول في خاتمة ذلك الفصل إذا كان ما أحرق من هذه المكتبة في الحتمات من كتب المجادلات الدينية بين الأريوسيين وأصحاب الطبيعة الواحدة فكل عاقل حكيم يضحك سروراً بأن ذلك حصل لخدمة البشر .

هذه خلاصة ما جاء في تاريخ جيون إلا أن في حاشية هذا الفصل الذى كتبه جيون كتابة يرد فيها كاتبها عليه بظهور كتب عربية (يعنى فى أوربا) بعد عصر تأليف التاريخ تؤيد ما جاء فى تاريخ أبى الفرج ، وذكر من تلك الكتابة تاريخ ابن خلدون ورحلة عبد اللطيف البغدادى وغيرهما كما سنرى بعد فى الفصل الآتى المنقول عن رسالة شيلى أفندى النعمانى أستاذ اللغة العربية فى مدرسة على كده بالهند سابقا وناظر مدرسة العلوم بحيدرآباد الدكن الآن .

ألف ذلك الفاضل رسالة باللغة الأوردية ترجمت إلى الإنكليزية فى الرد على من قال بحرق عمرو لمكتبة الإسكندرية ، إلا أنا لم نظفر بتلك الرسالة فاجتزأنا من مضمونها بما لخصته عنه مجلة الهلال فى سنتها الثانية قالت بعد مقدمة حسنة فى تقرىظ الرسالة .

وخلاصة ما أراد إثباته (يعنى مؤلف الرسالة) أن أول من نسب حريق مكتبة الإسكندرية إلى عمرو بن العاص مؤرخ اسمه أبو الفرج بن طبيب يهودى اسمه قارون ولد سنة (١٢٢٦ م) فى ملاطية ، وكان والده قد تنصر فشب هو على النصرانية وأتقن اللغتين السريانية والعربية فعينه أسقفاً لمدينة جوبا وهو فى الحادية والعشرين من عمره وما زال يرتقى حتى لم يبق فوقه من الأكاديمية إلا منصب البطريك ، ثم ألف تاريخاً فى اللغة السريانية استخرجه من كتب يونانية وفارسية وعربية وسريانية واستخلص من هذا التاريخ كتاباً فى العربية سماه مختصر الدول وهو أول كتاب ذكرت فيه مسألة حريق الإسكندرية وتناقضها عنه كتاب الإفرنج إلى هذه الغاية ، حتى قام المؤرخ جيون الإنكليزى فانتقد هذا رأى (وهو الانتقاد الذى تقدم) وأظهر ارتيابه فى صحته ، لعدم وجود الأدلة عليه لأنه كتب بعد فتح الإسكندرية بستائة سنة ، ولم يذكره أحد قبل ذلك ، فانتبه مؤرخو الإفرنج

من غفلاتهم وأخذوا يبحثون عن حقيقة هذا القول . غير أن المجتهدين منهم في خلع هذه التهم عن الإفرنج وإلباسها للعرب عادوا فقالوا إن هذه الحادثة لم يذكرها أبو الفرج فقط ، وإنما ذكرها المقرئ وعبد اللطيف البغدادي وحاجي خليفة من مؤرخي الإسلام حتى قال بعضهم إن ابن خلدون أيضا قد ذكرها .

قال الطلال^{*} ثم أخذ صديقنا (أى مؤلف الرسالة) في تفنيد هذه الأسانيد فقال :

أما ابن خلدون فتاريخه متداول بيننا ، وكل من اطلع عليه يعلم أن لا ذكر لهذه الحادثة فيه على الإطلاق . أما المصادر الثلاثة الباقية فأثبت أولا أنها لا تعتبر ثلاثة مصادر مستقلة ، لأن المقرئ ذكر المكتبة نقلا عن عبد اللطيف حرفا حرفا فيبقى عبد اللطيف وحاجي خليفة . أما عبارة حاجي خليفة فلا ذكر فيها لمدينة الإسكندرية وإنما أشار إلى أن العرب في صدر الإسلام لتعلقهم في الوحي وخوفهم من تسلط العلوم الأجنبية على عقولهم كانوا (على ما قيل) يحرقون الكتب التي يعثرون عليها في البلاد التي يفتتحونها . فيظهر من ذلك أن عبارة حاجي خليفة لا تفيد ما أرادوه لأنه إنما يريد الإشارة إلى عدم اعتناء العرب بالعلم ، ولكي يؤيد قوله الملح إلى مسألة حريق الكتب وهو لم يذكرها كأنها حقيقة .

أما عبد اللطيف البغدادي فقد ذكر حرق المكتبة أثناء كلامه عن عمود السوارى ، وهذا نص عبارته وعمود السوارى عليه قبة هو حاملها وأرى أنه الرواف الذي كان يدرس فيه أرسططاليس وشيعته من بعده ، وأنه دار العلوم التي بناها الإسكندر حين بنى مدينته ، وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص بأمر عمر رضى الله عنه ، فيظهر من

نص العبارة أنه ذكر مسألة المكتبة بطريق العرض ، وكانت أشبه بخرافة تتداولها الألسنة فذكرها على علاتها على أن عبارته هذه بجملتها غير صحيحة كما ثبت بالبحث .

ثم أعقب هذا بالأدلة على عدم إمكان احتراق المكتبة بأمر الخليفة عمر أو غيره من الخلفاء أو الأمراء المسلمين ، وأثبت أخيراً أنها إنما احترقت قبل الإسلام أحرق نصفها يوليوس قيصر الرومان وأتم على باقيها بطارقة الإسكندرية قبل الإسلام .

انتهى ما لخصه الهلال عن رسالة شيلي أفندي النعماني وإليك ما كتبه المرحوم علي باشا مبارك في الخطوط التوفيقية في شأن هذه المكتبة نقلاً عن مؤرخي الإفرنج قال :

قد ذكر أعيان مرساؤون عند التكلم على السيراييوم د بناء قديم بالإسكندرية ومحله يعرف بعامود السوارى ، لأنه كان به دار الكتب الكبيرة التي كانت ملحقة بالسرايات . ويؤيد ذلك ما ذكره وتروف حيث قال إنه كان بمدينة الإسكندرية دار كتب غير الكبيرة ولم يكن ثم غير الموجودة في معبد السيراييوم ، ولبعدها عن الميناء لم تصلها الحريق التي احترقت فيها السراية وملحقاتها عند محاصرة الإسكندرانيين قيصر . وقد قيل إن عدداً ما كان بها من الكتب يبلغ ٣٠٠٠٠٠ مجلد وفي زمن كيلوباترة أضيف إليها مائتا ألف مجلد كانت بدار كتب مدينة بيرجام فأخذها انتوان معشوقها أهداها إليها ، وبعد احتراق دار الكتب الكبرى صار لا يوجد بمدينة الإسكندرية غيرها .

وبعد أن كانت المدرسة ودار التحف من ضمن ملحقات السرايات ألحقها بالمعبد
السيراييوم ، ومن ذلك الحين اتسعت شهرته إلى القرن الرابع من الميلاد .
ونقل أمبير الفرنساوى أن هذا المعبد احترق مرتين مرة في زمن القيصر
ماركوبل ، ومرة في زمن القيصر كومول . وفي خطط الفرنساوية أن إحراق
السيراييوم كان بأمر البطريق بتوفيل بعد توقف كثير من العلماء والأهالي ،
ثم بنى محل السيراييوم كنيسة سميت أركاديوم من اسم القيصر أركاد يوس
المتولى تحت القيصريية بعد القيصر تيودوز الأكبر ، وجعل فيها دار كتب
جمع فيها ما أبقتة النار وشيئا كثيرا من كتب النصرانية ، هى التى ينسب
حرقها إلى عمرو بن العاص ، لكن لم يعلم وجه انتساب ذلك إليه ، فإن هذه
الحادثة لم يتكلم عليها أحد من المؤرخين في عصره من النصارى وغيرهم ،
ولم يظهر ذلك إلا في القرن الثالث عشر من الميلاد ، عن كتاب ينسب إلى
أبى الفرج بطريق حلب مع أنه لم يذكرها في تاريخه العام^(١) وفى النبذة
السنوية لمجلس مصر (اللانستيتو) أى المجلس العلمى من ضمن ما قيل فى
جلسة أغسطس سنة ١٨٧٤ ميلادية أن بولص أورو من تلامذة مارى

(١) قوله لم يذكرها فى تاريخه العام ، لعله يريد به تاريخ مختصر الدول المطبوع بمطبعة
الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٨٩٠ م ، فهذا المطبوع حقيقة لم نرفيه ذكراً لمكتبة
الإسكندرية ، مع أن شبلى أفندى النعمانى قد ذكر أن الجملة لما جاءت فى تاريخ مختصر الدول
هذا ! وجبوا فال لأنها جاءت فى ترجمة تاريخه اللاتينية ولا نعلم هل كانت الترجمة اللاتينية هى
ترجمة تاريخه السريانى ، أم تاريخه العربى المعروف بمختصر الدول فلا يخلو الأمر ، لما أن الطابع
تبرئة لأبى العرج ولما صاق لهذا الخبر بالمسلمين حذف هذه الحكاية . من تاريخ مختصر الدول
قبل طبعه ، ثم طبعه ، ولما أنها جاءت فى تاريخه السريانى وأنه هو الذى ترجم إلى اللاتينية ونقل
عنه الإفرتج ، والذى يظهر هذه الحقيقة أن ظفرت عند صديقى من المشتغلين بالنسخة
السريانية لما أنها مكتوبة بالخط السكنداني الذى تصعب قراءته على من لا يرفه جيداً ، وقد
كانت صديقى قراءة الخبر على فتح الإسكندرية فلم يجد فيه حكاية مكتبة الإسكندرية ، فبقى أن
الذين طبعوا الكتاب هم الذين حذفوا منه الخبر . وقد جرت عادة اليسوعيين بالتصرف
بالكتب التى يطبعونها فيحرقون فيها . ويزيدون ويقصون .

اجستان ومارى جيروم لم يجد شيئاً من الكتبخانة حين مروره بالإسكندرية سنة ٤١٤ من الميلاد ، يعنى قبل دخول سيدنا عمرو بلاد مصر بمائة وثلاثين سنة . فالظاهر أن القول بأن إحراق كتبخانة إسكندرية كان بأمر سيدنا عمرو محض افتراء اختلقته قسوس النصارى ، فإنه قد حصل إحراقها مراراً قبل دخول الإسلام . والكتب القديمة الموروثة عن الأعصر الحالية قد محتها أيدي النصارى : انتهى كلام الخطط ومنه يعلم تضارب روايات القوم فى حرقها وانحصار تحقيقهم فى زمن وقوعه قبل الإسلام ، لأنه كان كذلك ومن المستحيل أن يبقى فى هذه المكتبة مع نوالى الحرق عليها والنقل منها ما اتصل إليه يد عمرو بالحرق أو ما يكون فيه فائدة يؤسف على فقدانها والسلام .

هود إلى خبر الفتح :

أتم عمرو رضى الله عنه بفتح الإسكندرية فتح مصر ، وتحول بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى القسطنطينية بعد أن أقره والياً عليها ، فكان خير وال وأعظم قائد ، وأحب الولاة إلى الرعية ، وأشد هم قياماً على العدل والنظر فى عمران البلاد وراحة أهلها فتألف بدوائمه وحسن سياسته قلوب القبط حتى جعلهم عوناً للمسلمين ، فلم يدرك المصريين فى ولايته ما أدركهم فى ولاية غيره من الجهد ، وهاب به الروم وتمهدت له البلاد فأحبها وأحبه أهلها ، لذلك كان شأن مصر عنده عظيماً ، وإمارتها إليه محببة ، حتى شبه يوماً إمارتها بالخلافة ، إذ روى عن ابن لهيعة أنه قال كان عمرو بن العاص يقول : ولاية مصر جماعة تعدل الخلافة : وكان القبط على عهد الدولة الرومانية كعبيد لأهل الدولة من الروم ، وبين الفريقين نفور شديد لتباين فى المذهب والاعتقاد أدى إلى العداوة وهى العداوة المذهبية التى ابتلى به كل أرباب الأدبان ، فلما فتح عمرو مصر أطلق القبط من أسر الضيم الذى عانوه

على عهد الدولة الرومانية ، وكان أول ما بدأ به بعد أن استقرت له الأمور أن كتب أما نا إلى البطريق بنيامين بطريك الإسكندرية وردده إلى كرسيه بعد أن تغيب عنه ١٣ سنة منها عشر سنين على عهد استيلاء الفرس على مصر . ومنها ثلاث سنين بعد رجوع سلطة الإمبراطور هرقل إليها ، فسر ذلك العمل البطريق وشكره عليه كما ذكر ذلك المقرئ . وهذا من جملة السياسة النافعة التي اشتهرت عن عمرو .

وقد ذكر هذا الخبر أيضا جبون في تاريخه ، وقال إن البطريق بنيامين كان يثني على عمرو بن العاص وبقدر عمله قدره .

ولا جرم أن وجود البطريق بعيداً عن كرسيه مدة ١٣ سنة ، ثم عوده إليه على عهد الحكومة الإسلامية يوجد في نفسه ونفس القبط ثقة كبرى بالمسلمين ، ونحن لا نشك بأنه إذا كان هناك يد لأحد بمساعدة عمرو على فتح مصر ، فإنما هي لذلك البطريق ، يدلك عليه ما نقلناه عن بعض مؤرخي العرب عند الكلام على فتح الفرمان قوطهم لأنه كان بالإسكندرية أسقف اسمه أبو ميامين ، كتب إلى القبط يعلمهم بقرب زوال ملك الروم ويأمرهم بتلقى عمرو حتى كان قبط الفرمان أعوانا لعمرو . وإنما اشتبه على العرب الاسم فاخطئوا في نقل الحكاية ، والذي يظهر أن الذي كتب ما كتب هو البطريق بنيامين ، وأنه كتب من منفاه في منف لامن الإسكندرية ، والقراءن كما تدل على أن له يداً في مساعدة العرب ، وإنما ض القبط لتمعنيدهم فإن جبون ذكر أن عمرو لما فتح مصر سر القبط الذين هم على مذهب اليعاقبة سرورا عظيما ، وأخذوا من ثم يخطبون باسم مذهبهم على المنابر مع أنه قال إن أهل المذهب المملكي وهو مذهب الدولة كانوا نحو عشر السكان ، فهذا يدل على أن هذا العشر كان مضطهداً لبقية السكان حتى ما كانوا يستطيعون الدعاء باسم مذهبهم والجهر به ، وإن قوما هذا شأنهم مع

حكومتهم لجديرون بممالة المسلمين ، لاسيما مع علمهم بأن الحكم الإسلامى مؤسس على إطلاق حرية الأديان ، وأن المسلمين لا يتعرضون لأهل البلاد المفتوحة فى عوائدهم ودينهم بشئ البتة .

وبالجملة فقد كانت إمارة عمرو على مصر من أبرك الإمارات وأرغبها للقبض وغيرهم ، ولم تقف به همته السماء ونفسه العالية عند الغناء بفتح ملبكة الفراغنة ، بل طمح إلى ما هو أبعد غاية وهى بلاد المغرب ليبسط جناح الإسلام على كل أفريقيا الشمالية فتقدم بجيشه سنة (٥٢١ هـ) يخترق الصحراء حتى بلغ برقة فافتتحها وافتتح فرصتها بنغازى ، ثم طرابلس الغرب ، ولما عزم على التوجه منها إلى أفريقيا (تونس) فالجزائر ثم الغرب الأقصى ، جاءه كتاب أمير المؤمنين عمر (رضى الله عنه) ينهاه فيه عن التغيير بنفسه وبالمسلمين ويأمره بالوقوف عند ذلك الحد كما مرّ الخبر عن ذلك فى سيرة عمر ، فعاد مكرها بعد أن استخلف على البلاد بطل أفريقيا عقبة بن نافع الفهري القرشى الذى صار إليه بعد ذلك فتح المغرب .

ولقد والله يحار عقل الحكيم فى إقدام أولئك الفاتحين وجراتهم على التغلغل والإيمان فى أقاصى الممالك بعددهم القليل وعدتهم الضعيفة ، حتى افتتحوا فى ثلاثين سنة ما لم يفتحه غيرهم فى أجيال ، ومهما بحث العاقل عن علة هذا التوفيق الغريب لا يجده إلا حسن السيرة والسير مع الأمم المغلوبة على نهج الحق والعدل . وإن فى هذا لتبصرة وذكرى للعاقلين .

ولايته على مصر

آثاره فيها وأخباره مع عمر وما كان من المكاتبات بينهما

قلنا إن عمرو بن العاص تحول إلى الفسطاط بعد فتح الإسكندرية وسبب تحوله أنه لما فتح الإسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغا منها ، هم أن

يسكنها وقال : مسا كن قد كفيناها : فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك فسأل عمر الرسول : هل يحول بيني وبين المسلمين ماء : قال نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل : فكتب إلى عمرو إلى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف : فتحول عمرو إلى الفسطاط ولم يكن فسطاطاً بل كان أرضاً فيها بعض جنان مما يلي بابلون إلى الجهة الشمالية وبعض كنائس للنصارى ، وقيل في تسميته الفسطاط إن عمراً لما أراد التوجه إلى الإسكندرية لقتال الروم أمر بنزع فسطاطه فإذا فيه يمام قد فرخ ، فقال عمرو : لقد تحرم منا بمتحرم : فأمر به فأقر وأوصى به صاحب القصر . فلما قفل المسلمون من الإسكندرية قالوا : أين تنزل . قالوا الفسطاط : لفسطاط عمرو الذي كان خلفه وقيل سمي فسطاط عمرو : أي مدينة عمرو : لأن الفسطاط لغة هو المدينة ولعله هو الصواب .

لما تحول عمرو إلى الفسطاط ورأى تنافس القبائل على المواضع أمر بتخطيط مدينة هي مدينة الفسطاط التي هي من آثاره العظيمة في هذا القطر ، لأن اختط عاصمة جديدة لمصر على الضفة النيل الشرقية تقابل منف^(١) على الضفة الغربية ، فأصبحت حاضرة البلاد المصرية ، ولم تزل كذلك بعد بناء القاهرة إلى الآن . ولما عزم عمرو على تخطيط الفسطاط ولى على الخطط (وهي الحارات) معاوية بن خديج التجيبي ، وشريك بن سمى الغطيفي ، وعمرو بن قحزم الخولاني ، وحيويل بن ناشرة المغافري ، فاخطوا لكل قبيلة خطة . واخطوا مكان الجامع المعروف إلى الآن بجامع عمرو إذ كتب عمر إلى عمرو بن العاص بذلك كما كتب لكل الأمراء يأمرهم أن يبنوا في كل مدينة مسجداً جامعاً ولا يتخذ القبائل كل قبيلة مسجداً .

(١) لا تقابلها تماماً بل منف كانت إلى جهة الجنوب عن سمت الفسطاط جهة دمشور وسفارة الآن .

وجعلوا ذرع المسجد خمسين ذراعاً في عرض خمسين ، وجعلوا سقفه مطاطاً جداً ، واتخذ عمرو فيه منبراً من أعواد ، فكتب إليه عمر يهزم عليه في كسره ويقول . أما بحسبك أن تقوم قائماً والمسلمون جلوس تحت عقيبك ؟ فكسره : ولم تسكن الجزية تقام في زمن عمرو بن العاص بشيء من أرض مصر إلا بهذا الجامع .

ثم إن المسجد ضاق بالمصلين بعد في ولاية مسلمة بن مخلد ، فاستأذن معاوية في الزيادة فيه ، فأذن له بذلك فزاد به وطلاه بالنورة وزخرف سقفه . وأمر معاوية ببناء الصوامع (المنائر) للأذان ، فبنى مسلمة فيه أربع صوامع وفرشه بالحصر وكان مفروشا بالحصباء : ثم هدمه عبد العزيز بن مروان في سنة تسع وسبعين من الهجرة ، وهو يومئذ أمير مصر من قبل أخيه عبد الملك ، وزاد فيه من ناحية الغرب وأدخل فيه الرحبة التي كانت بحريه ، ولم يجد في شرفيه موضعاً بوسعه ، ثم هدم في زمن قرعة بن شريك في خلافة الوليد وزيد فيه وغير وبدل، وهكذا كان يتعاوره الخلفاء والأمراء بالإصلاح حتى اختطت القاهرة وكثرت الجوامع والمساجد ، وقل ساكنو القسطنطينية فترك الجامع وهو لم يزل إلى الآن متروكا ويحتفل بالصلاة فيه آخر جمعة من رمضان ، لكنه في حالة لا ترضى أبداً . ولو كان المصريون ممن يعنيه حفظ آثار الرجال لجعلوا هذا الجامع من أحسن جوامع مصر ، لإحياء لذكر صاحبه وتخليداً لذكر الفتح .

وأما تقسيم الخطط وترتيبها بالقسطنطينية لما خطط في زمن عمرو قال كلام عليه يطول ، وهو مبسوط في كتاب الخطط للمقريزي فليراجعه من أحب . ومن آثاره المشكورة في مصر حفر الخليج المعروف بخليج أمير المؤمنين وعرف بعد بخليج القاهرة ، الذي كان يمتد من القسطنطينية إلى السويس وكان الصلة العظمى بين مصر والبحر الأحمر والهند ، والخليج قديم جداً

قبل الإسلام إلا أنه طم وتعلل قبل الفتح ، فحفره عمرو بن العاص وكان سبب حفره على ما نقل المقرئ عن ابن الحكم بروايته عن الليث بن سعد قال : إن الناس بالمدينة أصلبهم جهد شديد في خلافة عمر عام الرمادة . فكتب إلى عمرو بن العاص وهو بمصر .

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي ابن العاصي : سلام أما بعد فلعمرى يا عمرو ما تبالي إذا شجعت أنت ومن معك من أهلك ، أن أهلك أنا ومن معي فيا غوثاه ثم يا غوثاه :

(فكتب إليه عمرو) من عبد الله عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين . أما بعد . يا لبيك ثم يا لبيك قد بعثت إليك بعير أوطأ عندك وآخرها عندي والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

فبعث إليه بعير (قافلة) عظيمة فكان أوطأ بالمدينة وآخرها بمصر يتبع بعضها بعضاً . فلما قدمت على عمر وسع بها على الناس ، ودفع إلى كل أهل بيت بالمدينة وما حوطها بعيراً بما عليه من الطعام ، وبعث عبد الرحمن ابن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص يقسمونها على الناس ، فدفعوا إلى أهل كل بيت بعيراً بما عليه من الطعام ، لياكلوا الطعام ويأتمدوا بأحماه ويحتذوا بجلده ، وينتفعوا بالوعاء الذي كان فيه الطعام فيما أرادوا من لحاف أو غيره ، فوسع الله بذلك على الناس ، فلما رأى ذلك عمر رضى الله عنه حمد الله وكتب إلى عمرو أن يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر معه فقدموا عليه . فقال عمر يا عمرو إن الله قد فتح على المسلمين مصر وهي كثيرة الخير والطعام ، وقد ألقى في روعي لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين التوسعة عليهم حين فتح الله مصر ، وجعلها قوة لهم وجميع المسلمين أن أحضر خليجاً من نيلها حتى يسيل في البحر فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة ، فإن حملة على الظهر يبعد ولا نبلغ به ما نريد : فانطلق أنت

وأصحابك فتشاوروا في ذلك حتى يعتدل فيه رأيكم : فانطلق عمرو فأخبر من كان معه من أهل مصر ، فبقل ذلك عليهم وقالوا نتخوف أن يدخل من هذا ضرر على مصر ، فنرى أن تعظم ذلك على أمير المؤمنين وتقول له إن هذا أمر لا يعتدل ولا يكون ولا نجد لآليه سبيلا : فرجع عمرو بذلك إلى عمر فضحك عمر رضى الله عنه حين رآه وقال : والذي نفسى بيده (كأنى أنظر إليك يا عمرو وإلى أصحابك حين أخبرتهم بما أمرنا به من حفر الخليج فنقل ذلك عليهم ، وقالوا يدخل من هذا ضرر على أهل مصر فنرى أن تعظم ذلك على أمير المؤمنين وتقول له إن هذا أمر لا يعتدل ولا يكون ولا نجد له سبيلا : فعجب عمرو من قول عمر وقال : صدقت والله يا أمير المؤمنين لقد كان الأمر على ما ذكرت : فقال عمر (رضى الله عنه) انطلق بهزيمة منى حتى تجد في ذلك ولا يأتى عليك الحول حتى تفرع منه إن شاء الله تعالى : فانصرف عمرو وجمع لذلك من الفعلة ما بلغ منه ما أراد ، ثم احتفر الخليج في حاشية الفسطاط الذى يقال له خليج أمير المؤمنين فساقه من النيل إلى القلزم (السويس) فلم يأت الحول حتى جرت فيه السفن فحمل فيه ما أراد من الطعام إلى المدينة ومكة ، فنفع الله بذلك أهل الحرمين وسمى خليج أمير المؤمنين : ثم لم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه عمر بن عبدالعزيز ، ثم ضيعه الولاية بعد ذلك فترك وغلب عليه الرمل فانقطع ، فصار منتهاه إلى ذنب التمساح من ناحية بطحاء القلزم : انتهت رواية ابن عبد الحكم .

وقد أجهزت الحكومة المصرية على الباقي منه لهذا العهد فأمرت بعلمه من عشرات السنين ، وأصبح الجزء الذى يخترق القاهرة شارعاً مد عليه خط الترامواى ودعى بخط الخليج .

وجاء فى سبب حفر هذا الخليج روايات أخرى ، منها ما ذكره أبو الفداء أن عمرو بن العاص أشار على عمر بفتح خليج البرزخ ، وهو الذى يصل

بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط فأبى عليه عمر ففتحته خوفاً من وصول الروم إلى البحر الأحمر ، ويقال إن خليج البرزخ هذا كان موجوداً في عهد البطالسة وأن أثره كان باقياً لعهد عمرو بن العاص ، لهذا أشار على عمر بفتحته فكان رأى عمر أن لا يفتح ونعم ذلك رأى فإن فتح خليج السويس كان من أشد الآفات على ممالك الشرق ، وفي الخطط التوفيقية كلام مشبع عن هذا الخليج والخليج الذى يقال إنه كان من قبل فليرجع إليه من أحب .

وقد كان عند المصريين عادة قديمة وهى أنهم كانوا يحتفلون بزيادة النيل احتفالاً عظيماً يسمى جبر البحر ، ويسمى الآن فتح الخليج وكانوا يعملون هذا الاحتفال عند وفاء النيل ، فكانت من عوائدهم التقيحة فيه أن يلقوا فيه كل سنة بفتاً من الأبقار بعد أن يزينوها بالحلى والحلل زعماء منهم أنه لا يفى لهم إلا بهذه الضحية : ويقال إن الإمبراطور قسطنطين أبطل هذه العادة فى عصره لكن المصريين عادوا إليها ، بدليل أن مؤرخى العرب ذكروا أنها كانت موجودة حين دخول عمرو بن العاص إلى مصر فأبطلها هذا بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

وتحرير الخبر على ما نقله المقرئ عن ابن عبد الحكم أن عمر أُلحى ففتح مصر أتى أهلها إليه حين دخل بؤنة من أشهر القبط ، فقالوا له أيها الأمير إن لنبينا هذا سنة لا يجرى إلا بها ، فقال لهم وما ذلك : قالوا إنه إذا كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها فى النيل : فقال لهم عمرو : إن هذا لا يكون فى الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله .

فأقاموا بؤنة وأيب ومسرى وتوت وهو لا يجرى قليلاً ولا كثيراً حتى هموا بالجلأ ، فلما رأى عمرو ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك :

فكتب إليه عمر أن قد أصبحت إن الإسلام يهدم ما كان قبله، وقد بعثت إليك بطاقة فألقها في النيل إذا أنك كتبتني .

فلما قدم الكتاب إلى عمرو فتح البطاقة فإذا فيها (من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر : أما بعد فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك) فألقى عمرو البطاقة في النيل قبل الصليب بيوم وقد تها أهل مصر للجلاء والخروج منها ، لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل ، فأصبحوا يوم الصليب ، وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعاً وقطع السنة السيئة عن مصر (١) :

وكان القبط يزعمون أن النيل لا يزيد إلا إذا احتفلوا له بعيد يسمونه عيد الشهيد ، وطعم تابوت يضعون فيه أصابعاً من أصابع أسلافهم الموتي في اليوم الثامن من شهر بشنس أحد الشهور القبطية فيلقونه في النيل ، فأبطل ذلك العيد الأمير بيبرس الجاشنكير لما كان يقع فيه من الفتن والانغماس في الفجور ، ذكر ذلك صاحب الخطط التوفيقية وقال أظن أن هذا العيد هو العادة التي أبطلها عمرو بن العاص : أي هذا العيد تخلف عن تلك العادة .

والذي أدركناه لهذا العهد أن البنت قد استبدل بها صورة مهنوعة من طين ، تلقى في البحر يوم الاحتفال بفتح الخليج تسمى عروسة النيل ، وهذا يدل على صعوبة اقتلاع جذور العوائد القديمة من نفوس البشر لاسيما العوائد الوثنية - التي تمسرت إلى أرباب الأديان الإلهية مع شدة تكبير هذه الأديان على أهل تلك العوائد .

(١) في هذه الحكاية بحث ونظر راجع تحقيقه في المجلد الثاني من مجلة المنار (ص ٥٥٠).

ومن آثاره الجميلة مدة ولايته على مصر توزيع الجباية بالعدل وقسمتها إلى ثلاثة أقسام ، قسم لترميم الجسور وحفر الترعة ، وما يلزم لعمران البلاد وقسم لأعطيات الجنود ، والباقي يرسله إلى الخليفة وقد كانت الجباية قبله على عهد المقوقس تبلغ عشرين مليون دينار كما رواه المقرئى فجباها اثني عشر مليوناً ، كما تقدم الخبر عن ذلك وعن الخلاف فيه ، ولما رتب الجباية استشار المقوقس فيما كان يفعله وقال له : أنت وليت مصر فبكم تكون عمارتها : فقال بمخصال - تخفر خلجانها وتسد جسورها وترعها ، ولا يؤخذ خراجها إلا من غلتها ولا يقبل مظل أهلها ، ويوفى لهم بالشروط ويدبر الأرزاق على العمال لئلا يرتشوا وترفع عن أهلها المعاونة والهدايا ، فبذلك تعمرو ويرجى خراجها : فعمل بذلك وكان يخفف الجباية في السنين التي لا يفي فيها النيل وربما كسرها وذلك للعهد الذي كتبه للمصريين ونصه كما رواه الطبري : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر ، من الأمان على أنفسهم ودمهم وأموالهم وكافتهم وصاعهم ومدمهم وعددهم ، لا يزيد شيء في ذلك ولا ينقص ولا يساكنهم النوب : وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف (كذا) وعليه من جنى نصرتهم ، فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزى بقدرهم وذمتنا من أبى بريئة وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ، ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله ما لهم وعليه ما عليهم ، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ويخرج من سلطاننا ، وعليهم ما عليهم أثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم : على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذم المؤمنين : وعلى النوبة الذين استجابوا كذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً على أن لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة : شهد الربيع وعبد الله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر هذا الكتاب فلان . . . اهـ

فدخل أهل مصر في هذا الصلح جميعهم ، وعليه مشى عمرو بن العاص في تقسيم الجباية ومراعاة حال النيل في الزيادة والنقص ، وربما اضطر أحياناً إلى كسر الخراج ، فكان عمر يظن فيه الظنون ، ولما استبطأه مرة في الخراج كتب إليه ما نصه :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو ابن العاص : سلام الله عليك : أما بعد فإنني فكرت في أمرك والذي أنت عليه فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة ، وقد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً وقوة في بر وبحر ، ولما قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملاً محكماً مع شدة عتوهم وكفرهم ، فمعجت من ذلك وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جذب ، واقد أكثر في مكاتبتك في الذي على أرضك من الخراج وظننت أن ذلك سيأتينا على غير نزر (قلة) ، ورجوت أن تفيق فترفع إلى ذلك : فإذا أنت تأتني بماريض تعباً بها لا توافق الذي في نفسي : لست قابلاً منك دون الذي كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك . ولست أدري مع ذلك ما الذي نفرك من كتابي وقبضك ، فلئن كنت مجرباً كافياً صحيحاً إن البراءة لنافعة . وإن كنت مضيقاً نطعاً إن الأمر لعل غير ما تحدث به نفسك . وقد تركت أن أبتي ذلك منك في العام الماضي رجاء أن تفيق فترفع إلى ذلك ، وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك إلا أن عمالك عمال سوء ، وما توالس عليك وتلفف اتخذوك كهفاً . وعندى يا ذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه ، فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه . فإن النهر يخرج الدر والحق أبلج ، ودعني وما عنه تلجلج ، فإنه قد برح الخفاء والسلام (١) .

(١) « تفسير الألفاظ القرآنية الواردة في هذا الكتاب » قوله تأتني بماريض تعباً بها . المعاريض هي التورية بالشيء عن الشيء وتعباً بها أي قطنها ما يعبأ به أي يهتم له وهي لاشيء عندي —

فكتب إليه عمرو بن العاص :

((بسم الله الرحمن الرحيم)) لعبد الله أمير المؤمنين من عمرو بن العاص ،
سلام الله عليك ، فإنني أحمد الله الذي لا إله إلا هو : أما بعد فقد بلغني كتاب
أمير المؤمنين في الذي استبطن في فيه من الخراج ، والذي ذكر فيه من عمل
الفراسة قبلي ولعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك مذ كان الإسلام ،
ولعمري للخراج يومئذ أوفر وأكثر والأرض أعمر . لأنهم كانوا على
كفرهم وعتوهم أرغب في عارة أرضهم منا مذ كان الإسلام . وذكرت أن
النهر يخرج الدر فحلبتها حلباً قطع درهما . وأكثر في كتابك وأنبئت
وعرضت وترت ، وعلمت أن ذلك عن شيء تخفيه على غير خبر ، فجئت لعمري
بالمقطعات المقدمات . ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رهين
صامم بليغ صادق . ولقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده
فكننا نحمد الله مؤدين لآمانتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا . نرى
غير ذلك قبيحاً والعمل به شياً ، فتعرف ذلك لنا وتصدق فيه قلبنا ، معاذ
الله من تلك الطعم ، ومن شر الشيم ، والاجترأ على كل مأثم ، فأمرض عملك
فإن الله قد نزهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها ، بعد كتابك الذي
لم تستبق فيه عرضاً ، ولم تكرم فيه أخاً ، والله يا بن الخطاب لا أنا حين يراد
ذلك مني أشد غضباً لنفسي ولها لإنزائها وإكراماً . وما عملت من عمل أرى
عليه فيه متعلقاً . ولاكني حفظت ما لم تحفظ . ولو كنت من يهود يثرب
ما زدت ، يغفر الله لك ولنا ، وسكت عن أشياء كنت عالماً بها . وكان اللسان
بها مني ذلولاً . ولاكن الله عظيم من حقه ما لا يحمل اهـ

== وقوله وإن كنت مضياً نعلماً ، النطق المنشد بالكلام ، وقوله إن ابني ذلك منك أي
امتحن . وقوله توالس وتلقف بمعنى واحد . وقوله الحق أبلغ أي مضى . مدمرق لا يخفيه
النمويه ، وما عت تلجلج التلجلج التردد في الكلام . وقوله برح الحفاء برح زال وانكشف .

فكتب إليه عمر رضى الله عنه :

من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص . سلام إليك ، فإنى أحمد
إليك الله الذى لا إله إلا هو : أما بعد فإنى قد عجبت من كثرة كتبى إليك
فى إبطائك بالخراج وكتابك إلى بشنيات الطرق ، وقد علمت أنى لست
أرضى منك إلا بالحق البين لما رجوت من توفير الخراج وحسن سياستك .
فإذا أتاك كتابى هذا فاحل الخراج فإنما هو فى المسلمين . وعندى ما قد تعلم
قوم محصورون والسلام

فكتب إليه عمرو بن العاص :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص
سلام . . . أما بعد فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطن فى الخراج ،
ويزعم أنى أحيد عن الحق وأنكث عن الطريق . وإنى والله ما أرغب عن
صالح ما تعلم ، وإن أهل الأرض استنظرونى إلى أن تدرك غلاتهم فنظرت
للمسلمين ، فمكان الرفق بهم خيراً من أن نخرق (الخرق ضد الرفق) بهم
فيصيروا إلى بيع ما لا غنى بهم عنه والسلام

فقال إن عمر رضى الله عنه كتب إليه أن ابعث إلى رجلاً قديماً من
القبطة . فاستخبره عمر رضى الله عنه عن مصر وخراجها قبل الإسلام .
فقال يا أمير المؤمنين كان لا يؤخذ منها شيء إلا بعد عمارتها وعاملها لا ينظر
إلى العماره وإنما يأخذ ما ظهر له كأنه لا يريد لها إلا لعام واحد :

فعرف عمر ما قال القبطى وعلم منه جلية الأمر فقبل من عمرو ما كان
يعتذر به .

ولا يتبادرن إلى ذهن القارىء أن إلحاح عمر رضى الله عنه على عمرو
بأمر الخراج يريد به لإجهاد القبط أو التوصل إلى الخراج كيف ما كان الحال ،

معاذ الله أن يخطر هذا لعمر بن الخطاب في بال ، وإنما هو استبطاً الخراج مع عدم وقوفه على حاجة البلاد وعليه بطمع عمرو ، فكتب إليه ما كتب وإلا فإنه رضى الله عنه كان من أشد الخلفاء حرصاً على الرعية ، وقياماً على العمران ، ومحافظة على اليهود ، وخصوصاً مع القبط الذين استوصى بهم النبي صلى الله عليه وسلم . وإليك ما كتبه عمر أمير المؤمنين إلى عمرو ابن العاص يستوصيه بالقبط ، ويأمره بأن يأخذ من الخراج ما يحتاج إليه مما لا بد منه لإصلاح البلاد ، ويأخذ لنفسه عطاءه ويعطى الأعطيات لأربابها وما يفيض يرسله إليه وأن لا يأخذ الخراج إلا من حقه ، وهذا نص الكتاب كما أخرجه ابن سعد عن موسى بن جبير عن شيوخ من أهل المدينة قالوا : كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص :

أما بعد : فإنى فرضت لمن قبلى فى الديوان (أى فرض العطاء) ولمن ورد علينا فى المدينة من أهل المدينة وغيرهم من توجه إليك وإلى البلدان . فانظر من فرضت له ونزل بك فاردد عليه العطاء وعلى ذريته ، ومن نزل بك ممن لم أفرض له فافرض له على نحو مما رأيتنى فرضت لأشباهه ، وخذ لنفسك مائتى دينار ^(١) . فهذه فرائض أهل بدر من المهاجرين والأنصار . ولم أبلغ بهذا أحداً من نظرائك غيرك لأنك من عمال المسلمين فألحفك بأرفع ذلك ،

(١) لعل هذا الفرض الذى فرضه لعمر هو جريته (مرتبة) على عمله لفرض العطاء لاذ أن عمر (رضى الله عنه) كان يجرى على العمال جريته هى غير نصيبهم من العطاء ، فقد ذكر فى سراج الملوك أن عمر أجرى على عمار فى كل شهر ستائة درهم مع عطائه لولائه وكتابته ومؤذنيه ، ومن كان يلى معه لما بعثه وبث معه عثمان بن حنيف وابن مسعود إلى العراق ، وأجرى عليه كل يوم نصف شاه وأرسلها وجلدها وأكارعها ، ونصف جريب كل يوم وأجرى على عثمان بن حنيف ربع شاه وخمسة دراهم كل يوم مع عطائه (وكان عطائه خمسة آلاف درهم) وأجرى على عبد الله بن مسعود مائة درهم فى كل شهر ، وربع شاه فى كل يوم وأجرى على شريح القاضي مائة درهم فى كل شهر وعشرة أجرة . ومن هذا يعلم أن عماله كان لهم جريات على هذه النسبة وهى غير العطاء كما يتضح ذلك من قوله (مع عطائه) وإنما نبهنا على هذا الأمر هنا لأهميته ولأنه فائتاً ذكره والتنبيه إليه فى سيره عمر رضى الله عنه .

وقد علمت أن مؤنا تلزمك فوفر الخراج وخذه من حقه ، ثم عف عنه بعد جمعه ، فإذا حصل إليك وجمعه أخرجت عطاء المسلمين وما يحتاج إليه بما لا بد منه . ثم انظر فيما فضل بعد ذلك فاحمله إلى . واعلم أن ما قبلك من أرض مصر ليس فيها خمس وإنما هي أرض صلح (١) وما فيها المسلمين في : تبدأ بمن أغنى عنهم في ثغورهم (أى المرابطين) وأجزأ (أفضى) عنهم في أعمالهم ثم أفضى ما فضل بعد ذلك على من سمي الله (أى في القرآن) .

واعلم يا عمرو أن الله يراك ويرى عملك ، فإنه قال تبارك وتعالى في كتابه « واجعلنا للمتقين إماماً » يريد أن يقتدى به . وإن معك أهل ذمة وعهد ، وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وأوصى بالقبض فقال « استوصوا بالقبض خيراً فإن لهم ذمة ورحماً » ورحمهم أن أم إسماعيل منهم . وقد قال صلى الله عليه وسلم « من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقتة فأنا خصمه يوم القيامة » احذر يا عمرو أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم لك خصماً فإنه من خصمه خصمه . والله يا عمرو لقد ابتليت بولاية هذه الأمة وآنت من نفسى ضعفاً ، وانتشرت رعيتى ورق عظمى فأسال الله أن يقبضنى إليه غير مفرط . والله إنى لأخشى لو مات جمل بأقصى عملك ضياعاً أن أسأل عنه اه .

لو لم يكن لعمر إلا هذا الكتاب لكفاه فضيلة في نفسه وفضلاً على رعيته ، فكيف وكل أعماله شهادة على تفرد بالعدل وحسن السيرة في الرعية ، ومضاء الفكر في السياسة وشدة الأخذ على أيدي العمال

(١) قوله ليس فيها خمس وإنما هي أرض صلح . يدل على أن مصر فتحت صلحاً وأن ما فتح عنوة أجرى بعد ذلك . مجرى الصلح الذى دخل فيه كل القبط للعهد الذى أخذه لهم المقوقس وهذا يؤيد ما جاء في كتاب العهد الذى مر معنا ذكره وأن عمر وعمر بن العاص حفظا للمقوقس العهد وأجزياء له بعد تمام الفتح .

واليقظة في الأمور جليلها وحقيرها فرضى الله عنه وجزاه عن المسلمين
خير الجزاء .

كلمة: ثانية في أهل الزمة :

هذا الكتاب يمثل لنا سيرة عمر بن الخطاب مع أهل الزمة ويبين شدته
على العمال في منعهم عن إيذاء أهل الكتاب اقتداء برسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وعمالا بأمره ومن تكون هذه سيرته مع أهل الزمة أفيحقل أن يريد
بهم أذى بقول أو فعل ؟ كلا إن العقل والبديهة يرفضان نسبة أى قول أو فعل
إليه يشتم منه ولو رائحة الجفاء فضلا عن ائتمان الذمى أو ظلمه .

وإذ علم هذا فالذى يدعو إلى العجب هو غفلة نقلة الأخبار ورواها عن
مقاصد عمر رضى الله عنه ، التى هى مقاصد الشرع الإسلامى الذى جاء
للتأليف بين القلوب وعدم استحيائهم من جميع المتناقضات من الأخبار ،
ونقلهم الموضوعات منها بلا تمحيص لصحيتها من كاذبها وبدون تروى في
النافع والضار منها .

كتبنا فى منتصف هذا الكتاب فصلا عن أهل الزمة نقلنا فيه رواية لابن الجوزى
فى أن عمر تقدم إلى أحد عماله بختم رقاب أهل الزمة بالرصاص^(١) وأبناءمة
وجه الضعف فى هذا الخبر ، وعجبنا من مثل ابن الجوزى كيف ينقل مثل
ذلك الخبر مع أنه ليس فى الدرجة التى تؤلم النفس ، إذ لو صح لخل على قصد
سياسى أو إدارى على تعبير المتأخرين ، يراد به ضبط إحصاء أهل الجزية
من الذميين لا ائتمانهم اقتداء بالدول الفاتحة قبل الإسلام كالرومان والفرس
الذين ثبت أنهم كانوا يضربون على الرعية الجزية ، وربما كانت هذه العادة

(١) المراد بختم رقاب أهل الزمة بالرصاص هو حمل طوق فيه علامة من الرصاص كما

فى بعض التواريخ .

متبعة عندهم في إحصاء أهل الجزية ، وقد زاد عجبتنا أضعافاً إذ رأينا هذا الخبر في المخطوط نقله صاحبها المقرئ عن ابن عبد الحكم بزيادة أحرارها أن تكون محض افتراء على عمر بن الخطاب رضى الله عنه وإذ قلنا بوهن الرواية الأولى في جانب العقل وهى لأحد حفاظ الحديث ، فما أحرارنا بتكذيب الرواية الثانية . وإليكها بنصها مع الزيادة التى أوردتها المقرئ قال :

كان عمرو بن العاص يبعث إلى عمر بالجزية بعد حبس ما كان يحتاج إليه ، وكانت فريضة مصر لحفر خليجها وإقامة جسورها وبناء قناطرها وقطع جزائرهما مائة ألف وعشرين ألفاً (أى من العمال) ، معهم الظور والمساحى والأداة يعتقبون ذلك لا يدعون ذلك صيفاً ولا شتاء . ثم كتب إليه عمر أن تحتم في رقاب أهل الذمة بالرصاص ، ويظهروا مناطقهم ويجزوا نواصبيهم ويركبوا على الأكف (جمع أكاف وهو البردعة) عرساً ، ولا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليه المواسى ، ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان ولا يتشبهوا بالمسلمين .

فانظر أيها العاقل إلى هذا الكتاب وقابله بكتاب عمر الذى يوصى فيه عمرو بن العاص بأهل الذمة هل تجد بينهما التاماً بالوجهة ؟ أم بينهما من البون البعيد ما بين الحق والباطل . وقد أوضحنا من قبل ضعف أمثال هذه الأخبار بما فيه الكفاية ، ولما عدنا إليها الآن لآمر ظهر لنا بعد البحث والروية : وهو أن واضع هذه الأخبار إنما ألجأهم لوضعها أمران :

الأمر الأول أن الشئون الإدارية وأهمها دواوين الخراج كانت تناط في أكثر الأوقات بأهل الذمة ، بل استمرت تسكتب بلغتهم أيضاً إلى عهد عبد الملك بن مروان ، فكانوا يستطيعون أحياناً على رجال الدولة وأهل المسكنة ، وربما تخرج منهم أحياناً بعض الفقهاء ، فوضعوا لهم أمثال تلك الأخبار تنقيصاً لهم وخطاً من مكاتبتهم عند الخلفاء والملوك ، ولإبعادهم عن مناصب الدولة ولما ألجأهم إلى نسبة هذه الأخبار إلى عمر كونه كان

رضى الله عنه قدوة فيما لم يرد بخصوصه شيء في الشرع ، وهذا بلا ريب يعد من أولئك الوضاعين تناهيا في ضعف الرأي لا سيما إذا علموا بأحوال أهل التقى والعدل من الخلفاء ، ومعاملتهم الجميلة لأهل الذمة كعمر بن عبد العزيز ومن حذا في ذلك حذوه من الخلفاء ، وبالأخص الخلفاء من بني العباس الذين كان أكثرهم متفقه في الدين واقفاً على أخبار السلف كالمنصور والمهدى والرشيد والمأمون وأمثالهم ممن أتى بعدهم ، فكانوا يؤسدون كثيراً من شئون الدولة إلى أهل الذمة ويقربونهم منهم لا سيما الأطباء والكتّاب بلا أدنى تخرج في الدين ، وأى حرج في الدين يمنع من محاسبة الذميين وعدم إيدائهم بمثل ذلك الامتحان المشين من كلام الوضاعين ، ومن وقف على أخبار ماسويه وحنين بن إسحق وأضرابهما مع المأمون والمتوكل يعلم هذا . وكذلك كان حالهم مع خلفاء الفاطميين في مصر فكان القبط أرباب الحكمة العليا عند الخلفاء وكانوا كما نقل المقرئ يَتَوَلَّون دواوين الخراج ، ويركبون البغال الفارهة ، ويتصرفون بأموال الدولة بل بلغ بالخلفاء أن كانوا يعطون ألقاب التشريف الخاصة بالعلماء والملوك وهي الألقاب المضافة إلى الدين للأطباء والكتّبة من النصارى واليهود ، وما ذكره من هؤلاء (الشيخ موفق الدين بن البورى الكاتب النصراني) والحكيم (موفق الدين بن المطران) وغيرهما ممن لم تحضرني أسماؤهم الآن :

هذا هو السبب الأول . وأما السبب الثاني لوضع تلك الأخبار فنشؤه نزوع بعض الأمراء إلى إجهاد الرعية من مسلمين وذميين بالضررائب ونكث عهود هؤلاء القديمة ، ولما يروا ، في الشريعة مخرجاً لهم يتوصلون به إلى الاستبداد بالرعية وتحميل الذمى فوق ما حدده الشرع من الخراج والجزية ، كما حملوا المسلم لا سيما والأخبار النبوية آمرة بالوفاء معهم بالعهد والمحافظة على ما لهم من حقوق الذمة والجوار ، وأنهم أهل ذمة الله وذمة رسوله — مهدوا لأغراضهم السبيل بالإيعاز إلى بعض مقربيهم بوضع مثل ذلك الخبر

مقدمة لاستباحة امتنانهم ثم لإجهادهم بالضرائب ، يدلك ما عليه حدث في عهد الروانيين من الاجترار على استزادة الخراج والجزية في مصر وغيرها من غير حقها ، كما ستراه مبسوطاً في محله إن شاء الله .

على أن سيرة الصحابة ورجال الفتح في الصدر الأول مع أهل الذمة وحدها كافية لدحض أمثال تلك الأقوال الواهية ، حتى إنهم افتتحوا بحسن السيرة وجميل المجاورة والمعاملة ما لا يقوى عليه الحسام ، ويخرج عن طوق عددهم القليل بالنسبة لبقية الأقاليم^(١) وحسبك من أدبهم مع أهل الذمة من الكتائب أن ما روى عنهم من أخبار الحروب مع الروم لم يستعملوا فيه لفظ الكافرين والمشركين البتة مع أنهم كانوا يعبرون عن مجوس الفرس ووثني العرب قبل الإسلام بالمشركين ويقولون عن أولئك : الروم . والقبط مثلاً كانوا الروم . وقال القبط ونحوه . يؤيد هذا كتب التاريخ التي نقلت إلينا أخبار الفتح بالرواية كالطبري وأشباهه ، ولو فرض وجود شيء من تلك الألفاظ فيها فإنه نزر يسير وهو من حشو النساخ ، وأما كتب

(١) قد كان المسلمون كلهم كعمر من حيث العمل بمراعاة أهل الذمة ولزوم وتجنب إيذائهم بالقول أو الفعل خصوصاً عماله ، يدلك عليه ما ذكره في سراج الملوك في حكاية طويلة لا محل لذكره هنا ، وخلصتها أن عمير بن سعد عامل عمر على حمص وفد عليه مرة فسأله عن أشياء ثم قال له عد لي عمالك ، فقال عمير أشدك الله أن لا تردني إلى عملي ، فإني لم أسلم منه حتى قاتلته : أخزأك الله . ولقد خشيت أن يخصمني له محمد صلى الله عليه وسلم ، ولقد سمعته يقول (أنا حبيج المظالم فن حاججته حججته) ولسكن انذل لي إلى أهلي . فأذن له فأتى أهله ... ألخ الحكاية .

فإذا كان مثل عمير بن سعد يستعفى من عمله لكلمة قالها للذي ، وخاف الذي أن يخصمه . رسول الله عليها لأنه قال « من ظلم ذمياً فأنا خصمه يوم القيامة » ، فهل يسوغ العقل أن يؤذى حر وعماله الذميين بمثل جز النواصي والركوب على الأكف ، ونحو ذلك من أنواع الإيذاء الذي لا نرى بالنسبة إلى قول عمير للذي : أخزأك الله .

فاللهم ، لنا نبأ إليك بما كتبه واضعون وأخذ به الفقهاء على غير روية ولا تحكيم للعقل .

المتأخرين أو المقلدين فإن أصحابها لم يراعوا فيها مراعاة السلف من الأدب وحسن الأداء ، لما وقر في نفوسهم من التعصب الذي حدث في القرون الوسطى ولم يكن له أثر في النفوس في صدر الإسلام لعلم أهل ذلك الصدر أن الإسلام جاء للتأليف والوئام ، لا للتفريق بين الأقسام ، وإن اختلاف الأديان لا يوجب الفرقة والخصام ، لقوله تعالى « لَكُمْ دِينَكُمْ وَلِي دِينِ » ولأن القرآن نطق بأن أهل الكتاب أقرب مودة للمؤمنين وذلك في قوله تعالى « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » ، ولهذا سرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بانتصارهم على مجوس الفرس كما ذكرنا ذلك من قبل في حكاية هرقل مع الفرس ، وهي القصة التي جاءت في قوله تعالى « ألم غلبت الروم » الآية فلتراجع في محلها .

هذا ما أردنا بسطه ليكون فيه ذكرى للذاكرين ، وإنما أطلنا الكلام في هذا الباب لإظهار أبراءة عمر رضى الله عنه مما عزى إليه وتنبئها لأولى النهى من المسلمين إلى أن دينهم يأمر بمحاسبة الذميين وينهى عن غشاشة الكتائبين ، وإن مرض التعصب الذميمة إنما طرأت أعراضه على الأمة تدريجاً سيما على عقب الحروب الصليبية ، وإن من آثار ذلك التعصب القبيح ما يلاقيه المسلمون لهذا العهد من ضروب الإهانة والعسف من الدول المسيحية التي حكمت بعض الممالك الإسلامية ، ولم تراع في حكم المسلمين حقوق الإنسانية ولا الدين بحجة الانتقام للمسيحية . والمسيحية والإسلام يبرآن إلى الله من ظلم البشر بعضهم لبعض ، ولكن ما الحيلة والإنسان مهما ترقى مداركه وسما عقله ، فإنه لا يزال يتقاصر دون الوصول إلى مرتبة العلم الكامل الذي يجعل البشر كلهم بالإضافة إلى وجوب التعاون والاجتماع سواء ، وإن اختلفوا في المذاهب والأهواء إذ كل امرئ مسئول عن اعتقاده عند الله . وأنه

سبحانه يبين آياته للناس فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها . ولكن : إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

عود خبر عمرو :

لما تم لعمر بن العاص افتتاح مصر وكتب إلى أمير المؤمنين يخبره بذلك . كتب إليه كتابا يشكره فيه ويقول له أن صف لي حال مصر فكتب إليه ما نصه :

ورد إلى كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يسألني عن مصر : اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يسكنها جبل أغبر ، ورمل أعقر ، يخط وسطها نهر مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر . له أوان يدر حلابه ، ويكثر عجاجه ، وتعظم أمواجه ، فتفيض على الجانيين . فلا يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب . وخفاف القوارب . وزوارق كأنهن الخائل ، أو ورق الأصائل ، فإذا تكامل في زيادته نكص على عقبه كأول ما بدأ في جريته ، وطمى في رדתه ، فعند ذلك تخرج ملة محقورة ، وذمة مخفورة^(١) يحرثون بطون الأرض ، ويبدرون بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب . لقيهم ماسعوا من كدهم ، فتأله عنهم بغير جدع ، فإذا أحرق الزرع وأشرف سقاه النداء ، وغذاه من تحت الثرى . فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، فإذا هي عنبرة سوداء ، فإذا هي زمردة خضراء ، فإذا هي ديباجة زرقاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء والذي يصلح هذه البلاد ويقر قاطناتها فيها أن لا يقبل قول خسيسها في رئيسها ، ولا يستأدى حراج ثمره إلا في أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل

(١) قوله ملة محقورة وذمة مخفورة يدلك على ما كان يلاقيه نلاحو مصر من الجور والإهانة في دولة الروم .

جسورها وترعها ، فإذا تقرر الحال مع العمال ، على هذه الأحوال ، تضاعف
كار تفاع المال ، والله يوفق إلى حسن الحال .

استقر أمر عمرو بن العاص في مصر ونال من السلطان عليها ما كان
يتمناه فتبسط في المعيشة وتوسع في أمور دنياه فأنتهى إلى عمر بن الخطاب
أنه فشت لعمرو فاشية من خيل ومتاع ، ونزعت نفسه إلى الراحة والاستمتاع
وهيمات لمثله أن يتم له ما أراد ويتقلب على وثير النعم ، وخليفته يعافى شظف
العيش ويقرر النفس على الرضا بالكفاف ، ويؤدب عماله بأدبه ويحملهم
على طريقته تعففا عما بأيدي الناس ، واكتفاء بأجر الصبر والتماسا لرضا
الله والرعية .

روى البلاذري عن عبد الله بن المبارك قال : كان عمر بن الخطاب .
يكتب أموال عماله إذا ولاهم ، ثم يقاسمهم مازاد على ذلك وربما أخذه .
منهم ، فكتب إلى عمرو بن العاص « إنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق
وآنية وحيوان لم يكن حين وليت مصر » .

فكتب إليه عمرو « إن أرضنا أرض مزدرة ومتجر ، فنحن نصيب فضلا
عما نحتاج إليه لنفقتنا » .

فكتب إليه « إني قد خبرت من عمال السوء ما كفى . وكتابك إلى كتاب .
من ألقه الأخذ بالحق ، وقد سؤت بك ظنا . وقد وجهت إليك محمد بن مسلمة
ليقاسمك مالك فاطلعه طلعه وأخرج إليه ما يطالبك وأعفه من الغلظة عليك
فإنه برح الخفاء ، فقاسمه ماله .

لم يسع عمرو بن العاص على دهائه وعلو مكانته ، وبعده عن أمير
المؤمنين وترته ، إلا الخضوع لما أمره به ومقاسمته ابن مسلمة ماله ، ذلك لأنه
يعلم منه الجد في القول ، وقد قال له في كتابه « وأعفه من الغلظة عليك »
فإنه لو لم بقاسمه راضياً لقاسمه مكرهاً حين لا ينفعه عقله ودهاؤه ولا يشفع

له ماله ولا جنده . فله ما أعظم ذلك الرجل الكبير فعلا . وأعلاه في النفوس مكانة وما أهيبه في القلوب وأرهبه للعمال ، على ما عرف به من التواضع للرعية والرأفة بفقراء الناس .

وأخرج البلاذري أيضاً عن عيسى بن يزيد قال : لما قاسم محمد بن مسلمة عمرو بن العاص قال عمرو : إن زماناً عاملنا فيه ابن حنتمة (يعني عمر) هذه المعاملة لزمان سوء ، لقد كان العاص يلبس الخبز بكفاف الديباج : فقال محمد : مه لولا زمان ابن حنتمة هذا الذي تكرهه ألقت معتقلاً عنزاً بفناء بيتك يسرك غزرها ويسوءك بكؤها (١) .

قال أنشدك الله ألا تحب عمر بقولي فإن المجالس بالأمارة : فقال لا أذكر شيئاً مما جرى بيننا وعمر حتى .

هكذا كان يقهر عمر عماله كسعد وعمر و أشباههما ومن هم ؟ هم أصحاب ذلك الفتح العظيم الذين دوخوا له الممالك وكافوا جنود فارس والروم . وإنما كان يريد بهذه المعاملة ترويض نفوسهم على الطاعة ، وترك الإدلال بالفتح والتعجرف على الرعية أو على من دونهم من الناس بما لهم من السابقة والفضل في فتوح الممالك والبلدان .

فأين هذه السياسة الجميلة ممن صاروا بعده يحكمون العمال بنفوس الأمة لكلمة سوء يتقرب بها واحدكم إليهم ، أو بدعة شر يعرضها عليهم لا لفتح الممالك والبلدان ، ولا لمكافأة جيوش فارس والرومان ، وإنما تأذن الله بزوال أكثر دول الإسلام لحيدهم عن طريق الشرع في سياسة الرعية ، وإطلاقهم يد العمال في معاملة الأمة بالعنف والتعسف بالحكم

(١) أى رابطاً بساحة بيتك عنزة يسرك كثرة درها ويسوءك قلته يقال بكأت الناقة والشاة إذا قل لبنها .

جراً لمنافعهم الذاتية ، وتهاوناً بأمور الرعية ، « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

هذا وما زال عمرو بن العاص أميراً على مصر حتى ولى الخلافة عثمان رضى الله عنه فعزله وولاهها عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وكانت ولاية عمرو على مصر نحو خمس سنين ثم وليها فى زمن معاوية ، ولم تطل مدة ولايته الثانية وتوفى فيها كما سنبذكر ذلك بعد .

دهاوؤه وأخباره مع عثمان ومعاوية

وكلمة فى الفتنة

أخباره مع عثمان :

قبل الكلام على دخول عمرو فى فتنة على ومعاوية رأينا أن لا نغفل ما نقلوه عن دخوله فى فتنة عثمان بياناً للحق واستيفاء لأخباره ما كان له منها وما عليه ،

نقيم المسلمون من عثمان رضى الله عنه أشياء ليس هذا محل بسط الكلام عليها ، وكان أهمها لإثاره ذوى قرابته على غيرهم من جلة الصحابة فى توليتهم على الأطراف وتسليمهم أزمة الدولة بعد تتبع أمراء الأعمال الأول بالعزل ولم يعادهم عن مناصب الدولة ، وكان من جملة من عزلهم عثمان عن الإمارة عمرو بن العاص فنقيم منه مع من نقيم ، ولو أنصف عمرو وكل من نقيم من عثمان وأنكر عليه تأمير ذوى قرابه ، ونظروا إلى الظروف التى صار لإيها فى خلافته والأحوال التى اكتنفته فى ولايته وما أخرج به مناظروه لما نقوموا منه عمله ذلك لأنه أراد به تثبيت دعائم خلافته بمن يأمن بهم غائلة النزوع إلى الفتنة والتوئب على الخلافة تحزباً مع زيد أو انتصاراً لبكر ، كما سنبسط ذلك فيما يلى من هذا الكتاب إن شاء الله .

عزل عمرو بن العاص عن إمارة مصر لجاء إلى المدينة . فكان عثمان رضى الله عنه يميل إلى استشارته في أموره ، ويضعه موضع الثقة منه ، حتى إنه لما اشتدت عليه الأزمة دعاه فيمن دعاهم إليه من ذوى قرابته وعمله ، واستشارهم فيما يصنع لإطفاء نار الفتنة فكان مما قاله له عمرو بن العاص كما في رواية أبي جعفر الطبري :

يا أمير المؤمنين إنك قد ركبت الناس ببني أمية فقلت وقالوا ، وزغت وزاغوا ، فاعتدل ، أو اعتزل ، فإن أبيت فاعزم عزماً ، وامض قدماً .

فقال له عثمان : مالك قل فرك أهدأ نجد منك : فسكت عمرو حتى تفرقوا ثم قال : والله يا أمير المؤمنين لأنت أكرم على من ذلك ، ولكني علمت أن بالباب من يبلغ الناس قول كل رجل منا ، فأردت أن يبلغهم قولي فيشقوا بي فأقود إليك خيراً وأدفع عنك شراً .

وفي رواية للطبري أيضاً قال : كان عمرو بن العاص ممن يحرض على عثمان ويغري به ، ولقد خطب عثمان يوماً في آخر خلافته فصاح به عمرو ابن العاص : اتق الله يا عثمان فإنك قد ركبت أموراً وركبتاها معك فتب إلى الله تنب .

فناداه عثمان : وإنك ههنا يا ابن النابغة قلت ، والله جبنك منذ نزعتك عن العمل .

وفي رواية له أيضاً قال : كان عمرو بن العاص شديد التحريض والتأليب على عثمان وكان يقول : والله إن كنت لألقى الراعي فأحرضه على عثمان فضلاً عن الرؤساء والوجوه . فلما سمر الشر بالمدينة خرج إلى منزله بفلسطين فبينما هو بقصر ومعه ابنه عبد الله ومحمد وعندهم سلامة بن روح الخزاعي إذ مر بهم راكب من المدينة فسألوه عن عثمان فقال محصور : فقال عمرو :

أنا عبد الله (العير يضطرب والمكواة في النار) : ثم مر بهم راكب آخر فسألوه فقال : قتل عثمان . فقال عمرو : أنا أبو عبد الله إذا نكأت قرحة أدميتها . فقال سلامة بن روح : يامعشر قريش إنما كان بينكم وبين العرب باب فكسرتموه : فقال نعم أردنا أن نخرج الحق من حاصرة الباطل ليكون الناس في الأمر شرعا سواء .

هذا كل ما قيل في شأن دخول عمرو في فتنة عثمان ، وهذا الخبر الأخير مع ما فيه من الضعف بالنسبة لما تضمنه الخبر الأول ، وإنه يحتاج إلى تمحيص فلو صح لدل دلالة صريحة على أن كل ما نقيم من عثمان رضى الله عنه إنما هو إثارة بنى أمية على غيرهم في الأعمال ، وقد زعم بعضهم أن عمرو ابن العاص هو الذى حرك المصريين على عثمان ولا دليل عليه ، إذ الذى حرك المصريين فى الحقيقة هو محمد بن أبى حذيفة وابن السوداء اليهودى كما سيأتى فى محله ، وما كان لعمرو فى هذه الفتنة إلا ما كان لكل الصحابة الذين حضروا قتله ، وأحسن ما يعتذر به عن عمرو هو أنه دخل فيما دخل فيه معظم القوم كما كان ذلك فى فتنة على ومعاوية ، يدلك عليه ما نقله ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة من رواية الواقدى عن شعبة بن الحجاج عن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال . قلت له (أى لسعد) كيف لم يمنع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عثمان فقال إنما قتله أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويريد بهذا أنهم شهدوا قتله ولم يكونوا اقيام من قام عليه كارهين ، وأما أنهم أرادوا قتله فمأذ الله وإنما هم نقموا منه ما نقم الناس ، وظنوا أن عثمان إذا اشتد عليه الأمر وضايقه المحاصرون له يخلع نفسه من الخلافة فتعود شورى بين الناس ، وهذا غاية ما كان يطمح إليه المهاجرون الذين هم من أهل الشورى ، والذين كان لكل حزب يريده على الخلافة ، ويرى أنه أحق بها

من عثمان ولكن أعجلهم أهل الفتنة وطارز الآفاق الذين حاصروا عثمان وبادروا إلى قتله لما علموا أنهم إن عادوا إلى ديارهم مع بقاء الخليفة عثمان حياً أخذوا لاهالة ، وهذا بحث طويل لا محل له هنا بل سنعود إليه وتبسط فيه من كل وجوهه في سيرة عثمان في هذا الكتاب إن شاء الله .

أخباره مع معاوية

وكلمته في الفتنة

ذكرنا في سيرة سعد بن أبي وقاص في التمهيد الذى مهدناه لأخبار الفتنة أن هذه الفتنة سياسية لا دينية ، وأن سعداً اعتزلها حباً بالسلامة ، وقد جراه على ذلك جماعة من الصحابة كابن عمر ومحمد بن مسلمة والمغيرة بن شعبة وعبادة ابن الصامت ونفر غيرهم . واعلم أن اعتزال هؤلاء وطلبهم للسلامة إنما كان لعدم تحققهم الحق من غيره من فريق المتخاصمين ، إذ القوم كلهم مسلمون ، وفى الفريقين من كبار الصحابة والمهاجرين وجلة الأنصار من لم يشك فى دينهم أو يقدح فى عدالتهم ، والحكم على فريق منهم أنه على غير الحق حكم على الآخر إذ السكل متساوون فى الإسلام متكافئون بالصحبة ، وإن امتاز بعضهم على بعض بالسابقة أوقدم الهجرة ، وكل ما زعمه بعض الفرق الإسلامية كالمعتزلة والشيعة من أن الفريق الذى حارب علياً رضى الله عنه من أهل السكينة على رأى الفرقة الأولى ، ومن الكافرين على رأى الفرقة الثانية مجازفة وافتئات على الدين وتكفير لكل المسلمين يومئذ ، لأنهم كلهم دخلوا فى الفتنة ، فإذا صح كما يزعمون أن الفتنة لها مساس بالدين شمل زعم أولئك الفرق كل المسلمين ، وهم أبرأ إلى الله مما يزعمون .

والعجيب فى أولئك الفرق أن يتنازع أشخاص من الصحابة على رئاسة دينوية بل ولو دينية أيضاً ، يرى كل شخص منهم أنه الأخرى بها والأليق

للقيام بأعبائها فيجعلون ذلك التنازع تنازعا دينياً كأنه تنازع على أن الله واحد أو أكثر، ينجو من آمن بوحدايته ويهلك من قال بتعددده فيسخ في أذهانهم. تكفير نصف المسلمين يومئذ ، مع أن في الحديث (من قال لأخيه يا كافر فقد باء بالكفر) فما بالك بمن يكفر نصف المسلمين ، لا لأنهم أشركوا بالله . أو نبذوا الدين بل لأنهم نصروا طالب رئاسة على آخر بطلبها مثله ، وكل يرى صاحبه أولى بها لما يرا عرفت فيه ليست في الآخر .

نعم إن لتلك الفرق أن يقولوا إن علياً رضي الله عنه حقيق بإمرة المؤمنين ، لسابقته وقرابته وورعه وتقواه ولما شاءوا من الأوصاف الفاضلة التي هو بها جدير رضي الله عنه وأرضاه ، ولكن ليس لهم أن يقولوا إن من نازعه على الخلافة وأنصارهم كفار ، لمذا ؟ لأنهم نازعوه عليها . مع أنه ليس هناك أمر إلا الله بتخصيص الخلافة في شخص بعينه بل ولا أمر نبوي أيضاً ، وكل ما قيل وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في شأن علي وآله نصاً ووصاية كما يقولون ، فقد ثبت أنه موضوع وإن حاول مؤسسو مذهب الشيعة ورافعو دعائمه إثباته بوجوه كلها مردودة ، وحسبك شاهد على ذلك أن الصحابة لما ناقشوا الانصار يوم السقيفة لم يحتجوا عليهم إلا بحديث (الأئمة من قریش) ولما ناقش علي أبا بكر وعمر لم يحتج عليهما بالوصاية ، بل بالسابقة والقرابة ، ثم أجمعوا جميعهم وعلى معهم على الرضا ، بخلافة أبي بكر ، ولو كان هناك نص على علي لعلم لديهم جميعهم يومئذ ولم يعدلوا بعلي أحداً إلا إذا اعتقد الشيعة بوجود النص ، وأن الصحابة كلهم كتموه ونالوا أمر النبي صلى الله عليه وسلم لأنهم غير مؤمنين إلا على ابن أبي طالب فإنه كان وحده كل المسلمين . وما نخال أن الجاهل يبلغ بأحد إلى مثل هذا الاعتقاد لذا لم يعتد مثله إلا طائفة حقيرة منهم ، ظهرت في المغرب تنسب إلى الطائفة النحلية قد بلغ أفرادها الغاية من خسة الطيئة والبعدهن تحكيم العقل ومحاسبة الوجدان ، فالتحقوا بسائمة البشر الذين قالوا بنبوته على وألوهيته وغير ذلك من الهذيان .

وبالجملة فمن الفضول في أمر مضى زمنه ، وخلاف انقضى أمره بين المختلفين فيه في عصرهم ، أن ينقسم الناس لأجله شيعاً إلى هذا اليوم . وإنما كان يصلح تشييع كل فريق لصاحبه حين مطالبته بالخلافة تعصيداً له وأخذاً بناصره وتوصلاً لإمرته . وأما التشييع لفريق دون فريق إلى هذا اليوم فأى فائدة فيه للتشييع له غير ما يقوله الإمامية من وجوب الخلافة لآل عليّ للنص أو العصمة ، وهم غير مخنيين عن هذا الوجوب شيئاً إلا ما كان في بعض العصور الإسلامية من قيام الدعاة لآل عليّ يتذرعون بذلك للسيادة والملك أو الالتفات حول صاحب الدولة^(١) وناهيك بما نشأ عن هذه الدعوة

(١) هذا القول يحتاج كما لا يخفى إلى دليل لهذا عز منّا على أن نرد له فصلاً مخصوصاً في سيرة علي رضي الله عنه . نأق به على ملخص تاريخ أكثر زعماء الشيعة والقائمين بهذه الدعوة طلباً للدنيا أو للاستئثار بالرياسة دون صاحب الدعوة ، وإنما قلنا الزعماء لأن العبرة في تاريخ تلك النحل الإمامية للرؤساء القائمين بها لا لعامة أهلها ، لذهؤلاء أتباع الرؤساء وأسرى التقليد في كل نحلة يدينون بما دان به آباؤهم كيفما كان . على أن كلامنا في هذا الفصل جيمه لاجمالي أتى منّا استطراداً ، والتفصيل لغير هذا المقام فلا تظن أن ما كتبناه هنا عام يشمل سائر معتقدات الشيعة كلافان من هؤلاء أقواماً على جانب من الاعتدال في مذاهبهم ، ومنهم زيدية اليمن وأكثر المعتزلة ومن جاراهم في القول بمجواز لمامة المفضول مع وجود الفاضل ، وبناء مذهب الإمامة على أساس معقول لا يدعو إلى كل هذا التباين بين الشيعة وأهل السنة ، ولا يوجب وجود البغضاء بين المسلمين ، على أنني أعتقد أن أكثر عقلاء الشيعة والمستنيرين بنور العلم والحكمة ولا سيما خاصة أمة الفرس منهم ، ينكرون على الغلاة أشد الإنكار ويتأفقون من ذلك الخط الذي مزق أحشاء الإسلام ، وكل من شممت منه رائحة الاعتدال من عقلائهم وفاتحته بحال المسلمين وما آل إليه أمرهم من جراء هذه المذاهب الداعية إلى الفرقة والشقاق الباعثة على تهكم الذير لم ينكر على هذا القول ، بل أظهر من الألم من سوء مقبة هذا التعصب الأحمى والجلل مثلما أحس به أنا وكل من عنده شعور ولو قليلاً بخطر مصير صار إليه المسلمون بإزاء الأمم الأخرى لتضييعهم أيام مجدهم وإبان شباب دولتهم ، يمثل هذه السفاسف التي ليست على شيء من الدين والحق حتى شغلتهم هذه الأمور عن كل شاغل ، فاسترسلوا في تيه الغفلة عما يكون من مجد الأمم وسعادتها ولم ينتبهوا من هذه الغفلة حتى أخذتهم صيحة المغرب من كل مكان وسأقت عليهم جيوش العلم والاختراع وسدت دونهم منافذة النجاة من خطر الاستعداد لأمة المغرب الراقية التي عرف أفرادها قيمة العقل فاستخدموه فيما يقع الإنسان ويبدسط لهم جناح السلطان قال لهم ألف بين قلوبنا وألهمنا الرشيد إلى طريق سعادتنا واهدنا لتوحيد كلمتنا والعمل بما فيه صون جامعتنا من شوائب الجهل ومصائب الخرافات والأوهام ، وحسبنا من جزائك العادل أن صرنا وراء الأمم ، وأشرفنا على هوة العدم ، والعياذ بالله .

من تفريق المسلمين وسفك دماء الناس ، وما كان فوق هذا من غلو فريق كبير في آل علي حتى جعلوه وآله آلهة تعبد من دون الله كالخرمية والبنائية والإسماعيلية أو الباطنية وغيرهم من الفرق الكثيرة ، التي بلغ بعضها الجبل والتناقض في ضعف العقول أن قالوا إن رؤية الإمام وحدها كافية لإسقاط الفرائض ، واستباحوا بهذا الاعتقاد كل محرم ، كما سيأتى الخبر عن هذا فيما يلى من هذا الكتاب إن شاء الله .

كل هذه الوثنية والابتداع والبلاء العظيم نشأ عن التشيع ومذهب القائلين بإمامة آل علي ، وعن هذا نشأ ذا ؟ عن منازعة أشخاص على إمارة المؤمنين ، أو رئاسة الدولة قد لاقوا ربهم ومضى زمنهم ، وانتهى أمر خلافتهم ولم يذته بين المسلمين سوء الفهم والتشيع والانقسام إلى هذا اليوم ، حتى صاروا هذا بسنيته ، وذلك بتشيعه والآخر بعريقته كالسمك بعضهم عدو بعض ، يسطو قويمهم على الضعيف وربما اعتقر لهم ذلك الخصام والانقسام بالنسبة لغابر الزمان ، ولكن مارأى الأمة ، وقد فخر حوت المغرب فاه ليلتهم القوى والضعيف ، ويأتى على الآكل والمأكول ، مادام الكل في الغرقة والخصام مسترسلين ، يحملون معاول الخلاف لهدم بنيان مجدهم ووحدهم باسم الدين ، والدين يرى بما يعملون .

إذا تقرر هذا فقد علمت أنه نتج مما تقدم أمور ينبغي النظر فيها وهي :

(أ) أن مسألة الخلاف على الخلافة في ذلك العصر مسألة سياسية ، باعتبار أن الخلافة رئاسة دنيوية (كما قدمنا في صدر هذا الكتاب) واجبة عقلا لرعاية مصالح البشر الدنيوية .

(ب) أن الذى دعا فرق الشيعة إلى إلصاقها بالدين وجعلها واجبة ديناً باعتبار أنها ركن من أركان الدين إنما هى السياسة نفسها ، وهى لإرادة تفويض هذه الرئاسة لشخص يرون أن لهم عليه حق النصرة ، ويقولون إنه أهل

لإدارة مصالح الأمة على محور الشرع أكثر من غيره ، ولكن لما علموا أن الأهلية لا تنحصر في الحقيقة في شخص بعينه قالوا بالنص والتخصيص ، أى أن صاحب الشرع نص على عليّ ثم جرهم ضرورة سوق الإمامة إلى أولاده إلى اعتقاد العصمة في عليّ وآله ، تدعيماً لدعواهم الباطلة ثم لم يكتف غلاتهم بذلك بل أنزلوهم منزلة النبوة وتارة الألوهية أخرى ، وهم رضى الله عنهم برآء مما يقول الظالمون .

(ج) أن كل فريق من الفرق المتحاربة أيام الفتنة معذور باعتبار أن النفر الذين تطلعوا إلى الخلافة وانقسم لأجلهم المسلمون ، إنما تنازعوا على أمر مازال يتنازع عليه الأكفاء من أهل العصية في كل دولة من الدول وعصر من العصور .

(د) إنا كما عذرنا أولئك النفر ينبغي أن نعذر عمرو بن العاص على دخوله في الفتنة لأن له أسوة يومئذ بكل المسلمين ، ولا يؤخذ عليه من ذلك إلا ما صنعه يوم التحكيم ، وهو وإن أدى فيما صنع حق الخدمة لمن انحاز إليه وعمل بما تقضى به صفة السياسة والدهاء الموصوف بهما ، إلا أنه أوجد من الأمور أمور أنتجت نتائج كبيرة في مستقبل الأمة ، فهو إذاً أوجد فإنا يؤخذ من هذه الجهة لامن جهة أنه كفر وألحد ، بإعائته على عليّ رضى الله عنه كما يتخرص به أولئك المتخرصون . إذ ما كان ليضر علياً بمألاة عمرو عليه لو أحسن شيعته الطاعة له في حرب معاوية رضى الله عنه، ويوم اختيار الحكم ، ولكن الله في هذا شأناً هو بالغة .

* * *

أن عمرو بن العاص كان من شيوخ قريش ورجاهم في الجاهلية والإسلام، وكان له مكانة كبيرة عند المسلمين لخدمته الكبيرة في فتح فلسطين ومصر وطرابلس الغرب ، وقد رأى ما رأى من قيام المطالبين بالخلافة وتحزب

كافة المسلمين لأوائك النفر من قريش ، فلم يسعه مع حبه للرياسة والتقدم في الأمور ما وسع النفر المعتزلين من حب السلامة ، بل رأى أن انتفاع فريق من أولئك المختلفين برأيه ربما كان فيه تعجيل بإطفاء شواظ الفتنة . وحسم لمادة الاختلاف الذي أهريق فيه دم الأمة . وتربص ريثما انجملت الفتنة الأولى عن قتل طلحة والزبير وانحاز الأحزاب كلهم إلى علي ومعاوية رضى الله عنهما ، فنظر فرأى علي بن أبي طالب رجل دين وورع لا يعبأ بخدع السياسة ومعاريض السياسة ولا يصيب مصاحبه شيئاً من دنياه : وأن معاوية رجل دنيا لا يفوته الانتفاع بمثل عمرو بن العاص كما لا يفوت عمرأ الانتفاع منه وأخذ الشهرة عليه ، بل ربما أضمر أن ينازعه الخلافة كما نازع هو علياً عليها . إذ أظهره بمطلوبه وانفرد وإياه في الأمر كما سترى بعد ، فانحاز إلى معاوية وكان له من الشأن بعد ما هو معروف وما ستركه هنا إن شاء الله .

روى ابن عساكر في سبب ارتحال عمرو إلى معاوية عن عبد الله ابن الزبير : أن الفتنة وقعت وما رجل من قريش له نباهة أعمى بها (١) من عمرو بن العاص ، وقال وما زال معتصماً بمكة ليس في شيء مما فيه الناس حتى كانت وقعة الجمل . فلما كانت وقعة الجمل بعث إلى ابنه عبد الله ومحمد فقال لهما ، إني رأيت رأياً ولستما باللذين ترداني ولكن أشيرا علي ، إني رأيت العرب صاروا عادين (٢) يضطربان وأنا طارح نفسي بين حرارى مكة ، ولست أَرْضَى بهذه المنزلة ، فقال إلى أى الفريقين أعمد .

فقال له عبد الله ابنه إن كنت لا بد فاعلا فإلى علي ، فقال عمرو : ثكلتك

(١) وجاءت هذه الكلمة في كل من نسخة مكتبة دمشق ونسخة مكتبة الجامع الأزهر «أهمها» وهي غير مفهومة كما لا يخفى

(٢) لعلها «عادين» أو محرفة عن معنى عديد أو وعد وكلاهما بمعنى القرن والند

أمك إني إن أثبت عليا قال لي أنت رجل من المسلمين . وإن أثبت معاوية يخططنى بنفسه ويشركنى فى أمره : فأتى معاوية . وروى ابن عساکر من طريق آخر قال لما بلغ عمرو بن العاص بيعة الناس عليا دها ابنه عبد الله ومحمدآ واستشارهما : فقال له عبد الله . صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوفى وهو عنك راض . وصحبت أبا بكر وعمر فتوفيا وهما عنك راضيان . ثم صحبت عثمان فقتل وهو عنك راض ، فأرى أن تلزم بيتك فهو أسلم لدينك .

وقال له محمد أنت شريف من أشرف العرب وناب من أنبيائها ، لا أرى أن تختلف العرب فى جسيم أمورها ولا يرى مكانك .

فقال لعبد الله أما أنت فأشرت على بما هو خير لى فى آخرتى وأما أنت يا محمد فأشرت على بما هو أنبه لذكرك ارتحلا : فارتحل إلى معاوية .

وفى رواية أن علياً رضى الله عنه كتب إلى معاوية كتاباً بعث به مع جرير بن عبد الله البجلي يدعو به إلى البيعة فطاول فى الجواب ريثما استوثق من أهل الشام ، ثم استشار بأخيه عتبة بن أبى سفيان فأشار عليه أن استعن بعمر بن العاص فكتب إليه مانصه :

أما بعد فقد كان من أمر على وطلحة والزبير ما قد بلغك ، وقد سقط إلينا مروان بن الحكم فى نفر من أهل البصرة ، وقدم علينا جرير بن عبد الله فى بيعة على ، وقد حبست نفسى عليك فأقبل إذا كرك أموراً لا تعدم صلاح مغبتها إن شاء الله :

فلما قدم الكتاب على عمرو واستشار ابنه عبد الله ومحمدآ فأشار عليه الأول بالجلوس والثانى بالخروج إلى معاوية فارتحل إليه .

فلما قدم إليه دعاه إلى جهاد على ومطلأبته بدم عثمان ، وصغر له من شأن

على رضى الله عنه فقال : والله يامعاوية ما أنت وعلى حملى بعير ليس لك هجرته ولا سابقته ولا صحبته ولا جهاده ولا فقهه ولا علمه . والله إن له مع ذلك لحظا في الحرب ليس لأحد غيره . ولكنى قد تعودت من الله تعالى إحساناً وبلاء جميلاً ، فما تجعل لى إن شايعتك على حربته وأنت تعلم ما فيه من الغرر والخطر :

قال معاوية : حكمك : قال عمرو : مصر طعمة : فملكاً معاوية وقال له : أبا عبد الله أما تعلم أن مصر مثل العراق : يريد أن العراق بيد على ومصر بيد عمرو فماذا يبقى له) قال عمرو : بلى ولكنها إنما تكون لى إذا كانت لك ، وإنما كانت لك إذا غلبت علياً على العراق .

وافترقا فلما حضر عتبة بن أبى سفيان قال لمعاوية : أما ترضى أن تشتري عمراً بمصر إن هى صنعت لك : وبات تلك الليلة عند أخيه فأسمعه بالليل أياتاً يقول فيها :

أيها المانع سيفاً لم يهز إنما ملت على خزٍّ وقزٍّ
إلى أن قال :

واسحب الذيل وبادر فوقها وانتزها إن عمراً يذتهز
أعطيه مصراً وزده مثلها إنما مصر لمن عزّ فبهز
واترك الحرص عليها ضلة واشتب النار لمقرور يكرز (١)
إن مصراً لعلى أو لنا يُغلب اليوم عليها من عجز

فلما سمع قوله أوسل إلى عمرو فأعطاه مصر على أن يعطى عطاءهم وأرزاقهم وما بقى فله . فرجع عمرو إلى عبد الله ابنه فقال : الله قد أخذنا

(١) قوله واشتب النار أى أشعلها . وقوله لمقرور يكرز المقرور الذى أصابه البرد ويكرز بمعنى ينقبض .

مصر : فقال وما مصر في سلطان العرب . فقال له : لا أشبع الله بطنك إن لم تشبعك مصر :

وكتب معاوية بمصر كتاباً لعمر و أراد أن يكايده حتى إذا أراد الرجوع عن عهده رجع فكتب إليه فيما كتب د على أن لا ينقض — أى عمرو — شرط طاعة ، فأدركها عمرو وكتب د على أن لا تنقض طاعة شرطاً ، وهو قلب في العبارة ببلغ الغاية في اللطف وقلب المقصود الذي قصده معاوية إلى ما يقصده عمرو من أن الطاعة لا توجب التخلي عن مصر .

على أن معاوية لما استقر له الأمر حاول الرجوع على عمرو بمصر ثم أصحح بينهما معاوية بن خديج^(١).

روى ابن عساکر عن أبي عوان قال : لما صار الأمر كله في يدي معاوية استكثر طعمة عمرو و معاش : ورأى عمرو أن الأمر كله قد صلح به وبتدبيره وعتاقته وسعيه فيه وظن أن معاوية سيزيده الشام مع مصر : فلم يفعل معاوية . فتسكر عمرو لمعاوية فاختلفا وتغالظا . وتميز الناس وظنوا أنه لا يجتمع أمرهما . فدخل بينهما معاوية بن خديج فأصلح أمرهما وكتب بينهما كتاباً وشرط فيه شروطاً لمعاوية وعمرو خاصة وللناس عامة ، وأن لعمر و ولاية مصر سبع سنين ، وعلى أن على عمرو السمع والطاعة لمعاوية ، وتوثاقاً وتعاهداً على ذلك وأشهدا عليهما به شهوداً ، ثم مضى عمرو بن العاص إلى مصر والياً عليها ، وذلك في آخر سنة تسع وثلاثين فوالله ما مكث سنتين أو ثلاثاً حتى مات .

ولا يتبادر إلى ذهن القارئ من قوله في هذه الرواية د لما صار الأمر كله في يدي معاوية . . الخ ، أن مصر انتهت إلى معاوية بعد استئصال معاوية

(١) ضبطه ابن الأثير في التاريخ ابن خديج بالحاء المهملة وجاء في أسد الغابة له أيضاً بالحاء المعجمة وفي أكثر مخطوط الأخبار كذلك .

للخلافة وموت على والحسن رضى الله عنهما ، كلا بل أخذ عمرو مصر
من محمد بن أبى بكر لما كان والياً على مصر من قبل على رضى الله عنه
كما سترى بعد .

هذا وكان جرير بن عبد الله البجلي ينتظر جواب معاوية لعلى فاستشار
معاوية عمراً فيما يصنع فقال إن رد ربيعة عن على خطر شديد ، ورأس
أهل الشام شرحبيل بن السمط الكندى وهو عدو لجرير المرسل إليك
فابعث إليه ووطن له ثقاتك فليفشوا فى الناس أن علياً قتل عثمان . وليكوفوا
أهل رضا عند شرحبيل ، فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام على ماتحب وإن
تعلمت بقلب شرحبيل لم تخرج منه بشئ أبدا .

ففعل معاوية ما أشار به عمرو كما سنذكره فى محله إن شاء الله ، فأغرى
شرحبيل بحرب على ، وتم لمعاوية ما أراد من جمع أهل الشام على حربه
وكان بعد ذلك ما كان من حرب صفين وغيره مما سيرد فى هذا الكتاب
إن شاء الله .

مهد عمرو لمعاوية بدهائه مامهدوارتحل معه إلى صفين حيث كانت
الحرب بين على ومعاوية فأتى هناك بمكيدتين دلتا على عظيم دهائه وكبير عقله
إلا أنهما كانتا كالبركان إذا انفجر ، لا يبق ولا يذر ، فأما المكيدة الأولى :
فهى إشارته برفع المصاحف فى وجوه أصحاب على ، وذلك أن عمراً كان
فى آخر يوم من أيام صفين بحيال الاشترا فقال لوردان ، مولاه : أتدرى
مامثل ومثل الاشترا : قال لا : قال كالأشقر إن تقدم عقر وإن
تأخر عقر ، إن تأخرت لأضربن عنقك : قال أما والله يا أبا عبد الله
لأوردنك حياض الموت ضع يدك على عاتقى ، ثم جعل يتقدم ويقول
لأوردنك حياض الموت واشتد القتال ، فلما رأى عمرو أمر أهل العراق
قد اشتد وخاف الهلاك ، قال لمعاوية هل لك فى أمر أعرضه عليك لا يزيدنا
إلا اجتماعاً ، ولا يزيدهم إلا فرقة : قال نعم : قال نرفع المصاحف ثم نقول

لما فيها : هذا حكم الله بيننا وبينكم : فإن أبى بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول ينبغي لنا أن نقبل ، فتكون فرقة بينهم ، وإن قبلوا ما فيها رفعنا القتال عنا إلى أجل .

فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا : هذا حكم الله بيننا وبينكم ، من لشغور الشام بعد أهله ، أى من يحميها من العدو ، من لشغور العراق بعد أهله : فلما رآها الناس قالوا نجيب إلى كتاب الله .

ومن ثم استعرت نار الفتنة بين جند أمير المؤمنين على بن أبي طالب وألزموه بوضع السلاح على غير رضا منه بما صار ، بعد أن كادت جنوده تدحر جنود الشام :

وأما المكيدة الثانية فهي خداعه لأبي موسى الأشعري يوم التحكيم حتى خدعه وقدمه على نفسه ، فخلع صاحبه وثبت عمرو صاحبه كما سيرد تفصيل هذه الاخبار فيما يأتى من هذا الكتاب إن شاء الله .

اجتمع عمرو بنصره صاحبه وتأيد جانبه ففجح في مكيدته الأولى والثانية ، لكن ماذا كان من وراء ذلك الأيدى ؟ وماذا نشأ عن ذلك السكيد ؟ إن غاية ما كان يرجوه عمرو بن العاص من وراء المكيدة الأولى أن يقبل دعاه قوم ويرفضه آخرون ، فيدب الفشل حيناً في جيش على بن أبي طالب رضى الله عنه يلم في غضون جيش معاوية شعته . ويعد للكرة عدتها أو يعد عمرو الأمر حيلته ويهيء لعمل آخر أسياه ، فجاءه الأمر فوق ما أراد ووقع سهمه وراء الغرض إذ كانت كلمته أشبه بنار وقعت على بارود فالتب ، أو أصابت جسماً فاضطرب ، فنزعت من القوم نازعة كأنها كانت في عقل فتدشطت ، ونعقت ناعقة كأنها كانت في قفص فأفلقت ، فنادت لإلام تعضنا هذه الحرب بناها ، وعلام تأخذنا قريش بجزيرتها ، وما لنا والأمراء

من عدنان أو قحطان وأمير كلّ امرئ دينه ، وحاكمه وجدانه ، هم فلمنخرج عن جماعة الأمراء ، ولتقتلهم في ليلة ظلماء ، ونثير على الأمة كلها غارة شعواء ، فإما أن تفي معنا إلى كتاب الله وإما أن نموت شهداء .

هؤلاء هم الخوارج الذين كانوا فتنة وضراً على عليّ وأصحابه ، ومعاوية وأحزابه ، ومروان وجنده ، وعبد الملك وكيده ، والخلفاء من بعدهم ، صبغوا أديم الأرض بدماء المسلمين ، وكندروا صفاء الدول عدداً طويلاً من السنين ، ولولا غلو في معتقدهم ، وإغراب في بوادر أسفهم ، وتطرف في مذاهبهم ، استلحموا به الناس قتلاً وحرباً لالتف الناس لفهم ، وأخذوا جميعاً أخذهم ، فاستأصلوا جذور الارستقراطية من أعماق الوجود ، وقلبوا أوضاع الدول ، ولكن أكلتهم الحروب ، وفرق جمعهم الخلفاء ، وأضعفهم الشذوذ في الاعتقاد ، فلم يصلوا إلى مبتغاهم وضاع أثرهم ^(١) بعد أن ضاع تعبه ، اللهم إلا أثراً في النفوس تركوه ، وطريقاً لحرية القول مهدوه ، فذب في الأمة من ذلك اليوم ديب الجدل لكن في الدين ، وحبب إليهم الانطلاق ، لكن عن قيود الوحدة في المشرب والفكر ، والكلام على هذا نستوفيه في غير هذا المحل إن شاء الله .

هذا ما أتيته مكيدة عمرو الأولى ، ولو علم بمثل هذه النتيجة لما فعل .
(وأما المكيدة الثانية) فحسبها أن حولت قواعد الخلافة الشرعية إلى الملك العضوض ، والشورى إلى المغالبة ، والاختيار إلى الوراثية ، ولو استقرت الخلافة لابن أبي طالب رضى الله عنه بعد إذ ذهب مناظروه من أقبال

(١) إن الخوارج تفرقوا في مذاهبهم السياسية والدينية فرقا شتى لم يبق منهم إلى هذا العهد إلا فرقة واحدة تسمى الأباضية ، ويوجد منها ناس على شواطئ البلاد العربية مما يلي المحيط الهندي وناس في زنجبار ومثلهم في بلاد تونس والجزائر تنيرت مذاهبهم بتغير الزمان وتطاوله .

قريش ، لما بقي للمغالبة بعده أثر ، لأن النفر الذين كان لهم السابقة والتقدم على الناس ، والنزوع إلى تلك الرياسة العظمى ، وكان الناس يساقون معهم طوعاً بحكم التقدم والشرف والسابقة ، قضوا ولم يك يبق بعد ذلك للناس وجهة يتوجهون إليها إلا اختيار السابقين في الأهلية لرياسة الأمة ، وكانت رسخت ليومئذ في نفوس الأمة مبادئ الشورى ، ونمت فيهم ملكة الاستعداد لوضع قواعد الحكم الديموقراطية على أساس متين فاستحال أن تدكه أيدي المتغالبين على الملك ، الطامعين في استعباد الناس .

الملك طرفان مطلق ومقيد فتنازعهما على ومعاوية ، فكان على آخر الأمر المقيدين ومعاوية أول الأمر المطلقين ، ومع ما عرف عن الثاني من الحلم وحسن السياسة وكف يد الظلم التي يبسطها عادة الرؤساء المطلقون فإن هذا لم يغن الأمة شيئاً عن خلافة علي بن أبي طالب التي كانت أحب إلى الأمة وأسد سبيلاً في مستقبل الأيام للخلافة الشرعية ، وضم عقد الرعية كافة في سلك واحد تتوحد فيه مشاربهم السياسية ، فينقطع دابر النزاعين إلى الملك من غير ذوى الأهلية ، وينحسم أصل النزاع على السلطان أو التسلط على الرعية ، فيكون الناس أمة واحدة تخضع لقانون واحد . وهيئات للمسلمين ذلك بعد مكيدة عمرو وهيات ، والكلام على هذا طويل سنفصله فيما هو آت .

قلنا فيما تقدم إن عمرو بن العاص إنما كاد ما كاد وفاء بعهده مع معاوية لا ينظر إلى ما تصير إليه الأمور في مستقبل السنين ، بل ينظر إلى قضاء لبانة عرضت له والأعمال التي يترتب عليها من النتائج العظمى ما ترتب على عمل عمرو ، وبما لآته لمعاوية هي أمور مخبوءة في باطن الأيام ، يتبع بعضها بعضاً في الظهور وقد لا تظهر بمثل احتكاك عمرو أو أشد منه أيضاً ، فلا ينبغي الإغراق في مؤاخذه عمرو بن العاص ما دامت تلك النتائج غير

مقصودة له بالذات ، وإنما جاءت بالعرض لاسيما وأنه ربما كان يرمى إلى غرض آخر من مآلاته لمعاوية ، وهو مصير الخلافة إليه إذا قضى على ومعاوية رضى الله عنهما في تلك الحرب . يدلك عليه تغييره بمعاوية في كثير من المواضع ليطوح بنفسه إلى الهلاك .

ومنها تغييره له في مبارزة علي بن أبي طالب في وقعة صفين ، وتحرير الخبر أن علي بن أبي طالب نادى معاوية : علام يقتل الناس بيننا هلم أحاكمك إلى الله فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور .

فقال له عمرو : أنصفك : قال معاوية : ما أنصفت لك لتعلم أنه لم يبرز إليه أحد إلا قتله : فقال له عمرو : ما يحسن بك ترك مبارزته : فقال له معاوية : طمعت بها دأى الخلافة ، بعدى .

ومنها إغراؤه له بقتل أسرى صفين ، وقد كان عند علي بن أبي طالب أسرى أطلقهم في تلك الساعة فجاءوا إلى معاوية ، وإن عمراً ليكلمه في قتل أسراه : فقال له معاوية لو أطعناك في هؤلاء الأسارى لوقعنا في قبيح من الأمر .

ومنها إغراؤه له بقتال قيس بن سعد بن عبادة بعد تنازل الحسن له عن الخلافة ، وقد كان قيس من شيعة علي ومعه جيش كثيف كلهم مستنقل خوف الوقوع بعد صلح الحسن في يدى معاوية ، وكان قيس من أشجع الناس ودهاتهم في وقته فأبى معاوية حربه وأعطاه وأصحابه الأمان . ولو حاربه لساكن معه على خطر عظيم يعرفه عمرو بن العاص كما عرفه معاوية أيضا فلم يقع فيه .

وبالجملة شايح عمرو معاوية وهو يحب لنفسه أكثر مما يحب له ، وأخذ مصر طمعا منه ، وكان بعد وقعة صفين والتباس الأمور وقع الفشل

في المسلمين وظهرت الفوضى في البلاد ، واختلف الناس على محمد بن أبي بكر في مصر وهو أمير عليها من قبل علي (رضى الله عنه) فاستشار معاوية أصحابه في أخذ مصر فأشاروا عليه بإرسال عمرو ، وكتب إلى شيعة عثمان بمصر ، فأجابهم منهم مسلمة بن مخلد ومعاوية بن خديج بسرعة العمل ، وبعث الأمداد فسير عمرو ومعه عشرة آلاف مقاتل ، فملقاه محمد بن أبي بكر بألفين فانهزم ثم اختفى في خربة أخذها منها معاوية بن خديج وقتله ، وصفت مصر لعمر بن العاص في خلافة معاوية ، ولبت أميراً عليها نحو ستمتين أو ثلاث . وتوفي وهو أمير عليها .

ومن أخباره مع معاوية ما رواه ابن عساکر أن معاوية دعا عمرو بن العاص يوم التحكيم ، وهو متحزم عليه ثيابه وسيفه وحوله أخوته وأناس من قریش ، وقال يا عمرو : إن أهل الكوفة أكرهوا علياً على أبي موسى وهو لا يريد ونحن بك راضون . وقد ضم إليك رجل طويل اللسان كليل المدينة ، له بعد حظ من دين . فإذا قال فدعه فليقل ، ثم قل وأوجز . واقطع المفصل . ولا تلة بكل رأيك . وأعلم أن خفي الرأي زيادة في العقل . فإن خوفك بأهل العراق يغونه بأهل الشام . وإن خوفك بعلي خوفه بمعاوية . وإن خوفك بمصر خوفه باليمن . وإن أذاك بالنفسير فاته بالجميل .

فقال له عمرو يا أمير المؤمنين أنت وعلى رجلا قریش ، ولم يقل في حربك مارجوت ، ولم تأمن ماخفت ، ذكرت أن لعبد الله ديناً وصاحب الدين منصور ، وإيم الله لأبي بن عله ولا ستخرجن خبيثه ، ولكن إذا جاءني بالإيمان والهجرة ومناقب علي فما عسيت أن أقول .

فقال معاوية : قل ما ترى : فقال له عمرو فهل تدعني وما أرى : وخرج

مغضباً فقال لأصحابه إنما أراد معاوية أن يصغر أبا موسى لأنه علم أني
خادعه فأحب أن يقول : لم يخدع أريباً : فقد كذبت به بالخلاف عليه ، وقال
في ذلك شعراً :

يشجعني معاوية بن حرب كأني للحوادث مستكين
ولني عن معاوية غيٌّ بحمد الله والله المعين
في أبيات :

فلما بلغ معاوية شعره غضب من ذلك وقال : لولا مسيره كان لي فيه
رأى : فقال عبدالرحمن بن أم الحكم : أما والله إن أمثاله من قریش لكثير ،
ولكنك ألزمت نفسك الحاجة إليه فالزمها الغي عنه .

وأنت ترى من هذا وما تقدم من أخباره معه أنهما كانا متفقين ظاهراً
متنافرين باطناً وأن عمرأ لم يشايح معاوية رضي الله عنه حباً به أو مودة
له بل طلباً للرياسة ، ولم يكن معاوية أيضاً بأقل بغضاً له منه ، يدلك عليه
ما روى أن معاوية قال يوماً لجلسائه : ما أعجب الأشياء . فقال يزيد :
أعجب الأشياء هذا السحاب الراكدين السماء والأرض لا يدعمه شيء
من تحته ، ولا هو منوط بشيء من فوقه : وقال آخر : حظ يناله جاهل ،
وحرمان يناله عاقل ، : وقال آخر أعجب الأشياء ما لم ير مثله : وقال عمرو
ابن العاص : أعجب الأشياء أن المبطل يغلب المحق : (يعرض بعلي ومعاوية)
فقال معاوية : بل أعجب الأشياء أن يعطى الإنسان ما لا يستحق إذا كان
لا يخاف ، (يعرض بعمر و مصر التي أخذها طعمة) فنفت كل منهما بما
في صدره من الآخر ، وهذا يدل على أن علياً رضي الله عنه لو تألف عمرأ
واستدناه إليه لا تنتفع به ، ولصدقه الخدمة أكثر منها للمعاوية ، ولكن لغراق
علي في حب الفضيلة دعاه إلى ترك الحيلة بمثل عمرو كما دعاه إلى عدم قبول
إشارة من أشار عليه ، بتألف معاوية وتثبितه على ولاية الشام كما سترى بعد .

نبذة من أقواله وأخباره

أقواله :

روى عمرو بن العاص بمصر وهو على بغلة قد شاب وجهها من الهرم ، فقيل له . أيها الأمير تركب هذه البغلة ؟ قال : إني لا أمل دأبتي ما حملتني . ولا زوجتي ما أحسنت عشتي . ولا جليسي ما لم يصرف وجهه عني .

وروى ابن عساكر أنه قال لابنه يوماً : يا بني إمام عادل ، خير من مطر وابل ، وأسد خطوم ، خير من إمام ظلوم ، وإمام ظلوم غشوم ، خير من فتنة تدوم ، يا بني مزاحمة الأحمق خير من مصاحبة ، يا بني زلة الرجل عظيم يجبر ، وزلة اللسان لا تبقي ولا تذر ، يا بني استراح من لاعقل له ، : فارساً مثلاً .

وروى أيضاً أن عمرو بن العاص قال يوماً لمعاوية : إن الكريم يصول إذا جاع ، واللئيم يصول إذا شبع ، فسد خصاصة (حاجة) الكريم ، واقع اللئيم .

وفي رواية أخرى له : قال عمرو بن العاص لمعاوية : يا أمير المؤمنين لا تكون بشيء من أمور رعيتك أشد تعمداً لخصاصة الكريم حتى تعمل في سدها ، ولطغيان اللئيم حتى تعمل في قعره ، (لإزالته) واستوحش من الكريم الجائع ، ومن اللئيم الشبعان ، فإن الكريم يصول إذا جاع ، واللئيم يصول إذا شبع :

وهذا الكلام من بدائع الحكم ومن أسد النصائح .

وروى أيضاً عن هشام الكلبي عن أبيه قال معاوية لعمر بن العاص : من أبلغ الناس ؟ قال من كان رأيه راداً لهواه ، قال فمن أسخى الناس ؟

قال من بذل دنياه في صلاح دينه . قال فن أشجع الناس ؟ قال من ردّ جهله بحلمه :

وعن سفیان بن عیینة ، قال قال عمرو بن العاص : ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر . ولكنه الذي يعرف خير الشرين .

وروى ابن عساکر عن عمرو أنه قال : الرجال ثلاثة . فرجل تام . ونصف رجل . ولا شيء ، فأما الرجل التام فالذي يكمل دينه وعقله ، فإذا أراد أمراً لم يعضه حتى يستشير أهل الرأي والألباب ، فإذا وافقوه حمد الله وأمضى رأيه فلا يزال كذلك في مضيه موقفاً . ونصف الرجل الذي يكمل الله له دينه وعقله فإذا أراد أمراً لم يستشر فيه أحداً ، وقال أى الناس كنت أطيعه أو أترك رأئي لرأيه . فيصيب ويخطئ : والذي لا شيء الذي لا دين ولا عقل له ، ولا يستشير في الأمر . فلا يزال ذلك مخطئاً مديراً ، والله إلى الاستشير في الأمر الذي أردته حتى خدمني . وما على بعرض عقولهم وأسمع .

وسأله معاوية بن أبي سفيان : ما السرور يا أبا عبد الله ؟ قال الغمرات . ثم تنجلي . كناية عن الخلاص من الشدة .

وعن سفیان بن عیینة قال قال عمرو بن العاص : ما وضعت عند أحد من الناس سراً فأفشاء فليته . أنا كنت به أضيق صدراً حتى استودعته إياه .

ومن غرر أقواله ما نقله صاحب سراج الملوك وهو :

موت ألف من العلية أقل ضرراً من ارتفاع واحد من السفلة .

وهو قول حق أجمع عليه الحكماء وأيدته التجارب ، إلا أنه لا يسلم من كل الوجوه ، وإنما هو ينطبق على من كان خسيس الفطرة دنى النفس يرتفع من حضيض المهانة بوسائط سافلة وأسباب غير طبيعية ، فهذا مهما

بلغ من علو المسكاة فإنه بعيد عن الفضيلة ، لأنه لم يستمسك في ارتفاعه بأسبابها ، ولم يأت البيوت من أبوابها ، فيكون شراً في مبدأ أمره ، شراً في منتهاه ، ففي ارتفاعه شر على الناس لأنه يستعمل نعمة الارتفاع آلة للإضرار بالناس ، ووسيلة للاستكثار من متاع الحياة الدنيا ، ولو من غير طرقة المشروعة ، لهذا نهى الحكماء عن توسيد المناصب العالية في الحكومة للسفلة ، لئلا يفسد السفلة أمرها ، ويوهنوا بنيانها ، ويرى بعضهم في هذا العصر لهذا السبب أن أحسن الدول حكومة وأضبطها لإدارة وأسدّها عملاً ، وأسلمها من آفات الرشا وسوء القصد دولة انكلترا التي مع أنها دولة ملكية مقيدة تشبه حكومة الإشراف الأرستقراطية ، لأنها قائمة على دعائم الإشراف وأهل الغنى والثروة ، لا توسد مناصبها العالية إلا لأهل البيوتات العريقة بالمجد والإمارة ، وهم القابضون على أزمة الدولة المباشرون لشؤونها العظمى ، وهذا وإن كان يخالف من بعض الوجوه مذاهب الشعوب الديمقراطية والحكومات الشورية ، إلا أنه يوافق أصول التجارب وينطبق في كثير من الأحوال على مقاصد الحق والعدل ، والكلام عليه يحتاج إلى بيان وتمحيص وربما نعود إليه في محل آخر إن شاء الله .

هذا من جهة من ينطبق عليه قول عمرو بن العاص ، وأما جهة من لا ينطبق عليه فهو الذي يرتفع بأسباب غير طبيعية . ونريد بالطبيعية الاستعداد والجد والعمل ، لا الطفرة والاتفاق أو التذرع بالوسائط السافلة غير المشروعة ، فإن من يرتقى باستعداده وجدده ويكون بطبعه عالى النفس سليم الفطرة ، يرتقى بحكم الاستعداد والفطرة من طريق الفضيلة ، فيكون فاضلاً في مبدأ أمره فاضلاً في منتهاه ، فلا يستعمل ارتفاعه سلاحاً يتهجم به على الناس ، بل بالعكس يستعمله لمعونة الناس فهذا لا مضرة من ارتفاعه بل ارتفاعه ضرورى لازم بحكم العقل والعدل ، فلا يشمل معنى قول عمرو ولعله لا يعنيه ، ولكن بالأسف إن أمثال هذا عددهم قليل ، في كل قبيل ،

خطبة له :

رأينا في تاريخ ابن عساكر خطبة نفيسة لعمر بن العاص من أحسن أقواله ، يوصى بها الناس بالقصد وعدم السرف وحسن معاملة القبط ، وصرف العناية إلى خيل الجند بالقيام على تربيتها وسمتها ، وغير ذلك من الوصايا الجميلة النافعة رواها ابن عساكر عن بحير بن داخر المعافري قال :

ركبت أنا ووالدي إلى صلاة الجمعة ، وذلك آخر الشتاء بعد حم (كذا) النصراني بأيام يسيرة ، فأطلبنا الركوع إذ أقبل رجال بأيديهم السياط يؤخرون الناس ، فذعرت فقلت يا أبت من هؤلاء ؟ قال يا بني هؤلاء الشرط . وأقام المؤذن الصلاة فقام عمرو بن العاص على المنبر ، فرأيت رجلا قصير القامة أدهج أبلج^(١) عليه ثياب موشية (أو موشاة) كأن بها العقيان تتألق^(٢) عليه ، وعليه عمامة وجبة . فحمد الله وأثنى عليه حمدا موجزا وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ووعظ الناس فأمرهم ونهاهم ، فسمعتهم يحض على الزكاة وصلة الرحم ، وينهى عن الفضول وكثرة العيال وقال في ذلك :

يا معشر الناس إياي وخلالا أربعا فإنها ندعو إلى النصب بعد الراحة ، وإلى الضيق بعد السعة وإلى الذلة بعد العز . إياي وكثرة العيال ، وانخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقليل بعد القال ، في غير درك ولا نوال ، وشم لأنه لا بد من فراغ بأول المرء إليه في توديع جسمه ، والتدبير لشأنه ، وتخليته بين نفسه وبين شهوته ، فن صار إلى ذلك فلما أخذ بالقصد^(٣) والنصيب الأقل ولا يضيع المرء في فراغه نصيب نفسه من العلم فيكون من الخير عاطلا ، وعن حلال الله وحرامه عادلا ، يا معشر الناس قد تدلت الجوزاء وركبت الشجرى ، وأقلعت^(٤) السماء ، وارتفع الوفاء ، وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السما^(٥)

(١) الأدهج أسود العين الأبلج المضيء المشرق

(٢) العقيان الذهب الخالص

(٣) أى بالاعتدال (٤) وأقلعت السماء أى كفت وهو كناية عن انقطاع المطر

(٥) كذا في الأصل ولعلها السواثم وهى الماشية .

وعلى الراعى حسن النظر . ففى بكم على بركة الله على ريفكم فتناولوا من خير ولبنه . ومرافقه وصيده ، وأربعوا بخيلكم وأسمنوها ووصونها وأكرموها . فإنها جنتكم^(١) من عدوكم وبها تنالون مغائكم وأنقاسكم . واستوصوا بمن جاورتم من القبط خيراً . ولماى والمومساء^(٢) المفسدات فإنهن يفسدن الدين ويقهرن الهمم . حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بقبيلها خيراً فإن لكم منهم صهراً وذمة ، فكفوا أيديكم وفروجكم وغضوا أبصاركم . فلا علمن ما أتانى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه^(٣) وأعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال ، فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك . وأعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لسكثرة الأعداء حولكم . ولاشراف قلوبهم إليكم ، وإلى داركم ، معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة التامة . حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كشيئاً فذلك الجنيد خير أجناد الأرض) فقال له أبو بكر : ولم ذاك يا رسول الله ؟ قال : (لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة) فاحمدوا ربكم معشر الناس على ما أولاكم وأقيموا فى ريفكم ما بدالكم . فإذا يبس العود . وسحق العمود ، وكثر الذباب وحمض اللبن وصوح^(٤) البقل وانقطع الورد ففى على فسطاطكم على بركة الله ، ولا يقدمن أحد منكم على عياله إلا ومعه تحفة لعياله ما أطلق من سعته أو عسرتة اهـ .

(١) الجنة هى الوقاية .

(٢) المواهر .

(٣) جواب قسم محذوف أكد بالنون الثقيلة ، وما مصدرية أى فوائده لأهلها لانيان رجلى موصوف بما ذكر ، وفى طيه من الترهيب مالا يخفى ، وقد بين بعد جزاء من فعل ذلك بقوله فمن أهزل فرسه الخ .

(٤) صوح أى يبس أهلاه .

أخباره :

(من أخباره في حسن الخلق) ما رواه ابن عساكر عن الشعبي عن قبيصة بن جابر ، قال صحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلاً أبين طريقاً ولا أحلم جليساً منه .

وعن قبيصة أيضاً قال : صحبت عمر بن الخطاب فما رأيت رجلاً أقرأ لكتاب الله ، ولا أفقه في دين الله ولا أحسن مداراة منه .

وصحبت طلحة بن عبيد الله فما رأيت رجلاً أعطى لجزيل من غير مسألة منه .

وصحبت معاوية بن أبي سفيان فما رأيت رجلاً أثقل حليماً منه .

وصحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلاً أبين (أو قال أنصح) طريقاً منه ، ولا أكرم جليساً ولا أشبه سريرة بعلائية منه .

وصحبت المغيرة بن شعبة فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بالمشكر لخرج من أبوابها كلها .

ونادت امرأته مرة جارية لها فأبطأت فقالت يا زانية : فقال لها عمرو أو رأيتها تزني ؟ قالت لا . قال لتضربن بها يوم القيامة سبعين سوطاً : فطلبت من الجارية العفو فقال يصح العفو إذا اعتقتها فأعتقتها .

(ومن أخباره) التي تدل على علمه وتعقله وبعده عن الأوهام ، ما رواه ابن عساكر عن موسى بن علي قال سمعت أبي قال : كنت مع عمرو بن العاص بالإسكندرية فأنكسف القمر فأصبحنا مع عمرو ، فقال له رجل من القوم لقد حدثنا شيطان هذه المدينة أن القمر سيكسف من الليلة : فقال رجل من الصحابة كذب عدو الله هذا ، هم علموا ما في الأرض فما علمهم ما في السماء ! قال فلم يرد عمرو عليه بذلك كثيراً ثم قال له : إنما الغيب خمسة فما (٤٠ - أشهر مشاهير الإسلام)

سوى ذلك يعلمه فوم ويجهله آخرون : ثم قرأ الآية (إن الله عنده علم الساعة
ويُنزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفسٌ ماذا تكسبُ غداً وما
تدرى نفس بأى أرض تموت) إلى آخر الآية .

ولا شك أن هذا الدليل الكتابى يفهم الرجل بل وينبه كل غافل
جاهل بسنن الله وحكمة الخلق ، أن الله تعالى لم يحجب عن العقل شيئاً من أسرار
الوجود ، ولم يحرم على الإنسان أن يتناول بالبحث والنظر ما شاء من مجالى
الطبيعة ، وأرشده إلى أن الغيب الذى يعلمه الله وحده هو غير ما يتوهمه العقل
أحياناً عند تضاؤله عن إدراك الشئ وضعفه عن الوصول إليه .

وحبذا لو تنبه إلى حكمة الله هذه الذين يقولون هذا حلال وهذا حرام
ويحولون بين المرء وعقله بغياً من عند أنفسهم وتحكما فى الدين وصرفاً للأمة
عن الأخذ بالعلوم النافعة التى قام بها الآن مجد الأمم ، وأصبح المحرومون
منها على وشك العدم وليس بعد شاهد العيان برهان .

(ومن أخباره) ما رواه صاحب الأغانى قال حضرت وفود الأنصار
باب معاوية بن أبى سفيان ، فخرج إليهم حاجبه أبو ذرة فقالوا له استأذن
للأنصار فدخل إليه وعنده عمرو بن العاص فاستأذن لهم . فقال له عمرو
ما هذا الملقب يا أمير المؤمنين ؟ اردد القوم إلى أنسابهم . فقال : أى الحاجب ،
هى كلمة إن مضت عرتهم ونقصتهم وإلا فهذا الاسم راجع إليهم : فقال له
، أى عمرو ، اخرج فقل من كان ههنا من ولد عمرو بن عامر فليدخل ، فقأها
الحاجب . فدخل ولد عمرو بن عامر كلهم إلا الأنصار . فنظر معاوية إلى
عمرو نظر منكراً ، فقال له باعدت جداً . فقال اخرج فقل من كان ههنا
من الأوس والخزرج فليدخل : فخرج فقأها فدخلوا يقدمهم النعمان بن بشير
الأنصارى وهو يقول :

يا سعد لا تجب الدعاء فما لنا نسبٌ نهجيب به سوى الأنصار

نسب تخييره الإله لقومنا أثقل به نسباً إلى الكفار
إن الذين ثووا بيد منكم يوم القليب هم وقود النار
فقال معاوية لعمر: قد كننا لأغنياء عن هذا هـ.

ولا ندري إن كان أراد عمرو بهذا المباحة بين معاوية وبين الأنصار
إتماماً لمقاصده السياسية في إغراء مثل الأنصار بمعاوية ، أو هو يريد الخط
من قدر الأنصار فقط لأنهم شايعوا علي بن أبي طالب أيام الفتنة خلا النعمان
ابن بشير فإنه كان من شيعة معاوية يومئذ .

(ومن أخباره في استعطاف الخاطر والاعتذار) مرواه محمد بن سعيد
عن إبراهيم بن حويطب ونقله في العقد قال : قال عمرو بن العاص لعبد الله
ابن عباس بعد قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه . إن هذا الأمر الذي
نحن فيه وأنتم ليس بأول أمر قاده البلاء وقد بلغ الأمر بنا وبكم إلى
ما ترى ، وما أبقت لنا هذه الحرب حياء ولا صبراً ، ولستنا نقول ليت
الحرب عادت ولستنا نقول ليتنا لم تكن ، كانت فانظر فيما بقي بغير ما مضى ،
فإنك رأس هذا الأمر بعد علي فإنك أمير مطاع ومأمور مطيع ، ومشاور
مأمون وأنت هو .

وليس أحسن من هذا الكلام تملصاً واعتذاراً ولا أبلغ منه في رأب
الصدع وجمع القلوب . وقد نقل في العقد خبراً آخر عن عمرو وابن عباس
فيه من التهاثر والسباب ما يدل على وضعه فلم نشأ نقله أدباً مع أولئك الرجال .
(ومن أخباره في التقي والإنبابة) ما رواه ابن عساكر عن عمرو بن
شعيب عن أبيه قال : وقع بين المغيرة بن شعبه وعمرو بن العاص كلام
في الوهط ، (وهو بستان لعمر بالطائف) فسبه المغيرة فقال عمرو بن
العاص : يال هصيص يسبني المغيرة : فقال له عبد الله ابنه : إنا لله وإنا إليه
راجعون أدعوا القبائل وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها : فأعتق
عمرو بن العاص ثلاثين رقبة عنها .

وعالمًا كان يتحاشى هذه الدعوة كبار الصحابة ، لما فيها من تفريق الكلمة والرجوع إلى العصية ، وقد نهى عنها رسول الله أشد النهى جمعاً لكلمة الأمة واستمساكاً بوحدة الدين وتأليفاً للقلوب ، ولكن تهاون الناس بهذه الرابطة الكبيرة فرق بينهم في المشارب والآهواء والغايات فانقلبت الأمة حرباً على بعضها ، يتجاذبها الأمراء أو المتوثبون على الملك تارة باسم الجنسية ، وأخرى باسم المذهب ، وآونة باسم الدين حتى أنكروا قواها وذهبوا بآثار مجدها وسطوتها ، ولا يزال كثير منهم لهذا العهد ينتحلون أسباب التفريق استحالاً نوصلًا للرياسة ، ولا سيما في شبه جزيرة العرب التي تفرق أهلها قديماً وجماعات ، وأصبحوا فوضى مع أهواء الأمراء العديدين ، وقد كانت أحق بأن يجمع أهلها رابطتا الدين والجنس ، كما جمعهم النبي صلى الله عليه وسلم على كلمة الإسلام ، فعملوا بقوة اجتماعهم ما لم تستطع عمله أمة قط ، ولكن أين من يعقل والآهواء غالبية والعلم بمجرى السنن الطبيعية مفقود ، والنفوس عن الاعتاض بما لحق أكثر الشعوب العربية من الاحتلال الأجنبي غافلة والله أعلم بعاقبة الأمور .

وأخرج ابن عساکر عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص أن عمرو بن العاص كان يسرد (يتابع) الصوم ، وكان يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن فصلاً بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر .

وروى عن ربيعة بن لقيط قال : سمعت عمرو بن العاص وهو يصلي بالليل وهو يبكي ، ويقول : اللهم آتيت عمراً مالا فإن كان أحب إليك أن تسلب عمراً ماله ولا تعذبه بالنار فاسلبه ماله . وإنك آتيت عمراً أولاداً فإن كان أحب إليك أن تشكّل عمراً ولده ولا تعذبه بالنار فائكله ولده ، وإنك آتيت عمراً سلطاناً فإن كان أحب إليك أن تنزع منه سلطانه ولا تعذبه بالنار فانزع منه سلطانه .

وفاته وولده

وفاته وكلامه الميم :

قضى عمر بن العاص حياته كلها بالجد وطلب العلاء كما رأيت ، فما قصد غاية إلا بلغها ولم يبال بالعقبة تقوم دونها ، وكان له بين ذلك هبات تغتفر له في جانب جهاده العظيم في فتوح مصر وغيرها ، ولا يلام على شيء من أمور الفتنة التي انغمست فيها قریش كلها وساقوا الأمة إليها ، إلا بما يلام به سائرهم وإنما هو سبقهم بأعماله السكار ، بالإضافة إلى شهرته بالدهاء وحبه للظهور ، ومهما ترتب على أعماله تلك من النتائج في مستقبل الدولة فإنه غير مقصود له بالذات ، كما أننا ذلك ، فالعدل والحق يقضيان على من عرف تاريخ الرجل أن يقر له بثبات الجأش وقوة الإرادة وصدق العزيمة والرأى ، وإنه من رجال الإسلام العظام وحسبه أنه كان من أعوان عمر بن الخطاب وأمرائه السكار ، وعمر رضى الله عنه لا يضع ثقته بغير الأكفاء كما هد معروف عنه ، ونحن لا نشك كما لا يشك عاقل معنا في أن عمالاته على علي بن أبي طالب إنما كانت لإعراض هذا عنه ، ولو رغب فيه لوجد منه من صدق الخدمة وجميل الصحبة ما وجد عمر ومعاوية ، وإنما كان على رضى الله عنه قليل العناية بأمثال عمرو من رجال السياسية ، أولا لثقته من نفسه . وثانيا لكونه يرى سلوك السبيل السوى في القول والعمل خير صاحب ومعين ، وهو اعتقاد حق لا يعتد غيره من كان مثل علي بن أبي طالب وفي مرتبته من الفضيلة ، لكنه رضى الله عنه لم ينظر إلى ما اكتشفه من الأحوال وما أحاط به من الدسائس لاسيما وأن البيئة في وقته صارت غيرها في زمن أبي بكر وعمر ؛ ومع ذلك فقد كانا يسيران سير الرجل ويدفعان في كل وجهة صاحبها ويتألفان قلوب الرجال الذين يشك في

صدقهم وصدقهم ، كما تألف رسول الله صلى الله عليه وسلم قلوب المنافقين مع أنهم من أعداء الدين .

وبالجملة فعمرو بن العاص يعد على حسن بلائه في الإسلام وسلامه يقينه من دهاة الأمة في عصره ، وكبار رجالها الذين افتتحوا الممالك ورفعوا منار الدولة ، لا سيما وأنه كان على جانب من التقى لا ينكر على مثله كما تقدم ، وكان شديد الرهبة من الله والخوف مما بعد الموت كما يظهر ذلك من أقواله التي فاه بها قبيل وفاته رحمه الله ورضى عنه .

روى ابن عساكر عن ابن شماسه المهرى قال : حضرنا عمرو بن العاص وهو في ساعة الموت ، وولى وجهه إلى الحائط وجعل يبكي طويلا فقال له ابنه : ما يبكيك أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا أما بشرك رسول الله بكذا قال : ثم أقبل بوجهه فقال : إن أفضل ما يعد على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . إني قد رأيتني على أطباق ثلاثة : لقد رأيتني وما أحد من الناس أبغض إلي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أحب إلى أن أكون استمكننت منه فقتلته ، فلو مت على تلك الحال كنت من أهل النار ، فلما جعل الله الإسلام في قلبي أنيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله ابسط يدك لأبايعك فبسط يمينه فقبضت يدي ، فقال « مالك يا عمرو ، فقلت أردت أن اشترط . فقال « تشترط ماذا ، قلت أن تغفر لي ما تقدم ، قال « أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله ، فبايعته فما كان أحد أجل في عيني منه ، إني لم أكن أستطيع أن أملا عيني منه لإجلاله ، فلو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة ، ثم ولينا أشياء لا أدري ما حالى فيها ، فإذا أنا مت فلا تتبعني نائحة ولا نار ، فإذا دفنتموني في قبري فسنوا على التراب سنا (أى صبوه صبأ) ، فإذا فرغتم

من دفني فأقيموا عند قبري قدر ما ينجر جزور ويقسم لجها ، حتى أعلم ما أرجع به رسل ربى فأنى أستاذس بكم اه .

وروى هذا الخبر أيضاً من طرق أخرى باختلاف قليل فى اللفظ .

وروى عن حميد بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عمرو أن أباه قال حين احتضر : اللهم لك أمرت بأمر ونهيت عن أمور ، تركنا كثيراً مما أمرت ووقعنا فى كثير مما نهيت ، اللهم لا إله إلا أنت : ثم أخذ بإيهامه فلم يزل يهلل حتى مات : وفى رواية أنه وضع يده موضع المخل من ذقنه ثم قال : اللهم أمرتنا فتركنا ، ونهيتنا فركبنا ، ولا تسعنا إلا مغفرتك ، : فكانت تلك هجره حتى مات .

وكانت وفاته بمصر يوم الفطر ستة ثلاث وأربعين فى خلافة معاوية وهو متجاوز السبعين ، وقيل إنه تجاوز الثمانين ، ودفن فى المقطم فى جهة الفخ وكان طريق الحجاز كما ذكر ذلك ابن قتيبة . وكان عمرو قصيراً يخضب بالسواد ، وكان غنياً جداً على ما يظهر من سيرته ، وقد روى ابن عساكر أن همراً كان يقيم كروم الوهط (بستان له بالطائف) بألف ألف خشبة كل خشبة بدرهم ، فالكرم الذى يحتاج إلى خشب بمليون درهم كم تكون غلاته هذا إذا صح الخبر . وقد كان له دور كثيرة منها داره بمصر وتعرف بدار عمرو قرب الجامع ، وكان له دور بدمشق منها دار ببيرون ، ودار فى ناحية باب الجابية بين دار السعادين وزقاق الهاشميين ، ودار تعرف بدار بنى أحبيحة أو بنى جهبيحة فى رحبة الزبيب ، ودار تعرف بالمارستان الأول عند عين الحمى . كذا جاء فى تاريخ ابن عساكر ، وقد ذكر المؤرخون عن مقدار ثروته ما لا يقبله العقل فحضر بنا صفحاً عن ذكره .

والله .

ولد له عبد الله ومحمد ، وكان عبد الله يكفى أبا محمد وأسلم قبل أبيه وكان عاقلاً فاضلاً شجاعاً يحضر بـسيفين وكان يقرأ بالسريانة وقد نهى والده عن دخول الفتنة وأشار عليه باعتزالها كما رأيت فيما مر طلباً للسلامة ، وتوفي بمكة عن اثنتين وسبعين سنة ، وله عقب من زوجه عمرة بنت عبيد الله ابن عباس ومنهم عمرو بن شعيب وكان سريراً ربما قسم في المجلس الواحد من صدقة جده خمسين ألفاً كما ذكر ذلك ابن قتيبة اه .

* * *

عُمَّانُ بْنُ عَفِيٍّ

حاله فى الجاهلية

نسبه وأصله :

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف
ابن قصى القرشى الأموى ، يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى
عبد مناف ، يكنى أبا عبد الله وأبا عمرو وكنيتان مشهورتان له وأبو عمرو
أشهرهما .

ولد فى السنة السادسة بعد الفيل ، أمه أروى بنت كزيم بن ربيعة
بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى ، وأما البيضاء أم حكيم بنت
عبد المطلب عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

صناعته ومطامير فى قومه :

كان عثمان رضى الله عنه تاجراً بزازاً كما ذكرنا ذلك فى صدر هذا
الكتاب ، وقدم الشام مرة فى تجارة فى رواية لابن عساكر وكان غنياً كريماً
حسن الشيمة محبباً فى قومه مأموراً عندهم محترماً لديهم ، يدلك عليه ما أخرجه
ابن عساكر عن الشعبي قال : كان عثمان فى قريش محبباً يوصون إليه ويعظمونه
وإن كانت المرأة من العرب لترقص صبيها وهى تقول :

أحبك الرحمن حبّ قريش عثمان

إسلامه وصحبته

إسلامه :

كان إسلامه بدعوة أبى بكر رضى الله عنه وكان لأبى بكر نظر واختبار

ومعرفة رجال قريش وأخلاقهم ، وكان لقريش ثقة به وركون إليه ولعلمه ببقاء ضمير عثمان وسعة مداركه وسلامة طبعه من شائبة العناد والمكابرة دعاه إلى الإسلام هو والزيير بن العوام وطلمحة بن عبيد الله كما في أكثر كتب الأخبار والحديث فأجابوه وأسلموا ، فكانوا من السابقين الأولين الذين لهم فضل سبق وفضيلة القيام بنصرة الحق ، ومضافرة النبي صلى الله عليه وسلم على وضع أساس التوحيد الذي هدم بعد أركان الوثنية واستفاض نوره في أرجاء الأرض ، وكان لعثمان رضى الله عنه نصيب كبير من الخدمة الخالصة للإسلام ، ومعاونة نبيه عليه الصلاة والسلام كما سترى بعده .

لاريب في أن الإسلام لما قام بقوة إلهية وروح عالية أودعت فيه ، وجعلته سهلاً مقبولاً لدى العقول ، حقيقاً بالنمو والانتشار لكن هذا لا يمننا أن نقول إن النفر الذين سبقوا إلى تلقيه ، كانوا دعاة الإسلام وعمدى طريقه ، وناصرى دعوته والقذوة الصالحة للعرب في اتباعه ، لما أنهم من أختيار قريش ووجوه العرب وصرح ولد لإسماعيل ، لذا أثنى عليهم القرآن وقربهم منه النبي عليه الصلاة والسلام .

ونما رواه ابن الأثير في أسد الغابة عن ابن عباس أن قوله تعالى (ونزعنا ما في صدورهم من غل) الآية نزلت في عشرة : أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وطلمحة ، والزيير ، وسعد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعيد بن زيد . وعبد الله بن مسعود . ومن قرأ تاريخ النبي محمد صلى الله عليه وسلم وتاريخ دعوته بإيمان ، علم فضل عثمان وإخوانه من السابقين رضوان الله عليهم ، بسبقهم للإسلام وقيامهم بأعباء الدعوة وتمهيدهم السبيل لنشر كلمة التوحيد بتلك السرعة المعروفة ، مع ما يعهد من أمر كل دعوة من البطء في السير والمناهضة التي تلقاها من أسراء العوائد والتقليد في كل الأمم . فجزاهم الله عن الأمة الإسلامية خير الجزاء .

صحبه

كان في صحبته محبوبا من رسول الله صلى الله عليه وسلم مكرما عنده عزيزا عليه ، فباه من كرامة المصاهرة ببنتيه بما يغبط عليه تسكريما له وتقديرا لحسن بلائه في الإسلام وإخلاصه في تأييد الدعوة ومبادرته لتلقى كلمة التوحيد ، فقد روى ابن الأثير في أسد الغابة وابن عبد البر في الاستيعاب وغيرهما من المحدثين وأهل الأخبار ، أن عثمان لما أسلم زوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنته رقية (وفي رواية السيوطي أنه تزوجها قبل النبوة) وماتت رقية في السنة الثانية من الهجرة ، يوم ظفر رسول الله بالمشركين في وقعة بدر ، وكان عثمان رضى الله عنه تحلف في المدينة لأجل تمريرها فضرِب رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهم ، فعد لذلك بدرى ، وإن لم يحضر وقعة بدر ، ثم زوجه بعدها بابنته أم كلثوم ، ولذا سمي ذا النورين ، أى لأنه كان ختن رسول الله على بنتيه ، وتوفيت أم كلثوم في السنة التاسعة من الهجرة ، فلما توفيت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أن لنا ثلاثة لزوجناك ، وهذا يدل على مكانته عنده وثقته به وحبه له .

ويحق له أن يرى من نفيه مثل هذا التفضل لتغاليه في طاعته ، وأداء واجب الصحبة له ، وصبره بين يديه على المسكاره واستمساكه بعروة الإسلام وبذله ماله في سبيله وتحمله الأذى من أجله ، ومن ذلك ما أخرجه ابن سعد عن محمد بن الحارث بن إبراهيم التيمي قال : لما أسلم عثمان بن عفان أخذه عمه الحكم بن أبى العاص بن أمية فأوثقه رباطا ، وقال ترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث ، والله لا أدعك أبدا حتى تدع ما أنت عليه . فقال عثمان والله لا أدعه أبدا ولا أفارقه ، فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه .

ولما رأى أن اضطهاد قريش له واقع لا محالة ، وأن الفرار بدينه أسلم ،

هاجر إلى الحبشة مع رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان أول من هاجر . ففي رواية عن أنس قال : أول من هاجر إلى الحبشة بأهله عثمان ابن عفان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم صحبهما الله إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط : ثم هاجر الهجرة الثانية إلى المدينة .

وعما يؤثر عن كرمه العجيب وبذله العظيم في سبيل الله ورسوله وفي منفعة المؤمنين ، تجهيزه جيش العسرة بألف بعير فقد نقل في الاستيعاب عن قتادة قال : حمل عثمان في جيش العسرة على ألف بعير وخمسين فرسا ، ونقل في رواية أخرى أنه جهز جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيراً ، وأتم الألف بخمسين فرسا وجيش العسرة كان في غزوة تبوك .

وأخرج الترمذي عن أنس والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن سمرة قال : جاء عثمان إلى النبي صلى الله عليه وسلم بألف دينار حين جهز جيش العسرة فنثرها في حجره ، فجعل رسول الله يقبلها ويقول - ماض عثمان ما عمل بعد اليوم - مرتين .

ومن هذا القبيل أيضاً ابتياعه بئر رومة وجعلها للمسلمين يستقون منها ، وتحرير الخبر على ما نقله ابن عبد البر في الاستيعاب أن بئر رومة كانت ركية لليهودى يبيع المسلمون ماءها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يشتري بئر رومة فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوه في دلائهم وله بها مشرب في الجنة فأتى عثمان اليهودى فساومها بها فأبى أن يبيعها كلها فاشتري نصفها بإثنى عشر ألف درهم فجعله للمسلمين فقال له عثمان رضى الله عنه إن شئت جعلت على نصيبى قرنين^(١) وإن شئت فلى يوم ولك يوم : قال بل لك يوم ولى يوم . فكان إذا كان عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين ، فلما رأى

(١) حباين .

ذلك اليهودى قال أفسدت على ركيكى فاشتر النصف الآخر فاشتراه بثمانية آلاف درهم^(١).

ومن هذا القبيل أيضاً زيادته فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من ماله ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من يزيد فى مسجدنا: فاشترى عثمان موضع خمس سوار (جمع سارية) فزاده فى المسجد . هكذا ذكره ابن عبد البر ورواه غيره بهذا المعنى أو ما يقرب منه .

وبالجملة فقد كان عثمان رضى الله عنه جليل الأعمال جميل الصحبة ، حريصاً على رضا النبي صلى الله عليه وسلم ، بذولاً للمال فيما يرضيه وينفع المسلمين ، لهذا أجل النبي صلى الله عليه وسلم قدره ونوه باسمه ، وقد وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة تشهد بفضله ، فليراجعها من أحب فى كتب الحديث ، وحسبه أنه أحد العشرة الكرام حوارى النبي عليه الصلاة والسلام ، وأحد الستة الذين جعل عمر فيهم الشورى ، وأخبر أن رسول الله توفى وهو عنهم راض ، وأحد الصحابة الذين جمعوا القرآن بل قال السيوطى قال ابن عباد: لم يجمع القرآن من الخلفاء إلا هو والمؤمن . وقد شهد مع النبي صلى الله عليه وسلم بعض المشاهد ، وكان يستخلفه على المدينة فى بعضها ، ولم يحضر واقعة بدر كما تقدم السبب ولا بيعة الرضوان ، لأن هذه كانت من أجله وذلك لما أرسله رسول الله إلى أهل مكة رسولاً لينخلوا بينه وبين العمرة وجاءه الخبر بالكاذب بأن عثمان قد قتل فجمع أصحابه فدعاهم إلى البيعة فبايعوه على قتال أهل مكة يومئذ ، ثم جاءه الخبر بأن عثمان لم يقتل ، وهذا يدل على مكانته عنده وحببه له .

أخرج الترمذى عن أنس قال . لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رسول رسول الله إلى أهل مكة فبايع

(١) وفى بعض الروايات أن عثمان هو الذى سفر بشر رومة

الناس فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله .
فضرب ياحدى يديه على الأخرى فكانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم
لعثمان خيراً من أيديهم لا أنفسهم .

خلافته والشورى وكلمة في البيعة

والخلافة والدين

كلمة في الجمهورية والمدين :

علم القارىء بما بسطناه في صدر هذا الكتاب وفي منتصفه أيضاً عن كيفية
استخلاف أبي بكر وعمر رضى الله عنهما وبيعتهم ، أن الأولى اعتدها عمر فليته
وفي الله المسلمين شرها ، لأنها لم تكن شورى بين المسلمين ، ومع ذلك فقد رضىها
المسلمون أتم رضا ولم يخالف على أبي بكر أحد من الصحابة ورضى بها من
خالف ولو بعد حين . وأن الثانية تمت لعمر بعهد من أبي بكر ثم برضا الأمة
وأن عمر ترك الخلافة بين ستة ليختاروا منهم واحداً ، ويؤخذ من يحمل ما نقلناه
بهذا الصدد أن البيعة وإن كان يتوقف عقدها على رضا الجمهور إلا أنها لم
تأسس على قاعدة محض الاختيار أعنى اختيار الأمة أو من ينوب عنها
من أهل الحل والعقد ، ولو تأسست على تلك القاعدة لكانت الحكومة
الإسلامية أقرب للجمهورية منها للملكية ، وكذلك لو استمر العهد بالخلافة
من واحد إلى آخر على شرط نقيض الأمير بقانون الشورى لكان أسلم عاقبة
وأسد لذرائع الخصام والانقسام ، كما قال ذلك معاوية بن أبي سفيان لابن
حصين حين وفد عليه (١) ، ولما لم تكن كذلك وأخذ أصل البيعة شكلاً

(١) قالوا لمن زياد بن أبيه أوفد ابن حصين على معاوية فخلا به ليلة ، فقال له يا ابن حصين
قد بلغنى أن عندك ذهناً وعقلاً فاخبرنى عن شيء أسألك عنه . قال سلى عما بدالك ، قال أخبرنى
ما الذى شئت أمر المسلمين وملأهم وخالف بينهم قال نعم قتل الناس عثمان ، قال ما صنعت
شيئاً : قال فسير على إليك وقتاله لياك ، قال ما صنعت شيئاً : قال فسير طلحة والزبير وعائشة
وقتل على أباهم ، قال ما صنعت شيئاً : قال ما عندى غير هذا : يا أمير المؤمنين ، قال فأنا أخبرك =

بين شكلين ؛ شكل الشورى وشكل الاستبداد، أو شكل الإطلاق والتخصيص ، تولدت في ثنايا الخلافة جرائيم النزاع حتى أفضى الأمر بعد إلى التغالب ، والغالب بالضرورة قهار قلما يراعى أميال الأمة وتحرى قاعدة الشورى التي نوه بمحاسنها الشرع ، فلا جرم أن تستحيل حكومة ذلك مآل رياستها إلى استبداد قاهر بعيد عن مقاصد الإسلام غالب للمسلمين على أمرهم كما حصل بعد ، وكان سبباً عظيماً لكمون الضعف في ثنايا القوة المريعة التي قامت بها دول الإسلام ، حتى إذا آن أوان الراحة والنزوع إلى التمتع بجنى الإسلام أخذ ذلك الضعف يظهر في كل جزء من أجزاء الأمة ، وفي كل عضو من أعضائها كما كان أو محكوماً حتى بلغ لهذا العهد غاية تنذر بانحدار سريع لا وقوف معه ، من شاهق ذلك المجد القديم والقوة الماضية التي بلغت في عصرها أقصى ما تبلغه قوى الدول القائمة في إبان زهوها .

إن الدول ما زالت تقوم وتقع وتضعف وتقوى ، والأمم كذلك ، غاية ما في الأمر أن الضعف إذا تناهى يغير أحياناً شكل الأمم ، كما لو قيل إن الرومان أخلفهم الهاليان وإن اليونان أخلفهم البيزنطيون ، وإن هؤلاء أخلفهم الأروام ، والأصل في الحقيقة لكل شعب واحد تقمص قديمه بجديده

لأنه لم تشتت بين المسلمين ولا فرق أهواءهم إلا الشورى التي جعلها عمر إلى ستة نفر ، وذلك أن الله بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المفركون ، فعمل بما أمره الله به ثم قبضه الله إليه وقدم أباً بكر للصلاة ، فرضوه لأمر دينهم لأمر دينه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمر دينهم ، فعمل بسنة رسول الله وسار بسيرته حتى قبضه الله ، واستخلف عمر فعمل بمثل سيرته ثم جعلها شورى بين ستة نفر فلم يكن رجل منهم إلا رجاءها لنفسه ورجاءها له قومه ، وتطلعت إلى ذلك نفسه ، ولو أن عمر استخلف عليهم كما استخلفه أبو بكر ما كان في ذلك اختلاف اهـ

وقول معاوية هذا فيه روح من الحق والصواب ، ولكن عمر رضي الله عنه لم يرد فيما صنع إلا الخير لأنه رأى أن لا يتحمل تبعية الخلافة ميتاً كما تحملها حياً ، فلم يمهّد إلى شخص بعينه وخاف أن يركبها لرأى الأمة واختيارها ، فيقع الخلاف الذي أشار إليه معاوية ووقع من حيث ظنه عمر رضي الله عنه لا يقع .

في شكل آخر ولومزيجاً، وأقام له دولة غير الأولى . وهكذا الشأن في كل أمم المغرب مع ما لافته من ضروب الشقاء والاستبداد ، وما انتابها من القوة والضعف ، فإنها مازالت تسقط وتقوم وتعالج أنواع الأرزاء ، وتحاول بعد الهبوط إلى الخضيض العروج إلى السماء ، حتى بلغت من الحياة هذا المبلغ الذي يرى الآن ، وتقمصت في شكل جديد لم تر مثله عين الزمان .

رب سائل يسأل كيف إذن لم يتلاف المسلمون أمر ذلك الضعف ، واستمروا منذ أخذوا بالتقهقر في منحدرهم الذي لا نهاية له غير الموت والخذلان ، مع ما يشاهدونه من حال الملل الأخرى التي صار إليها ملك الإسلام . فالجواب عنه أن ذلك الضعف الذي أشرنا إلى أنه كن في ثنايا القوة منذ تأسست دولة المسلمين إنما منع المسلمين عن تلافيه ، بل وألجأهم للإعراض عن معالجته أمران : الأول : ما قدمناه من عدم توافر شروط الشورى والاختيار في البيعة ، بحيث أخذت الخلافة شكلاً ترك ثغرة كبرى للولوج إليها من طريق القوة والتغالب فأوجد نزاعاً مستمراً من أجلها في الأمة أفضى إلى مصير الأمر ليد الغالب والغالب لا يتقيد بالشورى ولا يجارى رغائب الأمة بالضرورة .

والأمر الثاني : اصطباغ الدولة منذ نشأتها بصبغة دينية مهدت السبيل لأولياء أمر الأمة بعد الخلفاء الراشدين ، للأخذ على أيدي الرعية وأفواهاها باسم الدين وجعل الحياة السياسية للأمة حياة دينية لا سبيل معها لنوابغ الأمة ، وعقلانها للتنقل بها في مدارج الرقي الطبيعي الذي تقتضيه حالة كل عصر سواء كان في حياة الأمم السياسية أو حياتها الاجتماعية ، لا سيما بعد أن قالوا بجرمة الاجتهاد ووقفوا عند حد محدود من الفروع ، وهذا ما جعل ذلك الضعف الكامن ينمو في جسم الأمة نمواً جعلها تأنس بحياة السكون والاستسلام ، وتعطى بأزمته إلى الأمراء والحكام حتى في عصر زال فيه

الاعتقاد بوجود الطاعة العمياء للأمرأ وجوباً دينياً ، وعرف أكثر عقلاء المسلمين أن الدين إن يكون مانعاً من قيام الدول على قاعدة مراعاة الأصلح وإنما هو تأثر النفوس بحكم العادة المألوفة للآباء أخذ بأعنة الأبناء إلى سلوك سبيل الاقتداء .

واعلم أن الشارع جواز الاجتهاد بأحكام المعاملات دون العبادات ، وهى العقائد والأعمال لأن الأولى تتعلق بمصلحة المسلمين الدنيوية ، والثانية تتعلق بمصلحتهم الدينية والنصوص الدينية لا اجتهاد فيها لأنها قطعية ، وأما المعاملات فقد اعتبرها الشارع دنيوية وأجاز فيها الاجتهاد تيسيراً على الأمة فى وضع الأحكام بإزاء الحوادث التى لا تنهاى . هذا فى المعاملات فما بالك بأمور الأمة السياسية التى يناط بها قيام الدول ، لا جرم أنها أولى أن تعتبر دنيوية وأن تكون لذلك حياة المسلمين السياسية غير حياتهم الدينية . ولا يعترض هنا أن الكتاب الكريم أمر بالشورى ، ووعد المؤمنين بالاستخلاف فى الأرض ، وأن فى هذا إشارة إلى كيفية وضع الحكومة ووجوب كونها شورية ، فاستلزم ذلك أن تكون دينية إذ هذه أصول أو كليات يتمشى عليها ما يتمشى على كليات الأحكام الأخرى ، من جواز الاجتهاد فى جزئياتها وفروعها لجعلها دائرة مع المصلحة الدنيوية . ومقومات الحكومة كثيرة لا تنحصر فى الكليات ولا تختص بزمان أو مكان ، بل هى تابعة للحاجة سائرة مع ترقى الزمان ، ومن ثم كانت حياة المسلمين السياسية بعيدة بالضرورة عن الحياة الدينية لأنها قائمة بالاجتهاد السائر مع الحاجة الدائر مع المصلحة .

لا جرم أن الصحابة عرفوا هذا الأصل ففتح الخلفاء الراشدون منهم إلى الشورى فى تدبير أمور الدولة كما رأيت من سيرة الخلفتين مافيه الكفاية وعرفوا أن لهم ما وراء ذلك الأصل أن يأخذوا بما هو نافع لهم من مقومات الملك ، لأنه منوط بالمصلحة التى يقتضيها التيسير على المسلمين وتستلزمها حاجة

الدولة فأخذوا أصول الحكومة الإدارية عن الفرس ، كتدوين الدواوين وفرض العطاء ومسح الأرضين وإحصائها ووضع الخراج عليها واستعمال التاريخ ، وغير ذلك مما مر بك ذكره في هذا الكتاب وفاتهم أن يأخذوا عن الرومان أصول الحكومات النيابية الثابتة التي تقوم بالتكافل بين أفراد الأمة وتضمن استمرار قاعدة الشورى التي أوجبها الكتاب الكريم ، وإنما أذهلهم عن هذا أن ليس لديهم تاريخ في أصول الحكومات يرجعون إليه ، وكانت الحكومات النيابية بعيدة العهد يومئذ من مجاورهم الرومانيين فلبجئوا إلى إناطة كل شئون الدولة السياسية والدينية بالخليفة ومضى هذا الأمر على وجهه ، حتى جاء عصر كان الإمام فيه هو المتسلط على كل شئون الدولة تسليطاً ملازماً لتسلطه الديني فكما أن له أن ينيب عنه إماماً في الصلاة فله أن ينيب عنه قاضياً للقضاء ، وكانت الخلافة لذلك أشبه بالدينية منها بالسياسة وامتزجت بسبب ذلك السياسة بالدين امتزاجاً أدى إلى استمرار سير الحكومة على نمط واحد وجمود الأفكار على مبدأ الخضوع المطلق للأمير باعتبار أن الأمير رئيس ديني يجب له الطاعة مع التغاضي عما يجب عليه في مقابلها من العدل .

إن اصطباغ المسلمين في حياتهم السياسية بصبغة الدين حول الأحزاب السياسية التي تقوم في الدول الخيرية الأمة ومصلحة الشعب إلى فرق دينية كانت في الإسلام آفة الدين ، ومفرق شمل المسلمين ، ومثاله أن الأحزاب السياسية التي قامت في الصدر الأول لمطلق الغرض السياسي أو الاتهام لزيد والأخذ بناصر بكر ما لبثت أن انقلبت إلى فرق دينية ، ومشت إلى الانتحال في الدين كالخوارج مثلاً فإنهم بعد أن كانوا يذهبون إلى عدم لزوم الخلافة ووجوب العمل بمبدأ التعاون العام في أمور الدين والدنيا ، انقلبوا إلى نحل دينية فرقت شمل المسلمين . وكالشيعية فإنهم بعد أن كانوا ينتصرون لعلي رضي الله

عنه لاعتقاد أنه أهل للخلافة ويريدونه عليها ولو بالقوة انقلبوا أيضاً إلى اعتقاد وجوبها لآل البيت وجوباً دينياً وانفردوا بمذاهب خاصة ، كلها ترمى إلى الدين وبالدين ، وكان في غضون ذلك ما كان من الفن التي أنهكت قوى المسلمين ، وصبغت بدمائهم أديم الأرض باسم الدين . والدولة الإسلامية واقفة بين كل هذه الفن والشقاق ، والتحزب والافتراق ، في مركز واحد ومتجهة إلى وجهة واحدة لم يطرأ على صبغتها تغيير إلا بتحوّلها من الشورى إلى الاستبداد ، مع أن المعهود في الدول التي تنتابها الفن وتقوم فيها الأحزاب أن ينتاب صبغتها التغيير وتقلب أشكالها بتقلب الزمان وقيام الفن بين الأحزاب السياسية في كل مكان .

هذا الإجمال ينبئك كيف استحکم دام الضعف في الأمة الإسلامية مع أنه عارض قد كان في الإمكان تلافيه ، قبل أن يستحيل إلى جمود أذهل الأمة لهذا العهد عما يحيط بها في هذا الوجود وظهر أثره حتى على أعمال المسلمين وأخلاقهم وعقائدهم وعوائدهم ، بحيث صاروا لا يقبلون أى جديد إلا باسم الدين ويرفضون كل أمر نافع إذا لم يعرف عن أسلافهم الميتين ، حتى سبقتهم في مضمار الحياة كل الأمم المسيحية والوثنية وسادت على دولهم أضعف الدول الغربية ، وهم يدافعون الخير ويأبون مجارة الأمم لمطلق التوهم في أن مجارة السابقين خروج عن الدين وأن الإسلام والعباد بالله قد حرم كل أمر نافع على المسلمين ، إلا ما قال بحله شيخ من الشيوخ الماضين ، وهذه غاية من الهوس بالدين لم تبلغها أمة في الأولين ولا الآخرين ، والله يشهد ورسوله والملائكة والعقلاء كافة أن الإسلام برى مما يزعمون . وإليك مثالا من هذا الهوس الذى جعلوه آلة لهدم تعاليم الإسلام وهم لا يشعرون .

قامت في هذه الأثناء فتنة كبرى بين أميرين من أمراء نجد وهما يتنازعا نالإمارة فرأيت بعض نهاء النجديين ونصحته في تلافى أسباب هذه الفتنة

بالانضمام إلى الدولة العثمانية قبل أن تمتد إلى البلاد يد أجنبية ، فأجابني إن هذا من النفوس ، لكن النجديين يأبون دخول المستعبدات العصرية إلى بلادهم ولا سيما نظام الجندية الحديث ، والدولة العثمانية تريد على مثل هذا النظام وهو في نظرهم من الحرام الخ .

فانظر يا أخى إلى هذه الأمة التى خاضت بخيالها على عهد الفتح الإسلامى شطوط المحيطين ، وبلغت دولتها من القوة الحربية مبلغاً لم تصل إليه دولة قط ، كيف بلغ بها الهوس بالدين إلى هدم أهم ركن من أركانه وهو الجهاد الذى لا يتم إلا بالعمل بقوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) الآية ، ومن البدهى أن مبلغ الاستطاعة فى هذا العصر هو تنظيم الجندية على وجه تضارع به قوة الأعداء القائمة بنظام الجندية أيضاً ، وترتيبها على هذا النمط الجديد المعروف لهذا العهد الذى ثبت عند كافة الأمم أنه خير ما انتهى إليه العقل البشرى فى استكمال أسباب القوة وحفظ البيضة والدود عن حياض الملك والاستقلال ، هذا من وجه ؛ ومن وجه آخر فإن نظام الجندية الحديثة الذى يراه أولئك القوم من المحرمات له مزية لإعداد الأمة بأجمعها للحرب وتعويدها على تحمل أعباء الجندية ، حتى تصير بطبعها أمة حربية تتجافى جنوبها عن مضاجع الراحة وتأنف الإخلاد إلى ظل القصور ، وهذا خلق طبيعى فى العرب ، فما الذى يدعوهم إلى الهروب منه واعتقاد حرمة إلا ما ذكرناه من هوس الأمة بالدين ، على غير علم بأنها تهدم بهذا الهوس أركان الدين ، وتنحدر فى تيار الاضمحلال العاجل مع المنحدرين ، وبالإجمال فإن حياة المسلمين السياسية لما لم تقم على أصول الشورى القانونية وجعلت من مبدأ تكوين الدولة حياة دينية ترك فيها القياد إلى أمير واحد تناط به كل شؤون الدين والدولة ، فقد دخل عليها الاضطراب من عهد الخليفة الثالث كما سترى بعد وانصبغت بسببها الأمة بصبغة الدين فى كل شئونها الدنيوية ..

على أن اصطياغ الأمة بهذه الصيغة الدينية وإن تأتى عن جعل الحياة السياسية حياة دينية كما قدمنا ، إلا أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يريدوا بها إلا تحرى المصلحة على قدر ما وصل إليه علمهم واجتهادهم ، وفيما عدا هذا فإنهم لم يحرصوا أنفسهم ولا المسلمين في أمور الدولة الإدارية وأمور المسلمين الاجتماعية بمقدار ما أخرج هؤلاء بعد سوء الفهم وندرة المفهمين ، إذ الصحابة أخذوا عن مشركي الفرس وأهل الكتاب كل ما بلغ إليه علمهم من الأمور النافعة التي هي من ضروريات حياة الأمم والدول بلا أدنى تخرج في الدين كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب وخصوصاً في سيرة عمر رضى الله عنه .

خبر الشورى ومعرفة عثمان :

نقلنا في النصف الأول من هذا الكتاب شيئاً من خبر الشورى عما رواه ابن عبد ربه في العقد ، ووعدنا باستيفاء البحث وقد رأينا روايات كثيرة في خبر الشورى أعدها طهجة وأقربها للحق والصواب وأبعدها عن التحريف ما اختاره ابن جرير الطبرى ، فأثرنا نقله على غيره من الروايات لو ثوقنا باعتدال الطبرى وتحريه لأصدق الحديث ، وقد روى الطبرى في أول قصة الشورى ما هو بمعنى ما نقلناه عن العقد وزاد فيه أن عمر رضى الله عنه لما عهد لل ستة أمرهم بالاجتماع قريباً منه ليتشاوروا فيما بينهم ، فاجتمعوا وتناجوا ثم ارتفعت أصواتهم فقال عبد الله بن عمر : سبحان الله إن أمير المؤمنين لم يمت بعد : فاسمعه فانتبه فقال : ألا أعرضوا عن هذا أجمعون ، فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام وليصل بالناس صهيب ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ، ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً ولا شئ له من الأمر ، وطلمحة شريككم في الأمر فإن قدم في الأيام الثلاثة فأحضره أمركم . ومن لى بطلمحة : فقال سعد

ابن أبي وقاص. أنا لك به ولا يخالف إن شاء الله . فقال عمر أرجو أن لا يخالف إن شاء الله . وما اظن أن يلى إلا أحد هذين الرجلين . على وعثمان . فإن ولى عثمان فرجل فيه لين ، وإن ولى على ففيه دعاية وأحذر أن يحملهم على طريق الحق . وإن تولوا سعداً فأهلها هو وإلا فليستعن به الوالى فإنى لم أعزله عن خيانة ولا ضعف . ونعم ذو الرأى عبد الرحمن بن عوف مسدد رشيد له من الله حافظ فاسمعوا منه . وقال لأبى طلحة الأنصارى . يا أبا طلحة إن الله عز وجل طالما أعز الإسلام بكم فاختر خمسين رجلا من الأنصار فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم .

وقال للقداد بن الأسود إذا وضعتمونى فى حفرتى فاجمع هؤلاء الرهط فى بيت حتى يختاروا رجلا منهم . وقال لصهيب صل بالناس ثلاثة أيام ، وأدخل علياً وعثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن عوف وطلحة إن قدم ، وأحضر عبد الله بن عمر ولاشئ له من الأمر وقم على رءوسهم فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحد فاشدخ رأسه أو اضرب رأسه بالسيف ، وإن اتفق أربعة فرضوا رجلا منهم وأبى اثنان فاضرب رءوسهما ، فإن رضى ثلاثة رجلا منهم وثلاثة رجلا منهم فحكموا عبد الله بن عمر فأبى الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم ، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فليكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقيين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس .

نشر جوا فقال على لقوم كانوا معه من بنى هاشم : إن أطيع فيكم قومكم لم تؤمروا أبداً . وتلقاه العباس فقال ، عدلت عنا . فقال وما علمك . قال : قرن بنى عثمان وقال كونوا مع الأكثر فإن رضى رجلان رجلا ورجلان رجلا فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف . فسعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن ، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون ، فيولياها عبد الرحمن

عثمان أو يوليها عثمان عبد الرحمن : فلو كان الآخران معي لم ينفعاني بله أنى لا أرجو إلا (١) أحدهما . فقال العباس . لم أدفعك في شيء إلا رجعت إلى مستأخراً بما أكره ، أشرت عليك عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسأله فيمن هذا الأمر فأبيت . وأشرت عليك بعد وفاته أن تعاجل الأمر فأبيت ، وأشرت عليك حين سماك عمر في الشورى أن لا تدخل معهم فأبيت . احفظ عني واحدة ، كلما عرض عليك القوم فقل لا إلا أن يولوك ، واحذر هؤلاء الرهط فانهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الأمر حتى يقوم لنا به غيرنا ، وإيم الله لا يناله إلا بشر لا ينفع معه خير ، فقال عليّ أما لئن بقي عثمان لأذكرنه ما أتى ، ولئن مات ليتداولنا بينهم . ولئن فعلوا ليجدني حيث يكرهون ثم تمثّل .

حلفتُ ربِّ الراقصات عشيّةً غدون خِفافاً فابتهرنَ المُحصَّباتِ
ليختلبنَ رهط ابنِ يَعمَرَ مارثاً نحيباً بنو الشداخ ورداً مُصلِّباتِ

والتفت فرأى أبا طلحة فكره مكانه ، فقال أبو طلحة لم ترع أبا الحسن . فلما مات عمر وأخرجت جنازته تصدى على وعثمان أيهما يصلى عليه ، فقال عبد الرحمن كلا كما يحب الإمرة لستما من هذا في شيء هذا إلى صهيب استخلفه عمر يصلى بالناس ثلاثاً حتى يجتمع الناس على إمام : فصلى عليه صهيب .

فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى في بيت المستور بن مخزومة ، ويقال في بيت المال ، ويقال في حجرة عائشة يأذنها ، وهم خمسة معهم ابن عمر وطلحة غائب وأمروا أبا طلحة أن يجيبهم وجاء عمرو بن العاص والمغيرة وابن شعبة فجلسا بالباب ، فحصبهما سعد وأقامهما وقال . تريدان أن تقولاً حضرنا وكنا في أهل الشورى

(١) لعل (ألا) زائدة إذ الظاهر أن ليس معه أحد يستثنيه هنا فليحذر

فتنافس القوم في الأمر وكثر بينهم الكلام فقال أبو طلحة . أنا كنت لأن تدافعوها أخوف مني لأن تنافسوها لا والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي أمرتم ثم أجلس في بيتي فأنظر ما تصنعون .

فقال عبد الرحمن أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم فلم يجبه أحد . فقال ، فأنا أنخلع منها ، فقال عثمان أنا أول من رضى فقد سمعت رسول الله يقول (أمين في الأرض أمين في السماء) فقال القوم قد رضينا وعلى ساكت . فقال ما نقول يا أبا الحسن . قال أعطني موثقاً لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رحم ولا تألوا الأمة .

فقال أعطوني موثيقكم على أن تكونوا معي على من بدل وغير وأن ترضوا من اخترت ، ولكم على ميثاق الله أن لا أخص ذا رحم لرحمه ولا آلو المسلمين ، فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله . فقال لعلي إنك تقول لاني أحق من حضر بالأمر لقرابتك وسابقتك وحسن أثرك في الدين ولم تبع ، ولكن أرايت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر ، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر ؟ قال عثمان ، وخلا بعثمان فقال تقول شيخ من بنى عبد مناف وصهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن عمه لى سابقة وفضل فلن يصرف هذا الأمر عني . ولكن لو لم تحضر فأى هؤلاء الرهط تراه أحق به ؟ قال ، على . ثم خلا بالزبير فكلمه بمثل ما كلم به علياً وعثمان ، ثم خلا بسعد فكلمه . فلقى على سعداً فقال له : اتقوا الله الذي تساملون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً : أسألك برحم ابني هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وبرحم عمي حمزة (١) أن لا تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيراً على فاني أدلى بما لا يدلي به عثمان .

(١) قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة . رحم حمزة من سعدى أن أم حمزة هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة ، وهى أيضاً أم المقوم . وحجل واسمه المغيرة . والعوام =

ودار عبد الرحمن لياليه يلقي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن
وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس يشاورهم ، ولا يخلو برجل
إلا أمره بعثمان حتى إذا كانت الليلة التي يستكمل في صبيحتها الأجل أنى.
منزل المسور بن مخرمة بعد ابهيرار^(١) من الليل فأيقظه فقال : ألا أراك نائماً
ولم أذك في هذه الليلة كثير غمض ، انطلق فادع الزبير وسعداً ، فدعاهما ،
فبدأ بالزبير في مؤخر المسجد في الصفة التي تلى دار مروان ، فقال له خل
ابنى عبد مناف وهذا الأمر : قال نصيبى لعلى ، وقال لسعد إذا و انت
كلالة^(٢) فاجعل نصيبك لى فأختار . قال إن اخترت نفسك فنعم وإن
اخترت عثمان فعلى أحب لى : أيها الرجل بايع لنفسك وأرحنا وارفع
رءوسنا . قال يا أبا إسحق إنى قد خلعت نفسي منها على أن اختار ولو لم أفعل
وجعل الخيار لى لم أردها لى أريت كروضة خضراء كثيرة العشب فدخل
فحل لم أر خلا قط أكرم منه فركأه سهم لا يلتفت لى شىء مما فى الروضة
حتى قطعها لم يعرج ، ودخل بعير يتلوه فاتبع أثره حتى خرج من الروضة
ثم دخل فحل عبقرى^(٣) يجرح خطامه^(٤) يتلفت يميناً وشمالاً ويمضى
قصد الأولين حتى خرج . ثم دخل بعير رابع فرقع فى الروضة ولا والله
لا أكون الرابع ، ولا يقوم مقام أبى بكر وعمر بعدهما أحد فيرضى الناس
عنه قال سعد . فإنى أخاف أن يكون الضعف قد أدركك فامض لى أريك فقد
عرفت عهد عمر .

== ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف هؤلاء أربعة بنوعبدالمطلب من هالة وهالة هذه هى
عمة سعد بن أبى وقاص فحمة لذن ابن عمة سعد، وسعد ابن خال حمة .

(١) أى بعد انتصافه

(٢) الكلالة بنو العم الأباعد

(٣) العبقرى القوى

(٤) الخطام أى الزمام

وانصرف الزبير وسعد وأرسل (أى عبد الرحمن) المسور بن مخرمة إلى على فتاباه طويلا وهو لا يشك أنه صاحب الأمر ، ثم نهض . وأرسل المسور إلى عثمان فمكأن في نجيتهما حتى فرق بينهما أذان الصبح قال عمرو بن ميمون قال لى عبد الله بن عمر ياعمرؤ من أخبرك أنه يعلم ما كلم به عبد الرحمن بن عوف علياً وعثمان فقد قال بغير علم فوقع قضاء ربك على عثمان .

فلما صلوا الصبح جمع (عبد الرحمن) الرهط وبعث إلى من حضره من أهل السابقة والفضل من الأنصار وأمرأه الأجناد ، فاجتمعوا حتى التجم (ازدحم) المسجد بأهله فقال . أيها الناس إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم . فقال سعيد بن زيد إنا نراك أهلا لها . فقال أشيروا على بغير هذا . فقال عمار : إن أردت أن لا يختلف المسلمون فبايع علياً . فقال المقداد بن الأسود صدق عمار إن بايعت علياً قلنا سمعنا وأطعنا . قال ابن أبي سرح إن أردت أن لا يختلف قريش فبايع عثمان . فقال عبد الله بن أبي ربيعة صدق إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا . فشتهم عمار بن أبي سرح وقال متى كنت تنصح المسلمين . فتكلم بنو هاشم وبنو أمية . فقال عمار أيها الناس إن الله عز وجل أكرمنا بنبيه وأعزنا بدينه فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم . فقال رجل من بنى مخزوم لقد عدوت طورك يا بن سمية وما أنت وتأمير قريش لأنفسها . فقال سعد بن أبي وقاص يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس . فقال عبد الرحمن لى قد نظرت وشاورت فلا تجعل أيها الرهط على أنفسكم سبيلا . ودعا علياً وقال عليك عهد الله وميثاقه لئعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفين من بعده . فقال أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ على وطاقتى ، ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلى . قال نعم . فبايعه فقال على

حبوته حبو دهر ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك ، والله كل يوم هو في شأن . فقال عبد الرحمن يا على لا تجعل على نفسك سبيلًا فإني قد نظرت وشاورت الناس فإذا هم لا يعدلون بعثمان . فخرج على وهو يقول . سيبليخ الكتاب أجله . فقال عمار يا عبد الرحمن أما والله لقد تركته ولأنه من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون . فقال يا عمار والله لقد اجتهدت للمسلمين . قال إن كنت أردت بذلك الله فأنا بك الله ثواب المحسنين . وقال المقداد ما رأيت مثل ما أوتى إلى أهل هذا البيت بعد نبهم ، إني لأعجب لقريش أنهم تركوا رجلا ما أقول إن أحداً أعلم ولا أقضى منه بالعدل ، أما والله لو أجد أعوانا .

فقال عبد الرحمن يا مقداد اتق الله فإني خائف عليك الفتنة . فقال رجل للمقداد . رحمك الله من أهل هذا البيت ومن هذا الرجل . قال أهل البيت بنو عبد المطلب والرجل على بن أبي طالب . فقال على إن الناس ينظرون إلى قريش وقريش تنظر إلى بيتها (وفي نسخة تنظر في صلاح شأنها) فتقول إن ولي عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً وما كانت في غيرهم من قريش تداولتموها بينكم وقدم طلحة في اليوم الذي بويع فيه لعثمان . فقيل له بايع عثمان . فقال أكل قريش راض به قيل نعم فأنى عثمان فقال له عثمان أنت على رأس أمرك إن أبيت رددتها . قال أتردها . قال نعم . قال أكل الناس بايعوك . قال نعم . قال قد رضيت لا أرغب عما قد اجتمعوا عليه . وبايعه .

وقال المغيرة بن شعبة لعبد الرحمن يا أبا محمد قد أصبت إن بايعت عثمان وقال لعثمان لو بايع عبد الرحمن غيرك مارضينا ، فقال عبد الرحمن . كذبت يا أهو رلو بايعت غيره لبايعته ولقلت هذه المقالة .

وكان المسور بن مخزمة يقول . ما رأيت رجلاً بذ (١) قوماً فيما دخلوا فيه بأشد مما بذهم عبد الرحمن بن عوف .

هذا ما رواه الطبري في تاريخه عن خبر الشورى وقد أورد بعد هذه الرواية رواية أخرى لا تخرج عن معنى ما تقدم في الرواية الأولى ، إلا أنه أورد فيها ما دار من الخطب بين أهل الشورى مما لم نر حاجة لإيراده خوف التطويل ، وزاد فيها أن عبد الرحمن بن عوف لما بايع عثمان ازدحم الناس عليه يبائعونه حتى غشوه عند المنبر ، فقعد عبد الرحمن مقعد النبي صلى الله عليه وسلم من المنبر وأقعد عثمان على الدرجة الثانية فجعل الناس يبائعونه ، وتلكاً على فقال عبد الرحمن (ومن تكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً) فرجع على يشق الناس حتى بايع وهو يقول . خدعة وأيما خدعة . قال وإنما سبب قول على خدعة ، أن عمر بن العاص كان قد لقي علياً في ليالى الشورى فقال إن عبد الرحمن رجل مجتهد وإنه متى أعطيته العزيمة (٢) ، كان أزهده له فيك ولكن الجهد والطاقة فإنه أرغب له فيك . قال : ثم لقي عثمان فقال إن عبد الرحمن رجل مجتهد وليس والله يبائعك إلا بالعزيمة فأقبل : قال فلذلك قال على . خدعة :

واختلفوا في اليوم الذى بويع فيه عثمان ، ففي رواية للطبري أنه بويع يوم الاثنين لليلة بقيت من ذى الحجة سنة ٣٣ فاستقبل بخلافته المحرم سنة ٣٤ ، وفي رواية أخرى له أيضاً أن عثمان استخلف لثلاث مضين من المحرم سنة ٣٤ نثرج فصلى بالناس العصر ، ولعله الأصح .

(١) أى غلبهم

(٢) أى متى أسرعت بالنسليم لا يشترطه عليك .

هل هناك تحامل على علي :

هذا ما أورده الطبري من قصة الشورى وأنت ترى من ظاهر هذه القصة أن القوم ربما تحاملوا على علي رضي الله عنه بصرف الخلافة عنه إلى عثمان رضي الله عنه ، والذي أعتقده أن قريشا وإن كانت لا تريد استخلاف علي لأسباب سيأتي بيانها إلا أن الخلافة من أبي بكر إلى عثمان ثم على ترتيب طبيعي أتى بحكم الحاجة وعلى وفق المعروف يومئذ للمسلمين ، والثابت عندهم من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم التي تشير إلى مثل هذا الترتيب ^(١) ، في المقام والدرجة التي وضع كلا منهم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى نفسه يعرف ذلك ويعترف به فقد أخرج الحافظ بن عساكر في تاريخه من طرق شتى عن عمر بن حريث وعن شريح القاضي أنهما سمعا علي بن أبي طالب يقول (ألا إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ، ثم عمر . ثم عثمان) وأخرج هذا الحديث الإمام أحمد وقال الذهبي إنه متواتر ، كما أن أخلاق الأربعة واستعدادهم وأعمارهم أهلت كل فرد منهم

(١) منها قوله صلى الله عليه وسلم (أرحم أمتي بأمتي أبو بكر . وأشد هم في أمر الله عمر . وأصدقهم حياء عثمان وأتضاهم على الخ . أخرجه أبو يعلى عن ابن عمر ورواه أحمد والتزمذي عن أنس ، لكن ليس فيه علي ومنها قوله صلى الله عليه وسلم لزيد بن أرقم انطلق حتى تأتي أبا بكر فتجده في داره جالسا محتببا فقل له إن النبی یقرأ عليك السلام ويقول أبعمر بالجنة وانطلق إلى عمر ... وانطلق إلى عثمان ... الحديث ، أخرجه ابن عساكر في تاريخه .

ومنها ما رواه البخاري عن ابن عمر قال : كنا نغير بين الناس زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخير أبا بكر ثم عثمان وزاد الطبراني في الكبير فيعلم بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا ينكره ، ومثله ما أخرجه ابن عساكر عن ابن عمر قال كنا وفيما رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فضل أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً . وقد ورد كثير من مثل هذه الأحاديث ولا سيما ما يشير منها إلى ما يحصل لعثمان وعلي وما يكون من الفتنه في عصرهم وكلها تشير إلى هذا الترتيب فلتراجع في مظانها من كتب الحديث

للخلافة في العصر الذي استخلف فيه ليس باعتبار أن كل واحد أفضل من الآخر أو أهل منه ، كلا بل إن لكل واحد منهم خصالا فاضلة تجعله أهلا لذلك المنصب ، لكن في الوقت الذي أسند فيه إليه ، فأبو بكر لما كان رجلا مسنأ طويل الأناة رءوف القلب وله في النفوس هبة الصحبة القديمة واحترام الشيخوخة كان مصير الخلافة إليه والإسلام غصاً طرياً والإيمان لم يأخذ مكانته من قلوب الأمة العربية ، والأعداء كثيرون يتربصون بالمسلمين الشر من قبيل وضع الشيء في محله ، وملافاة المرضى بطبيبه يدل ذلك عليه قول ابن مسعود الذي مر معنا في أخبار الردة (لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما كدنا نهلك فيه لولا أن من الله علينا بأبي بكر الخ) وابن مسعود إنما قال ما قال وهو الثقة الخبير عن مشاهدة وعيان وتقدير لعمل أبي بكر رضى الله عنه يومئذ ، وحسب العاقل أن ينظر في سيرة أبي بكر وأخباره مع أهل الردة وتأنيه في مثل تلك الخطوب التي استقبلها بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم المسلمون فيعلم أن كلام ابن مسعود حق لا ريب فيه تؤيده سيرة أبي بكر رضى الله عنه .

استخضع أبو بكر أولئك الخارجين بالحرب ، واستسلس بعد ذلك قياد زعمائهم بالإحسان إليهم والصفح عن مسيئتهم ، ولأن جانبهم للمسلمين فأطاعوه وأحبوه فرمى بهم جيوش الفرس والروم ، ولما تمهد لهم طريق الفتح ، وفتح أمامهم باب مستقبل سعيد تولد في النفوس من الآمال ومر عليها من الخواطر ما أزعجها عن مطمئن الراحة ، ونفت فيها روح الكبرياء والتنافس هذا مع اتساع دائرة الإسلام وكثرة الداخلين فيه من جفاة الأعراب فاحتج إلى رجل شديد مهاب بعيد عن نزق الشباب وضعف الشيوخ يلين تارة من غير ضعف ، ويشدد أخرى من غير عنف ، وكان عمر بن الخطاب معروفًا بالشدة والإرهاب حائزاً لهذه الشروط ، فعمد إليه أبو بكر بالخلافة وهي له بطبيعة الحال وحكم الحاجة ولو لم يعمد إليه أبها أبو بكر ، والذي يراجع ما كتبناه

من سيرته يعلم ذلك ويرى كيف كانت الأمة والزمان والمكان في حاجة إلى مثله تسوق الخلافة إليه سوقاً ، ثم كان عمر شديداً بطبعه ميالاً إلى التنكشف والقصد ، وقد أخذ على شكائهم النفوس أخذاً ضيق في وجوه القوم مذاهب التبسط في العيش والتطلع إلى كل رغائب النفوس مع إقبال الدنيا عليهم ، ومصير ذلك الملك العريض إليهم احتاجوا بعده إلى سائس يبسط إليهم كف العطاء . ويلين لهم جانب العقوبة ويطلق يدهم في جنى ثمرات النصب في ذلك الفتح . وينشر عليهم جناح الرأفة . وكان المترشحون للخلافة من الستة هما عثمان وعلي وعثمان معروف لديهم بلين الجانب وكرم اليد وأناة الشيوخوخة ، كما كان علي معروفًا بالشدة وحب القصد كعمر بن الخطاب اتجهت رعايتهم إلى استخلاف عثمان فاستخلف بطبيعة الحال وحكم الحاجة أيضاً ، لهذا رأينا كل من استشاره عبد الرحمن بن عوف من المسلمين يومئذ فيمن يوليه أشار عليه بعثمان . فعبد الرحمن بن عوف وغيره من الذين أشاروا باستخلاف عثمان سيقوا إلى هذا بساقة الحاجة والرغائب ومحض الاعتقاد بأهلية عثمان بذلك عليه مارواه ، ابن سعد وابن عساكر والحاكم عن ابن مسعود أنه قال لما بويع عثمان (أمرنا خير من بقي ولم نأل) فإذا كان هذا مبلغ اعتقادهم بعثمان رضى الله عنه ، وهذه شهادة ابن مسعود له مع أنه ممن ضربهم عثمان ونقم منه فيمن نقم ، لأجل هذا فليس هناك شيء من التحامل كما يتبادر إلى ذهن القارئ من قصة الشورى . وما روى في تلك القصة عن حكاية عمرو بن العاص وخدعته فهو إذا صح وما إخاله صحيحاً فإنما هو بمحض رأى عمرو ، لا يد لعبد الرحمن رضى الله عنه فيه ، وعمرو سيق إلى هذه الرغبة كما سبق إليها غيره من المهاجرين والأنصار ، لاسيما وأنه لاقى من شدة عمر بن الخطاب ما كان أقله مصادرتة في ماله ، كما رأيت في سيرته فيما مضى فهو بالضرورة يميل إلى عثمان لسهولته أكثر من ميله لعلي لشدته .

وهكذا يقال أيضاً عن علي في خلافته وأنه استخلف في الوقت الذي

كادت تخرج فيه الأمة عن سبيل القصد وتمعن في طرق الاستمتاع ، ونفلت بل وأفلتت فيه من قيد الرهبة الذى قيدها به ابن الخطاب فلم يك وقتئذ أمثل للخلافة وأكبح لجماح النفوس من استخلاف على رضى الله عنه لما عرف به من الشدة والورع وحب القصد مع بلوغه السن الذى يؤهله لهذا المنصب الرفيع .

وقد ذهب بعضهم إلى أن علياً ضعيف الرأى ، لهذا غلبه على الخلافة الثلاثة الذين سبقوه بها وربما احتجوا بقول عمه العباس رضى الله عنه له (لم أدفعك فى شىء إلا استأخرت إلى بما أكره) إلى آخر الخبر الذى مر فى قصة الشورى ، واحتجاجهم بمثل هذا وهم وتسرع فى الحكم لانصيب له من التأمل فيما اكتنف علياً رضى الله عنه من الأحوال والبواعث التى بسطناها للقاء ، وإنما كان هذا الترتيب فى الخلافة أشبه بالانتخاب الطبيعى كما رأيت ، لماذا ينفع فيه الرأى والحيلة لاسيما وأن علياً رضى الله عنه كان كما قلنا فيما سبق من هذا الكتاب شديد الاستمسك بالفضيلة ، لا يزع إلى خدع السياسة وليس هذا وإيم الحق بعيب يعاب به مثل على ، وقد نشأ على التقوى والفضيلة فهو معذور إذا لم يلجأ إلى الحيلة فى بعض الأحيان أنصفه القوم أو لم ينصفوه .

وجملة القول إن مارؤى من الصحابة من صرف الخلافة عن على أو التنجى عن نصرة بنى هاشم فى كثير من الأحوال وإن كان فيه شىء من الخوف من سيادة بنى هاشم الدنيوية فوق سيادتهم الدينية ، ثم استثنائهم إذا صارت الخلافة لإيهم بهذا المنصب الرفيع كما أشار إلى هذا على فى خبر الشورى ، وأشياء أخرى سنأتى على ذكرها فى غير هذا المحل ، إلا أنهم كانوا مسوقين إلى ذلك أيضاً بأحكام الضرورة ودواعى الزمان والمكان ومراعاة رغائب الجمهورى بعض الأحيان ، وهذا ما أراه موافقاً للحقيقة فى هذه المسألة والله أعلم بما وراء ذلك .

أول أعماله في خلافة

لما بويع عثمان رضي الله عنه خطب الناس خطبة غراء في الوعظ ستأتي في باب خطبه ، وقيل أرتج عليه لما أراد أن يخطب فقال : أيها الناس إن أول مركب صعب وإن بعد اليوم أياماً وإن أعش تأتكم الخطبة على وجهها وما كنا خطباء وسيعلمنا الله : (أخرجه ابن سعد) . قالوا وزاد في الأعطيات مائة مائة ووفد أهل الأمصار : قال الطبري وهو أول من فعل ذلك وكان عبيد الله بن عمر لم يزل محبوساً عند سعد بن أبي وقاص منذ أخذه بعد قتله الهرمزان وجفينة ، فلما تمت البيعة لعثمان جلس في جانب المسجد ودعا بعبيد الله وقال لجماعة من المهاجرين والأنصار . أشيروا علي في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق . فقال علي أرى أن تقتله . فقال بعض المهاجرين قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم : وإنما أشار علي بقتله لأنه ثبت يومئذ أن الهرمزان لما ضربه عبد الله بالسيف قال لا إله إلا الله ، كما أنه لم يثبت اشتراكه مع أبي لؤلؤة في جريمته ، إلا بما شهد به عبد الرحمن بن أبي بكر من رؤيته ليلة الحادثة مع أبي لؤلؤة ، وفي يده هذا خنجر سقط منه لما رقهما عبد الرحمن . وكان علي شديداً في الحق فأشار بقتله ، وأشار غيره بعدم قتله ، والأمر كالأمر يخفى على النقاد ويوجب الحيرة والموقف حرج يحتاج إلى أناة وكان من حضر يومئذ عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين إن الله قد أعفالك أن يكون هذا الحدث ولك على المسلمين سلطان إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك . قال عثمان أنا وليهم وقد جعلتها دية واحتملتها في مالي ، وانتهى الإشكال .

هكذا رواها الطبري قال وكان رجل من الأنصار يقال له زياد بن البعيد البياضي إذا رأى عبيد الله بن عمر قال :

ألا يا عبيد الله مالك مهرب ولا ملجأ من ابن أروى ولا خفر

أصبحت دماً والله في غير حله حراماً وقتل الهرمزان له خطر
في آيات . فشكا عبيد الله إلى عثمان ، فدعا زياد بن لييد فنهاه ، فأنشأ زياد
يقول في عثمان آياتاً منها :

أبا عمرو عبيد الله رهن فلا تشكك بقتل الهرمزان

وفي رواية أخرى للطبري ، عن القماذبان بن الهرمزان أن عثمان دعاه
فأمكنه من عبيد الله قاتل أبيه ليقتله فرجاه المسلمون بالعفو عنه فعفى عنه ،
وفي هذا الخبر نظر لأنه لو صح لما بقى على بن أبي طالب مصراً على قتل
عبيد الله حتى خلافته ، حيث دعا ذلك عبيد الله إلى الفرار والانحياز إلى
معاوية بن أبي سفيان .

ومن أحسن أعمال عثمان رضى الله عنه التي عملها عند استخلافه كتيبه
التي كتبها إلى الولاة وعمال الخراج وعامة الناس ، فقد كتب إلى كل فريق من
هؤلاء كتاباً بلغ الغاية في النصيح والإرشاد ، وحمل العمال على طريق العدل
وحثهم على القيام على أخذ الحق من وجهه ، وصرفه في وجهه ، والمساواة
بين الناس مسلمهم ومعهدهم ، كما سترى ذلك في باب كتيبه إن شاء الله .

وكان عمر بن الخطاب قال قبل وفاته (أوصى الخليفة من بعدى أن
يستعمل سعد بن أبي وقاص فإن لم أعزله عن خيانة) ففي رواية أن أول
عامل بعثه عثمان سعد بن أبي وقاص على الكوفة وعزل المغيرة بن شعبه
والمغيرة يومئذ بالمدينة فعمل عليها سعد سنة وبعض أخرى : قال الطبري
وأما الواقدي فقد قال إن أسامة بن زيد بن أسلم حدثه عن أبيه أن عمر
أوصى أن يقر عماله سنة ، فلما ولي عثمان أقر المغيرة بن شعبه على الكوفة ثم
عزله ، واستعمل سعد بن أبي وقاص ثم عزله ، واستعمل الوليد بن عقبة فإن
صح ما رواه الواقدي من ذلك فولاية سعد الكوفة من قبل عثمان كانت سنة ٣٥

فتوحاته

فتح أرمينيا والقوقاز وجغرافيتهما :

تحد أرمينيا من جهة الشمال بالبحر الأسود وكرجستان ، ومن الشرق بكرجستان أيضا وجزء من بلاد فارس ، ومن الجنوب بكرجستان والجزيرة ، ومن الغرب بآسيا الصغرى . هذه حدود أرمينيا الآن إلا أن العرب كانوا يتوسعون بهذا الاسم فرمما أدخلوا في أرمينيا قسما من بلاد القوقاز من جهة الشمال وهو أران المشتغل على مقاطعتي إيروان ونفليس ، وكانوا يسمون هذا القسم باسم الران وهو يمتد شمالا إلى داعستان . وشرقا إلى آذربيجان وبحر الخزر ، وأما من جهة الجنوب فقد كانوا يدخلون فيها قسما من كردستان وهو عمالة بتليس وربما جعلوها من أرمينيا الرابعة التي يجعلون نهاية حدها الجنوبي الجزيرة ، لهذا لم يذكر مؤرخوهم من المتقدمين فتح القوقاز على حدة بل جعلوه مضموما إلى فتح أرمينيا ، ولكي يكون القارىء على بينة من الأماكن التي ورد ذكرها في فتح هذه البلاد في كتب المؤرخين ويفرق بين ما هو تابع منها لأرمينيا وما هو تابع للقوقاز ، رأيت من اللازم التوسع في جغرافية هذين القطرين ، وقبل أن أبسط جغرافية القوقاز أذكر هنا بعض الأماكن الشهيرة في أرمينيا زيادة في الإيضاح .

فن مدن أرمينيا الشهيرة خللاط وقاليقلا وأرزروم أو أرزن الروم (ويقول أبو الفداء إنها نفس قاليقلا) وإلى جهة الغرب منها أرزنجان ثم أرجيش على بحيرة وان ووان المنسوبة إليها هذه البحيرة وهى فى الطرف الشرقى منها وفى الجهة الشرقية من سلسلة جبال أرمينيا جبل الجودى أو أراط الذى رست عليه سفينة نوح . ومن أنهرها الفراء وأراس المعروف عند العرب بنهر الرس وينحدر من الجبال قرب أرزروم ، ويمر بين مقاطعتي القارص وأرزروم ويقطع كرجستان حتى يلتقى مع نهر كور الآن من أعالي القارص وبصبان فى بحر الخزر .

وأما القوقاز فيحدها شمالا روسيا، وجنوبا العجم، وتركيا آسيا وشرقاً بحر الخزر الذى يفصلها عن بقية آسيا الروسية، وغربا البحر الأسود ويسمى العرب هذه البلاد جبال كوه قاف وبلاد القبق، وربما دعوها باسم بلاد الران (أران) من قبيل تسمية السكل باسم الجزء. فن أقسام هذه البلاد الجنوبية أيريا أو كرجستان وعاصمتها تفليس على نهر كور، وهى جزء من بلاد شروان الممتدة شمالا إلى داغستان، ويظهر من سياق خبر الفتح فى تاريخ البلاذرى أن العرب كانوا يسمون هذا الجزء كورة جرزان، وأنه يمتد غربا إلى آسيا الصغرى. ومن مدن الران الشهيرة إيروان وفيها كنيسة كبرى للأرمن، ومن مدنه المشهورة عند العرب منجليس وجرزان وبردعة والباب أو باب الأبواب^(١) واليبلقان: قال الأصبهاني: ليس فى أران مدينة أكبر من بردعة والباب وتفليس، ومن أقسامه الشمالية بلاد الجركس فى الجهة الشمالية من جبل قوقاز ويجرى فيها نهر قوبان الذى يصب فى البحر الأسود ونهر كوما وترك (تهرك) اللذان يصبان فى بحر الخزر: ومن أقسامه داغستان على بحو الخزر، وفيها يجرى نهر سمور فى السهول الواقعة شمال داغستان. ومن مدنها الشهيرة باكو التى فيها منابع النفط، ولعلها التى يسميها القرماني فى جغرافية بالوية. ودر بند على شاطئ بحر الخزر وهى ذات المضيق المعروف بمضيق دربند الذى اجتازه عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي بجيشه إلى السهول الشمالية، حيث قتل على نهر ترك الذى يسميه العرب نهر بلنجر كما سيأتى الكلام على ذلك.

وأما فتح أرمينيا والقوقاز فقد اضطربت الروايات فى فتحهما لتعدد

(١) قال القرماني فى تاريخه ما خلاصته إن باب الأبواب على شاطئ بحر الخزر وإن سبب هذه التسمية أن كسرى أنوشروان لما بناها جعلها على سور فى البحر يمتد مسافة شاسعة، وجعل له أبواباً أسكن فى كل باب قوماً يمنعون سكان البلاد المتصلة بالجبل من الهجوم على بلاده.

الغزوات التي غزاها المسلمون لهذه البلاد في خلافة عمر وعثمان رضى الله عنهما ، فبعضها يقول إن الفتح الأول لهذه البلاد كان سنة ١٨ على يد بكير ابن عبدالله ، وعبدالرحمن بن ربيعة الباهلي وحذيفة بن اليمان من جهة الشرق ، وحبيب بن مسلمة الفهري من جهة الغرب ، وإن عبد الرحمن قتل يومئذ في بلنجر وفي بعضها أن عبد الرحمن قتل ثمة سنة ٣٠ هـ في خلافة عثمان ، وفي بعضها أن الذي قتل في البلنجر أخوه سلمان وذلك سنة ٢٦ وبعضها لا يقول بقتل سلمان بل ببلوغه مدينة الباب فقط في غزوته الثانية ، والذي يؤخذ من مجموع الروايات التي جاءت في فتح أرمينيا أن عبد الرحمن وأخاه سلمان قتلا في بلاد الترك أو الخزر على نهر ترك الذي يسميه العرب نهر بلنجر، وقد ذكر ذلك أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة كل من عبد الرحمن وسلمان وجاراه على ذلك ابن الأثير في أسد الغابة إلا أنهما لم يحققا السنة التي قتل فيها سلمان بل قالوا قتل إنه سنة ٢٦ وقيل إنه قتل سنة ٢٨ وقيل سنة ٣٠ ، وقالوا إن أخاه عبد الرحمن قتل لثمان سنين مضين من خلافة عثمان. والاختلاف في زمن قتل سلمان وعبد الرحمن اختلاف بالضرورة في زمن الفتح أيضاً .

والظاهر أن الاضطراب في هذه الروايات عند مؤرخينا أدخل الغلط في سرد أخبار هذا الفتح على مؤرخي الإفرنج أيضاً ، فقد ذكر ديفرجي أن عبد الرحمن غزا أرمينيا قبل قتل يز دجرد بمدة ولم يعين تاريخ دخوله أرمينيا ، ثم نقل عن أحد مؤرخيهم وهو المسيو سان مرتان خبر دخول سلمان وحبيب وفتحهما البلاد في خلافة عثمان (سنة ٦٣٩ م) أي سنة (١٨ هـ) مع أن الخليفة في هذا التاريخ كان عمر بن الخطاب وأن سلمان قتل في بلنجر في هذه الغزوات وجلا العرب عن أرمينيا بعد قتله ثم قال : لكن العرب عادوا إليها بقوة عظيمة سنة (٦٤٦ م) (٢٦ هـ) وأكرهوا أمراء البلاد على دفع الجزية .

ويؤخذ من هذا أن ديفرجي وهم بالتاريخ فوضع الحرب الثانية في

مكان الأولى إذ لا خلاف بين المؤرخين في أن العرب دوخوا أرمينيا مرتين، الأولى على عهد عمر والثانية على عهد عثمان ، وقد أيد هذا تواريخ الأرمن أيضاً ، وأشار إليه القس جبرائيل الخانجي في مختصر تاريخ الأرمن ولم يذكر أسماء الفاتحين من العرب في الحرب الأولى والثانية ولم يعين تاريخيهما بالضبط ولا عبرة بخطأ ديفرجي بالتاريخ ، إذ الثابت عنده وعند مؤرخينا أن الحرب وقعت على عهد عمر مرة وعلى عهد عثمان مرة وكانت الأولى سنة (١٨ هـ) والثانية (سنة ٢٦ هـ) وإنما تشابه الوقائع وسلوك الفاتحين طريقاً واحداً في الفتح الأول والثاني أدخل هذا الوهم على مؤرخي الإفرنج ، لذا رأيت أن أحص هذه الروايات وأسوق الخبر ملخصاً عن مؤرخينا وما ورد في تاريخ ديفرجي ومختصر تاريخ الأرمن على وجه لا يضطرب فيه الذهن فأقول :

قد كان بكير بن عبدالله وعتبة بن فرقد فتحا في خلافة عمر رضى الله عنه بلاد آذربيجان الواقعة إلى الشرق من أرمينيا ، ولما كتب بكير إلى عمر بالفتح كتب عمر إلى سراقه بن عمرو بغزو الباب وجعله على حربها أى أمير الحرب وحمل عمر على مقدمة سراقه عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي ، وعلى إحدى مجنبيه (جناحيه) ابن أسيد الغفاري ، وعلى الأخرى بكير بن عبدالله المتقدم وعلى المقاسم سلمان بن ربيعة ، وكتب إلى حبيب بن مسلمة الفهرى أن يمد سراقه وهو يومئذ بالجزيرة ، ونهض سراقه على هذا الترتيب من البصرة ، ولما سارت هذه الجيوش تقدم عبد الرحمن بن ربيعة إلى أرمينيا الشرقية وأخذ يفتح البلاد حتى بلغ الباب على شطوط بحر الخزر والملك عليها يومئذ شهر يار فكاتبه شهر يار واستأمنه ، ولما فرغ سراقه من الباب بعث الأمراء والقواد إلى ما يليه من بلاد أرمينيا فأرسل بكير بن عبدالله إلى موقان وحبيب بن مسلمة الفهرى إلى تفليس عاصمة كرجستان وحذيفة بن اليمان إلى جبال اللان (القوقاز) فاشتبكت جنوده في أطراف أرمينيا مع الأمير أوهان بن كامسارا كان وأخيه ديران فقتلا وتششت جندهما وذلك بخيانة أحد قواد

الآرمن المسمى ساحور الذى خان أوهان وانضم بجيشه إلى العرب كما يقول ديفرجى وصاحب مختصر تاريخ الأرمن .

وأما حبيب بن مسلمة الفهرى فقد قصد كرجستان وعاصمتها تفليس فنهض له تيودور أحد أمراء البلاد، وكانت يومئذ منقسمة على بعضها ، واجتهد فى أن يضم كل أمراء أرمينيا تحت راية واحدة لقتال المسلمين فلم يفلح، مع أنه كان يساعده على هذا القصد البطريك استراس الذى يثس من نجاح مساعده فأت كعداء، وبينما كان الأرمن يشتغلون فى إقامة بطريك غيره ، إذ فاجأهم جند الإسلام بقيادة حبيب بن مسلمة الفهرى ووصلوا الحصار على مدينة دوفان^(١) التى هى مقر البطريك. ويقول ديفرجى إن الحصار بدأ فى نوفمبر سنة (٦٣٩ م) وهو يوافق ذا القعدة (سنة ١٨ هـ) واستمر إلى اليوم السادس من يناير من السنة التالية وهو يوافق يوم ٥ محرم من سنة (١٩ هـ) حيث فتحها حبيب ، ثم أخذ بإتمام فتح أرمينيا وكرجستان ففتح ، وأن ونخشوان وسيس على الضفة الثانية من نهر الرس ويسميه الجغرافيون (أراس وأراكس) ومنها سار إلى أرمينية الغربية ، ثم عطف على أيريا التى هى جزء من شروان وكرجستان الحالية ، وأخذ عاصمتها تفليس والمدن الأخرى الكبرى ، وفى أثناء ذلك مات سرافة واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة فأقره عمر رضى الله عنه على فرج الباب وأمره بغزو الترك فسار شمالا واستخضع أكثر بلاد الجبل الممتدة على شطوط بحر الخزر ، وكان سكانها من الجهالة والتوحش على جانب عظيم ، وأمعن عبد الرحمن فى البلاد حتى بلغ دربند واجتاز مضيقها إلى السهول الشمالية وبلغت خيله على مائتى فرسخ من بلنجر ، ثم عاد إلى الباب ولم يزل يردد الغزو فيهم حتى قتل فى إحدى غزاته على نهر ترك (تورك) الذى يسميه العرب نهر بلنجر قتله خاقان ملك الخزر . واخذ الراية أخوه سلمان وخرج بالناس فسلط طريق

(١) وفى مختصر تاريخ الأرمن : تفين

جبلان شمالى أرزنجان وبعضهم سلك طريق الباب إلى أرمينيا ، وهنا نقطة الخلاف بين المؤرخين هل قتل عبد الرحمن فى خلافة عمر أو فى خلافة عثمان أم قتل هو فى خلافة عمر وأخوه فى خلافة عثمان ، فإذا سلمنا بما رواه الطبرى من أن عثمان كان أمد عبد الرحمن بأخيه سلمان وأن الفارين من جند عبد الرحمن التقوا بسلمان فى الطريق فنجاهم الله ، فتسكون وفاة عبد الرحمن فى خلافة عثمان ولا عبرة بتعيين السنة التى قتل فيها بل العبرة فى الفتح وهل حصل فى ذممه أم لا ، وبما لا خلاف فيه أن عبد الرحمن بلغ فى فتوحه شمال القوقاز من جهة بحر الخزر كما بلغه حبيب من جهة البحر الأسود فى خلافة عمر بن الخطاب ، أى ما بين سنة ١٨ وسنة ٢٠ هـ إلا أن ذلك الفتح كان فتحاً هيناً على الجزية ، ثم تراجع الأمراء الذين فرقهم سرافة بن عمرو للفتح ، كما نقل ذلك ابن خلدون فى كلامه على فتح جبال أرمينيا إلا عبد الرحمن ابن ربيعة فقد بقى فى بلاد الخزر ، وبما يؤيد أن هذا الفتح لم يكن فتحاً تثبت فيه البلاد على طاعة الخليفة ما نقله ابن خلدون أيضاً ، من أن سرافة كتب إلى عمر بخبر الأمراء وتوجيههم إلى فتح تلك البلاد : فلم يرج عمر تمام ذلك لأنه فرج عظيم : أى أن عمر لم يكن على ثقة من إمكان فتح تلك البلاد . تملكها ، لاتساع فروجها أى ثغورها وتنائى أطرافها التى تحتاج إلى كثير من الجند المرابط ، ولعله صدق حذره حتى قال ديفرجى إن المسلمين اضطروا عقب ظفر الخزر على نهر ترك إلى الجلاء عن كل أرمينيا وعادوا إليها بقوة أعظم سنة (٦٤٦ م) أى سنة (٢٦ هـ) وهى السنة التى وجه فيها عثمان رضى الله عنه حبيباً وسلمان إلى استرداد البلاد وفتح أرمينيا والقوقاز ففتحهاها وكان الفتح الأول فى الحقيقة تمهيداً للفتح الثانى الذى صارت به البلاد تابعة إلى اليوم للدول الإسلامية ، ولم تنتقض إلا فى فترات قليلة ، ثم استتب فيها الأمر للمسلمين ، وقد أشار صاحب مختصر تاريخ الأرمن إلى تسليم الأرمن بعد الحرب الثانية للعرب على عهد ولاية سنباط بن فارازديزوس من قبل إمبراطور القسطنطينية ،

إذا كان الأرمن طلبوا والياً من قبله على بلادهم بعد اختلال أمر دولة الفرس .
التي كانت متسلطة عليهم ، وزالت سلطتها منذ بدأت حروبها مع العرب فولى
الإمبراطور عليهم فارازديروس والد سنباط وتولى مقدار ، سنة ومات
وأخلفه ابنه سنباط .

ولإليك بيان ما ذكره المؤرخون عن سبب إرسال عثمان رضى الله عنه
لحبيب وسلمان إلى أرمينيا وكيفية فتحهما للبلاد وذلك سنة (٥٢٦ هـ) ولا عبرة
بما يوجد في سياق خبر الفتح الثاني من الشبه بسياق الخبر الأول ، فإن حبيباً
وسلمان سلكا على ما أرى في هذا الفتح عين الطريق الذى سلكاه في الفتح
الماضى ، أى أن سلمان أخذ إلى القوقاز من شرق أرمينيا وحبيباً أخذ إليها
من قلب أرمينيا وغربها .

وقد أشار ديفرجى في كلامه على فتح أرمينيا إلى أن العرب لما عادوا
إلى فتحها في المرة الثانية سنة (٦٤٦ م) (٥٢٦ هـ) انتهوا إلى أراط من
الولايات المتحدة التي دخلوا إليها أول مرة .

انتقضت أرمينيا وأذربيجان أيضاً بعد الفتح الذى كان في خلافة عمر
رضى الله عنه ، لما لقتل الجنود المراقبة في البلاد ودخول الوهن على
نفوسهم بعد قتل عبد الرحمن بن ربيعة ثم تنحيهم إلى الأطراف والنجور التي
من جهة فارس والجزيرة . ولما لأن الأمراء الذين فتحوا البلاد يومئذ
اكتفوا من السكان بالجزية ثم تراجعوا إلى النجور كما تقدم ذكره ،
لثقتهم بضعف أمراء البلاد عن النهوض إلى الثورة والخروج عن
الطاعة . أو لعدم كفاية الجند الذين معهم للمحافظة على البلاد وبسط
جناسح السلطة على تلك الأرجاء السحيقة عن مقر الخلافة البعيدة .
عن مستودع القوة والأمداد كالْبصرة والكوفة والشام ، فلما استخلف
عثمان رضى الله عنه وعزل عتبة بن فرقد عن أذربيجان بلغه أن البلاد .

انتقضت فاستغزى الوليد بن عقبة الى الكوفة فغزاها فصالحه أهل كور
آزريجان على صلح حذيفة بن اليمان ، وبعث سلمان بن ربيعة الباهلي إلى
أرمينيا في اثني عشر ألفاً فسار إليها وأنحن ، ثم انصرف إلى الوليد وعاد الوليد
إلى الكوفة وجعل طريقه على الموصل ، فلقيه كتاب عثمان إن الروم أجلبوا
على معاوية بالشام ، فابعث إليهم رجلاً من أهل النجدة والبأس في عشرة آلاف
فخطب الوليد في الجند واستحثهم على نصرة أهل الشام فانتدب منهم
ثمانية آلاف ، فسار بهم إلى الشام ثم دخلوا بلاد الروم مع حبيب بن مسلمة
الفهري فشنوا الغارات واستفتحوا الحصون .

المعروف أن مؤرخينا إذا ذكروا بلاد الروم إنما يعنون بها آسيا
الصغرى ، التي كانت يومئذ تابعة لإمبراطورية القسطنطينية وكل ما هو تابع
لها من الجزر أيضاً ، وربما أطلقوها أحياناً على كل البلاد التي تلي الثغور
الشامية والجزرية ، وهي أرمينيا والأناضول فإذا اعتبرنا هذا الإطلاق في
هذه الرواية فيكون فتح أرمينيا على عهد ولاية الوليد بن عقبة على الكوفة ،
وإلا فيكون مسير هذه الجنود إلى بلاد الروم لصدمة أرادها الإمبراطور
قسطنطين على سورية أو لإمداد أهل أرمينية على حبيب بن مسلمة الفهري ،
كما ترى في الرواية الآتية التي هي أصح الروايات الواردة في أخبار فتح
أرمينيا في خلافة عثمان وهي :

لما استخلف عثمان رضى الله عنه كتب إلى معاوية بولايته على الشام ،
وولى عمير بن سعد الأنصارى الجزيرة ثم عزله ، وجمع لمعاوية الشام
والجزيرة وثنورها ، وأمره أن يغزو شمشاط وهي أرمينيا الرابعة أو يغزها ،
وقد كان حبيب بن مسلمة الفهري فتحها مع عياض بن غنم في خلافة عمر ثم
أقبلت . وكان لحبيب رضى الله عنه أثر جميل في فتوح الشام والجزيرة
، وأرمينيا فوجهه معاوية في ستة آلاف مقاتل إلى فتح أرمينيا ، وقيل بل

كتب إليه عثمان يأمره بذلك فنهض إليها حتى أفاخ على قاليقلا سنة ٢٦ هـ ،
نخرج إليه أهلها فقاتلهم حتى ألجأهم إلى المدينة فطلبوا الصلح على الأمان
أو الجزية فأجابهم إلى ذلك ، فجلا منهم من جلا وأقام من أقام .

وقولهم إن حبيبا نهض إلى قاليقلا يدل على أن ما يليها من البلاد إلى
الجزيرة لم يخرج يومئذ عن الطاعة ، إذ أن المؤرخين لم يذكروا الحبيب قتالا
مع أحد فيما دون قاليقلا . ولما فتح حبيب قاليقلا أقام عليها أشهراً فبلغه
أن بطريق أرمينيا قس واسمه الموريان قد جمع له جموعاً عظيمة ، وانضمت
إليه أمداد أهل اللان وأنغاز وسمندر من الخزر . وقال ابن الأثير إن
أرمينيا قس هي بلاد ملطية وسيواس واقصرا وقونية وما والاها من البلاد
إلى خليج القسطنطينية ، وهذه الزيادة لم يذكرها البلاذري ولا غيره من
المقدمين في سياق هذا الخبر ، وإنما ذكرها ابن الأثير من عنده وهي خطأ
على ما أرى إذ ليست الولايات التي ذكرها ابن الأثير من أرمينيا ، بل هي
من ولايات آسيا الصغرى التابعة لإمبراطورية القسطنطينية ، وإنما كانت
سيواس قديماً تعتبر من أرمينيا ثم انضمت إلى الإمبراطورية الشرقية ، فأما
أن يكون الموريان يومئذ بطريقاً على أرمينيا الغربية فسموه والى أرمينيا قس ،
وهو الذي أجلب عليهم بجموع من بلاد الخزر والقوقاس وأرمينيا الغربية
ولا دخل في هذه التسمية لقونيه واقصره وغيرها من ولايات الإمبراطورية
الشرقية الشرقية ، وأما أنه كان والياً على سيواس التي هي أرمينيا الإمبراطورية
وأجلب عليهم بجيوش رومية من هذه الولايات الآسيوية من قبل إمبراطور
القسطنطينية وعندي أن الأول أرجح .

لما انتهى إلى حبيب هذا الخبر كتب إلى عثمان رضى الله عنه يسأله المدد
فكتب إلى معاوية أن يشخص إليه من أهل الشام والجزيرة قوماً ممن
يرغب في الجهاد فبعث إليه معاوية ألفي رجل أسكنهم قاليقلا وأقطعهم بها
القطائع وجعلهم مرابطة بها ، وكتب أمير المؤمنين عثمان إلى سعيد بن العاص

أيضاً وهو عامله على الكوفة بعد الوليد يأمره بإمداده بجيش عليه سلمان بن من أهل السكونة الكوفة ، وقد أقبلت الروم ومن معها فنزلوا على الفرات ، وقد ربيعة الباهلي وهو سلمان الحير ، وكان غزاه فاضلاً خيراً أفسار سلمان بستة آلاف من أهل الكوفة ، وقد أقبلت الروم ومن معها ، فنزلوا على الفرات ، وقد أبطأ على حبيب المدد ورأى حبيب أن يبيتهم ليلاً فأمر جنوده فيبتوهم فاجتاحوهم وقتلوا قائدهم .

ومما يؤثر عن شجاعة النساء المسلمات وقوة جأشهن ومشاركتهن للرجال بشدائد الحروب يومئذ أن أم عبد الله الكلبيّة امرأة حبيب قالت ليلتئذ له : أين موعذك : قال سرادق الطاغية (يعنى الموريان) أو الجنة : فلما انتهى إلى السرادق وجدها عنده .

وحق لنساء مثل هذه المرأة الفاضلة التي تتسابق الرجل إلى الشرف أو الموت أن يربين رجالاً عظاماً وأبطالاً كراماً مثل أولئك الرجال الذين فتحوا تلك الممالك الواسعة وسادوا على الأمم الكثيرة . وما أقبح بالمرأة أن تفرط بالفراهة وتستسلم لعوامل الضعف والسكينة ، وهى أم الرجل الذى تقوم على كواهلها دعائم الحياة البيّمية فأما سعيدة وإما شقية .

ثم إن سلمان ورد وقد فرغ حبيب فأراد سلمان أن يتأمر غلى حبيب فأبى عليه حبيب ، حتى قال أهل الشام لقد هممنا بضرب سلمان فقال أوس ابن مغراء فى ذلك وهو من جند سلمان .

فإن تضربوا سلمان تضرب حبيبكم وإن ترحلوا نحو ابن عفان ترحل
ولإن تقسطوا فالثغر ثغر أميرنا وهذا أمير فى السكتائب مقبل
ونحن ولادة الثغر كننا حماه ليالى ترمى كل ثغر ونهـكل
هكذا روى البلاذرى فى تاريخه أن الاختلاف بينهما وقع فى هذه
الغزوة ، وذكر البيت الأول من الأبيات الثلاثة ، لكن الطبرى أورد هذه

الآيات في أخبار سنة (٣٢هـ)، وقال إن هذا الاختلاف وقع بينهما في هذه السنة في بلاد الخزر ، حيث كان سعيد بن العاص يستعمل سلمان على نغر الباب وأمه عثمان بحبيب بن مسلمة الفهرى ، وفي البيت الثانى والثالث ما يدل على أن هذا الخلاف كان فى الباب ، إذ كان نغر المسلمين يومئذ وهو تابع لعامل الكوفة وأميره يومئذ سلمان كما يظهر ذلك من قوله وأن تقسطوا إلى آخر البيت ، فإذا صح أن هذه الحادثة كانت سنة ٣٢ فيكون سلمان لم يقتل فى الخزر وإنما الذى قتل أخوه فقط ، وذلك لأن الذى كان يغزو الخزر بجند الكوفة من الباب يومئذ هو حذيفة بن اليمان ، وكان أميراً للحرب فيها ، وما زال يغزوهم حتى قتل عثمان رضى الله عنه كما روى الطبرى فى تاريخه .

لما انتهى سلمان إلى حبيب وقد فرغ من القوم سار إلى غزو أران ، ومن ثم افترق القائدان ، فتوغل حبيب فى أرمينيا الغربية متجهاً إلى الشمال واتجه سلمان إلى أرمينيا الشرقية آخذاً نحو الشمال ، ففتحا البلاد التى بين البحر الأسود وبحر الخزر حتى القوقاز حبيب من جهة الغرب ، أى من جهة البحر الأسود وسلمان من جهة الشرق أى من جهة بحر الخزر . فأما ما فتحه حبيب ابن مسلمة من البلاد فرجته إلى خبر فتوحاته الذى سيرد فى ترجمته إن شاء الله ، لأننا عزمنا أن نفرّد له ترجمة خاصة مع رجال عثمان رضى الله عنه وعنهم أجمعين .

وأما سلمان فإنه سار إلى أران ففتح مدينة البيلقان (فيتقران) صلحاً واشترط على أهلها أداء الجزية والخراج ، ثم أتى بردعة وعسكر على نهر الترتور على فرسخ منها فامتنعت عليه فعانها أياها ، فصالحه أهلها على مثل صلح البيلقان وفتحوا له أبوابها فدخلها وأقام بها ووجه خيله ففتحت غيرها من البلاد والرساتيق فى أران ، ودعا أكراد البوشنجان (أو البلاسجان)

إلى الإسلام فقاتلوه فظفر بهم فأقر بعضهم على الجزية ، وأدى البعض الصدقة من دخلوا في الإسلام ، ثم سار إلى مجمع نهر السكر (كور بالكاف الثقيلة) والرس «أراس» فعبر السكر ففتح قبالة وكل البلاد الواسعة التي على الضفة الشمالية من نهر السكر ويسمى ديفرجي بلاد سشاكى ثم دخل بلاد سشيوان وصالحه صاحب شكن وشيروان والباب ، وكل هذه البلاد واقعة إلى الشمال الشرقي من نهر السكر حتى داغستان ، ومن ثم اختلف المؤرخون فبعضهم قال إن سلمان انتهى إلى الباب ولم يتجاوزها ومنهم ابن خلدون ، وبعضهم يقول إنه استخضع كل أمراء الجبل ، ثم اجتاز مضيق دربند حيث قتل مع معظم جيشه على نهر بلنجر ، وفيه أوفى أخيه عبد الرحمن وفي قتيبة ابن مسلم فاتح تركستان ، يقول ابن جماعة الباهلي مفتخراً بهما لأنهما باهليان .

وإن لنا قبرين قبر بلنجر وقبر بصينستان يا له من قبر
فذاك الذى فى الصين عمت فتوحه وهذا بأعلى الترك يسقى به القطر

ولا جرم أن قتيبة وسلمان وأخاه ليسوا بفخر باهلة فقط بل هم وأمثالهم من الفاتحين فخر الأمة الإسلامية ، والذكر الخالد لها الذى يمثل عظمة رجالاتها الفاتحين تمثيلاً تزدهى به صفحات التاريخ .

هذا ما انتهى إليه تحقيقنا فى فتح أرمينيا والقوقاز الذى بلغ به المسلمون . نهر ترك الذى يصب فى بحر الخزر ماراً فى السهول الواقعة وراء جبل القوقاز ، وفى اعتقادى أن المسلمين لو لم ينكبوا بنسكة نهر ترك ويخرب الخزر ما بينهم وبين مدينة الباب من البلاد والقلاع ، صداً لهجاتهم المتوالية على تلك الأصقاع السحيقة كما ذكر ذلك سديو لتجاوزوا فى فتوحاتهم يومئذ نهر قوما ، وأمّنوا فى روسيا الشرقية على قسمين قسم ينحطف على بلاد القلموق واستراخان ويدور حول بخر الخرز أى بحر قزوين حتى ينتهى إلى جرجان ، حيث يلتقى بالجيوش الإسلامية الضاربة فى أنحاء ولاية حراسان ويسير إلى

معاونة الجيوش الآخذة بتلاييب يردجرد الذى قتل على نهر المرغاب . وقسم
يتشبع مجرى نهر ولغا إلى قازان وما والاها والله أعلم .

دخول معاوية إلى بلاد الروم وفتح قبرص :

كان أولئك الفاتحون كالتيار الجارى إذا صد من جهة انقلب إلى جهة
أخرى ، فإن تذاير الخزر على قتال المسلمين واجتماعهم لصددهم عن التوغل فيما
وراء بحر قزوين حول وجهة الفاتحين ثافية إلى بلاد الروم ، وقد كانت
إمبراطورية القسطنطينية منذ فصل عنها المسلمون مصر وسورية ، والجزيرة
تنظر إلى جيوش المسلمين نظار الخذر وتراقب حركات الجيوش الإسلامية
مراقبة الواقف لعدوه بالمرصاد ، وكان القواد وزعماء الفتح الإسلامى عرفوا
من الدولة البيزنطية هذا الخذر فتحولوا عن مهاجمتها إلى جهات أخرى ، وهكذا
إلى سنة (٢٥ أو ٢٦ هـ) ، حيث أغار معاوية بن أبى سفيان على الأناضول
من جهة إقليمي قبادوكيا وفريجيا فأخذ عمورية^(١) ثم ارتد ولو رأى غرة
من الروم لآمن فى البلاد حتى جدران القسطنطينية ، لكن الظاهر أنه وجد
القوم فى مكانة من اليقظة والتحصن ، وجد بها الوصول إلى بغيته من جهة البر
أمراً دونه الصعاب ، فاتجه خاطره إلى البحر ، وقد كان شديد الرغبة بالغارة
على سواحل الأناضول وجزر البحر الأبيض من عهد عمر بن الخطاب ، ولكن
عمر رضى الله عنه لم يأذن له بذلك فاستشار عثمان رضى الله عنه هذه المرة أى
سنة ٢٧ بغزو الروم من جهة البحر ، فأذن له على شرط أن يخير الناس ، فمن
اختار الغزو فى البحر يحمله معه ، فأعد لهذه الغزوة أسطولا من سواحل
الشام وكتب إلى عبد الله بن سعد بن أبى سرح عامل مصر بإعداد

(١) كبادوكيا مقاطعة فى الجهة المرقية من آسيا الصغرى ممايلى أرمينيا ، وكانت تسمى
قدجماً بهذا الاسم وفريجياً أو فروغياً مثلها أيضاً ، وهى من المقاطعات الوسطى فى آسيا الصغرى
وأما عمورية فقد قال لاروس فى قاموس العلوم الجديد (Nouveau Larousse illustré) :
لها من مدن فريجيا الكبرى واقعة على حدود غلاطية ، وكانت موطن ومثلاً للإمبراطور
تبوقل ، وقد تخربت فى حروب المسلمين ضد الإمبراطورية المرقية .
(٤٣ - أشهر مشاهير الإسلام)

أسطول آخر ، واستعمل عبد الله بن قيس الجاسى على البحر ، وسار الأسطولان فاجتمعا في قبرص فصالحهم أهلها بعد قتال شديد على سبعة آلاف دينار كل سنة يؤدون إلى الروم مثلها لا يمنعونهم المسلمون عن ذلك ، وليس على المسلمين منهم ممن أرادهم وعليهم أن يؤذوا المسلمين بمسير عدوهم إليهم ، ويكون طريق المسلمين إلى العدو عليهم ، بمعنى أن تكون قبرص مستودعاً حربياً في البحر الأبيض للمسلمين ، ومركز اتصال بينهم وبين أساطيلهم الماخرة في هذا البحر تلجأ إليها عند الحاجة .

وقد ذكر سديو في تاريخه أن معاوية فتح سنة (٢٩ هـ) أيضاً لإقريطش (كريد) وجزيرة كوس ، وجزيرة رودس ، ومؤرخونا لم يقولوا بهذا ، والظاهر أن هذه الجزر فتحها معاوية في خلافته أيام هجراته المتتالية على سواحل الروم وتدميره لأسطولهم العظيم ، ثم محاصرته للقسطنطينية كما سيأتى خبر ذلك كله في سيرة معاوية رضى الله عنه

فتح بلاد المغرب وجغرافيتها :

بلاد المغرب أو أفريقيا الشمالية الغربية يحدها من الشمال الأوقيانوس الأطلاتيك ومضيق جبل طارق والبحر المتوسط . وشرقاً بلاد مصر والبحر المتوسط أيضاً ، وجنوباً الصحراء الكبيرة ، وغرباً الأوقيانوس ، وكانت تنقسم في صدر الإسلام إلى ثلاثة أقسام كبرى وهى (المغرب الأدنى) وفيها ولايتا طرابلس وتونس ، وكانت قاعدتها القيروان بالقرب من تونس ، (والمغرب الأوسط) وهى المعروفة بالجزائر وقاعدتها تلمسان ومدينة الجزائر على البحر المتوسط ، (والمغرب الأقصى) وقاعدته فاس ومراكش . وينقسم كل من هذه الأقسام إلى أقسام صغرى ، فطرابلس الغرب تنقسم إلى ثلاثة أقسام : طرابلس وفزان وبنغازى وهى تابعة للدولة العلية ، (وتونس) ولاية مستقلة تحت حماية فرنسا وتنقسم إلى أقسام كثيرة صغرى ،

« (الجزائر) وتنقسم إلى ثلاثة أقسام كبرى وهى الجزائر ، ووهران وقسنطينة وهى تابعة للدولة الفرنسية ، وأما القسم الثالث وهو المغرب الأقصى فأشهر أقسامه عمالات فاس . ومراكش . والسوس . ودرعه وتافيليات وهو مستقل يحكمه السلطان عبد العزيز وأشهر مدن المغرب الأدنى : طرابلس الغرب : وهى فرضة بحرية : وبرقة : وكانت تسمى قديماً انطابولس وفرضتها بشغازى : وتونس وهى قرب أطلال قرطاجنة القديمة (١) وتسمى قديماً إفريقياً وربما سموها لإقليم تونس بهذا الاسم ، ثم سموها القارة كلها به من قبيل تسمية الكل باسم الجزء ، وهى على البحر ويملها : قابس : وبنرت وصطفورة المعروفة قديماً بصوفيطوله وبالقرب من تونس مدينة القيروان أسسها عقبة بن نافع الفهري ، وجعلها قاعدة البلاد ، وبالقرب من القيروان مدينة : رقادة : وإلى الجنوب الشرقى منها مدينة صفاقس .

ومن مدن المغرب الأوسط الشهيرة مدينة الجزائر المعروفة بجزائر

(١) قرطاجنة مدينة عظيمة على البحر الأبيض المتوسط ، أسسها الفينيقيون سكان سواحل سورية وكان لها فى التاريخ شأن عظيم ، ومنها ظهر القائد الشهير هنبال الذى غزا الرومان فى عقر دارهم ، وما زالت قرطاجنة التى كانت ضرة رومة شجى فى حلق الرومان حتى والى عليها الرومانيون الغزوات وأخربها القائد سيبيون سنة (١٤٩) قبل المسيح والظاهر أن الحراب لم يأت عليها كلها ، بل حفظت شيئاً من رونقها القديم الى العصر الإسلامى وتكرر عصيان أهلها وامتناعهم فى حصونها العظيمة ، ولما اشتدت الفتنة الكبرى فى إفريقيا على عهد عبد الملك بن مروان أرسل حسان بن النعمان الغساقى لاستخضاع أهلها ، فقصده البربر وقَاتلهم ثم قصد قرطاجنة ، وافتتحها ، ولما عاد عنها امتنعت ثانية فرجع لئليها وحاصر أهلها حتى أجأهم للتسليم بعد أن فر منهم من طريق البحر من فر ، ثم أمر بتخريبها فخربت وعفا أثرها ومن أنقاضها عمرت مدينة تونس . وهذا التخريب وإن عد عند الأثريين سيئة لحسان إلا أنه عند السياسيين ليس بىء ، لأن الدول من دأبها أن يدمر اللاحق منها أثر السابق ، وإذا خرب المسلمون فى إفريقيا هذه المدينة فقد أقاموا مدناً غيرها ربما كانت أعظم منها كتونس والقيروان والقاهرة وغيرهن ، ولأنما تفضل قرطاجنة على غيرها باعتبار أنها أثرف قديم من آثار أمة عظيمة كان لها شأن كبير فى التاريخ . لذا فليس يبدع أن يأتى حسان ما آتاه وبأتية غيره فى كل دولة من الدول ، لا سيما وأن اعتبار البلدان التاريخى الأثرى لم يكن فى تلك العصور بالمتزلة التى انتهى لئليها فى هذا العصر .

مرغنة أو مزغان : ومدينة تلمسان : وهما من الإقليمين المعروفين قديماً بموريتانية القيصرية والسبتية : ومدينة قسنطينة : وهي حاضرة الإقليم المعروف قديماً بإقليم نوميديا : ومدينة مستغانم وهي على البحر ، ويصب قربها نهر الشليف أو شلف ، ومدينة بونه أو عنابه وهي على البحر المتوسط أيضاً ، ووهران مثلها أيضاً .

ومن مدن القسم الثالث مراكش وفاس ومكناس أو مكناسة الزيتون في جهة الشمال والوسط ، وططوان وسبتة ومليلة على شواطئ البحر المتوسط ، ومغادر وطنجة ، الرباط وسلا على شواطئ الأوقيانوس الاطلانتيك وطفيلة والسوس في جهات الجنوب والجنوب الشرقي . ومن جبالها جبل درن وغمارة ومديونة ويسر ، وكلها شعب من جبال أطلس الشهيرة .

أما فتح بلاد المغرب فقد تقدم معنا في سيرة عمرو بن العاص أنه فتح برفة وطارابلس في خلافة عمر رضى الله عنه وضرب على أهلها الجزية ، ثم عاد بعد أن استخلف عقبة بن نافع الفهري على البلاد ، وقيل لأنه لم يستخلفه وإن عثمان رضى الله عنه أرسله إليها لما أمر ابن أبي سرح بغزوها ، وتحرير الخبر عن ذلك أن عثمان رضى الله عنه استعمل على الحرب في مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح وأمره بغزو أفريقيا سنة (٢٤ هـ) أو سنة (٢٥ هـ) وقال له إن فتح الله عليك فلك خمس الخمس من الغنائم ، فأمر عقبة بن نافع بن عبد القيس على جند ، وعبد الله بن نافع بن الحرث على آخر ، وسرحهما نخرجا إلى أفريقيا في عشرة آلاف ، وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرة أهلها ، ثم إن عبد الله بن سعد بن أبي سرح شكاً عمرأ إلى عثمان لخلاف وقع بينهما ، فاستقدمه عثمان واستقل ابن أبي سرح على إمارتي الخراج والحرب في مصر ، وكتب عبد الله يستأذن عثمان في قصد أفريقيا ثانية ويستمدده فاستشار عثمان رضى الله عنه الصحابة ، فأشاروا به فخر العساكر من المدينة وفيهم جماعة من الصحابة وأبناء

الصحابه ، منهم ابن عباس وابن عمر وابن عمرو بن العاص وابن جعفر
والحسن والحسين وابن الزبير وكثير غيرهم ، وساروا مع عبد الله بن سعد
ابن أبي سرح سنة (٥٢٦ هـ) ، ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين
ببرقة ، ثم ساروا إلى طرابلس فقاتلهم الروم قتالاً خفيفاً فبث عبد الله
السرايا في كل ناحية ، وسار إلى إفريقية (تونس) فقابله عند مدينة يعقوبة ،
وفي رواية سبيطة حاكم (بطريق) إفريقية الشمالية من قبل إمبراطور
القسطنطينية ، واسمه غريغوار ويسميه العرب (جرجير) بمائة وعشرين ألف
مقاتل ، واشتبك بينهم القتال وجاءهم عبد الرحمن بن الزبير^(١) مدداً من قبل
عثمان فشهد الحرب ، وقد غاب عنها عبد الله بن سعد فسأل عنه ، فقيل له
لأنه سمع منادى جرجير يقول من يقتل ابن أبي سرح فله مائة ألف دينار
وأزوجه ابنتي ، فخاف وتأخر عن حضور القتال ، فقال له ابن الزبير تنادى
أنت بأن من قتل جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على
بلاده ، ولما سمع جرجير بوصول المدد سقط في يده إلا أنه جالد
المسلمين جالداً عظيماً ، فلما أبطأ عليهم الفتح أشار عبد الله بن الزبير على
عبد الله بن سعد بأن يترك جماعة من أبطال المسلمين متاهبين للحرب ، ويقاوم
العدو بباقي العسكر إلى أن يضجروا فيحمل عليهم بالآخرين على غرة ففعل
وركبوا من الغد إلى القتال وألحوا على الأعداء حتى أتعبوهم ، ثم افترقوا
وقد أنهمكهم التعب فركب عبد الله بن الزبير مع الفريق المستريحين ،
وحملوا حملة واحدة حتى غشوا عسكر جرجير في خيامهم ، فانهزموا
وقتل عبد الله بن الزبير جرجير (غريغوار) وأخذت ابنته سبية فنفلها
ابن الزبير ، وحاصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح سبيطة ففتحها ، وكان
سهم الفارس فيها ثلاثة آلاف دينار ، وسهم الراجل ألف ، وهو فتح عظيم لم
يفتح على أحد مثله .

(١) الزبير هذا يفتح الزاي كما صححه في أسد الغابة وهو غير الزبير (بضم الزاي)
ابن العوام والد عبد الله الذي قال بعض المؤرخين ، لأنه جاء مدداً لعبد الله بن سعد مع أنه
سكان في الجيش الذي بعثه عثمان رضى الله عنه لابن سعد . قبل هذا كما رأيت .

ثم إن عبد الله بن سعد بعث سراياه إلى أنحاء البلاد وعليها القواد ومنهم ابن الزبير، فجالوا في أقطار المغرب غرباً وشرقاً وجنوباً ، فأغاروا من جهة الجنوب على إقليم بيزاسنه المعروف ببلاد النخل أو الجريد، ومن الشمال والغرب على إقليمى نوميديا وموريتانيا في الجزائر، ثم بلاد فاس ومراكش المعروفة بموريتانيا الطنجية ، وهكذا حتى انقادت لهم البلاد إلى بوغاز جبل طارق، ودفع أهلها لهم الجزية التي كانوا يدفعونها لقيصر الروم ، كما ذكر ذلك سديو في خلاصة تاريخ العرب ، وأما مؤرخونا فقد اختصروا جداً في أخبار هذا الفتح ، وذكروا الصلح الذي عرضنه عطاء أفريقيا على ابن سعد وهو أن يعطوه ثلاثمائة قنطار من الذهب أى مليونين وخمسمائة ألف دينار ونيفاً، فقبل ذلك منهم ، وأرسل ابن الزبير بالفتح والخمس إلى أمير المؤمنين عثمان فاشتراه مروان بخمسمائة ألف دينار. قال ابن خلدون وغيره : وبعضهم يقول أعطاه إياه دأى الخمس ، ولا يصح وإنما أعطى عبد الله بن سعد بن أبى سرح خمس الغزوة الأولى .

أما عبد الله بن سعد فن قائل إنه عاد إلى مصر ولم يول على أفريقيا أحداً ، قال بهذا البلاذرى في روايته عن الواقدى ، وقال الطبرى إن عثمان صرف عبد الله بن سعد عن أفريقيا وولى عليها عبد الله بن نافع بن عبد القيس ، وقال ابن خلدون وغيره إنه ولى عليهم والياً منهم ، ولعله الأصح كما يستدل على ذلك بمجيء قائد من قبل إمبراطور الروم، وطرده للوالى الذى ولاه المسلمون كما سترى ، هذا ولما أصاب ابن سعد من إفريقيا ما أصاب ، ورجع إلى مصر ، جهز قسطنطين بن هرقل (هراقلوس) إمبراطور القسطنطينية أسطولاً كبيراً مؤلفاً من ستائة مركب ، أراد أن يهاجم به الإسكندرية على قول ابن خلدون ، وابن الأثير لم يذكر الجهة التى كان يريد بها قسطنطين ، وفى ظنى أنه كان يريد إفريقيا بدليل التجهز الإمبراطور إلى جزيرة صقليا (سيسليا) بعد انكساره

في هذه الغزوة وهى قرية من تونس ، ولما بلغ المسلمين خروج هذا الأسطول خرج للملاقاته فى البحر أسطولان، أسطول من الإسكندرية مع عبد الله بن سعد ، وأسطول من سورية مع معاوية بن أبى سفيان ، والتقىا معه فى عرض البحر فقرنوا السفن إلى بعضها واقتتلوا قتالا شديداً ، حتى استجر القتال فانهم قسطنطين جريحا إلى صقليا بما بقى معه من الروم ، ولما علم أهل صقليا بفراره قتلوه ، وسمى المسلمون هذه الغزوة غزوة ذات الصواري ، والمكان كذلك لكثرة ما كان فيها من الصواري .

ثم إن الإمبراطور قونستانس الثانى غضب على أهل أفريقيا لما أعطوه من المال لعبد الله بن سعد ، لأنه أكثر مما كانوا يعطونه لإمبراطرة الروم ، واغتم فرصة اضطراب المسلمين وانقسامهم فى التنازع على الخلافة ، فأرسل من قبله بطريقاً ليأخذ منهم مثله فأبوا ، فقاتلهم وطردهم بطريق الذى ولوه عليهم بعد جرجير (غريغوار) فالتجأ إلى معاوية بن أبى سفيان ، وقد اجتمع له الأمر فنصره ، وبعث معه ابن خديج لتدوين البلاد وطردهم الروم عنها ثانية ، كما سترى ذلك فى خلافة معاوية رضى الله عنه .

تنمة فتح بلاد فارس وخراسان وطبرستان وقتل يزيد جرد :

علمنا مما تقدم فى سيرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن المسلمين فتحوا قسماً عظيماً من بلاد فارس ، أو مملكة الأكاسرة المعروفة قديماً ببلاد مادى ، وقد رأيت أن أبين هنا أقسام هذه المملكة ليكون القارئ على بينة مما فتح منها على عهد عمر رضى الله عنه وما فتح على عهد عثمان رضى الله عنه فأقول : بلاد فارس تنقسم إلى ثلاثة أقسام : فارس الغربية وهى مملكة إيران ، وفارس الشرقية وهى مملكة أفغانستان وبلوستان ، وكان العرب يقسمونها إلى أقسام كثيرة يسمونها كور (فالقسم الشمالى منها) مما يلي أرمينيا غرباً والقوقاز شمالاً يعرف بكورة أذربيجان ، ومن مدنه الشهيرة تبريز وزنجان والبير والموقان والطيلسان ، وإلى الشرق منها قرين الواقعة شمال بلاد

الجليل ، حيث كانت تسمى بلاد الديلم ، ثم إلى شرقي هذا القسم في الجهة الجنوبية من بحر الخزر أو بحر قزوين طبرستان وجرجان ومن مدنها الشهيرة دماوند (أو دناوند) واستراباذ والدامغان وقومس في جهة الجنوب ، وأبيورد ونسا وسرخس ومرو الشاهجان في جهة الشمال ، والشرق من هذا القسم والجزء الغربي منه يعرف بمازندران (والقسم الغربي منها) يعرف بالعراق العجمي ، وخوزستان وبلاد الجبل ، ومن مدن العراق العجمي الشهيرة المدائن والنهروان على دجلة ، ومنازل وقصر شيرين ثم نهاوند وقاشان وأصفهان من بلاد الجبل والاهواز ورامهرمز والسوس وجنديسابور من حوزستان ، (والقسم الجنوبي منها) يعرف بفارس وكرمان ومكران أو كورة السند (وتعرف الآن ببلوچستان) وسجستان وهي بين مكران وخراسان ، ومن مدن فارس الشهيرة لصطخر وفسا ودارابجرد وكازرون وجور ثم جيرفت وهميد والسيرجان من مدن كرمان ، ثم مكران وقندابيل وقنبر واورماتيل وبيرون والديبل (ثغر على المحيط الهندي من كرمان أو السند) ثم زالق على طرف المقازة المعروفة بمقازة كرمان ، (لعلها صحراء لوط) وزرچ التي يؤخذ منها إلى وادي سناروز والسكش من ناحية الهند ورشت وناشوروز من سجستان ، (والقسم الشرقي والشمال الشرقي) يعرف بخراسان وطخارستان وزابلستان ، وهذا القسم أكثره واقف الآن في أفغانستان ، وكان العرب يقسمونه إلى أقسام كثيرة أو كور ، فمنها كورة مرو وهراة وطوس ونيسابور من ولاية خراسان ، وغزنة وكابل من زابلستان ، وبلخ من طخارستان ، وأشهر مدن خراسان نيسابور الواقعة في الجهة الشمالية الغربية من خراسان ، وطوس إلى الشمال منها أيضاً ، ومن مدن نيسابور زام وبشت وباخرز وجوين وأبرشهر وبيق واسفرائن وأرغيان وغيرها ، ثم هراة ومر الروذ في الجهة الشرقية من خراسان ، ومن مدن هذه الجهة بوشنج وباذغيس وباغون وطاغون وسنج وغيرها ،

أما طخارستان الواقعة شرقي خراسان وشمال زابلستان وجنوب السغانيان فإن من مدنها الشهيرة بلخ ، وهي عاصمتها ، وهي من بلاد التتار الجنوبية الواقعة جنوبي نهر جيحون ، والجوزجان والفارياب والطالقان وغيرها : وأما زابلستان فن مدنها الشهيرة كابل وغزنه اه .

هذا ما أحبيت بيانه من جغرافية هذه البلاد ، وأما فتحها فقد تقدم الخبر عن فتح القسم الأكبر منها في خلافة عمر رضى الله عنه ، وقد رأيت اختلافاً في بعض الروايات عن فتح خراسان هل كان على عهد عمر أو على عهد عثمان ، والذي اتفق عليه أكثر المؤرخين أن فتح خراسان وسجستان وقسم من طخارستان كان على عهد عمر بن الخطاب ، ثم انتقضت أكثر بلاد فارس ، فأعاد المسلمون الكرة عليها على عهد عثمان رضى الله عنه ودوخوا هذه المملكة إلى المحيط جنوباً والهند شرقاً وجيحون شمالاً ، فاستكمل لهم فتح فارس الشرقية والغربية ، وجزء من السند وقسم من تركستان ، وإليك بمجل خبر الفتح .

في السنة الثالثة من خلافة عثمان رضى الله عنه انتقضت آمد وبلاد الأكراد ، فعزم أبو موسى الأشعري وإلى البصرة يومئذ على الخروج لرد القوم إلى الطاعة ، فحمل ثقله على أربعين بغلاً بعد أن كان يحض على الجهاد مشياً ، فتألب عليه أهل البصرة ، وذهب منهم وفد إلى أمير المؤمنين عثمان فاستعفوه منه ، وتولى كبير ذلك غيلان بن خرشة الضبي فعزله عثمان وولى عبدالله بن عامر بن كريز بن ربيعة القرشي وهو ابن خال عثمان ، وكان ابن خمس وعشرين سنة ، وجمع له جند أبي موسى وجند عثمان بن أبي العاصي من عمان والبحرين ، فصرف عبيد الله بن معمر عن خراسان وبعثه إلى فارس وولى على خراسان مكانه عمير بن عثمان بن سعد فأثخن فيها حتى بلغ فرغانة ولم يدع كورة إلا أصلحها ، ثم ولى عليها في السنة التالية أمير بن أحر

اليشكري وعلى كرمان عبد الرحمن بن عبيس ، واستعمل على سجستان عبد الله بن عمير الليثي ، فأثخن فيها إلى كابل ثم عمران بن الفضيل البرجمي ، وعلى مكران عبيد الله بن معمر فأثخن فيها حتى بلغ النهر .

ثم إن أهل فارس ثاروا واتفقوا بعبيد الله بن معمر فسار إليهم فالتقوا على اصطخر فقتل عبيد الله وبلغ الخبر ابن عامر فاستنفر أهل البصرة وسار بالناس إلى فارس ، وكان على مقدمته عثمان بن أبي العاصي وفي الخيلتين أبو برزة الأسلمي ومقل بن يسار وعلى الخيل عمران بن حصين وكلهم له حربة ، فلقية الثائرون باصطخر فقتل منهم مقتلة عظيمة وانهمزوا وفتح اصطخر عنوة ، وسار بعدها إلى دار ابجر ودمدينة جور ، وكان هرم ابن حيان محاصراً لها ، فلما جاء ابن عامر فتحها ، ثم عاد إلى اصطخر ، وقد انتقضت ثانية لحاصرها طويلاً ورماها بالجانيق وافتتحها عنوة ، ففنى فيها أكثر أهل البيوتات والأساورة لأنهم كانوا قد لجأوا إليها ، ووطئ ابن عامر أهل فارس وطأة لم يزلوا منها في ذل ، وكسب إلى عثمان رضى الله عنه بالفتح فكسب إليه أن يستعمل على بلاد فارس هرم بن حسان اليشكري ، وهرم بن حيان العبدى ، والخريت بن راشد ، والمنجاب بن راشد ، والترجمان الهجيمي ، وأمره أن يفرق كور خراسان على جماعة ، فيجعل الأحنف بن قيس على المروين ، وحبيب بن قره اليربوعي على بلخ ، وشالد بن عبد الله بن زهير على هراة ، وأمير بن أحمر على طوس ، وقيس بن الهيثم السلمي على نيسابور ، ثم إن عثمان رضى الله عنه جمع هذه الولاية قبل موته لقيس ، واستعمل أمير بن أحمر على سجستان .

لما رجع ابن عامر إلى البصرة بلغه نقض أهل خراسان ونكبتهم فأتاه الأحنف بن قيس وقال له أيها الأمير إن عدوك منك هارب ولك هائب والبلاد واسعة ، فمر فإن الله ناصرك ، ومعز دينه ، فتجهز وسار

واستخلف على البصرة زياداً واستعمل على حرب سجستان الربيع بن زياد الحارثي وعلى كرمان بجاشع بن مسعود السلمي ، وتقدم هو إلى نيسابور وجعل على مقدمته الأحنف بن قيس فأتى الطيبين وهما حصنان وهما بابا خراسان ففتحهما عنوة ثم سير أمرأه إلى أعمال نيسابور ففتحوها زام وقهستان وبيهي وبشت ، ثم تقدم ابن عامر وافتتح نيسابور وكل أعمالها وطوس ، كذلك وهرأة وأعمالها كما سيأتي تفصيل الخبر عن ذلك في سيرة ابن عامر إن شاء الله .

وسير ابن عامر الأحنف بن قيس إلى طخارستان فأتى سوانجرد فصالحه أهلها على ثلاثمائة ألف درهم ، ثم مضى إلى مرو الروذ فقاتله أهلها . ثم صالحوه ، وسير سرية فاستولت على رستاق بغي فعضم الأمر على أهل طخارستان ، فاجتمع لقاتله أهل الجوزجان والطالقان والفارياب ومعهم ملك الصغانيان (من تركستان الشرقية) ، فقاتلهم الأحنف قتلاً شديداً حتى هزمهم وقل جمعهم وفتح البلاد المذكورة ، ثم سار إلى بلخ وهي مدينة (عاصمة) طخارستان فافتتحها ، ثم انعطف على خوارزم الواقعة على نهر جيحون في تركستان الغربية وحاول فتحها ، فلم يقيصر له ذلك ، فعاد إلى بلخ وسيأتي الكلام على ذلك مفصلاً في سيرة الأحنف إن شاء الله .

وأما بجاشع بن مسعود السلمي الذي سار لفتح كرمان فإنه فتح حميد ثم أتى السيرجان وهي مدينة كرمان لخاصرها أياماً ثم افتتحها ، وفتح جبرفت عنوة ثم سار في كرمان فاستخضع أهلها ودوخ مدنها ، وهرب كثير من أهل كرمان فلاحقوا بمكران وسجستان فأقطعت العرب أراضيهم فعمروها واحتفروا لها القنى في مواضع منها وأدوا العشر عنها .

وأما الربيع بن زياد الحارثي الذي سار إلى فتح سجستان فإنه قطع المفازة (لعلها مفازة كوهستان وهي غير قوهستان التي مر ذكرها) فأتى

حصن زالق وأغار على أهله وأسر الدهقان فافتدى نفسه بأن غرز عنزة^(١) وغمرها ذهباً وفضة ، وصالحه على صلح فارس ثم فتح كركويه ثم أتى روست بقرب زرنج فقاتله أهله وأصيب رجال من المسلمين ، ثم انهزم أهلها ثم أتى غاشروذ ثم شرواذ ثم زرنج فنزلها وقاتله أهلها فهزمهم فصالحه مرزبانها على مال كثير ، ودخل المسلمون المدينة ، ثم ذهب إلى وادي سناروز ثم رجع وأقام في زرنج سنة وعاد إلى ابن عامر بعد أن استخلف عليها عاملاً ، فأخرج أهل زرنج العامل وامتنعوا ، فاستعمل ابن عامر عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب ابن عبد شمس على سجستان ، فسار إليها فحصر زرنج فصالحه مرزبانها على ألفي ألف درهم (مليونين) ، وغلب عبد الرحمن على ما بين زرنج والكش من ناحية الهند وغلب من ناحية الرخج على ما بينه وبين الداو ، فما انتهى إلى بلد الداو حصرهم في جبل الزوز ثم صالحهم ، ودخل على الزوز وهو صنم من ذهب عيشاه ياقوتتان ، فقطع يده وأخذ الياقوتتين ، ثم قال للمرزبان دونك الذهب والجوهر ، وإنما أردت أن أعلمك أنه لا يضر ولا ينفع . وفتح عبد الرحمن كابل وزابلستان وهي ولاية غزنة ثم عاد إلى زرنج فأقام بها حتى اضطرب أمر عثمان ، فاستخلف عليها أمير بن أحمر وانصرف فعادوا إلى العصيان .

ولما تم لابن عامر مثل هذا الفتح العظيم قيل له لم يفتح لأحد ما فتح عليك ، فقال لا جرم لأجعلن شكرى لله على أن أخرج محرماً من موقفي هذا ، فأحرم بعمره من نيسابور وقدم على عثمان ، فاستخلف قيس بن الهيثم على خراسان فعاد القوم إلى العصيان وجمع أمير منهم اسمه قارن جمعاً كبيراً من ناحية الطليسين ، وأهل باذغيس وهرارة وقهستان ، وأقبل في أربعين ألفاً لمحاربة المسلمين ، فاستشار قيس بن الهيثم عبد الله بن خازم وقال ما ترى .

(١) العنزة بنتحتين أطول من العصا وأنصر من الرمح ، وفيها زج كزج الرمح .

قال أرى أن تخلي البلاد فإني أميرها ومعى عهد من ابن عامر إذا كانت حرب بخراسان فأنا أميرها ، وأخرج كتاباً كان قد افتعله عمداً فذكره قيس منازعته وخله والبلاد ، وأقبل إلى ابن عامر فلامه ابن عامر ، قال جاءني بعهد منك .

أما ابن خازم فسار لملاقاة قارن بأربعة آلاف ، فلما قرب منه أمر الجند أن يدرج كل رجل منهم على زج رمحه قطناً مغموساً بالدهن أو النفط ، فلما أمسى أمرهم أن يشعلوا النيران في أطراف الرماح وانتهت مقدمته إلى قارن نصف الليل فناوشوهم ، وهاج الأعداء على دهش وكانوا آمنين من البيات ، ولما دنا ابن خازم منهم ورأوا النيران يمتدة ويسرة تتقدم وتتأخر وتنخفض وترتفع هالهم ذلك ، ثم غشيهم ابن خازم بخنوده فانهزموا وقتل قارن وتم الفتح ، وكانت مكيدة ابن خازم سبب النصر فكتب إلى ابن عامر بالخبر فرضى وأقره على خراسان ، فلبث عليها حتى انقضى أمر الجمل ، وأقبل إلى البصرة فشهد وقعة ابن الحضرمي وكان معه في دار سنبل .

هذا ما أحببت إirاده من فتح فارس وخراسان ، وأما طبرستان فقد كان فتحها على يدى سعيد بن العاص أمير الكوفة من قبل عثمان سنة (٣٠ هـ) ، وذلك أن سعيداً سار من الكوفة يريد خراسان بجيش فيه جماعة من الصحابة ، منهم حذيفة بن اليمان وفيه الحسن والحسين ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهم ، وكان ابن عامر قد خرج من البصرة قاصداً خراسان ، فلما وصل سعيد وجده قد نزل أبرشهر فنزل قومس وهي صلح صالحهم عليها حذيفة بن اليمان بعد وقعة نهاوند ولم تلتقط ، وأتى جرجان فصالحوه على مائتي ألف ، ثم أتى هلميسه وهي كلها من طبرستان متاخمة جرجان ، وهي على ساحل بحر الخزر أى بحر قزوين فقاتله أهلها قتالاً شديداً ، حتى صلى صلاة الخوف ، وضرب يومئذ سعيد أحد المشركين على حبل عاتقه فخرج السيف من تحت مرفقه ، وحاصروهم

فأسألوا الأمان فأعطاهم وافتتح سهل طبرستان والرويان ودنباوند ، وأعطاه أهل الجبال مالا . ثم كان المسلمون بعد ذلك يفزون طبرستان ونواحها ، فربما أعطوا الإتاوة عفواً وربما أعطوها بعد قتال ، وما زالت هذه البلاد (أى جرجان وطبرستان) ، على شيء من الاستقلال يأتى أهلها الخضوع التام للدولة الإسلامية مدة الخلفاء الراشدين وبعض الأمويين ، حتى استخضعها يزيد بن المهلب فى خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان .

مقتل يزيد بن المهلب :

كانت جيوش المسلمين فى عهد عمر بن الخطاب ألجأت يزيدجر للفرار إلى حلوان ثم أصفهان ، وكانت كلما تقدمت فى البلاد يفر أمامها حتى استقر على ما يقال فى كرمان ، ولما انتقضت البلاد من فارس وخراسان على عهد عثمان ودوخها ثانية عبد الله بن عامر كما رأيت أخذ بمطاردة يزيدجر ، وأرسل فى أثره هرم بن حيان فأتبعه إلى كرمان فهرب منها إلى خراسان ، ثم لحق بمرد الروذ وكاتب ملوك الصين وفرغانة والخزر فأمدوه فسار بهم إلى سجستان وقيل إلى جرجان ، فالتقى بجيوش المسلمين فهزموه فالتجأ إلى مرو الشاهجان فنهجه أصحابها من الدخول ، وكتب إلى نيزك طرخان من ملوك الترك يستقدمه لقتل يزيدجر ومصالحة العرب عليه وأن يعطيه كل يوم ألف درهم ، فجاء نيزك إلى يزيدجر متظاهراً بنصرته واحتال عليه ليقتله ، فأحس يزيدجر بالديسة ففر بنفسه وآوى إلى أرحاء على نهر المרגاب ، وهو نهر يسيح فى مرو الروذ ثم يغيب فى رمال الصحراء ، ثم يظهر فى مرو الشاهجان فيقتله صاحب الرحى وألقى شلوه فى الماء . ويقول (سديو) فى تاريخه إن الذى أمد يزيدجر هو ملك الصين والتتار المسمى تائى تسنغ ، وأنه هو الذى ساط عليه بعد ذلك من قتله ، فقتل على شاطئ نهر المרגاب ، وانقضت بقتله أيام الدولة الساسانية التى استمرت دولتها زاهية ، وأعلامها على تلك الممالك خافقة ، نحو ثلاثمائة وتسع وعشرين سنة ، والملك بيد الله يؤتیه من يشاء .

أهم الأخبار والحوادث في عصر عثمان

سقوط خاتم النبي في بحر أربس :

كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم من فضة ، نقش عليه ثلاثة أسطر ومحمد . ورسول . والله . ، ولما توفي تختم به أبو بكر ثم عمر ، ثم تختم به عثمان ست سنين ، فحفروا بئراً بالمدينة شرباً للمسلمين فقعده عثمان على رأس البئر فجعل يعيث بالخاتم فسقط من يده في البئر فطلبوه فيها فلم يقدروا عليه ، فجعل مالا عظيماً لمن يأتي به ، واغتم لذلك غمماً شديداً ، فلما يئس من أمره صنع خاتماً آخر على مثاله ونقشه فبقى في إصبعه حتى قتل ، وذهب الخاتم فلم يدر من أخذه ، وكان فقد هذا الخاتم مما أوحى عليه عثمان رضى الله عنه لما بدأت المطاعن عليه .

الطعن على العمال

ضمير الوليد بن عقبة :

كان الوليد بن عقبة^(١) عاملاً لعمر رضى الله عنه على عرب الجزيرة ، فلما كان بين سعد بن أبي وقاص وبين عبد الله بن مسعود ما كان مما سبق ذكره في سيرة سعد ، عزل عثمان سعداً عن الكوفة وولاه الوليد بن عقبة فقدم الكوفة وسار في الناس سيرة حسنة ، فكان أحب الناس في الناس وأرفقهم بهم فكان كذلك خمس سنين وليس على داره باب ، حتى نقيم منه

(١) هو الوليد بن عقبة بن أبي معيط أبان بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وكان الوليد بن عقبة أخا عثمان بن عفان لأمه ، وأمهما أروى بنت عامر ابن كرز

بعض الناس أموراً ، منها اتهامه بشرب الخمر ، وأفاضوا في الطعن عليه ، حتى استقدمه عثمان رضى الله عنه ، وأقام عليه الحد ، وملخص الخبر على ما جاء في تاريخ الطبرى أن شباباً من أهل الكوفة نقبوا على ابن الحيسمان الخزاعى وكأثروه ، فنذر^(١) بهم نخرج عليهم بالسيف فلما رأى كثرتهم استصرخ فقتلوه وأشرف عليهم أبو شريح الخزاعى من سطح داره فصاح بهم ، وأقبل إليهم الناس فأخذوهم وفيهم زهير بن جندب الأزدى ، ومورع بن أبى مورع الأسدى ، وشبيل بن أبى الأزدى وغيرهم ، فشهد عليهم أبو شريح وابنه فكاتب الوليد بهم إلى عثمان ، فكاتب إليه في قتلهم ، فقتلهم على باب القصر في الرحبة ، فقال فى ذلك عمرو بن عاصم التميمى من أبيات .

لا تأكلوا أبداً جيرانكم سرفاً أهل الدعارة فى ملك ابن عفان

ولهذا نقم على الوليد آباء المقتولين وأخذوا يترقبون به العثرات ، وكان شاعر من بنى تغلب اسمه أبوزيد للوليد عليه يد مذ كان على عرب الجزيرة ، وقد كان نصرانياً فما زال به الوليد وعنه حتى أسلم فى آخر قدمه قدمها ، وحسن إسلامه ، فاستدخله الوليد فأتى آت أباً زينب وأبامورع وجندباً وهم يحقدون عليه مذ قتل أبناءهم ، فقال لهم هل لكم فى الوليد يشارب أباً زبيد ، فثاروا فى ذلك وقالوا لأناس من وجوه أهل الكوفة هذا أميركم وأباً زبيد خيرته وهما عاكفان على الخمر ، فقاموا معهم ، ومنزل الوليد فى الرحبة مع عمارة بن عقبة وليس عليه باب فاقترحوا عليه من المسجد وبابه إلى المسجد فلم يفتحوا إلا بهم فنحى شيئاً ، فأدخله تحت السرير فأدخل بعضهم يده فأخرجه ، فإذا طبق عليه تفاريق عنب ، وإنما نحاه استحياء أن يروا طبقة ليس عليه إلا تفاريق عنب ، فقاموا نخرجوا وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ،

(١) نذر بهم أى علم بهم خنذهم .

وسمع الناس بذلك فأقبل الناس يسبونهم ويلعنونهم ويقولون أقوام غضب الله لعملهم . فدعاهم ذلك إلى التجسس والبحث ، فاستتر عليهم الوليد ذلك وطواه عن عثمان ، ولم يدخل بين الناس في ذلك بشيء ؛ وكره أن يفسد بينهم فسكت عن ذلك وصبر : قالوا وجاء جندب ورهط معه إلى ابن مسعود فقالوا . الوليد يعتكف على الخمر ، وأذاعوا ذلك حتى طرح على ألسن الناس . فقال ابن مسعود . من استتر عنا بشيء لم نتبع عورته ولم نهتك ستره ، فأرسل الوليد إلى ابن مسعود فأثاه فعاتبه في ذلك ، وقال أيرضى من مثلك بأن يجيب قوماً موتورين (أى لهم عليه ثار) بما أجبت على . أى شيء استتر به . إنما يقال هذا للمريب . فتلاحيا ، وتلاوما ، وافترقا على تغاضب ، ولم يكن بينهما أكثر من ذلك ، ثم أتى للوليد برجل يدعى السحر ووجب عليه الحد ، فجاء جندب فضر به قبل أن يأمر به الأمير بشيء ، فاجتمع الوليد وابن مسعود على حبسه فحبس ، ثم أطلق بأمر عثمان وغضب لجندب أصحابه فخرجوا إلى المدينة فاستعفوا عثمان من الوليد ، فقال لهم عثمان : تعملون بالظنون وتخطئون في الإسلام وتخرجون بغير إذن ارجعوا ، فردهم فلما رجعوا إلى الكوفة لم يبق موتور في نفسه إلا أنهم فاجتمعوا على رأى فأصدروه (أى تأمروا فيما بينهم على أن يكيدوا للوليد فكادوا له) ، ثم تغفلوا الوليد وكان ليس عليه حجاب ، فدخل عليه أبو زينب الأزدي وأبو مورع الأسدي فسلا خاتمه ، ثم خرجا إلى عثمان فشهدا عليه بشرب الخمر ومعهم نفر من يعرف عثمان من قد عزله الوليد عن الأعمال فسألهما عثمان ، كيف رأيتما قالا كنا من غاشيته فدخلنا عليه وهو يقي الخمر : فقال ما يقي الخمر إلا شاربها فبعث إليه : خلف له الوليد وأخبره خبرهم : فقال نقيم الحدود ويؤى شاهد الزور بالنار فاصبر يا أخى . وأمر سعيد بن العاص بفخله ، وكانت عليه خميصة فنزعها عنه على بن أبي طالب ثم إن عثمان رضى الله عنه ولى مكانه سعيد بن العاص :

وفي رواية أن الوليد سكر وصلى الصبح بأهل الكوفة أربعاً وقال :
أزيدكم : فقال ابن مسعود ما زلنا معك في الزيادة منذ اليوم ، وشهدوا عليه عند
عثمان فأمر علياً بجلده فأمر على عبد الله بن جعفر بجلده .

وروى الطبري أن الناس كانوا في الوليد فرقتين ، العامة معه والخاصة
عليه ، وفي رواية له أيضاً أن الوليد أدخل على الناس خيراً حتى جعل يقسم
للولايد والعبيد ، ولقد تفجع عليه الأحرار والمماليك وكان يسمع الولايد
وعليين الحداد يقلن :

يا ويلنا قد عُزِلَ الوليد وجاءنا مجوعاً سعيداً
ينقص في الصاع ولا يزيد فجوع الإمام والعبيد

وفي رواية له عن الشعبي أن كان مما زاد عثمان الناس على يد الوليد ، أن
ودع على كل مملوك في الكوفة من فضول الأموال ثلاثة في كل شهر يتسعون بها ،
من غير أن ينقص مواليهم من أرزاقهم .

من نظر إلى هذه الروايات بنظر الناقد البصير ، لا يرى فيها دليلاً يؤيد
صحة التهمة ، بل يرى منها النافية ومنها المثبتة ، ولقد يضطرب الذهن دون
التمثبت من حقيقة حادثة الوليد ، إذ أي مجنون بله العاقل يجلس في منزل
ليس عليه باب ولا حجاب يعاقر الخمر ، وهو يعلم أنه بين قوم موتورين
يتربصون به الفرص ويتبعون العثرات وقد أحس منهم بالشر ، وعلم منهم إرادة
الغدر ، على أنه سواء صحت هذه التهمة أو لم تصح ، فالذي يظهر من بحمل تلك
الروايات أن هناك أموراً دبرت بليل يراد بها مطلق الطعن على العمال تذرعاً
للوثوب على الخلافة ، ولإيقاظ الفتنة النائمة ، وحسبك دليلاً على هذا أن سعيد
ابن العاص لما جعل غاشيته من القراء وأهل السابقة بعد الوليد ، لقي من أهل
الكوفة من الطعن عليه والشكوى منه مثل ما لقي الوليد الذي يزعمون أنه كان
يعكف على الخمر ، كما سترى بعد .

لو كان أهل الكوفة على حق في الطعن على العمال لظلم أصحابهم ، أو استبداد
ظهور من أمرائهم ، لعد عملهم حسنة من حسنات الحرية التي كانت تتمتع بها
الامة يومئذ ، والعدل الذي لا تضام به نفس . ولا يهضم به حق ، ولكن لما
لم يكن الأمر كذلك وكانت البواعث أخفى مما يعلمون ، فالتاريخ والعدل
يشهدان بمؤاخذتهم كما سنبتط كل شيء في محله إن شاء الله .

ولادة سعيد بن العاص الكوفي :

كان سعيد بن العاص مقيماً مع معاوية بالشام ، وكان نشأ يتيماً في حجر
عثمان ، فتذكر عمر يوماً قريشاً وسأل عن سعيد فيمن يتفقد من أمور الناس ،
فقيل له إنه بدمشق وإنه مريض ، فأرسل إلى معاوية أن أرسل إلى سعيداً
في منقل (محفة) ، فبعث به إليه وهو دنف فما بلغ المدينة حتى أفاق فقال له
يا بن أخي قد بلغني عنك بلاء وصلاح ، فزدك الله خيراً ، هل لك من
زوجة ، قال لا : فقال عمر لعثمان ما منعك من هذا الغلام أن تكون زوجته ،
قال قد عرضت عليه فأبى ، فزوجه عمر ولم يمض عمر حتى كان سعيد من
رجال الناس ، وقد كان عمومه ذوى بلاء في الإسلام وسابقة حسنة ، وقبلة
مع رسول الله صلى الله عليه وسلم :

هذا ملخص ما رواه الطبري عن سعيد ، وذكر صاحب الأغاني في خبر
أبي قطيفة بن الوليد بن عقبة من سيرة سعيد ما يدل على أنه كان من الكرم
وعلو النفس على جانب عظيم ، فذكر أنه مات في قصره خارج المدينة وعليه
من الدين ثلاثمائة ألف فأوصى لابنه بقوله : فإذا واريثني فانطلق إلى معاوية
فانحنى له ، وانظر في ديني ، واعلم أنه سيعرض عليك قضاءه فلا تفعل واعرض
عليه قصرى هذا ، فإنى اتخذته للنزهة وليس بمال ، فلما نعاه ابنه إلى معاوية
سأله عن دينه ليقضيه ، فأخبره بوصيته ، فأخذ معاوية قصره بدينه وهو
ثلاثمائة ألف درهم ، ولما أرادوا وفاة الديون وجدوا أكثرها هبات كتبها

على نفسه صكوكا كي لا يرد سائلا سألته شيئا فوفوها عنه . وهذا مفتوح
ما يروى عن كرم النفس ، وشرف الطباع ، وإنما أوردت هذا الخبر ليكون
دليلا على سيرة بعض عمال عثمان رضى الله عنه .

هذا ولما ولي سعيد على الكوفة وذلك سنة (٥٣٠ هـ) خرج وخرج
معه الأشترو أبو خَشَّة الغفارى ، وجندب بن عبد الله ، وأبو مصعب بن جثامة ،
وكانوا فيمن شخص مع الوليد فرجعوا مع هذا ، فلما بلغ سعيد الكوفة صعد
على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال :

والله لقد بعثت إليكم وإلى لكاره ، ولكنى لم أجد بدأ إذ أمرت أن
أتمر إلا أن الفتنة قد أضلعت خطمها وعينها ، والله لأضربن وجهها حتى
أقعها (أزليها) ، أو تعينى ، وإلى لرائد نفسى اليوم ، ثم نزل .

وسأل عن أهل الكوفة فأقيم على حال أهلها ، فكتب إلى عثمان بالذى
اتمى إليه ، أن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم ، وغلب أهل الشرف منهم ،
والبيوتات والسابقة والقدمة والغالب على تلك البلاد روادف ردت ،
وأعراب لحقت ، حتى ما ينظر إلى ذى شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتها .

فكتب إليه عثمان رضى الله عنه ، أما بعد ففضل أهل السابقة والقدمة
من فتح الله عليه تلك البلاد ، وليسكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم إلا أن يكونوا
تثاقلوا عن الحق ، وتركوا القيام به وقام به هؤلاء ، واحفظ لكل منزلة
وأعطيهم جميعاً بقسطهم من الحق ، فإن المعرفة بالناس (أى بحقوقهم ومراتبهم)
بها يهتد بالعدل .

فأرسل سعيد إلى وجوه الناس من أهل الأيام والقادسية فقال :
أتم وجوه من وراكم ، والوجه ينهى عن الجسد ، فأبلغونا حاجة ذى الحاجة
وخلة ذى الخلة (أى الحاجة) ، وأدخل معهم من يحتمل من اللواحق .

والروادف ، وخلص بالقراء والمتسمتين (الخاصة) في سمره ، ففشت القالة ، والإذاعة ، وانقطع الذين لاسابقة لهم ولاقدمة إلى بعضهم ، وجعلوا يعيبون التفضيل ويدونه جفوة ، فكان إذا لحق بهم لاحق من ناشئ أو أعرابي أو محرر (معتوق) استحل كلامهم ، فكافوا في زيادة وأولئك في نقصان حتى غلب الشر ، فكتب سعيد إلى عثمان بذلك ، فنادى منادى عثمان الصلاة جامعة ، فاجتمعوا ، فأخبرهم بالذي كتب إليه سعيد وقال : يا أهل المدينة إن الناس يتمخضون بالفتنة ، وإنى والله لا تخلصن لكم الذى لكم حتى أنقله إليكم إن رأيتم ذلك ، فهل ترونه حتى يأتى من شهد مع أهل العراق الفتوح فيه فيقيم معه في بلاده ؟

فقام أولئك وقالوا ، كيف تنقل لنا ما أفاء الله علينا من الأرضين يا أمير المؤمنين ؟ فقال نبيها ممن شاء بما كان له بالحجاز ، ففرحوا وفتح الله عليهم به أمراً لم يكن في حسابهم اهـ .

ولما أراد عثمان بهذا الاستبدال إما أن يجعل من شهد الفتوح في العراق وأهل السابقة والأيام يقيمون في تلك الديار ، ليسكثر سوادهم ويغلب على سواد العامة والروادف الذين هم من جفاة الأعراب ، ومنهم ظهر الشر وبهم استعان أهل الفتنة ، ولما ليفرق الروادف الذين هم تبع في العطاء لأهل السابقة عن العراق ليقيموا مع هؤلاء حيث يقيمون ويندفع شرهم عن الناس ونعم الرأي هذا من عثمان رضى الله عنه ، لو لم تكن الفتنة قد بذرت بذورها وتمخض الناس بها فلا بد من ظهورها .

حادثة أبي ذر

والقول بجرمة اكتناز المال

كان أبو ذر من المشهورين بالتقى والصلاح ، شديد التمسك في الاعتقاد جريئاً في قول الحق ، وكان مقبياً بالشام مع معاوية ، وكان يعتقد أن كل أموال النية هي من حقوق المسلمين ، وليس للإمام أو من يتوب منابه أن يحتج^(١) شيئاً منها ، بل ينبغي أن تقسم على الناس شيئاً فشيئاً ، كما كان ذلك على عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، والظاهر أن معاوية كان يتوسل إلى ادخار المال لصرفه في وجوه المصالح العامة ، التي تقتضيها حالة الدولة وتدرجها في مدارج الحضارة بقوله : المال مال الله . ومعناه يضعه الإمام حيث يشاء ، فوجد دعاة الفتنة من هذا القول ضالة الغرض الذي ينشدونه ، إما للتشويش على عثمان رضي الله عنه ، والتأليب على عماله لمقاصد سياسية . وإما لمطلق الإفساد بين المسلمين تشفياً وانتقاماً ، فانطلق من هؤلاء ابن السوداء أو ابن سبأ اليهودي إلى الشام ، واندس على أبي ذر وأمثاله من الصحابة ، يوسوس لهم بما يوسوس ، فلم تنطل حيلته على غير أبي ذر ، وإليك ما رواه الطبري بهذا الصدد عن يزيد الفقعسي قال

لما ورد ابن السوداء الشام لقي أبا ذر فقال ، يا أبا ذر : ألا تعجب إلى معاوية يقول المال مال الله ، ألا أن كل شيء لله كأنه يريد أن يحتجته دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين ، فأتى أبو ذر معاوية وقال : ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله . قال معاوية يرحمك الله يا أبا ذر ، ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره ؟ قال فلا تقله . قال فإني لا أقول إنه ليس لله ولكن سأقول مال المسلمين

(١) احتجنا المال ضمه واحتواه .

قال يزيد وأتى ابن السوداء أبا الدرداء ، فقال له من أنت أظنك والله
يهودياً ، فأتى عبادة بن الصامت فتهلّق به ، فأتى به معاوية فقال هذا والله
الذى بعث عليك أبا ذر .

وقام أبو ذر بالشام وجعل يقول ، يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء :
بشر الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار
تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك
وأوجبه على الأغنياء ، وحتى شكوا الأغنياء ما يلقون من الناس ، فكاتب
معاوية إلى عثمان إن أبا ذر قد أعضل بي ، وقد كان من أمره كيت وكيت
فكاتب إليه عثمان إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينها ، فلم يبق إلا أن
تثبت فلا تشكأ القرح^(١) ، وجهز أبا ذر إلىّ وأبعث معه دليلاً ، وزوده
وارفق به ، وكفكف الناس ونفسك ما استطعت ، فإنما تمسك
ما استمسكت .

فبعث إليه بأبي ذر ومعه دليل ، فلما قدم المدينة ورأى المجالس في أصل
سليم قال : بشر أهل المدينة بغارة شعراء^(٢) ، وحرب مذكّار^(٣) ، ودخل
على عثمان فقال يا أبا ذر ما لأهل الشام يشكون ذر بك^(٤) ، فأخبره أنه
لا ينبغي أن يقال مال الله ، ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالا . فقال يا أبا ذر
على أن أقضى ماعلىّ ، وأخذ ماعلىّ الرعية ، ولا أجبرهم على الزهد ، وأن
أدعهم إلى الاجتهاد والاقتصاد . قال فتأذن لي في الخروج فإن المدينة ليست

(١) قوله فقد أعضل بي أى أعاني وقوله أخرجت خطمها أى مقدم أنفها ، وقوله
فلا تشكأ القرح أى لا تدميه ، والقرح هو الجرح .

(٢) أى متفرقة . (٣) أى ذلك أهوال لا يقدم عليها إلا ذكور الرجال .

(٤) أى حدة لسانك .

لى بدار . قال أو تستبدل إلا شراً منها ، قال أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أخرج منها إذا بلغ البناء مسلماً . قال فأنفذ لما أمرك به . نخرج أبو ذر حتى نزل الرّبذة نخط بها مسجداً ، وأقطعته عثمان صرمة من الإبل ، وأعطاه ملوكين ، وأرسل إليه أن تعاهد المدينة حتى لا ترتد أعرايياً ففعل

وروى الطبرى أيضاً عن ابن عباس قال كان أبو ذر يختلف من الرّبذة إلى المدينة مخافة الأعرابية ، وكان يحب الوحدة والخلوة ، فدخل على عثمان وعنده كعب الأحبار . فقال لعثمان لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف ، وقد ينبغى للمؤدى الزكاة أن لا يقتصر عليها حتى يحسن إلى الجيران والإخوان ويصل القرابات . فقال كعب الأحبار من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه . فقال له أبو ذر يا بن اليهودية ما أنت وماها هنا ، والله لتسمعن منى ، أو لأدخل عليك ، ورفع حجته فضربه فشججه . فاستوهبه عثمان فوهبه له وقال (لأبى ذر) يا أبا ذر اتق الله واكفف يدك ولسانك اه .

واعلم أن قول أبى ذر بوجوب بذل المعروف والإحسان إلى الناس على الوجه الذى يقوله ناشئ عن استمساكه الشديد بالدين ، وما أشرب به قلبه من فضائل الإسلام وتعاليمه التى ترمى إلى ذلك الغرض الجليل ، لتجعل الناس كلهم بالتمتع بثمرات الحياة شرعاً سواء ، إلا أنه كان يتغالى بهذا المشرب تغالياً تستخشن مركبه النفوس الميالة من طبعها إلى المزيد من كل شيء ، على أن القصد والتوسط فى هذا المذهب هو المطلوب ، وليس هو فوق طاقة النفوس كما يتخيله بعض الشرهين فى المال ، المغالين فى حب الذات ، فلو استمسك المسلمون بعروته وحملهم الخلفاء على طريقته ، لكانوا أعز الأمم جانباً وأسعدها حالاً ، إذ خلق التعاون على البر إذا نشأ بنشوء الأمة وتمكن من نفوسها يصير مع الزمن ملكة راسخة فى الصدور ، تنمو بنمو

الحياة القومية ، ومن العجيب أن لا يتأصل هذا الخلق ولا تنمو هذه المملكة
في نفوس الأمة التي نزل كتابها بالحث عليه ، والتخلق به . وقام من سلفها
من ينهب العقول الغافلة عنه منذ نبت الإسلام ، واجتمع على كلبته أولئك
الآقوام ، وعسانا نلم بشيء من هذا البحث فيما يلي من هذا الكتاب
إن شاء الله .

هذا وقد جاء في حكاية شخص أبي ذر إلى الريذة روايات أخرى غير
ما تقدم تحاشيناً لإيرادها كما تحاشاه الطبري وابن الأثير وغيرهما من محققى
المؤرخين ، علماً منهم بضعف تلك الروايات ، ولا جرم أن كل ناقد بصير
إذا رأى روايتين متضادتين يرجح المعتدلة منهما ، لارتياح الضمير إليها
بالإضافة إلى عصر الخلفاء الراشدين الذى هو خير العصور الإسلامية بشهادة
التاريخ نفسه .

وأما أبو ذر رضى الله عنه فقد توفى في الريذة سنة (٣٣ هـ) أى بعد
حادثته هذه وشخصه إلى الريذة بثلاث سنين .

آثاره في الخلافة

من أعظم آثار عثمان رضى الله عنه ، وجزاه عن المسلمين خير الجزاء ،
جمعه الناس على مصحف واحد ، بعد أن تعددت القراءات واختلف فيها
أهل الأمصار ، وفضله في ذلك كفضل أبي بكر رضى الله عنه في جمع القرآن
وتحرير الخبر عن ذلك كما ذكره ابن الأثير وابن عساكر أن حذيفة بن اليمان
لما قفل مع سعيد بن العاص من غزوة أذربيجان والباب ، قال حذيفة لسعيد
إني قد سمعت في سفرى هذا أمراً لئن ترك الناس عليه ليختلفن في القرآن
ثم لا يقومون عليه أبداً ، قال وما ذاك ، قال رأيت أهل الشام حين قدموا
عالمنا فرأيت أناساً من أهل حمص يزعمون لأناس من أهل الكوفة أنهم

أصوب قراءة منهم ، وأن المقداد أخذها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول الكوفيون مثل ذلك وأنهم أخذوا قراءتهم عن ابن مسعود ورأيت من أهل دمشق قوماً يقولون لهم لا ، نحن أصوب منكم قراءة ، ويقول هؤلاء لهم مثل ذلك . فلما رجع إلى الكوفة دخل المسجد فحذر الناس عما سمع في غزاته تلك ، وحذرهم ما يخاف ، فساعدته على ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أخذ عنهم وعامة التابعين . وقال له أقوام ممن قرأ على عبد الله بن مسعود وما تشكر ألسنا نقرأ على قراءة ابن أم عبد ؟ وأهل البصرة يقولون على قراءة أبي موسى ويسموننا لباب الفؤاد ، وأهل حمص يقولون على قراءة المقداد وسالم . فغضب حذيفة من ذلك والصحابة والتابعون وأبناءؤهم ، وقالوا لهم إنما أقم أعراب فاسكتوا فإنكم على خطأ .

وقال حذيفة والله لئن عشت حتى آتى أمير المؤمنين لأشكون إليه ذلك . ولأشيرن عليه أن يحول بينهم وبين ذلك حتى يرجعوا إلى جماعة المسلمين ، والذي عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فأغلظ له ابن مسعود فغضب سعيد بن العاص ، وغضب حذيفة فقاموا وتفرقوا ورحل حذيفة إلى عثمان حتى قدم عليه ، فأخبره بالذي حدث وقال أنا النذير العريان فأدركوا هذه الأمة ، فجمع عثمان الصحابة وأقام حذيفة فيهم بالذي رأى ، وسمع ، وبالذي عليه حال الناس ، فأعظموا ذلك ورأوا جميعاً مثل الذي رأى ، فأرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر أن أرسل إلينا بالصحف ننسخها ، وكانت هذه الصحف التي كتبت في أيام أبي بكر على الوجه الذي ذكرنا في سيرته ، وأمر عثمان زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان إذا اختلفتم فاكتبوها بلسان قريش ، وإنما نزل بلسانهم ، ففعلوا ، فلما نسخوا الصحف ردها عثمان إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف وحرق

ما سوى ذلك . وفي رواية لابن عساكر عن مصعب بن سعيد ، أن عثمان خطب يومئذ في الناس وعزم على كل رجل عنده شيء من كتاب الله لما جاء به ، فكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة ، ثم دعاهم رجلا رجلا فناشدتهم أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أملاه عليك ؟ فيقول نعم : فلما فرغ من ذلك عثمان قال من أكتب الناس ؟ قالوا كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت . قال فأى الناس أعرب ؟ قالوا سعيد بن العاص قال فليعمل سعيد ، وليكتب زيد فكتب زيد مصاحف ففرقها في الناس ، قال وسمعت بعض أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يقول ، قد أحسن وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه لما أحرق عثمان المصاحف ، لو لم يصنعه هو لصنعتة أنا ، فجزى الله عثمان عن الأمة خير الجزاء ، فقد أحسن وبر فيما صنع ، وكان له فضل في رد الناس إلى قراءة واحدة كتفضل أبي بكر في جمع القرآن .

زيادته في المسجد الحرام وفي مسجد الرسول :

في سنة (٢٦ هـ) زاد عثمان في المسجد الحرام ووسعه ، وابتاع من قوم وأبي آخرون فهدم عليهم ووضع الأثمان في بيت المال فصيحوا^(١) بعثمان فأمر بهم إلى الحبس ، وقال أتدرون ما جراًكم على ؟ ما جراًكم إلا حلمي قد فعل هذا بكم عمر فلم تصيحوا به . ثم كلبه فيهم عبدالله بن خالد بن أسيد فأخرجوا . وفي سنة (٢٩ هـ) زاد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ووسعه ، وابتدا في بنائه في شهر ربيع الأول وكان الجص يحمل إليه من بطن نخل ، وبناء بالحجارة المنقوشة ، وجعل عموده من حجارة فيها رصاص . وسقفه ساجاً وجعل طوله ستين ومائة ذراع ، وعرضه مائة وخمسين ذراعاً ، وجعل أبوابه على ما كانت عليه على عهد عمر ستة أبواب .

(١) صيح صوت بأقصى طاقتة .

بسم الله الرحمن الرحيم :

من مآثره الجميلة أن رزق الممالك دون أن ينقص شيئاً من رزق (مرتب) مواليمهم ، كما مر الخبر عن ذلك في الكلام على عزل الوليد بن عقبة وزيادته في الأعطيات للناس . ومن مآثره ترتيب الطعام في شهر رمضان لأهل المدينة ، وإقامته دور الضيافات في الكوفة كما روى ذلك الطبري ، ومن مآثره إقطاعه الأرضين التي جلا أهلها عنها للعرب ، لكي يعتمدوا فيها ويعمروها ، كما مر بك الخبر عن مثل ذلك في فتح كرمان ، وقد كان عمر رضى الله عنه لا يأذن باعتمال العرب في الأرضين كما علمت من سيرته ، وأذن لهم عثمان رضى الله عنه لما اتسع الفتح وانتشر العرب في البلاد وجلا من جلا من أهلها ، ورأى ضرورة إحياء ما تركوه من الأرضين وأن يقوم العرب على عمرانها ضمناً بها أن تهمل ويخسر ثمرتها الدولة والناس .

ومن مآثره اتخاذ دار القضاء كما يظهر ذلك من رواية رواها ابن عساكر عن أبي صالح مولى العباس ، قال : أرسلني العباس إلى عثمان أدعوه فأتيته في دار القضاء إلى آخر الحديث فإذا صح فيكون عثمان هو أول من اتخذ في الإسلام داراً للقضاء ، وقد كان الخليفة قبله يجلسان للقضاء في المسجد كما هو مشهور .

أولياته :

نقل السيوطي عن الأوائل للعسكري أن عثمان أول من أقطع القطن ، وأول من حمى الحمى ، وأول من خفض صوته بالتكبير ، وأول من خلّق (نقش) المسجد ، وأول من أمر بالأذان الأول في الجمعة ، وأول من رزق المؤذنين ، وأول من أرتج عليه (من الخلفاء) في الخطبة ، وأول من قدم الخطبة في العيد على الصلاة ، وأول من فوض إلى الناس لإخراج زكاتهم .

وأول من ولى الخلافة فى حياة أمه ، وأول من اتخذ صاحب شرطة . وأول من اتخذ المقصورة فى المسجد (المشهور أن أول من اتخذها معاوية) وأول ما وقع الاختلاف فى زمانه بين الأئمة ، خطأ بعضهم بعضاً فى أشياء نقوموها عليه ، وكانوا قبل ذلك يختلفون فى الفقه ، ولا يخطئ بعضهم بعضاً ، هذا ما نقله السيوطى من أوائل العسكرى ، وزاد عليه أنه أول من هاجر إلى الله بأهله وأول من جمع الناس على حرف واحد فى القراءة اهـ

أخلاقه ومناقبه

سياسته وعمله :

كان عثمان رضى الله عنه لين الجانب ، رءوف القلب ؛ محسناً إلى الرعية ، ومن أبطرت له النعمة وغره حلم الأمير . ولم يكن له زاجر من نفسه . ورفيق عليه من خلقه . ربما انقلب إلى الإساءة فى مقابل الإحسان كما وقع ذلك لعثمان رضى الله عنه فيمن أحسن إليهم ، كمحمد بن أبى حذيفة وأمثاله ، من الذين حرصوا عليه وأساءوا إليه ، لذا كانت سياسة اللين والإنابة التى اتبعها عثمان محدودة فى نفسها مذمومة فى نتائجها ، والعرب وإن كانوا يومئذ ذوى أخلاق عالية يندرو وجودها فى غيرهم من الأمم ، كالكرم وبذل المعونة والشجاعة والإقدام إلا أنه كان ينقصهم النظر فى العواقب ، وعدم التجارب لبعدهم عن سياسة الملك ولوازم الحضارة ، ويذرى بهم الاستغراق فى البدو وفقدتهم لأصول التربية الصحيحة ، وشرهم إلى الفخر بالعصبية والاعتزاز بالقبيلة ، وكل هذا من الأمور التى تبعث على حب الشقاق ، وهدم أركان الألفة وتسرع بخطى الناس إلى مواقع الفتن ، لهذا فالقوم يومئذ قل أن تنجح فيهم سياسة كلها لين ، بل الانجح فيهم والأولى فى تقويم أودهم سياسة وسط بين الشدة واللين ، ريثما تأنس بالطاعة نفوسهم ، وتستنير بنور الإسلام عقولهم ، ومن تأمل فيما جاء به الإسلام من الزواجر القامعة .

والقوارع الزاجرة ، والوعيد الشديد ، علم لماذا اختار الشارع طريق الشدة في استصلاح القوم ، وقد انتهج أبو بكر وعمر هذا المنهج في سياسة العرب . ففضت أيامهما والأمة في شاغل من الرهبة واشتغال بالفتح ، ليس فيها من يجرؤ على شق عصا المسلمين ، أو مناهضة الخليفة في شأن من شئون الدولة ، إلا ما كان من نصيحة يؤدونها ، أو رأى صالح يدونه ، أو كلمة حق يقولونها . بسائق الحرية التي ألفوها ، والواجب الذي يدعوهم الدين إليه ، فلما ولي عثمان وانكشف لهم من لينه جانب الضعف ناهضه قويمهم ، واجترأ على قول غير الحق ضعيفهم ، حتى إذا أراد أن يبسط على بعضهم يد القوة ، يأخذ منهم على الشكاكم ، نفروا منه ، وتحولوا بكليتهم عنه ، فكان إحسانه إليهم ولينه معهم سبب لإسائتهم إليه ، واقترافهم في مذاهب الاختلاف عنه يدل ذلك عليه ما رواه ابن عساكر في تاريخه عن سالم بن عبد الله قال .

لما ولي عثمان حج سنواته كلها إلى آخر حجة حجها ، وحج بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم معه كما كان يصنع عمر فكان عبد الرحمن بن عوف في موضعه ، وجعل في موضع نفسه سعيد بن زيد هذا في مؤخر القطار وهذا في مقدمته ، وأمر الناس (١) فكتب في الأمصار أن توافيه العمال في كل موسم ومن يشكوهم ، وكتب إلى الناس والأمصار أن اتتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، ولا يذل المؤمن نفسه ؛ فإن مع الضعيف على القوى ما دام مظلوماً إن شاء الله ، فكان الناس كذلك فجر ذلك إلى أن اتخذهم أقوام وسيلة إلى تفريق الأمة اهـ (أى بحجة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وربما يعجب القارىء أن يجر مثل هذا الحلم ، والتناهي في الرأفة والعدل ، إلى ما كان من الفتن ، والجرأة على التوثب على الخليفة ، لكن ما بسطناه من أخلاق القوم يكفي للدلالة على أن عثمان جر على نفسه ما جر

(١) الناس تطلق على الواحد فأكثر فقله أمر الناس أى أمر واحداً ، وفي رواية الطبري فأمن الناس وكتب إلى الأمصار الخ الحديث .

بسياسة اللين التي لا تصلح لقوم شأنهم ما ذكرناه ، لا سيما إذا أضفنا إلى هذا من سياسة عثمان رضى الله عنه أمرين عظيمين (الأول) إطلاقه سراح المهاجرين من المدينة ، وقد كان يمنعهم عن الخروج منها عمر (والثاني) استبداله بعض العمال بمن ليسوا في مقدرة من اختارهم عمر للأعمال ، كسعد ابن أبي وقاص ، وعمر بن العاص وأشباههما (فأما الأمر الأول) فقد ذكروا أن عمر كان حجير على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا بإذن وأجل^(١) وروى ابن عساكر عن محمد وطلحة قالا فلما ولي عثمان لم يأخذهم بالذي كان أخذهم به عمر ، فانساحوا في البلاد ، فلما رأوها ورأوا الدنيا ورأهم الناس انقطع إليهم من لم يكن له طول ولا مزية في الإسلام وكان مغموراً في الناس وصاروا أوزاعاً إليهم ، وأمنوهم وتقدموا في ذلك وقالوا يملكون فنكون عرفناهم وتقدمنا في التقرب والانتفاع إليهم فكان ذلك أول وهن دخل على الإسلام ، وأول فتنة كانت في العامة ليس لها ذلك ا .

وأنت ترى من هذا الخبر مقدار الخطر الذي جره على نفسه عثمان ، يمثل هذه السياسة التي وإن كانت في نفسها عدلاً وحسن صنع ، ومنة على قريش كمنته في بذل جانب اللين ، والإحسان لعامة المسلمين ، إلا أنها جاءت قبل أوانها فكانت فتنة للمهاجرين وضراً على الخلافة ، كما سترى ذلك في غير هذا المحل إن شاء الله .

وأما الأمر الثاني وهو استبداله من هو أقوى من العمال بمن هو أضعف

(١) روى الطبري عن الشعبي قال لم يمض عمر حتى ملته قريش ، وقد كان حصرهم بالمدينة وامتنع عليهم ، وقال إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد ، فإن كان الرجل يستأذنه في الغزو وهو ممن حبس في المدينة من المهاجرين ، ولم يكن فعل ذلك يغيرهم من أهل مكة ، فيقول قد كان لك في غزوك مع رسول الله ما يملكك وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تترك .

فقد كان سببه استضعاف أعدائه له واغترارهم بحبه للإنصاف إذا طلب أحد من الناس أن ينصفهم من أحد عماله ، فكانوا يكيّدون لهاله المكائد لكي يستعفوه ممن لا يريدونه منهم ، وكان من أكثر عماله يقظة وأشدّهم أخذاً برقاب أهل الفساد ، وأشدّهم سياسة في الرعية عمرو بن العاص ، فما زال به أهل مصر حتى عزله عثمان ، وجمع إمارتي الخراج والحرب لعبد الله بن سعد ابن أبي سرح ، وقد كان عبد الله أميراً على الحرب في خلافة عثمان ، وأميراً على الصعيد الأعلى في خلافة عمر ، وتوفي عمر وهو أمير على الصعيد ولم يكن ابن أبي سرح بالضعيف ولا الجبان ، إلا أنه كان لهم من سابقته في إهدار رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه ، وقرابته من عثمان وسيلة يتوسلون بها في كل وقت إلى مناهضة مثله ، ومحاكاة عثمان بولايته ، وقد كان ذلك كذلك كما ستري بعد . وأما تشرع عثمان رضي الله عنه في عزل مثل عمرو بن العاص بدسائس أولئك الناس فقد رواه ابن عساكر عن يزيد الفقعسي قال :

لما خرج ابن السوداء إلى مصر أعمر فيهم (أي لزهم) ، فأقام فنزل على كنانة بن بشر مرة ، وعلى سودان بن حمران مرة ، وانقطع إلى الغافقي فشجعه الغافقي فتكلم وأطاف به خالد بن ملجم وعبد الله بن زريم وأشباه لهم ، فصرف لهم القول فلم يجدهم يجيبون إلى شيء مما يجيبون إلى الوصية (أي وصية علي) فقال عليهم ناب العرب وحجرهم ولسنا من رجاله ، فأروه أنكم تزرعون ولا تزرعون العام شيئاً حتى ينكسر الخراج فتشكونه فيعزل عنكم ونسال من هو أضعف منه ، ونخلو بما نريد ، ونظهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكان أسرعهم إلى ذلك وأعلاهم فيه محمد ابن أبي حذيفة ، وهو ابن خال معاوية وكان يتبع في حجر عثمان ، فلما ولي استأذنه في الهجرة إلى بعض الأمصار فخرج إلى مصر ، وكان الذي دعاه إلى ذلك أنه سألته العمل . فقال (أي عثمان) لست هناك ، ففعلوا ما أمرهم .

به ابن السوداء ثم لانهم خرجوا أو من شاء الله منهم، وشكروا عمرأ واستغفروا منه . فسكان كلما نهته (زجر) عثمان عن عمرو قوماً وسكنهم وأرضاهم ، وقال إنما هو أمير ، انبعث آخرون بشيء آخر وكلهم يطلب عبد الله بن سعد ابن أبي سرح . فقال لهم عثمان أما عمرو فسننعه عنكم لما نزعتم أنه أفسد ، وأما الحرب فسنقره عليها ونولى من سألتم . فولى عبد الله بن سعد خراجهم خراج مصر وترك عمرأ على صلاتها ، فشى في ذلك سودان بن حمران وكنانة بن بشر وخارجة وأشباههم فيما بين عمرو وعبد الله بن سعد ، وأغروا بينهما حتى احتمل كل واحد منهما على صاحبه ، وتسكتا على قدر ما أبغوا كل واحد منهما . فكتب عبد الله بن سعد (أى لعثمان) أن خراجي لا يستقيم مادام عمرو على الصلاة ، فخرجوا فصدقوه واستغفروا من عمرو ، وسألوا عبد الله فكتب عثمان إلى عمرو أنه لاخير لك في صحبة من يكرهك فأقبل : وجمع مصر لعبد الله صلاتها وخراجها . فقدم عمرو فقال له عثمان : أبا عبد الله ما شأنك أستحيل رأيك : فقال . يا أمير المؤمنين دعني فوالله ما أدري من أين أتيت وما أنتم عبد الله بن سعد ، وإن كنت لأهل عمل كالوالدة وما قدر العارف والشاكر على معونتي اه .

وقد تقدم في سيرة عمر وسياسته مع عماله أنه كان لا يعزل عاملاً عن شكاة إلا بعد أن يرسل محمد بن مسلمة لتحقيق وجوه الشكوى ، ويستقدم الشاكي والمشكو منه إلى المدينة ليوقف بنفسه على جلية الأمر ، كما أنه لم يول الأعمال أحداً من ذوى قرباه ، لذا لم يجعل لأحد من الناس سيلاً عليه ولا على عماله إلا بالحق ، بخلاف عثمان فإنه لما لم يسلك في سياسته مع العمال هذا الطريق الأسد ، والنهيج الأوضح ، وأطلق للقوم عنان القول بحق وبغير حق ، فجعل يسرع بالعزل تارة ويمسك من شاء أخرى ، أوجد للقوم سيلاً إليه فقبلوا له ظهر الحجن ، وملئوا عليه الأرض بالفتن ، كما سيأتى الكلام عليه في محله إن شاء الله .

وأما عدله فما يروى عنه ما أخرجه ابن عساكر عن عطاء بن فروخ مولى القرشيين قال : اشترى عثمان من رجل أرضاً فأبطأ عليه فقال ما يمنعك من قبض مالك . قال إنك غبنتني فما ألقى من الناس أحداً إلا وهو يلومني ، قال أذلك يمنحك ؟ قال نعم . قال فاختر بين أرضك ومالك ، ثم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أدخل الله الجنة رجلاً كان سهلاً مشترياً أو بائعاً . وقاضياً ومقتضياً) .

ومنه ما أخرجه ابن سعد عن موسى بن طلحة قال . رأيت عثمان يخرج يوم الجمعة وعليه ثوبان أصفران ، فيجلس على المنبر فيؤذن المؤذن وهو يتحدث يسأل الناس عن أسعائهم وعن أخبارهم وعن مرضاهم : وهذا يدل على أنه كان دائم التفقد لحال الرعية والسؤال عنهم .

أدبه وتأديبه

أدبه مع نفسه ومع الرسول :

أخرج ابن عساكر عن ابن عيينة أنه قال . قال عثمان بن عفان ما تغيبت ولا تميت ولا شربت خمرأ في جاهلية ولا إسلام ، ولا مسست فرجى يميني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم : وقوله ولا مسست الخ تناء في الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، والاحترام ليدنه الشريفة التي مس بها يده ليس بعجيب صدوره عن عثمان ، مع ما عرف به من حب الرسول صلى الله عليه وسلم واحترامه له ، وبذل ماله في سبيل مرضاته فرضى الله عنه وأرضاه .

تأديبه لنفسه :

نقل في الرياض النضرة في فضائل العشرة من رواية ابن السمان عن أبي الفرات قال . كان لعثمان عبد فقال له إني كنت عركت أذنك فاقصص

منى ، فأخذ بأذنه . ثم قال عثمان . اشدد يا حبذا قصاص في الدنيا لا قصاص في الآخرة .

وهذه مكانة من كرم الأخلاق وخفض الجناح والتقوى ، وإعطاء الحق لا يبلغها إلا أولئك الصحابة الكرام الذين تخلقوا بخلق نبيهم عليه الصلاة والسلام .

تأديب المهملين :

من أخباره في التأديب ما أخرجه ابن عساكر عن أبي الزناد أنه ذكر أن رجلا من ثقيف جلد في الشراب في خلافة عثمان بن عفان ، وكان لذلك الرجل مكان من عثمان ومجلس في خلوته ، فلما جلد أراد ذلك المجلس فتمعه إياه وقال ، لا نعود إلى مجلسك أبداً إلا ومعنا ثالث .

وروى الطبري أن رجلا استخف بالعباس في منازعة كانت بينهما . فضر به عثمان فقليل له في ذلك . فقال نعم أيغفر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه وأرخص في الاستخفاف به ، لقد خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم من فعل ذلك ومن رضى به منه .

تمريضهم :

كانت أخلاق عثمان رضى الله عنه كلها فضائل ، اتشح بردائها وأخذ نفسه بها ، ولو لم يأت عليه الكبير فيضعفه وتضطرب سياسته من أجل ذلك في أواخر خلافته ، فيكون من الطعن عليه ما كان لما شاب سيرته شائبة . وكانت كسيرة صاحبيه ، وأما ما عدا تلك الحوادث التي حدثت له ومهدت لبعضهم سبيل الإنكار عليه فهو في المسكاة العليا من الأخلاق البارة والشيم الجميلة وأخصها التقوى والكرم والتواضع والحياء . فما جاء من

أخبار تواضعه ما أخرجه ابن عساكر في تاريخه عن الحسن ، قال : رأيت عثمان نائماً في المسجد وردأؤه تحت رأسه ، فيجئ الرجل فيجلس إليه ثم يجيء الرجل فيجلس إليه ، ويجئ الرجل فيجلس إليه كأنه أحدهم . وروى عن الحسن أيضاً أنه سئل عن القائلة في المسجد ، فقال رأيت عثمان بن عفان وهو يومئذ خليفة يقبل في المسجد ، ويقوم وأثر الخصى بجبينه فقيل هذا أمير المؤمنين ، هذا أمير المؤمنين .

وأخرج عن علي بن مسعدة عن عبد الله الرومي ، قال كان عثمان يلى وضوء الليل بنفسه ، فقيل له لو أمرت بعض الخدم فيكفوك قال لا الليل لهم يستريحون فيه . وعن الزبير بن عبد الله قال . حدثني جدتي أن عثمان كان لا يوقظ أحداً من أهله إذا قام من الليل ، إلا أن يحده يقظان فيدعو فيناولوه الوضوء وكان يصوم الدهر .

هــاؤه .

كان عثمان (رضى الله عنه) مشهوراً بشدة الحياء وهو خلق جميل ، وأدب نفسه ، يزين المرء إذا توسطه ولم يفرط فيه ، ولعل من جملة ما أطمع الناس في عثمان شدة حيائه وحلمه ، كما أشرنا إلى ذلك في سياسته ولا عجب في ذلك فإن من الناس من إذا استحييت منه لم يستح منك وجراه حياؤك عليك ، وبما جاء من أخباره في الحياء ما رواه ابن عساكر عن سالم أبي جميع الهجيمي قال ذكر عند الحسن حياء عثمان ، وأنا أسمع قال (أى الحسن) كان عثمان لا يكون في جوف البيت والباب عليه مغلق ، فيضع ثوبه ليفيض عليه الماء فيمنعه الحياء أن يرفع صلبه .

سُفْقَر على المرعية :

نقل في الرياض النضرة عن سليمان بن موسى أن عثمان بن عفان دعى

إلى قوم كانوا على أمر قبيح ، فخرج إليهم فوجدهم تفرقوا ، ورأى أمراً قبيحاً فحمد الله إذ لم يصادفهم وأعتق رقبة .

واعلم أن الصحابة وأخصهم الخلفاء الأربعة كانوا يتحاشون فضيحة الناس ، خصوصاً فيما يترتب عليه حد من الحدود اقتداء بالنبي عليه الصلاة والسلام ، وسنفرد للكلام على هذا الأمر باباً مخصوصاً في هذا الكتاب إن شاء الله .

كرم :

كرم عثمان معروف وقد سبق في هذا الكتاب ذكر تجهيزه لجيش العمرة من ماله بما لم يسبق لأحد قبله ، ولما ولي الخلافة زاد في أعطيات الناس ، ورزق المماليك كما قدمنا ، وأغدق على ذوى رحمه ووصلهم وأغناهم ، وكان هذا مما أنكر عليه ونقم منه لأجله ، وكان حبه للكرم تابعاً لمذهبه في البذل والتوسع في المعيشة والتنعيم بالرزق ، ولم يكن ميالاً للتقشف وشظف العيش ، لذلك فكما كان يحب أن يوسع على نفسه يحب أن يوسع على أهله وعشيرته ، وليس في هذا ما يقدح في عفته أو دينه ، إذ الدين يأمر بصلة ذوى الرحم ويبيح التمتع بطيب العيش ، وطريقة أبي بكر وعمر قبله في الزهد والتقشف التي أخذ بها أنفسهما ليست بالأمر المستطاع لكل مسلم ، وإنما هي تورع واتباع لطريقة النبي صلى الله عليه وسلم في الزهد ، وهي محمودة في نفسها للخلفاء وليست بواجبة بل الواجب هو القصد وعدم المرف والعفة عن الفضول ، وقد كان عثمان رضى الله عنه عفيف النفس بالضرورة لأن الكرم يكون مع العفة لا مع الشره ، وهو من أكرم الناس ولم ينحصر كرمه في ذوى قرابته بل تعداه إلى غيرهم أيضاً ، وما يروى عن كرمه غير ما تقدم ذكره ما أخرجه ابن عساكر عن ابن سعيد بن يربوع

ابن عنكشة المخزومي ، قال انطلقت وأنا غلام في الظهيرة ومعى طير أرسله من المسجد والمسجد بيننا ، فإذا شيخ جميل حسن الوجه نائم تحت رأسه لبنة أو بعض لبنة ، فقممت أنظر إليه أتعجب من جماله ففتح عينيه ، فقال من أنت يا غلام . فأخبرته فنأدى غلاماً قريباً منه فقال لي ادعه فدعوته فأمره بشيء وقال أقعد . قال فذهب الغلام فجاء بحلة وجاء بألف درهم ، فنزع ثوبي واللبني الحلة وجعل الألف درهم فيها . فرجعت إلى أبي فأخبرته فقال يا بني من فعل هذا بك ، فقلت لا أدري إلا أنه رجل في المسجد نائم لم أرقط أحسن منه . قال ذلك أمير المؤمنين عثمان .

وروى ابن عساكر عن أبي إسحق السراج قال . قال لي أبو إسحق القرشي يوماً من أكرم الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت عثمان ابن عفان قال كيف وقعت على عثمان من بين الناس ؟ قلت لأنني رأيت الكرم في شيئين . في المال والروح ، فوجدت عثمان جاد بماله على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جاد بروحه على أقاربه . قال لله درك : وكان لعثمان على طلحة بن عبيد الله خمسون ألفاً فقال له يوماً قد تهايمالك فاقبضه ، قال هو لك معونة على مروءتك (وكان طلحة جواداً لذلك قال له ما قال) .

صلواته ونفقاته :

كان كثير التقوى والقنوت ، كثير الصلاة كثير قراءة القرآن ، شديد الولع به والاستظهار له ، وسئل ابن عمر عن قوله تعالى (أم من هو قانت آنا الليل) الآية قال نزلت في عثمان (رواه ابن عساكر) وأخرج عن إسرائيل ابن موسى قال سمعت الحسن يقول : قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، لو أن قلوبنا طهرت ما شبعنا من كلام ربنا ، إنني أكره أن يأتي على يوم لا أنظر في المصحف . وروى ابن عساكر من طرق كثيرة أن عثمان كثيراً ما روى في المقام يصلي من أول الليل إلى بزوغ الفجر .

وأخرج عن الحسن قال لما كان من بعض هيج الناس ما كان . جعل رجل يسأل عن أفاضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل لا يسأل أحداً إلا ودله على سعد بن مالك (أى ابن أبي وقاص) فجلس أياماً لا يسأله عن شيء حتى استأنس به فذكر الحديث . قال أخبرني عن عثمان : قال كنا إذ نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أحسننا وضوءاً وأطولنا صلاة . وأعظمنا نفقة في سبيل الله اهـ .

كتبه وخطبه

كتبه :

لما استخلف عثمان رضي الله عنه كتب كتباً غراء إلى عماله وولاته والعامه ، يوصيهم فيها بالقيام على الحق وحسن السيرة ، وقد أورد هذه الكتب الطبري في تاريخه وهذه صورتها .

١ — كتابه إلى عماله :

أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا مجباة ، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ، ولم يخلقوا جباة ، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ، ولا يكونوا رعاة ، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء ، والأمانة والوفاء ، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فتعطوهم الذي لهم ، وتأخذوا بما عليهم . ثم تثنوا بالذمة (أى أهل الذمة) فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم . ثم العدو الذي تتباون فاستفتحوا عليهم بالوفاء . . اهـ

فانظر كيف يحرّض الخلفاء الراشدون في كتبهم وخطبهم على حسن معاملة أهل الذمة ، والوفاء للعدو المحارب ، وقد رأيت من هذا شيئاً كثيراً في

سيرة عمر رضى الله عنه ، وليت شعري هل للمسلمين أن يعقلوا ، والمسيحيين أهل الذمة والأجانب منهم أن يعدلوا .

٣ — كتابه إلى أمراء الأجناد في النغور :

أما بعد فإنكم حماة المسلمين وذادتهم^(١) ، وقد وضع لکم عمر مالم یغیب عنا ، بل کان عن ملامنا . ولا یبلغنی عن أحد منکم تغییر ولا تبدیل فیغیر الله ما بکم ویستبدل بکم غیرکم ، فانظروا کیف تكونون فإنی أنظر فیما ألزمنی الله النظر فیه والقیام علیه .

٤ — کتابه إلى عمال الخراج :

أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق ، فلا یقبل إلا الحق ، خذوا الحق وأعطوا الحق ، والأمانة الأمانة قوموا علیها ، ولا تكونوا أول مر یسلبها فتسكنوا شركاء من بعدکم إلى ما اكتسبتم ، والوفاء الوفاء لا تظلموا الیتیم ، ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم .

٥ — کتابه إلى العامة :

أما بعد فإنکم إنما بلغت ما بلغت بالافتداء والاتباع فلا تلفتکم الدنیا عن أمرکم ، فإن أمر هذه الدنیا صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فیکم ، تکامل النعم^(٢) ، وبلوغ أولادکم ، من السبايا ، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن ، فإن رسول الله صلی الله علیه وسلم قال الکفر فی العجمة ، فإذا استعجم علیهم أمر تکافوا وابتدعوا .

(١) أى المدافعون عنهم

(٢) النعم ضد البؤس

٥ — وكتب إلى عماله أيضاً :

أما بعد استمعينوا على الناس وكل ما ينوبكم بالصبر والصلاة ، وأمر الله أقيموه ولا تدهنوا فيه ، وإياكم والعجلة فيما سوى ذلك ، وارضوا من الشر بأيسره فإن قليل الشر كثير ، واعلموا أن الذي ألف بين القلوب هو الذي يفرقها ويباعد بعضها من بعض ، سيروا سيرة قوم يريدون الله لئلا تكون لهم على الله حجة : ابن عساكر

٦ — وكتب إليهم أيضاً :

إن الله ألف بين قلوب المسلمين على طاعته ، وقال سبحانه (لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم) وهو مفرقها على معصيته ، ولا تعجلوا على أحد بحمد قبل استيجابه ، فإن الله تعالى قال (لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر) من كفر داوينا يدوائه ، ومن تولى عن الجماعة أنصفناه وأعطيناه ، حتى يقطع حجته وعذره إن شاء الله : ابن عساكر .

٧ — وكتب أيام الفتنة إلى المسلمين يعلمهم حاله وما صبر عليه :

(بسم الله الرحمن الرحيم) إلى المؤمنين والمسلمين سلام عليكم : أما بعد فإنني أذكركم الله الذي أنعم عليكم ، وعلّمكم الإسلام ، وهذاكم من الضلالة وأنقذكم من الكفر ، وأراكم من اليبنيات ، ونصركم على الأعداء ، ووسع عليكم من الرزق ، وأسبغ عليكم نعمته ، فإن الله عز وجل يقول (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته .. إلى .. يهتدون) ، (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير إلى .. المفلحون) ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا .. إلى عظيم) وقال (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه .. إلى .. سمعنا وأطعنا) وقال (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ .. إلى .. حكيم)

وقال (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً .. إلى .. أليم) وقال (واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) وقال (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم .. إلى .. يفعلون)، (ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم .. إلى .. تختلفون) ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم .. إلى .. أليم)، (ولا تشتروا بعهد الله إلى تعلمون) ما عندهم ينقد وما عند الله باق وليجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقال (ولا تشتروا بآيات الله : الآية) وقال أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ... إلى تأويلاً وقال وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض .. إلى .. الفاسقين) (إن الذين يبايعونك .. إلى .. عظيماً) ابن عساكر :

٨ — وكتب مثله أيضاً :

(بسم الله الرحمن الرحيم) : أما بعد : فإن الله قد رضى لكم السمع والطاعة ، وكره لكم المعصية والفرقة والاختلاف ، وقد أنباكم فعل الذين من قبلكم وتقدم إليكم فيه لتكون له الحجة عليكم إن عصيتموه . فاقبلوا نصيحة الله واحذروا عقابه ، فإنكم لن تجدوا أمة هلكت إلا من بعد أن تختلف ولا يكون لها إمام يجمعها ، ومتى ما تفعلوا ذلك تفرقوا دينكم وتكونوا شيعاً ، قال تعالى (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً .. إلى .. يفعلون) وإلى أوصيكم بما أوصاكم الله به وأحذركم عذابه ، وإن القرآن نزل لنعته به وننتهى إليه (أولا ترون إلى شعيب قال لقومه يا قومي لا يجرمكم شقاقى إلى .. يبعيد) وياقومي استغفروا ربكم .. إلى .. ودود) ابن عساكر .

٩ — وكتب كتاباً آخر مثله أيضاً :

(بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد فإن أقواماً من كان يقول في هذا

الحديث ، أظهروا للناس إنما يدعون إلى كتاب الله والحق ، ولا يريدون الدنيا ولا منازعة فيها ، فلما عرض عليهم الحق إذا الناس في ذلك شقي ، منهم آخذ للحق ونازع عنه حين يعطاه ، ومنهم تارك للحق رغبة في الأمر ، يريدون أن يتزوه بغير الحق . وقد طال عمرى وراث (أبطأ) عليهم أملهم في الإمرة واستعجلوا القدر . ولأني جمعهم والمهاجرين والأنصار فشدتهم فأدوا الذي علموا ، فكان أول ما شهدوا به أن يقتل من دعا إلى نفسه أو إلى أحد ، وفسر لهم ما اعتدوا به عليه (أى الطعانون) وما أجابهم فيه الخ . .) ابن عساكر (١) .

١٠ — وكتب كتاباً أيام الحصار بعثه مع نافع بن طريف إلى أهل مكة ومن حضر موسم الحج هذه صورته :

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عثمان أمير المؤمنين ، إلى من حضر الحج من المسلمين : أما بعد : فإنى كتبت إليكم كتابى هذا وأنا محصور أشرب من بئر القصر ، ولا آكل من الطعام ما يكفينى ، خيفة أن تنفذ ذخيرتى فأموت جوعاً أنا ومن معى ، لا أدعى إلى توبة أقبلها . ولا تسمع منى حجة أقولها ، فأشهد الله رجلاً من المسلمين بلغه كتابى إلا قدم على ، فأخذ الحق فى ومنعنى من الظلم والباطل (عن الإمامة والسياسة) .

١١ — ومن كتبه التى كتبها للأمراء وأهل الأمصار يستغيثهم بها ، كتابه إلى معاوية وأهل الشام وهذه صورته :

أما بعد : فإنى فى قوم طال فيهم مقامى ، واستعجلوا القدر فى ، وقد

(١) هذا الكتاب والكتابان اللذان قبله أوردهما ابن عساكر متفردة وأوردهما الطبرى فى كتاب واحد مع اختلاف قليل فى اللفظ ، وذكر فى آخر الكتاب ما كتبه عثمان من قول الطعانين فيه وما أجابهم عنه ، مما لم أر حاجة لإيراده لاذ أوردها من سيرة عثمان وأخبار الفتنة ما هو بمعناه ، فن أراد الكتاب برمته فليراجع فى المجلد السادس من تاريخ الطبرى .

خيروني بين أن يحملوني على شارف^(١) من الإبل الدحيل^(٢) ، وبين أن أنزع لهم رداء الله الذي كساني ، وبين أن أقيدهم من قتلت ، ومن كان على سلطان يخطيء ويصيب ، فياغوثاه ، ثم ياغوثاه ، ولا أمير عليكم دوني ، فالعجل العجل يا معاوية وأدرك ثم أدرك ، وما أراك تدرك (الإمامة . .) .

١٢ — ومثله ما كتبه لأهل الأمصار :

(أما بعد) فإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق بشيراً ونذيراً وبلغ عن الله ما أمره ثم مضى ، وقد قضى الذي عليه ، وخلف فيما كتبه فيه حلاله وحرامه ، وبيان الأمور التي قدر فأمضاها على ما أحب العباد وكرهوا ، فكان الخليفة أبو بكر : ثم عمر . ثم دخلت في الشورى في غير علم ولا مسألة عن ملا من الأمة . ثم اجتمع أهل الشورى عن ملا منهم ، ومن الناس عن غير طلب ولا محبة مني . فعملت فيهم بما يعرفون ولا ينكرون تابعا غير مستتب ، متبعا غير مبتدع . مقتديا غير متكلف ، فلما انتهت الأمور وانتسكت الشر بأهله ، بدت ضغائن وأهواء على غير اجترام ولا ترة فيما مضى ، إلا لمضاء الكتاب . فطلبوا أمراً وأعلنوا غيره بغير حجة ولا عذر ، فعابوا على أشياء عن ملا ، من أهل المدينة لا يصلح غيرها ، فصبرت لهم نفسى وكففتها عنهم منذ سنين ، وأنا أرى وأسمع . فازدادوا على الله جرأة حتى أغاروا علينا في جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحرمة وأرض الهجرة ، وثابت إليهم الأعراب فهم كالأحزاب أيام الأحزاب ، أو من غزانا بأحد إلى ما يظهرون . فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق اه (عن التهيد والبيان) .

(١) الشارف الناقة المسنة (٢) الدحيل هكذا بالأصل ولم أجد لها معنى فالتعذر .

خطبه

أول خطبة له :

قد تقدم معنا في الكلام على استخلاف عثمان رضى الله عنه ذكر الخلاف في أول خطبة لعثمان ، وإن من المؤرخين من يقول إنه أرتج عليه ، ومنهم من يقول إنه خطب ، وقد أورد هذه الخطبة الطبرى في تاريخه من رواية سيف عمن رواها قال :

لما بايع أهل الشورى عثمان خرج وهو أشدهم كآبة ، فأتى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال :
إنكم في دار فلاة^(١) وفي بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه . فلقد أتيتكم ، صبيحتكم أو مسيتكم ، ألا وإن الدنيا طويت على الغرور ، فلا تعرفكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور . اعتبروا بمن مضى . ثم جدوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يعقل عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها^(٢) وعمروها وامتعوا بها طويلا ، ألم لمنظهم؟^(٣) ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها واطلبوا الآخرة ، فإن الله قد ضرب لها مثلا فقال عز وجل (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء . . إلى قوله . . أملا) .

٣ — وفي رواية أخرى للطبرى إن أول خطبة خطبها عثمان هي هذه :
أما بعد فإني قد حملت وقد قبلت ، ألا وإنى متبع واست بمبتدع . ألا وإن لكم على بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ثلاثا : اتباع من كان قبلى فيما اجتمعتم عليه وسننتم : وسن سنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملا : والكف عنكم إلا فيما استوجبتم . ألا وإن الدنيا خضرة قد شهيت إلى الناس ومال إليها كثير منهم ، فلا تركنوا إلى الدنيا ولا تثقوا بها فإنها ليست بثقة ، واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها : اه .

(١) أم حارية (٢) عمروها بالزراعة (٣) لفظ الشيء من فقه : رماه

٣ -- وخطب أيضاً فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

أيها الناس اتقوا الله فإن تقوى الله غنم وإن أكرس الناس من دان نفسه (١) ، وعمل لما بعد الموت ، واكتسب من نور الله نوراً لظلمة القبور ، وليخش عبد أن يحشره الله أعشى وقد كان بصيراً . وقد يكفي الحكيم جوامع الكلام ، والأصم ينادى من مكان بعيد ، واعلموا أن من كان الله معه لم يخف شيئاً ، ومن كان الله عليه فن يرجو بعده ، اه عن ابن عساكر .

٤ -- وخطب مرة فقال :

إن الناس يبلغني عنهم هنات وهنات (٢) ، وإنى والله لا أكون أول من فتح بابها ، ولا أدار رحاها ألا وإنى زام نفسى بزام وملجمها بلجام فأقودها بزامها وأكبعها « أمنعها » بلجامها ومناولكم طرف الحبل ، فمن اتبعنى حملته على الأمر الذى يعرف ، ومن لم يتبعنى ففى الله خلف منه ، وعواء عنه ، ألا وإن لكل نفس يوم القيامة سائقاً وشاهدأ ، سائق يسوقها على أمر الله وشاهد يشهد عليها بعملها ، فمن كان يريد الله بشيء فليبشر ، ومن كان إنما يريد الدنيا فقد خسرها (ابن عساكر) .

٥ -- وخطب وهو محصور فقال :

أيها الناس ، إن عمر بن الخطاب صير الأمر شورى فى ستة توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو عنهم راض ، فاختارونى وأجمعوا على ، ولم آل عن العمل بالحق وما توفيقى إلا بالله . وما أعلم أن لى ذنباً أكثر من طول ولايتى عليكم ، ولعل بعضكم أن يقول ليس كأبى بكر وعمر ،

(١) أى العاقل من قهر نفسه بمنمها عن الشهوات استعداداً لما بعد الموت .

(٢) أى يبلغنى عنهم أمور شرور وفساد كما فى لسان العرب .

أجل أجل لست كهما ، والأشياء أشباه قريبة بعضها من بعض ، وقد زعمتم أنكم تخلعونى فلا دون أن تعرونى (١) بأمر لا يحل لى إلا خلعها من عنق ، وأما العتبي فلنكم ونعمت العتبي اه (مفتاح الأفكار) .

٦ - وخطب وهى آخر خطبة :

أما بعد إن الله عز وجل إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ، ولم يعطكموها لتركنوا إليها . إن الدنيا تفنى والآخرة تبقى . فلا تبطرنكم الفانية ، ولا تشغلنكم عن الباقية ، فأثروا ما يبقى على ما يفنى ، فإن الدنيا منقطعة وإن المصير إلى الله ، اتقوا الله جل وعز فإن تقواه الجنة (٢) من بأسه . ووسيلة عنده واحذروا من الله الغير والزمو جماعةكم لاتصيروا أحزاباً (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتكم بنعمته إخواناً اه (رواها الطبرى وابن عساكر) .

أخبار الفتنة ومقتل عثمان

مبادئ الفتنة :

أجمع الرواة وأهل الأخبار أن عثمان رضى الله عنه قضى الشطر الأكبر من خلافته وهو أحب إلى الناس من عمر رضى الله عنه ، لشدة ورأفة عثمان ولينه وإقبال الدنيا على الناس على عهده ، وتبسطهم فى المعيشة . وامتلاء أيديهم من المغانم ، لكن غلب عليه بنو أمية فى أواخر مدته فأثرهم على غيرهم من قريش ، ووصلهم بالأموال الكبيرة فأنحرفت عنه من أجل

(١) عره لطلحه بغير يرد أنهم لا سبيل لهم إلى خلعها إلا بسبب صحيح يستوجب الخلع ويحل له ترك الخلافة
(٢) الجنة الترس والوقاية .

ذلك القلوب ، ونظرت إليه قريش بغير عين الرضا ، ونهض المناقشته الحساب أهل الأمصار وتخلل ذلك أمور خفية وجلية ، أدخلت الناس في غمار فتنة عمياء ، كانت نقيجتها ضعف السلطة الشرعية ، وغلبة القوة والآثرة على الملك إلى اليوم .

أخرج ابن عساكر عن الحسن أنه قال ، أدركت عثمان على ما نقموا عليه ، قل ما يأتى على الناس يوم لا ويقتسمون فيه خيراً فيقال لهم يا معشر المسلمين اغدوا على أعطيائكم ، فيأخذونها وافرة ، ثم يقال لهم اغدوا على أرزاقكم ، فيأخذونها وافرة ، ثم يقال لهم اغدوا على السمن والعسل ، الأعطيات جارية والأرزاق دارة والعدو متنفذ ، وذات البين حسن ، والخير كثير ، ومما مؤمن يخاف مؤمناً من لقيه فهو أخوه من كان ، ألفتته ونصيحتته ومودته ، قد عهد إليهم أنها ستكون أثرة فإذا كانت أن تصبروا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « لأسيد بن محضير : ستلقون بعدى أثرة ، قال فما تأمرنا ، قال أن تصبروا حتى تلقوا الله ورسوله : قال الحسن لو أنهم صبروا حين رأوها ، وأخذوا بأمر رسول الله لو سمعهم ما كانوا فيه من العطاء والرزق والخير الكثير ، قالوا لا والله ما نصابرها فوالله ما ردوا ولا سلموا والآخرى كان السيف مغمداً عن أهل الإسلام ما على الأرض مؤمن يخاف أن يسلم مؤمن عليه سيفاً حتى سلوه على أنفسهم ، فوالله ما زال مسلولاً إلى يوم القيامة اهـ .

أما مبادئ الفتنة فقد قال ابن جرير الطبري كان عثمان مستضعفاً طمع فيه الناس ، وأعان على نفسه بأفعاله وباستيلاء بنى أمية عليه ، وكان ابتداء الجراءة عليه أن إبلا من إبل الصدقة قدم بها عليه فوهبها لبعض ولد الحكم ابن أبي العاص ، فبلغ ذلك عبدالرحمن بن عوف فأخذها وقسمها بين الناس ، وعثمان في داره فكان ذلك أول وهن دخل على خلافة عثمان ، وقيل إنه

خطب يوماً ويده عصا كان رسول الله وأبو بكر وعمر يخطبون عليها فأخذها جهجاه الغفاري من يده وكسرها على ركبته ، فلما تكاثرت أحداثه وتكاثر طمع الناس فيه كتب جمع من أهل المدينة من الصحابة وغيرهم إلى من بالآفاق بذلك ، وبأن يقدموا للخلع عثمان فهاج الناس وكان ما كان .

وقد كان أول ما تسكلم به في الخارج محمد بن أبي حذيفة ، ومحمد بن أبي بكر ، إن عابا عثمان في غزوة ذات الصواري التي غزىها مع عبد الله بن سعد ابن أبي سرح في البحر سنة إحدى وثلاثين وأظهروا عيبه ، وما خالف به أبا بكر وعمر ، وأنه استعمل عبد الله بن سعد رجلاً أباح دمه رسول الله ونزل القرآن بكفره ، ونزع أصحاب رسول الله عن الأعمال وولاهم مثل عبد الله بن سعد وسعيد بن العاص إلى غير ذلك من الكلام الذي ساء عبد الله فعزلهما عن المسلمين ، في مركب ليس فيه غير القبط حتى رجع الجيش إلى مصر وأخذ ابن أبي حذيفة يفسد قلوب المسلمين على عثمان .

والذي يؤخذ من سياق أخبار الفتنة التي أوردتها الطبري وغيره من المؤرخين ، ولم يصرح به أحد منهم وإنما هو يستخرج من ثنايا الأخبار ، أن بذار الفتنة بذرت في أنحاء المملكة وعواصمها الكبرى ، كمصر والبصرة والكوفة ، بدعوة سرية قام ببثها عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء (وكان يهودياً من حمير وأسلم على عهد عثمان) بإيعاز جمعية سرية^(١) تريد بهذا

(١) لنا كلام طويل على الجمعيات السياسية في الإسلام وأهمها طائفاً قابت كانت الوجود السياسي وقامت بها دول نرجسها إلى سيرة على بن أبي طالب عند الكلام على الخوارج والشيعة ليرى القارىء ماذا كانت تفعل الجمعيات وكيف كان حال المسلمين ومكانتهم من الحياة العالية أيام شبابهم وكيف صاروا الآن إلى أرذل العمر ، وماتت فيهم كل مشاعر الحياة .

أحد أمرين إما تفريق المسلمين في الدين أو تفريقهم في السياسة ، وذلك لأن الدعوة التي قام بها ابن سبأ مشتركة بين الأمرين : الوصاية والرجعة : ومن مقتضى الأولى وجوب الخلافة لعلي دون غيره ، والثوب على عثمان لنزع الخلافة منه ، ومن مقتضى الثانية الاعتقاد في النبي صلى الله عليه وسلم أنه يرجع كما رجع عيسى : وتحرير الخبر عن ابن سبأ ودعوته أن هذا الرجل لما أسلم نزل في البصرة على حكيم بن جبلة البدي ، واجتمع إليه نفر فأخذ يفرهم بالدعوة التي قام بها فقبلوا منه ، وبلغ ابن عامر أمره فطرده من البصرة ، فخرج فأتى الكوفة فأخرج منها أيضاً فأتى الشام فأخرج منها فأتى مصر واستقر فيها ، والتف عليه ناس من أهل مصر منهم كنانة بن بشر وسودان بن حمران وخالد بن ملجم وأشباههم ، فقال لهم : العجب من يصادق أن عيسى يرجع ويكذب أن محمداً يرجع : فوضع لهم الرجعة (١) فقبلت منه . ثم قال لهم بعد ذلك إنه كان لكل نبي وصي ، وعلى وصي محمد ، فمن أظلم من لم يحز وصية رسول الله ووثب على وصيه . وإن عثمان أخذها بغير حق فانهضوا في هذا الأمر ، وابدعوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا به الناس . وبعث دعائه وكاتب من استفسد في الأمصار وكاتبوه ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم ، حتى تم لهم الأمر كما سترى بعد .

وأنت ترى أن الدعوة في قسمها الأول أي القول بالوصاية سياسية ، وفي قسمها الثاني أي القول بالرجعة دينية ، فصدرها إما أن يكون من جماعة سرية

(١) الظاهر أن الرجعة جعلها ابن سبأ بعد ذلك في علي لانتشار هذا الاعتقاد عند فريق من الشيعة يومئذ في علي وبنه ، وقد نقل ابن حزم في الملل والنحل ، أن ابن سبأ قال لما قتل علي رضي الله عنه لو أتيتمونا بدماعه ألف مرة ما صدقنا موته ولا يموت حتى يملأ الارض عدلاً كما منتهى جوراً .

من غير أهل الإسلام يريدون إدخال الوهن على عقيدة المسلمين وتفريق
كلتهم، ولما أنهم من جماعة سياسيين يريدون نزع الخلافة من عثمان خوفاً من
استفحال الصبغة الأموية في الدولة كما سترى بعد : هذا إن كان الجماعة من
قريش ، وإن كانوا من غيرهم فإنما يريدون التذرع بأسباب الرياسة بتقريبهم
من علي أو غيره ، وقد توسل أولئك الأحزاب السياسيون بالدين ، لأنه
أقرب إلى التسلط على الأذهان بين قوم لم يخالط عقولهم شيء بعد من أمور
السياسة والاجتماع . ولا يظن القارىء أن قيام الدعوة باسم علي رضى الله
عنه تستلزم أنه الداعى لها كلا ، فإن هناك أموراً تدل على براعة القائمين بهذا
الغرض بتوجيه الأفكار إلى علي ، لقربه من رسول الله وفضائله الذاتية التي
يعرفها يومئذ كل المسلمين ، وحسبك من برامته من هذا الأمر المكتسب التي
جاءت باسمه إلى أهل العراق وباسم غيره أيضاً وظهر أنها مفتعلة ، لم يكن لعل
بها علم كما سترى بعد ، وإنما هي مكائد تدبر وأكثرت القوم عنها غافلون ،
يضاف إليها نزوع العرب إلى منازعة قريش السيادة وضعف عثمان وانحرافه
عن طريقة صاحبيه في بعض الأمور الاجتهادية انحرافاً مهد سبيل الطعن
عليه ، وأوجد قلوباً واعية حتى سن كبار الصحابة لما يقال فيه . ولما هالهم
إجماع أهل الأمصار على الشكوى منه ، والطعن عليه خذلوه على ظن أنه
يخلع نفسه من الخلافة وتطفأ بذلك نائرة القوم ، فلم يفعل حتى قتل ، وهم
لا عزالا منسحب الخلافة منتظرون ولقته كارهون .

هذا وقد عقب انتشار الطعن على عثمان من ابن أبي حذيفة وابن
السوداء ومن على شاكلتهم في مصر ، قيام حمران بن أبان في البصرة لإفساد
القلوب على عثمان ، لأنه كان حاقداً عليه إذ ضرب به على زواجه بامرأة في العدة .
واحترام أهل الكوفة على التظاهر بالعداء وتجاوز الحشمة والتطلع إلى
الفتنة وقد تقدم أن سعيد بن العاص لما ولاه عثمان رضى الله عنه الكوفة

جعل غاشيته من وجوه الكوفة وأهل القادسية ، فكان يسمر عنده مثل مالك بن كعب الأرحبي ، وعلقمة بن قيس النخعي ، وثابت بن قيس الهمداني ، وجندب بن زهير الغامدي ، وعروة بن الجعد ، وصعصعة بن صوحان ، وابن الكواء وطلحة بن خويلد في أشباه لهم ، وكانوا يفيضون في أيام الوقائع وفي أنساب الناس ، وأخبارهم وربما ينتهون إلى الملاحاة والمشاتمة والضرب فإذا عز لهم حجاب سعيد نهرهم وضربهم ، وقيل إن سعيد بن العاص قال يوماً إنما هذا السواد (يريد سواد الكوفة أي أراضيها) بستان قريش : فقال له الأشتر : السواد الذي أفاء الله علينا بأسيا فإنا نزعم أنه بستان لك ولقومك : وخاض القوم في ذلك فأغلظ لهم عبد الرحمن الأسدي صاحب شرطته ، فوثبوا عليه وضربوه حتى غشى عليه ، فمنع سعيد بعدها السمر عنده ، فاجتمعوا في مجالسهم يثلبون سعيداً وعثمان والسفهاء يغشونهم ، فكتب سعيد وأهل الكوفة إلى عثمان في إخراجهم ، فكتب أن يلحقوهم بمعاوية ، وكتب إلى معاوية : أن نفرأ خلقوا للفتنة فقم عليهم وانهم ، وإن آنست منهم رشداً فاقبل وإن أعموك فارددهم على .

فأنزلهم معاوية وأجرى عليهم من الرزق ما كان لهم بالعراق ، وأقاموا عنده يحضرون مائدة فقال لهم يوماً . إنكم قوم من العرب لكم أسنان (أعمار) وألسنة ، وقد أدركتم بالإسلام شرفاً وغلبتم الأمم وحويتهم مواريثهم ، وقد بلغني أنكم نفقتم قريشاً ، ولو لم تكن قريش كنتم أذلة ، إن أئمتكم لكم جنة (وقاية) فلا تفرقوا عن جنتكم ، وإن أئمتكم يصبرون لكم على الجور ، ويحتملون عنكم المؤونة والله لئنهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم السوء ، ولا يحمدكم على الصبر ، ثم تكونون شركاءهم فيما جررتهم على الرعية في حياتكم وبعد وفاتكم : فقال رجل منهم وهو صعصعة : أما

ما ذكرت من قریش فإنها لم تسكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية ،
وأما ما ذكرت من الجنة فإن الجنة إذا اخترقت خلص إلینا .

فقال معاوية عرفتكم الآن وعلمت أن الذی أغراکم علی هذا قلة العقول
وأنت خطیبهم ولا أرى لك عقلاً ، أعظم عليك أمر الإسلام وتذكرني
بجاهلية ، أخزى الله قوماً عظموا أمرکم ، افقهوا عني ولا أظنکم تفقهون ،
إن قریشاً لم تعز في جاهلية ولا إسلام إلا بالله تعالى لم تسكن بأكثر العرب
ولا أشدها ، ولكنهم كانوا أكرمهم أحساباً ، وأحضرهم أنساباً ، وأكملهم
مروءة ولم يتمنعوا في الجاهلية والناس يأكل بعضهم بعضاً إلا بالله ، فبوأهم
حرماً آمناً يتخطف الناس من حولهم ، هل تعرفون عربياً أو عجمياً
أو أسوداً أو أحمر إلا وقد أصابه الدهر في بلده وحرمته ، إلا ما كان من
قریش فإنهم لم يردهم أحد من الناس بكيد إلا جعل الله خده الأسفل ،
حتى أراد الله أن يستنقذ من أكرم واتبع دينه من هوان الدنيا وسوء مرد
الآخرة ، فارتضى لذلك خير خلقه ثم ارتضى له أصحاباً فكان خيارهم قریشاً
ثم بنى هذا الملك عليهم وجعل هذه الخلافة فيهم ، فلا يصلح ذلك إلا عليهم
فكان الله يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم ، أفتراه لا يحوطهم وهم
على دينه ؟ أف لك ولأصحابك ، أما أنت يا صاعدة فإن قریتك شر القرى ،
أنقذها بيتاً وأعقمها واديا وأعرفها بالشر والألها جيراناً ، لم يسكنها شريف قط
ولا وضيع إلا سب بها ثم كانوا ألام العرب ألقاباً وأصهاراً نزاع الأمام ،
وأنتم جيران الخط وفعلة فارس حتى أصابتكم دعوة النبي صلى الله عليه
وسلم ، فأنت شر قومك ، حتى إذا أبرزك الإسلام وخطبك بالناس ، أقبلت
تبغى دين الله عوجاً وتنزع إلى الذلة ولا يضرك ذلك قریشاً ولا يضعهم ولن
يمنعهم من تأدية ما عليهم ، إن الشيطان عنكم غير غافل ، قد عرف بالشر
هاغرى بكم الناس وهو صارعكم ، ولا تدركون بالشر أمراً أبداً إلا فتح الله

عليكم شراً منه وأخزى ، ثم قام وتركهم فتقاصرت إليهم أنفسهم . فلما كان بعد ذلك أتاهم فقال إني قد أذنت لكم فاذهبوا حيث شئتم لا ينفع الله بكم أحداً أبداً ولا يضره ، ولا أنتم برجال منقعة ولا مضرة ، فإن أردتم النجاة فالزموا جماعتكم ، ولا يبطرنكم الإنعام فإن البطر لا يعترى الخيار . اذهبوا حيث شئتم فسا كتب إلى أمير المؤمنين فيكم . وكتب معاوية إلى عثمان لأنه قدم على أقوام ليست لهم عقول ولا أديان أضجرهم العدل لا يريدون الله بشيء ولا يتكلمون بحجة ، إنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة والله مبتليهم ومختبرهم ثم فاضحهم ومخزيهم ، وليسوا بالذين ينسكون أحداً إلا مع غيرهم فإنه سعيداً ومن عنده عنهم فإنهم ليسوا إلا أكثر من شغب ونكير .

فقليل إنهم خرجوا يريدون الجزيرة فسمع بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وهو بمحصر ، فدعاهم ووبخهم وقيل كتب عثمان إلى معاوية بردهم إلى الكوفة فأطلقوا أنفسهم ، فكتب سعيد يشكوهم فأمره عثمان بإشخاصهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بمحصر وكان علي حصص فقال لهم يا آله (حرب) الشيطان ، لا مرحباً بكم ولا أهلاً قد رجع الشيطان محسوراً وأنتم بعد في نشاط خسر الله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم يا معشر من لا أدرى أعرب هم أم عجم ، ثم مضى في توبيخهم على ما فعلوا وما قالوا لسعيد ومعاوية فهابوا سطوته ، وطفقوا يقولون نتوب إلى الله أقلنا أقالك الله ، حتى قال تاب الله عليكم وسرح الأشر إلى عثمان تائباً : فقال له عثمان أحملك حيث تشاء ، فقال مع عبد الرحمن . قال ذلك إليك فرجع إلى أصحابه .

وقد نقل ابن أبي الحديد وابن الأثير من رواية المدائني زيادة في هذا الخبر ، وكلاماً طويلاً جرى بين القوم وبين معاوية ، وأنهم تناولوا عليه ومسك أحدهم بلحيته وناقشوه في سيرته ، فالأن لهم القول فزادهم ذلك جرأة عليه ، فغضب منهم وكتب إلى عثمان بأمرهم فأمره بإشخاصهم إلى

عبد الرحمن ، ولم نشأ نقل هذه الرواية كلها حباً بالاختصار ، واكتفاء بما تقدم من خبرهم معه .

كلمة في هؤلاء الناقين على عثمان وفي أهمية تاريخ الصحابة :

إن من يطالع هذا الخبر من أسراء الاستبداد ، وألبي الاستعباد ، يعجب من جرأة القوم وتجاوزهم حدود الحشمة مع وجوه الصحابة ، وأعجب منه عندهم أن يتجاوز عن القوم ولا يناههم أدنى عقاب على ما فعلوه سوى التوبيخ إذ لو حدث من غيرهم ما حدث منهم في حكومة أخرى غير الحكومة الإسلامية يومئذ لما كان جزاؤهم إلا القتل ، أو قضاء الحياة في أعماق السجون ، ولكن شأن العرب وشأن الإسلام وحكومته يومئذ لا يضاهيه شأن الأمم الأخرى وحكوماتها ، إذ العرب قد اعتادوا بأصل الفطرة على حرية الفكر والقول وشرائع الإسلام لم تكن مصادمة لتلك الفطرة بل هي معينة لها راعية لتهدئها وارتقاؤها ، فالقرآن يأمر المسلمين عامة بقول الحق وأن يقوموا بالقيسط ويشهدوا بالحق ولو على أنفسهم ، ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، وفي هذا كله ما يجيز لهم الانتقاد على الأسراء والعمال ويطلق لهم العنان فيما اعتادته فطرتهم من حرية القول ، بشرط أن لا يترتب على قولهم حد من الحدود الشرعية ، كالتقذف وكل ما يمس بالشرف والعرض ويدعوا إلى إقامة الحد أو أية عقوبة من عقوبات التعزير ، لهذا قام هؤلاء الناس وغيرهم في الأمصار الإسلامية يظهررون الطعن على عثمان وعماله باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وليس من يجزو على معاقبتهم أو الضرب على أيديهم من العمال ، لأنه حق من الحقوق التي خولتها لهم الفطرة والشرع ولم يظهر عليهم المنكر إلا بعد أن ترتب على عملهم حق من حقوق الله في قتل عثمان رحمه الله ورضي عنه ، وهذا عين ما يشاهد الآن في الممالك الأوروبية الحكومات الشورية من إطلاق السنة الانتقاد على الحكومة ومناقشة أهل الشورى للوزراء في كل جليل وحقير ، وكثيراً ما يلجئون الوزراء إلى

اعتزال مناصبهم إذا رأوا منهم ما يستدعي ذلك ، فيعزلونها صاغرين وشأنهم هذا شأن المسلمين في ذلك العهد مع أمرائهم كما رأيت ، وترى العبرة في عثمان رضى الله عنه وعماله ونهوض الأمة لمؤاخذته على أمور هي ولا نكران للحق أقل مما يأتيه أصغر عامل من عمال الدول المطلقة في هذا العصر وفي كل عصر ، ومع هذا فقد أفضى الأمر إلى طرد عماله من الأمصار ثم إجلاب الناس عليه بالخيول والرجل من كل مصر ، وقتله بين ظهرائي لإخوانه من المهاجرين والأنصار . فليت شعري كيف نسى المسلمون تاريخ هذه النشأة التي نشأ عليها أسلافهم وأهملوا أمور شريعتهم ، التي عمل بها مؤسسو دولتهم فاستخذوا بعد ذلك للأمراء ، واستسلموا للقضاء ، حتى صاروا أسراء الاستبداد وتعبدتهم الملوك في كل الأنحاء ، وسامتهم الدول الحاكمة عليهم من إسلامية ومسيحية ضروب الخسف . وأذاقهم أنواع الامتهان . وأين تلك الروح البارة والنفس العالية التي كانت تأبى الهزيمة وتغضب للحق فترى الموت والحياة سيان في سبيل الذود عن حقوقها والاحتفاظ بحريتها .

لا جرم أن الأمة الإسلامية قد أنسيت ذلك لأمرين (الأول) عدم العناية بوضع قواعد الشورى على الأصول الثابتة منذ نشوء الدولة كما سبق (والثاني) تحريم العلماء بإيعاز الأمراء الخوض^(١) في تاريخ الخلفاء الراشدين وأخبار الصدر الأول التي كلها حياة . كلها عبر . كلها حرية ، وليس في كل ما كان بين الصحابة من الأمور العظام ، والفتن الجسام ، ما يدعو ديناً أو أدبا إلى اجتناب الخوض في أخبارهم ، والنظر في تاريخهم ، تعظيماً لهم واحتراماً لجانهم ، وتسليماً بسلامة مقاصدهم كما يذهب

(١) نريد بالخوض هنا معناه اللغوي وهو من قولهم خاض الماء أى تغفل فيه ، فإذا كان مراد القائلين بجمرة الخوض في أخبار الصحابة هذا التغفل فلا نسلم لهم بجرمته ، وإذا كان مرادهم به المعنى المجازى للخوض في الباطل ونحوه ، فهذا مالا نسبكره عليهم ، بل هو مما تقوله وتسلم به ونا أريد بالخوض هنا المعنى الأول فليقتبه له .

إليه خدام الأمراء من بعض العلماء ، إذ لو كان في أخبارهم ما يمنع من الخوض فيها ديناً أو أدباً لاستلزم أنها أعمال تحط من منزلتهم وتقلل من احترامهم ، وهذا باطل بالبداهة ، والحقيقة هي أن هذا التحريم لم يكن إلا بإيعاز الأمراء الجبارين ، والزعماء المستبدين ، لأن تاريخ الصدر الأول وأخبار الصحابة كلها تدل على حياة منبثة في صدور القوم ، ومقاصد عالية تعلو شأن أولئك الرجال ، والله ليس في تاريخ من تواريخ الأمم في بدء نشأتها وإبان ظهورها ، ما في تاريخ الخلفاء الراشدين ، ووقائع الصحابة من الحوادث التي ترمي كلها إلى غرض الحرية ، وتمحيص الحق بما قل أن يكون في أمة حديثة النشأة ، ودولة جديدة التكوين ، أما أن فريقاً منهم أخطأ وفريقاً أصاب . وفريقاً بغي ، وفريقاً بغي عليه ، فهذا الحكم إنما هو تابع للمقاصد ، والمقاصد كانت كلها متجهة إلى تمحيص الحق والرغائب العالية ، فمن العبث أن يحكم بخطأ فريق مادام يعتقد أنه على صواب ، ومثاله هؤلاء المحرضون على عثمان فإننا مع اعتقادنا أن عثمان رضى الله عنه خير من كثير غيره ، بمن أتى بعده من الخلفاء ، ومع علمنا أنه لم يأت من حب النفس أو الأثرة بجزء مما يأتيه حتى أشهر من اشتهر بالعدل من الخلفاء الأمويين أو العباسيين أو غيرهم ، فإن أولئك الثائرين على عماله الناقين منه مهما كان الدافع لهم إلى ذلك العمل ، فإن غايتهم التي يقصدون إليها بحسب الظاهر هي العدل بين الناس بعدم الاستئثار بمصالح المسلمين ومنافع الأمة ، كما تعودوا ذلك من الخليفتين السابقتين ، وإن كانت سيرتهما في الخلافة وسياسة الملك فوق المستطاع لمن عداهما ، لهذا لم يستطع أن يمد إليهم العمال يد السوء ، فهم إذا أخذوا فإنما يؤاخذون من جهة أنهم كانوا يطلبون من عثمان فوق ما يستطاع بالنسبة إليه ، وأنهم غلوا في ذم سيرته تذرعا لمحو الصبغة الأموية من الدولة غلوا يلامون عليه ، مادام ذلك الغلو لغرض آخر يرمون إليه .

وأما قتلته فإنهم أخزاهم الله ليسوا بمؤاخذين فقط بل هم ملعونون على لسان كبار الصحابة ، كحذيفة بن اليمان وأضرابه ، وهم مسئولون عن عملهم دون غيرهم ، وقد جنوا على الأمة في مستقبلها جناية كبرى ، كما سنشير إليه بعد إن شاء الله .

إذا تقرر هذا فاعلم أن أخبار الصحابة إنما حرم بعضهم الخوض فيها لأنها أخبار قوم ملأت صدورهم بالحياة ، ونفوسهم بالعزة ، وهم بالضرورة قدوة الأمة ، والمنادون منذ نشأت الدولة بصوت العدل والحرية والحق ، فوقوف الناس على أخبارهم والأخذ والرد فيما حدث بينهم ، يحيي في القلوب روح الحرية ، ويبعث على استظهار عامة الناس للحجة التي يصادمون بها آلات الاستبداد من الخلفاء والملوك الذين حولوا الخلافة إلى الملك العضوض ، وأمعنوا في التمكن من رقاب الناس ، لهذا ولما كثر خوض الناس في أخبار الصحابة أرادوا إلهاءهم عنها بمنجعة حرمة الخوض فيها ، فأوعزوا إلى الوضاع والقصاصين بوضع أخبار المغازي ونصبة عشرة وأشباهها ، في أعصر مختلفة لا تعلم بالتحقيق ، إلا إذا صح نسبة أكبر تلك الكتب إلى الواقدي والأصمعي فإنها تكون في عصر العباسيين ، وذلك ليتلقى بها العامة عن التاريخ الصحيح الذي يبعث في النفوس روح الجرأة على قول الحق . والتشبه بسلف الأمة ورجالها ، ورافعي دعامة دولتها في مناهضة أرباب العتو والجبروت ، ومحبي الاستبداد وآلهة الملك . هذا ما أراه في هذا الباب والله أعلم بالصواب .

ما أنكره الناس عليه واعتذاره عن بعض ما أنكر عليه :

ذكر الطبري في تاريخه وابن قتيبة في الإمامة والسياسة ، وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ، وابن خلدون في التاريخ ، الأحداث التي كانت على عهد عثمان رضي الله عنه ، وخالف بها صاحبيه وأنكرها الناس عليه ، وزاد بعضهم على بعض ، ونقل بعضهم ما لم ينقله البعض ، فرأيت أن أستقصى هنا ما نقلوه ليضعه القراء موضع المحاكمة والبحث .

فمنها إتمامه الصلاة في منى وعرفة ، مع أن الأمر في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم والشيخين بعده كان على القصر ، ومنها زيادة النداء الثالث على الزوراء يوم الجمعة . ومنها إخراج أبي ذر من الشام والمدينة إلى الريدة ، ومنها سقوط خانم النبي من يده في بئر أريس . ومنها إفشائه العمل والولايات في أهله وبني عمه من بني أمية ، وما كان من الوليد بن عقبة وشربه الخمر ، ومنها صلته لأهله وبني عمه بالأموال وإقطاعهم القطائع . وحملهم على رقاب الناس واستئثاره برأيهم ورأيهم ، وتركه المهاجرين والأنصار لا يستشيرهم ولا يستعملهم وأنه أعطى مروان خمس غزوة إفريقية ، ووصل عبد الله بن خالد بن أسيد بأربعمائة ألف درهم ، وأقطع الحرث بن الحكم موضع سوف بالمدينة ، كان تصدق به رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين ، وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتي ألف درهم ، وأنكح الحرث بن الحكم ابنته عائشة فأعطاه مائة ألف من بيت المال . وحمل الحمي (المراسي) حول المدينة ، إلا عن بني أمية ورد الحكم بن أبي العاص طريد رسول الله إلى المدينة ، وأعطاه مائة ألف درهم ، ومنها مجاوزته الخيزران إلى السوط ، وأنه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس . ومنها تطاوله في البقيان ، حتى عدوا سبع دور بناها بالمدينة . داراً لثلاثة ، وداراً لعائشة وغيرهما من أهله وبناته ، ومنها ضربه عبد الله بن مسعود حتى كسر ضلعاً من أضلاعه .

هذه هي الأحداث التي نقمها الناس على عثمان وأخذوه عليها ، وقد أجمع أهل السنة وأفاضل المعتزلة تبعاً لرأي كبار الصحابة ، على أن ما صح منها وإن كانت أحداثاً ، إلا أنها لا تبلغ المبلغ الذي يستباح به دمه . ولعثمان رضي الله عنه أعذار اعتذر بها عن بعض ما عزي إليه ونقمه القوم منه فمنها ما رواه الطبري في أخبار سنة (٣٩هـ) أن عثمان صلى بمنى أربعاً (أي صلاة المقيم) فاتى آت عبد الرحمن بن عوف فقال ، هل لك في أخيك قد صلى بالناس

أربعاً . فصلى عبد الرحمن بأصحابه ركعتين ، ثم خرج حتى دخل على عثمان فقال له : ألم تصل في هذا المكان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين قال بلى . قال أفلم تصل مع أبي بكر ثم عمر ركعتين ؟ قال بلى . قال ألم تصل صدراً من خلافتك ركعتين ؟ قال بلى فاسمع مني يا أبا محمد ، إني أخبرت أن بعض من حج من أهل اليمن وجفاة الناس ، قد قالوا في عامنا الماضي إن الصلاة للقيم ركعتان ، هذا إمامكم عثمان يصلي ركعتين وقد اتخذت بمكة أهلاً فرأيت أن أصلي أربعاً لخوف ما أخاف على الناس . وأخرى قد اتخذت بها زوجة ولى بالطائف مال . فقال عبد الرحمن بن عوف ما من هذا شيء لك فيه عذر ، أما قولاك اتخذت أهلاً فزوجتك بالمدينة ، تخرج بها إذا شئت وتقدم بها إذا شئت إنما تسكن بسكنائك ، وأما قولك ولى مال بالطائف ، فإن بينك وبين الطائف مسيرة ثلاث ليال ، وأنت لست من أهل الطائف ، وأما قولك يرجع من حج من أهل اليمن وغيرهم فيقولون هذا إمامكم عثمان يصلي ركعتين وهو مقيم ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل عليه الوحي والناس يومئذ الإسلام فيهم قليل ، ثم أبو بكر مثل ذلك ، ثم عمر ، فضرب الإسلام بحجراته فصلى بهم عمر حتى مات ركعتين ، فقال عثمان هذا رأى رأيته .

وروى ابن عساكر من طرق عن عبد الرحمن بن الحارث بن ذياب قال : صلى عثمان بأهل منى أربع ركعات فلما انصرف (أى بوجهه) إليهم قال إني صليت بكم أربعاً إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا أتى أهل المسافر في بلدة فهو من أهلها يصلي صلاة المقيم أربعاً ، وإني تأملت بها منذ قدمتها فلذلك صليت بكم أربعاً .

فإذا صحت هذه الرواية فاعتذار عثمان لعبد الرحمن اعتذار صحيح ، لا سيما وأنه صلى لدفع شبهة جفاة الأعراب في اعتباره مقيماً لزواجه في مكة فإذا صلى القصر مع ذلك الاعتبار ربما اتخذوه حجة في جعل الصلاة لكل مقيم ركعتين ، ففعل ما فعل من قبيل البلاغ والاحتياط .

هذا اعتذاره عن صلاة المقيم . وقد روى ابن عساكر في اعتذاره عن الحمي الذي حماه عن أبي سعيد مولى أبي أسيد الأنصاري قال : سمع عثمان ابن عفان أن وفد أهل مصر قد أقبلوا فاستقبلهم ، فلما سمعوا به أقبلوا نحوه وكره أن يقدموا عليه المدينة فأنوه فقالوا له ادع بالمصحف فافتح السابعة وكانوا يسمون سورة يونس السابعة . فقرأها حتى أتى على هذه الآية (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً . قل الله أذن لكم أم على الله تفترون) قالوا له قف أرأيت ما حميت من الحمي آله الله أذن لك أم على الله تفتري : فقال امضه نزلت في كذا وكذا ، فأما الحمي فإن عمر حمي الحمي قبلي لإبل الصدقة ، فلما وليت زادت لإبل الصدقة فزدت في الحمي كما زادت لإبل الصدقة ، وزاد عليه في بعض الروايات ، إني قد وليت وإني لأكثر العرب بعيراً وشاة ، فما لي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين الحمي .

وهذا الخبر يدل على أنه حمي من المراعى حول المدينة زيادة عما كان حماه عمر ، فعدوها مخالفة لعمر ونقموها منه .

وقد أجمع الرواة وأهل الأخبار أن ما نقموه من عثمان في تقرّيبه أهله منه ، وصلاتهم بالأموال قد تأول فيه الصلة التي أمر الله بها ، وقال إن أبا بكر وعمر تركا من ذلك ما هو لها وأخذت ما هو لي فقسّمته في أهلي ، ومع هذا فلما استعرت نار الفتنة أشاروا عليه أن يستعيد ما أعطاه لمروان ولخالد بن أسيد ، فاستعاده منهما ورده لبنت المال .

وفي حديث طويل رواه ابن عساكر في اعتذار عثمان عما أنكره عليه ، قال فيه بعد اعتذاره عن الأشياء المتقدمة بمعنى ما تقدم : وقالوا إني رددت الحكم والحكم مكي ، سيره رسول الله إلى الطائف ثم رده : وقالوا استعملت الأحداث ولم أستعمل إلا مجتمع محتمل مرضى (يريد به عبد الله بن

عامر) ، وهؤلاء أهل عمله (أى أهل البصرة وكانوا حضوراً) فسلوهم عنه ، وقد روى من قبلى أحدث منه ، وقيل فى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أشد مما قيل لى فى استعماله أسامة بن زيد ، وقالوا لى أعطيت بن أبى سرح مما أفاء الله عليه ، ولى إنما نفلته خمس ما أفاء الله عليه من الخمس ، فكان مائة ألف ، قد نفل مثل ذلك أبو بكر وعمر ، فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذلك لهم . لى آخر الحديث وقد مر ما هو بمعناه .

هذه أعذار عثمان رضى الله عنه ، التى اعتذر بها للناس عما نقموه عليه ولم تقبل منه ، ولم يدفع أكثر المسلمين عنه ، إذ كانوا يريدون منه سيرة أبى بكر وعمر ، وأن يحذو حذوهما فى التعفف والتشف ، والسير على طريق النبوة الذى لا استطاع لكل الناس ، وقد جاهرت له بذلك أم سلمة لىحدى أمهات المؤمنين ، ونصحتة بتوخى السبيل التى توخاها أبو بكر وعمر ، فى كلام طويل أجابها عنه بما يأتى :

ياأمناء قد فلت فوعيت ، وأوصيت فاستوصيت . إن هؤلاء النفر رعا عثرة^(١) ، تطاطأت لهم تطاطؤ المائح الدلاء^(٢) ، وتلدت^(٣) لهم تلدد المضطر ، فأراهم الحق لإخواناً ، وأراهمونى الباطل شيطاناً ، أجزرت المرسون^(٤) منهم رسنه ، وأبلغت الرايع مسقاه ، فانفروا على فرقاً ثلاثاً ، فصدامت صمته أفخذ من صول غيره : وساع أعطاني شاهده ومنعنى غائبه ، ومرخص له فى مدة رينت^(٥) على قلبه ، فأنا منهم بين ألسن لداد^(٦) .

(١) سفة .

(٢) أى الذى يتناول الماء من أعلى البئر .

(٣) تلت يميناً وشمالاً .

(٤) أمكنت المشدود منهم من زمامه يريد خليته وأهملته برعى كيف شاء .

(٥) أى أوقعته فيما لا يستطيع الخروج منه .

(٦) أى شديدة الخصومة .

وقلوب شداد ، وسيوف حداد ، عذيري الله ألا ينهي منهم حلهم سفيتها .
ولا عالم جاهلا ، والله حسبي وحسبهم يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم
فيعتذرون .

ظهور الفتنة :

لما فشلت الإذاعة في الأمصار ، وسرت روح الثورة في الصدور .
وامتلات القلوب بالسخط من عمال عثمان ، ومما يدسه دعاة الثورة في
الأذهان ، وكثر الطعن والإرجاف على الأمراء ، اعتزم سعيد بن العاص
على الوفاة على عثمان سنة أربع وثلاثين وكان قبلها قد ولي على الأعمال
أمراء من قبله ، فولى الأشعث بن قيس على أذربيجان ، وسعيد بن قيس على
الري ، والنسير العجلي على همدان ، والسائب بن الأقرع على أصبهان ،
ومالك بن حبيب على ماه ، وحكيم بن سلامة على الموصل ، وجريز بن
عبد الله على قرقيسيا ، وسلمان بن ربيعة على الباب ، وجعل على حلوان عتيبة
ابن النحاس ، وعلى الحرب القعقاع بن عمرو ، وخرجوا لأعمالهم وخرج
هو وأعداء على عثمان ، واستخلف عمرو بن حريث وخلت الكوفة من
الرؤساء ، فاعتصم الطعانون هذه الفرصة فأظهروا أمرهم ، وخرج بهم يزيد بن
قيس يريد خلع عثمان ومعه الذين كان بن السوداء يكاتبهم ، فبادره القعقاع
ابن عمرو ، فقال إنما نستعفي من سعيد بن العاص فتركه . وكتب يزيد إلى
الرهط الذين عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بجمع في القدوم ، فساروا
إليه وسبقهم الأشر ووقف على باب المسجد يوم الجمعة يقول : جئتكم من
عند عثمان وترك سعيداً يريد على نقصان نساكم على مائة درهم « أي من
العطاء » ورد أولى البلاء منكم إلى ألفين ، ويزعم أن فيكم بستان قريش :
فهاج الناس لهذا الخبر الكاذب والإفك المقتري ، وبأدى يزيد في الناس
من شاء أن يلحق يزيد لرد سعيد فليفعل ، فخرجوا وذووا الرأي يهزلونهم

فلا يسمعون ، وأقام أشراف الناس وعقلاؤهم مع عمرو بن حريث ، ونزل يزيد وأصحابه الجرعة لاعتراض سعيد ورده ، فلما وصل قالوا ارجع فلا حاجة لنا بك : قال إنما كان يكفيكم أن تبعثوا واحداً إلى وإلى عثمان رجلاً . وقال مولى له ما كان ينبغي لسعيد أن يرجع فقتله الأشر : ورجع سعيد إلى عثمان ، فأخبره بخبر القوم وأنهم يختارون أبا موسى الأشعري فولاه الكوفة وكتب إليهم .

أما بعد فقد أمرت عليكم من اخترتم ، وأعفيتكم من سعيد ، والله لأقرضنكم عرضي ولأبذلن لكم صبري ، ولا ستصلحنكم بجمدي . فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يعصى الله فيه إلا سألتموه ، ولا شيئاً كرهتموه لا يعصى الله فيه إلا استعصيتم منه ، أنزل فيه عندما أحببتم ، حتى لا يكون لكم عند الله حجة ، ولنصبرن كما أمرنا حتى تبلغوا ما تريدون .

ولما انتهى إليهم الكتاب خطبهم أبو موسى الأشعري وأمرهم بلزوم الجماعة وطاعة عثمان فرضوا ، وكان قد جاء بعض الأمراء من قرقيسيا وحلوان وغيرها لأجل استصلاح القوم ، فلما بلغهم لزومهم للطاعة رجعوا من قرب الكوفة .

وكانوا يسمون اليوم الذي ناروا فيه رد سعيد يوم الجرعة باسم المكان ، وذكروا عن سبب هذا اليوم رواية ثانية رواها الطبري ونقلها غيره من المؤرخين ، ومؤداها أن أهل الكوفة أجمعوا رأيهم أن يبعثوا إلى عثمان ويعذلوه فيما نقم منه ، فاتفقوا على إرسال عامر بن عبد القيس الزاهد وهو عامر بن عبد الله من بني تميم ، ثم من بني العنبر ، فأناء وقال له إن ناساً اجتمعوا ونظروا في أعمالك فوجدوك ركبت أموراً عظيماً فأتق الله وتب إليه ، فقال عثمان ألا تسمعون إلى هذا الذي يزعم الناس أنه قارىء ثم يحىء

يكلمني في المحقرات (أى الصغائر) ، ووالله لا يدري أين الله : فقال عامر بلى والله لاني لأدري أن الله لبالمرصاد :

فأرسل عثمان إلى معاوية ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وسعيد بن العاص وعبد الله بن عامر ، وعمرو بن العاص ، وكانوا بطاقتة دون الناس فجمعهم وشاورهم وقال لهم : إن لكل امرئ وزراء ونصحاء ، وإنكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي ، وقد صنع الناس ما قد رأيتم ، وطلبوا إلى أن أعزل عمالي ، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون ، فاجتهدوا رأيكم .

فقال له ابن عامر أرى لك يا أمير المؤمنين أن تشغلهم بالجهاد عنك حتى يذلوا لك . وقال سعيد أحسم عنك الداء ، فاقطع عنك الذي تخاف ، إن لكل قوم قادة متى تهلك يتفرقوا ، ولا يجتمع لهم أمر . وقال معاوية ، أشير عليك أن تأمر أمراء الأجناد فيكفيك كل رجل منهم ما قبله وأكفيك أنا أهل الشام . وقال عبد الله بن سعد إن الناس أهل طمع فأعظمهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم . ثم قام عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين إنك قد ركبت الناس بمثل بنى أمية فقلت وقالوا ، وزغت وزاغوا ، فاعتدل أو اعتزل : إلى آخر ما قال وقد أوردنا قوله في سيرته في هذا الكتاب وهذا الرأي هو أنجح الآراء وأحسمها لمادة الفتنة ، ولو تبعه عثمان رضى الله عنه واعتدل في ميله لبنى أمية . وجعل المهاجرين والسابقين من الصحابة بطاقتة وأهل شوره ، كما كان الحال على عهد الخلفيتين لما اجتراً أحد على قتله ، ولدفع المهاجرون عنه غائلة الفتنة ، وإذا كان لم يستطع ذلك واعتزل كان نجما من القتل ، وقضى بقية حياته محترماً الجانب ، مكرماً من الناس ، لسابقته وسننه وتقواه ، ولعله أراد ذلك فما مكنه بنو أمية مما يريد بعد أن صارت إليهم مقاليد الأمور ، والله في هذا شأن هو بالغة .

رأى عثمان أن يشغل الناس عنه بالحروب والغزوات كما أشار عليه

ابن عامر ، فرد العمال إلى أعمالهم وأمرهم بتجهيز الناس في البعوث ، ليسكون لهم فيها شغل ، وهذا دواء وقى لا يستأصل ذلك الداء ، بل هو من قبيل وضع الخدر على محل الألم ، لا يلبث أن يسكن ساعة ثم يعود . ولما رجع الأمراء ، وعاد سعيد إلى السكوفة لقيه القوم بالجرعة ، فردوه كما مر في الخبر الأول .

استمر الناس ينالون من عثمان في المدينة وغيرها ، ويتكاتب بعضهم إلى بعض ، وليس أحد من الصحابة ينهى إلا نفر منهم كانوا يذبون عنه ، مثل زيد بن ثابت ، وأبي أسيد الساعدي ، وكعب بن مالك ، وحسان بن ثابت ، فلم يفتنوا عنه ، فاجتمع الناس إلى علي بن أبي طالب فكلّموه في ذلك ، فدخل على عثمان : وقال : الناس ورائي وقد كلّوني فيك والله ما أدري ما أقول لك . ولا أعرف شيئاً تجهله ، ولا أدلك على أمر لا تعرفه . لأنك لتعلم ما أعلم ، ما سبقناك إلى شيء فتخبرك عنه ، ولا خلونا بشيء فنبغضه ، وما خصصنا بأمر دونك ، وقد رأيت وصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعت منه ونلت صهره ، وما ابن أبي قحافة ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك ، وأنت أقرب إلى رسول الله رحماً ، ولقد نلت من صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم ينالاه ، وما سبقاك إلى شيء ، فأنك الله في نفسك فإنك والله ما تبصر من عمي ، ولا تعلم من جهالة ، وإن الطريق لو اوضح بين ، وإن أعلام الدين لقائمة ، اعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله إمام عادل ، هدى وهدى ، فأقام سنة معلومة ، وأمات بدعة متروكة ، فوالله إن كلابيين ، وإن السنن لقائمة لها أعلام ، وإن البدع لقائمة لها أعلام ، وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وأضل ، فأمات سنة معلومة ، وأحيا بدعة متروكة ، وإنني أحذرك الله وسطواته ونقماته ، فإن عذابه شديد أليم ، وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة الذي يقتل فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة ، ويلبس أموراً عليها ويتركها شيئاً لا يبصرون الحق

لعلوا الباطل ، يمجون فيها موجاً ويمرجون فيها مرجاً .

فقال عثمان : قد علمت والله ليقولن الذى قلت أما والله لو كنت مكانى ما عنفتك ، ولا أسلبتكم ، ولا عبت عليكم . وما جئت منكم إلا أن وصلت رحماً وسددت خلة (حاجة) وآويت ضائعاً ، ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولى . أنشدك الله يا على ، هل تعلم أن المغيرة بن شعبه ليس هناك : قال نعم : قال فتعلم أن عمر ولاء ؟ قال نعم : قال فلم تلومنى أن وليت ابن عامر فى رحمة وقرابته ؟ قال على إن عمر كان يظأ على صباخ (أذن) من ولى . إن بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به أقصى العقوبة . وأنت لا تفعل . ضعفت ورققت على أقربائك . قال عثمان وهم أقرباؤك أيضاً : قال أجل إن رحمتهم منى لقريبة ، ولكن الفضل فى غيرهم : قال عثمان هل تعلم أن عمر ولى معاوية فقد وليته ؟ فقال على أنشدك الله ، هل تعلم أن معاوية كان أخوف لعمر من يرفأ غلام عمر ؟ قال نعم : قال على فإن معاوية يقطع الأمور دونك ، ويقول للناس هذا أمر عثمان ، وأنت تعلم ذلك فلا تغير عليه .

ثم خرج على من عنده ، وخرج عثمان على أثره فجلس على المنبر ثم قال :

أما بعد فإن لكل شىء آفة ، ولكل أمر عاهة ، وإن آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة ، عيابون طعانون ، يرونكم ما تحبون ويسترون عنكم ما تكرهون ، يقولون لكم ويقولون ، أمثال النعام يتبعون أول ناعق . أحب مواردهم إليهم البعيد ، لا يشربون إلا نغصاً (كدراً) . ولا يردون إلا عكراً ، ولا يقوم لهم رائد ، وقد أعيتهم الأمور ، ألا والله فقد عبت على ما أقرتكم لابن الخطاب بمثله . ولكنكم وطئتم برجله ، وضربكم بيده ، وقمكم بلسانه فذتم له على ما أحببتهم وكرهتم . ولنت لكم وأوطأتكم كتفى ، وكففت يدى ولسانى عنكم فاجترأتم على ، أما والله لأنا أعز نفرأ ، وأقرب ناصرأ ، وأكثر عدداً وأحرى ، إن قلت هلم أنى إلى ، ولقد عدت لكم

أقراناً وأفضلت عليكم فضولاً ، وكشرت لكم عن ناني ، وأخرجتم مني خلقاً
لم أكن أحسنه ، ومنطقاً لم أنطق به ، فكفوا عني ألسنتكم وعيكم وطعنكم
على ولائكم ، فإنني كففت عنكم من لو كان هو الذي يكلمكم لرضيت منه
بدون منطقي هذا . ألا فما تفقدون من حقكم ، والله ما قصرت عن بلوغ
ما بلغ من كان قبلي ، ولم تكونوا تختلفون عليه .

فقام مروان بن الحكم فقال إن شئتم حكمنا والله بيننا وبينكم السيف .
فحن وأنتم والله كما قال الشاعر :

فرشنا لكم أعراضنا فنبت بكم مغارسكم تبثون في دمن الثرى
نقال عثمان اسكت لا سكت ، دعني وأصحابي ما منطقتك في هذا ، ألم
أتقدم إليك أن لا تنطق ، فسكت مروان وزل عثمان عن المنبر فاشتد قوله
على الناس وعظيم وزاد تألبهم عليه .

إقبال من قبل لمصار عثمان وقتله :

رأيت مما تقدم إلى أي حد بلغ تيار الفتنة وغيلان السخائم في الصدور ،
وتأجج نار الثورة في الأطراف ، وشيوع الطعن على عثمان وعماله في كل
مصر من الأمصار الكبيرة ، وإن سببه استئثار بني أمية بعثمان وانقطاعهم
إليه وركونه لإيهم دون المهاجرين والأنصار ، ثم تذرعه دعاة الفتنة بهذا
إلى الإنكار عليه ومؤاخذته على أمور فيها ما يعتذر عنه ، واستنهاضهم الناس
بهذا للجرأة عليه وطرد عماله وخلعه من منصب الخلافة ، وليس من يذب
عنه وينتصر له إلا نفر قليل من الصحابة ، وما عداهم من المهاجرين والأنصار
كلهم ناظم منه ، مغض عن نصرته ، ينتظر منه إما الرجوع إلى سيرة أبي بكر
وعمر ، وإما التخلي عن منصب الخلافة ، ليكون الأمر كما قال عمرو بن العاص
بين الناس شرعاً سواء . وذلك لأن الأمة كما علمت جديدة النشأة ، مياالة

بفطرتها إلى الحرية والمساواة ، وقد اعتادت من أبي بكر وعمل العدل بين الناس في المعاملة ، وعدم استئثارهما بشئ من أمور الدولة ، أو انقطاعهما بالرأى والمشورة إلى فريق مخصوص من الناس ، وهو ما تنزع إليه أخلاق القوم ويأمر به الإسلام ، لهذا لما خالف عثمان صاحبيه بالاستبداد بالرأى والانقطاع إلى فريق مخصوص من أهله وعشيرته يستبدون عليه ، وعلى كبار الأمة ووجوه الصحابة بالأمور ، هالهم ذلك وخافوا من أن تنقلب الدولة أموية بعد أن كانت شورى إسلامية ، ليس لقوم أن يستأثروا بشئ من شؤنها دون آخرين ، وما لا ريب فيه أن الدولة إذا اضطبغت بصبغة قومية وغلب على أمورها قوم دون آخرين ، لا تلبث أن تتنازعها أطماع الغالبين بحكم القوة والعصبية التي تنخلل جسم الدولة ، ومن ثم أدرك الصحابة وبالأخص المرشحون للخلافة من المهاجرين مغبة الأمر ، وخافوا من اضطباغ الخلافة بالصبغة الأموية ، إذا استمر عثمان فيها والآخذون بمقاليد أمورها هم بنو أمية ، فلما رأوا أن الأمة تجارى رغائبهم وتشاركهم بالإحساس بمثل هذا الخطر ، لم يمنعوا عن عثمان وربما كان لبعضهم يد في استجاشة الخواطر عليه ، كطلحة بن عبيد الله وفقر غيره عن كان يكاتبهم أهل الأمصار كما سترى بعد ، ولكن لم يبلغ منهم الأمر مبلغ إهدار دمه أو المبالاة على قتله ، معاذ الله وإنما هم أرادوا الوصول إلى خلعه فقط فغلب على رأيهم جفافة الأعراب لما عظمت الفتنة ، واشتد صخب المتألبين عليه ، لما أبى الاعتزال وترك منصب الخلافة ، ومع هذا فقد كان عامة أهل المدينة أخف وطأة وأزعم للصبر والأناة من أهل الأمصار الذين ملثوها عليه بالفتنة ، شأن الأمم التي تجرى منها قوة الشباب مجرى الروح من الجسم ، فلا تبصر إذا اندفعت لأمر في أى طريق تسير .

لهذا لما تواترت الأخبار وتوالت على أهل المدينة الإذاعات الفاشية في الأمصار ، أرادوا التثبت من الأمر والأخذ بالأحوط رافة بعثمان رضى

الله عنه ، فأتوه وسألوه عن علمه بما يجرى في الأمصار وأخبروه خبر الناس فلم يجدوا عنده علماً ، وقال لهم أشيروا على وأتم شهود المؤمنين : قالوا تبعث من تثق به إلى الأمصار يأتوك بالخبر ، فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة . وأسامة بن زيد إلى البصرة ، وعبد الله بن عمر إلى الشام ، وعمار بن ياسر إلى مصر ، وغيرهم إلى سواها . فرجعوا وقالوا ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره علماء المسلمين . هكذا نقل الطبري وابن الأثير وابن خلدون وأكثر المؤرخين ولم يزدوا ، وظاهر أنهم يريدون من عدم إنكارهم لشيء أى من سيرة العمال التي يتذرع بها الناقون إلى الثورة ، وهذا يؤيد ما قلناه من أن ما نقمونه من عثمان هو غير مانسبوه إلى عماله وإليه من الأحداث التي أكثرها مما يمكن الاعتذار عنه ، وإن استيلاء بنى أمية على عثمان واستبداده وإياهم بالأمر هو العلة الحقيقية في تدمير المنتدمين ، ولو كان هناك شيء مما يذيعه الناقون من المظالم وسوء سيرة العمال لما خفي على أولئك الرسل ، وهم من خيرة الصحابة ولكان العلماء أفضوا إليهم به ولم يكتموا ، وكذا العامة على أن تلك العلة الحقيقية ليست بالأمر الهين أيضاً كما علمت ، لما فيها من الخطر على الخلافة الشرعية والخطر على حياة الشورى والخطر على المترشحين ، لهذا المنصب من المهاجرين ، يضاف إلى هذه العلة ما يدسه دعاة الفتنة كعبد الله بن سبأ ومحمد بن أبي حذيفة وغيرهما للناس . وما يجهر به عمار ومحمد بن أبي بكر وابن جعفر من التشفيع على عثمان انتقاماً لأنفسهم منه ، لأمور سبقت لهم معهم^(١) ،

(١) روى الطبري عن سعيد بن المسيب أن سائلاً سأله ما الذي دعا محمد بن أبي حذيفة إلى الخروج على عثمان ، فقال كان يتما في حجر عثمان وكان عثمان والى أيتام أهل بيته ومحمّل كلامهم ، فسأل عثمان العمل (الولاية) حين ولي ، فقال يا بني لو كنت رضى ثم سألتني العمل لاستعملتك ولكن لست هناك . قال فأذن لي فلأخرج فلأطلب ما يقوتني . قال اذهب حيث شئت وجهز من عنده وحمله وأعطاء ، فلما وقع إلى مصر كان فيمن تغير عليه أن منعه الولاية . قيل (أى للشعبى) فعمار : قال كان بينه وبين عباس بن عتبة ، س أبى لهيب كلام فضر بهما عثمان : وأما محمد بن أبي بكر فقد أخرج ابن عساكر والطبري أنه لزمه حق فأخذ عثمان من ظهره ولم يدهن فتقهها منه محمد وسبأ في خبره في غير هذا المثل إن شاء الله .

ورغبة في مصير الخلافة بعده إلى على رضى الله عنه ، يدلك عليه مارواه ابن
عساكر عن عمرو بن محمد ، قال بعثت ليلي بنت عيسى إلى محمد بن أبي بكر
ومحمد بن جعفر فقالت ، إن المصباح يأكل نفسه ويهضم للناس ، فلا تأثما في
أمر تسوقانه إلى من لا يأثم فيه . فإن هذا الأمر الذى تحاولون اليوم
لغيركم غداً فاتقوا أن يكون عليكم اليوم حسرة عليكم غداً . فليجا وخرجا
مغضبين يقولان لا نسى ما صنع بنا عثمان ، ونقول ما صنع بكما إلا ما أكرمكما
الله ه .

هذا ولما رجع الرسل من الأمصار تأخر عمار بن ياسر بمصر واستماله
ابن السوداء وأصحابه ، وكتب عثمان إلى أهل الأمصار كتاباً بهذه صورته
عن ابن عساكر .

أما بعد فإني آخذ العمال بموافاتي في كل موسم ، وقد سلطت الأمة منذ
وليت على الائتمار بالمعروف والنهي عن المنكر . فلا يرفع إلى شيء على
أو على أحد من عمالي إلا أعطيته . وليس لي ولا لعمالي حق قبل الرعية
إلا متروك لهم . وقد رفع إلى أهل المدينة أن أقواماً يشتمون وآخرين
يضربون . فيما من ضرب سراً وشتم سراً من ادعى شيئاً من ذلك فليواف
الموسم « موسم الحج » ، وليأخذ بحقه كيف كان منى أو من عمالي . أو تصدقوا
فإن الله يحب المتصدقين .

فلما قرىء هذا الكتاب في الأمصار بكى الناس . ودعوا لعثمان وما
أطوع الإنسان ، لرب الإحسان ، ولو ثبت على مثل هذا عثمان رضى الله
عنه ولم يحفل بإغراء مروان ومن على شاكلته ومضى في تألف الناس على وجهه
لما تمكنت جذور الفتنة في البلاد ، وقعد له القوم بالمرصاد .

ولما كتب ذلك الكتاب بعث لعمال الأمصار أن يوافوه في الموسم

فقدّموا عليه ، وهم عبد الله بن عامر وعبد الله بن سعد ومعاوية ، وأدخل معهم سعيد بن العاص وعمرو بن العاص فقال : وبحكم ما هذه الشكاية والإذاعة إلى الله لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم وما يعصب ديحاط ، هذا إلا بي . فقالوا له ألم يرجع إليك رسالك وبخبروك أن أحداً لم يشافهم بشيء ، والله ما صدقوا ولا بروا ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً ولا يحل الأخذ بهذه الإذاعة : فقال أشيروا علي : فقال سعيد هذا أمر مصنوع يلقى في السمر فيحدث به الناس . ودواء ذلك طلب هؤلاء وقتل الذين يخرج هذا من عندهم : وقال عبد الله بن سعد خذ من الناس الذي عليهم إذا أعطيتهم الذي لهم فإنه خير من أن تدعهم : وقال معاوية قد وليتني فوليت قوماً لا يأتيتك عنهم إلا الخبر والرجلان أعلم بناحيتهما والرأي حسن الأدب : وقال عمرو ابن العاص ، أرى أنك قد لنت لهم وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر ، فأرى أن تلزم طريقة صاحبك فتشدد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين .

فقال عثمان قد سمعت كل ما أشرتكم به علي ، ولكل أمر باب يؤتى منه . إن هذا الأمر الذي يخاف على هذه الأمة كائن ، وإن بابه الذي يغلق عليه ليفتحن . فنهكفكه^(١) باللين والمواتاة^(٢) إلا في حدود الله فإن فتح فلا يكون لأحد على حجة . وقد علم الله أني لم آل^(٣) الناس خيراً ، وإن رحي الفتنة لدائرة فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها . سكنوا الناس وهبوا لهم حقوقهم فإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها .

ثم لما عاد عثمان إلى المدينة وعاد معه القوم دعا علياً وطلحة والزبير وعنده معاوية فحمد الله معاوية ثم قال : أتم أصحاب رسول الله صلى الله

(٣) لم أئت ولم أقصر

(٢) حسن الموافقة

(١) ندفه

عليه وسلم وخيرته من خلقه وولاية أمر هذه الأمة لا يطمع فيه أحد غيركم ، اخترتم صاحبكم (يعني عثمان) عن غير غلبة ولا طمع وقد كبر وولى عمره ، ولو انتظرتهم به الهرم لكان قريباً مع أنى أرجو أن يكون أكرم على الله أن يبلغه ذلك ، وقد فشلت مقالة خفتها عليكم فما عتبتهم فيه من شيء فهدء يدي ، لكم به ، ولا تطمعوا الناس في أمركم فوالله إن طمعوا فيه لا رأيتم منها أبداً ألا إداراً .

ولا يخفى على اللبيب أن معاوية يعرض بالقوم ويشير إلى ما في نفوسهم من الطمع بالخلافة ، وأنهم يستعجلونها مع كبر عثمان وقرب مصيرها إليهم بالضرورة ، لهذا انتهره على رضى الله عنه وقال له : اسكت لا أم لك : فقال دع أمي فإنها ليست بشر أمهاتكم قد أسلمت ، وبايعت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأجبنى عما أقول لك : فقال عثمان صدق ابن أخي أنا أخبركم عنى وعما وليت . إن صاحبي اللذين كانا قبلى ظلما أنفسهما ، ومن كان منهما بسبيل احتساباً ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطى قرابته وأنا فى رهط أهل عيلة وقلة معاش ، فبسطت يدي فى شيء من ذلك لما أقوم به فيه ، فإن رأيتم ذلك خطأ فردوه فأمرى لأمركم تبع : فقالوا له قد أصبت وأحسنيت . قد أعطيت عبد الله بن خالد بن أسيد خمسين ألفاً . وأعطيت مروان خمسة عشر ألفاً : فأخذ منهما ذلك . فرضوا وخرجوا راضين ، وقال له معاوية اخرج معى إلى الشام فإنهم (أى أهل الشام) على الطاعة قبل أن يهجم عليك ما لا قبل لك به : فقال عثمان لا أبيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء ولو كان فيه خبط عتقى . قال فإن بعثت إليك جنداً منهم يقيم معك لنايبة إن نابت : قال أضيّق على جيران رسول الله : فقال والله لتغتلن ولتغزين فقال حسبي الله ونعم الوكيل .

وصية معاوية للمهاجرين بعثاله :

فلما ودع معاوية عثمان خرج من عنده وعليه ثياب السفر ، فر على نفر من المهاجرين فيهم علي . وطلحة . والزبير . فقام عليهم فتوكأ على قوسه بعد ما سلم عليهم ثم قال : إنكم قد علمتم أن هذا الأمر كان إذ الناس يتغالبون إلى رجال ، فلم يكن منهم أحد إلا وفي قبيلته من يرأسه ويستبد عليه ويقطع الأمور دونه ، ولا يشهده ولا يؤامره حتى بعث الله تعالى نبيه وأكرم به من أنبئه ، فكانوا يرأسون من جاء بعدهم وأمرهم شورى بينهم يتفاضلون فيه بالسابقة والقدمة والاجتهاد . فإن أخذوا بذلك وقاموا به كان الأمر أمرهم والناس لهم تبع . وإن صغوا إلى الدنيا وطلبوها بالتغالب سلبوا ذلك . وردده الله إلى من جعل له الغلب ، وكان يرأسهم أولاً فليحذروا الغير فإن الله على البذل لقادر ، وله المشيئة في ملكه وأمره . إني قد خلفت فيكم شيئاً فاستوصوا به خيراً وكانفوه^(١) تكونوا أسعد منه بذلك : ثم ودعهم ومضى .

هذه الوصية أوردها ابن عساكر في تاريخه ، وأوردها غيره مختصرة ، فأحببت نقلها عن ابن عساكر لأنها أجمع ، وكل ما فيها غرر تاريخية تبين ما كان عليه حال العرب قبل الإسلام وما صاروا إليه بعده ، وإن التفاضل في الإسلام ليس إلا بالسابقة وإن الرئاسة التي ارتبطت بالشورى بعد الفوضى الماضية إنما صارت إلى السابقين بسبقهم ، فإذا انتهت إلى التغالب صارت إلى من دخل الإسلام بعدهم ، لأن في هؤلاء من هو أقوى عليها منهم ، ولعل معاوية يعرض بنفسه وقد أنبأهم عن أمر واقع لا محالة وحذرهم من شيء لا تغنى الحيلة من الوقوع فيه ، مادامت روح التغالب سرت في القوم فاشترأت أعناق غير السابقين إلى ما كان لهم بحكم الجامعة الإسلامية

(١) أرفقوه به .

والاستحقاق ، وليت تلك الروح لم تكن كانت في عصر كان الناس فيه أحوج إلى خلافة عثمان وعلى وأضرابهما من أهل السابقة الذين تأدبوا بآداب النبوة ، فكانوا أرفأ بالامة وألزم لطريقة الشورى والعدل ، وكان يرجى لو استمرت جيلا آخر نمو مبادئ الشورى في الدولة ، ونشوء الجيل القابل على حبها والتوجه إلى وضع قواعدها على أصول ثابتة . لا تقوى عليها أيدي المستبدين وأطماع الطامعين . على أن أولئك النفر من المهاجرين الذين خاطبهم معاوية قد أعظموا قوله وصدقوا نصيحته ، إذ قال على : إن كنت لأرى أن في هذا خيراً : فقال الزبير لا والله ما كان قط أعظم في صدرك وصدورنا منه اليوم .

عودة إلى ما نحن به صدد :

هذا ولما دعا عثمان رضى الله عنه الأمراء إلى الموسم ، وخلت منهم البلاد ، اتعد المنحرفون عن عثمان أن يثبوا في مغيب الأمراء فلم يتهيا لهم ذلك ، فلما رجع الأمراء كتب بعض أهل المدينة إلى المنحرفين عن عثمان في الأمصار بالقدوم عليهم ، وكان الذين يكاتبون أهل مصر محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر وعمار بن ياسر وسرا أناس من الناس ، كما في رواية ابن عساكر من حديث طويل .

فتكاتبوا من أمصارهم في القدوم على المدينة ، فخرج المصريون وفيهم عبد الرحمن بن عديس البلوى في خمسمائة وقيل في ألف ، وفيهم كنانة بن بشر الليثى ، وسودان بن حمران السكونى ، وميسرة أوقتيرة بن فلان السكونى ، وعليهم جميعاً الغافقى بن حرب العكي . وخرج أهل الكوفة وفيهم زيد بن صوحان العبدى ، والأشتر النخعي ، وزباد بن النضر الحارثى ، وعبد الله بن الأصم العامرى . وخرج أهل البصرة وفيهم حكيم بن جبلة العبدى ،

وذريح بن عباد ، وبشر بن شريح القيسي ، وابن المحرش ، وعليهم حرقوص
ابن زهير السعدي ، وكلهم في مثل عدد أهل مصر . وخرجوا جميعاً في شوال
مظفر بن للحج ، ولما كانوا من المدينة على ثلاث مراحل تقدم ناس من أهل
البصرة وكان هواهم في طلحة ، فنزلوا ذا خثيب وتقدم ناس من أهل الكوفة
وكان هواهم في الزبير ، فنزلوا الأعوص ونزل معهم ناس من أهل مصر ،
وكان هواهم في علي وتركوا عامتهم بذي المروة ، وقال زياد بن النضر وعبدالله
ابن الأصم من أهل الكوفة لا تعجلوا حتى ندخل المدينة فقد بلغنا أنهم
عسكروا لنا فوالله إن كان حقاً لا يقوم لنا أمر . ثم دخلوا المدينة ولقوا
علياً وطلحة والزبير وأمهاث المؤمنين ، وأخبروهم أنهم إنما أتوا للحج وأن
يستعفوا من بعض العمال ، واستأذنوا في الدخول فمنعواهم ، ورجعوا إلى
أصحابهم فتشاوروا في أن يذهب من أهل الكوفة وكل مصر فريق إلى من
هواهم فيه ، وقال كل فريق منهم إن بايعنا صاحبنا وإلا كذبناهم وفرقنا
جماعتهم ثم رجعنا عليهم حتى نبغتهم .

هذا ما أجمع رأيهم عليه من الكيد ، وهو في الظاهر دهاء وتحيل على
نيل المقصود ، إلا أن الحقيقة أن ليس في القوم رجل على بصيرة من الأمر ،
لأذلو فرض أن عثمان رضى الله عنه أصبح غير أهل للخلافة ، ووجب على
الامة خلعه واستبداله بمن هو أقدر منه اتباعاً للمصلحة ومراعاة للشرع ،
أفلا يكون من المصلحة التي يتحراها أولئك الثائرون لأنفسهم ، والامة أن
لا يكون بعد خلعه خلف وشقاق ، وأن تتوجه القلوب إلى مقصد واحد
وجهة واحدة ، حتى بذلك تتم لهم المصلحة ولا يضطرب حبل الدولة بأشد
مما كان فيه من الاضطراب في عهد عثمان ، وإنما يتم لهم ذلك باتفاقهم جميعاً
على من يخلف عثمان ، والقوم يومئذ غايتهم واحدة وهي خلع عثمان ،
برقلوبهم شتى فيمن يخلفه ، وكل فريق منهم يميل إلى شخص بعينه ، فكانهم

مساقون إلى حيث لا يعلمون . لذا فأنهم مع صعوبة الأمر الذى قاموا به وأنه من المراكب الخشنة التى لا يركبها إلا الأقوام ذوو الحياة العالية والشعور الصحيح ، لم يهتدوا إلى طريق الخير والمصلحة التى يتوخاها أهل العقول فى مثل هذه الحال ، فكانوا بعملهم هذا أضر على المرشحين للخلافة ، وعلى الأمة بما جلبوه على الجميع وعلى أنفسهم أيضاً من مصائب الحروب والمنازعات الطويلة التى لما لم تسكن فى بدايتها قائمة على أساس الحكمة والتدبير ، انتهت بتغلب بنى أمية على الملك ، وتحول حال الدولة من الشورى إلى الاستبداد والله الأمر .

هذا وبعد أن اتفق القوم على ما انفقوا عليه ، أتى المصريون علياً وهو فى عسكر عند أحجار الزيت ، وقد بعث ابنه الحسن إلى عثمان فيمن اجتمع عليه وعرضوا على أمرهم : فصاح بهم وطردهم ، وقال إن جيش ذى المروة وذى خشب والأعوص ملعونون على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد علم ذلك الصالحون : وأتى البصريون طلحة والكوفيون الزبير ، فقالوا مثل ذلك : فانصرفوا واقتربوا عن هذه الأماكن إلى عسكرهم على بعد ، وتفرق أهل المدينة فلم يشعروا إلا والتكبير فى نواحيها ، وقد هجموا وأحاطوا بعثمان ونادوا بأمان من كف يده ، وصلى عثمان بالناس أياماً ولزم الناس بيوتهم ، ولم يمتنعوا الناس من كلامه . وغدا عليهم على وقال ما ردكم بعد ذهابكم ، قالوا أخذنا كتاباً مع بريد بقتلنا ، وقال البصريون لطلحة والكوفيون للزبير مثل ما قاله أهل مصر ، وأنهم جاءوا لينصروهم . فقال لهم على كيف علمتم بما لقي أهل مصر ، وكلكم على مراحل من صاحبه ، حتى رجعت علمينا جميعاً ، هذا أمر أبرم بليل . فقالوا اجعلوه كيف شئتم لا حاجة لنا بهذا الرجل ليعتزلنا ، ثم منعوا الناس من الاجتماع معه ، وكتب عثمان إلى الأمصار يستنجد بهم وينزعهم ما الناس فيه ، فخرج أهل الأمصار على الصعب والنول فبعث عبد الله

ابن سعد من مصر معاوية بن حديج ، وبعث أبو موسى من الكوفة القعقاع ابن عمرو ، وبعث عبد الله بن عامر من البصرة مجاشع بن مسعود السلمي ، وبعث معاوية من الشام حبيب بن مسلمة الفهري ، وقيل إن معاوية ترهب به فقام في أهل الشام يزيد بن الأسد القسري فتبعه خلق كثير ، فسار بهم إلى عثمان ، فلما وصل إلى وادي القرى بلغهم قتل عثمان فعادوا وكذلك الجيوش التي أقبلت من الأمصار لما انتهت إلى الربذة وبلغها قتل عثمان رجعوا جميعاً ، وكان قد قام في الأمصار جماعة كبيرة من الصحابة والتابعين يحرضون على إعاقة أهل المدينة ، وإنجاد عثمان فأجابهم إلى ذلك الناس ولكن أعجلهم المحاصرون فقتلوا عثمان قبل أن يصل أحد إلى نجدة .

ولما جاءت الجمعة القابلة خطب عثمان وقال : يا هؤلاء الله الله فو الله إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد فأحسوا الخطأ بالصواب : فقال محمد بن مسلمة أنا أشهد بذلك فأقعدته حكيمة بن جبلة وقام زيد بن ثابت فأقعدته آخرو حصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد ، وأصيب عثمان بالحصباء فصرع وقاتل دونه سعد بن أبي وقاص ، والحسين وزيد بن ثابت وأبو هريرة ، ودخل عثمان بيته وعزم عليهم بالانصراف فانصرفوا ودخل علي وطلحة والزبير على عثمان يعودونه وعنده نفر من بني أمية فيهم مروان فقالوا لعلي أهلكتنا وصنعت هذا الصنع ، والله لئن بلغت الذي تريد لنمرن عليك الدنيا ، فقام مغضباً وعادوا إلى منازلهم وصلى عثمان بالناس وهو محصور ثلاثين يوماً ، ثم منعوه الصلاة وصلى بالناس أمير المصريين الغافقي ، وقيل أبو أيوب الأنصاري وقيل سهل بن حنيف حتى قتل عثمان .

وقد قيل في قتل عثمان إن محمد بن أبي بكر ومحمد بن أن حذيفة كانا بمصر يحرضان على عثمان ، فلما خرج المصريون مظهرين للحج خرج معهم محمد

ابن أبي بكر وسار على آثارهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح فلما كان عبد الله بأيلة (العقبة) بلغه أن ابن أبي حذيفة غلب على مصر ، فرجع سريعا إليها فمنع منها ، فأتى فلسطين وقيل عسقلان وأقام بها حتى قتل عثمان وقيل إنه اعتزل الفتنة فلم يدخل فيما دخلت فيه قریش والعرب بعد حتى مات .

أما المصريون فلما نزلوا ذا خشب ، جاء عثمان إلى بيت علي ومث (توسل) إليه بالقرابة في أن يركب إليهم ويردهم لئلا يظهر الجرأة منهم : فقال له قد كلمتك في ذلك فأطعت أصحابك وعصيتني : يعني مروان ومعاوية وابن عامر وابن أبي سرح وسعيد بن العاص : فعلى أى شيء أردتهم فقال علي أن أصير إلى ما تراه وتشيره ، وأن أعصى أصحابي وأطيعك ، فركب علي في ثلاثين من المهاجرين والأنصار فأنوا المصريين وتولى الكلام معهم علي ومحمد بن مسلمة ، فرجعوا إلى مصر ورجع القوم إلى المدينة ودخل علي عثمان وأخبره برجوع المصريين ، وأشار عليه أن يسمع الناس ما عول عليه من النزع قبل أن ينجى غيرهم ، ففعل وخطب خطبته التي ينزع فيها وأعطى الناس من نفسه التوبة وقال : أنا أول من اتبعت أستغفر الله مما فعلت وأنوب إليه ، فملى نزع وتاب فإذا نزلت فليأتني أشرافكم فليروا في رأيهم ، فوالله لأن ردتني الحق عبداً لآسنة بسنة العبد ولأذلن ذل العبد ، وما عن الله مذهب إلا إليه ، فوالله لأعطينكم الرضا ولأنحين مروان وذويه ولا أحتجب عنكم : ثم بكى وبكى الناس حتى اخضلت لحاهم .

أعطى الناس من نفسه الحق ، ووعد بأن ينجى بنى أمية عنه ، وهذا كل ما يطلبه منه الناس ، وكادت تطفأ نار الثورة وتزول أسباب الإرجاف لكن بنى أمية قد استحوذوا على عثمان ، وملكوا منه الجنان ، لكبر سنه وضعفه

فلم يرقهم ما قال ووعد ، فلما دخل منزله جاءه نفر منهم فيهم مروان وسعيد فعذبوه في ذلك ، فوبختهم نائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان وقالت لهم ، لا تزالون به حتى يقتلوه ، فلم يرجعوا إلى قولها واستدلوهم في إقراره بالخطبة والتوبة عند الخوف ، واجتمع الناس بالباب وقد ركب بعضهم بعضاً ، فقال لمروان كلمهم ، فكلمهم وأغلظ لهم في القول ، وقال جئتم لنزع ملكنا من أيدينا ، والله لئن رمتونا ليرن عليكم منا أمر لا يسركم ، ولا تحمدوا غب رأيكم ، ارجعوا إلى منازلكم فإننا والله ما نحن بمغلوبين على ما في أيدينا .

هكذا كان عثمان رضى الله عنه بين عدو في الداخل يشير عليه تأثره النفوس ، وبين عدو في الخارج يتربص به العثرات ، ويحس من بطائنه بالخطر على الخلافة الشرعية ، والنزوع إلى الاستئثار بالسلطة ، وحسبك من حقد القوم على بطائنه من بنى أمية ماذكروه أن عثمان مر مرة بجبله ابن عمرو الساعدي وهو في نادي قومه وفي يده جامعة ، فسلم فرد القوم عليه ، فقال جبله لم تردون على رجل فعل كذا وكذا ، ثم قال لعثمان والله لأطرحن هذه الجامعة في عنقك أو لتتركن بطانتك هذه الخبيثة ، مروان ، وابن عامر وابن أبي سرح ، فنهزم من نزل القرآن بذمه ومنهم من أباح رسول الله دمه هـ .

والعجيب أن بنى أمية يرون الشر المقبل عليهم وعلى عثمان من التصاقهم به ، واقتطاعهم الأمور دونه ويسمعون من الناس مثل هذا الكلام ولا يرفقون بعثمان وبأنفسهم وبالمسلمين ، ويسلكون في هذا الأمر مسلك الحكمة والاعتدال ويرقبون عن بعد حالة الفتنة حتى إذا تحقروا الخطر على عثمان دفعوا عنه بما في الإمكان ، وما نخال الفتنة تصل إلى هذا الحد لو كان بنو أمية بعيدون عن عثمان

هذا وبلغ خبر ما قال مروان علياً فنسكر ذلك ، وقال لعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث . أسمعته خطيبته بالأمس ومقالة مروان للناس اليوم ، يا لله وللناس إن قعدت في بيتي قال تركتني وقرابتي وحقى ، فإن تكلمت بنجام ما يريد يلعب به مروان ويسوقه حيث يشاء بعد كبر السن وصحبة الرسول وقام مغضباً إلى عثمان فقال له : أما رضيت من مروان ورضى منك إلا بتحرفك عن دينك وعن عقلك ، مثل جمل الطعينة يقاد حيث يشاء ربه . والله ما مروان بذى رأى في دينه ولا نفسه . وإيم الله لئن لأراه يوردك ولا يصدرك . وما أنا عائد بعد مقامى هذا لمعانتك أذهبت شرفك . وغلبت على رأيك ، ثم دخلت عليه امرأته نائلة وقد سمعت قول على ، فعذلت في طاعة مروان ، وقالت إنما تركت الناس لمكانه ، فأرسل إلى على فاستصلحه . فبعث إليه فلم يأته فأتاه عثمان إلى منزله يستلينه ويعدده الثبات على رأيه معه فقال على بعد أن قام مروان على بابك يشتم الناس ويؤذيهم . تفرج عثمان وهو يقول خذلتني وجرأت الناس على . فقال على : والله إنى أكثر الناس ذباً عنك ، ولكنى كلما جئت بشيء أظنه لك رضا جاء مروان بأخرى فسمعت قوله وتركت قولى : ولم يعد على يعمل ما كان يعمل إلى أن منع عثمان الماء فغضب وأمر بادخال الروايا على عثمان .

والحق يقال إن على بن أبى طالب مع يقينه من مصير الخلافة إليه بعد عثمان ، فإنه لم ياله نصحاً ولم يرضن عليه بمد يد المعونة له والذب عنه ، ومهما كان في نفس على من جهة بنى أمية وعثمان ما فيها ، فإن شيمه الجميلة وغلبة الفضيلة على رغائبه النفسية جعلته أقرب في مشربه السياسى إلى الاعتدال ، وأرأف من بقية المهاجرين بعثمان ، وكان عثمان يعلم ذلك ويأنس بمشورة على أكثر من غيره ، يدلك على هذا ما ذكره في بعض الروايات أن علياً كان عند حصر عثمان بخيبر ، فاشتد الطمن بعد خروجه على عثمان ، ورجا

الزبير وطلحة أن يميلا إليهما قلوب الناس ويغلبا عليهم واغتما غيبة علي .
فكتب عثمان إلى علي .

أما بعد فقد بلغ السيل الزبني ، وجاوز الحزام الطبيين ، وارتفع أمر
الناس في شأني فوق قدره ، وزعموا أنهم لا يرضون دون ذي ، وطمع في
من لا يدفع عن نفسه .

ولأنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب
وقد كان يقال أكل السبع خير من افتراس الثعلب ، فأقبل على أولى
فإن كنت ما كولا فكن أنت آكلي وإلا فأدركني ولما أمزق

ولما جاء علي إلى المدينة وجد الناس مجتمعين عند طلحة ، وقدم عليه عثمان
وقال له ، أما بعد فإن لي حق الإسلام . وحق الإخاء والقرابة والصهر . ولو
لم يكن من ذلك شيء وكنا في الجاهلية لكان عاراً علي بنى عبد مناف أن
يفترع أخو بني تيم (يعني طلحة) أمرهم : فقال له علي سيأتيك الخير ، ثم
خرج إلى المسجد فرأى أسامة فتوكأ على يده حتى دخل دار طلحة وهو في
خلوة من الناس . فقال له يا طلحة ما هذا الأمر الذي وقعت فيه ، فقال
يا أبا الحسن بعد ما مس الحزام الطبيين . فأنصرف علي إلى بيت المال وأعطى
الناس ، فأنصرفوا عن طلحة وسر بذلك عثمان ، وجاء إليه طلحة تائباً .
فقال والله ما جئت تائباً ولكن جئت مغلوباً فآله حسبيك يا طلحة .

وذكروا سبباً آخر لعود المصريين وحصار عثمان ، وهو أن عبد الله
ابن سعد بن أبي سرح ضرب رجلاً ممن كانوا شكوه إلى عثمان حتى قتله ،
فركب المصريون إلى المدينة وبسطوا الأمر لكبار الصحابة ، فاجتمعوا على
عثمان وألحوا عليه في إناصاف القوم من عامله ، فقال لهم اختاروا رجلاً أوله
عليهم فقالوا استعمل محمد بن أبي بكر فكتب عهده ، وولاه ، وخرج معه

عدد من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بين ابن أبي سرح وأهل مصر ،
وبينما هم على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة رأوا راكباً يدنو منهم ويبتعد عنهم ،
فقبضوا عليه وسألوه ، فقال أنا غلام أمير المؤمنين وجهني إلى عامل مصر ،
وقيل بل كان الذي قبضوا عليه ليس بغلام عثمان ، وقيل إنه أبو الأعور
السلمي ففتشوه فوجدوا معه أنبوبة رصاص وفيها كتاب إلى عامل مصر ففتحوه
فإذا فيه : إذا أناك محمد بن أبي بكر وفلان وفلان فافتلهم وأبطل كتابهم وأقر
على عملك حتى يأتيك رأيي .

وسواء صح خبر ولاية محمد بن أبي بكر على مصر أو لم يصح ، فإن
المصريين لما أخذوا الكتاب وفيه الأمر بقتل بعضهم أو جلدهم رجعوا ورجع
السكريون والبصريون ، وقرأوا الكتاب في محضر من الصحابة ، وقام على
ومحمد بن مسلمة فأتيا عثمان وقالاه ما قال المصريون : فأقسم بالله ما كتبه
ولا علم به : فقال محمد بن مسلمة صدق هذا من عمل مروان : ودخل عليه
المصريون فلم يسلموا عليه بالخلافة فعرف الشر فيهم . وذكر ابن عديس
ما فعل ابن أبي سرح بالمسلمين وأهل الذمة والاستئثار بالغنائم ، فإذا قيل له
في ذلك قال هذا كتاب أمير المؤمنين ، ثم ذكروا له أمر الكتاب خلف أنه
ما كتبه ولا علم له به ، وسألوه عن كتبه فقال لا أدري ، فقالوا كيف
يكتب بمثل هذه الأمور المظيمة وينقش عليها خاتمك ، وأنت لا تعلم فإن
كنت كاذباً فقد استحققت الخلع ، وإن كنت صادقاً فقد استحققت أن تحلح
نفسك لضحكك عن هذا الأمر وغفلتك وخبت بطاعتك ، ولا ينبغي لنا أن
نترك هذا الأمر بيد من تقطع الأمور دونه فاخلع نفسك كما خلعك الله :
فأجابهم عثمان أني لا أنزع قيصاً ألبسنيه الله ولكني أتوب وأنزع :
قالوا لو هذا أول ذنب تبت منه قبلنا ، لكننا رأيناك تتوب ثم تعود ، ولسنا
منصرفين حتى نخلعك أو نقتلك ، أو تلحق أرواحنا بالله تعالى ولما منعك
أصحابك فقاتلهم حتى نخلص إليك اهـ .

سبب امتناع عثمان عن اعتزال الخوفاة :

هذا آخر سهم في المنزع وآخر الجذ في أمر الفتنة ، وقد رأى ذلك عثمان وأحس به . وتوالت عليه النذر بحصوله ، فلم يذبح عن الخلافة وفضل القتل على ترك ذلك المنصب الرفيع ، لاحقاً بالرياسة على ما يظهر ، إذالرياسة المشوبة بمثل ذلك الكدر المحاطة بتلك المنغصات المفضية إلى إزهاق النفس لا تحب ، وليست بما يحرص عليه ، وإنما هو امتنع عن اعتزال المنصب لسبب من ثلاثة أسباب (إما) لضعف الإرادة الناشئة عن كبر السن (وإما) خوفاً من أن يتهم نفسه بالزول فيسجلون عليه ما لثم به من الأحداث مع اعتقاده أنه لم يستحل محرماً فيما فعل (وإما) عملاً برأى مروان وأضرابه من الأمويين الذين لا يرون لأنفسهم حقاً بالتقدم في أمور الملك والدولة ، إلا إذا انتضى السيف وأهريق الدم مادام غيرهم من المهاجرين وأهل السابقة في الإسلام موجودين ، وإليهم ينتهي المسلمون في الاختيار والمشورة وتسليم أزمة الرياسة ، ولا أرى لمتنع عثمان عن ترك الأمر سبباً غير أحد هذه الثلاثة أسباب والله بالحقيقة عليم .

عودة إلى ما نحن بهرده

لما أبى عثمان أن يخلع نفسه جد القوم في حصاره ، ولو كان لهم رغبة في قتله من مبدأ الأمر لقتلوه ، وخرج في أثناء الحصار أناس كثيرون عن المدينة ، ونصح بعضهم عثمان بالخروج فأبى (١) ، وكتب للولاء يستعدهم

(١) جاء في حديث رواه ابن عساكر أن القوم دخلوا واستولوا على المدينة ، كتب عثمان إلى الناس يستعدهم في أمصارهم ويخبرهم الخبر ، فخرج عمرو بن العاص من المدينة متوجهاً نحو الشام فقال يا أهل المدينة والله لا يقيم بها أحد فيدركه قل هذا الرجل ، إلا ضربه الله بذل من لم يستطع نصره فليهرب ، فسار إلى فلسطين وخرج معه ابنه محمد وعبد الله ، وخرج بعده حسان ابن ثابت وتابع الناس على الخروج وروى عن عبد الله بن مروان عن المغيرة بن شعبة أنه

وصار بينه وبين القوم أخذ ورد ، رأوا بعده أن يمنعوا عنه الماء وكل صلة له بالناس تضيقاً عليه ، لعله يذعن لطلبهم دون سفك دم ، وكان ذلك التصديق بإشارة من طلحة ، إذ ذكر الطبري أن القوم كانوا ببابه يتماجون ، فمنهم من يقول اقتلوه ومنهم من يقول انظروا على أن يراجع ، فر طلحة فقام إليه ابن عديس فتأجاه ثم رجع ابن عديس فقال لأصحابه لا تتركوا أحداً يدخل على عثمان ولا يخرج من عنده . فقال عثمان وقد كان يرى ماوراء بابه ، هذا ما أمر به طلحة . اللهم اكفني طلحة . فإنه حمل على هؤلاء وألهمهم عليّ ، والله إنى لأرجو أن يكون منها هفرف أو أن يسفك دمه .

وكان القوم بلغهم مسير من سار إليهم من الأمصار ، فكانوا كلما حاولوا الدخول على عثمان منعهم من ذلك الحسن والحسين ابنا عليّ ، ومحمد بن طلحة ، وابن الزبير ، وكثير من أبناء الصحابة جزاهم الله عنه خير الجزاء ، وكانوا ربما قاتلوهم وقتلهم معهم أبو هريرة ، وسعيد بن العاص ، ومروان وكثير من الصحابة حتى ضربوا مروان وقطعوا له عرقاً من نروقه ،

== دخل على عثمان وهو محصور فقال : إنك أمام العامة وقد نزل بك مانرى ، ولما أعرض عليك خصالاً ثلاثاً اختر إحداهن : إما أن تخرج فتقتلهم ، فإن معك عدداً وقوة وأنت على الحق وهم على الباطل : وإما أن نخزق لك باباً سوى الباب الذى هم عليه فتعبد على رواحلك فتلحق بمكة ، فإنهم لن يستحلوك وأنت بها : ولما أن تلحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية : فقال عثمان . أما أن أخرج فأقاتل فلن أكون أول من خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته يسفك الدماء . وأما أن أخرج إلى مكة فإنهم لن يستحلوني بها فلن سميت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يلحد رجل من قريش بمكة يكون عليه نصف عذاب العالم ، فلن أكون أنا . وأما أن ألحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية فلن أفارق دار هجرتي ومجاورة رسول الله صلى الله عليه وسلم اهـ .

وهذا منتهى الاستسلام من عثمان رضى الله عنه ، ومن كان هذا شأنه فبأن يوصف بسلامة الصدر والرضا بالقضاء أولى منه أن يوصف بالاستبداد والأثرة ، إذ المستبد لا يبالي أن يلجأ إلى القوة والحيلة ، ويستعمل نهاية الحزم في دفع الأذى عنه ولا يمنعه عن مقاصده مانع ولو بسفك الدماء فأمر عثمان هذا مع اتفاق جمهور عظيم من أهل عصره على الشكوى منه ، يترك الباحث في حيرة لا يدري كيف يحكم وماذا يقول .

واحتمل وهم يظنون أنه مات كل هذا وعثمان لم يأمرهم بقتالهم ، بل كان ينهاهم عنه ، فلما طال عليهم الأمر وخافوا وصول المدد ، ويشسوا من تسليم عثمان لهم بالأمر ، ورأى محمد بن أبي بكر أن الحسن أصيب بجراح ، وخشى من أن يراه بنو هاشم فيأتوا ويكشفوا الناس . فأمرهم باقتحام الدار من الدور المجاورة فاقتحموها عليه ، من دار عمرو بن حزم ولم يشعر بهم أحد ممن يدافعون عنه على الباب ، وانتدبوا له رجلا يقتله ، فدخل عليه البيت فقال له اخلها وندعك فأبى ، ووعظه نفرج ودخل آخر وآخر كلهم يعظه فيخرج ، ودخل عليه محمد بن أبي بكر فخاوره طويلا ، فاستحيا وخرج ، ثم دخل عليه السفهاء فتولى قتله كنانة بن بشر ، وطعنه عمرو بن الحنق عدة طعنات ، ودافعت عنه نائلة فنفضها أحدهم بالسيف في أصابعها ، وجاء غلمان عثمان فقتلوا من قاتليه سودان بن حمران وغيره . وبلغ الخبر عليا وطلحة والزبير وسعداً ومن كان بالمدينة ، فخرجوا وقد اضطربت عقولهم للخبر الذى جاءهم ، حتى دخلوا على عثمان فوجدوه مقتولا فاسترجعوا ، وقال على لابنيه كيف قتل أمير المؤمنين وأتما على الباب ، ورفع يده فلطم الحسن وضرب الحسين وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير ، وخرج وهو غضبان حتى أتى منزله ، وفى رواية أن علياً كان غائبا عن المدينة لما قتل عثمان : وكان قتل عثمان رضى الله عنه وأخزى قاتليه لثمان عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة (٣٥ هـ) ودفن من ليلته ، وقيل بل بقى فى بيته ثلاثه أيام ثم جاء حكيم بن حرام وجبير بن مطعم إلى على ، فأذن لهم فى دفنه فخرجوا به بين المغرب والعشاء ومعهم الزبير والحسن وأبو جهم بن حذيفة ، فدفنوه فى وحش كوكب وصلى عليه جبير وقيل مروان وحش كوكب قرب البقيع ، وقد كان معاوية أمر فى خلافته بضمه للبقيع فاتصل بمقابر المسلمين .

هذا ما اخترت إيراد من أخبار الفتنة وحصار عثمان وقتله ، وقد تركت شيئا كثيرا من أخباره أيام حصاره فليرجع إليها من شاء فى المطولات

كتاريخ الطبرى ، وابن الأثير ، وابن عساكر وابن خلدون ، والإمامة والسياسة لابن قتيبة ، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، وتاريخ الخلفاء للسيوطى والتمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان ، وهى الكتب التى نقلت عنها أخبار الفتنة .

وكان عمره لما قتل بين الثانية والثمانين والتسعين وخلافته اثنتى عشرة سنة إلا بضعة أيام على قول من قال إنه قتل سنة (٣٥ هـ) وأما على قول من قال إنه قتل سنة (٣٦ هـ) فأكثر والأول أصح .

وقد كان لمحمد بن أبى بكر وطلحة بن عبيد الله أثر غير محمود فى أمر عثمان رضى الله عنه ، وربما اغتفر ذلك لطلحة لأنه كبقية الصحابة الذين كانوا يتربصون بعثمان العزل ولا يظنون أن الأمر يبلغ إلى قتله ، ومهما كان من بعضهم فى هذه الفتنة فإن الدواعى السياسية ساقط بعضهم طوعاً وبعضهم كرها إلى الممالة على عثمان ، رجاء إذهابه لما أجمعت عليه الأفكار من لزوم اعتزاله للأمر كما رأيت فيما سبق ، ولكن أبى رضى الله عنه ورحمه وغفر له إلا الموت ، فأقدم عليه أولئك السفهاء وقتلوه بعد إنذار كثير وجد ظاهر لا يخفى على مثل عثمان ، فذهب شهيداً مبروراً وترك وراءه من الاضطراب فى أمر الدولة والخلافة ما ترك ، ولو اعتزل الخلافة منذ رأى الجند من القوم لما كان ما كان والله الأمر .

وأما محمد بن أبى بكر فقد أخرج ابن عساكر وأبو جعفر الطبرى من رواية سيف عن مبشر قال : سألت سالم بن عبد الله عن محمد بن أبى بكر مادعاه إلى ركوب عثمان ؟ فقال الغضب والطمع . فقلت ما الغضب والطمع ؟ قال كان من الإسلام بالمكان الذى هو به وغره أقوام فطمع ، وكانت له دالة ولزمه حق فأخذه عثمان من ظهره ولم يدهن . فاجتمع هذا إلى هذا فصار مذمماً بعد أن كان محمداً .

شذرات مما يتعلق بمقتل عثمان

وبحث في دخائل الفتنة وكلهت في سبب استمساكه ببني أمية

قد ذكر الرواة والمؤرخون أشياء كثيرة مما يتعلق بالفتنة وقتل عثمان غير ما ذكرناه مما لا يخلو النظر فيها من وجوه العبر والوقوف على شيء من دخائل الفتنة ، فلا ينبغي أن نخلي هذا الكتاب منها بعد أن وعدنا القراء بالتوسع في سيرة عثمان لإجابة لرغائب كثير منهم ، خلافا لما اشترطناه في قاتحة الكتاب من لزوم الاختصار في سيرته وسيرة علي رضي الله عنهما . فمن ذلك ما ذكره عن المكاتبات السرية التي كانت بين الثوار وبعض الصحابة فمنها المختلق ومنها الصحيح ، روى ابن قتيبة في الإمامة والسياسة ، عن حويط بن عبد العزى أنه قال أرسل إلى عثمان حين اشتد حصاره فقال : قد بدا لي أن أتهم نفسي طوًلاً ، فأت علياً وطلحة والزبير فقل لهم هذا أمركم فتولوه ، واصنعوا ما شئتم : فخرجت حتى جئت علياً فوجدت علياً باهه مثل الجبال من الناس ، والباب مغلق لا يدخل عليه أحد ، ثم انصرفت فأتيت الزبير فوجدته في منزله ليس ببابه أحد ، فأخبرته بما أرسلني به عثمان ، فقال قد والله قضى ما عليه أمير المؤمنين هل جئت علياً ؟ قلت نعم فلم أخلص إليه . فقمنا جميعاً فأتينا طلحة بن عبيد الله فوجدناه في داره وعنده ابنه محمد ، فقصصنا عليه ما قال عثمان . فقال قد والله قضى ما عليه أمير المؤمنين هل جئت علياً ؟ قلنا نعم فلم نخلص إليه . فأرسل طلحة إلى الأشر فأتاه : فقال لي أخبره فأخبرته بما قال عثمان ، فقال طلحة وقد دمعت عيونه ، قد والله قضى ما عليه أمير المؤمنين . فقام الأشر وقال تبشرون إلينا وجاءنا رسولكم بكتابكم ، وهاهو ذا وأخرج كتاباً فيه بسم الله الرحمن الرحيم (الخ الكتاب وهو في الإمامة والسياسة فليراجعه من أحب) أليس هذا كتابكم إلينا فبكي طلحة ، فقال الأشر لما حضرنا أقبلتم تعصرون أعينكم

والله لا تفارقه حتى نقتله وانصرف ، وسكوت طلحة عن إنكار هذا الكتاب يدل على صحته إذا صحت الرواية . وأما المختلق فقد روى ابن عساکر والمدائني أن المصريين لما عادوا جاءوا إلى علي وقالوا له قم معنا إلى عثمان ، فقال والله لا أقوم معكم . قالوا فلم كتبت إلينا ؟ قال والله ما كتبت إليكم كتاباً . فنظر بعضهم إلى بعض وخرج علي من المدينة ، وفي رواية الأعمش ونقلها صاحب العقد الفريد عن عيينة عن مسروق قال قالت عائشة مصتموه (١) موصل الإناء حتى تركتموه كالثوب الرخص (٢) نقياً من الدنس ثم عدوتم فقتلتموه . فقال لها مروان هذا عمالك كتبت إلى الناس تأمرينهم بالخروج عليه ، فقالت والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم بسواد في بياض حتى جلست في مجلسي هذا : قال فكانوا يرون أنه كتب على لسان علي وعلى لسانها كما كتب أيضاً على لسان عثمان مع الأسود إلى عامل مصر . فكان اختلاق هذه السكت كلها سبباً للفتنة .

ولا جرم أن لهذه السكت أثراً كبيراً في إشعال نار الفتنة ولكن من هو مصدرها ومن هم المختلقون لها ؟ هذا ما لا يظهر إلا للمنقب في سيرة عثمان ، الواقف على مقاصد الأحزاب الكثيرة ، التي كانت تسمى في إضرار نار الثورة فلاني أمية حزب وطلحة حزب ، ولزبير مثل ذلك ، ولعلي مثله أيضاً ، وكان حزب علي أشدهم تشيعاً له وضمعاً في مصير الخلافة إليه ، ومنهم محمد بن أبي بكر وابن جعفر وعمار بن ياسر الذي كان شديد الخب لعل ، شديد التأليب على عثمان والتحريض عليه . نقل في العقد أن سعد بن أبي وقاص قال لعمار بن ياسر لقد كنت عندنا من أفاضل أصحاب محمد حتى لم يبق في عمرك إلا ظمء الخمر (٣) فعلت وفعلت (يعرض له بقتل عثمان) ، فقال عمار أي شيء أحب إليك مودة علي أو هجر جميل ؟ قال هجر

(١) الموصى الغسل اللين (٢) المنسول

(٣) أي يسير لأنه ليس شيء أقصر ظمأ منه

جميل . قال فله على أن لا أكلك أبداً : وروى ابن حزم في الملل والنحل أن عماراً كان ممن يقول بالتفضيل أى تفضيل على الثلاثة : وناهيك بابن السوداء ومقاتله فى على أيضاً ، ومن أخذ برأيه من جفاة الأعراب الذين قل أن يفهموا من الدين شيئاً ، ينهى ضنائهم عن الاستسلام لمثل مقالة ابن السوداء الذى يشكرها على نفسه ويبرأ إلى الله منها ، وقد علمت بما قرناه فيما سبق أن تغير القلوب على عثمان بسبب استشاره بأمور الأمة وانقطاع بنى أمية إليه ساعد المرشحين للخلافة بعده على الجهر مع الناس فى الإنكار عليه توصلنا لنزع الخلافة منه وإبعاد الأمويين عنه ، ولهم فى ذلك شبه عذر مادام ليس لهم رأى فى قتل عثمان ، فلما رأى منهم أحزابهم الميل إلى آرائهم فى الإنكار عليه ، أخذ كل حزب يمد لصاحبه سبيل الوصول إلى الخلافة بمثل الإنكار الشديد ، وبث روح القيام على عثمان على الوجه الذى تقدم شرحه ، وربما تجاوز بعضهم الأمر إلى اختلاق مثل تلك الكتب على غير علم من تكتب على لسانهم ، رغبة فى استمرار الفتنة ، وتوكيداً لأهل الأمصار لرضا وجوه الصحابة بالقدوم لخلع عثمان ، لكن بسبب الصلة المعنوية التى كانت بين المرشحين للخلافة وبين أحزابهم كان بعض كبار الصحابة لا يخلونهم من التبعة فيما وقع لعثمان ، فى العقد من رواية العتيبي عن رجل من ليث قال . لقيت الزبير قادمًا فقلت أبا عبد الله ما بالكَ ؟ قال مطلوب مغلوب يعلمنى ابنى ويطلبنى ذنبى : قال فقدمت المدينة فلقيت سعد بن أبى وقاص فقلت يا أبا إسحاق من قتل عثمان ؟ قال قتله سيف سلته عائشة ، وشحذه ضاحه ، وسمه على . قلت فما بال الزبير ؟ قال أشار بيده وصمت بلسانه :

(وفى العقد أيضاً) قال حسان بن ثابت لعلى إنك تقول ما قتلت عثمان . ولكن نخذله . ولم آمر به ولكن لم أنه عنه . فالخاذل شريك القاتل . والساكت شريك القاتل .

وأنت ترى من هذا أنهم إنما يعرضون بمثل هذا التعريض بهؤلاء ، لأن
لأحزابهم والمقرين منهم دخلاً في قتل عثمان ، وقل ما تبرأ شيعتهم لاسيما
شيعة علي من الممالة على قتل عثمان كما يتبرأ منه علي وإخوانه ، أخرج
ابن عساكر عن الشعبي قال لقي مسروق الأشتر ، فقال مسروق للأشتر قتلتم
عثمان : قال نعم ، قال أما والله لقد قتلتموه صواماً قواماً ، قال فانطلق الأشتر
فأخبر عماراً ، فأتى عمار مسروقاً فقال والله ليجلدن عماراً وليسيرن أبا ذر
(يعني إلى الربرة) ، وليحمين الحى وتقول قتلتموه صواماً قواماً . فقال له
مسروق فوالله ما فعلتم واحدة من اثنتين : ما عاقبتم بمثل ما عاقبتم به .
وما صبرتم فهو خير للصابرين . قال فكأما ألقمه حجراً .

وهذا يدل أيضاً على أنهم كانوا يعتقدون أنهم غير مخطئين في قتل عثمان ،
والناس في هذا في خلاف كبير كما سترى بعد ، وأما علي وإخوانه فإنهم
كانوا لا يرون قتله ولا يريدونه البتة ، وإنما هم كانوا يرون وجوب عزله
فقط ، فغلبوا على أمرهم الكثرة ما كان يدسه الشيع والأحزاب على عثمان ،
وما يدل على أنهم غلبوا على أمرهم مارواه الطبري من أن عثمان أرسل إليه
على وطلحة والزبير وعائشة يخبرهم بما هو فيه من الحصار ، وعدم وجود
الماء عنده فبادر على إليه وأنب المحاصرين على منعه الماء ، وقال لهم بهم
تستحلون حصره وقتله ؟ فقالوا لا والله ولا نعمة عين لا نتركه يأكل ولا يشرب
ومنعهوا علياً عن الدنو منه ، فجاءت أم حبيبة زوج النبي ﷺ على بغلة تحمل الماء
فمنعوها وأهانوها ، وطلب مروان إلى عائشة أن تبقى في المدينة وقد كانت
عزمت على الشخوص إلى مكة فأبوت ، وخافت أن يصنع بها كما صنع بأُم حبيبة ،
وفرت إلى مكة وبلغ طلحة والزبير مالتى على وأم حبيبة فلزموا بيوتهم ،
كل هذا لما غلبوا على أمرهم وخرج الأمر من يدهم .

والظاهر من مجمل ما ذكره من أخبار الفتنة أن علياً كان أقدر الناس .

على الدفع عن عثمان لو شاء ، لأن أكثر القائمين بها من شيعة و حزبه .

وربما تطرف بعضهم بالاعتقاد لهذا السبب أن لعلى يداً شديدة في التأليب على عثمان ، والحقيقة أن الأمر ليس على ظاهره ، إذ على سيق إلى ماسيق لإيه القوم بحكم الضرورة والمتابعة ، فلما استعصى أمر الفتنة خرج عن طوقه تسكين الثأر ولم يوانه حزبه على ما يريد ، والذي ألصق كثيراً من دخائل الفتنة بعلى هم الشيعة لما أكثروه من الحط على عثمان ، توصلاً بزعمهم لتبرير عمل على في القيام على عثمان ، ولقد دسوا على على رضى الله عنه أخباراً كثيرة من هذا القبيل ، كقوله لما سئل مرة عن عثمان (الله قتله وأنا معه) وغير هذا من الأخبار التي يأتي تصديقها العقل السليم ، بالإضافة إلى ما عرف عن على من حب الفضيلة وعلو النفس ، ولأنها تنافي ما رواه الثقات من الأخبار الكثيرة في براءته من دم عثمان ، ولو أردنا أن نستقصى ما جاء من الروايات التي تدل على براءة على خاصة من قتل عثمان لاحتاج ذلك إلى كتيب مخصوص فنجتزئ عنها بما يأتي :

روى ابن عساكر عن طاوس عن ابن عباس قال : قال على ما أمرت ولا قتلت ولكي غلبت : وروى عن قيس بن عباد قال سمعت علياً يوم الجمل يقول : اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان ، لقد طاش عقلي يوم قتل عثمان وأنكرت نفسي ، وجاءوني للبيعة فقلت والله إني لأستحي من الله أن أباع قوماً قتلوا رجلاً ، قال له رسول الله ألا أستحي من تستحي منه الملائكة : وإني لأستحي من الله أن أباع وعثمان قتيل في الأرض لم يدفن بعد فأنصرفوا فلما دفن رجوع الناس يسألونني البيعة فقلت اللهم إني لمشفق مما أقدم عليه . ثم جاءت عزمة فبايعت فلما قالوا أمير المؤمنين فكأنما صدع قلبي : وأخرج من طرق عن أبي جعفر الأنصاري قال ، شهدت الدار يوم قتل عثمان فررت في المسجد فإذا رجل في ظلة النساء محتب سيفه عليه ، عمامة سوداء ،

فاذا على قال ما صنع بالرجل ؟ قلت قتل . قال تباً لكم آخر الدهر .

هذا قليل من كثير مما جاء في براءة على من دم عثمان ، ولا شك أيضاً أن إخوانه طلحة والزبير مثله في البراءة من هذا الإثم ، إلا أن أشياهم دفعوا إلى هذه الفتنة بالعوامل السكثيرة التي كانت قائمة يومئذ ، وما كانوا يشكرون عليهم لاعتقادهم بأن عثمان مخطئ في بعض الأمور التي أتاها وإن كان هو لا يعتقد خطأه بشيء من ذلك ، لذا ترى كل ما جاء من الأخبار عن الفتنة بجمعة على رضاهم وتحريض بعضهم عليه ، وكان أشدهم عليه طلحة بن عبيد الله وأهونهم الزبير^(١) كما رأيت فيما تقدم ، وكان عثمان كما مر مع تحققة من أن علياً

(١) أخرج ابن عساكر عن موسى بن عقبة عن أبي حبيبة قال ، لما حضر عثمان جاء بنو عمرو بن عوف إلى الزبير ، فقالوا يا أبا عبد الله نحن نأثيك ثم تصير إلى ما تأمرنا به ، قال فأرسلني الزبير إلى عثمان فقال أقره السلام ، وقل يقول لك أحرك لأن بني عمرو بن عوف جاءوني ووعدوني أن يأتوني ، ثم يصيرون إلى ما أمرتهم به ، فإن شئت أن آتيك فأكون رجلاً من أهل الدار يصيبني ما يصيب أحدهم ، فقلت ، ولأن شئت انتظرت مبعاد بني عمرو فأدفع بهم عنك فقلت ، قال فدخلت عليه (يعني على عثمان) فوجدته على كرسي ذي ظهر ، ووجدت رباطاً مطروحة ، ومراكن مغلوة ، ووجدت في الدار الحسن بن علي ، وابن عمر ، وأبا هريرة ، وسعيد بن العاص ، ومروان ابن الحَكَم وعبد الله بن الزبير ، فأبلغت عثمان رسالة الزبير ، فقال الله أكبر الحمد لله الذي عصم أخى ، قل له لأنك لأن تأت الدار تكون رجلاً من المهاجرين حرمتك حرمة رجل ، وعناؤك عناء رجل ، ولكن انتظر مبعاد بني عمرو بن عوف فعسى الله أن يدفع بك . قال فقام أبو هريرة فقال : أيها الناس لقد سمعت أذناني رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تكون بعدى نين وأحداث : فقلت وأين النجاء منها يا رسول الله . قال الأمير وحزبه : وأشار إلى عثمان . فقال القوم ائمنوا لنا فلنقاتل ، فقد أمكنتنا البصائر . فقال (أى عثمان) عزمتم على أحد كانت لي عليه طاعة ألا يقاتل . قال فبادر الذين قتلوا عثمان مبعاد بني عمرو بن عوف فقتلوه اهـ . ولما أوردنا هذا الحديث لمسا فيه من الأدلة على أن الزبير كان أهون على عثمان من غيره ، وإن قيل لأنه من المنكرين على عثمان

أرأفهم به ، وأخفهم وطأة عليه ، يعرف منه انحرافه عنه ، وعدم رضاه عن عمله ورغبته فيما كان من الأمر (مادون القتل) ، يدلك عليه ما نقله في العقد عن أبي رافع قال : قال زيد بن ثابت رأيت علياً مضطجعاً في المسجد فقلت أبا الحسن إن الناس يرون أنك لو شئت رددت الناس عن عثمان . فجلس ثم قال والله ما أمرتهم بشيء ، ولا دخلت في شيء من شأنهم ، قال فأثبت عثمان فآخبرته فقال .

وحرق قيس قيس على البلا د حتى إذا اضطربت أحجها

وقد كان كثير من الصحابة من شهد الفتنة أو لم يشدها ، منهم من سكت ، ومنهم من حرض ، ومنهم من لم يدفع عن عثمان ، وكلهم راض من الثائرين عليه بمادون القتل ، حتى إذا قتل استعظموا ذلك ، وأكبروه وعدوه ظلماً ، كما استعظمه علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن عباس . فقد أخرج ابن عساکر من طرق عن ابن عباس أنه قال : لو لم يطلب الناس بدم عثمان لرموا بالحجارة من السماء : وفي رواية لأبي الحسن المدائني نقلها في العقد قال كان ابن عباس يقول ليغلبن معاوية وأصحابه علياً وأصحابه لأن الله تعالى يقول (ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً) ويريد ابن عباس بالولي معاوية لأنه المطالب بدم عثمان . وذكر الطبري عن حذيفة بن اليمان أنه لما قفل من غزاته في بلاد الترك ولقيه مقتل عثمان قال اللهم امن قتله وشتمه . اللهم إنا كما نعاتبه ويعاتبنا فاتخذوا ذلك سلباً إلى الفتنة ، اللهم لا تمتهم إلا بالسيوف . ومن حديث أنزهرى قال لما قتل مسلم بن عقبة أهل المدينة يوم الحرة قال عبد الله بن عمر : بفعلهم في عثمان ورب السكبة .

بقي أن يقال إن عثمان رضى الله عنه هو الذى جراً القوم على القيام عليه ، ثم قتله بإصراره على ما أنكروه عليه أولاً ، ثم بعدم اعتزاله منصب الخلافة ثانياً ، بعد أن رأى ما رأى من الشر في وجوه القوم ، فأما الأمر الثانى

فقد ذكرت فيما سبق رأى في إصراره عليه . وأما الأمر الأول فإصراره على ما أنكر عليه ينحصر على ما أرى في تقريبه بنى أمية منه ، وإعطاء ذوى قرابته ولايات الأمصار ، وما عدا هذا من الأحداث التى عدوها عليه ، فمنها ما تاب عنه ومنها ما لا يؤخذ عليه فى الحقيقة ونفس الأمر ، لأن كله أو جلها مما يعتذر عنه ، أما لإفضاؤه إلى بنى أمية بأموره دون غيرهم من أهل الشورى والسابقين واستشارهم بالسلطة ، واقتطاعهم الأمور دونه ، فهو الأمر الذى اهتزت له أعصاب المهاجرين ، وحذر عاقبته عقلاء المسلمين ، خوف اضطباع الدولة بالصيغة الأموية كما بسطنا هذا فى محله فيما مر . ويدلك عليه كثرة ما كان يؤنبه بعضهم فى شأن بطاقته من الأمويين ، ومع تأكد عثمان من عدم رضا المسلمين عن استسلامه لأولئك النفر من أهله وعشيرته ، وإن أكثر ما أهاج المسلمين عليه تسلط هؤلاء عليه واستشارهم بالأمر الذى لم يكن لهم خاصة بل هو لكل المسلمين ، لا سيما لأولى الصداقة منهم والمهاجرين ، فقد كان حريصاً على أن لا يتخلى عنهم ولا يجيب ملتزم الأمة فيهم ، وليس لهذا الإصرار على ما يظهر لنا من سبب إلا أحد أمرين : إما لأن قومه استلنوا جانبه واستضعفوه فغلبوا على رأيه فيهم : ولما أنه أحس منذ عهد عمر للستة ووقع الاختيار عليه بظهور تحزب بين القوم ، وتشيع يجر إلى الاختلاف عليه والكميد له نفشى إن هو انفرد عن قومه وقاطع أهله وعشيرته ، أن يتوثب عليه عمال الأمصار ، فلا يجد دون أهله عاصماً مما يأتية من قبل المتوثبين عليه ، فاستمسك بذوى قرابته وولاهم على الأمصار ، فلما كثر الإرجاف بهم والطعن عليهم ورغب إليه الناس فى عز لهم زاد به القلق من جهة ما كان يخامره من الشك فى الشيع ، فولى شكايتهم ظهره ، وأصر على بقاء الولايات فى ذوى قرابته وركن إليهم واعتمد فى الأمور عليهم ، فكانت له ولهم أثره أنكرها عليه الصحابة وعلى ولاته أشد الإنكار ، وتذرع الناثرون عليه بتلك الأحداث إلى خلعه تخلصاً من سلطان أهله ، وكانت الأثرة هى السبب الأول فى استفحال

أمر الفتنة التي لما استعرت نارها، واشتد أوارها، أصبح لإطفائها خارجاً عن طوق كبار للصحابة، وقادة الناس، وربما ندموا حينذاك على ما تقدم، ولات ساعة مندم. أخرج ابن عساكر عن الأوزاعي أنه قال: قيل لعلي بن أبي طالب أفتقتل عثمان منافقاً، قال لا ولكنه ولي فاستأثر، وجزعنا فأسأنا. وكل سير جمع إلى حكم عدل. فإن تمكن الفتنة أصابتنا أو خبطتنا فبما شاء الله.

هذا وأما الداعي إلى قيام هذه الأحزاب في خلافة عثمان وسبب افتراق القوم وانقسامهم، فهو كما قال معاوية لابن حصين جعل عمر الشورى إلى ستة نفر، رأى كل شخص نفسه أنه أحق بها من غيره، فتطلع إليها وصار له حزب يريد عليها، ولما أخذها عثمان بقي في أنفسهم ما بقي، ثم ما زالت تنمو هذه الرغبة في نفوسهم، وتعظم أحزابهم، حتى انفجر بركان الأحزاب، وطم ذلك العباب، فأفضى إلى التغالب لعدم تقيد الأمر بالشورى الصحيحة منذ أول خلافة كان، كما بسطنا الكلام على هذا في فصل الخلافة والدين.

هذا ما اخترت بيانه من أخبار الفتنة وأسبابها ودخانها، وقد علمت على كل فصل منها ما رأيته من تلك الأسباب بقدر ما انتهى إليه عقلي وبلغه بحسني واستقصائي، وإني أستغفر الله مما أخطأ به ظني، وسبق إليه قلبي، لأنني لم آت بشيء من عندي، إلا ما كان بطريق الحرس أو الاستنتاج، فإذا صح فهو المطلوب، وإلا فردود على حطئي، لأنني مؤرخ لا جدي فيطلب مني البرهان، بأكثر مما توحيته من البيان، وإما ذلك المطلوب من علماء الدين الذين ينظرون إلى الفتنة من جهة دينية. فيقولون عمل هذا حلال، وعمل هذا حرام، وأما أنا فإني لم أرد في كل ما علمته على أخبار الفتنة إلا الوجهة السياسية والاجتماعية، ولم أحكم على شخص بخطأ أو تصويب إلا فيما يعود على مصالح الأمة الدنيوية وحقوقها السياسية، وأما حقوق الله تعالى فهي بينه وبين خلقه يأخذها من

يشاء ، ويعفو عن يشاء ، وليس أضل عقولا من بعض الفرق الإسلامية التي حصرت النظر من أخبار الفتنة وأشخاصها في الوجهة الدينية ، فقالت هذا استحل وهذا حرم ، وهذا يعاقب وهذا يثاب ، وفاتها أن ما يتعلق بحقوق الله فله وأما ما يتعلق بالمسلمين فالمسلمين ، وليس لهم أن يحكموا على شخص يقول ربى الله إلا بالخطأ إذا أخطأ ، وبالصواب إذا أصاب هذا فيما يتعلق بأمور الأمة الدنيوية ، وحياة الدولة السياسية . وأما الحكم على هذا بالكفر ، وهذا بالإيمان مع ثبوت أنهم جميعاً من الموحدين ، فذلك محض افتراء وفضول إذ الحكم في هذا راجع إلى الله سبحانه وتعالى ، وهو المطلع على السرائر ويعلم ما تكنه الصدور ، وأن مما أضاع تاريخ هذه الأمة المملوء بالعبر لاسيما تاريخ الصدر الأول ، جعل كل حوادثه الكبرى دينية محصورة في الحكم ، أن زيدا كفر وعمرأ فسق وهذا لم يكفر وذلك لم يفسق ، كأنه ليس لأعمال المسلمين عمل لا يتعلق له بالدين لأنه لا حظ لهم من الحياة الدنيا قط .

نعم إن لمثل هذه الأحكام والمباحث اتصالا بالأمور السياسية والأعمال الدنيوية ، فلا تخلو من فائدة وسند لمن يريد الحكم على الأشخاص بأعمالهم السياسية والاجتماعية ، ومن منهم المؤاخذ ومن منهم غير المؤاخذ ، ولكن أين من مؤرخينا من نظر إلى تاريخ القوم من هذه الوجهة بعد أن حال بينهم وبينهم الدين ، فتقيدوا بإيراد الأخبار كما أخذوها ، وتجنبوا الخوض فيها والحكم بشيء من عندهم عليها ، اللهم إلا النذر اليسير من المؤرخين ، مع أن الصحابة والرواة من التابعين ، ومن أتى بعدهم لم يضمنوا بشيء من مخبئات التاريخ وأخبار الرجال بل غالوا في حرية النقل حتى أوردوا لبعضهم من المثالب ما لا يذكر عن غيرهم ولم يجرؤوا على نقل مثله مؤرخ من مؤرخي الدول ، وتجاوزوا هذا أيضا إلى وضع الأخبار واختلافها ، ولم يراعوا جانب البررة من الصحابة والصالحين المحسنين منهم ، ومع هذا فقد نقلها مؤرخونا على علاتها وزعموا أن من الأدب (٤٩ - أشهر مشاهير الإسلام)

أن لا يتكلم أحد من الناس فيها ، حاشا فريق المحدثين الذين عنوا بالبحث فيها ، وفرقوا بين الكاذب والصادق منها ، ونوهوا بلزوم تمحيصها والتدقيق فيها . هذا وإذ قد استوفينا الكلام على الفتنة وأخبارها ومقدماتها ، فقد رأينا أن نقول كلمة في نتائج قتل عثمان رضى الله عنه ، وما تأتى عن حادثه العظيم من الأمور في مستقبل الأمة ، ونعقبه بفصل فيما قيل عن قتل عثمان وأسبابه واعتذار المسلمين من أرباب النحل عنه ، فنقول :

إن أول وهن دخل على الدولة الإسلامية هي الفتنة ، وأول ما فرق المسلمين هو قتل عثمان ، وسواء كان القيام على عثمان رضى الله عنه والنيكير عليه بحق أو بغير حق ، فإن الفتنة التي ثار ثائرها يومئذ أمر متوقع الحصول في الدول التي تقوم على أساس الحرية والأهم التي تنشأ على الانطلاق عن قيود الاستعباد لإرادة الزعماء عند أول صدمة تصيبها من صدمات السياسة ، فما بالك بتلك الأمة القرية العهد بصاحب شريعته صلى الله عليه وسلم ، الذي يقول « استقيموا لقريش ما استقاموا لكم ، فإن لم يستقيموا لكم فضعوا سيوفكم على عواتقكم ثم أيدوا خضرهم » (١) إلا أن الناس قل ما تفكروا يومئذ بما يعقب قتل عثمان من الخطر على الخلافة ، من حيث ظنوا أن الخطر ببقائه فيها ، فقد رأوا بنى أمية غلبوا على الخليفة فخافوا أن يغلبوا على الخلافة فتكون الثانية أشد من الأولى ، فناروا ثورتهم على عثمان رضى الله عنه فطالبوه بالاعتزال ، ولم يكتفوا بطلب العدل بين أصناف الأمة فأبى فقتلوه ، ولو أصروا على طلب العدل لكان أهون عليه من الاعتزال ، وأسلم لهم من الوقوع في خطر الفرقة والشقاق ، وأقرب لرفع غائلة الأمويين التي كانوا يحشونها على الخلافة وعثمان حتى ، فكانت وعثمان مقتول .

قتل عثمان فافتقرت الأمة بآدى مذى بدء في أمر قتله إلى أربع فرق ، ثم فصل

(١) أخرجه الإمام أحمد عن ثوبان ، وحضراءهم أى سوادهم .

منهم صنف آخر فصاروا خمسة كما في رواية ابن عساكر عن ميمون بن مهران في حديث طويل ذكر فيه هذه الفرق ، بعد أن بين ما كان عليه المسلمون من الاتفاق والوئام في عهد أبي بكر وعمر ، والسنيين الأولى من خلافة عثمان فقال عن تلك الفرق إنهم (١) شيعة عثمان (٢) شيعة علي (٣) المرجئة (٤) من لزم الجماعة (٥) الحرورية (فأما) شيعة عثمان فأهل الشام وأهل البصرة . وقال أهل الشام ليس أحد أولى بطلب دم عثمان من أسرة عثمان وقرابته ، ولا أقوى على ذلك من معاوية . وقال أهل البصرة ليس أحد أولى بطلب دم عثمان إلا طلحة والزبير ، لأنهما من أهل الشورى (وأما) شيعة علي فهم أهل الكوفة (وأما) المرجئة فهم الشكاك الذين شكوا وكانوا في المغازي ، فلما قدموا المدينة بعد قتل عثمان وكان عهدهم بالناس وأمرهم واحد ليس بينهم اختلاف فقالوا تركناكم وأمركم واحد ليس بينكم اختلاف وقد منا عليكم وأنتم مختلفون فبعضكم يقول قتل عثمان مظلوماً ، وكان أولى بالعدل وأصحابه . وبعضكم يقول كان علي أولى بالحق وأصحابه : كلهم ثقة وعدنا مصدق فنحن لا نتبرأ منهما ولا نلعنهما ، ولا نشهد عليهما ، ونرجى أمرهما إلى الله حتى يكون الله هو الذي يحكم بينهما (وأما) من لزم الجماعة فمنهم سعد بن أبي وقاص ، وأبو أيوب الأنصاري . وأسامة بن زيد ، وحبيب بن مسلمة الفهري ، وصهيب بن سنان ، ومحمد بن مسلمة في عشرة آلاف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين ، قالوا جميعاً نتولى عثمان وعلياً ، ولا نتبرأ منهما ونشهد عليهما وعلى شيعتهما بالإيمان ، ونرجو لهم ونخاف عليهم (وأما) الحرورية فقالوا نشهد على المرجئة بالصواب ، ثم خلطوا بعد ذلك وكفروا كل من خالفهم . وأنت ترى أن هذه الفرق لا تعد إلا أحزاباً سياسية ، أو هي عين الأحزاب التي كانت في مبدأ الفتنة ، لكن هذه الأحزاب نمت بعد ذلك ، وانقسمت حتى بلغت سبعين فرقة كلها منتحل في الدين ، بعد أن كان مبدأ أمرها سياسياً لمحض النزاع على الخلافة ، ولتحقيق هل كان عثمان بممله

ظالماً يستوجب الخلع أم لا ، كما هي العادة في كل أمة ودولة إسلامية كانت .
أو غيرها سنة السكون التابعة لمجرى الأحوال السياسية منذ عرف الاجتماع
إلى الآن ، وهذا الذى يدع العقول في حيرة من أمر هذه الأمة وإصاقتها
كل شيء بالدين كما بسطناه لك في فصل سابق .

هذا من جهة ما أنتجه حادث عثمان من الانقسام بين الأمة ، وأما من
جهة ما كان من الخطر على الخلافة ، فقد تمهد للأمويين بقتل عثمان وقيام طلحة
والزبير لمغالبة على ومنازعة سبيل القيام على على ، بدعوى الطلب بدم عثمان ،
وصدق ما أنبأهم به معاوية من دهاب الأمر من يدهم ، إذا صاروا إلى التغالب .
فطمح إلى الخلافة ، ونهض إلى منازعة على في الأمر ومغالبته على الإمارة ،
وكان ما كان من مصير الخلافة إلى الأمويين بقوة الغلب وهدمهم أساس
الشورى والانتخاب ، واستشارهم بالملك بقوة الإرهاب وسطوة الغالبين ،
فكان مصير الأمر إليهم مبدأ انقلاب سياسى عظيم ، أتى على نظام الخلافة
الشرعية والحكومة الديمقراطية في الإسلام ، وبذر في بيوت الملك والخلافة
بذور الحكم المطلق فأنبئت في تصور الجبارين نبات العلقم الذى سموا به عقول
الأمة وأجسامها ، وأماتوا به شعورها بالظلم وإحساسها بهذه الحياة إلى هذا
اليوم ، حيث صارت إلى حال من الخنوع للأمراء ، والاستخذاء لأرباب
السطوة ، والرضا بتحمل الظلم والهوان ، لا يرضاها لنفسه الحيوان بله الإنسان ،
وقد انكفأت جيوش المغرب لهذا العهد على بمالك الإسلام وأخذت المسلمين
الصيحة من كل مكان ، فلم يرعهم من ذلك رائع البوار المتوقع اعتماداً على زعمائهم
واستسلاماً لأمرائهم ، الذين انغمسوا في حماة الشهوات ، وتربوا في سجون
القصور ووراء الجدران الشاهقة ، فلم يعرفوا من سياسة الملك إلا لإرهاب
الأمة وقتل عواصف الرعية ، وإرهاق المسلمين بالظلم والاستبداد وحرمانهم
من كل علم نافع ، ومن كل حق ناصح ، من حقوق السيطرة التى خولهم
إياها الإسلام ، حتى فقدت الأمة كل استعداد فطرى ، وكل قوة مليّة

تدفع بهما عن نفسها ، وتزود عن حوضها فخط عليها الجهل بكلكله ، وتمكن منها العدو بقوة وعلمه ، وليس في أمراء المسلمين من يرحمهم ويرحم نفسه فيطلق لرعيته منهم عنان الحرية ، ويأخذهم بالعلم ويتساند معهم على إحياء مجد الدولة ، وسلوك سبيل النجاة بمجاراة الأمم الغربية ، والحكومات الشورية الأوروبية ، كما أنه لم يبق في المسلمين معنى من معاني الحياة المليئة والشعور الإنساني يصور لهم شكل الحرية والعلم ، في صورة من الكمال والقوة والمجد ، جعلت الشعوب المسيحية تترامى على الموت ، ويستنهين ألوف منهم بالحياة ، ويخاطرون بالنفس والمال توصلاً إليها وتهافتاً عليها : وليت شعري هل من الحرص على الحياة أن يحيا الإنسان ذليلاً مهاناً ، مهضوم الجانب ، مسلوب الحق ، كما يتوهم المسلمون ، فيستخذنون لآلهة العروش من الأمراء ، مثل ذلك الاستخذاء ، ولا يشعرون بما يشعر به غيرهم من الشعوب الذين حولوا قصور الأمراء إلى دور تلبعث عنها أشعة العلم والعدل ، بعد أن كانت هياكل للظلم ، ومواقد لنيران الاستبداد ، ترسل شواظها على البسيط ليأكل الخضراء واليابسة ، ويأتى على المال والولد ، وينهب بكل أصول المجد والقوة والحياة : فاللهم إنا نعوذ بك من الخذلان ، ونسألك أن تلهم المسلم رشده ، ليطرح عنه رداء الهوان ، ولباس الجبن والخوف الذى ألبسه إياه طراغيت الأمة وعباد السلطة القاهرة ، والمملك المطلق ، الذى لا يكون إلا حيث يسود الجهل بؤفة قد كل بواعث الحياة .

مارثى به عثمان

أكثر الشعراء بعد قتل عثمان من رثائه ، فمن ذلك مارثاه به :

مهمل بن ثابت :

أتركتهم غزو الدروب وراكم وغزوتمونا عند قبر محمد
فلبئس هدى المسلمين هديتم ولبئس أمر الفاجر المتعمد
وله أيضاً

إن تمس دار ابن أروى منه خاوية باب صريع وباب محرق خرب
فقد يصادف باغى الخير حاجته فيها ويهوى إليها الذكر والحسب
يأبىها الناس أبدوا ذات أنفسهم لا يستوى الصدق عند الله والكذب
قوموا بحق ملك الناس تعترفوا بغارة عصب من خلفها عصب
فيهم حبيب شهاب الموت يقدمهم مستلثما قد بدا في وجهه الغضب

وله غير هذا أشعار كثيرة في رثاء عثمان .

ومن رثاه أيضاً كعب بن مالك الأنصاري وله في رثائه أبيات طويلة منها :

يا للرجال للبك المخطوف ولد معك المترقق المنزوف
ويح لأمر قد أتاني رائع هدّ الجبال فانقضت برجوف
قتل الخليفة كان أمراً مفضلاً قامت لذلك بلية التخويف

وقال الوليد بن عتبة بن أبي سفيان

ألا إن خير الناس بعد ثلاثة قتيل التميمي الذي جاء من مصر

وقال الجبابرة بن زبير المصمعي :

لعمرو أيك فلا تجزعن لقد ذهب الخير إلا قليلا

لقد سفه الناس في دينهم وخلي ابن عفان شراً طويلاً
أعاذل كل امرئ هالك فسيري إلى الله سيراً جميلاً

خطبة ابنه عائشة بعمرته

قالت بعد أن حمدت الله وأثنت عليه : يا ثارات عثمان إنا لله وإنا إليه راجعون ، أفئيت نفسه ، وطل دمه في حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنع من دفنه ، اللهم ولو يشاء لامتنع ووجد من الله عز وجل حاكماً . ومن المسلمين ناصراً . ومن المهاجرين شاهداً . حتى يفيء إلى الحق من صدر عنه . أو تطيح هامات . وتفري غلاصم . وتخاض دماء . ولكن استوحش مما أنستم به . واستوخم ما استمرأتموه . يامن استحل حرم الله ورسوله واستباح حماه . لقد كره عثمان ما أقدمتم عليه ، ولقد نقمتم عليه أقل مما أنتمتم إليه ، فراجع فلم تراجعوه ، واستقال فلم تقبلوه .

رحمة الله عليك يا أبتاه احتسبت نفسك . وصبرت لأمر ربك حتى لحقت به . وهؤلاء الآن قد ظهر منهم تراوض الباطل وإذكاء الشنآن . وكوامن الأحقاد . وإدراك الإحن والآوتار . وبذلك وشيكا كان كيدهم وتبغيعهم : وسعى بعضهم ببعض . فما أقالوا عاثراً . ولا استعقبوا مذنباً . حتى اتخذوا ذلك سبيلاً إلى سفك الدماء ، وإباحة الحمى وجعلوا سبيلاً إلى البأساء والعنت : فهل علنت كلبتكم وظهرت حسكتكم إذ ابن الخطاب قائم على رهوسكم مائل في عرصاتكم يرعد ويبرق بإرعايبكم . يقيمكم غير حذر من تراجعكم الأمانى بينكم . وهلا نقمتم عليه عوداً وبدءاً إذ ملك ويملك عليكم من ليس منكم بالخلق اللين والجسم الفصيل (كذا في الأصل) يسمى عليكم وينصب لكم لا تنكرون ذلك منه خوفاً من سطوته ، وحذراً من شدته ، أن يهتف بكم متقسوراً ، أو يصرخ بكم متعذوراً . إن قال صدقتم قالته ، وإن سأل بذلتهم سألته . يحكم في رقابكم وأموالكم كأنكم عجائز صليع

وإمام قسح ، فبدأ مفلتا لابن أبي قحافة يارث نبيكم على بعد رحمه وضيق
يده ، وقلة عدده ، فوق الله شرها زعم الله رده ما عرفه ما صنع . أو لم يخصم
الأنصار بقيس ثم حكم بالطاعة لمولى أبي حذافة ، يتمايل بكم يميناً وشمالاً ،
قد خطب عقولكم ، واستمهر وجلكم تمتحننا لكم ، ومعترفاً أخطاركم ،
وهل تسمو هممكم إلى منازعته ، ولولا تيك لكان قسمه خسيساً ، وسعيه
تعبساً ، لكن بدأ بالرأى وثني بالقضاء ، وثلث بالشورى ، ثم غدا سامراً
مسلطاً درته على عاتقه فتأطأتم له تطأطؤ الحققة ، ووليتموه أذباركم
حتى علا أكتافكم فلم يزل ينقض بكم في كل مرتع ، ويشدد منكم على كل
مخنق . لا ينبعث لكم هتاف ، ولا يأتلق لكم شهاب ، يهجم عليكم بالسرا ،
ويتورط بالحوباء ، عرفتم أو نكرتم لا تألمون ، ولا تستنطقون ، حتى إذا
عاد الأمر فيكم ولكم ولإيكم في موقعة من العيش عرقها وشيخ ، وفرعها
عميم ، وظلها ظليل ، تنناولون من كسب ثمارها أنى شئتم رغداً ، وحليت
عليكم عشار الأرض درراً ، واستمرأتم أكلكم من فوقكم ومن تحت أرجلكم
من خصب غدق وامق شرق ، تنامون في الخفض وتستلينون الدعة ، ومقتم
زبرجة الدنيا وحررتها ، واستحلتم غضايتها ونضرتها ، وظننتم أن ذلك
سبأ نبيكم من كسب عفواً ، ويتحلب عليكم رسلاً ، فانتضيتم سيوفكم ، وكسرتهم
جفونكم ، وقد أبى الله أن تشام سيوف جردت بغيا وظلماً . ونسيتم قول
الله عز وجل (إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه
الخير منوعاً) فلا يهتكم الظفر . ولا يستوطن بكم الظلم . إلا على رجلين ،
ولا ترن القوس إلا على سيتين ، فأثبتوا على الفرز أرجلكم فقد ضللتهم
هداكم في المتيه الخرقاء ، كما أضل أذنيه الحسل ، وسيعلم كيف تكون
إذا كان الناس عباديد ، وقد نازعتكم الرجال . واعترضت عليكم
الأمور ، وساورتكم الحروب بالليوث . وقارعتكم الأيام بالجيوش . وحمى
عليكم الوطيس . فيوما تدعون من لا يحيب ويوما تجيبون من لا يدعو .

وقد بسط باسطكم كما يديه يرى أنهما في سبيل الله فيد مقبوضة . وأخرى مقصورة . والرءوس تنزو على الطلى والكواهل كما يتقف التنوم . فما أبعد نصر الله من الظالمين ، وأستغفر الله مع المستغفرين اهـ

خريطة زوجهة نائمة بفت الفرافصة :

قالت بعد أن حمدت الله وأثنت عليه . . عثمان ذو النورين قتل مظلوماً بينكم ، بعد الاعتذار وإن أعطاكم العتي (١) ، معاشر المؤمنين وأهل الملل لا تستكثروا مقامى ، ولا تستكثروا كلامى ، فإنى حرى (٢) ، عبرى (٣) رزئت جليلاً . وتذوقت (٤) ، ثكلاً من عثمان بن عفان ثالث الأركان ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى الفضل عند تراجع الناس فى الشورى يوم الإرشاد ، فكان الطيب المرتضى المختار حتى لم يتقدمه متقدم ، ولم يشك فى فضله متأثم ، ألقوا إليه الأزمة وخلوه والأمة ، حين عرفوا له حقه ، وحمدوا مذهبه وصدقه ، فكان واحد من غير مدافع ، وخيرتهم غير منازع ، لا ينكر له حسن الغناء ، ولا عنه سماح النعماء ، إذ وصل أجنحة المسلمين حين نهضوا ، إلى رءوس أئمة الكفر حيث ركضوا ، فقلدوه الأمور ، إذ لم يكن فيهم له نظير ، فسلك بهم سبيل الهدى ، وبالنبي وصاحبيه اقتدى ، مخسماً للشيطان إلى مداخره ، مقصياً للعدوان إلى مزاجره ، تنقشع منه الطواغيت ، وتزائل عنه المصاليات (٥) ، حتى امتد له الدين ، واتصل له السبيل المستقيم ، ولحق الكفر بالأطراف ، قليل

(١) العتي الرجوع عن الإساءة إلى ما يرضى العاتب .

(٢) عطشى .

(٣) من العبرة وهو تردد اليكاه فى الصدر .

(٤) تذوقت أى ذقت مرة بعد مرة ، والثكل فقدان الحبيب .

(٥) المصاليات رجل مصلت إذا كان ماضياً فى الأمور وهو من مصاليات الرجال .

الآلاف والأحلاف ، فتركه حين لا خير في الإسلام في افتتاح البلاد ، ولا رأى لأهله في تجهيز البعوث ، فأقام يمدكم بالرأى ، ويمنعكم بالأدنى . يصفح عن مسيئكم في إساءته ، ويقبل من محسنكم بإحسانه ويكافئكم بماله ، ضعيف الانتصار منكم ، قوى ، المعونة لكم ، فاستلمتم عريكته حين منحكم محبته ، وأجرركم أرسانكم^(١) ، آمناً جراتكم وعدوانكم ، فأراهمكموه الحق لإخوانا ، وأراكموه الباطل شيطانا ، في عقب سيرة من رأيتموه فظاً ، وعدتموه غليظاً ، فهدكم منه بالقمع ، وطاعتكم إياه على الجدع يعاملكم الحبه (كذا في الأصل) ويتخونكم بالضرب ، وكان والله أعلم بأدابكم ومصالحكم ، فالله هو كان قد نظر في ضمائركم ، وعرف لإعلانكم وسرائركم ، فحين فقدتم سطوته ، وأمنتم بطشته ، رأيتم أن الطرق قد انشعبت لكم ، والسبل قد انفصلت بكم ، ظننتم أن الله يصلح عمل المفسدين فعدوتم عدوة الأعداء ، وشددتم شدة السفهاء ، على التقي النقي الخفيف بكتاب الله عز وجل لسانا ، الثقيل عند الله ميزانا ، فسفكتم دمه ، وانتهكتم حرمة ، واستحللتم منه الحرم الأربع ، حرمة الإسلام ، وحرمة الخلافة ، وحرمة الشهر الحرام ، وحرمة البلد الحرام ، فليعلمن الذين سعوا في أمره ، ودبوا^(٢) ، في قتله ، ومنعونا من دفنه ، اللهم إن بئس للظالمين بدلا وأنهم شر مكاناً وأضعف جنداً ، لتتبعنكم الشبهات ، ولتفرقن بكم الطرقات ، ولتذكرن بعدها عثمان ولا عثمان ، وكيف بسخط الله من بعده ، وأين كنتم كعثمان ذى النورين منفس السكرب زوج أبني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحب المرید^(٣) ، ورومة ،

(١) أى خلاكم كما تشاءون والمعنى أنها أخبرت عن مساعدته وتركه التضييق عليهم (فهدكم منه بالقمع) هذه ضعفه وأذله والقمع القهر ، والمعنى أنه خوفكم منه بالهزم والغلبة وطاعتكم . إياه على الجدع أى الهوان والصغار .

(٢) دبوا مشوا على هينهم .

(٣) المرید موضع قرب المدينة ، ورومة بئر بالمدينة .

هيات والله ما مثله بموجود ، ولا مثل فعله بمعدود ، يا هؤلاء إنكم في
فتنة عمياء صماء طباق السماء ممتدة الحران ^(١) شوهاء العيان في كثير من
الأمور ، قد توزع كل ذي حق حقه ، ويئس من كل خير خير أهله ،
فلموات الشر فاغرة ^(٢) ، وأنياب السوء كاشرة ، وعيون الباطل
خزر ^(٣) ، وأهلوه شزر ^(٤) ، ولئن فكركم أمر عثمان ، وبشعتم
الدعة ^(٥) ، لتنكرون غير ذلك من غيره حين لا ينفعكم عتاب ، ولا يسمع
منكم استعتاب .

ثم أقلت بوجهها على قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت : اللهم
اشهد اه :

* * *

(١) الحران مقدم المنق .

(٢) الالهات الالهة المشرفة على الخلق ، وفاغرة من قدر فوه انفتح .

(٣) الخزر النظر بالخط العين .

(٤) الشزر الشدة والصعوبة .

(٥) الدعة سعة العيش .

ما قيل في سبب الفتنة وقتلة عثمان والاعتذار عنه

ما قاله بعضهم الصحابة وأهل السنة :

رأيت كيف أن الصحابة أكبروا قتل عثمان حتى اعتدوا قتلته ظالمين ، فنهض للطلب بدمه طلحة والزبير وعائشة وأحزابهم ، ومعاوية وحزبه ، وأنكر على قتله ولعن قاتليه ، ونزید هنا ما قاله بعض الصحابة ، ومنهم سعيد بن زيد أحد العشرة قال ، لو أن أحداً انقض للذى صنعتموه بعثمان لكان محقوقاً أن ينقض (أخرجه البخارى) ، وعن عبد الله بن سلام قال ، لقد فتح الناس على أنفسهم بقتل عثمان باب فتنة لا يغلق عنهم إلى قيام الساعة « أخرجه أبو عمر » .

وعن ابن عباس قال : لو اجتمع الناس على قتل عثمان لرموا بالحجارة من السماء (أخرجه الحاكم) . وقال مثل قولهم كثير من الصحابة وكلهم يجمعون على أن عثمان قتل ظلماً . وأن الأحداث التي كانت على عهده لا تستوجب القتل . هذا إذا صح أن كل ما أنكر على عثمان رضى الله عنه أحداث يؤاخذ عليها وللمتكلمين في براءة عثمان وتعدى قاتليه كلام طويل ، وتفصيل يرجع إليه ، ومنهم ابن حزم ، فقد أزال بهذا الصدد في الملل والنحل ، وخلاصة قوله لإجماع أهل السنة على بغي المحاربين لعثمان ، وأنه ليس في عمله ما يستوجب القتل ، ولجماعة غيره من العلماء كلام طويل في الاعتذار عن عثمان ، « منهم » حافظ الحجاز المحب الطبري فقد فتح باباً مخصوصاً في كتابه «الرياض النضرة في فضائل العشرة» رد فيه على من قال بصحة الأحداث التي نسبت إلى عثمان ، « ومنهم » محمد بن يحيى الأشعري المعروف بابن بكر فتح باباً مثله في كتابه « التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان » استوفى فيه الكلام على ما نسب

إلى عثمان من الأحداث . وبين كل ما يمكن الاعتذار عنه من تلك الأحداث ، فأحببت أن أنقل هذا الفصل هنا برمته لإتماماً للفائدة قال :

د اعلم رحمك الله أن الرافضة والملحدة قد طعنوا على عثمان ، وتعلقوا عليه بأشياء فعلها لا يثبت لهم عليه بها حجة ، قد ذكرنا أكثرها فيما مضى ، وندكر الآن منها طرفاً ونذكر الجواب عنها بحسب الإمكان فنقول (فإن قيل) فإن ابن مسعود أنكر على عثمان في أمر المصاحف وتحريرها : فالجواب : أن ابن مسعود دونه في الفضل والمرتبة فكان عثمان أعلم بما فعل ، ولأن الرجل كان يقول للرجل قراءتنا خير من قراءتك فأزال عثمان هذا وجمعهم على شيء واحد ، وكان قد ولي زيد بن ثابت أمر المصاحف ، ولو كان ذلك متوجهاً إلى عثمان لكان ذلك طعناً على من قبله من الصحابة ، وقد روى أن علياً قال : عن ملائنا أصحاب رسول الله فعل عثمان : ولو كان منكراً لكان على قد غيره . لما صار الأمر إليه ، فلما لم يغيره علم أن عثمان كان مصيباً فيما فعل (فإن قيل) إنه اعتدى بتولية الوليد بن عقبة ، وأنه سكر فصلى بهم الفجر ركعتين ، ثم التفت فقال أزيدكم : فالجواب : أنه قد ولي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الناس على الصدقة ففسق ، فأنزل الله سبحانه وتعالى (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) . فليس يلحق عثمان إلا ما لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم . وولى عمر ابن الخطاب قدامة بن مظعون البحرين فشرب الخمر فتأولوا جلد عمر ، وقدامة بدرى من أولى السابقة والفضل ، وكذلك عثمان ، وولى على المختار بن أبي عبيد المدائن فأناه بصره فقال هذه من أجور المومسات : فقال على رضى الله عنه قاتله الله لوشق عن قلبه لوجد فيه حب اللات والعزى وهو أفسق من الوليد : فأخذ المختار المال ولحق بمماوية . وكان على يلقى من ولاته وعماله الأمر الشديد ، فكان يقول وليت فلاناً فأخذ المال ، ووليت فلاناً ففاني إلى غير ذلك . ذكر هذا أبو نعيم في كتاب الأمانة (فإن قيل) فقد أنكر ابن مسعود

وأبو ذر إتمام عثمان الصلاة بمنى وأنه صلى أربعاً : فالجواب : أنه قد اعتذر عن ذلك ، وقال ذاك رأى رأيته ثم لو كان فعله خلاف الحق لما تبعناه ووافقاه ، فقليل لهما في ذلك فقالا الخلاف شر . وقد روى جماعة من الصحابة . إتمام الصلاة في السفر ، منهم عائشة وسلمان وأربعة من الصحابة والذي حمل عثمان على إتمام الصلاة أنه بلغه أن قوماً من الأعراب شهدوا الصلاة معه بمنى ، فرجعوا إلى قومهم فقالوا الصلاة ركعتان كذلك صليناها مع عثمان بمنى ، فأتوا ذلك صلاتها أربعاً ليعلمهم ما بنوا به الخلاف والاشتباه ، وكذلك فعل عمر في أمر الحج وأن يجمعوا بين الحج والعمرة في أشهر الحج ، وخالفه ابنه عبد الله وقال سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق أن تتبع ، وتابعه أبو موسى وجماعة من الصحابة على ترك الجمع بين الحج والعمرة ، مع علمهم بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وإقامته على الإحرام حتى دخل مكة معتمراً حتى فرغ من المناسك ، ولم ينكروا ذلك على عمر ولو كان إنكاراً لما تابعوه على رأيه (فإن قيل) إنه أعطى من مال الصدقة ووفرا قريانه فالجواب : أن عثمان أعلم من أنكر عليه ، والإمام إذا رأى المصلحة في فعل شيء فعله فلا يكون إنكار من جهل المصلحة في ذلك حجة على من عرفها ، فإنه لا يخلو زمان من قوم يجهلون وينكرون الحق من حيث لا يعرفون فقد فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم خيبر في المؤلفة قلوبهم يوم الجعرانة ، وترك الأنصار لما رأى في ذلك من المصلحة حتى قالوا : تقسم غنائمنا في الناس وسيوفنا تقطر من دمائهم . وجهلوا ما رآه النبي عليه السلام من المصلحة ، وذلك أعظم مما فعله عثمان ، لأن مال المؤلفة من الغنيمة فلا يلزم عثمان من إنكار من أنكر عليه إلا ما لزم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى المصلحة فيما فعل برَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم (فإن قيل) الذي أعطى رسول الله كان من الخنس ، قيل له لو كان من الخنس لما أنكرت الأنصار ذلك . ولما قالت غنائمنا . ولقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما أعطيتهم من مال الله ، ألا تراه استمال قلوبهم بقوله : ألا ترضون أن يذهب

الناس بالأموال وتذهبون برسول الله إلى بيوتكم : قالوا رضيينا . والحديث مشهور (فإن قيل) إن عثمان ضرب عماراً قيل هذا لا يثبت ولو ثبت فإن للإمام أن يؤدب بعض رعيته بما يراه ، وإن كان خطأ ألا ترى أن النبي عليه السلام أقص من نفسه وأقاد ، وكذلك أبو بكر وعمر أدبا رعيتهما باللطم والدره وأقادا من أنفسهما ، وذلك لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بطن رجل بخشبة فخرجه فوق قيصه وقال صلى الله عليه وسلم تعالى : فاقصص : ففعا عنه . وجاء رجل إلى أبي بكر يستحمه فلطمه فأفكر ذلك الناس فقال أبو بكر إنه استحماني فحملته فبلغني أنه باعه ، ثم قال له دونك فاستمد ففعا عنه . وضرب عمر جارية لسعد بالدرة فساء ذلك سعداً ، فناولوه عمر الدرة وقال له افتص ففعا (فإن قيل) عثمان لم يقد من نفسه ، قيل له كيف ذلك ، وقد ينزل من نفسه ما لم يبدله أحد ، خصوصاً يوم الدار فإنه قال يا قوم إن وجدتم في كتاب الله أن تضعوا رجلي في قيد فضعوهما ، وقد ذكرنا أن عماراً تقازف هو ورجل آخر فجلدهما عثمان حد القذف (فإن قيل) أعطى عثمان من بيت المال من ليس له فيه حق ، قيل لا يثبت ذلك عنه وكيف نقبل هذا وعثمان من أكثر الناس مالا وأكثرهم عطية ومعروفا ، مع أن العصر لا يخلو من جهال يقولون مالا يعلمون فقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسماً فقال له رجل : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله : فبلغ ذلك النبي عليه السلام فغضب ثم قال (رحم الله موسى لقد أودى بأكثر من ذلك فصبر) وقسم يوم حنين تبرأ فقال له رجل اعدل يا محمد ، فقال له (ويحك ومن يعدل إذا لم أعدل) فهذا رسول الله كان يلقى من الجاهل هذا . فكيف بعثمان رضي الله عنه ، (فإن قيل) إنه ولي أقواماً لا يستحقون الولاية منهم الوليد بن عتبة ومعيد بن العاص وعبد الله بن عامر وغيرهم . قيل . فمن أين لكم إن هؤلاء لم يعدلوا ، ولئن جاز لكم ادعاء الفسق في ولاية عثمان لجاز ذلك في ولاية عمر . فقد ولي المغيره البصرة فرمى بما لا يثبت .

وولى أبا هريرة البحرين ، فقالوا خان مال الله ، وولى قدامة البحرين فشرب
 اخر متأولاً ، وولى على الأشر وأمره ظاهر ، وولى ابن مخنف فأخذ المال
 وهرب ، فلم خصصتم عثمان بالطعن مع أن النبي صلى الله عليه وسلم ولى زيد
 ابن حارثة فطعن الناس فيه حتى قام خطيباً منكرآ عليهم فيما طعنوا فيه ،
 وقالوا فيه وفي أسامة ابنه والحديث مشهور . وإنما طعن الناس على عثمان
 بليته وحياته ، وكثر في أيامه من لم يصحب النبي عليه السلام ، ومن جهل
 فضل الصحابة ، (فإن قيل) فقد نفي أبازر إلى الربرة فردأ : قيل لم يكن ذلك
 نصياً وإنما كان ذلك تخيراً له ، لأنه كان كثير الحشونة لم يكن يدارى من
 الناس ما يدارى غيره ، تخيره عثمان بعد استئذانه في الخروج من المدينة
 فاختار الربرة ليبعد عن الناس ومعاشرتهم . وذلك أنه كان بالشام فجرى بينه
 وبين معاوية مناظرة في هذه الآية (والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها
 في سبيل الله فنبههم بعذاب أليم) فقال معاوية هي في أهل الكتاب ، وقال أبو ذر
 هي فيهم وفيها فكتب معاوية إلى عثمان في ذلك ، فكتب إلى أبي ذر أن أقدم على
 قال فقدمت عليه فأنشال على الناس كأنهم لم يعرفوني ، فشكا ذلك إلى عثمان رضى
 الله عنه واستأذنه في الخروج من المدينة تخيره فاختار نزول الربرة ، لما يلقي
 من الناس واجتماعهم عليه نخاف الافتتان بهم هذا هو الصحيح : فأما الرافضة
 فيضعون عليه أشياء لا أصل لها . فإن جعل لشخص أذى من الشام وحبسه
 بالمدينة طعناً على عثمان : قيل : الأئمة إذا خشوا الفتنة والاختلاف فلهم أن
 ينادروا إلى حسمه . وقد فعل عمر مثل ذلك حبس جماعة من الصحابة عنده
 بالمدينة لأجل أحاديث حدثوها الناس ، ومنعهم من الخروج ، ومنعهم من
 لبس أشياء كانت مباحة خوفاً أن يتأسى بهم من لا علم له ، ولا ورع عنده
 فيركب بذلك ما ليس له مع أن الإمام أن ينهى أقواماً إذا خاف الافتتان
 بهم ، فقد روى أن عمر بن الخطاب نفى نصر بن حجاج لما خاف أن

يفتتن به النساء، لحسن صورته وقصته مع أم الحجاج بن يوسف مشهورة وشهره فيه:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج
ونفى على رضى الله عنه النعمان عن ملا من الصحابة. ونفى حسان أيضاً والله أعلم:
(فإن قيل) إن جماعة وافقوا حصره وقتله فقد روى أن حذيفة وعماراً
قالا قتلناه كافراً ، وإن صلحة فيمن حصره ، وإن علياً أعان على قتله ، وإن
الناس خذلوه وأسلبوه ، إلى غير ذلك من الأمور : قيل : هذا لا يصح عن
حذيفة (١) وإنما المنقول عنه خلاف ذلك ، وإنما هذا من كلام الرافضة وإن
نقل ذلك فلا نه لا يخلو أحد من الصحابة من حاسد ، ومن يبغضه فكيف
بعثمان وهو من أهل السابقة والفضل والكمال ، والطعن على عثمان طعن على
من تقدمه . وأما طلحة فإنه كان يقول يوم الجمل اللهم خذ لعثمان منى حتى
ترضى . وأما على فإنه قال غير مرة . اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان .
وقال والله ما قتلت عثمان ولا مالات على قتله . ولما بلغه قتله قال ، اللهم
إني لم أرض بقتله ولم آمر به ، وقال فيه : كان عثمان من الذين آمنوا وعملوا
الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين : وسببت
عائشة عن عثمان فقالت : قتل مظلوماً لعن الله قاتله أفاد الله من ابن أبي بكر ،
وساق الله إلى أغر بنى تميم هوأنا ، وأهراق الله دماء بنى بديل ، وساق الله
إلى الأشتر سهماً من سهامه : فوالله ما من القوم أحد إلا أصابته دعوتها .
وأما ترك الصحابة الإنكار على من حصره ، فلقد ناضجوا عنه ، ولم يظنوا
أن الأمر يبلغ إلى قتله ، وإنما ظنوا أنها تكون معتبة . ومع ذلك فإن
عثمان كان يعزم عليهم ليكفوا عن القتال ، ولقد أنكروا وبالغوا في الإنكار ،
منهم على وزيد بن ثابت وعبد الله بن سلام وابن عمر وأبو هريرة والمغيرة
والزبير وابن عامر وحمل الحسن بن علي يومئذ جريحاً وليس ابن الزبير
الدرع مرتين رضى الله عنهم .

(١) الصواب أنه محمد بن أبي حذيفة ولمن صح أن الرافضة قالوا إنه حذيفة فيكون
ذلك افتتاناً ظاهرياً منهم وتحريفاً مقصوداً ، لأن حذيفة من القاتلين بتولى عثمان ، ومن لمن
قاتليه كما رأيت فيما سبق من هذا الكتاب .

وعن ابن عون لقد قتل عثمان وإن في الدار لسبعائة رجل منهم الحسن وابن الزبير ولو أذن لهم لضربوهم حتى أخرجوهم من المدينة : وأما طلحة فإنه انصرف ولم يكن فيمن حصره كيف وهو يلعن قاتله مع عائشة صباحاً ومساءً ، وكان هو والزبير وعائشة ومعاوية يطلبون بدمه فكيف يعينون عليه ويطلبون بدمه ، هذا خلف . ومع هذا فينبغي السكف عما شجر بين الصحابة والاستغفار لهم والإمساك عما نسب إليهم من الرذائل . وكذلك اتباع الأنبياء بذكر محاسنهم التي مدحوا عليها ويمسك عما سواه (فإن قيل) إن عثمان حمي الحمى ومنع منه الناس قيل روى أن المنصرين جاءوا إلى عثمان فقالوا . ادع بالمصحف فدعا به ففتحوا سورة يونس وقرأ هذه الآية (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً) الآية فقالوا له أرأيت ما حميت من الحمى آذن لك أم على الله تفتري : فقال هذه الآية نزلت في كذا وكذا ، وأما الحمى فقد حمي الأئمة قبلي لإبل الصدقة . فلما زادت إبل الصدقة زدت في الحمى ، فجعلوا لا يأخذونه بآية لإلقال نزلت في كذا وكذا ، حتى أخذ عليهم أن لا يشقوا عصا المسلمين فأقبلوا راجعين إلى بلادهم راضين . فرأوا في الطريق غلاماً معه كتاب فرجموا إليه فقال إن لم أمر به ولا شعرت به فخصروه باغين عليه ظالمين له ، وقد حمى النبي صلى الله عليه وسلم نقيع الخضعات لحيل المسلمين ، وقال البخاري . بلغنا أن النبي عليه السلام حمى النقيع وحمى عمر السرف والريذة ، واستعمل على الحمى ، ولى له يدعى هنيئاً فلم يثبت على عثمان ذنب ، ولو ثبت لما استحق بذلك القتل ، وانتهاك الحرم ، وشق العصا ، وتفريق الجماعة ، ولكن الله أكرمه بالشهادة . وألحقه بالنبي عليه السلام وصاحبيه في الجنة ، حافظاً لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلع القميص وحظي قاتلوه بالخرى واللينة وانتهاك حرمة المدينة في الشهر الحرام ، (فإن قيل) فقد رويتم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر فتنة تكون بعده ، وقال في عثمان فاتبعوا هذا وأصحابه فإنهم على هدى فأخبرنا من أصحابه : قيل أصحابه أصحاب رسول

الله المشهود لهم بالجنة ، المذكور بعضهم في التوراة والإنجيل ، الذين من أحبهم سعد ومن أبغضهم شقي ، مثل علي بن أبي طالب وطلحة والزبير وسعد وسعيد وغيرهم من الصحابة ممن كان في وقتهم ، فإنهم كلهم كانوا على هدى ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم وكلهم أنكر قتله ، وكلهم استعظم ما جرى على عثمان ، وشهدوا على قتلته أنهم في النار . وهم الذين نجموا وتألبوا عليه مثل عبد الله بن سبا وأصحابه ، الذين أشقام الله بقتله حسداً منهم له وبغياً عليه ، وإرادة الفتنة وأن يوقعوا الضغائن بين أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لما سبق عليهم من الشقاء في الدنيا وما لهم في الآخرة من العذاب الأليم ، فاجتهد الصحابة في نصرته ، والذب عنه ، وبذلوا أنفسهم دونه ، فأمرهم بالكف عن القتال ، وقال إنى أحب أن ألقى الله سالماً مظلوماً ، ولو أذن لهم لقاتلوا عنه ، قال ابن سيرين كان معه في الدار جماعة من المهاجرين والأنصار وأبنائهم ، فقالوا يا أمير المؤمنين خل بيننا وبينهم . فحزم عليهم أن لا يقاتلوا (فإن قيل) فقد علموا أنه مظلوم وقد أشرف على الهلاك ، فكان ينبغى عليهم أن يقاتلوا عنه وينصروه ، وإن كان قد منعهم : قيل : إن القوم كانوا أهل طاعة لإمامهم وقد وفقهم الله تعالى للصواب من القول والعمل ، وقد فعلوا ما يجب عليهم من الإنكار بقلوبهم وألسنتهم ، وعرضهم لنصرته على حسب طاقتهم ، فلما منعهم من نصرته علموا أن الواجب عليهم السمع والطاعة له ، ولا يسعهم مخالفته ، وكان الحق عندهم فيما رآه عثمان (فإن قيل) فلم منعهم عن نصرته وهو مظلوم ؟ وقد علم أن قتالهم عنه نهى عن المنكر وإقامته حق يقيمونه : فالجواب : أن منعه إياهم يحتمل وجوها كلها محمودة : أحدها : علمه بأنه مقتول مظلوم لاشك فيه ، لأن النبي عليه السلام قد أعلمه أنه يقتل مظلوماً ، وأمره بالصبر : فقال اصبر : فلما أحاطوا به تحقق أنه مقتول ، وأن الذي قاله النبي عليه السلام له حق لا بد أن يكون ، ثم علم أنه قد وعد من نفسه الصبر فصبر كما وعد ، وكان عنده من طلب الانتصار لنفسه والذب عنها ، فإذا رضى فليس هذا بصابر إذ وعده من نفسه الصبر ،

الوجه الثاني : أنه كان قد علم أن في الصحابة قلة عدد ، وأن الذين يريدون قتله كثير عددهم ، فلو أذن لهم بالقتال لم يأمن أن يتلف من أصحاب النبي عليه السلام بسببه ، فوفاهم بنفسه لإشفاقاً منه عليهم ، لأنه راع عليهم ، والراعى يجب عليه أن يحفظ رعيته بكل ما أمكنه ، ومع ذلك فقد علم أنه مقتول فصانهم بنفسه .
الوجه الثالث : أنه لما علم أنها فتنة وأن الفتنة إذا سل فيها السيف لم يؤمن أن يقتل فيها من لا يستحق القتل ، فلم يختار لأصحابه أن يسلوا السيف في الفتنة لإشفاقاً عليهم من نقم تذهب فيها الأموال ، وتهتك فيها الحرم ، فصانهم عن جميع هذا ، ووجه رابع : وهو أنه يحتمل أن يكون صبر عن الانتصار ، لتكون الصحابة شهوداً على من ظلمه ، وخالف أمره وسفك دمه بغير حق لأن المؤمنين شهداء الله في أرضه ومع ذلك فلم يجب أن يهراق بسببه دم مسلم ، ولا يخلف النبي صلى الله عليه وسلم في أمته بسفك دم رجل مسلم ، فكان عثمان بهذا الفعل موقفاً معذوراً رشيداً مجبوراً ، وكان الصحابة في عذر ، وشقي قاتله وخاذله . والله أعلم اهـ

ما قاله المعتزلة :

وللمعتزلة أيضاً كلام طويل في الدفع عن عثمان بلغ الغاية من الاعتدال والتعقل ، شأنهم في مثل هذه المباحث ، وقد أورد ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة فصلاً بهذا الصدد نقله عن قاضي القضاة من شيوخ المعتزلة رأينا تلخيصه هنا لإمامنا للفائدة .

قال ابن أبي الحديد عند شرحه لكلام قاله على في شأن الأحداث لما أشار عليه أصحابه بمحاربة أهل الشام .

ويجب أن نقول ههنا أحداثه وما يقوله أصحابنا في تأويلها وما تكلم به المرتضى في كتاب الشاوي في هذا المعنى فنقول .. إن قاضي القضاة قال في المعنى قبل الكلام في تفصيل هذه الأحداث كلاماً مجحلاً معناه ، أن كل من ثبتت عدالته ووجوب بوليّه إما على القطع وإما على الظن بغير جاز أن

يعدل فيه عن هذه الطريقة إلا بأمر متيقن يقتضى العدول عنها .

ثم استطرد في هذه المقدمة إلى لزوم تولى عثمان وتعظيمه ، وحمل ما نسب إليه من الأحداث على حسن النية لما لعثمان رضى الله عنه من المزايا التي توجب إحسان الظن به ، وإن ما نسب إليه من الأمور كلها محتمل ، فأجدر بمثله أن تحمل أعماله على الوجه الصحيح في مقدمة طويلة لا تخرج عن هذا المعنى إلى أن قال

« وقد طعن الطعانون فيه » يعنى فى عثمان ، بأمر متنوعة مختلفة ، ونحن نقدم على تلك المطاعن كلاماً بجملاً يبين بطلانها على الجملة ، ثم نتكلم على تفصيلها ، وذلك أن شيخنا أبا على قد قال لو كانت هذه الأحداث مما يوجب طعناً على الحقيقة ، لوجب من الوقت الذى ظهر ذلك من حاله أن يطلب المسلمون رجلاً ينصب للإمامة ، وأن يكون ظهور ذلك عن عثمان كموته . فإنه لا خلاف أنه متى ظهر من الإمام ما يوجب خلعه أن الواجب على المسلمين إقامة إمام سواه . فلما علمنا أن طلبهم لإقامة إمام إنما كان بعد قتله ، ولم يكن من قبل والتمسك قائم . علمنا بطلان ما أضيف إليه من الأحداث . وليس لأحد أن يقول إنهم لم يتمكنوا من ذلك لأن المتعالم من حالهم أنهم حصره ومنعوه من التمسك من نفسه ، ومن التصرف فى سلطانه ، خصوصاً والخصوم يدعون أن الجميع كانوا على قول واحد فى خلعه والبراءة منه . ومعلوم من حال هذه الأحداث أنها لم تحصل أجمع فى الأيام التى حوصر فيها ، بل كانت تحصل من قبل حالاً بعد حال ، فلو كان ذلك يوجب الخلع والبراءة لما تأخر من المسلمين الإنكار عليه ، ولما كان كبار الصحابة المقيمون بالمدينة أولى بذلك من الواردين من البلاد ، لأن أهل العلم والفضل يأنسكار ذلك أحق من غيرهم ، فقد كان يجب على طريقته أن تحصل البراءة والخلع من أول الوقت الذى حصل منه ما أوجب ذلك ، وأن لا ينتظر

حصول غيره من الأحداث لأنه لو وجب انتظار ذلك لم ينته إلى حد إلا وينتظر غيره . ثم ذكر أن إمساكهم عن ذلك إذا تيقنوا الأحداث منه يوجب نسبة الجميع إلى الخطأ والضلال ، ولا يمكنهم أن يقولوا إن عملهم بذلك إنما حصل في الوقت الذي حصر ومنع ، لأن من جملة الأحداث التي يذكرونها ما تقدم هذه الحال ، بل كلها أو جلها تقدم هذا الوقت ، وإنما يمكنهم أن يتعلقوا فيما حدث في هذا الوقت بما يذكرونه من حديث الكتاب النافذ إلى ابن أبي سرح بالقتل . وما أوجب كون ذلك حدثاً يوجب كون غيره حدثاً فكان يجب أن يفعلوا ذلك من قبل . واحتمال المتقدم للتأويل كاحتمال المتأخر ، وبعد فليس يخلو من أن يدعوا أن طلب الخلع وقع من كل الأمة أو من بعضهم فإذا ادعوا ذلك في بعض الأمة فقد علمنا أن الإمامة إذا ثبتت بالإجماع لم يحز لإبطالها بلا خلاف ، لأن الخطأ جائز على بعض الأمة . وإذا ادعوا في ذلك الإجماع لم يصح لأن من جملة أهل الإجماع عثمان ومن كان ينصره ، ولا يمكن إخراجهم من الإجماع ، بأن يقال إنه كان على باطل لأن بالإجماع لم يتوصل إلى ذلك ولم يثبت . على أن الظاهر من حال الصحابة أنها كانت بين فريقين : أما من ينصره : فقد روى عن زيد بن ثابت أنه قال لعثمان ومن معه من الأنصار . ائذن لنا بنصرك . وروى مثل ذلك عن ابن عمر وأبي هريرة والمغيرة بن شعبة . والباقيون ممتنعون انتظاراً لزوال العارض إلا أنه لو ضيق عليهم الأمر في الدفع ما قعدوا بل المتعالم من حالهم ذلك . قال ثم ذكر ما روى من إنفاذ أمير المؤمنين الحسن والحسين ، وأنه لما قتل عثمان لأمهما على وصول القوم إليه ظناً منه أنهما قصرا ، وذكر أن أصحاب الحديث يروون عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : سيكون فتنة واختلاف وإن عثمان وأصحابه يومئذ على الهدى : وما روى عن عائشة من قولها . قتل والله مظلوماً . قال ولا يمتنع أن يتعلق بأخبار الأحاديث في ذلك لأنه ليس هناك أمر ظاهر بدفعه ، نحو دعواهم أن جميع

الصحابة كانوا عليه ، لأن ذلك دعوى منهم ، وإن كان فيه رواية من جهة الأحاد . وإذا تعارضت الروايات سقطت ، ووجب الرجوع إلى ما يثبت من أحواله السليمة ، ووجوب توليه ، ولا يجوز أن يعدل عن تعظيمه وصحة إمامته بأمور محتملة ، فلا شيء مما ذكره إلا ويحتمل الوجه الصحيح . قال ثم ذكر أن للإمام أن يجتهد رأيه في الأمور المنوطة به ، ويعمل فيه على غالب ظنه ، وقد يكون مصيباً وإن أفضت إلى عاقبة مذمومة اهـ

هذا ما نقله ابن أبي الحديد عن قاضي القضاة إجمالا فيما يتعلق بالدفع عن عثمان .

وقد أورد بعده ما اعترض به عليه المرتضى من أئمة الشيعة ، وليس من غرض كتابنا إيراد اعتراضه . ومن أراد الاطلاع عليه فليراجعهم في شرح نهج البلاغة .

(ما قاله ابن خلدون)

(في سبب القيام على عثمان)

لما تكلم ابن خلدون على بدء الانتفاض على عثمان افتتح الكلام بمقدمة صغيرة لا تخلو من فائدة فيما يراه من سبب تجنى العرب وقيامهم على عثمان ، ولو أطال لأبدع في المقال ، ولكن تقيد بما تقيد به المؤرخون وإليك ما قاله في ذلك .

لما استكمل الفتح واستكمل للملة الملك ونزل العرب بالأمصار ، في حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة والكوفة والشام ومصر ، وكان المختصون بصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم والافتداء بهديه وآدابه المهاجرين والأنصار من قریش ، وأهل الحجاز ، ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم ، وأما سائر العرب من بني بكر بن وائل وعبد القيس وسائر ربيعة

والأزد وكندة وتيم وقضاة وغيرهم ، فلم يكونوا من تلك الصحبة بمكان إلا قليلا منهم ، وكانت لهم في الفتوحات قدم فكانوا يرون ذلك لأنفسهم مع ما يدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السابقة ومعرفة حقهم وما كانوا فيه من الذهول والدهش لأمر النبوة وتردد الوحى وتنزل الملائكة ، فلما انحسر ذلك العباب وتنوى الحال بعض الشيء وذل العدو ، واستفحل الملك ، كانت عروق الجاهلية تنفض ، ووجدوا الرياسة عليهم للمجاهدين والأنصار من قریش وسواهم ، فأنت نفوسهم منه ، ووافق أيام عثمان ، فكانوا يظهرون الطعن في ولاته بالأمصار والمؤاخذة لهم باللحظات والخطرات والاستبطاء عليهم في الطاعات ، والتجنى بسؤال الاستبدال منهم والعزل ، ويفيضون في التذكير على عثمان ، وفشت المقالة في ذلك في اتباعهم ، وتنادوا بالظلم من الأمراء في جهاتهم ، وانتهت الأخبار بذلك إلى الصحابة بالمدينة فارتابوا لها وأفاضوا في عزل عثمان ، وحمله على عزل أمرائه وبعث إلى الأمصار من يأتيه بصحيح الخبر :

ثم دخل في أخبار الفتنة مما تقدم شرحه والمقصود هنا هذه المقدمة التي قدمها قبل الكلام على الفتنة ويشير فيها إلى بعض الأسباب .

رأى زعمر العلماء في الفتنة :

وسألت مرة صديق العالم الفاضل السيد عبد الحميد الزهراوى الخصى رأيه في هذه الفتنة ، لما أعهد فيه من الاطلاع وبعد النظر فأجابنى كلاماً إجمالياً جامعاً فى مقدماته العالية لما يلزم محي التاريخ الاطلاع عليه قال .

خامرى بين الصحابة :

إن الشيع التي قامت فى أواخر الثلث الأول من القرن الأول قد خفى على أكثر المؤرخين أمرها ، ولذلك دخل فى سيرتهم شىء من الاضطراب حتى

آل الأمر إلى كراهية فريق من الناس لقراءة التاريخ ، وقول فريق آخر « لا نخوض فيما جرى بين الصحابة ، ثم آل الأمر حتى صار هذا القول مسطوراً فيما يعتقده الحمدي مع أن هذه حادثة تاريخية ليست من العقائد في شيء ، وعندى أنه يضمر الجهل بهذه الحادثة التي هي من الحلقات الأولى لسلسلة تاريخ الإسلام . رقد سألني أيها الصديق العزيز عن رأيي في هذا الأمر وأنت أعرف به ، كأنك أردت أن تستعرض رأي غيرك مع رأيك الموفق ، ولاني ذاكر في هذه الكلمات القليلة صنفوة تاريخ صحيح بحمل :

لأجل الحكم بأمر ما على العرب بعد وفاة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، يلزم أن نعرفهم في أيام خيائه . ولأجل هذه المعرفة يلزم أن نعرفهم قبل بعثته ﷺ وظهوره .

العرب قبل بعثة النبي :

العرب قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ينقسمون بحسب مواقعهم إلى :

١ — سكان الحجاز

٢ — سكان ما عن يمينه مستقبلاً المشرق وهو اليمن

٣ — سكان ما عن شماله . وهو الشام (أى الشمال)

٤ — سكان العراق العربى

٥ — سكان ما بين ذلك كله وهى بلاد نجد .

من ثمة لا يسوغ لباحث أن يحكم بأمر عام على العرب من حيث أنهم شعب واحد يتكلمون بلغة واحدة بل يكون الحكم على كل قسم بحسب المؤثرات فيه من النخلة والعادة والمحلة والمعيشة .

فالعرب الذين هم قطان الشام والعراق واليمن كانوا بما آثروا شيئاً من زخارف الحياة وبما رغبوا من مجاورة الحواضر ذوات الأسواق الجماعة ، قد ألقوا سيطرة الملوك والرؤساء مهما كانت مطلقة ، وقريب منهم قطان نجد .

أما قطان الحجاز فهم أبعد الناس عن قبول سيطرة الملوك ، كما أن الحجاز أبعد الديار العربية عن الحواضر ، وأبعد الأرض عن شره الملوك ، وكان اليمن والحجاز سبدين لسكان الشام والعراق إذ أرادوا فيها من السلطة . وكان الشام والعراق مرجعين لسكان الحجاز يلتمسون فيهما ما يشتهون من أسباب النعيم .

فالحجاز وحده هو الوطن العربي الذي كان يرجى فيه حماية ذمار الشعب ، وإسقاط سلطة الشعوب الجائرة المجاورة ، وهو الوطن الذي اعتلى فيه أيما اعتلاء . شأن الحرية التي تربي الرجال والنساء أفضل تربية ، وإن العاقل لا يستطيع أن لا يعجب بما كان في مكة التي شرفها الله تعالى من تأليف تلك الحكومة الجمهورية الوطنية العرفية ، التي تتجلى في سمائها أنوار الحرية حتى يرجع الطرف عن بهاتها وهو حسير ، وهذا من الأسباب في أن قريشاً كانوا أرقى عرب الحجاز .

ولكن مع هذا كان ينقصهم معارف كثيرة من المعارف العليا ، التي تعرف الإنسان أنه لم يخلق سدى ، وتعرفه ما يجب أن يقدمه اليوم ليلقاها غداً ، ومن المعارف الدنيا التي يظهر بها مبلغ استعداد الإنسان للعلم والعمل . فحسب الله تعالى لهم هذا النقص ، إذ بعث فيهم منهم رسولا اصطفاه وعلمه من الحكمة والمعارف العليا ، ما تنزكي به النفوس ، وتسعد به الشعوب . ويسهل معه تحصيل المعارف الدنيا ، وجعل الأمة العالمية هي العليا .

العرب في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، بعد بعثته :

كتب هذا الأمر العظيم للرسول المجتبي من قبل الله محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب بن هاشم صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، فقام ينشر بينهم هذه المعارف ، بيد أنهم لا قبل لهم بتلقيها لأنها من أفق أعلى مما تنظر إليه أفسكارهم ، فأخذتهم الدهشة ونأوا بجانبهم ، وقال كل منهم بهذا الرسول على حسب ما بدا له من القول .

وينبغي للمرء أن لا يتعجب ولا يسارع بهجو قريش الذين كانوا أرقى العرب ، فإن كل غريب مستنكر بادىء بدء ، وقريش لم يعتادوا الخضوع الذى يشعر به معنى الدين ، وليس ما دعاهم إليه من تلك المعارف العليا بالذى يعقل بالبداية ، بل لابد فيها من النظر والتأمل ، ولنا أن نلومهم على ما فعلوه من إيذاء الرسول بالقول والفعل . ولكن هذا العيب لم يسلم منه (ويا للأسف) طائفة من طوائف الماضين والحاضرين . [انظروا إلى ما يتقوله المقلدون اليوم في المصلحين] على أن قريشاً لم تخل من رجال حكماء ، أدركوا هذا الفضل الذى جاءهم به ذلك المصطفى الكريم ، أفلم يكن أولئك الذين نصرروا هذه الحكمة الجديدة بادىء بدء من أفاضل الحكماء ، ألم تكن قريش قبيلتهم . ألم يكن بطن مكة دارهم ، ألم تك تلك الأرض أرض الحرية مهدهم وظئهم وحاضنتهم ؟

كان قريشاً تلك الفتاة القوية كانت في غفلة عما في رحمتها من الأرواح السامية ، فلما ظهرت لم تلق إليها بالاً حتى عاينت مراقبيها البديعة في العالمين .

كان من مقتضى هذه الحكمة العالية انشراح الصدر لنوال البشر كلهم وعلى قدر استعداد كل منهم ، أسباب السعادة — على ضد رأى الذين يريدون حصرها في شعب مخصوص — ولذلك كانت دعوة هذا الرسول القرشى عامة لكل الشعوب ، فما لبث بعد أن دعا قومه حتى طفق يدعو مجاورهم من القبائل ، ويراسل الملوك والأقيال ، وكان أهل يثرب من السابقين لقبول هذه الدعوة السعيدة ، ولإيهم هاجر بعد ثلاث عشرة سنة أقام فيها يدعو المكيين ومن حولهم إلى هذه الحكمة المباركة ، واشتد في أثنائها العداء بين أنصار هذه الحكمة الجديدة التي أوحاها الله ، وبين أنصار العبادات القديمة التي سننها الآباء ، فكانت الهجرة أسلم وأحكم ، وكانت هي باب ذلك الفوز العظيم .

حكمة بالغة قلبت الحجاز من طور إلى طور ، ثم صاح الحجاز بالعرب
كاهم صبيحة واحدة فإذا هم يتبدلون .

كان العرب قبائل متفرقة متعادية . بأكل القوى الضعيف ، ويهجم القريب
على القريب ، فما لبثوا حتى اجتمعت كلمتهم ، واتحدت وجهتهم ، ولانت منهم
قسوة المتكبرين . واشتدت عزيمة المستضعفين ، وخضعوا جميعاً لأحكام
إمام واحد يروضهم بالعدل ، ويروقهم بالفضل ، ينفذ فيهم أمره وقضاؤه
ويجمل فيما بينهم ثناؤه ، يرضون عما رضى ، وينقمون عما نقم ، إن استنفرهم
نفروا ، وإن صرفهم انصرفوا ، ثم إذا شاء استنصرهم فإذا هم يلبون .

بعد هذا الذى ذكرناه تبديلاً عظيماً فى العرب ، ولكن هل أصبح كل
فرد من أفرادهم متخلياً عن كل المساوى التى نهى عنها ، ومتحلياً بكل المحاسن
التي أمر بها ؟ هل أصبح كل فرد منهم معصوماً من كذب كان قد اعتاده ،
أو حسد كان قد خالط فؤاده . أو حقد اقتضاه مزاجه ، أو تهور مضى
عليه منهاجه ؟ هل خلق لكل فرد منهم عقل من كل الوجوه جديد ،
ورأى فى كل الأمور سديد ؟ ألم يبق فيهم من يشرب الخمر ، ولا من يأخذ
الأموال بالقمر ؟ ألم يبق فيهم من زان ، ولا قاتل ، ولا سارق ، ولا غاصب ،
ولا نمام ، ولا مفتاب ، ولا كذاب ، ولا مرتاب ، ولا ذى شهوة باطلة ،
ولا ذى خصلة عاطلة ؟

سيحار فى الجواب عن هذه السؤالات كثيرون لما يتبعها ، أما الذين
لا يرون العصمة لغير الأنبياء فإنهم لا يحارون . وهم يقولون إن التبدل
العظيم إنما وقع فى ثلاثة أشياء .
١ — فى تحول الأكثرين عن سنن الآباء إلى دعوة النبي من حيث
الإجمال .

٢ — فى ترك الأكثرين للمسكرات الظاهرة من زنى . وقتل نفس
وشرب خمر ، وقمار ، وسرقة ، وغصب مال . وإتيانهم للمعروفات الظاهرة
من صلاة ، وصيام ، وصدقة ، وحج .

٣ - في جمع الكلمة بعد التفرق .

قلنا ، الأكثرين ، ولم نقل ، السكل ، لأن تاريخ ذلك العصر على أصح الروايات يثبت وجود المنافقين الذين لم يؤمنوا إلا ظاهراً فقط . ووجود من كانوا يشربون الخمر ، ويقتلون النفس ، ويؤذنون ويسرقون ، الخ . وإن كانوا قليلاً . ودع عنك الذين كانوا يكذبون ، ويغتابون ، وينهون ، ويحسدون ، ويحقدون ، الخ .

العرب بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ذلك حالهم والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين أظهرهم ، أما من بعده فيظهر أن القليلين من الذين كانوا لم يتخلوا عن المساوى ، ولم يتحلوا بالحاسن قد صاروا كثيرين ، يدلنا لهذا نكول كثير من القبائل عن بعض أركان الدين كالزكاة حتى اضطر أبو بكر رضى الله عنه أن يعتبرهم كالمرتدين ، ويحاربهم كما كانوا يحاربون الكافرين .

فهذا يدعونا أن لا نفسر الصحابة بالتفسير المشهور (أى كل من رأى النبي وآمن به) إذ لو فسرنا هذا التفسير لما صح لأحد أن يقول كما هو المشهور إن كل فرد من أفراد الصحابة عدل .

بل نحن نفسر الصحابة بما تساعد عليه اللغة ويشهد له التاريخ الصحيح فهم الذين صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم صحبة حقيقية يصلح أن يطلق عليها لغة وعرفاً اسم الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وأضرابهم رضى الله تعالى عنهم فهؤلاء وأمثالهم هم الصحبة الحقيقية ، وهؤلاء وأمثالهم هم الثقات العدول ، وأما أولئك الأعراب الذين كانوا يفدون عليه فيسلمون له ولم يكونوا يلبثون عنده إلا عشية أو ضحاها ، فيقال لهم مسلمون لمحمد عليه السلام ولا يصح على هذا التفسير الحقيقي أن يقال إنهم صحابته ، كما لا يصح عملاً ونقلاً أن يقال إن كل فرد من أمثال هؤلاء عدل ثقة . وكذلك الصيغ الذين كان عمر أحدهم في حياته صلى الله عليه وسلم سبعة أو تسعة مثلاً من السنين .

ثم إن الذين نقول عنهم إنهم عدول كما شهد لنا التاريخ لا يفرض علينا أن ننزههم كما ننزه الأنبياء ورب العالمين ، ولا يجب علينا أن نتخذ آراءهم ديناً كما يظنه بعض من لا يعرفون أصول الدين .

ولقد بعد عن الصواب ظن الذين يزعمون أنه لا فرق بين ما يراه النبي صلى الله عليه وسلم وما يراه أحد أصحابه . لأنه إما أن يكون للنبي نص في الشيء فالأمر ظاهر سواء وافق الصاحب النبي للعلم بالنص أو خالفه لعدم العلم بالنص ، وعدم العلم ببعض نصوص النبي جائز في حق كل صاحب وغير شائن بأحد منهم . وإما أن لا يكون للنبي نص فيستوى الصحابة في نظر بعضهم ولم يكونوا يساويون برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحداً بل يستوون في نظر التابعين عليهم الرحمة .

ثم لاشك بأن الصحابة الحقيقيين عليهم الرضوان نجوم فضل وهدى ، ولكن حديث « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » قد صرح العلماء

بأنه موضوع ، وقد صح ما معناه « أن أمة النبي يردون عليه الخوض فيزاد ناس منهم فيقول يارب أصحابي . فيقال له لا تدري ما أحدثوا بعدك » .

(الذي جرى بين الصحابة) إذا تمهد هذا فالاختلاف الذي جرى بين الصحابة لاشك بأن جرئومته من فئة لم تأخذ بتصيب واف من صحبة النبي ، ولم تتصلع من التهذيب المحمدي ، وإلى أجل من هذه الوصمة العشرة الكرام بل أجل مثلهم كثيرين من غيرهم ، ولكني لا أثبت لغير الأنبياء عصمة مطلقة كمصمتهم فإن هذا من أصول هذا الدين .

هذا هو الإجمال ومنه يأخذ الأذكياء آراء مهمة عندما يقرءون الحوادث التي جرت ، ومن اضطر للتفصيل هنا فحسبي في هذه المختصرة أن أضيف

من أجله إلى هذا الإجمال قضايا هي بمثابة منبهات لعين الفكر ، ومبصرات إياها بعض الدقائق :

١ — إن القبائل البدوية كانت آلة بيد رجال من قريش ، وأكثُر أفرادها لم يكونوا قد رأوا النبي صلى الله عليه وسلم فضلاً عن أن يصحبوه - ومن رآه منهم فقد يكون رآه ساعة من نهار ، ومن حارب معه فقد يكون حارب ابتغاء الغنائم . وهكذا حاربوا مع من بعده .

٢ — إن القبائل البدوية كانت متعادية في الجاهلية . ولما تأخّدت في الإسلام كان عرق العدواة يضرب في بعضها أحياناً ، فكانت كل قبيلة تشايح رئيساً من رؤساء قريش وتمعى له الدولة ابتغاء أن تتميز لديه على أعدائها الأقدمين

٣ — إن القبائل البدوية كان قد أضربها جهد العيش وكانت تتربص في البلاد التي افتتحتها أن تتضلع من نعيمها ، وكانت تتحين أن تنقلب رتبة الخلافة التي معناها اقتفاء أثر النبي صلى الله عليه وسلم إلى رتبة سلطنة وملك ومعناها اقتفاء آثار الملوك الذين كانوا يعرفون سيرهم وسير كبرائهم في البذخ والاستيثار ، وتوارث المناصب بالأنساب والجيل ، لا بالمواهب والعمل .

٤ — إن الأمم العجمية - من روم وفرس وسريان وعبرانيين وغيرهم - من لم يدخل في الدين منهم لا ظاهراً ولا باطناً ، ومن دخلوا فيه ظاهراً فقط كانوا لا يألون جهداً ببحث الدسائس ، ليهدموا ذلك المجد العربي الذي شادته تلك الدعوة المحمدية على أيدي أنصارها الحقيقيين . ومن دخل فيه ظاهراً وباطناً كانوا جهلاء به ولم ينزع من قلوبهم حب عادات سالفة لهم قومية أو دينية ، ومازلوا بعد امتزاجهم بالعرب حتى أدخلوها عليهم ففسدت بها بعض مناهجهم .

٥ — بمجموع ما قدمنا الإشارة إليه اختل — بعض الاختلال — ذلك

المحيط الذى كان بالأمس أصبح محيط على الأرض . ولم يكن اختلاله فى أيام خلافة الصديق وأوائل خلافة الفاروق رضى الله عنهما إلا طفيفاً . وأما فى أواخر خلافة الفاروق فاشتد ذلك المرض الذى حاق بذلك المحيط وما برح يشتد فبما بعد ذلك حتى سقطت رتبة الخلافة فى أواخر أيام على رضى الله عنه ثم قامت مقامها حتى اليوم رتبة السلطنة والمملك ، وهذا بعض ما كان يتمتع به رجال من قریش والقبائل البدوية والأمم العجمية اه .

* * *

هذا ما قيل فى فتنة عثمان من الوجهة الدينية والاجتماعية أوردته فى هذا الكتاب ، دون أن أعلق عليه شيئاً من رأى إذ أرائى الخصوصية بسطتها كل رأى فى محله من هذا الكتاب ، فعلى القارئ أن يأخذ بما قلت وقال غيرى بما شاء إذا ظهر له أنه الحق ، إذ القصد الوقوف على الحقيقة ومعرفة الحق فيما شجر بين القوم يومئذ ، وفيما تقدم جميعه كفاية لهذا الغرض والسلام .

صفة عثمان :

فى تاريخ ابن عساکر كان عثمان ليس بالطويل ولا بالقصير ، حسن الوجه رقيق البشرة كث اللحية ، عظيمها ، أسمر اللون عظيم الكراديس ، بعيد ما بين المنكبين ، كثير الشعر ، وكان يصفر لحيته ، ويشد أسنانه بالذهب .

ولده وعمله

ولده :

ولد عثمان بن عفان هم عبد الله الأكبر ، وأمه فاحشة بنت غزوان ، وعبد الله الأصغر أمه رقية بنت رسول الله ﷺ . وتوفى صغيراً : وعمرو ، وأبان وخالد ، وعمر ، وسعيد : والوليد وأم سعيد ، والمغيرة ، وعبد الملك ، وأم عمرو : وعائشة وكان عمرو أسنى أولاده وأشرفهم عقباً . وكذلك ابنه

عبد الله الأكبر ، وله عقب كثير ، ومن أعقب من أولاده أيضاً خالد ، وقد درج عقبه وله من الأحفاد من ولد عمرو وعبد الله عدد كثير ذكرهم ابن قتيبة في المعارف فاكتفينا عنه بما تقدم .

عوامل :

كان عماله على الأمصار في السنة التي توفي فيها على مكة عبد الله بن الحضرمي وعلى الطائف القاسم بن ربيعة الثقفي ، وعلى صنعاء يعلى بن منية ، وعلى الجند عبد الله بن ربيعة ، وعلى البصرة عبد الله بن عامر ، وعلى الشام معاوية ابن أبي سفيان ، وعلى حمص من قبل معاوية عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وعلى قنسرين حبيب بن مسلمة الفهري ، وعلى الأردن أبو الأعور السلمي وعلى فلسطين علقمة بن حكيم الكنانى ، وعلى البحر عبد الله بن قيس الفزاري ، وعلى الكوفة أبو موسى الأشعري ، على صلاتها ، وعلى خراجها جابر بن فلان المزني ، وعلى حربها القعقاع بن عمرو ، وعلى قرقيسيا جرير بن عبد الله البجلي ، وعلى أذربيجان الأشعث بن قيس الكندي ، وعلى حلوان عتيبة بن النحاس ، وعلى الماء مالك بن حبيب ، وعلى همدان النسير ، وعلى الري سعيد بن قيس ، وعلى أصبهان السائب بن الأقرع وعلى بيت المال عقبة بن عامر ، وعلى قضاء عثمان زيد بن ثابت ، وأما عامل مصر فقد كان عبد الله بن سعد كما رأيت فيما مر ، وتغلب عليها بعد خروجه منها محمد ابن أبي حذيفة .

ربما يتبادر إلى ذهن القارئ من أسماء هؤلاء العمال ، أن ليس فيهم من قرابة عثمان إلا معاوية ، وعبد الله بن عامر ، وعبد الله بن سعد ، مع أن الفتنة قامت لأجل أن عماله كلهم من ذوى قرابته ، فلنكون القارئ على بصيرة فنبهه إلى تقسيم الولايات في عهد عمر بن الخطاب ، فيرى أن الولايات

الكبرى هي مصر والشام وقنسرين والبصرة والكوفة ، ومابقى فمضموم إليها ففارس كلها الشرقية والغربية تابعة وعمالها للبصرة ، والكوفة وأرمينيا تابعة لقنسرين ، وأفريقيا تابعة لمصر ، والشام تتبعها أقسامها ، وكل هذه الولايات الكبرى مما عدا قنسرين ولانها من ذوى قرابته والكوفة ، وإن كان عليها أبو موسى الأشعري ، لكن كان قبله سعيد بن العاص كما مر تفصيل الخبر عن ذلك لهذا اقتضى التفتيه .

الحالة الاجتماعية على عهده :

ذكرنا كيف كانت الحالة الاجتماعية على عهد عمر بن الخطاب ، وأن الأمة خطت يومئذ خطى قليلة إلى الأمام في شئونها الاجتماعية ، ولم تخرج مع ما صار إليها من كنوز فارس والروم وملك الأكسرة والقيصرة عن طريق القصد في المعيشة ، لحل عمر لهم على التوسط في العيش وعدم الركون إلى الراحة في إبان الفتح ، ومصادمة جيوش الأمم ، وأنه لذا كان لا يرضى للعرب الاشتغال بغير الحرب ولا يأذن لهم باعتماد الأرضين . ولما استكمل الفتح على عهد عثمان ، ونزع الناس بالضرورة إلى طلب الراحة ، وأخذوا بقسطهم من السيادة على الشعوب ، وجاوروا المترفين من أهل المدن ، واستخشنوا عيش البداوة ، واستقلوا ثمرة الضرع دون الحرث والزرع ، وكان عثمان ، رضى الله عنه ليس من الشدة عليهم ، والأخذ على شكائهم بالمسكنة التي كانت لهم قبله طمحت إلى ذلك نفوسهم ، واتجهت لمجاعة الشعوب الأخرى رغائبهم ، فاستقطعوا من عثمان القطائع واستأذنوه في استثمار الأرضين التي جلى عنها أصحابها من أهل الذمة فأقطعهم إياها ، فقاموا على حرثها وأخذوا باستثمارها كما رأيت ذلك فيما مضى من أخبار فتح سجستان وكرمان ، وروى البلاذرى في فتوح البلدان ، أن عثمان لما ولي معاوية على الشام

والجزيرة أمره أن ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى ، ويأذن لهم في اعتمال الأرضين ، التي لا حق فيها لأحد فأنزل بني تميم الرابية ، وأنزل المازحين والمدير أخلاطاً من قيس وأسد وغيرهم ، وفعل ذلك في جميع نواحي ديار مضر ورتب ربيعة في ديارها على ذلك ، وألزم المدن والقرى والمصالح من يقوم بحفظها ويذب عنها من أهل العطاء ثم جعلهم مع عماله ، وفي هذا دليل على تدرج القوم في مدارج الرقي وجنوحهم إلى الكسب من طرق التجارة والفلاحة وميلهم إلى الاستعمار ، وإذ كان عثمان غنياً جداً^(١) ، محباً للعمران ميلاً إلى التأنق في المعيشة والتطاول في البنيان وإنفاق المال في وجوه البذل ليوسع على الناس ، وخصوصاً على أهله وذوي قريبه ، فقد ما شاء الناس في ذلك وساروا سيرته فيه ، وكانوا في عصر عمر لا يجرءون على اقتناء الضياع والدور ، والإكثار من مظاهر الثروة والغنى ، مع إقبال الدنيا عليهم كما هي في عهد عثمان ، فلما أخذ عثمان نفسه باقتناء الدور والتوسع في العيش ، وبني لنفسه ولنسائه وأولاده بضع دور بالمدينة كما سبق ذكره ، وشيد داره بالحجارة والكس ، وجعل أبوابها من الساج والعرعر وبني مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، بالعمد المرفوعة ، وتأنق في بنيانه واقتنى الدور والضياع والجنات والعيون بالمدينة ، وأظهر بهذا أثر النعمة التي أنعمها الله على العرب ، أنبغها الناس في ذلك وتظاهروا بمظهر الغنى ، وجنحوا إلى الحصول على المال والتمتع في

(١) ذكر السعدي أن عثمان يوم قتل كان عند خازنه من المال خمسون ومائة ألف دينار ومليون درهم ، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرها مائة ألف دينار ، وفي رواية لابن عساكر أن الثأرين انتهبوا ماله كله ، يوم قتل وكان ثلاثين ألف ألف درهم وخمسة مائة ألف درهم « أي ثلاثين مليوناً ونصف مليون ومائة وخمسين ألف دينار ومئتي صدقات كان تصدق بها بين أريس وخيبر ووادي القرى قيمة مائتي ألف دينار ، وفي هذه الرواية من الإغراق والمبالغة مالا يخفى ولعل رواية السعدي أصح .

المدينة فابتنى سعيد بن العاص ومروان بن الحكم القصور خارج المدينة ، وأخذ كبار الصحابة في ذلك بمذهبه فذكر المسعودي منهم جماعة افتنوا الضياع والدور ، وماتوا على مال كثير ونعم وفيرة منهم الزبير بن العوام بنى داره بالبصرة ، وداراً بمصر ، ومثلها بالإسكندرية والكوفة ، واقتنى كثيراً من المال والضياع حتى ضرب المثل بغناه ، وقال المسعودي بلغ مال الزبير (لعله من النقد) بعد وفاته خمسين ألف دينار وألف فرس ومثلها من العبيد والإماء ، وخططاً بحيث ذكر من الأمصار ، وربما بلغت ثروته على ما في قول بعضهم نحو نصف مليون ، وأكثر هذه الثروة كانت من التجارة ، فإنهم قالوا إن الزبير كان تاجراً مجدوداً (أى محظوظاً) : قال المسعودي وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمي ، ابتنى داره بالكوفة (المعروفة لعهد المسعودي بدار الطلحين) ، وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار وقيل أكثر من ذلك ، وبناحية شراة أكثر مما ذكر وشيد داره بالمدينة وبنها بالآجر (الطوب) والجص والساج ، وكانت ثروته من التجارة أيضاً ، فقد ذكر ابن قتيبة في المعارف أن طلحة كان تاجراً بزازاً وما ذكره المسعودي عن ثروة طلحة ، وإن كان لا يخلو من إغراق ومبالغة إلا أنه يدل على ما صار إليه القوم من السعة والميل إلى اقتناء المال ، ثم ذكر غير من تقدم عبد الرحمن بن عوف ^(١) وزيد بن ثابت ويعلى بن أمية وأنهم

(١) وذكر في أسد الغابة غنى عبد الرحمن بن عوف وقل ، إن عامة ماله من التجارة ، وأنه كان عظيم التجارة مجدوداً فيها ، حتى قدمت له مرة غير بها سبعائة راحلة تحمل البر والدقيق ، وكان كثير انصدق حتى تصدق مرة على عهد رسول الله بشطر ماله ، وتصدق مرة بأربعين ألف دينار ، وحمل على خمسمائة فرس وخمسمائة راحلة في سبيل الله ، وهذا يدل على أن أكثر غنى الصحابة لما كان من التجارة أيام اليسر ، وإقبال الدنيا على المسلمين ، وأنهم كانوا مع هذا الغنى على جانب عظيم من العدل ، وعفة النفس كما نذكر عليه أخبار عبد الرحمن وطلحة وأشباههم من كبار الصحابة ، وأغنياهم الذين لما تحصلوا على الثروة بالعدل والهدى والنجار ، وانفقوها في طريق البر وسبيل الخير والمجدة ، ولا يتركوا

بنوا الدور وشيدوا القصور وتركوا أموالا وضياعا كثيرة ، وأن سعد بن أبي وقاص ابنتى داره بالعقيق ، فرفع سمكها ووسع فضاءها ، وجعل أعلاها شرفات ، ومثله فعل المقداد بداره فى الجرف على أميال من المدينة .

وفى كل هذا دليل على سرعة انتقال القوم من حال إلى حال فى عصر عثمان ، وجنوحهم إلى التمتع بنعيم الحضارة وهذا أثر محمود من آثار المنكر المنعم إذا لم يتجاوز حد القصد إلى السرف ، ولم يتناول كل الطبقات ، ولم يتدرج منه الناس إلى المنكرات ، ومما لا ريب فيه أن عصر الصحابة مهما انطلق أهله فى مجال السعة والنعيم ، لا يتجاوزون الحد المشروع ولا يأخذون بغير المباح ، وقد فاضت عليهم الدنيا وكثر لديهم المال فلا بد من صرفه فى وجوه التمتع ، بما أحله الله لهم من الطيبات دون المنكر والشهوات ، حتى لقد كان فى المدينة من آثار الرفاهة وحب التلى ، لما فاضت الدنيا على المسلمين ، أن ظهر فيها طيران الحمام والرمى على الجلاهقات . « قوس البندق » فعدوها منكرًا أمر به عثمان فأزيل فى الحال ، واستعمل على ذلك رجلا من بنى ليث فقص الحمام وكسر الجلاهقات .

استكمل الفتح فى عصر عثمان ودال للعرب ملك فارس ، وصارت لإيهم

وعثمان وطلحة وعبد الرحمن وأضرابهم من أغنياء الصحابة أخبار كثيرة فى هذا الباب ، لا محل لذكرها هنا ، وكأها أدلة واضحة على وجوب السعى والعمل ، وأن العمل لازم من لوازم الحياة فأمر به الإسلام ، وأن الغنى والمال ضرب من ضروب العزة التى وصف الله بها المؤمنين ، لذا اشتغل فى اقتنائه الصحابة والتابعون فأخذوه من الطرق التى يأمر بها الفروع وأتقوه فى الطرق التى يأمر بها الفروع فكانوا خير قدوة للمسلمين لو كانوا يعقلون ، لا سيما فى هذا العصر الذى اشتد فيه تراحم الأمم على موارد الرزق وتفنن الأوربيون بضروب السعى والاحتياى على جلب الثروة حتى سدوا فى وجوه المسلمين منافذ الرزق لتقصير هؤلاء فى السعى وتقاصرهم عن تناول المال من طرق الجد والعمل ومجاعة الأوربيين فى فنون التجارة والصناعة . وسبب ذلك كله الجهل بتاريخ سلفهم والاستسلام للأوهام الباطلة التى أوهنت عزائمهم وهذبت بمسكة النشاط منهم ولا حول ولا قوة إلا بالله

سياسة الممالك فساروا في الناس سيرة جميلة ، أمر بها الإسلام وسلكوا مز
العدل والحق طريقاً توخاها الخلفاء ، وتبعهم فيها الولاة والأمراء ، فازدهى
أمر الدولة الجديدة ، وعلمت كلمة العدل ، وكثر المال وامتد رواق العمران
وراجت التجارة وتصاعدت أثمان السلع والعقار ، وكل ما يباع ويشترى
بنسبة كثرة النقد ، فنبعت جارية بوزنها ، وفرس بمائة ألف درهم ، ونخل
بألف درهم كما نقل هذا المحب الطبرى في الرياض النضرة من رواية أبي عمر
عن محمد بن سيرين ، وهذا غاية ما تصل إليه الممالك في ترقى العمران ، وتوفر
أسباب الكسب ، ونمو الثروة بين طبقات الناس .

بيد العرب في مثل هذا الرخاء والرغد من العيش ، يستمتعون بما أفاء
الله عليهم من تراث الأمم ، ويتسمنون ذرى الحضارة ويتبسطون في العيش ،
ويسرون سيرهم الخيث في الفتح ، ويرفعون لأخلافهم بفيان المجد والدنيا
مقبلة عليهم ، وملك الروم والفرس صائر إليهم ، وعثمان في مأمن من رأفته
بهم ولينه عليهم . إذ صاح بهم صائح الفتنة فاستوقفهم عن سيرهم ثم قذف
بهم في لجج من التخاصم ما بلغوا ساحله إلا وهم أحزاب متفرقة وشيع متباينة ،
فكان عصر عثمان بهذا عضراً جمع بين الأضداد من الرخاء والشدة ، والراحة
والتعب ، والغنى والطمع ، والقوة والضعف ، ومنه بدأت سلسلة الأحزاب
السياسية والدينية والجهيات السرية والجهرية ، وإليه ينتهى تاريخ الانقلاب
العظيم الذى طرأ على الدول الإسلامية وحول مجرى السياسة عن
وجهتها الأصلية .

إن الدول إذا قامت في أول نشأتها بقوة الحياة المالية والتناصر القومى ،
ونشأت على أساس الوحدة فى الاعتقاد والوحدة فى الفكر بين أصناف
الامة ، وأخذت على نفسها لإنصاف المغلوبين لها الخاضعين لسلطانها من
الشعوب الأخرى ، قل أن تتعرض لخطر الضعف والانحلال العاجل بما

يعرض لها من الفتن أو يظهر فيها من الأحزاب والشيع ، لهذا فإن اضطراب أمور الدولة وتفرق أغراض الأمة في عهد عثمان لم يؤثر على مركز الدولة في أرجاء ممالكها القاصية والدانية ، ولم يقلل من سطوة الخلافة بين الدول المتاخمة والأمم المغلوبة ، بل كأن الأمم استشعرت من تلك الضوضاء القائمة أنها نتيجة حياة قومية ونشاط عظيم ، يراد بهما تمحيص الحق وتدعيم أسس الخلافة ، فلبثت على الحياد تنتظر نهاية الأمر ، ولا تمتد إلى الدولة يد الغدر ، حتى انجلت الفتنة عن قتل عثمان وقيام على الأحزاب الأخرى ، ثم مصير الخلافة إلى بني أمية ، ولولا ما حبيب إلى الناس من خلافة الراشدين ، وما بهرهم من قوة أولئك الفاتحين ، لربما كانت اشتعلت المملكة يوسئف بالنار ، واستفزع الطيش الأشرار ، لكن الملك الذي يتحصن بالعدل والدولة التي تقوم على الأساس الذي ذكرنا لا يززععهما تفرق المالكين إلى أحزاب وشيع ولا يطمع في جانبهما الطامعون ، والله مع الذين آمنوا والذين هم متقون .

* * *

هذا ما اخترت لإيراده من سيرة عثمان رضى الله عنه وأسأل الله الغفران عن زلة القلم واللسان ، كما أسأل القراء المعذرة في تبسطي في أخبار الصحابة ، وتوسعي في وضع أمور الفتنة موضع النقد والمحاكمة ، واسترسال قلبي من ذلك بما لم تألفه أنظارهم من كتب مؤرخينا الذين طاهدوا أنفسهم على إلقاء الكلام عن أخبار الصحابة على عواهنه تجنباً للخوض بزعمهم في أخبارهم ، مع أن ما نقلوه من المطاعن وملئوا به صحفهم من أخبار الفتنة هي بمجرد ما أضر على الصحابة ، وأشد جنافية على التاريخ من التبسط في أخبارهم ومحاكمة الرجال الذين نسبت إليهم إذ في الوجه الثاني طريق للمؤرخ يسلكه في تبرئة المتهمين منهم بباطل ، والاعتذار عن يظن أنه أخطأ منهم ليدفع بهذا الشبه

التي تكاثفت سبحانه على النفوس من قراءة أخبار الفتنة التي ترمى كبار الصحابة بوصمة التحزب على عثمان إذا حملت على ظاهرها ، كما رواها الرواة ونقلها المؤرخون ، فلو بحث المؤرخون فيما وراء الظاهر منها ، وتوسعوا في التنقيب عنها والتدقيق فيها ، وبسطوا للقراء ما ظهر لهم من أسبابها الخفية والجلية ، وكل ما يتعلق بها من العوارض السياسية والاجتماعية ، لكان ذلك خيراً لهم وللصحابة من ترك الكلام الفج الساذج يأخذ مكائده من النفوس الضعيفة فتسوء الظن في رجال هم دعائم الإسلام ، وبهم قامت الملة وقوى ساعد الدين ، وبجدهم تأسست دولة المسلمين ، وماضر الصحابي منهم لو تقبنا عن سيرته ، ورأينا ما يوجب النقد في أخباره ، فإذا التمسنا له العذر فلم نجد ، قلنا إنه مجتهد أخطأ في اجتهاده ، وليست العصمة لإلا لله وللرسل ، وما ادعاها لنفسه أحد من الصحابة قط . وهذا عمر بن الخطاب على علمه وجلالة قدره لم ينه عن الإسراف في مهر النساء وردت عليه امرأة بجواب تحجه فيه من كتاب الله لم يسؤه ذلك ، بل قال : صدقت رجل أخطأ وامرأة أصابت ، وكذلك عثمان فإنه اعترف بخطئه على ملا الناس أكثر من مرة كما رأيت فيما مر من سيرته : والشواهد على هذا كثيرة في أخبار الصحابة لا محل لإيرادها هنا ، وفيما ذكر كفاية للعاقلين .

* * *

وهأنذا أبدأ بسيرة من اشتهر من الرجال في دولة عثمان رضي الله عنه ، وهما : حبيب بن مسلمة الفهري وعبدالله بن عامر بن كريز .

عبد الله بن عامر

نسبه ومولده ونشأته

نسبه :

هو عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي العبدشي ، وهو ابن خال عثمان بن عفان ، أم عثمان أروى بنت كريز وأما وأم عامر بن كريز أم حكيم اليحصاء بنت عبد المطلب عمه النبي صلى الله عليه وسلم ، وأم عبد الله دجاجة بنت أسماء بن الصلت السلمية .

مولده ونشأته :

ولد عبد الله بن عامر في مكة بعد الهجرة بأربع سنين كما ذكر ذلك ابن عساکر ، وأسلم أبوه عام الفتح وقال ابن عساکر وقد أجمع علماء قریش أن رسول الله أتى بعبد الله بن عامر في فتح مكة فجعل ينفث عليه ، وجعل عبد الله يبتلع ريق النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له لمسقا ، وفي لسان العرب أنه صلى الله عليه وسلم قال له : أرجو أن تكون سقاء : أي لا تعطش . وفي رواية لابن عساکر أنه لما جئ به لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هذا ابن السلمية : قالوا نعم : قال هذا ابننا وهو أشبهكم بنا وهو مسقا : فلم يزل عبد الله شريفاً سخياً كريماً كثير المال والولد .

فبعيد الله بن عامر ولد مكياً ، ونشأ مسلماً مدنياً ، وقد كان يعد في الطبقة الأولى من أهل المدينة كما في رواية محمد بن سعد صاحب الطبقات : وكان

حسن النشأة معدوداً من نجباء قريش وكرمائمهم ، لهذا اختاره عثمان بن عفان لولاية البصرة على حداثة سنه فوليا وعمره بين الرابعة والعشرين والخامسة والعشرين ، فقام بأعباء الولاية أحسن قيام ، وقاد الجيوش أعظم قياد وأكمله ، ففتح خراسان وسجستان وكرمان وما زال يطارد كسرى يزدجره حتى قتل وانقرضت على يده الدولة الساسانية ، وصار إلى المسلمين ملك الأكسرة تخففت أعلامهم على أقاصى بلاد فارس الشرقية والغربية ، وبسطوا جناح السلطان على تلك الممالك الشاسعة بحسن قيادة عبد الله بن عامر ومن سبقه من رجال الفتح ، الذين خلدوا لتلك الأمة نخرأ لا تطاول إليه الأعناق ، ولا يدانهم به الفاتحون كما رأيت فيما مر من أخبارهم وأخبار ابن عامر في هذا الكتاب ، وكما ترى من تنمة خبره في فتح تلك البلاد مما يأتى إن شاء الله .

ولايته على البصرة وفتوحاته

ذكرنا فيما تقدم أن عثمان رضى الله عنه عزل عن البصرة أبا موسى الأشعري ، وولى عليها عبد الله بن عامر سنة (٢٨ هـ) وقيل سنة (٢٩ هـ) فقال أبو موسى يقدم عليكم غلام كريم الجذات والعمات يجمع له الجنندان ، وزاد في رواية لابن عساكر . يقول بالمال فيكم هكذا وهكذا . وجمع له عثمان جند أبي موسى ، وجند عثمان بن أبي العاص الثقفي من عمان والبحرين ، وأمره أن يستعمل على كور فارس وخراسان من سميناهم في سيرة عثمان ، وأن يغزو البلاد التي انتقضت وهي فارس وخراسان فسار بالناس إلى فارس . والتقى بالثائرين في اصطخر فقاتلهم حتى انهزموا ثم سار إلى أطراف ولاية فارس فدوخها وأخضع الثائرين فيها ، ثم قصد خراسان وفرق قواده وجنوده في أطراف خراسان وسجستان وكرمان كما مر تفصيلا .

الخبر عن ذلك ، وقصد هو نيسابور وجعل على مقدمته الأخنف بن قيس
فافتتح أمامه الطبيبين وهما بابا خراسان ، وسار إلى قهستان وأبر شهر ،
فلقيه قوم يسمون الهياطلة فقاتلهم الأخنف فزهمهم ، وخرج إليه أهل
قهستان فقاتلهم حتى ألجأهم إلى حصنهم وقدم عليها ابن عامر فصالحه أهلها
على ستائة ألف درهم ، ثم قصد ابن عامر البلاد التي من أعمال نيسابور
كبشت وخواف واسفر أين وارغيان ، ثم قصد نيسابور بعد أن استولى
على كل أعمالها ، فامتعت عليه فحاصرها أشهراً وكان على كل ربع من أرباع
المدينة مرزبان يحفظه ، فطلب صاحب ربع من تلك الأرباع الأمان على
أن يدخل المسلمين المدينة فأعطيه . فأدخلهم ليلاً ففتحو الباب وتحصن
مرزبان المدينة في حصنها ومعه جماعة وطلب الأمان والصلح على جميع
نيسابور على وظيفة يؤديها فصالحه ابن عامر على ألف ألف (مليون) درهم
وولى على نيسابور قيس بن الهيثم السلمي . ثم أرسل ابن عامر قواده
يضربون في أطراف البلاد ، وقدم في أثناء ذلك بهمة والى أبيور على ابن
عامر فصالحه على أربعمائة ألف درهم وأتى مرزبان طوس فصالحه على ستائة
ألف درهم ، ووجه ابن عامر جيشاً إلى هراة وقيل سار إليها بنفسه فقاتل
أهلها فأعياهم ، فأناه ضاحب هراة فصالحه عليها وعلى بادغيس وبوشنج
وكتب له ابن عامر كتاب عهد هذه صورته .

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أمر به عبد الله بن عامر عظيم هراة
وبوشنج وبادغيس ، أمره بتقوى الله ومناصحة المسلمين ، وإصلاح ما تحت
يديه من الأرضين . وصالحه على هراة سهلها وجبالها على أن يؤدي من
الجزية ما صالحه عليه ، وأن يقسم ذلك على الأرضين عدلاً بينهم فمن منع
ما عليه فلا عهد له ولا ذمة ، وكتب ربيع بن نهشل وختم ابن عامر ١٥٠ هـ .

وهذا الكتاب يدل على حرص الأمراء يومئذ على عمران البلاد

لشرطهم على المرازبة لإصلاح الأرضين وقد مر مثله في سيرة عمر وما كان يشترطه الأمراء في فتوحهم من إصلاح الطرق والجسور على أهل البلاد المفتوحة .

كما يدل أيضاً على أن المسلمين كانوا يتركون المرازبة في البلاد التي تدخل تحت سلطانهم صلاحاً شبه ولاية من قبل الخليفة ، أو ولاية الثغور بدليل قوله في أول الكتاب (هذا ما أمر به الخ) ويوصونهم بالعدل وتقوى الله وحسن النظر في أمور البلاد ، لا سيما وأن المسلمين كانوا يعهدون إلى زعماء البلاد بالحكم بين أهلها في أحوالهم الشخصية ، على ما تقتضيه شرائع البلاد وعوائد أهلها ، ويتركون لغير المسلمين الخيار في ذلك بين الرجوع إلى عوائدهم ، وبين الرجوع إلى قضاة المسلمين وشرائعهم ، فالعدل وحسن السياسة يقضيان على الفاتحين ، بإيصاء حكام البلاد والتشديد عليهم في القيام على العدل فيما وسد إليهم من أمور الرعية .

هذا وهنا أمر آخر نحب التنبيه عليه ، وهو أن أكثر البلاد التي أخذت صلاحاً وترك أمرها لولايتها من الأعاجم لم يستقم أمرها للدولة ، بل كانت لا تلبث أن تخرج على سلطان المسلمين ، وينبذ أهلها طاعة الخليفة بإغراء أوائل الزعماء ، فإن أكثر البلاد النائية عن نظر ولاية الثغور البعيدة عن التأثير بسطوة الخلافة ، مثل خراسان وفارس الشرقية وطخارستان وأكثر البلاد الواقعة جنوب بحر قزوين كانت تنقلب الثورات إلى أوائل عهد الأمويين كما رأيت ، وسترى ، ولما استفحل الملك وتبسط العرب في الممالك وانتظمت لهم الأمور واختلطوا مع الأمم في المعاملة والمصارعة والدين ، وتولوا بأنفسهم شؤون البلاد استقرت قدمهم في البلاد وسكنت إليهم الشعوب . والعجيب في هذا الأمر أن ينزع القوم إلى مناهضة الدولة ومحاولة الخروج عن الطاعة في عصر مثل عصر الخلفاء الراشدين الذين ملأوا الأرض بالعدل

وهدموا دعائم الاستبداد المطلق والظلم الغابر ، وفي بلاد ترك لأهلها شبه استقلال عن الدولة ونيط بزعمائها أمر الحكم والسلطة ، ولما انقلب أمر الخلافة إلى الملك وبسطت عليهم يد الحكم المطلق وأخنتهم الدول الإسلامية بالإرهاب ونزعت من زعمائهم السيادة رضخوا للدولة وخضعوا لولايتها كل الخضوع ، ولا تعليل لهذا إلا أن الشرقيين أمم قد تأصل في عروقها دم العبودية ، انفصارت تستطيب القهر ، وتستلذ بالحجر ، فلا يحرك ساكنها الاستبداد ، ولا يظامن من أشرفها الاستعباد ، فهي مع الظالم أطوع له من الظل ، وأذل لسطوته من الذل ، كما يشاهد ذلك فيهم إلى الآن في كل مكان ، فإنك حينما نظرت في المشرق تجد الاستبداد قد أخذ بنواصي الأمم والظلم نشر عليهم بنوده ، وتجاوز الحكم المطلق فيهم حدوده ، حتى أودى بهم إلى الهلاك ، وبدولهم إلى الزوال . وبملكهم إلى الاضمحلال ، وهم مع هذا خاضعون خائفون ليس فيهم حياة تحس ، ولا عروق تنبض . ولا رجال تقوم فتستحث منهم الهمم ، وتستنقذهم من هوة العدم ، والمغرب أمامهم يسوق إليهم العبر سوقاً ، ويعلمهم كيف تكون حياة الأمم ، وبماذا تسعد الشعوب ، وتشاد الممالك ، وكيف يقضى العلم على الظلم وأهليه ، والاستبداد وعاشقيه ، وبهم يسود الإنسان ، وتعلو كلمة العدل في كل مكان ، وهم عن ذلك في شاغل من الخنول ، واشتغال بالسفساف ، وإعراض عن شؤون الحياة الطيبة ، رضاء بالعبودية لطواغيت الرياسة ، واستسلاماً للقضاء ، وما نهاية ذلك إلا الفناء العاجل بإزاء الأمم الغربية التي استفاض نور مدينتها على الأرض ، واندفع تيارها على كل الممالك ، فلا يقوم في وجهه إلا قائم العلم والحرية والعدل . والله عليم بعاقبة الأمور .

هذا وقد تقدم لنا تمام الكلام على ما فتحه قواد المسلمين في ولاية ابن عامر من بلاد فارس الشرفية والغربية ، وإنما اجتزأنا هنا بذكر ما فتحه

ابن عامر بنفسه وفاء بالوعد الذي تقدم لنا ، وبياناً لفضل هذا الرجل العظيم يومئذ سدا الكبير همة ونفساً فلا حاجة للزيد .

ولايته الثانية على البصرة

وشيء من أخباره فيها

تلك ولاية عبد الله بن عامر الأولى وكانت في خلافة عثمان رضى الله عنه ، وقد وليها مرة ثانية على عهد معاوية ، وذلك أن معاوية لما صفت له الخلافة أراد أن يولى عتبة بن أبي سفيان على البصرة ، فكلّمه ابن عامر وقال له إن لى بالبصرة ودائع وأموالاً فإن لم تولني عليها ذهبت ، فولاه البصرة فقدمها سنة لإحدى وأربعين وجعل لى له معاوية خراسان وسجستان ، فاستعمل على خراسان قيس بن الهيثم السلمي وكانت انتقضت بلخ وهراة وبوشنج وبادغيس على المسلمين ، فسار قيس لى بلخ فبازلها فسألهم الصلح ومراجعة الطاعة فأعطاهم ما سألوا ، وكان المسلمون كما ذكرنا غير مرة حريصين على عمران البلاد وتسهيل السبل ، فتقدم لى عطاء بن السائب مولى بني ليث ببناء ثلاث قناطر على ثلاثة أنهر من أنهر عمالة بلخ فبنّاها وسميت قناطر عطاء ، ثم إن ابن عامر استبطأ قيساً بالخراج فعزله وولى عبد الله بن خازم نخاف قيس بن خازم وشغبه فقدم على ابن عامر قبل وصول ابن خازم وترك البلاد بلا أمير فازداد عبد الله بن عامر غضباً عليه ، لتضييعه الشجر وإهماله أمر البلاد وقد شغب أهلها ونكثوا بفضله وحبيه ، واستعمل ابن عامر عبد الرحمن بن سمرة على سجستان ، فأتاها وأخذ بتدوير البلاد التي نكث أهلها حتى بلغ كابل فحصرها أشهراً ونصب عليها مجانيق فثلم سورها ثلثة عظيمة ، فبات عليها عباد بن الحصين ليلة يجالّد المشركين ويمنعهم عن بدنها حتى أصبح ولم يقدرّوا على سدها ، وخرجوا من الغد يهابتلون

فهرزهم المسلمون ودخلوا البلد عنوة ، ثم سار عبد الرحمن إلى زران وبست
وخشك فظفر بأهلها وفتحها كلها ، ثم سار إلى زابلستان وهي غزنة وأعمالها
وقد كان أهلها نكثوا أيضاً فقاتلهم وفتحها وعاد إلى كابل وقد نكث
أهلها ففتحها .

سبب من أخباره في البصرة :

هذه فتوح ابن عامر وولائه في ولايته الثانية على البصرة ، وأما غير
ذلك من أخباره فيها فقد كانت شوكة الخوارج يومئذ قوية وشرهم قد
استشر نفخج منهم على ابن عامر منهم بن غالب الهجيمي في سبعين رجلاً منهم
الخطيم الباهلي ، فنزلوا بين الجسرين والبصرة فربهم عبادة بن فرس الليثي
من الغزو ومعه ابنه وابن أخيه ، فقال لهم الخوارج من أنتم ؟ قالوا قوم
مسلمون ، قالوا كذبتم ، قال عبادة سبحان الله اقبلوا منا ما قبل رسول الله
صلى الله عليه وسلم مني ، فإني كذبتُه وقاتلته ثم أنيته وأسلمت ، فقبل ذلك مني .
قالوا أنت كافر وقتلوه وقتلوا ابنه وابن أخيه ، نفخج إليهم ابن عامر بنفسه
وقاتلهم وقتل منهم عدة ، وانحاز بقيتهم إلى أجمة (غيضة) وفيهم منهم والخطيم
فعرض عليهم ابن عامر الأمان فقبلوه فأمهم فرجعوا ، فكتب إليه
معاوية يأمره بقتلهم فأبى وكتب إليه إنني قد جعلت لهم ذمتك فقتلهم بعده
زياد في ولايته .

واستمر ابن عامر والياً على البصرة لمعاوية نحو ثلاث سنين وكان رءوفاً
بأهلها كريماً عليهم ، لين الجانب لا يأخذ على أيدي السفهاء منهم ، ففسدت
عليه البصرة ولم ينفعه اللين والحلم ، لاسيما في بلد كثر فيه الخوارج الذين هم
أعداء كل سلطان ، والمناهضون لكل أمير يضاف إلى هذا ما فطر عليه
القوم من الحرية وما اعتادوه من الجراءة على الأمراء ومواجهتهم بقول
الحق وأخذهم لهم بالهفوات .

روى ابن عساكر عن أبي داود قال ، خرج عبد الله بن عامر إلى الجمعة (أى صلاة الجمعة) عليه ثياب رفاق وأبو بلال ، هو مرداس ابن أدية من رؤوس الخوارج ، تحت المنبر وذلك في يوم الجمعة ، فقال أبو بلال انظروا إلى أميركم يلبس لبس الفساق ، فقال أبو بسكرة وهو تحت المنبر ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول (من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله) .

لهذا وأشباهه فسدت عليه البصرة فشكا ذلك إلى زياد بن أبيه ، فقال له جرد السيف ، فقال لى أكره أن أصلحهم بفساد نفسى ، وهذا منه منتهى العدل والتجافى عن الاستبداد بالناس والأخذ بالقوة إلا أنه نسب بذلك إلى الضعف ، فعزله معاوية عن العمل ، وذلك أن ابن عامر أوفد وفداً من البصرة إلى معاوية ، فوافقوا عنده وفد الكوفة وفيهم عبد الله بن أبي أوفى اليشكري المعروف بابن الكواء ، فسألهم معاوية عن أهل العراق وعن أهل البصرة خاصة ، فقال ابن الكواء يا أمير المؤمنين إن أهل البصرة قد أكلهم سفهاؤهم وضعف عنهم سلطانهم ، ثم أخذ يعجز ابن عامر ويضعفه فلما علم معاوية حال البصرة عزم على عزل ابن عامر ، لكن لم ير مفاجاته بالعزل ، إما احتراماً له وإعظاماً لشأنه ، وإما تحاشياً لغضبه مع ميل الناس إليه وحب قريش له ، فكتب إليه كما في رواية ابن عساكر يسأله أن يزوره ، فقدم عليه ، وكان يأتيه ويتعدي عنده ، ثم دخل إليه يوماً يودعه راجعاً إلى عمله : فقال له لى سائلك ثلاثاً : فقال هى لك وأنا ابن أم حكيم : قال ترد على عملى (أى ولاية البصرة) ولا تغضب : قال قد فعلت : قال وتهب لى مالك بعرفة : قال قد فعلت : قال وتهب لى دورك بمكة : قال قد فعلت : قال وصلتك رحم .

فقال ابن عامر ولى سائلك يا أمير المؤمنين ثلاثاً : فقل قد فعلت : قال معاوية قد فعلت وأنا ابن هند ، قال ترد لى مالى بعرفة : قال قد رددت

إليك مالك بعرفة : قال وتذكحنى هذبت معاوية ، قال قد فعلت ، قال ولا تحاسب لى عاملا ولا تتبع أثرى : قال قد فعلت .

هكذا نقولوا هذا الخبر بدون بيان لسبب طلب معاوية دور ابن عامر بمكة ، وعدم تردده فيما طلبه ابن عامر منه مع أن معاوية لا يفعل عبثاً وليس هو فى حاجة لدور ابن عامر ، والسرى فى هذا أن معاوية عارف بمكانة ابن عامر عند الناس ، وأنه أصبح من رجال قريش النجباء ، وأبنائهم العظاماء ، أنه ممن يشار إليهم بالبنان ، لما اشتهر به من الكرم والإحسان ، يدلك عليه مارواه ابن عساکر عن قبيصة بن جابر قال : لما سأله معاوية عن ترى لهذا الأمر (يعنى الخلافة) من بعدى : قال وأما فتاها حياء وحلما وسخاء فابن عامر .

إن بلوغ ابن عامر هذه المكانة من نفوس الأمة هو الذى دعا معاوية لأن يتلطف بعزله ويطلب منه ماله فى عرفة ، ودوره فى مكة ، وذلك كى لا يقصد بعد عزله مكة ، وكى يذهب ذهاب دوره منها بأمله فى السكنى فيها والإقامة فى ربوعها ، حيث يكون بعيداً عن نظر معاوية قريباً من هش النازعين إلى الفتنة ومناهضة معاوية من قريش ، ولذا رأى معاوية من الحزم أيضاً أن يجيب طلبه لبنته وينكحها له استبقاء له عنده وتحت نظره ، وذا من جملة ما عرف عن معاوية من الدهاء والحزم والاحتياط وتألف الرجال ، وبمثل هذا الحزم صفت له الخلافة واستخلص لنفسه الملك واستلم قياد الرجال .

ماذا كان منه في الفتنة

لما كانت فتنة عثمان كان أشد أهل الأمصار عليه أهل الكوفة وأهل مصر ، وأما أهل البصرة فقد كانوا أخفهم عليه ، لأن ابن عامر كان لحسن خلقه وكرمه يحببه إلى الناس ، لهذا لما استعفى عثمان من عماله كان فيما شرطوا عليه أن يقر ابن عامر على البصرة ليتجنبه إليهم ، كما ذكر ذلك ابن عساکر ولما كثرت الإرجاف بالعمال واستعرت نار الفتنة دعا عثمان رضى الله عنه ابن عامر مع من دعاه من عماله واستشارهم فيما يصنع كما مر الخبر عن ذلك بما يغنى عن الإعادة ، ثم لما حوضر عثمان أرسل ابن عامر مجاشع بن مسعود على جيش لإنجاده ، حتى إذا كانوا بأداني الحجاز خرجت غارجة من أصحابه فلقوا رجلا ، فقالوا ما الخبر ، قتل عدو الله فعثله وهذه خصلة من شعره ، فحمل عليه زفر بن الحرث وهو يومئذ غلام مع مجاشع بن مسعود فقتله ، فكان أول مقتول في دم عثمان ، ثم رجع مجاشع إلى البصرة ، فلما رأى ذلك ابن عامر حمل مافي بيت المال واستعمل على البصرة عبد الله بن عامر الحضرمي ، ثم شخص إلى مكة فوافي بها طلحة والزبير وعائشة ، وهم يريدون الشام ، فقال لا بل اتوا البصرة فإن لي بها صنائع ، وهي أرض الأموال وبها عدد الرجال ، والله لو شئت ماخرجت حتى أضرب بعض الناس ببعض ، فقال طلحة هلا فعلت أشفقت على مناكب تميم ، ثم أجمع رأيهم على المسير إلى البصرة فأقبل بهم إليها . هكذا روى ابن عساکر ، وروى الطبري في ذهاب ابن عامر إلى البصرة وتحريضه القوم على قصد البصرة مثل ذلك ، وأنهم قالوا له قبحك الله . فوالله ما كنت بالمسلم ولا بالمحارب ، فلما أقت كما أقام معاوية فنكتني بك وتأتى الكوفة فنسدت على هؤلاء القوم المذاهب ، فلم يجدوا عنده جواباً مقبولا .

وأنت ترى من هذا أن ابن عامر كان محل الظن في أن يعمل عملاً كبيراً بعد قتل عثمان ، وتشئت رأى الأمة لأنه كان من وجوه قريش وذوى الكلمة العليا في الناس فلم يفعل من ذلك شيئاً واختار الحياد حتى وصل مكة ، فانضم إلى طلحة والزبير ، ولذا أنبه القوم على ترك البصرة مع قدرته على المقام فيها ، والاستقلال بعمل يدره ، حتى استضعف جانبه لذلك ، كما يؤخذ من رواية الطبري عن مسير أمراء على إلى الأمصار بعد البيعة له ، إذ جاء في تلك الرواية مانصه :

وأما عثمان بن حنيف (أى عامل البصرة) فسار فلم يردده أحد عن دخول البصرة ولم يوجد في ذلك لابن عامر رأى ، ولا حزم ، ولا استقلال بحرب ، وافترق الناس بها فاتبعت فرقة القوم ، ودخلت فرقة في الجماعة وفرقة قالت ننظر ما يصنع أهل المدينة فنصنع كما صنعوا ، اهـ

فقولهم ولم يوجد لابن عامر استقلال بحرب فيه شبه استغراب أو تأنيب وإنما يستغرب عدم الرأى والاستقلال عن تظن فيه القدرة على العمل كما لا يخفى على الناقد ، وكيفما كان الأمر فإن ابن عامر لم يستقل بعمل في الفتنة في بادئ الأمر ، سواء كان لرغبته في الحياد أو لعدم الحزم فانضم إلى طلحة وحزبه وعاد معهم إلى البصرة وحضر وقعة الجمل ، ولو انفرد بنفسه في عمل لرأى أعواناً كثيرين لما ذكرناه من شهرته وميل القلوب إليه ، ولأنه من وجوه قريش وأجدادهم كما يدلك عليه ما رواه ابن عساکر عن جويرية ابن أسماء عن سمعه يقول : قال علي بن أبي طالب يوم الجمل أندرون من حاربت ؟ حاربت أجدد الناس أو أجدد الناس : يعنى ابن عامر : وأشجع الناس يعنى الزبير : وأدهى الناس : يعنى طلحة .

قال ابن عساکر بعد أن أورد حديث إقبال القوم إلى البصرة ومعهم

ابن عامر : فلما كان من أمر الجمل ما كان وهزم الناس ، جاء عبد بن عامر إلى الزبير فأخذ بيده فقال : أبا عبد الله أنشدك الله في أمة محمد فلا أمة محمد بعد اليوم أبداً : فقال الزبير خل بين العارين يضطربان فإن مع الخوف الشديد المطامع : فلحق ابن عامر بالشام حتى نزل دمشق وقد قتل ابنه عبد الرحمن يوم الجمل وبه كان يكنى . فقال حارثة بن بدر بن العباس العدائي في خروج ابن عامر إلى دمشق :

أتاني من الأنباء أن ابن عامر أناخ وألقى في دمشق المراسيا
يطيف بجمامى دمشق وقصره فعيشك إن لم يأتك القوم راضياً

ولم يزل ابن عامر مع معاوية بالشام حتى ولاه البصرة كما ذكرنا ، ولم يسمع له بذكر في صفين كما قال ذلك ابن عساكر وغيره ، فهو قد اعتزل الفتنة منذ وقعة الجمل التي يظهر من قوله للزبير ما قال أنه ندم على دخوله فيها وخشى على المسلمين من مغبتها ، وهذا ما وقفت عليه من أخباره في الفتنة والله أعلم .

ما أثره ومناقبه

كان عبد الله بن عامر على الهمة جليل المآثر ، ومن مآثره العظمى التي خلدت له في بطون التاريخ أعظم الفخر ، وأشرف الذكر ، فتحه خراسان كلها وأطراف فارس ، وسجستان وكرمان وهرات وزابلستان وهي غزنة وأعمالها ، أي أنه فتح قسماً من فارس الغربية المعروفة الآن بإيران أو أعلام فتحه ، وكذلك معظم فارس الشرقية المعروفة الآن بأفغانستان فقصى على دولة الفرس ، وقتل في ولايته كسرى يزدجرد ، وانتهت أيام الدولة الساسانية في تلك المملكة الشاسعة الاكتاف ، المتراصة الأطراف ، ورفع الإسلام على ربوعها أعلامه ، وسادت على أهلها كلمته إلى اليوم .

بعد أن انتظم لابن عامر أمر الفتح وخلد لنفسه هذه المنقبة سمت همته إلى العمران ، ورمى بطرفه إلى أقصى غاية في الإحسان ، فعول على جعل أراضى البصرة جنة تنبت الرياحان ، وأن يصل ما بين العراق والحجاز بالقرى العامرة ، والمياه النابغة ، لتذهب وحشة البادية من النفوس ، ويتمهد طريق القوافل ، ويأمن ابن السبيل ، وتسهل مسالك التجارة ، فأخذ باحتفار الأنهر في سواد البصرة ، فاحتفر كما في رواية ابن قتيبة ثلاثة أنهر : نهر البصرة الذى يمر في السوق ، والنهر المعروف لذلك العهد بنهر أم عبد الله وهى أمه ونهر الأبله : ثم بدأ بالبادية فاتخذ فيها النجاج وهى قرية بالبادية فغرس فيها الغرس ، فكانت تدعى نجاج ابن عامر : واتخذ القريتين وغرس بها نخلا ، وأنبط عيوناً تعرف بعيون ابن عامر ، وبينها وبين النجاج ليلة على طريق المدينة ، وحفر الحفير ثم حفر السمينة ، واتخذ بقرب قباء قصرأ وجعل فيه زنجاً ليعملوا فيه : وكلها أماكن ومياه بين البصرة والحجاز أزهرت جوانبها وسالت بهمته وجده عيونها ، وكان يرمى بطرفه لأبعد من هذه الغاية .
لو استمر في ولاية البصرة ، ويريد جعل القرى والمحطات ، بين البصرة ومكة كاسلسلة المتصلة الحلقات ، فقد نقل ابن قتيبة أن ابن عامر كان يقول : لو تركت لخرجت المرأة في حداجتها (محفتها) على دابتها ، ترد كل يوم على ماء وسوق حتى توافي مكة ، وروى ابن عساكر وابن الأثير وابن عبد البر أن ابن عامر اتخذ الحياض بعرفة ، وأجرى إليها العين وسقى الناس الماء ، فذلك جار إلى اليوم ، واتخذ في البصرة السوق واشترى دوراً فهدمها وجعلها سوقاً ، فهو كما أراد بشق الأنهار لإحياء الأرضين واستثمارها ، وترغيب الناس بالزراعة وجنى خيرها ، أراد بتمهيد السبل وإقامة الأسواق ترويج التجارة ، وترغيب أهلها والقيام على شؤونها ، أداء لحق الرعية وقياماً بواجب الإمامة والعدل ، هذه المهمة التى لا مرتقى فوقها لهمة ، والمنزلة التى لا متناول بعدها لذى إحسان ، فلقد بلغ ابن عامر بأعماله غاية من الجدد ،

وتحرى المصلحة، والإتيان بكل ما هو نافع للأمة والدولة ، ليس وراءها متجاوز لعامل ، لتحقيق به المدح ، وحرى به الاقتداء ، ولو سار كل عمال عثمان سيرته الاستحالة على دعاة الفتنة والمنكرين على عثمان التذرع إلى الإيقاع به بسيرة العمال ، والطعن على الولاة فرحمه الله ورضى عنه .

كبرمه :

مناقب ابن عامر كثيرة وأخلاقه كلها جميلة . قال ابن عبد البر في الاستيعاب ، كان عبد الله بن عامر شيخاً كريماً ، جليلاً ، ميمون النقيية كثير المناقب : وقال ابن الأثير في أسد الغابة : كان أحد الأجواد المدوحين : وأخرجه الثلاثة :

ولا جرم فقد كان من أخص صفاته وأعظم مناقبه شهرة بين الناس الكرم الذى تحلى بحلله ، وبلغ غاية مداه . فإنه كان مموطاً إلا كفاف ، طويل اليد بالمعروف ، رحب الصدر بالقاصد ، كثير الصلة خصوصاً لذوى قرابته من قریش ، نقل ابن عساکر من رواية ابن إسحق قال ، قدم ابن عامر على عثمان فقال له : صل قومك من قریش ، ففعل وأرسل إلى علي بن أبى طالب بثلاثة آلاف درهم وكسوة . فلما جاءه به قال (أى على) : الحمد لله إنما نرى ترات محمدياً كله غيرنا : فبلغ ذلك عثمان فقال لابن عامر : قبح الله رأيك ، أنرسل إلى علي بثلاثة آلاف درهم ، قال كرهت أن أغرق ولم أدر مارأيك ، قال فأغرق ، فبعث إليه بعشرين ألف درهم وما يتبعها ، فراح على إلى المسجد فاقبى إلى حلقة وهم يتذاكرون صلوات ابن عامر هذا الحى من قریش ، فقال على هو سيد فتیان قریش غير مدافع : قال وتكلمت الأنصار فقالت : أبت الطلقاء إلا عداوة ، فبلغ ذلك عثمان فدعا ابن عامر فقال : أيا عبد الرحمن ق عرضك ودار الأنصار فألفتهم ما قد علمت ، فأفشى فيهم الصلوات والسكسا فأتوا عليه ، فقال له عثمان أنصرف إلى عمالك .

فانصرف والناس يقولون . قال ابن عامر وفعل ابن عامر : فقال عبد الله ابن عمر ، إذا طابت المكتسبة زكت النفقة .

وروى الطبري عن سحيم بن حفص قال : كان ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب شريك عثمان في الجاهلية ، فقال العباس بن ربيعة لعثمان . اكتب لي إلى ابن عامر يسلفني مائة ألف ، فكتب فأعطاه مائة ألف وصله بها وأقطعته داره دار العباس بن ربيعة اليوم :

وروى ابن عساكر عن ميمون بن مهران قال ، أراد ابن عمر شراء أهل بيت كان يعجبهم ، فأعطى بهم ألف دينار فأنى عليه ذلك ، فاشتراهم عبد الله بن عامر بن كريز بعشرة آلاف دينار وأعتقهم .

وهذه غاية من كرم الخلق وبسط اليد بالمعروف لا يبلغها إلا القليل من الأجواد ، وإن إعتاق أهل بيت برمتهم من الرق ، وبذل مثل ذلك الثمن فيهم لمطلق الأجر ، وبلا عوض إلا حسن الذكر ، لعمل جليل محمود ، وأثر كبير معدود ، فرحم الله تلك النفوس الطاهرة التي بلغت من الفضيلة والفضل مكاناً ليس وراءه غاية لمستزيد .

ومن هذا القبيل أيضاً ما رواه عن عبد الله بن محمد القروي قال اشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره التي في السوق ، ليسرع بها داره على السوق بثمانين أو سبعين ألف درهم ، فلما كان الليل سمع بكاء أهل خالد فقال لأهله : ما هؤلاء : فقيل له سيكون دارهم . فقال يا غلام فأتهم فأعلمهم أن الدار والمال لهم جميعاً .

وعن الأصمعي قال أرتج على عبد الله بن عامر بالبصرة يوم أضفى فكث ساعة ثم قال : لا أجمع عليكم عياً ولوئماً ، من أخذ شاة من السوق فهي له وثمانها على .

وقيل لما ولى ابن عامر البصرة انحدر إليه صديقان له من أهل المدينة ، كان أحدهما عبد الله بن جابر الأنصارى ، والآخر من ثقيف ، فأقبلا يسيران حتى إذا كانا بناحية البصرة ، قال الأنصارى للثقفى هل لك فى رأى رأيته . قال اعرضه . قال رأيت أن نبيع رواحلنا وتتناول مطاھرنا ، ونمس ماہ ثم نصلى ركعتين ، ونحمد الله على ما قضى من سفرنا ، قال هذا الذى لا يجرى ، فتوضيا ثم صليا ركعتين ركعتين ، فالتفت الأنصارى إلى الثقفى فقال . يا أبا ثقيف ما رأيك ؟ قال موضع رأى هذا قضيت سفرى ، وأنصبت بدنى ، وأنصيت راحلتى ، ولا مؤمل دون ابن عامر . فهل لك رأى غير هذا ؟ قال نعم لى لما صليت هاتين الركعتين فكرت ، فاستحييت من ربى أن يرانى طالبا رزاق من غيره . اللهم رازق ابن عامر ارزقنى من فضلك ، ثم ولى راجعا إلى المدينة ودخل الثقفى البصرة ، فكث أيا ما فأذن له ابن عامر فلما رآه رحب به ثم قال ، ألم أخبر أن ابن جابر خرج معك^(١) نخبره خبره فبكى ابن عامر ثم قال . أما والله ما قالها أشراً ولا بطراً ، ولكن رأى مجرى الرزق ومخرج النعمة ، فعلم أن الله الذى فعل ذلك فسأله من فضله ، ثم أمر للثقفى بأربعة آلاف درهم وكسوة ومطرف ، وأضعف ذلك كله للأنصارى فخرج الثقفى وهو يقول :

أمامة ما حرص الخريص بزائد	فتيلا ولا زهد الضعيف بضائر
خرجنا جميعاً من مساقط روسنا	على ثقة منا بجود ابن عامر
فلما أنحننا الناعجات بيايه	تأخر عني اليربى ابن جابر
وقال ستكفينى عطية قادر	على ما يشاء اليوم بالخلق قاهر
وإن الذى أعطى العراق ابن عامر	لربى الذى أرجو لسد مفاقرى

(١) نقل هذا الخبر ابن عساكر من طريقين قال فى الاول منهما وكان لابن عامر رجل مقيم بالمدينة فكسب إليه بشخص من شخص يريد ولا يقدم الرجل إلا على جائزة معدة . وهذا سبب قوله للثقفى ألم أخبر ... الخ الخبر .

ولقد كان ابن عامر لكرمه ولين شيمته ، ولما تعود منه قاصدوه من
عدم المطال ، إذا أبطأ على أحدهم بالعطا عاتبه ثقة بسعة صدره ، وهؤ كدأ
نواله ، ومن ذلك ما نقله ابن عساكر قال وعد ابن عامر أنس بن أبي أنس
شيئاً وقد كان عوده ذلك فطله ، فقام إليه بمكة في الموسم فقال :

ليت شعري عن خليلي ما الذي غاله في الود حتى ودعه
لا تنى بعد إذ أكرمتني وفييح^١ عادة منذرعة
واذكر البلوى التي أبليتني ومقالا قلته في المجموعة
لا يكن برقك برقاً خلبا إن خير البرق ما الغيث معه

وفي ابن عامر يقول زياد الأعمم مادحاً له :

أخ لك لا تراه الدهر إلا على العلات بساما جواداً
أخ لك ما مودته بمزق إذ ما عاد فقصر أخيه عادا
سألناه الجزيل فما تلكا وأعطي فوق منيتنا وزادا
وأحسن ثم أحسن ثم عدنا فأحسن ثم عدت له فماداً
مراراً ما رجعت إليه إلا تبسم ضاحكاً وثنى الوسادا

وفاء :

روى ابن عساكر عن عمر بن ميمون أن عبد الله بن عامر حين مرض
مرضه الذي مات فيه دخل عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وفيهم ابن
عمر . قال : ما ترون في حالي ، فقالوا ما نشك لك في النجاة ، قد كنت تقرى
الضيف وتعطى المحتبط^(١) . وعن ميمون قال : بعث عبد الله بن عامر حين

(١) قال أبو عبيد المحتبط الذي يسأله عن غير معرفة كانت بينهما ولا يد سلفت منه إليه
ولا قرابة .

حضرته الوفاة إلى مشيخة أهل المدينة ، وفيهم ابن عمر فقال . أخبروني كيف كانت سيرتي ، قالوا كنت تتصدق وتعشق وتصل رحمك . قال وابن عمر ساكت . فقال يا أبا عبد الله ما يمنعك أن تتكلم . قال قد تكلم القوم . قال : عزمت عليك التكلم فقال ابن عمر إذا طابت المكتسبة زكت النفقة وستقدم فتري .

قال ابن منده : توفي النبي صلى الله عليه وسلم ولعبد الله بن عامر ثلاث عشرة سنة وتوفي ، هو سنة تسع وخمسين ، وقال الحافظ أبو نعيم إنه توفي سنة ستين ، وفي أسد الغابة أنه توفي سنة ثمان وخمسين ، وأوصى لعبد الله ابن الزبير ، وروى ابن عساكر أن عبد الله بن عامر توفي قبل معاوية ، يرحم الله أبا عبد الرحمن بن نفاخر وبمن نباهي :

وإن رجلاً تفاخر به قريش ، ويقول به معاوية مثل هذا القول لرجل كبير جدير بالإعظام ، حقيق بتخليد الذكر ، فرحمه الله ورضى عنه ، وكان ابن عامر كثير المال والولد ، فكان له النجاج الذي يقال له نجاج ابن عامر (مر ذكره) وله الجحفة ، وله بستان ابن عامر على ليلة من مكة ، وله آبار في الأرض كثيرة ، كما ذكر ذلك ابن عساكر . وروى عنه المحدثون حديثاً واحداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو (من قتل دون ماله فهو شهيد)^(١) انتهى .

(١) قال ابن عساكر في سبب روايته لهذا الحديث أن معاوية أراد أن يستعفى ماله وهو أمير على البصرة فقال ابن عامر : والله لأقاتلنه دون مالي فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول .. الحديث .

حبيب بن مسلمة الفهرى

نسبه ومولده ونشأته

أسمه :

هو حبيب بن مسلمة بن مالك الأكبر بن وهب بن ثعلبة بن وائلة
ابن عمرو بن شيبان بن محارب بن فهر بن مالك بن النضر القرشى الفهرى ،
يكنى أبا عبد الرحمن ، ويقال له حبيب الدروب ، وحبيب الروم ، لكثرة
دخوله إليهم ونيله منهم .

مولده ونشأته :

ذكر فى أسد الغابة أن حبيب بن مسلمة كان له من العمر لما توفى النبي
صلى الله عليه وسلم اثنتا عشرة سنة . وقد كانت وفاة النبي صلى الله
عليه وسلم فى صفر من سنة (١١ هـ) ولذا فيسكون مولد حبيب قبل
الهجرة بسنتين ، فهو مكى المولد لإسلامى النشأة . وقد اختلفوا فى هل
كانت له صحبة أم لا ، وأكثرهم يقول كان له صحبة إلا أنه لم يفرز مع النبي
صلى الله عليه وسلم ، وفى رواية لابن عساكر عن ابن أبى مليكة عن حبيب
ابن مسلمة الفهرى . نه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة فأدركه أبوه فقال
يا نبي الله يدى ورجلى . فقال له النبي ارجع معه فإنه يوشك أن يهلك ، فهلك
أبوه فى تلك السنة ، وفى رواية له أيضاً أنه رجع إلى المدينة وغزا مع النبي
آخر غزوة وهى غزوة تبوك ، وهذه الرواية تؤيد قول من قال إن له صحبة ،
وقد كان حبيب من أشرف قريش كما فى رواية عن الزبير بن بكار ذكرها
فى أسد الغابة . بل كان من شجعانهم وسراهم ورافعى راية مجدهم ، وللبزري فى
الحزم وحسن القيادة منهم . وهو على ما أرى فى طبقة خالد بن الوليد ،

وأبى عبيدة ، في الشجاعة والإقدام والآثر الجليل في الفتح ، ذلك لأنه شب منذ نعومة الأظفار على الحرب ، وألف من صغره الطعن والضرب ، فقضى معظم أيام حياته في الحروب . فكان له في تشييد دعائم الإسلام في البلاد القاصية ، والممالك النائية ، جهاد طويل ، وعمل في الفتح جليل ، لا سيما في الجزيرة وأرمينيا والقوقاس كما سترى ، وبما يدل أنه نشأ من صغر سنه على الحرب مارواه ابن عساکر أن حبيباً ذهب في خلافة أبي بكر إلى الشام للجهاد فكان على كردوس من السكرا ديس في اليرموك . لذا لما أدمن الحرب من صغر سنه نشأ قائداً محمكاً من أعظم قواد الفتح في عصره ، كما يعلم ذلك من سيرته فيما يلي إن شاء الله .

فتوحاته :

اختلف الرواة في هل إن عمر بن الخطاب ولي حبيباً في خلافته أم لا والأرجح أن أبا عبيدة بن الجراح في عهد ولايته على الشام ، ولاه أنطاكية ثم لما فتح عياض بن غنم الجزيرة كان حبيب على بعض جيوشه ، ولما ولي عمر بن الخطاب سراقه بن عمرو على غزو الباب ، وكتب إلى حبيب فيمن كتب إليهم بإمداد سراقه ، سار حبيب من الجزيرة إلى أرمينيا ، ومنها إلى القوقاس كما مر الخبر عن ذلك في الكلام على فتح أرمينيا والقوقاس ، وفتح هو وعبد الرحمن وسراقه وغيرهم من القواد بلاد أرمينيا ، ثم انتقضت ثانية فغزاها في خلافة عثمان ، حتى أتم فتحها كما رأيت ، وقد وعدنا فيما مضى بإيراد الخبر عن مسير حبيب إلى أرمينيا وفتحه فيها ، وما كان له من البلاء الحسن في الحروب التي كانت للمسلمين في الجزيرة وأرمينيا فنقول :

كان حبيب بن مسلمة مع أبي عبيدة بن الجراح في حروبه في شمال سورية ، ولما فتح أبو عبيدة أنطاكية الفتح الثاني بعد انتفاضها ولي عليها حبيب . ابن مسلمة فتولاها ، وقاد الجند بنفسه لأول مرة على ما أظن ، فقصد جبل

اللكام وكان فيه قوم أشداء يسمون الجراجمة فلم يقاتلوه ، بل بدروا بطلب الأمان والصلح ، فصالحوه على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وحيوفاً ومسالخ في جبل اللكام ، وأن لا يؤخذوا بالجزية ماداموا من أعوان المسلمين وجندهم . ودخل معهم في هذا الصلح وعلى هذا الشرط كثير من الأنباط وأهل القرى ، فكانوا يستقيمون تارة للولاة ويعرجون أخرى ، حتى غزاهم مسلمة ابن عبد الملك وأجلاهم عن جبل اللكام ، وأن ينزلوا حيث أحبوا من البلاد ويكونوا جنداً للدولة ويبقوا على نصرانيتهم ، ولا تؤخذ منهم الجزية ، وأن يجرى عليهم الرزق بكفية الجند ، فنزل بعضهم حمص ، وبعضهم تيزين (من عماله حماة) وغيرها ، ولعل الحى الموجود إلى هذا العهد في مدينة حماة المعروف بحارة الجراجمة ينسب إلى أولئك القوم لأنه نزل منهم فريق فيه . ثم لما سار عياض بن غنم إلى فتح الجزيرة كان حبيب في جملة قواده ، ففتح سميساط وقرقيسيا وقرى حولها ، ثم فتح شمشاط وملطية وغيرها ، ثم سار إلى أرمينيا بأمر عمر ، ففتح منها ما فتح ، وذلك الفتح الأول الذى انتقمته بعده ، وقصدها مرة ثانية على عهد عثمان ، وقد بسطنا كيفية مسيره إليها ، وأنه لما انتهى إليه سلمان بن ربيعة الباهلي الذى كان أرسله عثمان رضى الله عنه مدداً له ، سار حبيب من غرب أرمينيا وسلمان من شرقها ، وقد ذكرنا ما فتحه في طريقه سلمان وأوردنا الخلاف بين المؤرخين في خبر ذلك الفتح ، وفي المكان الذى اجتمع فيه حبيب وسلمان ، وبقى أن نذكر ما فتحه حبيب بن مسلمة يومئذ حتى بلغ القوقاس من جهة الغرب ، كما بلغه سلمان من جهة الشرق .

ذكرنا في سيرة عثمان أن سلمان بعد أن فتح قاليقلا أجليت عليه الروم بجموع عظيمة ، وأنه يبتهم قبل وصول المدد إليه فاجتاحهم ، وذكرنا في فتوح البلدان أن حبيباً لما سار من قاليقلا بعد وصول المدد إليه نزل مر بالافأناه بطريق خلاط ، بكتاب عياض بن غنم ، وكان عياض قد أمته على نفسه وماله

وبلاده ، وقاطعه على إناوة فأنفذه حبيب له ، ثم نزل منزلا بين الهرك ودشت
الورك ، فأناه بطريق خلط بما عليه من المال ، وأهدى له هدية لم يقبلها
منه ، ونزل خلط ثم سار إلى الصيسانة فلقية فيها صاحب مكس ، وهي
ناحية من نواحي البسفر جان فقاطعه على بلاده ، ووجه معه رجلا وكتب
إليه كتاب صلح وأمان ، ووجه إلى قري أرجيش وباذغيس من غلب عليها ،
ثم أتى ازدساط واجتاز نهر الرس ، وأتى مرج دibil وغلب على جميع تلك
النواحي ، حتى بلغ سراج طير وبفروند فأناه بطريق دibil فصالحه عنها على
إناوة يؤديها ، وعلى مناصحة المسلمين وقرانهم (ضيافتهم) ، ومعاونتهم على
أعدائهم ، وهذه صورة كتاب صلح دibil .

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من حبيب بن مسلمة الفهرى ،
لنصارى أهل دibil ومجوسها ويهودها شاهدم وغائبهم ، إني أمنتكم على
أنفسكم وأموالكم وكنائسكم وبيعكم وسور مدينتكم ، فأتم آمنون ، وعلينا
الوفاء بكم بالعهد ما وفيتم ، وأديتم الجزية والخراج . شهد الله وكفى بالله
شهيدا . وختم حبيب بن مسلمة وأناه بطريق البسفر جان فصالحه على جميع
بلاده ، وقصد السيسجان غاربه أهلها فزهمهم وغلب عليهم وسار إلى جرزان
فأناه رسول بطريقها ، وقدم إليه هدية وسأله كتاب صلح وأمان فكتب
حبيب إليه :

أما بعد فإن (نقل) رسولكم قدم على وعلى الذين معي من المؤمنين ،
فذكر عنكم أنا أمة أكرمنا الله وفضلنا ، وكذلك فعل الله وله الحمد كثير ،
وصلى الله على محمد نبيه وخيرته من خلقه وعليه السلام ، وذكركم أنكم أحبة
سلمنا ، وقد قومت هديتكم وحسبتها من جزيتكم ، وكتبت لكم أمانا
واشترطت فيه شروطا ، فإن قبلتموه ووفيتم به ، وإلا فاذنوا بحرب من الله
ورسوله ، والسلام على من اتبع الهدى .

وأنت ترى من مضمون هذا الكتاب كيف كان المسلمون يتجاوزون عن كثير من الضرائب التي كان يتناولها غيرهم من الدول الفاتحة ، ونقول ضرائب لأن الهدايا التي كان يقدمها الولاة لأرباب الدولة سواء كان في فارس أو غيرها كانت كضريبة مقررة لامناص لهم منها ، يدل ذلك عليه ما سبق لإيراده في أخبار الفتح من ذكر الهدايا التي كانت تقدم للأمراء الفاتحين من المسلمين وكانوا يأبون قبولها إلا إذا احتسبت من الخراج أو الجزية ، وما نعرف في تاريخ الصحابة أحداً قبل مثل هذه الهدية دون احتسابها من الصلح الذي يصالح عليه العدو إلا عبد الله بن عامر إذ قدم لأحد أمرائه في خراسان هدية فسأل سبيها ، ف قيل له هذه عادة عندنا فأبى قبولها إلا بعد استشارة الأحنف بن قيس الأمير يومئذ من قبل ابن عامر ، فلما استشاره عنها أبى قبولها أيضاً وأمره أن يعرضها على ابن عامر فلما عرضها عليه أخذها : فقالوا ضمنها القرشي وكان مضماً ، إشارة إلى عدم الرضا عنه بقبوله لها . وإن مثل هذه العفة من أولئك الفاتحين تدل على بلوغهم غاية من العدل وحسن السيرة لا يبلغها غيرهم من رجال الفتح ودول الاستعمار ، ومن دقق النظر في تاريخ تلك الأمة يعجب من عاصرها من المؤرخين ، ومن بعدهم من أهل الملل الأخرى ، في عدم إنصافهم لها وإعراضهم عن ذكر أخلاقها على الوجه الذي يقتضيه الحق والعدل ، لا الوجه الذي يقتضيه الغرض والتعصب الذميمة .

هذا ثم إن حبيباً سار إلى نفليس (عاصمة كرجستان) فصالحه أهلها ، وكتب لهم كتاب صلح هذه صورته :

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لأهل نفليس ، من منجليس من جرزان القرمز بالأمان على أنفسهم وبيعتهم ووصوأمهم وصلواتهم ودينهم على إقرار بالصغار والجزية على كل أهل بيت

دينار ، وليس لكم أن تجمعوا بين أهل البيوتات تخفيفاً للجزية ، ولا لنا أن نفرق بينهم استكثاراً منها ، ولنا نصيحتكم وضلمكم على أعداء الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ما استطعتم ، وقرى المسلم المحتاج ليلة بالمعروف من حلال طعام أهل الكتاب لنا ، وإن انقطع برجل من المسلمين عنكم فعليكم أداؤه إلى أدنى فئة من المؤمنين إلا أن يحال دونهم ، وإن أنبتم وأقمتم الصلاة فأخواننا في الدين وإلا فالجزية عليكم ، وإن عرض للمسلمين شغل عنكم فقهركم عدوكم فغير مأخوذین بذلك ولا هو ناقض عهدكم ، هذا لكم ، وهذا عليكم ، شهد الله وملائكته وكفى بالله شهيداً اه .

ثم إن حبيباً فتح كسفر ييس وسمسخي وخنان والجردمان وكستسجي شوش وبازليت وقرجيت وثراليث وخواخيط وخواخيط وأرطهال ، وغيرها من بلاد إيبيريا وأرمينيا الغربية ، منها ما هو بالحرب ومنها ما هو بالصلح حتى بلغ القوقاس من جهة البحر الأسود كما بلغه سلمان من جهة بحر قزوين ، كما مر الخبر عن ذلك في سيرة عثمان رضي الله عنه . ولما فتح حبيب ما فتح من أرمينيا كتب إلى عثمان بذلك فوافاه كتابه ، وقد نعى إليه سلمان فهم أن يوليه جميع أرمينيا ، ثم رأى أن يجعله غازياً بشغور الشام والجزيرة لفنائه ونكايته في الروم ، فورد عليه كتاب عثمان يأمره بالانصراف فانقلب راجعاً إلى الشام ، ونزل حمص ثم أخذه معاوية إلى دمشق وكان يردد الغزو إلى الروم ، وله في الحروب معهم بلاء حسن ، لما عرف عنه من الشجاعة والإقدام ، وحسن قيادة الجيوش ، ففضى كل أيام حياته في الجهاد ، وتدويع البلاد ، فكان من خيرة قواد المسلمين . وأبطال الفاتحين كما رأيت من أخباره في فتح الجزيرة وأرمينيا فرحمه الله ورضى عنه

أخباره في الفتنة

لما نزل بعثمان ما نزل كان حبيب بن مسلمة بالشام ، وأرسله معاوية لتهجده فلم يدركه بل قتل قبل وصوله إلى المدينة .

روى في التهيد والبيان عن سعيد بن عبد الله الجمحي ، قال ، قال حبيب ابن مسلمة رأيت فيما يرى النائم أن بعيراً عربياً سميناً ، وبيننا هو قائم انتهى إليه أعراب مذلي (١) ، فأطافوا به ، تخففتهم عليه وصحت بهم فبادروه فعقروه ثم اتهموه ، فلما أصبحت أتاني أصحابي وإني لأقصها عليهم إذ جاءني رسول معاوية فأثبته ، فقال يا حبيب إن عثمان قد ترك منزولاً به ، ولا أدري إلى ما يترامى هذا الأمر فتجهز وأعجل ، فرجعت إلى أصحابي فأخبرتهم الخبر واستكتمتهم الرؤيا ، فبينما نحن في ذلك قدم عليهم كتاب آخر وقد حصر ، فأرسل إلى (أي معاوية) وأخبرني الخبر ، وأخرجني فخرجت فأقمت لأصحابي بالطريق حتى يلحقوني .

وروى عن أبي حارثة وأبي عثمان قالا ، لما أتى معاوية الخبر أرسل إلى حبيب بن مسلمة الفهري فقال : إن عثمان قد حصر ، فأشر على برجل ينفذ الأمر ولا يقصر ، فقال ما أعرف ذلك غيري ، قال أنت لها فأشر على برجل أبعثه على مقدمتك ، لا يهتم رأيه ولا نصيحته ، أعجله في سرعان الناس فقال أمن جندي أم من غيرهم ؟ فقال من أهل الشام ، فقال إن أردته من جندي أشرت عليك ، وإن كان من غيرهم فإنني أكره أن أغرك بمن لا علم لي به ، فقال فهاته من جنئك قال يزيد بن شبيعة (أو مشجعة) الحيرى ، قال كما تحب ، فإنهم إني ذلك إذ قدم الكتاب بالحصر (لعله كتاب عثمان) فدعاهما ثم قال لهما ، الزجاء سيرا ، فأغيثا أمير المؤمنين وتعجل يا يزيد ، فإنني

(١) أي خائفون غير معلمين .

قدمت يا حبيب وعثمان حتى فهو الخليفة ، والأمر أمره فأنفذ لما يأمرك ، وإن وجدته قد قتل فلا تدعن أحداً أشار إليه ، ولا أعان عليه إلا قتلته ، وإن أتاك شيء قبل أن تصل فأقم حتى أرى من رأى ، وبعث يزيد بن شجرة فأمضاه على المقدمة في ألف فارس على البغال يقودون الخيل معهم ، الإبل عليها الروايا (القرب) واتبهم حبيب بن مسلمة وهو على الناس ، وخوجوا جميعاً ، وأخذ يزيد السير فأنهى إلى ما بين خيبر والسقيا ، فلقيه الخبر ثم لقيه النعمان بن بشير بالخبر ، ومعه القميص الذي قتل فيه عثمان (رضى الله عنه) مخضب بالدماء فرجع يزيد وحبيب ، وفي هذا الخبر ما يدل على اهتمام معاوية بأمر عثمان ولإسراعه في إنجاده منذ وصله الخبر ، خلافاً لما جاء في بعض الروايات من أنه تباطأ في إغاثة عثمان رضى الله عنه والله أعلم .

هذا وقد ذكر بعض الرواة أن حبيباً حضر وقعة صفين مع معاوية ولم يزل معه في حروبه ، وقال أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب ، روينا أن الحسن بن علي رضى الله عنهما قال لحبيب بن مسلمة في بعض خرجاته بعد صفين . يا حبيب رب مسير لك في غير طاعة الله . فقال له حبيب : أما إلى أبيك فلا . فقال له الحسن بلى والله ، ولقد طاوعت معاوية على دنياه ، وسارعت في هواه ، فلئن كان قام بك في دينك ، لقد قعد بك في دينك ، فليتركك إذ أسأت الفعل ، أحسنت القول ، فتسكون كما قال الله تعالى (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً) ولكم شك كما قال الله تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) على أنه بما يضعف هذه الرواية شهرة حبيب بالإصلاح ، وحسن اعتقاده بعلي وعثمان ، وأنه من فريق المعتدلين الذين قالوا تتولى عثمان وعائياً ولا تبرا منهما ، ونشهد عليهما وعلى شيعتهما بالإيمان ، ونرجو لهم ونخاف عليهم ، كما روى ذلك ابن عساکر في حديث سرّ معنا ذكره في أخبار الفتنة ، ولو فرضنا صحة خبر أبي عمر

الذى قال فيه حبيب للحسن ما قال لكان ذلك الخبر دليلاً واضحاً على أن كل فريق من المختلفين في الفتنة كان يرى نفسه على حق ، إذ لا يتأتى لمثل حبيب بن مسleme على تقواه وطول جهاده وشهرته بالصلاح أن ينضم إلى معاوية وهو يعتقد أنه على غير حق ، ويقول للحسن ما قال ، وأما إن معاوية طالب دنيا وعلى طالب آخرة فلا يمنع ذلك كل حزب من أحزابهما من الاعتقاد بفضل صاحبه ، وأنه أهل للخلافة ما دام كل منهما يطالب بها ويقا تل عليها إلا أن هناك فرقاً بين علي ومعاوية ، في أن الأول يطالبها بحق البيعة التي وقعت له وبحق الصحبة القديمة وشرف القرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم ولو تمت له لكان خيراً للمسلمين ، وأبقى على أصول الشورى الانتخابية . والثاني يطالبها بالقوة ، والخلافة التي تؤخذ بالقوة مصيرها إلى الاستبداد ، ولكن ليس لهذا نصر معاوية حبيب وأمثاله من وجوه المسلمين وصلحا لهم ، بل لمحض الاعتقاد بأهلية معاوية ولأن القوم لم يكن يعتقد بعضهم العصمة أو النبوة أو ألوهية في البعض الآخر ، كما حدث ذلك بعد بين المسلمين ، بل كانوا يرون أنهم كلهم في الإسلام والصحبة سواء وإن امتاز بعضهم عن بعض بالفضائل الشخصية والخصال الجميلة ، لذا كان مما يدل على أن حبيباً وأمثاله لم يمالئوا معاوية إلا لمحض الاعتقاد بالحسن به لا لغرض آخر ، وأن حبيباً كان لا يزال يطالب معاوية بسنة أبي بكر وعمر حتى مات كما سترى بعد ، وهذا ما يدعونا إلى أن نحسن الاعتقاد بكل الصحابة الذين كان لهم يد مع علي أو معاوية ، و ضلع في تلك الفتنة ، ولو جز منا بأن علياً كان أحق من معاوية ، إذ أن كل فريق من المتحاربين يومئذ كان يرى لصاحبه من الحق ما لم نره نحن وما يوجب انتصاره له والانضمام إليه ، فحكمنا على فريق بأنه على غير الحق حكم على الفريق الآخر ، كما بسطنا الكلام على هذا في أكثر من محل من هذا الكتاب ، وإنما عدنا إلى الإشارة إليه تنبيهاً للشيع الإسلامية التي لا يزال بعضها يغلو في مدح بعض الصحابة والاعتقاد بهم غلواً ينزلهم في منزلة

الأنبياء ، ويغلو في وصم بعضهم بكل شنيعة غلواً ينزلهم في منزلة العامة والدهماء ، وكلا الأمرين تفريط وإفراط يعيبان تاريخ الأمة ، لا سيما منها أهل ذلك الصدر الذين سبق لهم من الفضل على المسلمين في بث دعوة الإسلام . وقذوئخ الممالك والبلدان ، وتأسيس بنيان الدولة التي نشرت على معظم الأرض جناح السلطان ، ما يوجب على كل فرد من أفراد المسلمين عنده ذرة من العقل ، وفليل من الإنصاف ، أن يقدرهم قدرهم ، ولا يبخسهم من الثناء حقهم ، ويعترف على مآل الشعوب بفضل كل فريق منهم ، والتنويه بكل خصلة حسنة لكبارهم ، وقادة الأمر منهم ، لإعلاء لشأنهم ، وتنوياً بحليل عملهم ، وجميل صفتهم ، وسداً لذرائع القدح فيهم ممن يحاول احتقار أعمالهم . واستصغار أقدارهم ، من خصوم المسلمين من أهل الملل الأخرى .

* * *

شيء من سيرته

أجمع الرواة على أن أهل الشام كانوا يثنون على حبيب بن مسلمة ثناء حسناً ، ويعتقدون فيه منتهى الصلاح ، لهذا كانوا يقولون كان حجاب الدعوة . وبما يدل على صلاحه ما رواه أبو عساكر أن حبيباً دخل العلياء (١) بحمص فقال ، وهذا من نعيم ما ينعم به أهل الدنيا ، ولو مكثت فيه ساعة لمأكت ما أنا بخارج منه حتى أستغفر الله تعالى فيه ألف مرة ، قال فما فرغ حتى ألقى الماء على وجهه مراراً (لعله لأنه كان يخشى عليه) ، ومن شدة تقواه وصلاحه كان دائماً يلح على معاوية بالعمل بسيرة أبي بكر وعمر ، وكان معاوية يخشاه لهذا السبب فقد روى ابن عساكر عن ابن عجلان قال : لما أتى معاوية

(١) قوله علياء يظهر من قرينة الكلام الذي جاء قبله أنه اسم حمام بحمص أو لعله بستان

موت حبيب بن مسلمة بسجد ، ولما أتاه موت عمرو بن العاص بسجد ، فقال له قائل : يا أمير المؤمنين بسجدت لوفدين وهما مختلفان . فقال أما حبيب : فكان يأخذني بسنة أبي بكر وعمر ، وأما عمرو بن العاص : فيأخذني بالإمرة الإمرة فلا أدري ما أصنع .

وفوده على عمر وولايته

روى ابن عساكر من طرق أن حبيب بن مسلمة كان يلى الصوائف على عهد عمر ، ويبلغ عمر عنه ما يحب ، ولم يثبتته (أى بالجيش) حتى قدم عليه فى حجه ، وكان تام القامة فسلم على عمر : فقال له إنك لى قناة رجل ، قال لى والله وفى سنائها ، وفى رواية أنه قال له إنك لجيد القنات ، قال وجيد سنائها ، قال عمر افتحوا له الخزان ، فليأخذ ما شاء ، ففتحوها له فعدا عن الأموال وأخذ السلاح ، وفى رواية لابن عساكر أن عمر لما عزل عياض بن غنم عن الجزيرة ولى حبيب بن مسلمة ، وضم إليه أرمينيا وأذربيجان ثم عزله ، وولى عمر بن سعد الأنصارى وسعيد بن عامر بن حذيم ، وقد كان كثير الغزو إلى الروم والنكاية فيهم ، فدخل مرة أرض الروم على جيش فاهتم عمر بأمرهم ، فلما بلغه خروج حبيب ومن معه خر ساجداً لله .

ولإدمان حبيب الحرب أصبح مشهوراً بالشجاعة ، محبوباً من الناس ، منوها باسمه على ألسن الشعراء ، وفيه يقول حسان بن ثابت بعد حادث عثمان رضى الله عنه :

يأيها الناس أبدوا ذات أنفسكم لا يستوى الصدق عند الله والكذب
قوموا بحق ملك الناس تعترفوا بغارة عصب من بعدها عصب
فيهم حبيب شهاب الموت يقدمهم مستلثماً قد بدا فى وجهه الغضب
وفيه يقول شريح بن الحارث من أبيات :

ألا كل من يدعى حبيباً وإن بدت مروءته يفدى حبيب بنى فهر

وفاته وولده

في رواية لابن عساكر أن حبيباً دخل الحمام فأطال المسك فيه فرض مرضه الذي مات فيه ، وقد اختلف المؤرخون في محل وفاته فقال البلاذري في فتوح البلدان إنه لما أمره عثمان بالانصراف إلى الشام نزل حصص فنقله معاوية إلى دمشق فتوفي فيها سنة (٤٢ هـ) وهو ابن ٣٥ سنة . وقال ابن عبد البر إن معاوية وجهه إلى أرمينيا والياً عليها فتوفي فيها سنة (٤٢ هـ) وكذلك قال ابن سمد وابن عساكر وأنه مات فيها ولم يبلغ الخمسين . فرحمه الله ورضى عنه .

ولده :

روى ابن عساكر عن أبي زرعة عبد الرحمن بن عمرو قال ، لحبيب بن مسلمة ولد كثير عندنا بحوران من جند دمشق ومنزلهم بطرف من أطراف حوران كثير عددهم وقد كان بعضهم يصير إلى في منزلي .

[والحمد لله رب العالمين]

انتهى ما وصل إليه علمنا والله يتولى هدايتنا جميعاً وهو خير الراشدين .

المؤثرات :

رغم ما بذلناه من جهود في تصحيح هذا الكتاب إلا أنه وقعت بعض أخطاء طفيفة تركناها وفطنة القارئ .

الفهرست

صفحة	
٥	تعريف بالمؤلف
٩	فائحة الكتاب
١٥	دولة الخلفاء الراشدين

أبو بكر الصديق

١٧	حاله في الجاهلية
	نسبه وأصله - شرفه ١٧ - صناعته - مكائنه عند قومه وسيرته فيهم ١٩
٢٠	إسلامه وصحبته
٢٣	خلافة أبي بكر
	كلام على الخلافة ٢٣ - بيعة أبي بكر ٢٨ - إنفاذه جيش أسامة
	ابن زيد ٣١
٣٤	الكلام على الردة
	بحث في الردة ٣٤ - قتال أهل الردة ٣٧ - تسيير الجيوش إلى
	أهل الردة ٤٠
٤١	حروب الأمراء مع أهل الردة وأخبارهم
	طليحة الاسدي ٤١ - تميم وسجاح ٤٢ - مسيلة وأهل اليمامة
	٤٣ - ردة أهل البحرين ٤٤ - عمان ومهرة ٤٧ - ردة اليمن ٤٨
	كندة وحضرموت ٤٩ - كلفة في حرب الردة ٥٢
٥٦	فتوحات أبي بكر
	تمهيد للفتح الإسلامي ٥٦ - فتح العراق ٦٠

صفحة

- ٦٥ ... فتوح الشام ...
تمهيد ٦٥ - استدراك ٦٧ - بحث البعوث إلى الشام ٧٠ - وصية
أبي بكر ليزيد ٧٣ - ابتداء الفتوح بالشام ٧٤ - اجتماع الأمراء
في اليرموك ووفود خالد بن الوليد عليهم ٧٧
- ٨١ ... مناقب أبي بكر وأخلاقه ومآثره ...
سياسته في الخلافة ٨٢ - سياسته في الرعية ٨٨ - أدبه وتأديبه
أدبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ٨٩ - أدبه مع نفسه -
تأديبه لنفسه ٩٠ - تأديبه للمسلمين ٩١ - أدبه مع المسلمين
وتواضعه لهم ٩٢ - زهده وورعه ٩٥ - جمعه القرآن ٩٨ -
قضاؤه ٩٩
- ١٠٠ ... كلام على القضاء في الإسلام ...
- ١١٠ ... أولياته ...
- ١١٠ ... كتبه وخطبه ...
كتابه إلى المرتدين وسيره إليهم قبل سير الأمراء لحريم ١ -
كتاب عهده لعمر - كتابه إلى عمرو بن العاص - كتابه إلى خالد ١١٣
كتابه إلى عبيده في شأن الدارين ١١٤ - كلام على الخطابة عند العرب
في الجاهلية والإسلام ١١٤ - كلام على الحكومة في الإسلام ١٢١
- ١٣١ ... مرض أبي بكر وعهده بالخلافة ووفاته ...
مرضه ١٣١ - استخلافه عمر ووصيته له ١٣٢ - وصيته لعمر ١٣٤
وفاته ١٣٦ - خطبة على في تأبين أبي بكر ١٣٧ - خطبة ابنته عائشة
في تأبينه ١٣٨ - ودخل عليه عمر فقال ١٣٩
- ١٣٩ ... ولده وعلمه وقضاته وكتابه ...
- ١٤١ ... صفة أبي بكر ...
الحالة الاجتماعية في عهده ١٤٢

صفحة

خالد بن الوليد

- ١٤٧ ... حاله في الجاهلية
نسبه وأصله - شرفه في قومه ومكانته عندهم ١٤٧
١٥١ ... حروب خالد وفتوحاته في عهد أبي بكر
حروبه في الردة (حربه مع طليحة) ١٥١ - حادثة مالك ابن نويرة
١٥٣ - حروبه مع مسيلمة ١٥٥
١٥٧ ... فتوح العراق وحروبه
وقعة الحفير ١٥٧ - كفة على الالخاب والرتب ١٥٨ - وقعة المثنى
وما بعدها ١٦٠ - أمراء خالد وقواده - جغرافية العراق ١٦٣ -
سفره إلى الشام وحروبه فيها ١٦٤ - عزله عن الإمارة ١٦٦
١٧١ ... حزم خالد وتوفيته في الحرب
كتبه ١٧٣ - كفة على الذمة أو أصل الامتيازات ١٧٤
١٧٧ ... وفاته وولده

عمر بن الخطاب

- ١٨٣ ... حاله في الجاهلية
نسبه وأصله - شرفه وصناعته ١٨٣
١٨٤ ... مكانته عند قومه وسيرته فيهم
١٨٥ ... إسلامه وصحبته
١٩٤ ... خلافته
١٩٧ ... أول أعماله في الخلافة
إجلاء أهل نجران ١٩٨ - حكم الاسلام في المسيحيين وحكم
الأردنيين في المسلمين ٢٠٣
٢١٤ ... فتوح الشام
فتح دمشق وانحياز هرقل إلى حمص ٣١٥ - بطلان خبر ٢٢٤ -

صفحة.

هل كانت دمشق قاعده للغسانيين ٢٢٦ - وقعة فحل ٢٣٢ - بيسان وطبرية -
مرج الروم ٢٣٤ - ذكر بعلبك وحصص وسواحل دمشق ٢٣٥ -
تحقيق خبر أجنادين واليرموك واختلاف المؤرخين فيها ٢٣٧ -
فلسطين وأجنادين ٢٤٢ - فتح بيت المقدس ٢٤٦ - لا وثنية في
الإسلام ٢٥٠ - فتح حماه واللاذقية وقنسرين ٢٥٥ - سير هرقل إلى
القسطنطينية ٢٥٦ - فتح حلب وأنطاكية وغيرها ٢٥٨ - مهاجمة
هرقل لسورية بعد استقرار ملك المسلمين ٢٦٠ - القواد الذين
حضرروا فتوح الشام ٢٦٨ - خلاصة جغرافية ونظرة اجتماعية ٢٦٩

فتح العراق وفارس ٢٨١
انتداب أبي عبيد ووقعة الجسر وغيرها ٢٨١ - موعظة ٢٨٣ -
عود إلى خبر أبي عبيد - موعظة أخرى ٢٨٤ - عود إلى خبر
أبي عبيد مرة أخرى ٢٨٦ - شجاعة النساء المسلمات ٢٩١ -
عود إلى خبر المثني ٢٩٣ - كلمة على دولة الفرس قبيل الفتح ٢٩٣ -
استعداد المثني ومسير سعد بن أبي وقاص إلى العراق ٢٩٥ -
الحكم النيابي في الإسلام ٢٩٧ - عود إلى خبر الشورى ٣٠١ -
وصية عمر لسعد ٣٠٢ - مسير سعد ٣٠٣ - كلمة في التاريخ
الإسلامي ورأفة عمر بالمحاربين ٣٠٦ - خبر القادسية وغيرها ٣٠٨

مسح سواد العراق وترتيب الجزية والخراج ٣١١
كيف يكون الاستعمار ٣١١

عود إلى خبر الفتح ٣١٧
غزوة فارس من البحرين ٣١٧

خبر الهرمزان وفتح الأهواز وتستر والسوس وغيرها ٣١٩
خبر جندى سابور ٣٢٧
الانسياج في بلاد فارس ٣٢٨ - خبر نهاوند ٣٢٩

فتح الجزيرة ٣٣٩

صفحة	
٣٤٢	فتح مصر وبرقة
٣٤٤	تبعية الجيوش وبراءة القواد
٣٥٣	علائق عمر مع الملوك
٣٥٥	أهم الأحداث في عصره
٣٥٨	آثاره في الخلافة
	كتابة التاريخ الهجرى - تدوين الدواوين وفرض العطاء ٣٥٨ -
	ترتيب العمال وتقسيم الولايات ٣٦٦ - ضرب النقود ٣٦٩ - وضع
	البريد ٣٧٠ - تمصير البصرة والكوفة ٣٧١ - التوسعة في
	المسجدين - جملة مآثر ٣٧٢
٣٧٣	أخلاقه ومناقبه
	سياسته وعدله ٣٧٣ - نظرة في بعض الأخبار المتعلقة بأهل
	الذمة ٣٧٤ - أخباره مع عماله ووصاياه لهم ٣٨٦
٣٩٧	كلمة في الحرية والطاعة
	حضه الناس على الكسب ٤٠٤ - نهيه عن التنطع وتحذيره من
	الابتداع ٤٠٦
٤٠٩	أدبه وتأدبه
	أدبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - أدبه مع نفسه - تأديبه
	لنفسه ٤٠٩ - تأديبه للمسلمين ٤١١ - أدبه مع المسلمين وتواضعه
	لهم ٤١٣ - اهتمامه بأمور الرعية (وعسسه بالليل) ٤١٧ -
	ورعه وزهده ٤٢٠ - كلمة في بيت المال ٤٢٣ - حسبه ٤٢٧ -
	قضاؤه ٤٢٩ - كتابه في القضاء إلى أبي موسى الأشعري ٤٣١
٤٣٢	فراسته وذكاؤه
	نبذ من فنون أقواله وأخباره ٤٣٧ - فنون شتى من أخباره ٤٣٩ -
	كلمة إجمالية في أخلاقه ٤٤٣ - أولياته ٤٤٥

صفحة

٤٤٦ كتيبه

كتابه إلى أبي عبيدة حين ولي الخلافة يوليه على جند الشام - إلى
أبي عبيدة يلومه على تركه حصار حلب ٤٤٧ - كتب أبي عبيدة
كتاباً إلى عمر ٤٤٨ - كتاب عمر إلى أبي عبيدة بالجابية - وكتب
إلى ابنه ينصحه ٤٤٩ - وكتب إلى أبي موسى الأشعري يوصيه ٣٥٠ -
وكتب إلى معاوية - كتابه لأهل إيلياء والقدس ، ٤٥١ - كتابه إلى
أهل لد - كتابه إلى سعد ٤٥٣ - كتاب أبو عبيدة ومعاذ بن جبل
ينصحان عمر بن الخطاب ورده عليهما ٤٥٤ - وجوب التناصح
في الإسلام ٤٥٥

٤٥٩ خطبه

خطابه لما شيع جيش سعد بن أبي وقاص ٤٦٦ خطابه بالجابية عند
أوبته من الشام إلى المدينة ٤٧٠

٤٧٠ مقتل عمر

وصيته لمن يخلفه ٤٧٨ - صفته

٤٧٩ ولده وعماله

٤٨٠ الحالة الاجتماعية في عهده

عمال عمر وقواده

٤٨٩ أبو عبيدة بن الجراح - حاله في الجاهلية

نسبه وأصله - سيرته في قومه ومكانته عندهم ٤٨٩

٤٩٠ إسلامه وصحبته

٤٩٣ حروبه وفتوحاته بالشام وكلمة في العمال

٤٩٧ أخلاقه وسيرته

٥٠٢ وفاته

وصيته - خطبة معاذ بعد وفاة أبي عبيدة ٥٠٣ - كلمة في القبور ٥٠٤

منحة

سعد بن أبي وقاص حاله في الجاهلية

- نسبه وأصله - مكانته عند قومه وصناعته ٥٠٨
إسلامه وصحبته ٥٠٨ - حروبه وفتوحاته ٥١٢ - دعوة المسلمين
إلى الأخاء والمساواة وما نشأ عنها ٥١٧ - وقائع القادسية ٥٢٢
فتح المدائن (عاصمة الأكسرة) ٥٣٠
تخطيط الكوفة وإمارته عليها ٥٣٦
نبذ من أخباره واعتزاله الفتنة... ٥٣٨
وفاته وصفته وولده ٥٤٦

عمرو بن العاص حاله في الجاهلية

- نسبه وأصله وصناعته ومكانته في قومه
إسلامه وصحبته ٥٤٩
حروبه وفتوحاته ٥٥٣
فتح مصر وبرقة ٥٥٣ - تحقيق الكلام في حريق مكتبة
الاسكندرية ٥٧١ - عود إلى خبر الفتح ٥٧٨
ولايته على مصر ٥٨٠
آثاره فيها وأخباره مع عمر وما كان من المكاتبات بينهما ٥٨١ -
كلمة ثمانية في أهل الذمة ٥٩٣ - عود لخبر عمرو ٥٩٨
دماؤه وأخباره مع عثمان ومعارية - وكلمة في الفتنة ٦٠١
نبذة من أقواله وأخباره... ٦٢٠
وفاته وولده ٦٢٩

عُثْمَانُ بْنُ عَفَانَ

- ٦٣٥ ... حاله في الجاهلية ... نسبه وأصله - صناعته ومكانته في قومه
- ٦٣٦ ... إسلامه وصحبه ...
- ٦٤٠ ... خلافته والشورى وكلمة في البيعة ... كلمة في الخلافة والدين - خبر الشورى وخلافة عثمان ٦٤٧ - هل هناك تحامل على علي ٦٥٥ - أول أعماله في خلافته ٦٥٩
- ٦٦١ ... فتوحاته ... فتح أرمينيا والقوقاز وجغرافيتهما - دخول معاوية إلى بلاد الروم وفتح قبرص ٦٧٣ - فتح بلاد المغرب وجغرافيتها ٦٧٤ - تنمة فتح بلاد فارس وخراسان وطبرستان وقتل يزيدجرد ٦٧٩ - مقتل يزيدجرد ٦٨٦
- ٦٨٧ ... أهم الأخبار والحوادث في عصر عثمان ... وسقوط خاتم النبي صلى الله عليه وسلم في بئر أريس
- ٦٨٧ ... الطعن على العمال ... خبر الوليد بن عقبة - ولاية سعيد بن العاص السكوفة ٦٩١
- ٦٩٤ ... حادثة أبي ذر - والقول بحرمة اكتناز المال ...
- ٦٩٧ ... آثاره في الخلافة ... جملة ما أثر له - أوليائه ٧٠٠
- ٧٠١ ... أخلاقه ومناقبه (سياسته وعدله) ...
- ٧٠٦ ... أدبه وتأديبه ... أدبه مع نفسه ومع الرسول - تأديبه لنفسه ٧٠٦ - تأديبه للمسلمين -

صفحة

تواضعه ٧٠٧ - حياؤه - شفقتة على الرعية ٧٠٨ - كرمه ٧٠٩ -
صلاحه وتقواه ٧١٠

كشبهه وخطبه ٧١١

أول خطبة له ٧١٧

اخبار الفتنة ومقتل عثمان ٧١٩

مبادئ الفتنة ٧١٩ - كلمة في هؤلاء الناقين على عثمان وفي أهمية تاريخ
الصحابة ٧٢٧ - ما أنكره الناس عليه واعتذاره عن بعض ما أنكر
عليه ٧٣٠ - ظهور الفتنة ٧٣٥ - إقبال من أقبل لحصار عثمان وقتله
٧٤٠ - وصية معاوية المهاجرين بعثمان ٧٤٦ - عودة إلى مانحن
بصدده ٧٤٧ - سبب امتناع عثمان عن اعتزال الخلافة - عودة إلى
مانحن بصدده مرة أخرى ٧٥٦

شذرات مما يتعلق بمقتل عثمان ٧٦٠

ما رثى به عثمان ٧٧٤

حيان بن ثابت - الوليد بن عقبة بن أبي جعيط - الحباب بن زيد
المجاشعي - خطبة ابنه عائشة بعد قتله ٧٧٥ - خطبة زوجته نائلة
بذت الغرامضة ٧٧٧

ما قيل في سبب الفتنة وقتل عثمان والاعتذار عنه ٧٨٠

ما قاله بعض الصحابة وأهل السنة - ما قاله المعتزلة ٧٨٨ - ما قاله ابن
خلدون في سبب القيام على عثمان ٧٩١ - رأى لأحد العلماء في الفتنة -
ما جرى بين الصحابة ٧٩٢

العرب قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ٧٩٣

العرب في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد بعثته ٧٩٤

صفة عثمان وولده وعماله ٨٠٠

الحالة الاجتماعية في عهده ٨٠٢

صفحة

عبد الله بن عامر

نسبه ومولده ونشأته

ولايته على البصرة وفتوحاته	٨١٠
ولايته الثانية على البصرة	٨١٤
شئ من أخباره في البصرة	٨١٥
ماذا كان منه في الفتنة	٨١٨
مآثره ومناقبه	٨٢٠
وفاته	٨٢٥

حبيب بن مسلمة الفهري

نسبه ومولده ونشأته

فتوحاته	٨٢٨
أخباره في الفتنة	٨٣١
شئ من سيرته	٨٣٦
وفوده على عمر وولايته	٨٣٦
وفاته وولده	٨٣٨
الفهرست	٨٣٩

